
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01872 4918
AC
106
.M33
1926
v.1-









﴿ الاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي ﴾

البينات

في

الدين والاجتماع والادب والتاريخ

للاستاذ

الشيخ عبد القادر «المغربي»

الجزء الاول

القاهرة

١٣٤٤

المطبعة السلفية - ومكتبتها

لصاحبيهما : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

٥٨

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

اذا كان الشارع صلى الله عليه وسلم انما بُعِثَ ليتمّم مكارم الأخلاق فلاشك في أن صاحب «البيّنات» حفظه الله هو في مقدمة من انطبع بطابع الدعوة المحمدية. تكلّم الاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي كثيراً في الأخلاق. وله في هذا المقام الكلمات السوائر. والمقالات الدوامغ. ولكن أحسن من كل ماكتبه في الأخلاق أخلاقُهُ. فهو المُصلح الذى يُغني عن كلامه بكماله. ويجزي عن أقواله بأفعاله. ولعل السهولة النادرة التي يجدها في هذا الموضوع، والسماحة التي نأنسها في قياده له الى هذا الحد انما هما من كونه يُملي مافي نفسه. وينسخ الى القرّاء عن لوح روحه. فكأنه إنما ينقل الى الناس صورته المعنوية. وهي لعمري من أبدع الصور. ولو كان لجميع الناس بالاستاذ المغربي عرفة هذا العاجز لاستغنَوْا عن بيانه بعيانه. ولا تّعظوا بعمله عن لسانه. ولكن مثل الاستاذ من يجب عليه أن يكتب ويقيّد. ويترك ويخلد. حتى يستفيد منه القاصي والداني. ويستفيض من بحره الحاضر والآتي. وانّ مثله لممن تتداول تآليفه البطون التي لم توجد بعد الا في الالواح والاقلام. والطبقات التي لاتزال مضامين في أصلاب الأيام. واذا كان بعض المؤلفين يذهب رونق كلامهم بذهاب عصرهم. فالمغربي ممن يصقل أقواله مرور الزمن. ويزيدها كسحر العشي في النفاسة والثمن. لأن القارىء يجد كل يوم من

الايام المقبلة تصداقها . ويتحقق عند كل خطوة من خطوات الاجتماع تنزّلها على الوقائع وانطباقها . فلا جرم أن صاحب « البينات » سيبقى على الدهر من أفذاذ المصلحين الذين كلما تعاقبت الاحقاب تذكر الناس باكر كلامهم . وحمدوا عند صبح الخطوب سُرى أقلامهم . وما وجدتُ في هذا الميدان باعاً أطول من باعه . ولا قلماً أجرى على القرطاس من يراعه . وكان من عادتي إذا رأيته همّ بالكتابة وأغلق عليه ولم ينشرح صدره لشيء يُرضيه أقول له : يا أخي عليك بالاجتماعيات الدينيات فهناك أنت أهدى ما تكون سبيلا . وأسرع خاطراً وأقوم قيلا . نعم لقد آتى الله المغربيّ فى هـذا الباب حكماً سديداً . ونقلاً متينا . وفتحاً مُبينا . وذوقا متناهي الرقّة . واطّلاعاً متراخي الشقّة . ونظراً كثير الاصابة . وقلماً سريع الإجابة . فلا يستمطر الظمآنُ عارضه في موضوع اجتماعيّ دينيٍّ الا انهال عن مثل أفواه السحائب . وتدفّقت عليه المعاني أرسالاً من كل جانب . وكأن الالفاظ واقفة للمعانى بالمرصاد . لا تكاد هـذه تطلّ من شرفات الفكر حتى تتناولها تلك من مجاري النطق عناقا . ولا تتجلى عقيلة من بنات خواطره الا وجدت كفؤاً من فحول ألفاظه مهما غلتْ صداقاً . فبينا أنت فى بهو من الخواطر العاليـة . إذا أنت في روض من الفرائد الغالية . فما تنفك وأنت تقرأ فصوله بين نكات لغوية . ودقائق أدبية . تجمع لك جمال المباني الى كمال المعاني . وتريك أدب جار الله الزمخشرى في مواعظ الغزالى أو محاضرات الراغب الاصفهانى . وماذا عساني أن أصف من غايته في هذا الشأن . والجواد عينه فُراره . والبيّنات هي لعمري أولى بأن تصف نفسها بنفسها : فانك لو أردت أن تحللها لم تستطع أن تضع كلمة محل كلمة مهما بالغت في انتقادها . فهي آيات بينات . قصار وصفها مجرد إيرادها . وقد قال أحد أدباء الفرنسيس : الجمال ليس له الا أن يظهر حتى يأخذ بالقلوب

الايام المقبلة تصداقها · ويتحقق عند كل خطوة من خطوات الاجتماع تنزّلها
على الوقائع وانطباقها . فلا جرم أن صاحب « البينات » سيبقى على الدهر من
أفذاذ المصلحين الذين كلما تعاقبت الاحقاب تذكر الناس باكر كلامهم . وحمدوا
عند صبح الخطوب سُرى أقلامهم . وما وجدتُ في هذا الميدان باعاً أطول من
باعه . ولا قلماً أجرى على القرطاس من يراعه . وكان من عادتي إذا رأيته همّ بالكتابة
وأغلق عليه ولم ينشرح صدره لشيء يُرضيه أقول له : يا أخي عليك بالاجتماعيات
الدينيات فهناك أنت أهدى ما تكون سبيلا . وأسرع خاطراً وأقوم قيلا . نعم
لقد آتى الله المغربيَّ في هـذا الباب حكماً سديداً . ونقلاً متينا . وفتحاً مُبينا .
وذوقا متناهي الرقّة . واطّلاعاً متراخي الشقّة . ونظراً كثير الاصابة . وقلماً سريع
الإجابة . فلا يستمطر الظمآنُ عارضه في موضوع اجتماعيّ دينيٍّ الا انهال عن مثل
أفواه السحائب . وتدفّقت عليه المعاني أرسالاً من كل جانب . وكأن الالفاظ
واقفة للمعاني بالمرصاد . لا تكاد هـذه تطلّ من شرفات الفكر حتى تتناولها تلك
من مجاري النطق عناقا . ولا تتجلى عقيلة من بنات خواطره الا وجدت كفؤاً من
فحول ألفاظه مهما غلتْ صداقاً . فبينا أنت في بهو من الخواطر العاليـة .
إذا أنت في روض من الفرائد الغالية . فما تنفك وأنت تقرأ فصوله بين نكات
لغوية . ودقائق أدبية . تجمع لك جمال المباني الى كمال المعاني . وتريك أدب جار
الله الزمخشرى في مواعظ الغزالى أو محاضرات الراغب الاصفهانى . وماذا عساني
أن أصف من غايته في هذا الشأن . والجواد عينه فُراره . والبيّنات هي لعمري أولى
بأن تصف نفسها بنفسها : فانك لو أردت أن تحللها لم تستطع أن تضع كلمة محل
كلمة مهما بالغت في انتقادها . فهي آيات بينات . فصار وصفها مجرد إيرادها .
وقد قال أحد أدباء الفرنسيس : الجمال ليس له الا أن يظهر حتى يأخذ بالقلوب

في جملة « ترك العمل بالدين » فالسيد جمال الدين والشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا والشيخ عبد القادر المغربي وهذه الفئة المصلحة النازعة الى طريقة السلف مرادهم بترك العمل بالدين هو ترك السذاجة الاولى التي كان عليها الصدر الاول . وجهل سماحة الاسلام . وسعة مذاهبه في تطلب سعادة البشر ثم التمسك باقوال المشايخ من المتأخرين الذين بعضهم جامدون . وبعضهم موسوسون . وبعضهم أعداء لكل محدث مهما كان ضرورياً للحياة بحجة أنه بدعة . حتى وصل الاسلام بجهلهم وضيق دائرة مداركهم الى ماوصل اليه من الهويّ . حال كون مقصود الفئة الاخرى من « ترك العمل بالدين » هو ترك التقاليد التي جمدوا هم عليها والآراء التي يظنونها هي وحدها الكافلة للرقيّ والسعادة . وهو العدول الى المحدثات التي يرونها هم من بنيّات الطريق . ويعتقدونها خرقا في الدين . فالشيخ المغربي أبدى في هذا الباب جرأة كبيرة . واستدل بانحطاط الاسلام المحسوس الذي لامجال للمكابرة فيه على كون المسلمين بتركهم حقائق الدين ولبابه وعدولهم الى تقاليد مشايخهم وما الصق بتلك التقاليد من الخرافات أصبحوا كأنهم غير مسلمين . وجاء على أثر هذه الجملة الجريئة ببرهان لامناص من الاخبات له وهو : انه إن كان هذا هو الاسلام بجميع معناه فلماذا أصاب أبناءه هذا الخسف كله . وانتزعت منهم ديارهم . وتحكم في رقابهم الاجنبي . وغلب على دنياهم . وأحياناً على دينهم . وصاروا مسودين بعد ان كانوا سائدين ؟ فذلك باجمعه مخالف لما وعدهم به الله في محكم الذكر مما يستحيل ان يقع فيه خلف كقوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الارض » الآية . « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر » الآية . « ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الادبار » الآية . « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » . الى غير ذلك من الآيِ الصراح بأن الدولة للاسلام . وان المؤمنين لايهنون ولا يحزنون . فاذا كان المسلمون قد أصابهم كل هذا الفشل مع صراحة هذه المواعيد فيريد الاستاذ المغربي ان يقول

أمرها بالعكس فيما يمسّ الفضائل والآداب وعفّة الانفس وطهارة الاخلاق .
لا ينبغي لنا أن نتهوّر فيما تهوَّر بعض شبّان الاتراك الذين زعموا أن شرب الخمور ولعب القمار هما من أسباب الرقيّ وشروط المدنية فلا غنى عنهما [1] لامة فلم يمض على ذلك سنة واحدة حتى رأوا أميركا أحدث أمة متمدينة تمنع استعمال المسكرات منعاً لا يقل عما هو في الشرع الاسلامي . وأمماً أخرى في أوروبا كادت تمنعه لو لا بعض الاسباب الاقتصادية . فظهر لهم فساد رأيهم من كون كل ما ينحوه الاوربى صوابا . ولا ينبغي أن نعتقد من التمدن في شيء اباحة الزّفن للنساء مع الرجال . وترك البنات يتمتعن بما شئن من اللذات الشهوانية بدون مانع ولا وازع . زعما بأنه لما كانت أوربة قد فعلت ذلك فلا بد أن يكون هو الحكمة بعينها واصالة الرأي بفصّها . ولا أن نقول ما قاله أحد كتاب الاتراك التورانيين : من أنه لا رقي لهيئتنا الاجتماعية الا متى صارت الفتاة المسلمة تخاصر من شاءت من الشبان تركياً كان أو أوربياً ومسلماً كان أو مسيحياً أو يهودياً . أو ما ذهب اليه عبد الله جودت المتفلسف التركي : من أنه لا بدّ لتجديد شباب الامة التركية من جلب شبان من الالمان والطليان وتزويجهم بالتركيات بدون نظر الى اختلاف الدين . ومثله ما نقله الاستاذ السيد مصطفى صادق الرافعي في كتابه البديع « السحاب الاحمر » عن بعض شبان المصريين كلا لم يبق هنا محل للكلام على مرونة الشرع الاسلامي الذي مهما كان مرنا فهو أشدُّ الأنظمة - وينبغي أن يبقى أشدّ الانظمة - على الفجور والبغاء ومنع التهتك والاستهتار وتقييد الحرية بقيود الآداب ، إذ ليس فيما يسمّيه بعض المتفرنجين من الشرقيين مدنية وضرورة اجتماعية شيء من التمدّن ولا من الضرورة . وانما هي مدنية شهوات ، ومعافسة أبدان ، يدعو اليها باسم المدنية

---

(١) قرأت ذلك صريحا في « اجتماعيات عموميه مجموعه سي »

رجال كما هم الاوربيون رجال .

ولكن هناك فكرة سامية لابد ان تكون هي الرائسة المدبّرة لسياسة الامة .

وهي أن الدين لايمكن ان يحمل أهله لاعلى الجهل ولا على الذل ولا على المحال . وان الله ورسوله لا يريدان بالناس الا الخير . وان اعتبار كل جديد بدعة ولو كان فيه المصلحة أو كانت تقضى به الضرورة هو سوء فهم لحقيقة الدين ، والقواعد الشرع الكلية . وان العلماء النيرين قد أفتوا بالعمل بالمصالح المرسلة بالمذاهب الاربعة . وان أحد كبار السادة الصوفية قال : « أينما تكون المصلحة فثمّ دين الله »

اذاً فالاسلام مرن سمْح قابل لكل نوع من أنواع الحضارة العصرية الا الفسق والفجور واللعب والسكروسائر الرذائل التى يعترف المتمدينون الأوربيون بأنهم وان توسعوا فيها ببلادهم فهى رذائل وقاذورات . وليست من المصالح فضلا عن أن تكون من الضرورات .

أما قول اللورد (كرومر) بأنه لا يمكن اصلاح الاسلام ، وان الاسلام اذا أصلح فلا يعود هو الاسلام بل ديناً آخر ، فهو قول سياسي خبيث خبير متعمق فى أسرار الشرق ، عارف بما يصيب بلاده من أثر نهوض الاسلام الذي لايحول دون نهضته الا مرض التقليد . ولم يكن اللورد كرومر وحده من أصحاب هذا الزعم بل قرأنا لكثير من أفاعي الاستعمار سواء من الفرنسيس أو من الهولانديين أو من غيرهم كلاما بهذا المعنى أخفى بعضهم فيه الغرض من ذهابه الى عدم قابلية الاسلام للاصلاح ، وأوهم انه رأي اجتهادي من عنده . وصرح بعضهم فيه بمراده جراهية بدون تورية ولا مواراة . وهو ان نقل الاسلام عن الجمود الذي ابتلي به هو الخطر الأعظم على الاستعمار الاوربيّ . وقد نقلنا في حواشينا على كتاب (ستودارد) الامريكي ما نصح به ذلك المستشرق الهولاندي ـ الذي أقام بمكة سنين متظاهراً بالاسلام ـ قومه من العدول عن فكرة القوانين الشرعية . وهي

ان المسلمين لم يقوموا بكل شروط الاسلام : ولا أعطوه حقّه حتى يفوزوا بما وعدهم به الله من الفتح والنصر . أولا ترى أنهم لما كانوا قائمين به حق القيام زوى الله لهم الارض من مشرقها الى مغربها . وصيّر ملوكها لهم خولاً ثم لم يعد أمرهم الى الوراء الا عند ما انحرفوا عن جادة الدين . أفلم يقل الله : ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . ولينصرنّ الله من ينصره . الى غير ذلك . وهنا أيضاً يجاوب الاشياخ الجامدون بأنه لانزاع في كون مخالفة الاوامر الدينية قد وقعت . وانه فشا الفساد . وعمّ الظلم . وغاضت الفضائل . وفاضت الموبقات . فاراد الله تأديب المسلمين وتمحيصهم بهذه المصائب حتى يتوبوا ويستقيموا ولكن الذنب في هذا الفساد لم يكن على العلماء ولا على أسلوب التعليم بل على الامراء الذين ركبوا رؤوسهم واسترسلوا الى شهواتهم . وخبطوا بعصا عسفهم من نصحهم . وهذا أيضاً مخالف لرأي الفئة المجدّدة التى تذهب الى انه لو كان العلماء علماء قائمين بحقّ الامانة التى استودعهم الله اياها . وافين بالميثاق الذي أخذه الله عليهم ، لكانوا أصلحوا الملوك والرعية . وكان الامراء أجبن من أن يستبدّوا بالامة . وكانت الامة أرقى من أن تخضع لجاهل أو ظالم . لا بل لو أحفينا في البحث لوجدنا بداية الفساد فى المُقارّة على الظلم والاغضاء على الرذيلة . والافتاء لكل أمير بما تهواه نفسه ـ هي من أنفس العلماء أو الذين اتسموا بسمة العلماء .

وعلى كل حال فالمصلحون المجدّدون لا يقتصرون في إنهاض الاسلام على إحياء الفضائل . وبث الآداب . وقمع الاهواء . بل يذهبون الى وجوب اصلاح التعليم الديني واطلاق العقول من عقال التقليد . وانهم يرون من الواجب على المسلمين ان يسابقوا غيرهم من الامم التى شحطتهم في التقدم . وبذّتهم في القوة . الى كل الاسباب والذرائع التي صاروا بها أقوياء . ويذهبون الى ان ذلك ممكن ميسور لا يلزمه الا توفّر الهمة . ومضاء العزيمة . والاقتداء بالامم الحية . فالمسلمون

وإنما أريد أن أشير الى بعض المظانّ التي استولى بها الاستاذ على الامد الاقعس وأنبه على بعض الاغراض التي فوّق اليها سهم صوابه فقرطس ولاسيما وأن المواضيع التي جال فيها هي اليوم في إبان سوْرتها . وان الازمات الاجتماعية التي تحرّج فيها موقف الدين هى التي كان قد استشف ازوف ثورتها .

فالموضوع الذي نبه صاحب هذا الكتاب الى خطره منذ خمس عشر سنة هو الذي يقوم له العالم الاسلامى اليوم ويقعد . وهو الذي جعل العلامة (ستودارد) الاميركي وغيره من الكتاب والمؤرخين الاجتماعيين يطلقون على الاسلام الحاضر اسم « العالم الاسلامي الجديد » . ومما لامرية فيه أن أول واضع لأساس هذا البحث هو السيد جمال الدين رحمه الله ؛ وان أول من بدأ برفع البناء عن الأساس هو استاذنا الامام الشيخ محمد عبده برد الله ثراه . ولكن مما لامرية فيه أيضاً أن الاستاذ صاحب المنار والاستاذ الشيخ عبد القادر المغربى هما فى طليعة كوكبة الاصلاح الديني واولئك الرهط الذين توخوا إكمال بناء الامامين الحكيمين . الاجتماعيين العظيمين . والذين هالهم أن تفضى هذه الازمة الاجتماعية الدينية بين الاوضاع العصرية والجمود على القديم بحجة أنه من مقتضى الدين — إلى إنفاض الاكثرين من الناشئة وتركهم الاسلام من أصله . وقد لخص الاستاذ المغربى هذا المطلب فى الجملة الآتية :

« اهمال المسلمين للاصلاح إن عذروا فيه فيما مضى من الزمن فانهم لايعذرون فيه اليوم وقد أصبحت القوتان المادية والمعنوية بيد الشعوب الاوروبية . وصار لهم بهاتين القوتين حق الاشراف أو الوصاية على الحالة الاجتماعية العامة فى العالم الانساني فمهما حكموا بان هذه الشريعة أو ذاك التعليم ينافى المدنية أو لاينطبق على مصالح البشر كان قولهم المسموع ورأيهم المتبع . فاذا لم نثبت بأن ديننا يواخي المدنية . ويلائم المصالح البشرية . كنا مسيئين اليه والى أنفسنا . فتتلاشى قوميتنا .

انتداب لجنة من علماء الحقوق لتأليف مجموعة قوانين أشبه بمجلة الاحكام العدلية في تركيا يكون مأخذها من الشرع الاسلامي : ان لم يوجد المطلوب في هذا المذهب أخذ من ذلك المذهب . وان لم يرد فيه نص صريح من الكتاب والسنة رجع فيه الى قول لاحد المجتهدين أو رجع الى القواعد الكليه . من قبيل إذا ضاق الأمر اتسع . والضرورات تبيح المحظورات . ولا ينكر تبدل الاحكام بتبدُّل الأزمان . وما ماثل ذلك . قال المستشرق الهولاندي المذكور : إن الذي يجب على الدول الاستعمارية ليس أن تسهل على المسلمين تطبيق دينهم على الاوضاع العصرية ، وتلائم بين شرعهم وبين المدنية الاوربية لأن هذا الاسلوب يزيدهم استمساكا بشريعتهم . ويعليها في نظرهم على حين يلزم لنا اسقاطها . وانما الذي يجب على الحكومات الاوربية التي استولت على بلاد الاسلام أن تجتهد في اظهار التناقض بين الاسلام والمدنية العصرية واقناع ناشئة المسلمين بأنهما ضدان لا يجتمعان . فلا بدّ من رفع أحدهما . ولما كانت المدنية الحاضرة هي نظام كل شيء اليوم ولا مندوحة عنها لمن يريد أن يعيش ، كان من البديهي أن الذي سيرتفع من النقيضين هو الاسلام . هذا المستشرق الهولاندي واللورد كرومر وغيرهما من دُهاة الاستعمار يريدون اظهار عجز الاسلام عن امتصاص الاحكام العصرية . وإثبات كونه نظاماً قديما قد بلي واستشنّ . ولم يعد صالحا للحياة . على أمل أن الفوج الجديد من المسلمين الذين لا غنى لهم عن الحياة ينبذون الاسلام ظهرياً . وبنبذه تكون أوربا قد تخلصت من أعظم خطر يحيق بها . وهو الحكم الشرعي الذي لا يجيز للمسلم أن يخضع لامير لم يكن على دينه . ولو لا هذه المادة وحدها لكان الأوربيون يقيمون المسلمين الذين في مستعمراتهم على الشريعة المحمدية عن طيبة نفس ، ويلتمسون بذلك الزلفى اليهم . ولكنهم يوجسون دائما خيفة ذلك الحكم الهائل الذي يوجب على المسلم أن لا يطيع غير المسلم الا ريثما يتيسر له نقض طاعته . وما هناك من أحكام الجهاد ، ومن وجوب

العصرية بغيان الاباحة واعداء النظام

ولقد أورد الاستاذ المغربي فهرستا لما يراه واجباً من الاصلاح الديني تضمن ثلاث عشرة قاعدةً : كل منها جدير بأن تؤلف فيه الكتب . وتدسم له الاجلاد .

ومن العجيب أنه اشار الى وجوب عقد المؤتمر الاسلامي للنظر في حل المشكلات الدينية فلم تمض بضع عشرة سنة حتى وقعت أكبر مشكلة دينية وهي مسألة الخلافة واضطر المسلمون الى التهيؤ لعقد مؤتمر عام يحلها . وسترى أنهم سوف يضطرون الى تجديد عقد هذا المؤتمر مراراً . وأنهم سيجعلون لمؤتمر الخلافة لجنة تنفيذية دائمة لدوام السيطرة على انفاذ قراراته . ولمقاصد اخرى تتعلق بحفظ كيان الاسلام .

ومما راقني جداً من آيات « البينات » التنظير الذى بين مصر ومراكش وقوله انه مهما كان من الفرق بين هذين القطرين من جهة الرقيّ فان تماثلهما على أتمه في دراسة العلوم الاسلامية ، وطريقة فهمها وتحصيلها .

وقد أخطر ذلك على بالي قصة لا بأس من إيرادها هنا تعزيزاً لرأى الاستاذ : منذ نحو خمس وثلاثين سنة قدم لاداء فريضة الحج أحد كبار علماء المغرب الاقصى المدعو بالشيخ (ابراهيم التادلي) فذكرتْ بعض الجرائد البيروتية يومئذٍ أنه من أفراد الافق المغربي لا بل ممن يندر نظيره بين المشرق والمغرب . وبعد ان قفل من الحجاز زار المسجد الاقصى وقرأ فيه درسا ثم قدم الى بيروت . وكان استاذنا الامام المرحوم الشيخ محمد عبده لا يزال فيها على اثر نفيه بسبب الحادثة العرابية فلما بلغه ورود هذا العالم المغربي ذهب للسلام عليه . وكنت معه في هذه الزيارة واتذكر انه كان معنا صديقي المبرور الاستاذ الشرتوني صاحب أقرب الموارد. فدار بين الشيخين أحاديث طويلة لم أفهم منها شيئا . لحداثة سني . وقـلة ألفتي يومئذ للهجة المغربية ولكن استاذنا الامام أخبرنا بعـد الانصراف بأن هذا

و ينهار بناء عزنا »

أما كيفية هـذا الاثبات وصورة الوصول الى تفادي الخطر المحيق بالاسلام لسبب الجمود فقد أوضحهما الاستاذ المغربى بعبارة نقلها عن السيد جمال الدين الذي كان المفرع الاول لهذه النهضة فقال :

« وليس المراد بإصلاح تعاليمنا أن نجدّد في الدين تعليما أو نحدث فيـه حدثاً لم يأت به نبينا (ص) أو نحذف منه تعليما أو حكما أتى به ونص عليـه . وانما المراد أن نرجع في بساطة عقائدنا وسهولة تعاليمنا الى ما كان عليه الحال فى الصدر الاول . فنتوسع ماشئنا في أمور الدنيا ومقوّمات عمرانها .

أما أمور الدين فنقف فيها عنـد الحدود والنصوص وقفة عواجز (١) ثم نسعى الى تعلمه وتفهمه من أقرب الطرق وأسهلها . فلا يقضي أحدنا عمره فى تعليم الدين تعلماً يقصيناعنه . ويحول بيننا وبين العمل به »

وقد أشار المغربى الى كون الرجوع الى عقيدة السلف وهدى السلف ليس فيه شيء من الثورة على الدين بل بالعكس هو من باب الرجوع الى الاصل . ومع هذا فان الجامدين من أشياخنا يكابرون ويمارون ويذهبون الى كون الدين على ماهو عليه الآن لايحتاج الى شيء ، وان التعليم على أسلوبه الحاضر لاغبار عليه . وانه اذا كان المسلمون قد تقهقروا وذلّوا وأخذت عليهم الطرق فليس العلة في هـذا الهبوط تعليمهم الدينى . وانما هو فسـاد الحـكام وانحطاط الاخلاق بما تركناه من العمل بديننا . قال المغربي وهو رجوع الى نظرية جمـال الدين نفسـها التي معناها أن المسلمين قـد تركوا لبـاب الدين . وتعلقوا بقشوره . ولـكنني أقول ان مراد الجامـدين يخالف مراد جمـال الدين والمغربي

---

(١) جمع عاجز وهو من النوادر كفارس وفوارس لان فواعل هو جمع فاعل لافاعل كما لا يخفى

معول الاوربيين فى القرون الوسطى حذو القذّة بالقذة فيكاننا نحن الآن حيث كانوا هم منذ خمسة قرون أو أزيد .

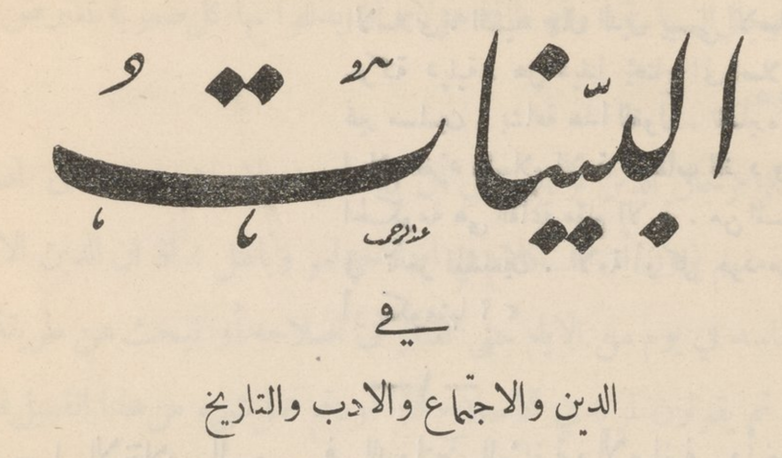
ومن أعذب ماقاله الاستاذ المغربى فى فصله على « وسائل نشر الاسلام » الجملة الاتية :

« لم تبق لغة من لغات العالم الا وقد ترجم اليها الكتاب المقدس حتى لغة البرابرة ونحن الى الآن ندع كلام ربنا لعبةً فى أيدي مترجمي الافرنج . يترجمون حسبما يفهمون . ثم يحكمون عليه بما يشتهون . قال العلامة الشهير جونسون فى كتابه « اعلاء الدين المسيحي » : « ان من العار أن لاتوجد فى مكتبة كل أديب منا ترجمة صحيحة للقرآن الشريف » ولعمري ان هذا العار لاحق بنا . وواقعة تبعته على أعناقنا أكثر من كل أحد . أننتظر من الامم أن يتعلموا اللغة العربية ثم يقبلوا على فهم الكتاب والسنة ويتعرفوا منها صحة الدين فيؤمنوا به ويمارسوا شعائره ؟ انما ينتظر هذا من الامم بعد أن يتحققوا أن نجاتهم متوقفة على الدين الاسلامي . وهذا التحقق لايتأتى مالم نترجم خلاصة أصول الدين وقواعده العامة الى اللغات المختلفة »

قلتُ ان لعلماء الهند اليد البيضاء في سد الكثير من هذا العوز . فمنهم أميرعلي الذي ألف باللغة الانكليزية كتباً قيمة عرف بها حقيقة الاسلام كما ينبغي ومنهم مولوي محمد على رئيس الفرقة الاحمدية فى لاهور — وهي غير فرقة قاديان التى خالفت السنة والجماعة — فقد ألف تفسيراً بديعاً للقرآن بالانكليزية بعد أن تمّت على يد هذه الفرقة أصح ترجمة للقرآن الى تلك اللغة . ومنهم مولوى صدر الدين بانى الجامع الجديد في برلين ومنشيء مجلة (Moslemische Revue) التي تحرّر بالالمانية وفيها المقالات الشائقة الرائقة فى الدين والاجتماع . وقد شرح الله على يده صدور عدد من ادباء الالمان وأديباتهم للاسلام فى هاتين السنتين

الرجل عالم من كبار العلماء على نمط علماء الازهر. فكأن الازهر وجامع القرويين شيء واحد. وانما أعجبه منه كلمة لا أزال أتذكرها. وذلك أن الشيخ محمدا سأل (التادلي) من جملة ماسأله عن حالة العلم في المغرب هل يوجد اليوم هناك من اشتهر بالتأليف ؟ فأجابه التادلي: ليس العلم بكثرة التأليف. ولكن بالمدارسة والمثافنة. ومع هذا فيوجد مؤلفون في الايام الاخيرة. فاعجب قوله هذا الشيخ محمداً. وهو ان حياة العلم انما هى بالمدارسة. ثم قيل ان الشيخ التادلي يريدان يلقى درساً بعد صلاة الجمعة فى الجامع العمري الكبير. فاشرأبت الاعناق. وفكّر الاستاذ الامام انه لما كان (التادلي) من أكابر علماء المغرب مارّاً بالمشرق فلا بد من ان يتكلم في موضوع عال من مواضيع الاجتماع كاتحاد الامة أو وجوب العمل بعزائم الشريعة أو ما أشبه ذلك. فكان موضوع درس التادلي الذي قضى فيه أكثر من ساعتين هو البسملة وما فيها من العلوم والفنون. ومرجع ذلك كله الى الباء. وانحصار العلم في الباء. مما يعرفه كل من نال شهادة العالمية من الازهر. فلما خرجنا من الجامع قال لي الاستاذ رحمه الله. انظر الى حالة الاسلام وحالة علمائه الذين ينبغي أن يوقظوه: يأتي أحد فحول علماء المغرب الى المشرق وهو يعلم انحطاط الاسلام، وانهيار جوانبه. فبدلاً من ان يحدّث الناس بامر اجتماعي يعود بجمع شملهم. أو ايقاظهم من غفلتهم يكون منه أن يحدثهم بالعلوم المنحصرة في الباء..

والحقيقة أن الذي ينقمه النشء الجديد والمتعلمون على النمط العصري من جمود علماء الدين الاسلامي، هو انه بينما يكون عالم أوروبى اخترع آلة عظيمة الفائدة للمجتمع البشري — كالآلة التي اخترعها بعض الالمان فى هذه الايام ينظر بها ما تحت الارض كأنه فوق الارض — بتبحرّه فى القوى الطبيعية. يضيع العالم المسلم أطول من الوقت الذي قضاه الاوربى فى اختراعه. وذلك فى حفظ تعليلات لاطائل تحتها. وتدقيقات ضاق العصر الحاضر عن سماعها وهى من الدروس التي كان عليها

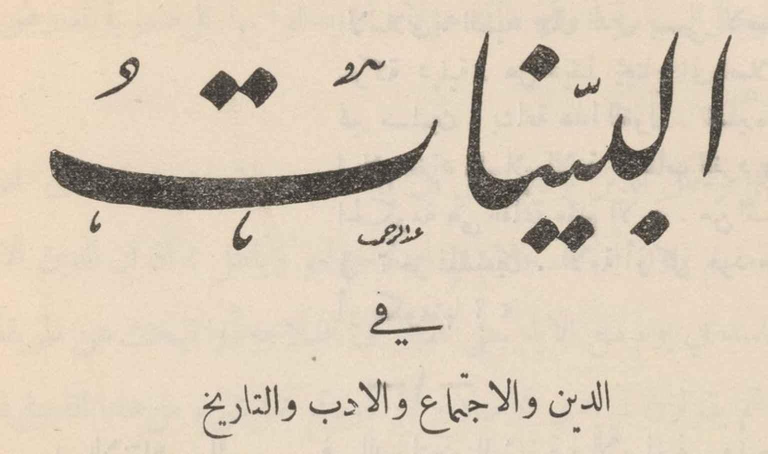


في

الدين والاجتماع والادب والتاريخ

بقلم

الشيخ عبد القادر «المغربي»



البينات

في

الدين والاجتماع والادب والتاريخ

بقلم

الشيخ عبد القادر المغربي

الاصلاح الاسلامي [1]

« الانقلابات في الحكومات الاسلامية . الاصلاح الديني ليس أثرا طبيعيا لها . تحديد معنى الاصلاح الاسلامي . السيد جمال الدين يسمى الاصلاح الاسلامي حركة دينية . هل ديننا يحتاج الى اصلاح ؟ المسلمون غير مسلمين . بشاعة هذا القول . تفسيره . الفرق بين اسلام الفرد واسلام الامة . عقاب الفرد وعقاب الامة . الحكومة هى القائمة مقام الامة . من المسئول والمعاقب في تأخر المسلمين . الامة أو كل فرد من أفرادها . أو حكومتها ؟ »

— ١ —

حصل الانقلاب العجيب في الدولتين العثمانية والايرانية . وأخذت تتهيأ لحدوث مثله كل من الحكومتين الافغانية والمراكشية . فالانقلاب فيهما واقع ماله من دافع . ان لم يكن الآن فبعد الآن

وان حدوث هذه الانقلابات في البلاد الاسلامية مؤذن بتنظيم امور حكوماتها الادارية والسياسية . وتحسين حالة شعوبها الادبية والاجتماعية . وترقية شئونها الصناعية والاقتصادية . اذ أن من طبيعة الانقلابات الدستورية ان يحدث على أثرها ماذكرنا من التنظيم والتحسين والترقية . أما الاصلاح الديني في تلك البلاد فليس أثرا طبيعيا لامثال هذه الانقلابات . وانما هو أثر لارادة رجال الدين : فان أرادوه وسعوا اليه سعيه حصل الاصلاح فصانوا به دينهم وقوميتهم وعرف الله والتاريخ لهم سعيهم ومنزلتهم . وان لم يريدوه وجمدوا استغنى العمران الحديث عنهم وربما عد نفسه مستغنيا عن تعاليمهم الدينية أيضا فتكون تبعة ذلك عليهم ، وعاره لاحقاً بهم

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ ﻫ و ١٩٠٩ م

نعم ان لم يُرد رجال الدين العناية بامر الاصلاح الاسلامى فلا يحسبوا انهم بذلك يعوّقون حركة الانقلاب العام في أمم الاسلام . أو يعوّقون نهوض هذه الامم وعروجها في معارج الحضارة والعمران . كلا ، اذ أن القوة المادية أصبحت اليوم بيد رجال السياسة . وفى طاقة هؤلاء ان يذللوا بها كل صعوبة تعترض سيرهم مهما كان نوعها

ولكن رجال الدين يرتابون في أن يكون الاسلام محتاجا الى اصلاح . وكثيرون منهم يرون أن الكلام في اصلاحه لغو وباطل : اذ ان الدين الاسلامي لم يك بالفاسد في يوم من الايام حتى نفكر فى اصلاحه أو نبحث عن طريقة لاجل اصلاحه . ثم يقولون لمريدي الاصلاح اذا أردتم عمل شيء من هذا القبيل فدونكم اصلاح المسلمين من حيث تعليمهم طرق المعاش وتدريبهم على الاساليب الحديثة فى الصناعة والتجارة والزراعة وفنون الاختراع . أما ان تعمدوا الى الدين الاسلامي نفسه فتقدموا وتؤخروا فيه بزعم اصلاحه فانه منكر لا نرضى به ونبذل جهدنا وأرواحنا فى مقاومته ومعارضة تنفيذه

وهذه هي نقطة الخلاف التي يشتد عندها تقلص الشفاه . ويكثر فى النزاع عليها صرير الاسنان

وأول من تكلم فى وجوب الاصلاح الديني الاسلامي ، أو يقال أول من جهر به وأكثر من القول والعمل للوصول اليه هو المرحوم السيد جمال الدين الافغاني . ولقد سألته مرة عن أية الطرق نسلك للم الشعث وانتشال أمتنا الاسلامية من هوة انحطاطها فقال : لابد فى الوصول الى هذا الغرض من « حركة دينية »

قلت ماذا ؟ قال « حركة دينية ». قلت وما تعني بالحركة الدينية ؟ ففسرها لى تفسيراً ينطبق على مانسميه اليوم الاصلاح الديني تارة ، والاصلاح الاسلامي

تارة أخرى . ثم قال جمال الدين : انه كما استفادت أمم الاوربا (كذا كان يلفظها بالالف واللام) بحركة « لوثيروس » الدينية واصلاحه تعاليم الديانة المسيحية كذلك نحن معشر المسلمين يجب علينا أن نستفيد من « حركة دينية » نقوم بها . ويكون من أثرها اصلاح تعاليمنا وتحسين حالة اجتماعنا

ثم قال رحمه الله : وليس المراد باصلاح تعاليمنا أن نجدد فى الدين تعليما أو نحدث فيه حدثا لم يأت به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أو نحذف منه تعليما أو حكما أتى به ونص عليه . وانما المراد أن نرجع فى بساطة عقائدنا وسهولة تعاليمنا الى ما كان عليه الحال فى الصدر الاول . فنتوسع ماشئنا فى أمور الدنيا ومقومات عمرانها . أما أمور الدين فنقف عند حدوده ونصوصه وقفة عواجز . ثم نسعى الى تعلمه وتفهمه من أقرب الطرق وأسهلها فلا يقضي أحدنا عمره فى تعلم الدين تعلما يُقصينا عنه ، ويحول بيننا وبين العمل به ، والاهتداء بهديه

وبهذا الكلام أوضح جمال الدين ما أراده بقوله « حركة دينية » و« اصلاح دينى » فالاصلاح الذي أراده اذن اصلاح علمى تعليمي محض لاشائبة فيه للحركات الثورية . والمشاغبات الفسادية . ولا مسحة عليه من المروق والالحاد

ولكن هل نرى الاشياخ من رجال ديننا يعجبهم قول جمال الدين ويرضيهم تفسيره للحركة الدينية بما ذكر ؟ وهل هم يعترفون بان الدين الاسلامى يلزمه اصلاح ؟

الوصول الى اقناع الكثيرين منهم عسير جدا . ومهما أحلتهم على النظر فى الكون وتقلباته . واستشهدت بالحوادث التي تجري أمامهم كابروا وجادلوا . وقالوا ان علتنا ليست فى تعاليم ديننا وانما هي فى سوء حالة حكوماتنا وفساد أخلاق الآحاد منا . وهذا الفساد وذاك السوء ناشئان عن تركنا العمل بديننا . فالعلة

اذن ليست فى الدين وانما هي فى ترك العمل به

هذا قولهم . وهو فى الحقيقة قولنا وقول جمال الدين نفسه وقد وقعوا عليه من دون أن يشعروا به

نقول لهم : اننا تركنا العمل بديننا وشغلنا عنه بالتعاليم والآراء والتقاليد الدخيلة فنحن نريد أن نصلح الدين أي أن نميز تلك التقاليد والآراء عنه ونقتصر على محض نصوصه الصحيحة . ونتخذ طرائق سهلة في تعلمها وتفهمها كى نتمكن من العمل به فنكون بذلك قد أصلحنا ديننا كما قلنا . وعملنا به كما قلتم أنتم . فلا خلاف بيننا ولا شقاق . وانما هو التعارف والوفاق

ثم نسلك فى الكلام على وجوب الاصلاح الاسلامي من طريق آخر فنقول ان المسلمين بتركهم العمل بدينهم والسعى فى اصلاحه أصبحوا كأنهم غير مسلمين

واذا سمع الشيوخ منا هذا القول استبشعوه وردوه علينا أقبح رد . ولم يطيقوا أن يسمعوا القول بأن المسلمين اليوم غير مسلمين

حقا الأمر جلل وان التصريح به بشع تأبى النفس سماعه دع عنك قبوله . ولكننا ترانا مضطرين الى الجهر به . واقناع معارضينا فيه . لنحملهم بذلك على النظر والتفكير ونبعث فى نفوسهم الشعور بالحاجة الى الاصلاح ولزوم السعي فيه

لا يمكن أن يسعى ساع فى ترميم داره واصلاح شعثها ما لم يقتنع فضل اقتناع بأن الدار تداعت الى حد السقوط ووشك الانهيار . اذا اقتنع بذلك جَدَّ وسعى في الترميم والاصلاح والا بقي مهملا مسترسلا فى غيه حتى تقع عليه الدار . فيهلك ويحل به البوار

اذا كنا ياقوم مسلمين بجميع معنى كلمة الاسلام بحيث لو قام عمر بن الخطاب من مرقده وساح فينا على ناقته من سور الصين الى شطوط الاتلانتيك لما شك

بأننا مسلمون ـ اذا كنا كذلك فلماذا لم يصدقنا الله وعوده التي يستحيل أن يقع فيها خلف . والتي تكررت في جملة آيات . وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم عدة مرات . ومن ذلك قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض » الآية . فهل يصدق علينا أننا آمنا وعملنا الصالحات ؟ اذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يستخلفنا في الارض بل أقام علينا من غير بني ملتنا خلائف ؟ ولماذا كنا مستعبدين في كل أرض . ومنهزمين أمام عدونا في كل أرض ؟ واذا كنا كما نزعم مسلمين ، ومن عباد الله الصالحين ، فلماذا لم يورثنا الارض وانما انتزعها من أيدينا وأورثها قوماً آخرين ؟

هما خطتان : اما أن نكون اليوم مسلمين عاملين للصالحات وقد كذب الله وعده ، وهذا محال . أو نكون غير مسلمين ولا عاملين للصالحات ، وقد صدق الله وعده

أرى أن الخطة الثانية أقوم قيلا ، وأوجه دليلا . وان كان لنا من ورائها ما نخشاه من طول عتاب ، ومناقشة حساب

إن الايمان الحقيقي وعمل الصالحات لا يكون من أثره في الامم الا السيادة والعزة والغلبة . فاذا فقدنا المسبَّب عرفنا أن السبب مفقود ، وغير محقَّق الوجود

أراك ياأخي قد حميت واشتد غيظك عليَّ وقلت في نفسك اني من المفسدين أو لا فمن المتطرفين المتهورين

اصبر قليلا ولا تعجل

أنا لم أشكَّ في اسلام كل فرد من المسلمين ، أي لم أقل بالشك في اسلام جميعهم وانما الشك في اسلام مجموعهم . فيقال ان الهيئة العامة للاسلام فقدت مسحتها . وتجردت عن صبغتها . بدليل فقد أثرها الطبيعي بشهادة القرآن . ذلك

الاثر هو العزة والغلبة والاستخلاف فى الارض والارث لها . وان فى المسلمين أفراداً كثيرين كمل اسلامهم . وصح يقينهم . وقد ظهر أثر ذلك فى أخلاقهم وأعمالهم وسائر ضروب معاملاتهم . وهؤلاء ناجون وفى الجنان منعمون ان شاء الله تعالى

لكن اسلام هؤلاء الافراد لا يكفي فى تحصيل الاثر العام الذي ينبغي أن تكتسبه الأمة بمجموعها : من العزة وارث الأرض والاستخلاف فيها . فهل حسنت ظنك بي الآن ياأخي . وعرفت الفرق بين اسلام الافراد واسلام المجموع وان أحدهما لا يستلزم الآخر ، وان لكل منهما أثراً خاصاً به ؟

فتحصل معنا أن المسلمين فى أيّ زمن كانوا ، وعلى أية حالة أصبحوا ، يكثر بينهم وجود أفراد كاملي الاسلام ناجين كما يكثر وجود آخرين مقصرين وعن أعمالهم بين يدي الله محاسبين

أما الامة الاسلامية بمجموعها وبقطع النظر عن أفرادها فقد يأتي عليها دور أو تدخل فى طور تكون فيه بمعزل عن . . . عن أيّ شيء ؟ لا أقدر أن أقول بمعزل عن الاسلام ، ولكن أقول بمعزل عن أن تكون قد استوفت آثار الاسلام وجوائزه السماوية التي وعدها الله المسلمين فى الآيات المختلفة ، والنصوص المتعددة

ثم اذا وصلت الامة بمجموعها الى هذا الدور أو الطور ألا تكون مسئولة يوم القيامة بين يدي خالقها عن هذا التقصير ومناقشتها الحساب فيه ؟

أولا تُسْأل ولا تحاسَب اعتباراً بأن مجموع الامة شخص معنوي ، لا قالب له حسّي . وانما يكون تقصيرها ذنباً عقابه فيه . أي يكون مجرد تقصيرها فى الدار الدنيا عقاباً لها من حيث أنها تعيش محتقرة بين الشعوب : حقها ضائع وعزها

مسلوب . وهذا القدر كاف فى عذابها وتحميلها مسئولية ذنبها . . .

وقد يخطر فى البال أن الامة بمجموعها ممثلة فى هيئة حكومتها فهيئة الحكومة والافراد الذين تتألف منهم هـذه الهيئة وهم ولاة الامور يكونون مسئولين يوم القيامة عن تقصير الامة فى كسب العزة والغلبة ووسائل الاستخلاف في الارض وسائر آثار الاسلام ومميزاته الطبيعية

ولـكن هذا الاعتبار صحيح في الحكومات المستبدة التي تكون الامة خاضعة لها وتكون نسبتها اليها نسبة العبد الى السيّد أما في الحكومات الدستورية الحرة فلا تكون الامة للحكومة ، وانما ـ على العكس ـ الحكومة تكون للامة ، والامة اذ ذاك تصبح هي السيدة وهى المسئولة عن تقصيرها في عدم استيفاء آثار الاسلام المذكورة

وحينئذ نرجع للاشكال الاول ونقول : هل يتصور أن تكون الامة بمجموعها مسئولة يوم القيامة سؤالا تعاقب عليه. أو أن ذنبها عقابه فيه . وعذابها فى الدار الدنيا تستوفيه ؟ ؟



الاصلاح الاسلامي

الباعث عليه . المطالب به . فهرست أركانه

— ٢ —

قلنا في المقال السابق ان هذا الاصلاح ـ الذي سماه المرحوم جمال الدين «حركة دينية» ـ لايمس جوهر الدين ، ونصوصه السماوية . وانما يتناول تمييز التقاليد التي اقتبسناها عن الامم الاخرى بواسطة الاختلاط بهم وبواسطة أفراد من علمائهم دخلوا في ديننا ، وحملوا الينا مزاعم من دينهم . ثم تمييز الآراء الاجتهادية التي أصبحت على طول الزمن كأنها من أقوال الشارع نفسه . بحيث أصبحت لايجوز ردها ولا التردد في قبولها — نميز كل هذا عن نصوص الدين الاصلية ونحدد مقاصده السامية ونقف على أسراره العالية . ونسعى في ايجاد طرائق تعليمية تقرب الدين الى الافهام وتسهل تحصيله ونشره بين الأنام . اهمال المسلمين للاصلاح ان عُذِرُوا فيه فيما مضى من الزمن فانهم لا يُعذَرون فيه اليوم وقد أصبحت القوتان المادية والمعنوية بيد الشعوب الاوربية . وصار لهم بهاتين القوتين حق الاشراف أو الوصاية على الحالة الاجتماعية العامة في العالم الانساني . فمهما حكموا بأن هذه الشريعة أو ذاك التعليم ينافي المدنية أو لاينطبق على مصالح البشر ، كان قولهم المسموع ، ورأيهم المتّبع . فاذا لم نثبت بأن ديننا يؤاخي المدنية ، ويلائم المصالح البشرية ، كنا مسيئين اليه والى أنفسنا . فتتلاشي قوميتنا ، وينهار بناء عزنا

ان عقلاء الافرنج ـ لكثرة ما خالطونا عن طريق قراءة أخبارنا ، واستعمار بلادنا ، والسياحة والتجارة بيننا ـ أصبحوا يعدّدون لنا من المذامّ والمساويء

الدينية والأدبية والاجتماعية ما لا يخطر لنا ببال . وقد يتفق احيانا أن يُعجَبَ بعض أولئك العقلاء بما تضمنه قرآننا من الحِكَم الرائعة ، والآداب الناصعة ، والقواعد الجامعة ، فيجهر في محافل قومه بأن الاسلام من خير الأديان ، وأنه ملائم لمصالح البشر ، وليس في اصوله ما ينافي المدنية الصحيحة . ثم يستنتج من ذلك كله أن المسلمين خير الامم ديناً وأدبا وفضيلة ونظاما اجتماعيا . حتى اذا ساقته التقادير أو حب الاستطلاع الى بلادنا ، وأشرف من كَثَب على نوع حكوماتنا ومحاكمنا ، وأطوار خاصتنا وعامتنا وأحوال عائلاتنا ومجتمعاتنا ، وسائر ضروب أشغالنا ومعاملاتنا - رجع القهقرى عن رأيه ، وندم على ما كان من التسرع في حكمه وعاد الى قومه يائسا وعن مدح الاسلام والمسلمين ساكتا

وقد قال لي المرحوم جمال الدين مرة : ان عقلاء الافرنج يتدبرون آداب القرآن وتعاليمه العالية ، ويحكمون بأنه خير قانون لاصلاح شأن البشر ويهمون أن يسلموا . ثم ينظرون من خلال القرآن الى الامم الاسلامية المنتشرة في آسيا وأفريقيا ، فيرونها من أحط الامم شأنا ، وأشدها ابتعادا عن روح الدين والمدنية وممارسة الفضيلة ، فينفرون من الاسلام وينظرون الى القرآن كالمرتابين فيه وفي صلاحيته لان يكون سلَّما ترقى عليه الامم الى معارج المدنية والعمران ، بعد ان رأوا ما رأوا من حالة اتباعه . وهكذا يدعوهم القرآن الى الاسلام ، وينهاهم المسلمون عنه . ثم قال جمال الدين : فالواجب علينا اذن قبل كل شيء أن نثبت للاوربيين اننا غير مسلمين . وبهذه الصورة يمكننا أن نجتذبهم الى لاسلام ، ونحسّن اعتقادهم فيه

ولو اقتصر الامر على هذا لهان . ولكن قد نبت من المسلمين وفي بلاد المسلمين طائفة عظيمة من الشبان تعلموا العلوم العصرية ، وتثقفوا بآداب الافرنج ،

ودرسوا قوانين الاجتماع الحديث ، وعرفوا بسبب ذلك من أطوار البشر ، وطبائع العمران ، ما لم يعرفه سواهم . وقد أخذوا يقارنون بين ما يعرفون وبين ما ورثوه عن اسلافهم ، فنَـكِرُوا أشياء كثيرة مما يعده المسلمون دينا ، ولما لم يروا أحداً يزيل شكوكهم ، ويزيح عللهم ، خامرهم الريب فيما اذا كان الدين الاسلامى يصلح للبشر أو لا يصلح

وجود هـذه الطائفة المتنورة فى قلب بلاد الاسلام والمسلمين من أقوى البواعث على الاصلاح الديني ووجوب السعى اليه من بابه . وان لم نفعل ختل نظامنا ودخل الفشل والعدو بين صفوفنا

يحاول قوم من الجامدين أن يأخذوا أولئك المتنوين بالتقليد الاعمى وأن يحملوهم على الاذعان والتصديق بمجرد نقل النصوص ، وسرد أقوال المتفقهين . ولـكن محاولة هذا منهم مقاومة للطبيعة ، والنجاح فى مقاومتها أمر مستحيل

عقلٌ : حُرٌّ فى نفسه ، حرٌّ فى تربيته حرٌ فى حكومته ، حرٌّ فى عصره ، حرٌّ فى الوسط الذي يعيش فيه ـ تـكلفه أن يُقلد غيره تقليداً أعمى ؟ اللهم ان هذا تـكليف ما لا يطاق

(إنك ان كلفتني ما لم أُطق   ساءك ما سرك مني من خُلق)

بل هو تـكليف لم يرضه الله للمشركين فى أزمنة انغماسهم فى الجهالات ، وظهور الخوارق والمعجزات . أتراه يرضاه للمتنورين فى أزمنة الاكتشافات والاختراعات ، وابتناء العلم على المشاهدات والمجربات ؟

التباطؤ فى الاصلاح . وابقاء ما كان على ما كان حَمل أناسا من هذه الطائفة المتنورة على نبذ الدين باطنا ، واكتفى من اسلاميته بالرسوم الظاهرة : فتراه يشهد احتفالات الاعياد والمواسم ، ويمشي فى الجنائز الى مقابر المسلمين واذا دعي

الى عقد نكاح استمع خطبة الشيخ بأدب واحتشام وغير ذلك مما من شأنه أن يساعده على الامتزاج بأهله ومواطنيه ، ويجعل عيشه معهم طيبا هادئا

ومنهم جماعة يعتقدون الاسلام ، لكنه اعتقاد لا يعرفه جمهور المسلمين ، ولا يعترفون بصحته . وأساس اعتقاد هؤلاء الاذعان لكلام الله وحده . واذا احتججت عليهم بكلام غيره عرضوه على عقولهم ومصالح البشر وطبائع العمران ونواميس الاجتماع فاذا وافقها قبلوه ، والا رفضوه . فالعُمدة عندهم البرهان ، لا قال فلان ، وروى فلان

ومن عجيب أطوار بعض هذه الطبقة أن ترى الواحد منهم لا يصلي ولا يصوم ـ والصلاة والصوم من أركان الاسلام الخمسة كما لا يخفى ـ لكنك تراه كبير النفس ، قوي العزيمة ، ثابت الاخلاق جم الآداب . لا يكذب ولا يغش ولا يداهن ، ولا يتملق ولا يخضع ، ولا يشكو ولا يطمع . وهو شديد الغيرة على الاسلام ، مجتهد فى خدمته ، عامل على رفع شأنه بكل قوته . واذا سمع طعناً فيه . أو إزراءً عليه . قامت قيامته . فيكتب ويخطب فى الرد على الطاعنين ، وتسفيه آراء العائبين ، ويأخذ فى تعديد مناقب الاسلام ومزاياه الجمة التي يفضل بها سائر الاديان

مولف كتاب نور الايضاح

تقارن هذا المسلم بمسلم آخر من الطبقة الجامدة فنراه يصلي ويصوم ويقف على الضريح خاشعاً ضارعا . ويتأدب مع القرآن فيدعى أن عقله عاجز عن فهم أسراره . والتفطن لعجائبه : فهو من أجل ذلك يتَّكل على ما حقَّقته الشرنبلالية والولوالجية والانقروية والعالمكرية . وليس هذا وحده بل ترى أخلاقه أمشاجاً من الكذب والصدق ، والنفاق والاخلاص ، والكبر والخسَّة ، والبخل والتبذير ، واللؤم والحسد والمراء والجدال الى غير ذلك مما هو فى جانب والاسلام

الصحيح في جانب . ثم نرى هذا المسلم بعد كل ما وصفنا من أطواره يعيب المسلم الاول ويحقره ، ويفسقه ان لم يكفره . فكيف تتم المقارنة بين الحالتين ، وكيف نحكم اذا فاضلنا بين الاثنين ؟

أليست هذه المقارنة بينهما تنتج القول بلزوم الاصلاح الاسلامى ، وضرورة الاغذاذ اليه ، قبل ان لا تساعدنا الاحوال عليه . فنختط لنا بهذا الاصلاح خطةً وسطاً بين الخطتين فلا نجمد الى حد أن نعطل أحكام العقل ، ولا نتساهل الى درجة ان نتهاون معها بحدود الشرع . بل نعتقد ونعمل بكل ما شرعه لنا الاسلام بطريقيه العقل الصحيح والنقل الصريح . ونرفض الاعتقاد والعمل بكل ما لم يثبت بأحد هذين الطريقين اللاحبين

بعد ان نقتنع معشر المسلمين بوجوب الاصلاح على هذا الوجه نعود فنتساءل عمن يتصدّى لهذا الاصلاح ؟ وممن ننتظر القيام باعبائه ؟ كنا أوجزنا فى مقالنا السابق وأشرنا الى أن الاصلاح الديني هو وظيفة من وظائف علماء الدين ، وأنهم ان لم يقوموا به لم يقم غيرهم . وان هم شغلوا عنه كان سواهم عنه أشغل ، وفيه أزهد

وقد يقولون ان كان لا بد من هذا الاصلاح فينبغى أن يكون المطالبون به هم الحكام والرؤساء والعظماء والاغنياء . أما علماء الدين فمعظمهم قد شغلهم أمر دنياهم عن النظر فى أمره . وان فرغوا له فليس معهم مال ليساعدهم ولا لهم عصبية تعضدهم

بمثل هذا الكلام يحاول العلماء زحزحة عبء العمل عن عواتقهم والقاءه على عاتق غيرهم

ومن الغريب أن يوجد قوم من الشبان المتحمسين يذهبون الى ان الاصلاح

الاسلامى لا يتأتى للمصلحين ما لم يقوموا بتأليف جمعيات ثوروية تسعى فى قلب هيئة المجتمع الاسلامى رأساً على عقب ثم يعودون فينشئونه خلقاً جديدا . ومن لطف الله أن كان هذا الرأي مقصوراً على ذوي الامزجة العصبية والطباع الشاذة وهم قليلون فى شباننا المتنورين

وهذا ما جعلنى أرتاب فى السيد جمال الدين مذ قال لي : لا بد فى الوصول الى الاصلاح من « حركة دينية » ، فحسبته من أولئك النفر القائلين بلزوم تأليف الجمعيات الثوروية ، حتى فسر لي الحركة الدينية بالاصلاح الاسلامي الذي أبنّا رأينا فيه ، وشرحنا قوادمه وخوافيه

اصلاحنا المنشود ليس بدعا من كل اصلاح ديني أو اجتماعى قامت به جماعات البشر ، وحصل فى أزمنة التاريخ القديم والحديث

هذه الاصلاحات انما يقوم بها أولئك الذين لم تلههم مناصب الجاه ، ولا مظاهر العظمة ، عن النظر فى ما حلَّ بقومهم من البؤس والشقاء والبحث عن أسبابه ووسائل النجاة منه

أمثال هؤلاء هم المَرْجُوُّون للبحث فى الاصلاح . لا أولئك الرؤساء والعظماء الذين لا يشعرون بالحاجة اليه ، وقد يأنفون من الاشتغال به بل ربما قاوموه أشد مقاومة . لانه قلما يخلو من تحطيم امتيازاتهم وزحزحتهم عن مستوى عظمتهم

وهكذا كان شأن الرؤساء فى كل انقلاب ديني واصلاح اجتماعى . وقد عاتب القرآن النبي (صلى الله عليه وسلم) فى جملة آيات على عنايته بأمر كبراء العرب وانتظاره انتشار الاسلام ورسوخ قدمه بواسطة ايمانهم . فكان (صلى الله عليه وسلم) حريصاً على دعوتهم ، واقامة البراهين لهم . وكان انشغاله بهم يدعوه أحياناً للاعراض عن المستضعفين والتولّى بوجهه الشريف عنهم . ظناً منه ان

هؤلاء تبعَ لاولئك الرؤساء ، وان الرؤساء متى آمنوا آمن المستضعفون . فنبهه القرآن الى انه لم تجر عادة الله بأن يجيب الدعوة لأول أمرها أمثال أولئك الرؤساء وانما يُجيبها هؤلاء المستضعفون . حتى اذا انتشرت الدعوة ، واشتد عضد المؤمنين تبعهم الكبراء والعظماء طوعا أو كرها.

ومحصل القول أن أي نوع من الاصلاح لا يتم الا بسعي الذين يعنيهم أمره . واصلاحنا الاسلامى انما يعني علماء الدين . فهم المكلفون به ، المخاطبون شرعا بالعمل على تحصيله . وليس العمل منهم سوى الدعوة اليه بخطبهم وكتاباتهم وتآليفهم . حتى اذا اقتنع بذلك جمهور الامة ومعظم أفرادها هبوا هبة واحدة ، فاكتتبوا لمدارس يشيدونها ، ونشرات يوزعونها ، ومؤتمرات يعقدونها ، من كل ما فيه تحصيل هذا الاصلاح ، وتحقيق أمره . وعماد الاصلاح بوجه عام أو أصل الاصول في الاصلاح انما هو التربية والتعليم الاسلاميان . أو يقال هو المدرسة الاسلامية . هذا هو أصل الاصول . أما بقية الاصول والاركان فنأتي على ذكرها هنا موجزة بصفة فهرست يجمعها ، وكفاف يضم شتيتها :

(١) أن تعلَّم طلاب العلوم الدينية تعليماً يؤهلهم للاجتهاد ، ما دمنا على يقين أنه لا يوجد اليوم في المسلمين من هو أهل للاجتهاد

(٢) أن نصلح المكتبة الاسلامية فنختار الكتب المفيدة منها ونهمل ما لا يفيد . ونتخذ طرائق في التأليف سهلة تقرّب العلم وتختصر الزمان

(٣) ان لا ندع أحدا يعدّ نفسه من رجال الدين ، ويتزيّا بزيّ أهله ، ويتصدّى للفتيا والارشاد ما لم نتحقق أهليته ، بواسطة جمعية مكلفة بذلك

(٤) اذا أراد الله وعاد الينا الاجتهاد فلا يكون اجتهادنا (فرديا) . وانما يكون (اجماعيا) فيجتمع المجتهدون ، ويقررون الحكم بالاكثرية

(٥) أن ننظر الى جميع المذاهب على السواء : فلا نفرق بين الأئمة ، ولا نلتزم أقوال امام بعينه . وانما يأخذ أهل كل عصر من مذهب كل امام ما يناسب مصلحتهم

(٦) أن يكون مدار الاحكام الشرعية ، والمعاملات القضائية المصلحة . فهي المحكَّمة في كل محكمة ، والمسئولة في كل مسألة

(٧) ان لا نحدث في الدين حدَثا ، ولا نبتدع شيئا كبيرا بداعي أن له فى السنة أصلاً صغيرا . وانما نقف عند حدّ ما ورد عن الشارع . وثبت في السنة بقدره

(٨) أن نميز العقائد الدينية عن التقاليد التي مرجعها النقل الآحادي أو الرأي الاجتهادي أو مجرد الشيوع بين الاشياخ : فلا نكلف أنفسنا عقائد لم يكلفنا اياها الشارع الرحيم ، ولا نكفر مؤمنا الا اذا أنكر عقيدةً ثابتة ، لا تقليداً مرويا

(٩) أن لا نعتمد فى تصحيح الحديث على صحة روايته وسنده فحسبُ بل ننظر في متن الحديث ومدلوله ومضمونه : فان وافق أصول الدين وآي القرآن قُبِل ، والا رد مهما كان من أمر سنده وروايته

(١٠) أن لا يجري قياس واستنباط في العقائد والعبادات والشعائر ، بل نعتمد فيها ظاهر النصّ . وانما القياس يكون في المعاملات الفقهية وكل ما يتعلق به القضاء ويختلف باختلاف الزمان والمكان ويسمى اليوم (الحقوق المدنية)

(١١) أن نرفع من شأن العَمَل قليلا : فلا نزعم ان المسلم ينجو بمجرد أقوال يرددها ، أو تقاليد يُبطنها ، أو حركات يأتي بها . بل ان المسلم من سلمَ المسلمون من لسانه ويده بالفعل . وعَمِلَ الاعمال التي حثّ عليها الاسلام. وتخلَّق بالاخلاق

التي أمر بها . والا كان الدين دعاوي فارغة ، وألفاظا مهملة . أو يقال كان الدين عبثا ، والوحي سدى

(١٢) أن نرفع أيضا من شأن الاسباب قليلا : ونعتبرها مظاهر لإرادة الله تعالى وقدرته : فلا نهملها الى حدّ أن نقول ان السمّ لا دخل له في موت من تناوله فمات به . وان هذا المتناول لو لم يتناوله لمات حتماً . فان هـذا القول يؤدي الى تعطيل الحدود والشك في حكمة المعبود

(١٣) أن يترك الفقهاء كثيرا من النظريات و المسائل الى أرباب الاختصاص في علومها : فلا يكون الفقيه طبيبا ومهندسا و كيماويا وقائد حرب الخ وانما يبحث فيما يعلم . ويدع ما لا يعلم لمن يعلم من الاخصائيين المسلمين

* * *

هذا ما خطر لي جمعه من كليات الاصلاح وقواعده الاساسية وقد أتذكر في وقت آخر أو يتذكر غيري غير ما ذكرت فيلحق به . وأعد القارىء بكتابة رسائل اخرى آتى فيها على شرح ما سردت ، وتفصيل ما أجملت . وأسأله تعالى أن ييسر لي ما قصدت ، ويغفر لي ما أخطأت



بطلا العرب والاسبانيول

أو

سياحة الذاكرة في أزقة القاهرة (١)

من مشى في حارات القاهرة وجاس خلال أزقتها رأى مايذكّره بكثير من تاريخها، وتراجم رجالها. ويمثّل أمام عينيه وقائع مدهشة كانت حدثت في ارباضها وساحاتها: مساجدُها ومدارِسُها وتكاياها القديمة وآثار أمرائها وملوكها التى لم تزل ماثلة. ومراقد أوليائها وكبار علمائها. ومايجده مكتوبا على اضرحتهم وجدران زواياهم وما يقرؤه من أسماء الدروب والسكك في اللوحات المعلقة في فوهاتها — كل ذلك يعيد اليه ذكرى يسرّ القلب لها تارة، ويتألم تارة أخرى. ويكاد بعض تلك الذكرى يأخذ بأنفاسه حينما يخيَّل اليه أنه يشمّ قتار لحم مشوي ينبعث عن تجاليد انسان (جسده) محشو في جوف حمار. وقد قذف بهما معاً في لهيب النار. فلا يملك نفسه عن الاسف لما كان ألمّ في نفوس بعض القوم من القسوة والغلظة بحيث أن معاوية بن خديج عامل الامويين على مصر لما ظفر بمحمد بن أبي بكر عامل عليٍّ عليها فعَلَ به على قارعة الطريق ماذكرنا تشفيا وانتقاما

وأكثر مايتذكره المؤرخ المتجول في أنحاء القاهرة وقائع الحاكم الفاطمي وأطواره الغريبة وما عاناه الناس في زمنه على اختلاف نحلهم من ضروب العنت والرزايا: فيرقّ لاولئك النسوة اللواتي هدم الحمام عليهن. ويرثي لحال ذاك الشيخ الهرم الذى منعه عن الشغل فى النهار وحتم عليها أن يشتغل فى مهنته ليلا. ويرحم هذا الذمى الذي يتدلى من عنقه صليب يكاد يكبه على وجهه لضخامته وفرط ثقله ومهما نسى من تاريخ مصر فانه لاينسى تلك الليلة المشؤومة على المصريين ليلة

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٦ م

الفرار من نابليون وجيشه الزاحف على القاهرة . يوم ثار ثائر سكانها واختلط حابلهم بنابلهم وأخذوا ينجلون عنها بأهليهم وذراريهم وما خف حمله من ذخائرهم فوقع بينهم الهرج والمرج وعاث فيهم اللص الفاجر والفاتك الغادر كل ذلك تحت جنح ليل هم في حالة من الحزن أشد اسوداداً من فحمته . وقد كان من شر تلك الليلة ماروا. المؤرخون ، وعجز عن وصفه الواصفون

*
* *

واذا نزل المرء مرة من الترام في العتبة الخضراء الى الموسكى يؤمّ باب الشعرية وأراد الاختصار من مسافة الطريق كان عليه أن يأخذ ناشطة (فرعاً) من نواشط الموسكي عن يساره فلا يكاد يمشى فيها خطوات حتى يرى نفسه منقطعاً عن الوطنيين وآثارهم ولا يعود يرى الا فئات من النزلاء أروام وأرمن وطليان وغيرهم . لكنه اذا التفت عن يمينه وهو سائر فى بعض تلك الازقة رأى مايجذب نظره ويشغل باله : زاوية صغيرة ذات قبة لاطئة . وفيها ضريح مجلَّل بثوب أخضر ومنقوش عليه اسم صاحبه « أبومحمد بطاله » كذا أما فوق باب الزاوية فيقرأ مايخالف ذلك بعض المخالفة « أبو محمد البطل » . ويجد في العرصة الملاصقة للزاوية قوما من الروم يهدمون ويبنون ويتصرفون فى جوار صاحب الضريح كما يشاءون . وأول مايخطر للمرء أن يسأل عن الزاوية ودفينها وكيف يتصرف هؤلاء الاروام فى حريمها ؟ فيلتفت يمينا وشمالا فيرى عن بُعْدٍ وطنيا يبيع لحما ثم يجده ينظر اليه ويتفرس فيما يجول في نفسه . حتى اذا اقترب منه وسأله عن حقيقة مارأى أخبره بان صاحب الضريح هو الشيخ فلان رضى الله عنه . وان هؤلاء الاروام بمساعدة ديوان الاوقاف تركوا للوليّ أن يتمتَّع بمرقده المدفون فيه مع ماعلاه من تلك القبَّة . ثم وضعوا أيديهم على ماحوالي المرقد بمقابل قليل من المال ربطوه لجهة الوقف . فكان لهم الحقّ أن يُنشئوا ثمَّة الحوانيت والدور أو حانات الخمور

هكذا يكون حديثه مع الوطني من الوجهة الدينية عـدا مايتخلله من معاتبة الاوقاف على تساهلها في أمر أعيان الوقف والمعاهد المحترمة

لـكن صاحبنا انما يهمه من هذا المشهد الوجهة التاريخية . فهو يُجهد ذاكرته أن تقص ّ عليه شيئا من شأن (أبى محمد البطل أو بطاله) على اختلاف الرقمين . فلا يلبث أن تعروه الدهشة والانذهال : ينـدهش لانه يتذكر ان « أبا محمد البطال » الشهير بغزواته الى بلاد الروم والذى عاش عمره يُعمل سيفه فى رقابهم أخذوا هم الآن يُعملون معاولهم في هـدم داره ، وتعاطي الخمور في جواره . ألا يكون هذا الاتفاق من بواعث الدهشة ؟

* * *

« البطال » هذا فى التاريخ الاسـلامي أو الشرقي بمنزلة « السِيّد » البطل الاسبانيولى فى التاريخ المسيحى أو الغربى . وبين البطلين تشابه من عدة وجوه (١) قيل فى كل منهما انه وهمي ّ لاحقيقة له (٢) وعلى القول بوجودهما فقد كانا فى أواخر القرن الخـامس الهجرى تقريبا (٣) كان « البطال » يقلق بغزواته أروام آسيا ويُلقى الرعب فى قلوبهم . وكان هذا شأن « السيّد » فى مسلمى أوربا (٤) وضع القصّاص للبطال رواية خيالية تبلغ زهاء ستين جزءاً أودعوا فيها أخباره وغريب أعماله فى غزواته المذكورة وهي قصة (الدلهمة) المشهورة ونظم شعراء الاسبانيول رواية شعرية على طريقة زجل الاسكندرية فى أخبار (السِيّد) ووقائعه مع العرب تبلغ ثلاثة آلاف بيت ونيفا

ومهما كانت هذه الوجوه مما يَقْرِن بين البطلين فى الذاكرة والخيال ـ فان هناك فرقا بينهما عظيما : دالت الدولة لاعـداء « البطّال » عليه وجعلت شِلوه تحت رحمتهم وقبره فى يد تصرفهم . أمازميله « السِيّد » فان قومه الاسبانيول

انتاشوا الاندلس كلها إكراما لقبره وتنويها بذكره . ومجمل مايقال فى ترجمة حياة السِيد أن اسمه الاصلى (رودريك) ، ويلقبه قومه ببطل الاسبانيول المحبوب . وانه عاش فى القرن الحادى عشر للميلاد . وان بعض الكتاب أنكر وجوده بتاتا وجعلوه من مخترعات الاوهام ولا يحزنه ذلك فقد أصيب بمثل تلك المصيبة عنترة ومجنون ليلى وشكسبير شاعر الانكليز المشهور لكن المحققين من الكتاب ذهبوا الى انه لاريب فى وجوده وانما الريب كل الريب فى صحة مانسب اليه من الغرائب والاخبار . وقد كان (السِيّد) هذا يحارب عرب الاندلس ويهزمهم أحيانا . ثم وقعت مغاضبة بينه وبين ملوك الاسبانيول فنزح عنهم وانضوى الى أصحاب (سرقسطه) من بنى هود ، فأحسنوا مثواه وأنزلوه على الرُحب والسعة . وجعل يغزو تحت راية المسلمين قومه المسيحيين مدة ثمان سنين وأخيراً وقعت بينه وبين المرا كشيين معركة خسر فيها ونُكب فمات غماً وكمدا

أما اسمه « السِيّد » فعربى الاصل محرف عن السَّيِّد بالياء المشددة سماه به أصحابه العرب قال مؤرخو الافرنج ان اسم (السيّد) فى العربية يقابله فى الانكليزية كلمة « لورد » ويخطر لى ان العرب أطلقوها عليه مخففة ابتداء : والسِيّدُ على وزان عِيد الذئبُ والاسد . وانكر بعضهم الثانى لكن المحققين على انه لغة هذيل وأنشدوا :

« كالسيّد ذى اللبدة المستأسد الضارى »

ولا يخفى ان اللبد من شعار الاسد . فيكون العرب قد عرفوا لذاك البطل بسالته كما حفظ ذكراها له بنوجلدته الاسبانيول

* * *

أما زميله « البطّال » فكونُ قبره حيثما ذكرناما يحتاج الى شيء من البحث والتحقيق . وجلُّ ماتَروِى له كتب الادب العربية ان اسمه « أبو محمد البطّال »

وانه كان يخرج في الصوائف في زمن بني العباس و (الصوائف) المقاتلة يغزون بلاد الروم في فصل الصيف . وكثيراً ما كان البطَّال يخرج وحـده للغزو فيفعل بالروم الافاعيل

وكانت عدته وسلاحه في غزواته الختل والخدع والاحتيال : فكان يتزيى بالازياء المختلفة فيكون مرة راهبا . وطوراً عِلجا . وآونة امرأة . وأخرى شحّاذا. وهكذا حتى شاع أمره . وسار في بلادالروم ذكره فكثر الحديث عنه فى بيوتهم. وجعلت المرأة تحدّث بخبره جارتها . والأمّ تخوّف باسمه طفلها . حتى اتفق مرة أن طفلا عصا أمه فلم يسكت عن البكاء ففتحت الشباك وأدلت ابنها منه ونادت (خذه يابطال) واذا بصاحبنا البطال تحت الشباك ينتظر فرصة للفتك والاغتيال فتلقّف الصبىَّ من بين ذراعى أمه وأخـذ يجرى به فتضرّعت اليه المسكينة أن يرده عليها ففعل

ورووا عنه قصة أغرب وأقرب ان لا تُصدَّق : وهي انه غزا مرة بلاد الروم ومعه رفيق له فصادفا فى الطريق علجا فساوراه وساورهما . فَقَتلَ العلجُ رفيقه وأخذ في مصارعته وأخيراً رماه العلج وقعد على صدره يحاول أن يذبحه . فتضرع البطّال والتجأ في سره الى الله . واذا برفيقه المقتول نشَطَ من مصرعه وأقبـل بسيفه على العلج وهو يتلو قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا » الآية . ثم ضربه على رأسه بالسيف فأندرها ووقعا ميتين . أما البطّال فأخـذ سلبهما ونجا

قصة الأميرة ذات الهمة

وعلى منوال هاتين القصتين وضع الواضع قصة (الدلهمة) أو (ذات الهمة) التى من ابطالها أبو محمد المذكور وضمنها كل عجيب وغريب من الحيل والمصادفات وما كان يفعله البطال من الشعوذات والنارنجيات

فتاة انكليزية تصف المحمل (١)

اذا شاهدتَ موكب المحمل . واستعرضت رجاله وشيوخه وأدواته وسمعت ما يحدث فيه من الاقوال والنغمات والدفوف والطبول والزمور ـ لا تتعجب من ذلك ولا تعد شيئاً منه غريباً . وسببهُ غلبةُ الألفة والعادة عليك . بل اذا كنت من البسطاء . أو هؤلاء النساء . ورأيتَ الجمل الذي يحمل الهودج الذهبي يتمايل ويترنّح . أو سمعتَ ذاك الذي يجهر باسم النبيّ صلى الله عليه وسلم بين دقات الطبول ونغمات الزمور ـ غلبتك الرقّةُ وادركك الخشوع . فتجهش مستعبراً . وترفع صوتك مهللا مكبّراً . فالغرابة والعجب من هـذا المشهد لا يكونان الا للغريب عنه الذي لم يألفه ولم يعتد رؤيته بعدُ . فهذا الذي يتأثر وتستولى عليه الانفعالات وتتعاكس في نفسه العواطف . ما بين احترام وخشوع ودهشة وحيرة واسف وألم وانقباض وانبساط وعجب واستغراب . ويكون حظه من هذه التأثرات على قدر منزلته من العلم والادب والتربية ورقة الشعور وسلامة الوجدان . وكلّ منا يودُّ أن يطلع على ما يجول في نفس الغريب عنا إذا شاهد المحمل ويعرف ما هي الخواطر التي تحيك في نفسه عند رؤية لفيف من الشعب المصري يقوم بهـذه المظاهرات المقدَّسة . وأيُّ طرفة يسرّ بها المصري أثمن من صورة كتاب ارسلته فتاة انكليزية تسمى « أملي » من نزل شبرد في القاهرة الى أبيها في لندره وقد وصفت له فيه ما شاهدته في ٣١ دسمبر الماضي من موكب المحمل وشرحت له ما خالج نفسها من الخواطر والافكار في أثناء مروره عليها . والفتاة المذكورة في السادسة أو السابعة عشرة من عمرها . وأبوها من اسرة قديمة عريقة في الشرف تسكن منذ سـنة ١٥٤٦ في مقاطعة (ويلس) بانكلترا

(١) كتبت سنة ١٣٢٤ هـ و ١٩٠٧ م

وقد حصل ثروة واسعة زيادة عن الثروة التي ورثها عن آبائه : استفاد معظمها من مناجم الفحم الحجري التى عثر عليها بالاتفاق في أراضٍ يملكها في مقاطعة كادت تكون كلها كتلة من الفحم الحجري

ومنذ بضع سنين انتُخب عضواً للجمعية الملوكية في لندرة وعلى أثر ذلك منحه جلالة الملك رتبة اللوردية . وهذا ما حمله على هجر وطنه ومغادرة قصر أسلافه والسكنى في قصر على ضفاف نهر التيمس في لوندره لا سيما انه آنس في ابنته الوحيدة ميلا الى مثافنة كبار العلماء ومحادثتهم وولوعاً بسماع اقوال الشعراء ونوادر الأدباء مماغلب على ظن معارف أبيها أنه سيكون لتلك الفتاة شهرة عظيمة في انكلترا أو انها ستكون من السيدات اللواتي يتخذن قاعةً (صالون) يأوى اليها أرباب الادب والشعر والظَّرف والذوق وهي (قاعات الأدب) التي تباهي بها لوندرة سائر مدن العالم

و « أملي » كما كانت على جانب من العلم والادب كانت على حصة موفورة من الحسن والجمال . ومن جرّاء ذلك كثر الراغبون في زواجها وكانت هي تأبى ذلك تفادياً من عَنَتِ الزواج وما يسحب وراءه من الذيل الطويل العريض : المنزل والاولاد والخدم والواجبات الزوجية وغير ذلك مما ترى نفسها في معزل عنه وراحة منه . وكان أبوها يرى منها ذلك فلا يُكرهها ولا يفتات عليها بقولٍ أو عمل

وفي هذا الشتاء أحبّت زيارة مصر واستأذنت من أبيها في السفر اليها فأذن لها على الكره منه لأنه يحبها لكن لا يريد أن يكون حبه لها حائلا بينها وبين التمتع بحريتها وطيب حياتها

وفي يوم ٣١ دسمبر الماضي بعد الظهر كانت (أملي) في غرفة من غرف

نزل شبرد في القاهرة مشغولة بكتابة كتاب الى والدها تصف له فيه ما شاهدته في صبيحة يومها وهذه صورته :

القاهرة : في ٣١ دسمبر سنة ١٩٠٦

والدي العزيز ،

لا أحبُّ أن يكون مشهد اليوم مما أودعه في دفتر المذكرات اليومية وأن أرجيء وصفه لك الى يوم اللقاء - بل افضل أن أسرع فأخبرك به وبما انتابنى من الخواطر أو الهواجس عند رؤيتى له . وربما كان الاثر الذي أودعه هذا المشهد في نفسي خالداً لا يذهب به كِبَر ، ولا يمحوه كرور الليالي والايام

أسرعت بنا العربة في الساعة العاشرة صباحا الى ميدان القلعة حيث يحتفل بتسيير المحمل ويكون ذلك بحضور الجناب الخديوي وكبار رجال الادارة والدين وكبار قواد جيشي مصر والاحتلال . وفي ذلك الميدان الفسيح تستعرض فرق من الجيش المصري ثم يُبدأ بالحفله التي كانت مشاهدتي لها حسبما أراد تأخري لاحسبما أريد . ولم أحب ان تفوتنى رؤية الموكب بتفصيلاته كما فاتتني رؤية الحفلة فأسرع بي الدليل الى شارع التبانة حيث يمر المحمل . ولم نصل اليه الا بعد اختراق أزقة ضيقة ذات تعاريج كما هي حالة اكثر الازقة التى تتخلل أحياء الوطنيين . وكانت جماعات من الاهالي يركضون لاجل مبادرة الموكب قبل وصوله ويكاد اللغط الذي يكثرونه والغبار الذي يثيرونه يصلان الى عَنان السماء فكنا نلوذ بالجدران والمنعطفات خشية ان ينالنا من الاذى ما لا نقوى على تحمله أو لا نطيق سماعه

وبعد أن أخذنا موقفنا في شارع التبّانة بدت طلائع الموكب من بعد فكانت البيارق تترنّح ذات اليمين وذات الشمال كأنها غابة تعبث بأشجارها أيدي النسيم و (البيارقُ) عَمَدٌ مثبتٌ على رأسها دوائر نحاسية مخرّمة ومعلق بها قطع

قماش مختلفة الالوان مكتوب عليها بأحرف من قماش ملوّن بعضُ آياتٍ وجمل دينية على هيئة دوائر ومثلثات ومربعات وأشكال أخرى هندسية ومن تلك البيارق ما هو ثقيل يكاد ينوء بحامله وقد رأيت بعضها تمزق وبَلِي على طول الزمن وبقي أهلوه محتفظين به كأثمن الذخائر

والبيارق المذكورة شِعارمشايخ الطرق. فكان كل شيخ منهم يمرّ راكباً على فرسه وبيارقُه الخاصة بطريقته منشورةٌ حواليه وعلى رأسه ، وتلاميذه يسيرون امامه يتلون أدعية وأورادا وصلوات ، ومنهم من يقود دابة الشيخ وآخرون يأخذون بركابه أو يتشبثون بأهداب ثيابه . ويتخلّل أصوات التلاميذ صلصلة الطارات أو البنادير. و (البندير) أطار من خشب مثبت عليه رق من جلد ومشدود به شداً محكماً بحيث اذا نُقر عليه كان له صوت يرنّ رنيناً . وقد علُّق في اطار بعض تلك البنادير سلاسل حديد قصيرة اذا نُقر البندير أو هُزّ كان لها جلجلة وصليل يمتزجان بأصوات المشايخ فيحدث من كل ذلك ضوضاء وجلبة كبرى . وقد تذكرت الآن اني رأيتُ أداةً صغيرة كانوا ينقرون عليها تسمى (البازة) وهي طاسة من نحاس على هيئة مخروط مشدود على فتحته قطعة رقّ ومثبت في قمته عروة من جلد تدخل في ابهام الكف وتطبق عليها الاصابع بقوة ثم يُمسك الواحد منهم بيده قدّة جلد ويأخذ في الضرب على الرق ضرباً متتابعاً ويكون من ذلك صوت تفاخر به تلك البازة الصغيرة سائر المصوّتات الكبيرة كالبندير والطبل ونظائرهما . أما الطبل فمعروف نشاهد مثله في جوقة الموسيقى العسكرية ولا فرق بين الطبلين سوى النظافة والوضاءة في أحدهما والكمدة والوساخة في الآخر

هـذه هي أدوات مشايخ الطرق ويتخلل جماعاتهم اجواق الزمور والطبول البلدية وليسوا من أرباب الطرائق وانما يندسون بينهم لاجل أن يكثر السواد

ويفخم الموكب . ولا يُقتصر في الموكب على مشايخ طرق القاهرة بل يُحشر اليه أيضاً بعض المشايخ من الاقاليم للسبب الذي ذكرناه . وربما كان في الموكب بعض أرباب الحرف والمهن : فقد شاهدت طائفة يُرفع أمامها عمود طويل يتشعب من أعلاه أعواد كثيرة يتدلى منها أسماك صغيرة مربوطة بخيوط فهل رأيت النجفة قط ؟ وتلك النجفة الغريبة ملفوفة بقطعة من الشباك التي يصطاد بها السمك في البحار والانهار . وسألت عن هذه الطائفة فقيل انها طائفة السّماكين . وقال آخرون انهم أرباب طريقةٍ شيخها كان صيّاد سمك . وبعد مرور هؤلاء الزّرافات والزمر يُقبل عليك جَمَلُ المحمل فيدهشك بريقه ولمعانه . و (المحمل) قبة خشب هرمية الشكل مغشّاة بقماش مزركش وموشى ومكتّب بالذهب ومزخرف بالنقوش والتهاويل البديعة والتزايين الجميلة ، وليس الجمل الذي يحمله باقل منه حظاً في الزينة والزخرف ، فانه يخطر في حلة من الوشي تجلله من رأسه الى منسمه بحيث لا يبين منه سوى سواد الحَدَق . ووراءه عدة جمال عليها محامل ورجال في زيّ مسافرين وحجاج ، ولك أن تعتبر موكب المحمل بهؤلاء الجمال والمحامل والرجال رمزاً للحج وتمثيلا لحالة الحجاج ، فيبثّ هذا المنظر في نفوس القوم الشوق والغيرة وحب القدوة ، ويتقدم الموكبَ ويتخلله ويتلوه كتائب من العساكر النظامية خيالة ورجالة بجوقاتهم الموسيقية . وتترامى على هذا الموكب أبصار المتفرّجين المتراصّين من أجانب ووطنيين ، ويختلف تأثرهم من رؤيته باختلاف اعتقادهم وأدبهم وشعورهم ، فقد رأيت بعض القوم يلهو ويضحك ويهزأ ويسخر ، ورأيت آخرين يصلون (تعني يدعون) ويكبرون ويسبحون الله ويحمدون . أما النساء فانهن عند اقبال المحمل عليهن يرفعن أصواتهن بالزغردة وأصوات الفرح شأنهن في العرس وعند جلوة العروس . والمراد من هذا الاحتفال الذي يمتد بين ميداني القلعة والعباسية كما أخبرني الدليل تجهيز كسوة و اهداؤها

الى الكعبة المقدسة القائمة في صحن جامع مكة المكرمة . وأخبرني الدليل أيضاً أن الحكومه العثمانية ترسل مثلها في كل سنة الى دمشق ومنها الى مكة وتسمى المحمل الشامي تمييزا له عن ذاك الذي يسمى المحمل المصري . ولا أراك يا سيدي الوالد تتململ أو تملّ من كتاب بنتك مهما أطالت لك فيه من الشرح ، بل ربما سرّك مني اهتمامي بدرس أخلاق وتقاليد أمة عظيمة كالامة الاسلامية التي اذا أنصفها الدهر وصَدَقَتْها الوعود الآلهية ووفت لها العهود السماوية ـ كان لها في مستقبل أمرها من العزّ والعظمة ما كان لها من ذلك في سابق تاريخها وماضي أيامها ولعمري أنها جديرة بذلك غير بعيدة عن تناوله ، إذا عرف زعماؤها وامراؤها كيف يسوسونها ويديرون أمرها . أمامن شهد من احتفالاتها مثل هذا المشهد الذي وصفته لك وقلّب طرفه في أطرافه وتغلغل بفكره في شؤون أهله والطائفين به ؛ خامره شيء من اليأس ؛ وداخله بعضُ الشك والارتياب . موكب المحمل له حالتان : « صورة » و « معنى » أما صورته فليس فيها ما ترتاح اليه النفس ويلذ به الحسّ سوى ذلك الشكل الهرمي البديع الذي يعلو سَنام الجمل . وما عداه ليس فيه سوى التشويش والاضطراب وعدم النظام . وليس لك أن تعد الجند ونظامه وموسيقاه مما تتألف منه صورة المحمل فان المحمل شيء وهؤلاء شيء آخر : للحكومة فيه مصلحة أخرى وقد جيء بهم لامر اقتضاه الحال

واذا كانت الصورة على ما وصفنا كان « المعنى » بالضرورة مطابقا لها ، وكيف يصح لك معنًى من جملةٍ ملحونة ، أو كيف يمكنك أن تستخرج مفهوما من منطوق ركيك وعبارة معقدة مشوّشة ؟ اذا رميت ببصرك على المحتفلين لاول وهلة انزعجت لفرط ما يصكّ أذنك من اللغط والاصوات الحادّة ثم لاتلبث أن تضحك عند ما ترى واحداً من المريدين يتقدم طائفته وهو يتمعّج ويتلوّى ويتشدّق بالقراءة تشدّقا . وترى التحوت والرعاع من حوله يضحكون ويسخرون .

حتى اذا مرت بك نجفة السمك بهتّ واندهلت وارتكست في الحيرة ولا تخرج منها حتى تقع في أخرى أشأم منها : هي هوّة الالم والانقباض حينما تبصر البيرق المكتوب بالآيات المقدسة يحمله أحد الزعانف من مسّاحي الاحذية بيد ويحمل باليد الاخرى صندوقته الخشبية الوسخة القذرة التي يمسح النعال عليها . وكأنهم استصغروا شأن ذلك البيرق الخَلَق البالي فأعطوه ذاك الولد الصغير الشأن ، وجعلوه يمشي في طليعة الموكب ، ولو عَدَلوا لعَظَّموا شأن هـذا البيرق العتيق : اذ ربما كان له شأن تاريخي لا يساهمه فيه غيره من البيارق

هذا هو الشعور الذي يستولى عليك عند استعراضك الموكب ، وهذه هي العواطف التي تنتابك حينما تمرّ عليك الفئة بعد الفئة من جماعاته

نعم قد يلابسك شيء من الخشية والاحترام عند ما ترى بعض مشايخ الطرق راكباً على فرسه خاشعاً ببصره ، تتجلى عليه المهابة والوقار ، وهو منظر يحدث في النفس عاطفةً دينية شريفة ، لكنها لا تلبث ان تزايل المرء حينما تمرّ عليه المضحكات المبكيات

تحار كيف تحكم على هذا الموكب : أتقول هو اجتماع ديني يطلب به التقرّب والزلفى الى الله ؟ أو هو احتفال رسمي يقصد به التنويه بسلطة الحكومة واظهار عظمتها وأبهتها ؟ أو هو مظاهرة وطنية ترجع الى تمجيد الوطن وذكرى شؤونه التاريخية ؟ أم هو مساخر يقصد من ورائها الانبساط والتلهّي بحيث يكون ذلك موسم سرور وفرح يعمّ طبقات الشعب كما هو الحال في المرافع وعيد شمّ النسيم

ثم تحكم أخيرا أنه مزيج مؤلف من المعاني الاربعة . إذا رضينا بكل شيء لا نرضى أن تكون الاعمال الدينية معروضة على الانظار لا سيما ناشئة الامة في قالب السخرية والهزء . الدينُ أرفع من ذلك وأعلى مقاما . أنا أعجب ياسيدي الوالد من عجز زعماء القوم وتواكلهم دون التعاضد في اصلاح تقاليدهم وتنقية

تعاليم دينهم من الشوائب والمغامز، كيف لم يوفقوا الى ذلك وهم سلالة اولئك الرجال العظام الذين كنتُ أقرأ تاريخهم في المدرسة فأدهشَ من إقدامهم وجرءتهم في تأييد الحق ونصرته

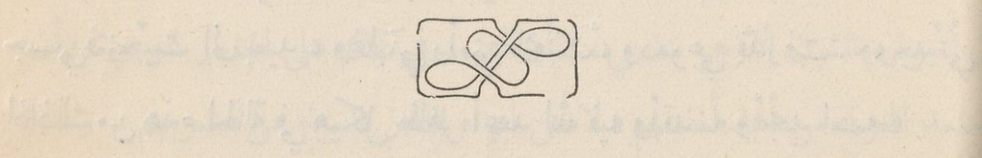
كان يمرّ بي الشيخ من مشايخ الطرق ويكون أحسنهم شارةً وأكثرهم وقاراً فأسأل الدليل الذي معي هل هو شيخ الازهر أو القاضي أو المفتى فيقول لا. فأقول اذن هو شيخ مشايخ الطرق؟ فيقول لا. فأقول له ولماذا لم يشهد هو أيضا هذا الموكب؟ فيُشير الدليل الى الزعانف والرعاع الذين يتولون بأنفسهم تلاوةَ الاذكار والضرب بالبنادير والبازات كأنه يقول ان مثل كبار الشيوخ لا يليق أن ينتظموا في هذا السلك ويختلطوا بهؤلاء الاوشاب. آمنّا بما قال الدليل لكن لا نؤمن انه يجوز لكبار الشيوخ أن يُعرضوا عن مثل هذه الحفلة ويُهملوها فلا يصلحوها ويطبّقوها على قواعد الدين والادب

هذه الحفلة ان كانت دينيةً وجب أن تكون شريفة مهيبة تبعث رؤيتها في النفس الخشيةَ والوقار. وان كانت رسميةً أو وطنية أو للسخرية فليُنَحَّ عنها كل شعار ديني وكل صبغة دينية ثم ليفعلوا فيها ما شاءوا. أنَا لم استمدَّ هذا الفكر - ياسيدي الوالد - مما أرى عليه حالة كَهَنَتِنَا ورجال كنيستنا من عنايتهم باصلاح الطقوس، وانما استمددته من الدين الاسلامي نفسه، ومن شعائره الطاهرة. أتَذْكُرُ إذ أطلعتك على مذكراتي اليومية عند عودتى من فلسطين في صيف سنة (١٩٠٣) فقد جاء فيها أني زرت الجامع الاقصى، واتفق أن المسلمين اذ ذاك كانوا يصلون صلاة الجمعة، فرأيت من اصطفافهم وخشوعهم وسكينتهم ما أشعرَ نفسي الهيبة والاحترام ولمحت على هذه الهيئة السماوية مسحةً مقدسة تستهوي النفس، وتؤثر في القلب، ويتضاءل بين يديها العقل مهما كان عاتيا. ثم لما رأيت حفلة الموكب اليوم تذكرت حفلةَ الصلاة في الجامع الاقصى

ورأيت ما بينهما من البون الشاسع ، والفرق العظيم . وحكمت بان الشارع الذي شرع لهؤلاء القوم هذه العبادة لا يُبيح لهم أو لا يرضى لهم قط أن يقوموا بهذه المظاهرات المشوّشة

الدين الاسلامي معدن ، واذا تعوّدنا ان نستخرج من ذلك المعدن شذور الذهب ثم عثرنا مرة علي زبرة (قطعة) من حديد ملقاة بجانبه كان لنا أن نحكم بأن هـذه الزبرة غريبة عن المعدن وليست من فِلزّه ولا هو منبت لها ، ويجدر باصحابه والقائمين عليه أن يُميطوا عنه الاذى ويصونوه عن أمثال هذه الشوائب والا تطرّق الشكّ اليهم واليه ، ولم يعد يُعوّل عليهم ولا عليه . وفي الختام أهديكم فائق الاحترام. اهـ

ابنتكم : املي



الفتاة الانكليزية

تصف الازهر [1]

بعد أن أرسلتْ «أملي» الى أبيها الكتابَ المؤرخ في ٣١ ديسمبر وضمّنته وصف موكب المحمل ، وما شاهدته فيه مما كان جديراً بالنقد ومعاتبة أهله عليه ـ أخذت تزور معاهد القاهرة وتتفقد آثارها القديمة وتكتب كل ذلك في دفتر مذكَّراتها اليومية ، مشفوعا بما يعنّ لها من الافكار والآراء

وكان أشد مواقفها انذهالا وتأثراً موقفها في (الانتكخانة) على رأس « رعمسيس الثاني » ذاك الملك العظيم الذي قاد الجحافل ، ودوّخ الممالك ، وأرهب الاعداء ، وتزلفت اليه الملوك والامراء . وقد عزّ عليها أن تُنْبَش رفاته بعد آلاف من السنين ، وتعرض على أنظار الدهماء بحيث تكون على مقربة من مواطيء أقدامهم ، وتحت مثار لغطهم وضوضائهم . فقد جاء في مذكرتها في هذا الشأن ما يأتي: « ولما رأيتُ العامة والنساء والولدان يُطيفون بتجاليد «رعمسيس الثاني» ويُدنون وجوههم من وجهه ويُلقون بأنفاسهم على مدارج أنفاسه ـ أكبرت الأمر ، وثارت في نفسي عاطفة الانَفة والحمِية ممزوجة بعاطفة العظة والاعتبار.. فجعلتْ أعصاب قدمي ترتجف ، وأصابني مثل الدُوَار ، حتى كدتُ افقد موازنة جسمي فتنحّيت الى بعيد ، وغلبتني رأسي فانحنتْ ، ودموعي فذرفت . ووجدتُني اذ ذاك من هذه الحالة في هيكل طاهر أعبد الله فيه وأقدسه وأمجد اسمه »

ولما زارت هرمى الجيزة ، وطافت فيما يليهما من الآثار عانت مشقة وصعوبة ولامت الحكومة على اهمالها اصلاح الطرقات هناك : فلم يكن بين الهرمين ولا بينهما وبين الاسفنكس (أبي الهول) طريق ممهدة يسهل المشي عليها . بل كانت

(١) كتبت سنة ١٣٢٤ هـ و ١٩٠٧ م

أحافير ونجوات . وكانت ترى قطع الاحجار مبددة في نواحيها وسحب الغبار تأخذ باكظام السالكين فيها . قالت : « وعهدي بالحكومة أنها تهتم بكل ما يريح السياح والوافدين على هذا القطر ، ويسهل عليهم زيارة معاهده وآثاره مما يحببه اليهم ، ويغريهم بالعودة اليه ، والتردد عليه . واشهر معهد يجتذب السياح الى هذا القطر انما هو الأهرام فكان ينبغي أن تكون العناية به أكثر ، والتوفر على تمهيد طرقاته أوفر »

وقد زارت الازهر الشريف ، وطافت في ارجائه ، ووقفت على حلقات دروسه ، وحاورت بعض طلابه ؛ حتى تمكنت بذلك من الاطلاع على عُجَره وبجره (أموره كلها ما ظهر منها وما بطن) ومع هذا فقد حسبت نفسها مقصرة في ذلك ، ورأت أن ماعرفته عنه غير واف بمراد والدها الذي كان رغب اليها أن تزور الازهر وتكتب اليه بتفصيلات شئونه ، ومختلف أطواره واخباره . وقد اعتذرت له عن تقصيرها في ذلك بما جاء في فاتحة ذلك الكتاب الذي أرسلته اليه من القاهرة بتاريخ ١٩ يناير سنة ١٩٠٧ وهذه صورته :

والدي العزيز ،

كان بودي أن أكثر من التردد على الازهر . وأسهب في وصفه ووصف مجاوريه ومختلف حالاتهم . غير أني وجدت في الامر بعض الصعوبة لما أني أحب أن أتعرف شئون الازهر بنفسي ، لاأن اعتمد في ذلك على اختبار غيري . وأن استمد المعرفة من أهله أنفسهم ، لا من افواه الناس الغرباء عن مشربهم . وهذا لا يتيسر لي مع جهلي باللغة العربية ، والتواء طريق الترجمة الذي كثيرا ما يؤدي الى غير ما يقصد الانسان . هذا من جهة . ومن جهة ثانية فان محادثة مثلي لمجاور أوشيخ لم يعتد محادثة النساء الأجنبيات ولم يُبِح له دينه وعادته مجالسة الفتيات الجميلات — هي من الصعوبة بمكان . وربما احتفّ بها مالاترضاه اللياقة والادب . فقد

رأيت في صحن الجامع اثنين من المجاورين أحدهما يقرأ للآخر ويعلمه. وقد جلسا على جلد غنم تحت أشعة الشمس، وامام كل منهما محفظة من جلد مثبت في أطرافها أزرار وعُرَى من جلد أيضاً، تُشَدّ على الكراريس التي تودع فيها احتفاظاً بها، وخشية أن تمزّق أو تضيع فيضيع بضياعها الكتاب التي اخذت منه. ويحيط بكل من الطالبين نعله، والقُلّة التى يشرب بها، ومنديل لفّ به رغيفين بينهما بضع فجلات وأقراص من طعام يسمى (الطعميّة) وهى في هذه البلاد بمنزلة البطاطا فى بلادنا، والمكرونا فى ايطاليا، والكسكسو فى شمالى افريقية. دنوتُ من المجاورَين لأتعرَّف بعض شأنهما، فاذا أحدهما فى سن الكهولة، والآخر فى العشرين من عمره. وتظهر على وجه الكبير مخايل الورع والتقوى. فسألته بواسطة الترجمان عن الكتاب الذي يقرؤه، وما هي المسئلة التى يقررها؟ وكم سنة قضى فى المجاورة؟ ومتى تنتهي مجاورته؟ وماذا يقدّر في نفسه أن يتعاطى من الاعمال اذا خرج من الأزهر؟ فنأى بجانبه عني من أول سؤال عابساً مقطباً ولم يجب بشيء. وسمعته يجمجم ببعض كلمات. فأدركتُ أنها جمل دينية، وأنه يصلى بها (أقول لعل تلك الكلمات لا حول ولا قوة الا بالله. أو حسبنا الله ونعم الوكيل) فابتدَرَنا تلميذه الشاب وحاول أن يُجيب عن الأسئلة فرحاً متهللا وقد علا وجهه حمرة الخجل بحيث كان يتلعثم ويتردد فى الكلام. وكان شيخه يلحظه شزراً وكأنَّه يؤنبه على النظر الى وجه امرأة أجنبية. وكان يشير اليه أن يوجز فى الجواب لاجل أن ندعهما ونسير في طريقنا. ثم لم نلبث أن انساب الينا المجاورون من أطراف الجامع، واحدقوا بنا من كل ناحية. وكان بعضهم ينظر اليّ على غير ما ترتضيه الحشمة والادب وربما اتبعونى بنظرات خائنة وكلمات خاطئة. عرفت ذلك من كثرة ما كان الدليل يلتفت اليهم المرة بعد المرة. ويعبس في وجوههم ويرمز اليهم بعينيه ان يكفوا ويرعووا. ولم ألم نفسي على الدخول بينهم لأنى انما

دخلت مسجد دين وعبادة . وأردت أن أحادث قوماً نشأوا فى العلم ، وغُـذوا بلبان الدين وآدابه منذ نعومة أظفارهم . كما لم يكن لي أن ألومهم على جهلهم محادثة النساء ومجالستهن ، والآداب المرعية فى معاشرتهن . لانهم معذورون في هذا الجهل ، بل هو طبيعي فيهم وفي كل انسان غيرهم ممن حيل بينه وبين جنس النساء بحائل الحجاب . أما العبْث بالاشارات ، والرفث بالـكلمات ، مما صدر من بعضهم فهذا ما كنت انتظره منهم . ويحقّ لي أن أنحي لأجله باللائمة عليهم . وأرى وازع الدين والادب ـ اللذين تجردوا لخدمتهما والتخلق بأخلاقهما ـ كافيا لان يزع حضراتهم ، ويأخذ على أفواههم وأبصارهم

ثم قالوا للترجمان ان هناك مجاوراً يعرف قليلا من الفرنسوية وقد اعتاد على مخالطة الافرنج ، وهو بارع في علوم الازهر مواظب على تلقيها عن اساتذته وانه كفيل بالجواب عن كل ما نسأله عنه . قالوا لنا ذلك لمّا رأوا الشـاب الذي كان يجيبنا يُسيء فى الجواب ويتلعثم من فرط الخجل في الخطاب . ثم جاء المجاور المذكور ، فاذا هو حسن العمة ، كريم الشارة ، وكانت دلائل الفطانة والذكاء بادية على وجهه . ولمـا اقترب منا وطيء ذيل فسطاني فخجل واستحيي . وأحب أن يعتذر باللغة الفرنسوية فخاطبني بقوله « مرسي » حاسباً نفسه يقول « پارودون » ولما علم أنه وضع كلمة الشكر موضع كلمة الاعتذار تصبّب عرقاً وازداد خجالة واستحياء . فنفَّست عنه ، وطيَّبت خاطره . ثم فهمت منه أنه شرع في تلقى الفرنسوية منذ بضعة أشهر وأنه صحب طبيباً يهوديا المانياً مستشرقاً يسكن بيتاً فى شارع السكة الجديدة ، وان ذلك الطبيب يعرف الفرنسوية جيداً . فأحبا أن يتعاوضا بينهما اللغتين : ذاك يعلمه الفرنسوية ، وهو يعلمه العربية . ثم سألني عما أبغى من الشيخ الـكهل وصاحبه . فذكرت له ما كان من أمر الأسئلة الخمسة واعراض الشيخ الذى استثقل مجلسنا وتأثم من حـديثنا ، فغادَرَنا ومضى . فتبسم الفتى وقال : ان

امثال هذا الشيخ كثير في نفورهِ منكِ ، وتأثمه من محاورتكِ والنظر اليك ولم يجنه كل هذا من الدين . فان للتقاليد والعادات والتربية القومية معظم التأثير في ذلك . فلو غضّ الشيخ من بصره ، وكفكف من طموح نفسه ، ثم أجابك على أسئلتك بقدر امكانه ، لما كان في صنعه هذا آثماً ، ولما كان الدين عنه إلا راضياً

بل لو تفطن الشيخ وانتقل بك من حيث لا تشعرين الى وصف الدين الاسلامى الذي جرّد نفسه لخدمته وبثّ دعوته وأخذ فى بيان أصوله وتعاليمه لك وانها لا تناقض المدنية بحال من الاحوال ، وان فيه من الآداب والفضائل ما يبوّئه المنزلة الاولى بين الاديان ــ لكان فعله عبادة يؤجر عليها ويستزيده الدين من أمثالها

ولما سمعتُ ياسيدي الوالد هذا الكلام من الفتى ، وقارنت بينه وبين ذلك الشيخ ، علمت أن الازهريين فئتان شيوخ وفتيان : الفئة الاولى تريد ألا تعرف من الدنيا غير ما عرفه آباؤها عنها ، وان تبقي عليه ، وتعرض عن غيره الى الابد وحالة هذه الفئة تقود بطبيعتها الى الجمود والخمول وعدم انتشار تعاليم الدين وترك العمل به رويداً رويدا . أما الفئة الثانية فقد علمتْ أن الوجود دين ودنيا ، وان الدنيا تنتقل من حال الى حال ، وان معرفة أحوال الدنيا تساعد على نشر الدين والعمل بتعاليمه ، من حيث ان تلك المعرفة تستدعى التطبيق بين تكاليف الدين وتكاليف الدنيا ، والجمع بينهما . فمن ثمّ كانت فئة الفتيان أعرف بحقيقة الدين وأقدر على بثّ فضائله وتعاليمه ، وان كانت أقلّ عدداً من فئة الشيوخ

ثم قال الفتى : ان الشيخ يقرأ فى كتاب اسمه (مراقي الفلاح) وعليه حاشية تدعى (حاشية الطحطاوي) والمسئلة التي كان يقرّرها فى ذلك الكتاب هي (مسئلة المياه) التى يجوز التطهر والتطهير بها . وان أقسام تلك المياه سبعة :

ماء البحر والنهر والمطر والينابيع والآبار وماء الثلج وماء البرَد

فقلت للفتى وما الحاجة الى تقسيم الماء الى هذه الاقسام ؟ أما يكفي أن يقال للطالب استعمل الماء الذي تشربه ، وهو معروف لديه مهما كان مصدره . قال نعم غير أن الفقهاء يحبون أن يستوفوا الاقسام فى الماء الجائز كما استوفوها فى الماء الممتنع

قلت وما الماء الممتنع وما هي أقسامه ؟ قال هناك ماء يسيل من الاشجار مثل ماء الكرْم . وماء تضاف اليه مادة من غير جنسه ، إما بواسطة المزج أو الطبخ أو النقع . فيلزم أن نعرف حكم الماء اذا مازجه ماء ورد مثلا أو نقع فيه زبيب أو تساقت عليه أوراق الاشجار أو ...

فقلت للفتى يكفي يكفي . وتفطنت اذ ذاك الى ما يمكن أن يُتصور من المسائل فى مسئلة المياه . ووقع فى خيالي سعة الدائرة التى يمكن ان يحشر اليها كل فرض وتخمين مما يتعلق بالسائلات والمائعات وما يمازجها من الجامدات المنبثة على وجه الارض والساقطة من السماوات

ثم قلت ولكني رأيت فى يد الشيخ عكازة وقد جعل يشير اليها فى أثناء التقرير فقال انه بمناسبة الماء استطرد الى ذكر الحيوانات التى تعيش فيه وأنواعها وضروبها وما يجوز أن يُؤكل منها وما لا يجوز . وان كل حيوانات البحر تؤكل ما عدا (الجِرّيث) و(المار ماهي) وهما حيوانان على شكل الثعبان . فالشيخ يمثّل للطالب هيئة ذلك الحيوان بالعكازة وان عدم جواز أكله مبني على صورته وشكله

فقلت وما هذه الكراريس والكتب التى كان يقلبها الشيخ ويقرأ فيها من آونة الى اخرى أثناء قراءته (مراقي الفلاح) . قال انها العيني وحاشية أبي السعود على ملاّ مسكين والزيلعي والبحر وابن عابدين . فان مسئلة أكل حيوان البحر

جاءت مبهمة فى حاشية الطحطاوي المذكورة فأراد الشيخ أن يستعين على فهمها بما شرحتهْ تلك الـكتب ، وعلَّقته على المسئلة

ولما وصل الفتى فى حديثه الى هنا أحسستْ بدُوَار فى رأسي واضطراب فى أعصابى .ووجدتنى قد اضعت اصلَ الموضوع الذي عُقِدَ الدرس لاجله.فتركت الـكتب الفقهيه وأنواعها ، ورجعتَ القهقرى الى الاسماء وضروبها . ثم انتقلت الى المياه واقسامها ، فجريت معها وسلت في مسايلها . ولما وصلت الى ينبوعها تذكرت انها تستعمل في الوضوء عند إرادة الصلاة . فالدرس اذن درس دين والغرض منه تعليمنا كيف نعبد الله

فعلمت ياسيدى الوالد من بحث المياه وتقرير الاستاذ أن كتب التعليم وطريقته في الازهر الشريف على غير ما يجب أن يكونا عليه من السهولةوحسن التبويب والترتيب وجودة الالقاء ، والاقتصار على قدر الحاجـة . وان روح العلم يوشك أن تختنق تحت هذه المباحث المتراكمة . فاذا كانت النظافة لاجل الوقوف بين يدي الله يستغرق الـكلام عليها كل هذا الزمن ويستوعب كل هـذا البحث ، فـكم تـكون المسائل والمباحث والجدليات والخلافيات المتعلقة في سائر الاحكام الدينية والفقهية واللغوية الراجعة الى مصالح الانسان وأعماله في هذه الدار ، وعقائده وعباداته في الدار الآخرة ؟ حقاً ان مسألة المياه ياسيدي ساءت نموذجاً للعلوم الازهرية وطريقة تعليمها فيجدر بحضرات رؤساء الملة ، وزعماء الدين وحماة الشريعة ـ العناية باصلاحها . ثم قال الفتى أما الشيخ فقد قضى في المجاورة قرابة ثلاثين سنة، ولا نهاية لمجاورته ، ولا أمل له في عمل غير خدمة العلم الشريف في الازهر . ثم أسهب الفتى في وصف طلاب الازهر ، وكيف يبتدئون وكيف ينتهون ، وما هي آمالهم التى تحيك في صدورهم في أثناء المجاورة ـ إسهابا فهمت منه أن الازهر يعوزه النظام ، وانه ليس لاهله

حياة مرتبه ، وأن همهم تحصيل علوم الدين واللغة ؛ في الطريق التى سلكها آباؤهم من قبلهم : طالت أو قصرت ، نفعت أو ضرت . وأنهم لا يشعرون بما هي عليه حالتهم من العُقم ، وقلة الفائدة ، لان نفوسهم لم تشعر بعد بالوسط الذي يعيشون فيه ، وبما يحيط بهم من حركة العمران ، وارتقاء مجتمع الانسان . واذا أحسوا بشيء من ذلك أونبههم اليه منبه أزدروه واعرضوا عنه ، لاعتقادهم أن ما هم فيه عبادة مهما قلّ الجزاء عليها في الدنيا سيكون لها في الآخرة من الجزاء والمكافأة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت . ويصعب مع هذا الاعتقاد والاستنامة الى حالتهم المذكورة أن يلتفتوا الى نظام ، أو يرغبوا في اصلاح . وفهمت من الفتى أيضاً أن أغلب علماء الازهر الذين بيدهم ادارة شئونه ، والحل والعقد في ما يعرض من أموره ، هم رجال علم وصلاح وتقوى ، ولم يتدربوا علي ادارة الاعمال الكبرى ، وجُلّ حياتهم حياة علم وفكر ولم يسبق لهم أن يحيوا حياة عمل وادارة . واذا وجد بينهم من يحسن الادارة لم يقدروا ان يملكوا نفوسهم عن منافسته وإلقاء العوائير في طريقه . وخلاصة ما يقال في إصلاح الازهر أنه يتوقف على وجود رجلين : رجل يعرف كنه الاصلاح و هو مضطلع بالقيام به ورجل لايحسن شيئاً من ذلك وانما هو مملوء القلب بالاخلاص والثقة بالمصلحين العاملين . فاذا توفر أمثال هذين الرجلين بين من يديرون الازهر تم له الاصلاح والا كان متعسراً بعيد الحصول

ثم أخذنا في الطواف في الازهر والتجوال في ارجائه فاذا هو منفسح الاطراف مترامى الاكناف . وهو مؤلف من صحن وحَرَم وأروقة : أما الصحن فهو وسط الجامع ولا سقف له . وأرضه مرصوصة بالاحجار ، والحرم مسقوف ، وقد رفع سقفه على عَمَد من حجر لطيفة الحجم والشكل كأنها شموع . وتحيط بصحن الجامع الاروقة وتعلوها المقاصير والغرف التي يبيت فيها المجاورون

وليس في داخل الازهر من فخامة في بنائه أو تزيين أو نقوش على جدرانه وانما يوجد بعض الشيء من ذلك فالاطناف والافاريز على شرفات أروقته المحيطة بصحنه وفي بعض جدرانه الخارجية لاسيما جدار الباب الاعظم . وسأطلعك حين قدومي على بعض الصور والرسوم التي اشتريتها من هنا . وهي تمثل لك شكل منارات الجامع وجدرانه مما جدده جناب الخديوي الحالي . وهي التى يستقبلها الوافد على الجامع كما تمثل لك هيئات العلماء وأزياءهم في عمائمهم وجببهم وسبحهم وعباآتهم التى يتلففون بها اذا لذعهم البرد

أما تاريخ الازهر وما طرأ عليه من الشؤون في سنيه السالفة والحاضرة فلا حاجة الى ذكره لما أنك تعرفه من (الانسكلوبيذيا البريطانية) ومن جرائد الاخبار والمتجوّل في داخل الازهر لايرى فيه من آثار العناية ما يلائم شهرته . وينطبق على كرامته :

فمصابيح النور الغازي قليلة ومرتفعة عن محال المطالعة مع أن طلاب العلم في حاجة شديدة الى النور حفظاً لعيونهم التى هي رءوس أموالهم . وقد أخبرني الفتى ان مصابيح حرم الازهر تتراءى للمقبل عليه ليلا كما تتراءى حشرات الحباحب للمقبل على غابة غبياء في ظلام الليل . وليس فيه بسط ثمينة بل ولاحصر قشّ حسنة متينة وانما هي مخرقة ممزقة تعرض الماشي عليها للعثار

فلو رأيتني ياسيدى الوالد وأنا أمشي في الجامع منتعلة بالنعل الاصفر الذي أعدّوه للسياح لان السائح لايمكنه ان يدخل منتعلا خشية ان يلوث بنعله أرض الجامع الطاهرة المعدة للصلاة ، ولا يمكنه أن يدخله حافياً لئلا تلوث أرض الجامع نفسها قدميه ! !

وكم كدت اعثر وأنا أمشي في هذين النعلين الواسعين بما كان يعترضني من حصر القش ، وأطرافها الممزقة ، وعيدانها المشرعة

قشور الكراث والفجل وقصب السكر وفتات الخبز والعظم كانت مبعثرة هنا وهناك في صحن الجامع وفي زواياه

أرغفة الخبز كانت تنشف في حرارة الشمس خشية أن تعفن وتفسد ثم يحفظها المجاورون الفقراء الذين ليس لهم تعيين فيتبلغون بكِسَرها وفتاتها

الغبار كان يتطاير ونحن ماشون على البلاط الذي ألبست بعض أحجاره غشاوة من وسخ حَولتْ بياضه الى كمدة وسواد

الازهر تقام فيه الصلوات ، وفي حرمه منبر ومحراب ، فهو مسجد لكن اذا اذن للصلاة تقاعد المجاورون المشتغلون بالمطالعة عن النهوض اليها . ولنا ان نعتبر الجامع من فعلهم هذا مدرسة علم لا مسجد صلاة . واذا سمعت أصوات قرّاء البردة وأشباهها من قصائد الدعاء ، وأوراد الصلاة ، حسبت المكان تكية ، حشر اليها الدراويش والصوفية

ثم تلتفت فترى أسرابا من الاطفال الصغار بعضهم يحملون ألواح الصفيح يتمرّنون على الكتابة فيها . وآخرون منهم يحتضنون المصاحف ورءوسهم تخفق عليها ، ما بين تصويب وتصعيد . ويتلون القرآن ويتعلمون التجويد فتحكم اذ ذاك بأن المكان (كتّاب ابتدائى) لتعليم الولدان مباديء القراءة والكتابة

أما اذا رأيت بعض المجاورين يدخنون ويشربون الشاي على مقاعد بعض أبوابه ـ ورأيت أناسا يحملون رقاعاً ويتسللون بين جماعات المجاورين يعرضون عليهم أسعار الطعمية التى تباع في حوانيت حوالي الازهر كما أخبرنى بعضهم ، ثم رأيت آخرين في بعض جنبات الازهر يبيعون ويشترون ـ اذا رأيت ذلك كله فلا تلبث أن تحكم على الازهر حكمك الاخير ، وتقول : انه عالم صغير انطوى فيه العالم الكبير

وبينما كنا لاهين بهذه المشاهد ، اذا أنا اسمع صوتاً غريباً « هس حس فس سدس » ولما سألت عنه قيل لي ان المجاورين اصطلحوا على هذا الصوت ، أو هذه السأساة ، لاجل إعلان الاستاذ بانهم يريدون أن يختم الدرس ، فاذا أبى عليهم تمادوا في السأساة حتى يمل ويضجر ويدع الدرس

ولك ياسيدي الوالد أن تستنتج من هـذه « السأساة » اموراً : (١) تراخي الآداب بين بعض الطلاب (٢) ضعف سلطة بعض الاساتذة وصغر نفوسهم دون أن يجعلوا لانفسهم هيبـة واحتراماً في نفوس تلاميذهم . وأخشى يا سيدي الوالد أن يكونوا صغار النفوس أيضا فيما لو وقفوا موقفا ما مع غـير تلاميذهم (٣) وهن ادارة الازهر بحيث لا تقوى على امداد المدرسين بسلطة يكبحون بها عرام التلامذة ويقوّمون من اعوجاجهم (٤) الفوضى في الوقت : فليس للدرس زمن محدد بل هو متروك لرأى الطلاب ان شاءوا قصّروه وان شاءوا أطالوه . والوقت ظرف فاذا اختل امره وفقد النظام كان المظروف اعني الدروس عرضة للاختلال والاضطراب

ثم تمشينا في خلال حلقات الدروس فرأيت الاستاذ يجلس على كرسي من خشب مستند على عمود من عمد المسجد ومربوط بسلسلة . ويتحلق التلاميذ من حول الاستاذ جلوساً على الارض . والكراريس بايديهم ، ينظرون اليه تارة ، وفيها تارة اخرى . ولما كانت الحلقات متقاربة ، وأصوات المشايخ متشابكة كان كل من المدرسين مضطرا الى ان يرفع صوته ليُسمع تلاميذه . أذكر اني رأيت أحدهم جاحظ العينين ، منتفخ الاوداج ، وقد بحّ صوته من كثرة ما عانى من رفعه ، ومغالبة غيره من الاساتذه به

ثم ارتفعت جَلَبَة وضوضاء في احدى الحلقات فأسرعنا الى هناك وكافت الفتى

والترجمان ان يتقصيا لى جلية لامر . فاخبراني بأن أحد نبهاء المجاورين ، وهو من فئة الفتيان - أو حزب الاصلاح - يقرأ على شيخ كبير من مشاهير علماء الازهر (كتاب المنهج) بحاشية (البيجرمى) ، وسمّوا لي اسم الشيخ لكني نسيته . فراجع هذا التلميذ شيخه في شأن الحاشية المذكورة ، وعاتبه على قراءة الحواشي في كل كتاب يقرؤه قائلا ان قراءة الحواشي لا تفيد ولا تكسب الطالب سوى خسارة وقته . فأنكر عليه الشيخ قوله ونهاه عن العود الى مثله . فأصر التلميذ على رأيه . ثم أيد قوله بما أفاض به الكتّاب في الجرائد من تهجين قراءة الحواشي وانها مضرة ومعوقة للطالب عن تحصيل الملكة في العلم . وأظنك ياسيدى الوالد تعرف ما هي الحواشي فلا أراني في حاجة الى وصفها لك . فقال له الشيخ « أنت مذ بذب اذا كنت تقرأ الجرائد » فأجابه الطالب « نعم كنت أظن ظنك في الجرائد ثم بدا لي أنها نافعة ومفيدة »

فامتعض الاستاذ حينئذ وقال لتلميذه « قم من درسي والا طلبت مُشِدًّا (وهو في الازهر بمثابة البوليس) يأخذك يازنديق ، قم من هنا »

ثم أقبل الاستاذ على الطلاب وخطبهم قائلا « ان الحواشي تنور الذهن ، وتجعله يفهم الغامض من العلوم . ألم يكفِ برهانا على فساد مزاعم هؤلاء الجهلاء - المشايخ المتقدمون : كالباجوري والدمنهوري والشيخ عليش والشيخ الاشموني والانبابى . هؤلاء كانوا أفاضل . ألم يكن فيهم من هو أعظم من هؤلاء منتحلي اسم الاصلاح . حسبنا الله ونعم الوكيل ، وهو يحكم بيننا وبين هؤلاء المنافقين »

ثم التفتَ التلميذ الى الفتى الذي كان معنا فعرفه لانهما من مشرب واحد ، وعلى طريقة واحدة . فقام اليه وسلم عليه ، وأخذ يحكي له آراء شيخه ومزاعمه في العلم وطريقة التعليم . ثم قال ان كل تقليد أو عادة موروثة يطلق عليها الشيوخُ اسم الدين ، ويحمونها بذلك من أن ينالها نقد الناقدين . فالامر لله العلي الكبير . ثم

تكلم في الحزب القديم كلاماً بشعا ووصفهم بما لا يحسن ذكره

ولا تسل عن سروري يا سيدي الوالد من وقوفي على هذه المحاورة بين التلميذ واستاذه . لما أنها توضح لنا حالة الازهر . وتصف لنا آراء حزبيه الكبيرين أتم الوصف وتطلعنا على اعتقاد كل حزب منهما في الآخر

ومما زادني بصيرة في أمر هذين الحزبين محاورة أخرى شبيهة بها جرت بين طالبين كل منهما ينتمي الى حزب من الحزبين المذكورين

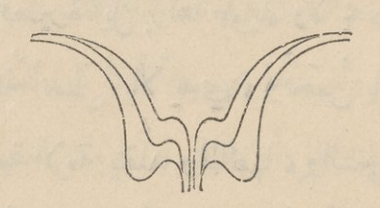
ولم تقع هذه المحاورة على مسمع منا وانما قصها على فتانا – بمناسبة محاورة الاستاذ والتلميذ المذكورين – رصيف له من حزب الاصلاح كانت المحاورة حصلت بينه وبين طالب من الحزب الآخر ، قال : اجتمعت به وأنا أحسبه من ذوي الآراء الصائبة ، والافكار النيّرة . فخاب ظني فيه وندمت على الكلام معه . فقد سألته عن رأيه في الاصلاح فكلح في وجهي وقال « ان هذه الامور من البدع في الدين » فقلتُ له : ان الاصلاح هو رأي جمهور العقلاء وكبار الباحثين . فغضب واحمر وجهه وصرخ قائلا « والله ان هذه المسائل التي تقولون بها ستكون السبب في محو الشرع . لعن الله الفلسفة وواضعها ومحبّها والمشتغل بها . نحن نتعلم ما هو واجب علينا تعلمه من العلوم . وليس منها ما هو واجب علينا سوى علوم الشرع ، لا يشاركها في ذلك مشارك . أما ما تسمّونه العلوم العصرية فهوأساس كل بلوى . انظر الى حالة تلاميذ المدارس الاميرية وماهم عليه من الفساد وسوء التربية تفقه صحة قولي . ها نحن أولاء وحضرات أساتذتنا قدقمنا بالواجب علينا فالتقصير والاهمال انما هما من الامراء والحكام . نحن نقول لهم اعملوا وهم لايعملون . فهم اذن المسئولون والملومون . نحن لا حول لدينا ولا قوة ولا جاه ، وانماهم المستأثرون بكل ذلك » . فقطع عليه خطبته البليغة أحد

المجاورين وقال : حسبك يا أخي حسبك . وكأن الخطيب اغتاظ من تهكمه به . فانتصب واقفا على رجليه بقوة وعنف وصرخ صرخة شديدة دوى لها الجامع . وجعل يبكي ويغمغم في كلامه . فقال لي أحد المجاورين دعه والا أصابك من بوادره ما تسوءك عقباه . فغادرته وانصرفت

***

هذه أمثلة من وصف الازهر وشؤون أهله ومنازعهم أقدمها اليك ياسيدي الوالد عساك ترى فيها ما يكفي لتمثيله لك ، وايداع صورة منه في نفسك ، فتحكم له أو عليه . وفي الختام ، أهديك فائق الاحترام اه

ابنتكم : املي



البطالة والعمل (١)

يَرَى العاملُ أيامَ العمل والشغل قصيرةً جداً : لاتلبث أن تشرق الشمس حتى تغرب. ولا يستهلّ الشهر أوالسنة حتى تنصرم . ذلك لان انهماكه في عمله الذي يزاوله يصرف ذهنه ومشاعره عن ملاحظة الوقت ومروره . فلا يرى نفسه الا فى آخره . فيأخذ تارة فى العجب . وطوراً فى التأفّف من قصر العمر وتضاؤل أيام الحياة . على العكس من لبيد الذى شكا من طولها فى قوله :

« ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤال هـذا الناس كيف لبيد »

لـكن العامل الذى يقضى أوقاته فى الشغل إن تأفف من قِصَرها لاول الامر لايلبث بعد أيام حتى يشعر بانها كانت فى الحقيقة طويلةً لما يراه من أثرها ونتائجها التى يتمتّع بها ويستفيد منها فى وقته الحاضر : فهو ان كان قضى تلك الايام بالعلم والمطالعة والتأليف — رأى كثرة ماوعته نفسه من أنواع العلم وضروب المعرفة وما خطَّه قلمه من الآثار والتصانيف والمؤلفات . ويعـلم أن كل ذلك خالد باق يحفظ ذكره . ويفيد غيره واذا عرف كيف يستفيد من وقته مالاً وجاها كان له نعم الذريعة الى نيل مايبتغي ويتمنى من ذلك . واذذاك لايعود يرى تلك الاوقات التى ملأها بالعمل العلمي قصيرة بل يراها طويلة ولا يحكم بانها خيال أو ظل زائل بل يقول انها حقيقةٌ ثابتةٌ تُلمس بالأيدي ، وتُحَسُّ بالابصار . وهكذا العامل الذي يقضي أيامه فى خدمة الامة بتقلّد وظائفها ، والسعى فى توفير مصالحها. ومثله الذي يشتغل فى التجارة أو الزراعة أو الصناعة أو أيّ نوع من أنواع الـكسب ، وفرع من فروع الاعمـال . فـكل هؤلاء يشـعرون بقِصَر أوقات أشغالهم ، ثم لايلبثون بعد انصرامها أن يروها طويلة لما ذكرنا

---

(١) كتبت سنه ١٣٢٤ هـ

أما ذاك الذي يحيي ليله باللهو واللعب . ثم ينام الى ما بعد الضحوة الكبرى . واذا أيقظته الخادمة سبًّها وشتمها لانها أطارت نومه . وأقلقت راحته بكثرة لغطها وسوء أدبها . ثم يأخذ فى مناقرة زوجته وانتهار أولاده واذا عاتبته زوجته فى ذلك رجع باللوم على الخادمة وانها هى السبب في ذلك كله لأنها أيقظته قبل أن يشبع نوما . حتى اذا خرج الى السوق طاف على أصحابه يزورهم ويُلهيهم عن شغلهم . ثم تدركه صلاة العصر فيصليه فى بعض المساجد ان كان ممن يصلون . ثم يأوى الى القهاوى والبارات فيلعب بأدوات اللهو والبطالة أو يذهب الى الفسحة فى ضواحى المدينة ولا يعود الا فى العتمة وهكذا يقتل الليل والنهار — رجلٌ هذا شأنه جدير بأن يرى أيامه طويلة ووقته منفسح الاطراف مترامى الابعاد. فلا يكون منه سوى الضجر والتأفف من طوله ويحار كيف يقضيه ويبذّر ساعاته

واذا صادفت هذه البطالةُ أو الآفة في امرءٍ شباباً وصحةً ومالا ، ومن نفسه جهلا وغرارة ، باضت البطالة فيه وفرّخت وكانت أقرب الطرق فى ايصاله الى مراتع الآثام ومكامن القصف والفجور . وهذا الذى رأيتَه يتأفَّف من طول الوقت وانفساح مدى الايام لا يلبث بعد تقلّصها حتى تراه يقرع سنّ النادم على قصر عمره . وانصرام أيام حياته . وضياع سني شبابه ويحكم بأن الحياة خيال . أو ظل شأنه الاضمحلال والزوال ولم تترك له تلك الايام الخوالى أثراً محسوساً تُذْكَرُ به ويُستدلّ على وجودها بحصوله . كما كان للعامل من أيام عمله . فيكون قوله بأن عمره وسنى حياته ظل أو خيال ان لم يكن حقيقة فهو قريب منها جدير باسمها

والبطالة ممقوتة فى جميع الاديان وعلى لسان جميع الشرائع لانها تؤول بالغنيّ الى المآثم غالباً وبغيره الى التسوّل أو أن يكون كَلاًّ على غيره ممن تلزمه نفقته وممن لا تلزمه . وتؤول بهما جميعاً الى الضجر من الحياة والتأفف منها فيكون ذلك

شقاءً لهما ووبالا عليهما وعلى من اتصل بهما

والبطالة قبيحة من كل الناس لكنها فى الشبّان أقبح . لانهم أنشط للعمل وأقدر على السعى والكسب . ولهم فى الحياة مستقبل هم أجدر بأن يُعِدُّوا له عدته ، ولا يفرطوا فيه . ولذلك قال عمر رضى الله عنه :

« إنى لأرى الشاب فيعجبني فأسأل هل له عمل فيقال لا فيسقط من عينى »

وربما كان العباس بن مرداس يقصد هذا المعنى فى قوله :

« ويُعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنَّك الرجلُ الطرير »

والطرير ذو الرواء والمنظر . أو هو الذي استقبل شبابه . يقال طرَّ شاربه اذا طلع ونبت . والابتلاء الاختبار والتجربة

وليس فى الدين الاسلامى شيء يسمى بطالة . ولم ترد هذه الكلمة في قاموس تعاليمه الدينية قط . أما كلمة العمل فيندر أن لا تجدها فى آيةٍ أو حديث يتعلقان بوظيفة الانسان في دنياه . وما يجب عليه فى هذه الحياة . وان لم يكن فى القرآن الكريم سوى قوله تعالى « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » لكفى بها حثًّا وترغيبا فى العمل ودلالةً على وجوبه على المسلمين . فالمسلم عامل . ومن الافتئات أن نقول ان المراد بالعمل نوع منه كالتهجد في الليل أو التنفل أو كثرة الذكر أو تلاوة القرآن ودلائل الخيرات . وانما هو كل عمل يمكن للمسلم أن يأتى به ممّا يكون وسيلةً لسعادته وسعادة أمته بحيث يرضاه الله فيثيبه عليه خيرا ويرضاه رسول الله فيسر بما بلغ من رسالات ربه . وكفى بهذا فخرا وغبطة للعامل المسلم .

فلا جرم أن يكون المراد بالعمل المأمور به هو العمل الصالح الذي استثنى الله صاحبه من لحوق الخسار به في سورة « والعصرِ إن الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فالذي لم تتوفر فيه الصفات المذكورة أخبر الله تعالى بأنه من الاخسرين أعمالا . ولنا أن نقول

أيضا ان تفسير الصالحات الواردة فى السورة بممارسة أعمال معينة وطاعات خاصة بعيد عن سياق السورة وعموم مضمونها لا سيما ان الصلاح فى الصدر الأول كان يستعمل بحسب معناه اللغوي. ولم يكن حدث له معنى خاص وهو الذي تعارف عليه المسلمون فيما بعد : الصلاحُ في اللغة ضد الفساد والاستصلاح ضد الاستفساد والصالحات كل عمل صالح يصل الانسان بممارسته الى خير وسعادة في دنياه وآخرته على العكس من العمل الفاسد الذى يؤول به الى الشر والشقاوة

والشارع الاعظم كان له عمل يسعى في انجازه وهو الدعوة وتبليغها للامة على وجهٍ يبرأ به من التبعة . وتكون له المعذرة فيما لو قصرت الامة أو تهاونت في العمل بما بُلغَتْ به . وهو عملٌ شاق ووظيفة كبرى لا يطيق تحملها الا من ارتضى الله من رسله وصفوة انبيائه

وكان صلى الله عليه وسلم يصرح بأن عمله هو هذه الدعوة والجهاد في سبيلها فيما لو صده صاد عنها . وليس بعد هذا التعليم تعليم للامة بوجوب العمل عليها . وأن على كل فردٍ من أفرادها أن يتخيّر لنفسه من الأعمال ما يرتاح اليه . وتطيقه مُنتّه . وتسعه معرفته . ولو كان من تعاليم الاسلام التساهل في أمر العمل وأنه ليس بالشيء المقصود بالذات في نظر الشارع ، لَمَا كان أبو بكر رضي الله عنه يقوم ـ صبيحةَ اليوم التالي ليوم مبايعته بالخلافة ـ الى السوق لأجل مباشرة العمل والاكتساب من بيع البز التي هي صنعته . لولا ان الصحابة رضوان الله عليهم عارضوه في ذلك بداعي أنه حَدَثَ له عمل آخر (وهو الخلافة) يجب عليه الاهتمام به والتوفر على توفير مصالحه واحكام شؤونه . واحتجوا عليه بأن في مزاولة أشغال التجارة ما يدعو الى التفريط بأعمال الامارة . فالدين الاسلامي اذن يُعلم بأن لا هوادة في العمل . ولا معذرة في البطالة والكسل

والبطالة ضروب . ومن أقبحها بطالة ذلك الصحيح الجسم الفارغ الجيب

المتيسر له الكسب والعمل . وهو لاهٍ عن ذلك كله بالتملّق والتسوّل تارة . والنصب والتحيّل تارة أخرى . ولا نزاع في شناعة هذه البطاله ووخامة عاقبتها على أمة كثر فيها مثل هؤلاء البطالين . كما لا نزاع في أن بطالة الضعيف عن العمل العاجز عن مزاولة الكسب ، غير ممقوتة ولا هو مؤاخذ فيها واذا لم يكن لمثل هذا دَخْلٌ يُنفق منه على نفسه ، كان على أهله الانفاق عليه ، والا وجب علي الأمة تفقده بما فيه كفايته . وبمثل العطف على هؤلاء البؤساء والعناية بهم تُعرف درجة الأمة من التمدن ومبلغ تحققها في الفضيلة والأدب ورقة الشعور . ويوشك أن يكون مقياس تلك الدرجة ما تنشئه الأمة في بلادها من الملاجيء والمستشفيات لايواء اولئك العجزة والانفاق عليهم

وهناك بطالة ربما كان لصاحبها بعض العذر فيها . وهي الناشئة عن أحد أمرين متضادين (١) عمران البلاد وازدياد سكانها بحيث تضيق أرضها عن أرجلهم ومعاملها عن أيديهم (٢) خراب البلاد واضطراب شؤونها وتقهقر الصناعة والزراعة والتجارة في ربوعها بحيث لا يجد العامل مرتزقاً ولا عملا يتعيش منه . وفي البلاد التي هذا شأنها تروج سوق العِمَالة والتوظف . لكن الوظائف لها قدر محدود . وما كُلُّ أحد يحسن القيام بها فتكثُر الشكوى اذ ذاك وتغلّ الايدي عن العمل ويقع الشعب في البؤس والفقر المدقع . وحكومة البلاد فى الحالة الاولى (حالة استبحار العمران) مكلفة أن تسعى فى ايجاد مستعمرات لابنائها كي يهاجروا اليها للكسب والارتزاق . مثال ذلك انكلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها من الامم التي بلغ فيها العمران مبلغاً : فانها تغالب الأمم الخاملة على ما فى أيديها من البلاد كي تفسح لابنائها مجالا واسعاً للرزق تقيهم بسببه مذلة البؤس والشقاء أما الحكومة فى الحالة الثانية (حالة انحطاط العمران) فهي مخاطبة أو مكلفة بأن تبذل جهدها فى اصلاح حالة بلادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وانتياش شعبها من براثن

البؤس والفاقة . والا كرهها الشعب وتململ من نيرها وتسلل منها لواذاً الى حيث يجد رزقه فيأكله هنيئاً مريئاً ، كما هو الحال فى كثير من رعايا الأمم الشرقية الخاملة

لكنْ ذو البطالة سواء كان من ابناء البلاد العامرة أو الغامرة ليس له أن يسدك (يلزم) مكانه ويحالف الشظف والفقر الى أن تحارب حكومته المتمدنة القوية فتفتتح ، أو توفق حكومة ذاك الخاملة الضعيفة فتنجح ـ بل عليه أن يسير الى حيث العمل ميسور له والكسب هيّن عليه . فذو البطالة فى مثل هاتين الحالتين إن عُذر فى الوقوع فيها فهو لا يكون معذوراً فى البقاء عليها والاستنامة اليها

بقي معنا ثلاث من البطالات هي موضع الحَيْرَة والتأويل ، ويكثر الجدل فيها بين علماء الدين ورجال السياسة والاقتصاد :

(١) قوم تخلّوا عن الدنيا وأعرضوا عن زهرتها ، ورغبوا فى الآخرة وأقبلوا على العمل لها فانقطعوا للنُسُك والعبادة وممارسة الطاعات والفضائل الدينية وزهدوا فى المال والكسب وسائر حُطام الدنيا . فهم ان وجدوا أكلوا ، وان أكلوا شكروا ، وان لم يجدوا صبروا . ومثلُ هؤلاء لايضيع بين أظهر المسلمين فلا يحرم أحدهم من قوت يقيم صلبه بل قد تكون حالته هذه وانقطاعه الى الآخرة مما يدعو المسلمين الى الاعتقاد به والاغداق عليه بالهدايا والعوائد تقرّباً واحتساباً . لا سيما اذا ظنوا فيه الولاية والكرامة . ومن ثمَّ كثر فى هذه الطائفة الغشّ والتدليس . واندس فيها من لم يكن من أربابها . ولا على شاكلة أهلها وانما حملهم على الانتساب اليها التعيّش والتكسُّب فكانت بطالتها من شر البطالات . لأن هؤلاء البطالين أصبحوا عيالاً على المسلمين باسم الدين وعلى خساب الدين وهي الرهبانية بمعناها لا بلفظها . ويسمى الواحد منهم فى اصطلاح المتكلمين بالعربية (صوفياً) أو (ابن طريق) وفى لغة الاعاجم (درويشاً) ويوجدون بكثرة فى

الهند وأواسط آسيا وفى المغرب الأقصى وأواسط أفريقيا • وأغلب رجال هذه الطائفة يرون من الكمال فى طريقتهم وتهذيب نفوسهم أن يسيحوا فى البلاد ويتجردوا للتسوّل والشحاذة • ويسمون اذ ذاك (فقراء) والنادر فيهم المخلص فى عمله . وأكثرهم جاهل مُراء

ولم يهتم بهؤلاء الفقراء أو الدراويش أحد بقدر ما اهتم بهم كتاب الدول الاوربية المستعمِرة وعلى الأخص فرنسا ، فقد ذهبوا فى شأنهم والغرض الحامل لهم على السياحة مذاهب شتى . وكادوا يتفقون على أنهم بُرُد للمواصلات السياسية بين مسلمى الشرق والغرب ، وأن هيكل الجامعة الاسلامية التي يدوي ذكرها فى العالم سيُشَيَّد على أيديهم وبفضل حنكتهم ودربتهم . ونحن ان حفظنا هذه المزية لبعض القوم وفرضنا أن لهم فى بطالتهم هذه غرضاً سياسياً ومنزعاً اجتماعياً كما يقولون ـ لا نكاد نُبرىء مجموع هذه الطائفة من شناعة البطالة الممقوتة

(٢) ويشبههم فى هذا قوم انقطعوا لدراسة العلوم الدينية والتعمق فيها وهم طلبة العلم ، ويسمون فى مصر (مجاورين) ويسميهم الاتراك (سُفَطاً) . فهؤلاء لاعمل لهم ولا كسب ولا سعى سوى التوفر على تحصيل العلم وينفقون على انفسهم مما خلفه لهم آباؤهم أو من ريع الاوقاف الموقوفة عليهم أو من المبرات والصدقات لكن القول بأن هذه الطائفة والتى قبلها مما يصح أن توسَما باسم البطالة ـ موضع نزاع وشك وربما كان القول بذلك مدعاة للطعن فى قائله والتشنيع عليه . اذ كيف يقال ان المنقطع للعبادة والعلم بطال لا عمل له ولا شغل وأن بطالته ممقوتة ينبغى لعقلاء الامة أن يجدوا وسيلة للتخلص من شرها ؟ أي عمل أقدس من عبادة الله ؟ وأي صنعة أشرف من صنعة طالب العلم الذي تظلله الملائكة بأجنحتها ؟ والتفصيل فى الجواب عن هذا يتوقف على أن نعرف البطالة الثالثة :

(٣) وهى ما عليه قوم وَجَدُوا من الغِنى ما يكفيهم مؤونة السعى والكد فى

طلب الرزق : يستغلّ أحدهم من الريع السنوى ما يفي بنفقاته ونفقات من تلزمه نفقتهم على طول السنة أو العمر كله . فما الداعى الى أن يَنْصَبْ ويتعب ، بل ما الداعى الى أن يحمل أولاده على السعى ومزاولة الاعمال والاشغال ، مادام أنهم يجدون من أموالهم وعقاراتهم ماينفقون منه عن سعة ، فيرى الغنيّ الذي هذا شأنه أن العيش والتنعم في ظلال الراحة والجمام خيرٌ من العيش فى هجير الكد والكدح . وهل كدُّه وكدُّ أولاده سوى سُبَّة وعار عليهم ينسبون معه الى الجشع والخسة والتكالب على الدنيا ؟

وهذه البطالة لاتعدم من النصوص الفقهية ما يدعمها ويؤيدها . فقد قالوا انه يجب على المحتاج أن يسعى لسد حاجته وحاجة من تجب عليه نفقته حتى اذا وجدها كان طلب الزيادة مباحاً له . بل ربما كان الأجدر به أن لا يطلبها تفرغاً للعبادة وممارسة الطاعات . فمن وجد رزق سَنَتِهِ أو عمره كان له أو الأفضل له أن يَبْطُل ويتعطل عن العمل

وبديهي أن الغَنِيَّ الذي يُفْتَى بهذا الحكم انما يأخذ منه ما يلائم هواه وهو راحة البطالة ، والعيش فى ظلالها . ولا يعبأ بما حثَّه عليه الفقهاء من ممارسة الطاعات والتقرب الى الله بأنواع القربات . فمن ثم كثر فى أرباب هذا النوع من من البطالة الترفُ والتأنق فى النعيم ، والانغماس فى ضروب الملذات والشهوات

لكن ان وَجَدَتْ هذه البطالةُ ــ وبطالةُ العابد وبطالة طالب العلم ــ تساهلاً وتسامحاً من رجال الدين والعلماء المتفقهين فلن تجد مثله من الاجتماعيين والاقتصاديين

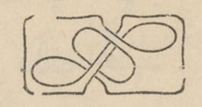
أفراد الامة وابناؤها هم أعضاء يتكون منها جسمها كما يتكون الجسم الحي من اعضائه . فالأمة كالفرد من هذا القبيل . والذي خَلَقَ الأمة هو الذي خلق الفرد . وخالق الفرد وهو الله تعالى لم يشأ أن يخلق في جسده عضواً لا وظيفة له بل لكل عضو وظيفة ، وكل عضو يؤدي وظيفته . واذا وجد في الجسم عضو أو جزء من

حوا وهو الخامل اليوم

عضو قد إيف أو تعطل عن اداء وظيفته تأذى به الجسم ولايجد له راحة مالم يتخلص منه . وان بقى فيه أضرّ به وربما أودى بحياته . وكلما قويت أعضاء الجسم وأحسنت القيام بوظيفتها كان الجسم صحيحاً معتدل المزاج والعكس بالعكس . وهكذا الامم وأفرادها الذين هم أعضاؤها . فكلما ضعفت الافراد فى العمل أو وقفوا عن اداء وظائفهم انحطت الامة وضعف شأنها . وكلما كثر فيها العاملون وأتقنوا العمل الذي يعملون ارتفع شأنها وعزّ جانبها وعلا فى الحياة الاجتماعية كعبها . وقد جرى الحديث فى هذا الموضوع بين فتاةٍ انكليزية وكاتب فرنسوي فاندهل كل منهما مما أخبره به الآخر : اندهشت هى من أن فى الفرنسويين من اذا أصاب ثروة واسعة انقطع عن العمل لمعيشة الرفه والنعيم . واندهل هو لما أخبرته بأن قومها الانكليز لايقعدهم عن العمل شىء ويتفق أحيانا ان الفتاة منهم اذا لم تجد عملا حاضراً صعّدت فى شاهق جبل حتى تبلغ ذروته فتروّض جسمها وتعوّد نفسها التغلب على المصاعب !

ومحصل الكلام ان الاغنياء الذين يضربون عن الاعمال هم قوّات عظيمة خسرت الامة الانتفاع بها كما خسرت الانتفاع بأموالهم التى لو أحسنوا استثمارها كان منها نفع للبلاد ، لان ثروة الامة بثروة أفرادها ، ويوشك أن تفنى تلك الاموال رويدا رويدا إن لم يكن على أيدي الآباء فعلى أيدي الابناء الاغرار ، الجاهلين بالكسب وطرق الاستثمار . أما المنقطعون للعلم والعبادة فان كان عندهم أموال يُنفقون منها على أنفسهم فيقال فى حقهم ما قلناه فى الاغنياء من التفصيل وربما كانت بطالتهم أخفّ شراً : لانهم لاهون عن الشرور والمنكرات ، بالاوراد والاذكار والحواشي والتقريرات . وان لم يكن عندهم ما يُنفقون وانما يعبدون الله ويطلبون العلم ـ على حساب الاحياء أو الميتين ـ فهنا موضع البحث والنظر فى أنواع العبادات وصنوف العلوم المطالبين بها شرعاً . والمقارنة بينها وبين عبادات

سلفنا الصالح وعلومهم أولاً ، ثم بينها وبين العباداتِ السماوية السَمْحة والعلوم التي حققت التجارب أن لها تأثيراً بيّنا في إسعاد الامم واحيائها الحياةَ الطيبة التي هى كل ما يبغيه الدين الاسلامى لابنائه . فالباحثون والناظرون فيما ذكرنا يحكمون لاول وهلة بأن الاغنياء اللاهين ، والنساك المتبتلين ، والطلاب المتعمقين ، فى فهم ما لا يفيد من كلام الشراح والمحشين ؛ قُوَّاتٌ جسيمة محسوبة على الامة لكنها ضائعة عليها كما ضاع نصـف قوتها الاخرى ـ وهى قوة النساء اللواتى لا عمل لهن الا الغِيبة والزينة . وإن الامة بفقدها تلك القوّات يوشك أن تضمحل وتتضاءل فى وسط تلك القوات الاجنبية التي تضايقها وتزحمها من كل جانب . وان ضروب العبادات التي يمارسها النسَّاك والعلوم التي يكد في تحصيلها الطلاب لاتفيد هؤلاء ولاهؤلاء فى دنياهم . ويوشك أن يحاسبوا عليها فى أخراهم ، ومن يمت ير



كتاب الصحف وقراؤها [1]

لو أن قرّاء الجرائد قومٌ محصورو العدد أو أنَّ لهم مكانا يجتمعون فيه أو ناديا ينضوون اليه - لكان على الكاتب أن يتثبت فيما يكتب تثبتا لا يكون من ورائه انتقاد أو اعتراض من أولئك القراء : فيذاكرهم في الموضوع الذي هيأه في نفسه ويعرض مضامينه على اسماعهم ثم يفرغ موضوعه في القالب الذي يبغونه ويستحسنونه . أما اذا كان عدد القرّاء من الكثرة بحيث يعرفه القرّاء . وكانوا متوزعين في سائر الانحاء . وكانوا مختلفي الطباع والمشارب . متفاوتين في العلم والفكر والمدارك — لاجرم أن يكون الكاتب اذ ذاك معذوراً اذا لم يُرْضِ في مقاله جميع قرائه . أو اذا آنس من بعضهم نقداً وتهجينا لما كتب

سُئِلَ الامام مالك رضى الله عنه عن المجتهد فقال : هو الذى اذا سئل عن عشر مسائل عرف الجواب عن اثنتين منها

فالمجتهد ليس من شروطه أن يصيب في الجواب عن كل ما يُسأل عنه أو يعرض له الكلام فيه . بل يوشك أن تكون اجابته عن كل ماعنّ له مدعاة لسوء الظن به . هذا قول العلماء في المجتهد نفسه الذي يتعبد الناس برأيه ، ويلقون الله على قوله . فما ظنك بالعلماء يقولون في الذي يكتب في الجرائد اليومية الكبرى؟ أحسبهم يرونه أجدر بالمعذرة من ذلك المجتهد . بل ربما كانوا أرفق به وأرحم من ذلك الفاضل الازهري الذي كتب الينا يناقشنا الحساب ويرهقنا بالعتاب على ماجاء في مقالتنا (البطالة والعمل) من وصف المنقطعين لطلب العلم بالبطالة . واتفق اننا كنا اذ ذاك نهيىء مقالا في موضوع الاصلاح الازهري وعرض صورة منه على بعض الافاضل من الازهريين الذين يشكّون فيما اذ كان الازهر محتاجا

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٤ هـ

الى الاصلاح أو غير محتاج . وان في مقالنا المهيأ مايصح أن يكون جوابا للمعترض وكاشفاً اللبس عما جاء في اعتراضه

وقد قرأنا ما كتبه ذلك الفاضل في الردّ علينا بابتهاج وسرور وما ذاك الا لانه قد توخى الاخلاص وامحاض النصح في ما كتب . فحبذا لو غلبت هذه الروح الشريفة في المعترضين والمنتقدين . على انه ألمَّ في اعتراضه علينا بشؤون خارجة عن الموضوع لانعلم كيف انبعثت في نفسه ، وفاضت على سن قلمه

ولنا أن نقول في الاعتذار : ان البطالة التى وسَمْنَا بميسمها أهل العلم لم يجر الكلام فيها على لساننا وانما هو رأيٌ للباحثين في الشؤون الاسلامية والمتسائلين عما عساه تكون الادواء الاجتماعية التى ألمَّتْ بالمسلمين . وقد عزوتُ هذا الرأي اليهم مصرِّحاً بأن القول بذلك موضع نزاع بل قد يكون مظنة للريبة في القائل . وجلُّ ماذهبت اليه هو أن علماء الاقتصاد السياسى يحكمون بان عظمة الامة في ثروة أفرادها وسعي أبنائها . وان البطالة ممقوتة في الشرع والعقل . وان اشتغال معظم الطلبة غير نافع في الدنيا ويوشك أن يكون كذلك في الاخرى . وليس معنى هذا أن لا ينقطع قوم من المسلمين للعلوم الاسلامية بل معناه أن ينقطع لها من يمكنه أن ينتفع وينفع بها . أما من لم يكن بهذه المثابة وهم سواد الطلبة الاعظم فانقطاع هؤلاء لا ينطبق على مقاصد الشرع . ولا يلائم مصلحة الامة في هذا العصر . ولو أنهم ـ بعد ان حصَّلوا من العلوم الاسلامية القدرَ الذي فيه صلاح حالهم ـ سعوا وعملوا وأخلصوا في سعيهم وعملهم ، كان ذلك خيرا لهم ، وأعود بالنفع على أمتهم . ومن كان من الطلاب أميل للانقطاع لتحصيل العلوم والوصول بذلك الى أدقّ أسرارها وأبعد أغوارها فيؤلف ويدرّس وينقّح ويحرّر ، على شريطة أن يكون من وراء عمله النفع والفائدة ، فحبذا هذا الانقطاع ونعم العمل ، لايوازيه في الشرف والمنزلة عمل آخر سواه

هذه هي خلاصة الموضوع الذي سَيُفصَّل في المقالة الموعود بها تفصيلا . وانا على يقين من أن الفاضل الازهري لا يقنعه ما قلت ولا يبالي بآراء الاجتماعيين والعمرانيين . ويقول هو وزملاؤه إن جميع من تعمَّمَ وتأبّط خيراً من كتب العلم تظلّله الملائكة بأجنحتها ، وأن عمله من أشرف الأعمال وأقدسها وأكثرها ثواباً عند الله ، ولو لم يكن منها ثمرة له أو لغيره في الدنيا . ذلك لأن نيته الصالحة كافية وحدها لاسعاده في الدارين

كذا يقول هؤلاء وكذلك يقول أولئك . وكل من الفريقين يجعل المستقبل حكَمًا يفصل بينهم . ويريد الفريق الثاني من المستقبل مستقبل الدنيا بعد عشرات أو مئين من السنين ، أما الفريق الأول فيحيلك على مستقبل الآخرة يوم يقوم الناس لرب العالمين

هذا ما آلم حضرة المعترض من مقالنا . وعُذْرُنا فيه هو عذر كل كاتب في أمثاله ، وهو اننا انما نكتب للفيف القراء لا لكل واحد منهم . والعبرةُ في الاستحسان والاستهجان لحكم المجموع لا لحكم كل فرد ، اذ أن هذا متعذر كما ذكرنا آنفا

لكن مع هذا لا يحسن بالكاتب أن يجازف في الكتابة ويتطرّف في الرأي ويتهوّر في الحكم . بل عليه أن يستمسك ـ من الاخلاص ، والأدب ، والرويّة ـ بالعروة الوثقى ، ويتوخّى بيان الحقيقة مبلغ طاقته ، ويتحرّى الصدق في خدمة أمته ويتحاشى ما امكنه التعبير الذي يشم منه رائحة العجب بنفسه أو امتهان غيره . وليكن هذا شأنه حتى مع المنتقدين له والمعترضين عليه بالسيء من القول . اذ أن المعترض عليه انما يكتب له وحده وهو انما يكتب للجمهور وفيهم من لا يطيق سماع الهجر واللغو

فاذا راعى الكاتب ماذكرنا كان له أن يصرح بما يعتقده خيراً ويراه نافعاً

واذا بدر منه ما آخذه عليه الاكثرون رجع عنه واعتذر بما فيه بلاغ . وإلا عدَّ مكابراً مشاغبا أو أحمق مسافها

هذا ما يقال بالنسبة للكتاب أما القراء فليلاحظوا أن الكاتب انما يكتب لجمهرة منهم متباينة في الاذواق والاخلاق وانه لا مشاحة في الآراء ولا مناص من اختلافها وتضاربها أحياناً . وانه ان كلَّفنا الكاتبَ أن يكتب ما يلائم هوى جميع القراء ويتفق مع نزَعاتهم كنا كأننا نكلفه كسر القلم وان يندس في مطمورة العدم

مثال ذلك أن المعترض الازهري استهل كلامه بقوله « قرأت مقالتك في هذا الموضوع الخطير موضوع البطالة والعمل وأثنيت على جميع ما ذكرته في المتسولين والدراويش والصوفية وأصحاب الاذكار الخ الخ ولكن استأت كثيراً من تحاملك على أهل العلم الديني » الخ ولا ريب أن اشياع الدراويش الذين أعجب المعترض ما قلناه فيهم يسوءهم قولنا ، ولا يروقهم وصفنا . كيف وهم العباد الزهاد الذين يرون أنفسهم مظهراً للآية الكريمة « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ثم يقول أولئك العباد أهل الباطن : ان أشياع المعترض أعني المتعمقين في علوم الظاهر هم موضع اللوم والتعنيف لانهم يضيعون أعمارهم في تحصيل مسائل لا يُعمل بها ، ولا يتجاوز صداها جدران المدارس ، ولو أنهم اشتغلوا بعبادة الله لكان خيراً لهم

وهناك قوم يستحسنون القول في الفريقين بحذافيره ويستزيدوننا من الخوض فيه والامعان في شعبه ومناحيه

وآخرون ينعون علينا الكلام في أصل الموضوع ويحببون لنا أن لا نهيج الناس ولا نتطرق الى تصنيفهم وذكر مشاربهم ووصف طرائقهم والمقارنة بينها ابقاء على السمعة وصوناً للكرامة

ثم يشيرون عليك أن تكتب في مواضيع — عداك السوء يا أخي — لو طاوعتهم وكتبت فيها لعدها القراء مخرقة وجهلا ، وعدوك في جملة النوكي أو المخرفين

ومحصل الكلام أنك ان أردت نفسك على أن تواتيك بكتابة ما يلائم أذواق القراء كافة ـ بحيث يُصفقون على استحسانه والاعجاب به ـ كلفتها شططا واستقبلت من الامر ما لا يطاق ، ويوشك أن تلوذ أخيراً بالخيبة والفشل ، والفهاهة والحصر

واذا أردت النجاة من هذه المحارَة (موضع الحيرة) كان عليك أن تتحرى من الآراء ماتعتقد أنه الاصوب وتتوخى من الكلم والتعابير ما تراه أنه الا ليق الانزه . ثم بعد ذلك أن أصبتَ فقد أصبت ، والا كان لك من اخلاصك ونزاهتك أكبر شفيع لدى المنصفين



العائلة (*)

نريد من كلمة (العائلة) ما يريده الافرنج من كلمة (Famille) من حيث دلالتها على نفر مشتركين في النسب تجري عليهم نفقة واحدة على يد منفق واحد ويتألف مجموعهم غالبا من أب وأم ومن له علاقة بهما أولاداً ومصاهرة. وكلمة العائلة ليست عربية صحيحة في هذا الاستعمال وانما هي دخيلة فيه. وقد جرى عليه المولدون والمتأخرون من عامة أهل الامصار. وتلقفه عنهم الكتاب والمترجمون - لما لم يجدوا في اللغة الفصحى ما يقوم مقام تلك الكلمة. اما كلمة (الأسرة) فلا أراها تنطبق على مايراد من معنى العائلة : لان الاسرة رهط الرجل الذين يتقوّى بهم ، ومادتها من الاسْر وفيه معنى القوة والشدة. فيدخل في الأُسرة أعمام الرجل وأبناء أعمامه وكل من يلتحم معه بلحمة العصب أو شابكة النسب القريب - بحيث يحملهم هذا الالتحام على التساند والمشاركة في الدفاع عن الحقيقة

ومثل كلمة (الاسرة) - في عدم الانطباق علي المقصود - كلمات العشيرة والآل والعترة والحاشية والبطانة

وكلمة (العائلة) صحيحة في مادّتها وان لم تكن صحيحة في استعمالها : فان العيلة الفاقة ، وعال افتقر ، والعائل الرجل الفقير. فالعائلة في الاصل تأنيث (عائل) فيكون معناها المرأة الفقيرة. ولا أحسب أحدا من أهل اللغة المعتدّ بهم استعملها مؤنثة في هذا المعني أيضاً

وقد يقال ان كلمة « العيال » تنوب مناب العائلة في معناها الحديث. فان عيال الرجل أهله الذين يتكفل بهم. ومثل العيال العيّل على وزان ميّت ويكون

(*) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م

مفردا وجمعا . لكن الرجل نفسه الذي يعول العيال لايدخل في معنى « العيال » المذكور على العكس من « العائلة » بمعناها المصطلح عليه — فانها تدل على رئيس العائلة والمنفق عليها وتتناوله كما تتناول سائر أعضاء أهل بيته

وعدم وجود كلمة فى العربية خاصة بمعنى العائلة يشير من طرف خفى الى ضعف شأن العائلة عند العرب وأنهم لم يهتموا بها اهتمامهم بالاسلحة والابل والوقاع ونعوت النساء

واذا وجد العالم الاجتماعى عذراً لهم فى هذا الاغفال وهم فى حال بداوتهم فلا أراه عاذراً لهم بعد ان استبحر فيهم العمران ورسخت فى ربوعهم الحضارة هذا ابن خلدون على اسهابه فى مقدمته عن حضارة العرب ومقوماتها ومختلف أساليبها لم يشر بكلمة فذة الى العائلة ومالها من المنزلة والتأثير فى مجتمع الانسان ومصير العمران

وماقلناه عن العائلة فى العرب والعربية قد يقال مثله فى الترك والتركية فان هؤلاء استعاروا لهذا المعنى فى لغتهم كلمة « فاميليا » من اللغة الافرنجية ومايدرينا أنه لايوجد فى لغتهم الاصلية كلمة تفى بهذا الغرض. بل أحسب ان الامم الشرقية كلها سواسيه فى ذلك حتى استفاقوا أخيراً لصيحة المدنية الغربية ونداء كتابها الذين أحلوا العائلة محلها اللائق بها . وشرحوا مزاياها وما لها من التأثير في رقي الامم وانحطاطها واعتبروها مقياسا دقيقا لهذا الانحطاط وذاك الرقيّ وقد تبع هذا الشعور والتنبه في الشرق ارتقاء حالة العائلة اليابانية وأخذت تتلوها العائلة التركية . أما العائلة المصرية فقد أحسّت بتأخرها عن أخواتها وأن في هـذا التأخر دمار الامة واضمحلالها ، فهي الآن تتلمس لنفسها منجاة من هذا الخطر ، ونهوضاً من هذا العثار

يحار الباحث عن أدواء العائلة المصرية : فى أية الطرق يسلك أولا لأجل

اصلاحها وتعرف الاسباب العاملة في تأخرها وانحطاطها

عرّف القرآن الكريم الزواج والعائلة بقوله «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة» والسكون الى الزوجة كناية عن الميل والارتياح اليها لما يجده الزوج من الودّ والرحمة لديها. وقلما يراهما فيها ما لم يكن قد هيأ في نفسه لها مثل ذلك أو أكثر منه. فملاك العائلة اذن توادّ الزوجين وتراحمها وارتياح كل منهما الى صاحبه، وينشأ عن هذا بالضرورة هناء العيش وطيب حياة أهل المنزل

هل حالة العائلة فى بلادنا منطبقة على ماقرره القرآن ؟ وهل هى من خفض العيش وسعادة الحياة بالمنزلة التى نريدها لها ؟

اذا قلنا ان العائلة المصرية ليست نموذجاً حسنا للعائلات وطولبنا بالدليل لانحيلك على مجهول أمره، مكتوم سره. ولا نسلك معك في الاستدلال، مسلك الشعر والخيال. وانما نكلفك ان تحصى العائلات التى تعرفها، من حيث ان لها اتصالا بعائلتك قرابة او مودةً ثم تبيَّنْ أمر تلك العائلات وحالة علاقة الازواج مع زوجاتهن فيها. وانظر كم نسبة عدد العائلات الهادئات المطمئنات ـ الى أولئك البائسات المضطربات. فاذا كنت استعرضت حالة عشر عائلات ـ هل تحسب السعيد سوى عائلة واحدة فى العشر ؟ وما ذا دهى الباقى حتى فقد سعادته وهناءه ؟

تربية البنات والبنين فى بلادنا ليست بالتربية التى توصل الزوجين الى الغبطة والسعادة المنزلية. وسواء فى ذلك التربية التى تكون للناشىء فى حضانة أبويه وعائلته أو الاخرى التى تكون فى كفالة معلميه وبين جدران مدرسته؛ ومن البلاء ان كتبنا الادبية والاخلاقية حتى الفقهية لم تتضمن من الكلام على العائلة و الزوجة والزواج ما يصلح مقوّماً لاود العائلة مهذّبا لشعور الزوجين . وحسبك

نموذجاً سيئاً ان الفقهاء رضى الله عنهم يعرّفون النكاح بأنه عقد يملك به الرجل بضع المرأة. فاذا كانت حقيقة الزواج وموضوعه ما أشاروا اليه كانت العائلة على وشك السقوط وعرضة للاضمحلال والفناء

اذا لم يعرف الزوج من شأن زوجته ـ ولاهي من شأنه ـ سوى ما أشار اليه الفقهاء كان كلٌ منهما هيّناً في عين صاحبه زاهداً فيه عند عروض أدنى شيء يوجب الزهد، ويصرف داعية النفس

هذا حال كتبنا وحال تربيتنا. أما الوسط الذي تسرح فيه افراد العائلات وأبناؤها بل آباؤها فشأنه من الفساد والانحطاط والحرية الباطلة على ما يعلمه القراء. ثم اذا نشأ عن كل هذه المؤثرات نتيجةٌ سوأى في بعض العائلات والتجأت الى المحاكم الشرعية التي من أهم وظائفها اصلاح ذات البين، وصيانة الحقوق والروابط المتشابكة بين الزوجين ـ كان من حظ تلك العائلة في المحكمة الفشل وزيادة الشقاء والبؤس وكان نصيب الجانب الأضعف ـ وهو المرأة ـ من تلك القسمة الحظ الاكبر والسهم الاوفر

اذا كانت التربية العامة، والوسط الاجتماعي، والكتب التي تتداولها أيدي الآحاد والمحاكم الشرعية ـ على ما ذكرنا بعضه ويعرف الخبيرون أكثره فكيف يُرجى انتظام العائلة، واستقامة أمرها وامتداد عمرها؟

أيهما الأسبق تأثيراً في اصلاح شأن العائلة؟ تربية الذكور أو تربية الاناث؟

مضت على العناية بالتربية الأولى أى تربية الذكور حقبة من الزمن لم تجن الأمة في خلالها الثمرة التي كانت تنتظرها من اصلاح شأن العائلة. فمن ثمة وجهت عنايتها نحو التربية الاخرى تربية الاناث ـ فاخذت منذ سنين في فتح المدارس لهن واختيار المعلمات العارفات بتربيتهن وتوخّى أحدث الطرق في تعليمهن وتهذيبهن، كل ذلك ارادة ان تتحسّن حالة العائلة فيعرف الزوجان قيمة الحياة

ويتذوقان منها ما يشعرهما السعادة والهناء

قد يقال انّ المدة التي أُخذَ فيها في تعليم الفتيات في بلادنا غير كافية لظهور أثر في ترقي المرأة نفسها . دع عنك ترقّى عائلتها . لكن الواقفون على اسرار تربية البنات في حواضر بلادنا ، والذين مارسوا تلك التربية بضع سنوات ، حكموا - ويحق لهم ان يحكموا بان تلك التربية خداج (ناقصة) وانها غير وافية بالغرض الذي يريده عقلاء الامة والعاملون على نهوضها مهما طال على تلك التربية الزمن وتتابعت السنون حتى ذهب بعضهم الى أن خير الفتيات أو خير الزوجات تلك التى لم تتعلم ولم تترب التربية المدرسية وانما تربت في عائلة متوسطة في الطبقة والمظهر والمال ، عائلة يغلب عليها الحياء والعفة والقناعة والدين . فان هذه الفتاة تكون أهدأ من تلك التى تقلبت في المدارس وعاشت فيها سنين وأعفّ نفساً ، وأقوم أخلاقا بل انها تكون أعرف منها بطرق الاقتصاد وتدبير المنزل اللذين هما عماد الحياة العائلية والسعادة المنزلية

قال بعض الفضلاء : لما اعتصب الخدم في قصر ملكة أسبانيا وأضربوا عن الطبخ والغسل وسائر الاشغال المنزلية انبرت الملكة فطبخت لجلالة الملك طعاماً كان أشهى على قلبه من كل طعام سواه لا لأن الملكة طبخته بل لانها عرفت كيف تطبخه وتجود طعمه

أما فتاة العصر المتعلمة فانه لم تمض أيام على زفافها حتى هربت خادمتها ويترب أن تكون هي السبب في هروبها وكان الوقت وقت مساء . ولم يكن تهيأ الطعام بعد فاضطرت العروس الى تحضير ماتسد به رمقها ورمق زوجها فضاق بها الامر وأخيراً أشار عليها زوجها أن تقلي له بيضاً . فانه أقل الاطعمة كلفة ومؤنة لكنها مع هذا ارتبكت فيه وحارت كيف تجهزه ثم أقبلت على المطبخ في زينتها ولبوس

عرسها فكانت ترفل في غلالتها الارجوانية التى كلفتها أجرة خياطة وثمن كرانيش وتنتلا بضعة عشر جنيهاً فقط . ولما ألقت بمح البيض وزلاله على المسلى (السمن المحمي" أخذ رشاشه يتطاير الى الغلالة الرقيقة فاتلفها وأحدث فيها بقعاً كامدة اللون فغاظها ذلك وكدّر زوجها ونغّص عليهما طيب ليلتهما فلم يكن البيض مريئاً ولا أكله هنيئاً

وبالجملة فان ملاك سعادة العائلات يتوقف على اصلاح التربية العامة ، وعلى اصلاح تربية المرأة على الاخص" وتعليمها تعليما ينطبق على حالتها ويهيئها لأن تكون زوجة صالحة وأماً رؤماً وربة منزل مدبّرة . وهذا التعليم وتلك التربية لم يبلغا فينا مبلغهما الذي ننتظره لا سيما تربية البنات التي هى فيما أحسب مشكلة المشكلات

(تتمة)

اطلع بعض الفضلاء على مقالى هذا فكتب معترضاً عليه وقال ان لكلمة (Famille) الافرنجية مرادفات في العربيـة . لكن عدم اطلاعي على قاموسه (الفرنساوي العربي) أو على كتاب المخصص ـ هو السبب فيما ذهبت اليه . أما المخصص فاني راجعت فيه الصفحات التي أشار اليها المعترض وغيرها من مظان فصوله ـ فلم أعثر على كلمة تؤدي معنى (العائلة) بحسب مااصطلح عليه الكتاب اليوم وانما هناك ألفاظ كثيرة تبلغ ثلاثين ونيفا من الكلمات وكلها تفيد معاني لا تنطبق على معنى العائلة فيما اعتقد . وقد ذكرت منهاعلى سبيل المثال : الاسْرَة والعشيرة والآل والعترة والحاشية والبطانة والعيال . وقد قالوافي معنى (الاسرة) انهم رهط الرجل الذين يتقوّى بهم . فانظر كيف أخذوا في مفهوم الاسرة معنى

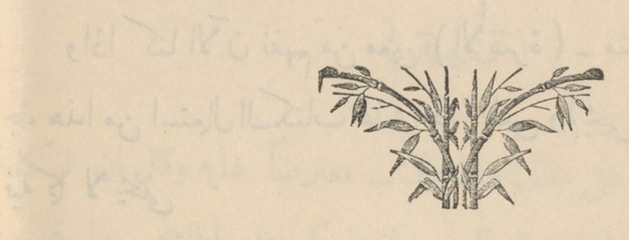
زائداً ليس هو في مفهوم العائلة . وقالوا في عشيرة الرجل انها بنو أبيه أو قبيلته وكيف يمكن الجمع بين هذا المعنى ومعنى العائلة ؟ وقالوا في معنى الآل والاهل انهم أخص الناس بالرجل . وبديهيّ أن الرجل نفسه لم يدخل في هذا المفهوم : واذا قلنا « اللهم ارض عن الآل » . فهمت منه آل بيت النبي ولم تفهم النبي نفسه . وهكذا كلمتا (البطانة والحاشية) فانه لا يدخل في مفهومهما سيدهما ورئيسهما ، على العكس من كلمة (العائلة) بحسب العرف . أما (العيال) فمعناه الاولاد خاصة فاذا قلت بكى العيال علمت منه ان أباهم لم يشاركهم في البكاء واذا دققت النظر في كل معنى من معاني الثلاثين كلمة التي في المخصص تراه اما اضافياً يتوقف فهمه على نسبته الى آخر كالآل والحاشية ، واما أن يكون في مفهومه معنى زائد على ما نريد من معنى العائلة – كالاسرة والعصبة

واذا كنا الآن نفهم من معنى (الأُسرة) – مثلا – معنى العائلة نفسه فانما جاء هذا من استعمال الكتاب لها في هذا المعنى ولم يجىء من أصل اللغة . وكلامنا فيه كما لا يخفى

ثم راجعنا قاموس الفاضل المعترض فرأيناه يفسر كلمة Famille بأهل وأهلة وآل وعترة وعَيْلة وعيال . وكلها مما ذكرناه في مقالنا السابق وبينا رأينا فيه . سوى كلمة واحدة وهي « عيلة » فانها ليست من هذه المعاني في شيء . وليست اسما لأشخاص. ولم يذكرها المخصص — الذي اعتمد عليه المعترض — في جملة ما ذكر من الكلمات . فمن أين جاء بها المعترض الى قاموسه . (العيلة) بمعنى الفقر والفاقة لا بمعنى أهل بيت الرجل كما يستعمله العامة . وكأن المعترض الفاضل رأى علماء اللغة يقولون « والاسم العيلة » فحسب ان مرادهم بذلك انها اسم لعيال الرجل وأهل بيته . وهو وهم لأن علماء اللغة يعنون بقولهم « اسم » انها اسم مصدر

لفعل « عال » لا مصدر له . والمصدر واسم المصدر متساويان في الدلالة على معنى واحد . لكنهما مختلفان في بعض الحروف أو الحركات مثل عطاء واعطاء بالنسبة الى فعل أعطى : فان الاول اسم مصدر والثاني مصدر

والدليل على أن مراد علماء اللغة ما قلناه أنهم يقولون هكذا « والاسم العيلة» ومنه قوله تعالى وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » وفسر المفسرون (العيلة) بالفقر والفاقة . فتحصَّل معنا اذاً أن العيلة تكون بمعنى أهل البيت في اصطلاح العامة لا في أصل اللغة



مصر ومراكش

والقاضي شمهورش[1]

اذا كان بين هذين القطرين الاسلاميين كثير من الفروق فان بينهما من التشابه والتماثل ما هو حقيق بالنظر والاعتبار

اتفقا في جودة التربة وخصب الارض ، لكن تلك القوة الكبرى ضائعة في مراكش لافائدة منها لسكانها : فلاهم يعرفون كيف يستثمرون أرضهم وليس لديهم من الوسائل ما يساعدهم على الانتفاع بها . على العكس من مصرفان خصبها يفيض لبناً وعسلا على ساكنيها وهو آخذ في النمو والتحسن آناً فآناً فلا يبقى شبر من أرضها بوراً وسوف لا تضيع نقطة من نيلها سدى. لكن هذا الفرق بين القطرين ـ أعني الانتفاع بخصب الارض في الثانية دون الاولى ـ محل نظر ونزاع فقد يقول قائل انه لا فرق بينهما من هذه الجهة أيضاً فهما فيها شرع . وذلك لان ثمرات الخصب المصري وجناه انما يتناوله الغريب عنهاوخيرات البلاد انما يجتنيها النازحون اليها والعاملون فيها . أما السكان أنفسهم فاما أجير يشتغل للاجنبي أو غنى تؤول ثروته وعقاراته عما قليل اليه أيضا لان عين هذا شاخصة اليهاومنتظرة الفرصة للوثوب عليها وورثة ذاك جهلة نوكى لا يلبثون أن يقعوا على تلك الثروة حتى يبذروها في الشهوات أو المضاربات . وعقلاء القطر الحريصون على سعادته ينظرون الى هذه الشؤون بعين الحيرة والحذر فيرون جشع الاجنبي ومهارته وتأليفه الشركات لاصحاب الاطيان والعقارات وغباوة الوطنى وجهلهطرق الكسب وعدم اعتياده التعاون في انشاء المصارف المالية والشركات الاقتصادية كما هو شأن الأجنبي فيحكمون لاول وهلة أن القطر بأطيانه صائر رويداً رويداً الى ملك

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٤ هـ و١٩٠٦ م

الاجنبي فلا يعتّم الوطني أن يصبح أجيراً لديه وقطيناً يروح ويغدو بين يديه

ويشبه مستقبل البلاد من هذه الجهة حالة البلاد الجزائرية لهذا العهد فقد حدثني واحد من أهلها بالامس ان أغلب أطيانها انتقل من يد فلاحيها الى أيدي نزلائها وأن الجزائري ان كان له بقية ملك في مدينة الجزائر فليس له شيء منها في وهران فأن هـذه المدينة أصبحت وليس للوطني من دنياها قيد شبر ، ولا من آخرتها موضع قبر ؛ وان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين

طمحت أعين الماليين الى القطر المصري فنسلوا اليه من كل حَدَب واقترصوا جهل الفلاح المسكين واستغلوا غباوته فطمعوه بالمال واستنزلوه عن أرضه فباعها لهم بثمن هو أشد جهلا باستثماره منه باستثمار أرضه. فاطلق يده فيه وجعل يقول به هكذا وهكذا في ضروب ملذاته أو يجهل كيف يدينه حتى آل أمره الى المتربة واذ ذاك لاذ بالعاصمــة على أمل ان يجـد فيها مرتزقا أو مورداً للكسب فضاقت العاصمة على رُحبها بهؤلاء المنكوبين وأمسى الغريب يتجول في جناتها وأرباضها فلا يعلم ان كان هو في القاهرة أم فى عزب ومزارع تخللت أحياءها وازدلفت من ضواحيها

وبهذا الاعتبار لايكون ثمة فرق بين مراكش ومصر ، فان مآل الرقبتين الى يد الغريب عنهما المتربص بهما

ومما يصلح أن يحسب من الفروق بينهما أن النظام المالي في مراكش على غاية التشويش وفى منتهى الفوضى فليس ثمة قانون تتمشى عليه جباية الاموال وانفاقها فترى السلطان يتداول من خزينة البلاد ايراداً سنوياً له ولبطانته وخاصته مليونا وخمسمائة الف جنيه فيبذرها كيف يشاء ولا يسئل عما يفعل فيها

وليس الحال كذلك في مصر كما يعلم الخبير

أما الحكام وابتياعهم المناصب في القطر المراكشي فليس له من الاثر في

هذا القطر ، فان الاعيان هناك يشترون الوظائف باموال مقررة ، ثم يعودون فيستغلونها من تلك الوظائف أو من مصالح أولئك البائسين الطائفين بهم اللائذين بجناح عدلهم

والشبه على أشده بين ماذكرنا عن مراكش وبين ما يروونه عن الصين فان المناصب فيها أيضاً كالسلع تباع وتشرى ويكون ربح السوق لأولئك الحكام الظالمين كما ان خسارتها تلقى على عاتق هؤلاء المحكومين المساكين . ولا نخال ان الصين تلبث على ماذكرنا من حالتها بعد ان رأت مارأته من اليابان جارتها وقد أنبأنا روتر منذ أيام أن قد جاء في الامر الامبراطوري الجديد وجوب تعديل القوانين القديمة ودواوين الحكومة وان في النية وضع دستور للبلاد ستكون هذه التعبيرات أساساً له . كما لا نخال أن الفرصة تعود فتواتي مراكش فتهبُّ لاصلاح بلادها وتعديل قوانينها ودواوينها التعديل الملائم لروح العصر وهو الذي يتوقف عليه تقدم الامم ورقيها

ومن أظهر أوجه الفرق بين مراكش ومصر أن الاولى ليس من سكانها من يعرف القراءة سوى بعض الافراد وجلّ ما يعلم في كتاتيبها انما هو القرآن الشريف وجانب من الحديث ولا يغادر التلميذ المكتب حتى يكون قد نسي ما كان حذقه فيه فيعود الى الامية التي تقوده تواً الى الجهل المطبق على عكس الامر في مصر فان القراءة والكتابة وحذق مبادىء العلوم أخذت تنتشر رويداً رويداً بين أبنائها وقد كثر سواد القارئين في القاهرة وأمهات المدن كثرة ظهر أثرها فيما يطبع وينشر من المؤلفات والجرائد والمجلاّت . وبالجملة لا يصح أن يوازن في المعارف بين بلاد كمصر انتعشت صحافتها وحركة الافكار فيها الى درجة كادت تكون محسوسة وبين أخرى ضرب الجهل فيها بجرانه ولا أثر للصحافة في بلادها بل يراها علماؤها احدى الكبر أو من المحظورات الدينية ويطبقون عليها آية

« ومنهم من يشتري لهو الحديث » فيذهبون الى أن الجرائد ممـا يتناوله عموم (لهو الحديث) وقد حاول بعضهم أن ينشيء له جريدةً هناك فقامت القيامة على رأسه ولم يفلح

ومما يليق أن يعدّ من الفروق بين القطرين أن المصريين يسعون جهدهم في توفير وسائل الحياة السياسية والاجتماعية بينهم واستيفاء الذرائع التي يمكنهم بها أن يتملصوا من نير الاحتلال لا سيما بعد أن تخلت الدول عنهم بما تم من الاتفاق بين انـكلترا وفرنسا عليهم

أما المراكشيون الذين ألقتهم معاهدة مؤتمر الجزيرة في كفالته الاخـيرة فانهم يغذون السير ويبذلون كل مالديهم من جهل وخرق وشرارة ودعارة للوقوع في حبالة تلك الـكفالة. ويذهب الخبيرون بطبائع الامم الى أنه ليس في مقدورهم أن ينجوا منها اذا وقعوا فيها

ومهما يكن من أمر الفرق بين مراكش ومصر ومهما انفرجت مسافة التماثل بينهما ـ فان تمـاثل القطرين على أتمه في دراسة العـلوم الاسلامية وطريقة فهمها وتحصيلها :

فاذا ناقشت عالماً مراكشياً وذاكرته في مختلف شؤون المسلمين الدينيـة والسياسية والاجتماعية وما ابتلوا به لعهدهم الاخير من ضراوة الامم بهم وتـكالبها عليهم وفي الاسباب المؤثرة في كل ذلك ، كان جوابه لك كجواب أخيه العالم الازهري حذو القذّة بالقذّة

وانك لترى ـ من رأي هذا وفكره ومنازع نفسه وعواطف قلبه ـ نسخة مطابقة على ما تجده لدى ذاك بدون تحريف أو تبديل . آنس الفقيه المصري من بعض الوجهاء إنـكاراً لما يسمونه « القاضي شمهورش » وهو قاضي الجن المشهور بينهم فـكبر عليه الامر واستنجد بأخيه المحدّث المراكشي على نصرته واثبات

وجود ذلك القاضي ، والتنقيب في الـكتبيات المغربيـة على التآليف والآثار المتعلقة بحيـاته وحقيقة خبره ونسخها وارسال نسختها الى مصر لتـكون حجة داحضة لمزاعم منكري القاضي ، ولفت نظره على الاخص الى كتاب ابن سيد الاندلسي المعروف بكتاب « العالم » وهو في مائة مجلد مرتب على الاجناس وقد بدأ فيه بالفلك وختم بالذَّرة ويبعد أن لا يجري للقاضي شمهورش فيه ذكر . فمـا كان من المحدّث المراكشي الا أن أجابه الى طلبه ثم بشَّره بانه عثر على تأليف مطول في ترجمة القاضي شمهورش وأنه سيبعث بملخصه اليه فيكون له من الاثر في اقناع المـكابرين ما يطرب له محبو هذا القاضي والمحافظون على كرامته

أما موضوع هذا البحث المهم فهو أن القاضي هل له وجود أم لا ؟ وهل اسمه شمهورش أو شمهروش ؟ واذا كان ممن عاش في الصدر الاول الاسلامي فهل يكون صحابيا أو تابعياً أولا ؟ وهل تشكل لاحد من العلماء في العصور الوسطى وبالاخص لاحد علماء الازهر فرآه أم لا ؟ وفي أي عصر مات ؟ وهل صحيح ما يقال من انه مات في زمن المرحوم الشيخ العفيفي احد مشايخ الازهر الذي عاش منذ نيف ومائة سنة ام لا ؟

وبالجملة فان هذا التأليف سيكون جامعا لاشتات هذا الموضوع ومستوفياً لجميع ما يتعلق بسيرة هذا المخلوق الغيبي العجيب مما فيه بيان لأمره ، وكشف عن سره . لكن لا نعلم ان كان وجود الدارعتين الفرنسويتين في مياه مراكش اليوم مما يلهي علماءها عن المضي في تحقيق هذه المسألة أم لا يلهيهم فيواصلون البحث والتنقيب كما لم يُله وجود محمد الفاتح خلف أسوار القسـطنطينية أحبارها ورؤساءها عن المناقشة والجدال فى مسئلة عبادة الايقونات . كما لا نعلم ان كان تعيين فضيلة الشيخ شاكر مندوبا لمشيخة الازهر أو تعيين غيره ممن هو من طرازه في المشيخة نفسها — يحول بين الازهريين وبين الولوع بهذه المباحث العقيمة ، او تقام في طريقه العقبات فيفوت العقلاء ما ينتظرونه من آثار همته ومهارته في ادارته

السعادة (١)

(قصر مسدّس الأركان)

لم يختلف الناس في شيء اختلافهم في تحديد السعادة . وبيان أركانها المشيّدة عليها ، أو وسائلها المفضية اليها . ويعسر اتفاقهم في ذلك ما داموا مختلفين في التربية والعلم متباينين في الطباع والأمزجة والاخلاق :

فربّ رجل يحسب أن السعادة وطيب الحياة في الأكل والنوم والنساء ، ولسان حاله ينشد :

« انما الدنيا طعام ونســاء ومنام »
« فاذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام »

وترى الآخر يحسب أن ماذُكر ضربة قاضية على سعادة الانسان . ويتمنى لو تكون الانسانية منزهة عن هـذه المذكورات : يقول ان الوقت رأس مال الانسان ، به يتمكن من اكتساب العلم وتحصيل الحكمه وممارسة الفضيلة وعمل الخير : فالنوم يغتال نصف عمره ويضيع عليه معظم رأس ماله . أما الأكل ففيه من جهة ضياع للوقت ، ومن جهة ثانية مشاركة للحيوان في الاحتياج الى تكاليف حيوانيته ، وما أحرى الانسان بأن يكون منزّهاً عن مثل ذلك

ثم يقول في الأمر الثالث : انه ما من حالة من حالات الانسان هو على أتم الشبه فيها للحيوان مثل تلك الحالة ــ وخليق بالانسان أن لا يتبوأ مقعداً يظهر فيه في مظهر الحيوان بحيث يساهمه أخصّ صفاته

فانظر كيف قد اختلفت الأنظار في هذه الشؤون وتناقض الرأي فيها : بينما يعدها ذاك سعادة تطلب ، يحسبها هذا وصمة جديرة أن تجتنب

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و١٩٠٧م

كان للانسان في سـذاجته الاولى سعادة ساذجة تماثل سذاجته . وهـذه السعادة ترجع الى ثلاثة أشياء : صحة لجسمه، وقوت في يومه ، وأمن على نفسه فلو فقد أحد هذه الأشياء زايلته السعادة وحلّ به البؤس والشقاء ولا يمكن لاحد القول بأن الانسان قد يكون سعيداً من دون توفر هذه الاشياء . فهي اذن أركان سعادة الانسان مهما تقلَّبت عليه الاطوار، ودخل من التمدن والحضارة في أدوار بعد أدوار. والى هذه الاركان الثلاثة ـ وإلى أنها الاصل في سعادة البشر ـ الاشارةُ في الحديث الشريف «اذا أصبحتَ آمناً في سِرْبك (نفسك) معافىً في بدنك وعنـدك قوتُ يومك ـ فعلى الدنيا العفَاء (أي التراب)» . (الصحة) و(الأمنُ)و(القوتُ) داخلة في ضمن سعادة المترف الانكليزي كما هي عماد سعادة المتوحش الاسترالي، وقد كانت منذ ألفين وخمسمائة سنة عماد سعادة ديوجينوس اليوناني : فهو ان كان قد حملته الفلسفة على أن يطرح طاسته التي كان يشرب بها جانباً ، ويستغني عنها براحتيه ـ فهل يمكنه أن يستغني عن لُقيمات يُقِمْنَ صلبه أو يحسب نفسه سعيداً اذا كان خائفاً أو مريضاً؟

لـكن الانسان لم يخلق لان يقف في معيشته عند حد متوحش استراليا، وديوجينوس اليونان ـ فيكتفي من دنياه بالسعادة الساذجة الاولى

خلق الله الانسـان لاول عهد تكوّنه أفراداً بَدَدا . وأودع في نفوسهم بذور المدنيَّة والميل للمعيشة الاجتماعية . فـكانت تلك البذور تنمو رويداً رويداً وينتقل الانسان من طور في الاجتماع الى طور . حتى وصل الى ما نشاهده اليوم في بعض جماعاته من عظم التمدن واستبحار العمران

وكما كان الانسان يتدرج في حياته الاجتماعية الساذجة من حالة الى أكمل منها ـ كانت سعادته أيضاً تتبع ذلك التدرج وتنفعل لناموس التحول في ضروب المعيشة ، وتكاليف الحياة ، وعوامل الرقي

فأول ما نشأ للانسان من ضروب السعادة ـ بعد استقامة أمره واتساع دائرة تصوّره ـ (الدين) أو الايمان بأن له خالقاً يحسن اليه اذا عمل خيراً ، ويقتصّ منه اذا صنع شراً . فلم يعد يكتفي من سعادته الساذجة بأن يكون صحيح الجسم ، آمن النفس ملآن الجوف ـ بل صار يعدّ من سعادته أن يكون إلهه راضياً عنه لا سيما اذا رأى نفسه قد أتى من الاعمال والاقوال بما يقربه زلفى من ذلك الآله

سعادة الدين أو الايمان أوّلُ ما التصق بنفس الانسان ودرج معه في مهد تاريخه الفطري . وكانت تلك السعادة كاملةً سمحةً في بعض الأمم ـ لا سيما التي تعتمد فيها على وحي سماوي ـ ناقصة مشوهة في الأمم الأخرى التي تتلقى تعاليم دينها عن وحي الاوهام ، وخزعبلات الرؤساء

على أن الدين مهما انحط شأنه وبعدت عن مألوف العقـل تعاليمه ـ يبقى سعادة وطمأنينة في نفوس اتباعه والمصدقين به

ومن أنواع السعادة التى نشأت بنشؤ تاريخ الانسان الاجتماعى ، وتعاظم أمرها بتعاظم مدنيته ـ (المال) وجمع الثروة : فقد كانت سعادة الانسان الاولى أن يملأ كرشه بما يحفظ حياته . ثم لم يعد ذلك يملأُ عينه ، فجعل يملأ خزانته ويدخر

والتمول أخو التدين من حيث نشوءهما مع نشوء الاجتماع الانساني لـكنهما يشبهان الليل والنهار فى أن كلا منهما ان طال غال أخاه بالقصر ، وقلما تحفظ فيهما الموازنة ، أو يقفان موقف الاعتدال في أمة من الامم : إن غلب في الامة التدين وممارسة فضائل الايمان أعرضت عن زهرة الدنيا وزهدت في جمع الاموال . وان أكثرت من شم هذه الزهرة ، واسترسلت فى حشد الاموال ، انصرفت عن الدين وممارسة شعائره : ولا يمكن أن نستثنى من هذه القاعدة الا بعض أزمنة التاريخ ، وربما كان الاستثناء في أشخاص من الامم لا في الامم نفسها : أي أن الشخص الواحد قد يجمع بين حسن التدين وحب التمول . أما الامم فان الواحدة

منها لا تنصبُّ عليها شآبيب الثروة حتى يخصب فيهـا الترف ، وتعشوشب الملذات . ثم تأخذ أوامر الدين ونواهيـه في أن يضعف اعتبارها في النفوس ويضمحل أثرها على الجوارح رويداً رويداً

يمكن الاستشهاد على صحة ماذكرناه بما هو عليه الحال في الشرق والغرب : فان رأس الحـكمة والسعادة في الشرق مخافة الله تعالى وقوة الايمـان به . ولا يستعيذ أهلوه بشيء مثلما يستعيذون من المروق والالحاد . أما الغرب فسعادة أهله أورأس الحـكمةفيهـ جمع المال وانفاقه في ملذاتهم ، ومختلف مصالحهم ، وتكاليف مدنيتهم . فالانكليز مثلا اذا أرادوا أن يسألوا عن ثروةرجل قالوا « كم يساوي » والجواب عشرين ألفاً مثلا . فتوزن قيمة الرجل عندهم بما يملك من الاموال

ومما ذكرناه لك من هذا المثال تعرف مبلغ اختلاف البشر في تحديد كنه السعادة . وأن أركانها ترجع الى اعتبارات مختلفة عند كل شعب وجيل مما كان منشأه التقاليد والعادات ، ودرجة الحضارة والعمران

لا يعـد الشرقي من سعادته الشخصية أن تكون حكومته عزيزة حرة قوية الجانب مرهوبة الشوكة ـ فهو لا يرى هذا من مقومات السعادة أو مما له دخل فى هناء عيشه ، وطيب حياته . ولو حاول أحد أن يقنعه بأن هذا من السعادةوان شعور المرء به يعطيه لذة ونشوة ومسرة قد تـكون دونها كل المسرات ـ أنكره وعجب من قولك وشعورك . على العكس من الغربى الذي يعتقد أن عزته في عزة حكومته ، وسعادته منوطة بسعادة أمته ، ورفعة شأنها

الدين ان كره المال وزهّد فيه فهو انما يكره للمرء أن ينصرف اليه بكليته ، ويشغله جمعه عن توفير بقية الوسائل المؤدية الى سعادته ، والا فانه يرضى له أو يحثه على أن يسعى في كسب ما ينفعه في تكاليف حياته ، ومطالب معيشته

فلا نزاع اذن في أن من السعادة أن يكون للانسان من المال ما يفي بحاجة

الوسط الذي يعيش فيه مما هو وراء حاجته الضرورية للغذاء التى قلنـا في صدر المقال انها من سعادات الانسان الاولى الساذجة . ومثلما كان (التدين) و(التمول) من سعادة الانسان منذ أول نشوء تاريخه ـ كان (التعلم) أو طلب العلم من سعادته كذلك ولا يعلم الا الله من أي عصر ابتدأت تلك السعادة (سعادة العلم) أن تفيض على الانسان . ومعرفة ذلك من المستحيل مادام العلم معنى عاماً لا يرجع الى أصول محدّدة ، ولا ينطوي تحت مسائل معينة

العلم ـ ولا نزيد القاريء به علماً ـ هو النور الذي يرشد نفسك في هذه الحياة وينير بين يديها السبل فلا تعمل ولا تذر ، الا ما يجلب اليها النفع ويقيها الضرر فالعلم اذن سعادة لا يستهان بها ولا يجدر بالانسان أن يَنِي في تحصيلها . والا كان جاهلا ، ولا سعادة بل لا حياة مع الجهل

وبالعلم تتم الاركان التي يرتفع عليها قصر السعادة المسدس . وهي ستة : ثلاثة منها فطرية كان يحرص عليها الانسان في سذاجته الاولى ومعيشته الفردية . الصحة والغذاء والامن . وثلاثة منها حدثت له بعد تكوّن جماعاته وتعدد حاجاته واتساع دائرة عمرانه : وهي الدين والمـال والعلم

فهيكل السعادة البشرية انما يبتني على تلك الاركان الستة . وهذه الاركان انما تشاد على أساس ، يعرفه كل الناس ، الا وهو (العقل) ولك أن تسميه (حسن الخلق) الذي قال فيه صـلى الله عليه وسلم « انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » وقال تعالى في صفة نبيه « وانك لعلى خلق عظيم » فمن ساء خلقه ، ساءت سمعته ، وتنغّصت معيشته . وهل ترجى مع هذا سعادة ؟

نبأ هام (١)

عن جزيرة العرب والخلافة وجامعة الاسلام

أخبرني بعض الفضلاء أمس أنه جاءه كتاب من صديق له في عدن يقول فيه : ان امراء جزيرة العرب عقدوا النية على انشاء اتحاد عام يجمعهم ويؤلف بينهم . وقد بنوا هذا الاتحاد على قاعدتين أساسيتين : الاولى نصب خليفة من أنفسهم يخضعون له وينضوون الى لوائه ، والثانية مناجزة كل من يحاول فض جامعتهم أو مس استقلالهم ولو كان المحاول الحكومة العثمانية نفسها

وقد كَتَبَتْ هذه الجمهرة العربية الى الحسين بن علي شريف مكة تخبره بمشروعها وتحسّن له الدخول في أمرها فما كان من الشريف الا أن أرسل كتابها الى رجال الدولة وشفعه بما عنده من المطالعات الآراء

هذا ما أخبرني به الفاضل المومأ اليه ورغب اليّ أن أكتب شيئا عن هذا الامر الخطير، وانبه الاذهان الى نتائجه ، واحذر من عواقبه

فأجبته الى سؤاله . ولكني استأذنته أولا في أن احمّل الرياح لعنة جهنمية الى من كان السبب في تمكين الانكليز من مدينة عدن بحجة اتخاذها مستودعاً للفحم الحجري . فكان ذلك الفحم بئس الوقود لنار الفتن التي تأججت في جنبات تلك الجزيرة المباركة

والآن نقول هل هذا الخبر الذي جاءنا من عدن صحيح؟ يخطر لي أنه ليس كذلك وان راويه تلقّفه من الجرائد الاجنبية وما يلغط به كتاب الافرنج من أن المسلمين يعملون سراً على إنشاء جامعة اسلامية يجاهدون تحت لوائها في

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ و ١٩٠٩ م

الطوائف المسيحية . وكانوا يتوهمون أن السلطان السابق يتولى زعامة هذا المشروع لما أنه خليفة الاسلام الاعظم

وبعد أن حصل هذا الانقلاب الاخير في الاستانة أنشأ كتّاب الافرنج يتساءلون عما اذا كانت هذه الحكومة الجديدة الدستورية تحذو حذو سابقتها الحميدية في العمل على تأييد الجامعة الاسلامية ؟ وهل أن المسلمين المنتشرين في أطراف العالم يظلون على الانتساب للخلافة الرشادية كما كانوا يتعززون بالخلافة الحميدية ؟

هذا ما يتساءل عنه كتاب الافرنج ويهيمون في أودية الحدس والتخمين من أجله

ومهما يكن من أمر صدق هذا النبأ وعدمه فان اتفاق امراء جزيرة العرب قد يكون مفيداً اذا سلك فيه أربابه مسلك الحزم والتدبر المؤدّي الى صيانة استقلالهم وحفظ بيضة الاسلام . وقد يكون ضاراً اذا سلكوا فيه مسلك الرعونة والانخداع بترغيب أو ترهيب دهاقنة السياسة فى أوربا والهند

هؤلاء السياسيون ـ وعلي الاخص أصدقاؤنا رجال انكلترا ـ يخافون أن تقوم الحكومة العثمانية الفتاة فتحول بينهم وبين أطماعهم في جزيرة العرب . فهم من أجل ذلك يسوّلون لامرائها ان يؤلفوا منهم جمهرة مستقلة تعصم نفسها عن الفناء في الجنسية العثمانية . ثم ينتظر أولئك السياسيون الفرص المناسبة للاستفادة من تلك الجمهرة واقتطاع شيء من أطرافها وأمصارها ما داموا واثقين من عجزها عن مقاومتهم . نعود فنسيء الظن ونقول : ان انكلترا في عدن ، فمالها ولمسقط تدّعى حمايتها ؟ ومالها ولامارة « لحج » تعطيها مرتباً شهرياً ؟ وما لها ولأمير الكويت تدعي موالاته ؟ وما لهذا الامير ـ صديق انكلترا ـ وامراء نجد يتشيع لآل سعود على آل الرشيد ويمدّهم بالعدد والذخائر ؟ بل ماهذا المهدي الجديد في

عسير قام يعرقل مساعي الحكومة الجديدة سيدة البلاد الشرعية ويقلق راحتها ؟ ومن أين تسربت بنادق موزر وغيرها من ضروب الاسلحة الافرنجية الى سكان اليمن وبدو الجزيرة ؟

منبع هذه الشرور كلها شيئان : وجودُ انكلترا في عدن ، وحرصُ هذه الدولة على الهند فهي تحب ان تستولى على كل البلاد التي في طريقها اليها . ومن سوء الحظ ان كانت الجزيرة واقعة في قارعة الطريق الى الهند ومعترضة كالشجى في حلقها

وهذه هى اسماء المشهورين من امراء جزيرة العرب وكبار زعمائها :

(١) القائم من آل سعود في أواسط الجزيرة

(٢) « « الرشيد «

(٣) شريف مكة في الحجاز

(٤) الامام يحيى حميد الدين في اليمن

(٥) المهدى محمد الادريسي في عسير

(٦) احمد فضل العبدلى في لحج بين اليمن وعدن

(٧) غالب بن عوض القعيطي في حضرموت

(٨) فيصل بن تركي في مسقط وعُمان

(٩) الشيخ عيسى آل خليفة في البحرين

(١٠) الشيخ مبارك بن الصباح في الكويت

(١١) الشيخ خزعل خان في المحمرة

وإمارة (المحمرة) واقعة على شاطىء خليج البصرة الايراني لكنها لما كانت تصاقب امارة الكويت في الشاطيء العثماني وكان امراؤها وسكانها من الجنس العربي ولهم اتصال بعرب الجزيرة وعلائق ودّ مع الشيخ مبارك صاحب الكويت —

لذلك كله عددناها من بلاد العرب ووجّهنا الى أميرها الخطاب في جملة امراء الجزيرة الذين نخاطبهم أو نعاتبهم . والالقاب الموزعة على هؤلاء الامراء متعددة مختلفة باختلاف الاقاليم أو الاعتبارات . فهم بين شريف في مكة . وامام في صنعاء . ومهديّ في عسير . وأمير في نجد . وشيخ في لحج والبحرين والكويت وقد يسمون هؤلاء الشيوخ سلاطين . مع ان لقب (سلطان) في الاسلام يعادل (شهنشاه) عند الترك و (امبراطور) عند الافرنج وكأنهم سموهم سلاطين باعتبار أن الواحد منهم يحكم على عدة شيوخ وامراء صغار كما أن السلطان الاصطلاحي يحكم على عدة ملوك وينطوي في مملكته عدة ممالك

والمذاهب الشائعة في جزيرة العرب هي الوهابي أو السلفي في نجد . والزيدي في قسم كبير من اليمن . والاباضي في مسقط . والشيعي في المحمرة . والسني الشافعي في سائر الامارات الأخرى . وجميع سكان الجزيرة يعظمون آل البيت ويحترمونهم أشد احترام

أما حالتهم الاجتماعية فمنحطة للغاية لانها مبنية على ثلاث دعائم واهية (البداوة والجهل والفقر) . وحكمنا هذا انما هو على شعب الجزيرة من حيث هو والا فان من امرائه وأولادهم واحفادهم من تناول حظاً من تربية وعلم وفكر وثروة ومدنيه وترف .

فأمراء لحج وحضرموت ومسقط يترددون في اسفارهم على الهند ويكثرون من مخالطة راجاتها واغنيائها فاقتبسوا عاداتهم وقلّدوهم في لبوسهم وأكلهم وشربهم وماعون بيتهم وفرش قصورهم فبينا ترى المسنّين منهم يلبسون العقالات والكوفيات والقفاطين والمشالح الحريرية المختلفة الالوان المقصّبة الازرار والعري والاردان ــ ترى الولدان والشبان يلبسون البنطلون المزنق والبالطو المحزقة المنسدلة الى ما تحت الركبتين ويلوثون على رءوسهم كوفية حريرية موشّاة

بالتطريز من شغل الهند

ويقال في امراء الكويت والمحمرة بالنسبة لامتزاجهم بالايرانيين ، وفي امراء اليمن والحجاز بالنسبة لامتزاجهم بالاتراك، واقتباس كل فريق مدنيةَ خليطه ـ ما قلناه في امراء لحج وحضرموت ومسقط الممتزجين بالهنود

وهذا الاثر طبيعي في الامم اذا تجاورت وتمازجت . فلا عتب عليه . وانما العتب على امراء الجزيرة الذين لا يهتمّون بنشر وسائل المدنية والحضارة بين شعوبهم الاهتمام اللازم ، ولا يمتزجون بالحكومة العثمانية وشعبها الامتزاج اللازب

ولا يتسع المقال لوصف كل امارة من هذه الامارات ، وانما نكتفي بذكر شيء كنموذج عن سلطنة (لحج) وهي الواقعة بين بلاد اليمن وعدن وحضرموت

سميت سلطنة لأنه يدخل في منطقة نفوذ سلطانها أو شيخها امارات وسلطنات كثيرة مثل سلطنة « بالحاف » و « أبين » الفاصلتين بين عدن و « المكلاّ » عاصمة حضرموت . ومثل امارة الحواشب والضالع ومشيخة حمر والشرمان الخ الخ

وبين هؤلاء الأمراء وحكومة عدن الانجليزية معاهدات موثّقة وشروط مزنّقة . وقد أصبحت مدينة (عدن) بفضل سياسة الاستعمار الانكليزية أسكلةً لجميع تلك السلطنات والامارات ومثابةً لأمرائها وشيوخها يختلفون اليها ويقضون مسراتهم ولباناتهم فيها . ويقدّرون مساحة سلطنة (لحج) وحدها بثلاثمائة الف فدان والقابل للزراعة منها نصفها . وعاصمتها تسمى « حوطة لحج » ومن مدنها « الشيخ عثمان » لكنها تنازلت عنها أخيراً لحكومة عدن وهي واقعة على الحد الفاصل بين البلادين

ويبلغ جيش (لحج) الف جندي ما بين هجان وفارس وراجل . ويدير

الاحكام في البلاد موظفون ينتخبهم سلطانها. واليه الامر كله في العفو والقصاص وسائر ضروب التنفيذ وفي أمور الحرب والصلح والمعاهدات وتدفع حكومة عدن فى كل شهر خمسمائة جنيه تقريباً الى امارة لحج إزاء بعض الحقوق التى تنازلت لها عنها

وهذه هي سياسة انجلترا التقليدية في الهند والافغان وجزيرة العرب وفي كل بلاد ابتليت بأمراء شرقيين متناظرين متشاكسين ، وعن الأخذ بأسباب المدنية الصحيحة معرضين : أي انها تستدرجهم الى حمايتها بهذه المرتبات كما يستدرج الصياد الطيور الى حبالته بتلك الحبوب التى ينثرها حولها

فلا يصح إذن ان يقال ان فى امارة لحج مدنية أو حكومة منظمة ما دامت لا محاكم فيها ولا جيش ولا بوليس ولا مالية ولا ميزانية ولا إدارة بريد ولا تلغراف ولا مدارس علم ولا جرائد ولا شورى . وكل ما فيها من آثار الحضارة قصور للأمراء مفروشة ، وأدوات للزينة مبثوثة ، وموائد للأكل مصفوفة ، يتمتع بها أولئك الأمراء ومن داناهم من الاغنياء . أما الشعب نفسه فمغموس فى البداوة والجهل والفقر غمساً . وما قلناه عن هذه الامارة يصدق بوجه التقريب على الامارات الاخرى . ولم نذكره إلا ليرى القاريء اذا كان من المتيسر لهؤلاء الأمراء — وحالتهم وحالة بلادهم على ما وصفنا — أن ينشئوا خلافة لهم أو كان من اللائق بهم أن يقفوا ازاء الدولة العثمانية موقف الخصم المشاكس والقرن المناجز . قالوا انهم يبغون انشاء جامعة تؤلف بينهم وتدفع شر الصائل عليهم . ولا اعتراض عليهم فى هذا بل هو مما يتمناه كل مسلم لهم ويحب ان يعضدهم فيه

جامعتهم المذكورة هي فرع من الجامعة الاسلامية التي يلهج بها الكتاب الغربيون متشائمين ، وبعض الكتاب المسلمين متفائلين مستبشرين

إنشاء جامعة اسلامية بمعنى أن تتفق جميع ممالك الاسلام وأممه اتفاقاً دولياً

سياسياً كاتفاق ممالك المانيا وأمريكا لا أراه بالمتيسر لنا ولا مما ينبغي التفكير فيه الآن وان كان بعض الاجتماعيين من المسلمين يتوقعونه ويجعلونه من متناولات الامكان ومن حسنات الزمان

نعم يمكن أن نوثق جامعة اسلامية بيننا تربط طوائفنا اجتماعياً وأدبياً كارتباط جماعات اليهود والكاثوليك والماسون فاذا ظلمت منا أمة أو بغى عليها باغ أو أصيبت بقارعة من قوارع الدهر قمنا قومة واحدة لمساعدتها وطلب انصافها ودرء الظلم عنها بالوسائل اللائقة بحالة هذا العصر

فاذا كانت الجامعة التي يعزمها أمراء الجزيرة من هذا القبيل فواهاً لها ومرحباً بها . ونسأل الله أن يوفقهم فيها ، ونتمنى لحكومتنا العثمانية أن تساعدهم عليها وتأخذ جمهرتهم هذه تحت رعايتها

أما اذا أرادوا بانشاء الجامعة انشاء وفاق يجمعهم لوحدهم ويجعلهم فى معزل عن الحكومة العثمانية ، ويجعل هذه الحكومة أجنبية عنهم — فهذا مما نأباه لهم كل الاباء

ليس صنيعهم وفاقاً فى الواقع ونفس الامر وانما هو شقاق ونزاع نهانا الله عنه فى قوله تعالى « ولا تنازعوا فتفشلوا » . ووفاق جزيرة العرب على هذه الصورة يقصيها عن العالم الاسلامي وعن مركز قوته ومحور عصبيته فتسقط فى يد العدو كما ان الثول يقصي الشاة فتقع بين أنياب الذئب

الضعف مهما تكاثف كان ضعفاً ، والجهل مهما تراكم بقي جهلا : فانضمام امارات العرب واعتزالها الحكومة العثمانية لا يقويها الى الحدّ الذي يحميها ، ولا يرفعها الى مستوى من القوة يمنعها

ان امارات العرب ويالاسف امارات بدوية لا نظام فيها ، ولا منعة لها والقوة البدوية مهما اغترّ بها صاحبها مصيرها الى السقوط أمام القوة المنظمة

المؤسسة على قواعد العلم الحديث . فمصير امارات الجزيرة اذا جافت الحكومة العثمانية إما السقوط أمام الدول الاجنبية وإما السقوط أمام الحكومة العثمانية نفسها بعد دماء ذكية تراق ، وأرواح بريئة تشكو الى خالقها شؤم الجفا والشقاق . وأقرب شاهد على مانقول واقعة (أم درمان) التي صرع فيها خمسة عشر الف بطل مسلم من اتباع التعايشي تحت أقدام « كتشنر » صرعة حمقاء لا مثوبة فيها بل ربما كان هناك عقوبة شديدة عليها

ولما زحف جيش (نابليون بونابرت) على سوريا استخفت به قبائل العرب وعشائر البدو الضاربون في فيافيها فَصَمَدوا اليه وهم بأكمل عدّة وأجمل زي وأحسن شارة : السيف والسنان. وخيول كالعقبان . وسروج مذهبة . وحلل حرير مقصبة . ومَرَح وخيلاء . وغرور ملأ الارض والسماء . كان موعد الاجتماع في سهل (طابور) على مقربة من عكاء . وقد بلغ جيش العرب زهاء سبعة عشر الفاً أما الفرنساويون فكانوا أربعة آلاف . فلم يشكّ أهل البلاد أن الغَلَبَة لهم . والنصر مطلعه من ناحيتهم ، حتى اذا حُمّ اللقاء ودنت ساعة القتال تجمّع الفرنساويون في شكل مربع على هيئة قلعة وربما كان نابليون هو المخترع لهذه القلعة في فن الحرب وأخذوا في مكافحة الهاجمين ومدافعتهم فلم يكن الا قليل حتى هزم الفرنساويون القبائل وشتتوا شملهم كما فعلوا في أهل مملكة «واداي» في أواسط افريقيا منذ أيام . وهذا مصير الجهل أمام العلم والغرور إزاء الحزم

لاغنى للجمهورة العربية اذا تحقق تكوينها عن قوة تستند اليها . ونقطة ارتكاز ترتكز عليها . ولا نخال أن هناك قوة تصلح لذلك الا قوة الحكومة العثمانية بما امتازت به من قديم دولة . وشديد صولة . وترتيب ونظام. وقواد وحكام. وجيش وأسطول . وسلاح به من قراع الدارعين فلول . فهي الدولة الاسلامية الوحيدة في نظام حكومتها . ودربة جيشها ومقدرة رجالها .

لعلهم يقولون اننا لا نريد بهذه الجامعة العربيـة الا التوصل الى نصب (خليفة) حائز لشروط الخلافة ؟

وأيّ ملك من ملوك الاسلام اليوم توفرت فيه هذه الشروط بأتم وأكمل من توفرها في السلطان العثماني ، وما هي هذه الشروط سوى أن يكون الخليفة مسلماً عادلا غير مرتكب لـكبيرة قوياً بقوة عصبيته وقادراً بمقدرة أمته على حماية بيضة الاسلام وذبّ العدو عن بلاد الاسلام ؟

ايّ ملك من ملوك الاسلام غير « السطان العثماني » لديه عصبية قوية مثل عصبيته. وأمة راقية مثل أمته . وحكومة منظمة مثل حكومته وجندية مدربة مثل جنديته ؟

ان الخليفة المسلم العادل ذا العصبية والمقدرة على الحماية هو الجدير بهذا الامر ولا عبرة بعد ذلك بالعوارض الاخرى اذا تخلفت . واليه الاشارة في قوله صلى الله عليه وسلم « أطيعوا ولو ولّي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » أي اطيعوه اذا كان قادراً على النهوض باعباء الخلافة مهما كان من أمر جنسه وفصيلته

اذا تسامحت حكومة العثمانيين فيما لا مندوحة لها عن التسامح فيه من المحدثات مراعاة لمقتضيات الزمان كما راعاها النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية ـ فيكون ذلك أفضل وأحزم من التشدّد والجمود الذي يؤدي بالدين وبالمسلمين الى مطمورة العدم والذوبان في غمار الأمم لا قدّر الله

لاجَرَمَ ان انكار كل ماقلناه ، والمشاغبة فيه ، والعمل على احداث (خلافةٍ جديدة) لا يكون له منشأ سوى دسائس أجنبية ، أو أغراض للأمراء شخصية . كما لا يكون له نتيجة الا افساد أمر المسلمين ، وتوهين شأن الدين

أما الحـكومة العثمانية الدستورية الجديدة فيجب عليها ازاء هذه المشاغبات أن تتدبر الامر بروية وامعان

وأول ما يجب عليها تدبره هوأن تجهر على رءوس الملأ من دون حذر أو تقية بأنها حكومة اسلامية ، وأن ملكها خليفة الاسلام والمسلمين . فان ذلك لا يمسّ جوهر حكومتها الدستورية كما لم يمسّ حكومتي انكلترا البروتستانية وروسيا الأثوذكسية اللتين يوجد في بلادهما كثير من الرعايا على غير ملتيهما

وليدع رجال الدولة العثمانية الاقتداء برجال فرنسا من جهة الغلو في التسامح الديني الى حدّ أن يُساء الظن بعقائدهم : فان شدة التسامح مظنة الالحاد ، والالحاد يدعو الى اضطراب الامر وانتكاث الحبل

وليدَعوا التفاخر بالجنس ، والاثرة بالوظائف ، وليولوها الاكفياء من أيّ قبيلٍ كان

وليدرسوا طباع العناصر التي تتألف منها مملكتهم حق الدرس . فان درس الطباع من أول دروس السياسيين

وليرسلوا الى جزيرة العرب الاكفياء من الرجال العارفين بمشارب سكانها ونزعاتهم واهواء نفوسهم لا كاولئك الذين كانوا يرسلون في الدور الحميدى من أجل احتجان الصلات والاعطيات . وليعجلوا في اطفاء فتنة عسير قبل امتداد شواظها الى سائر اطراف الجزيرة . وبذلك تصان البلاد من الفوضى ان شاء الله تعالى



المؤتمر والاجماع (١)

والعقل في نظر الدين

طوائف الحيوان انما تعتمد في بقاء نوعها على الغرائز المستمدة تواً من العناية الالهية أما طوائف البشر فان بقاءها وسلامة اجتماعها يتوقفان على صحة شرائعها . وتلك الشرائع منها ما هو مستمد من العناية الالهية ، ويسمى حينئذ الشرائع السماوية . ومنها ما هو مستمد من محض العقل ويسمى الشرائع الوضعية

ولا تخلو امة من الامم في القديم والحديث من أن تكون مسوسة باحد هذين النوعين من الشرائع

ومن تلك الامم الامة الاسلامية فأن شريعتها السماوية متكفلة ببقائها وسلامة اجتماعها ما دامت عاملة بها

واذا قلنا ان الشريعة الاسلامية أو الدين الاسلامي قد أفاضته العناية الالهية على نفوس أتباعه وكلفتهم العمل به من دون أن تجعل لعقولهم وظيفة في فهمه وتعقله والرجوع الى حكمه احياناً ـ اذا قلنا هذا نكون قد جعلنا آخر شريعة أوتيها نوع الانسان بمثابة الغرائز التي أوتيها جنس الحيوان . ويكون الدين الاخير ـ الذي منحه الانسان لحين اشتداد عقله واستنارة بصيرته ـ عاملا على اضعاف ذلك العقل واطفاء هذه البصيرة ، وهل هذا سوى خلف أو رجوع على الموضوع بالنقض ؟

الموضوع : أن تمد العناية الازلية العقل الانساني ـ وقد بلغ طور الاشتداد ـ بغذاء المعرفة الصحيحة والشريعة الفاضلة من حيث يبلغ الانسان بالعقل والشريعة

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م

معاً – غاية الكمال التى أرصدتها له العناية الآلهية ، وحثته على الوصول اليها .
يكفيك أن تشريع العبادات نفسها انما كان لتزكية العقل واعطائه كماله فاذا أهملنا العقل وعطلنا وظيفته كانت الانسانية كالمرء يمشي على رجل واحدة يقوم ويقعد ثم ينقطع دون الوصول الى حيث يقصد

ومن زعم أن الشريعة الاسلامية لا تعتمد في أحكامها سوى الوحي المحض والنقل المحض والتقليد المحض – فقد ظلم تلك الشريعة السمحة وعطلها وعرضها للضياع من حيث أنه نزلها منزلة الغرائز في نوع الحيوان . من زعم ذلك فقد أساء فهم آي القرآن ، وأصم أذنيه عن نداء منزل القرآن

لم يكن في الوجود – من يوم أخذ الانسان اجتماعه – كتاب رفع من شأن العقل وحفظ له حقه – مثل القرآن

فهو ان خاطب خاطب العقل ، وان استشهد استشهد بالعقل ، وان استنجد استنجد بالعقل . فهل يقال بعد هذا ان دينا كتابه القرآن يهمل العقل ويعطله عن القيام بوظيفته ؟ يقيم القرآن العقل حكما بينه وبين المعارضين . واذا زيّف للمعارضين تقاليد أو عقائد فانما يزيّفها بعد عرضها على محكّ العقل . وشاهد هذا معظم آيات القرآن التي تتضمن محاجّة المشركين ومقارعتهم . فهل يعقل أن يكلف القرآن – وهذا شأنه – أتباعه عقائد وتقاليد ليست معززة بالعقل وليس للعقل فيها عمل ، أوله في فهمها نصيب ؟ العقل مشرق الايمان ، ومناط التكليف . والعقل في اعتبار الدين الاسلامي هو قائد البشر وموصلهم الى هدايتهم

هذه وظيفته ولو لم يُنزل وحي أو يُبعث رسول

الوحي يسدّد طريق العقل ويمده من العقائد الفاضلة والتعاليم العالية بما يكون له كالنبراس في ظلمات هذه الحياة : فليست تعاليم الاسلام كغرائز الحيوان

خالية من المساعدة العقلية . ولا كالشرائع الوضعية مجردة عن الهداية الربانية

ومهما قالوا انه لا عمل فى التشريع الا للنصوص الدينية وان مدار ذلك على أدلة الشرع الأربعة وهي : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ـ فليس ذلك بمغن عن اعتبار العقل أو بكافٍ في الدلالة على أن العقل في نظر الدين معطل عن العمل : لأن نص القرآن أو السنة اذا وجد لا يدرك المرء وجه دلالته على الحكم الا بواسطة العقل . فالعقل بعد أن يكون تشبع بملكة اللغة العربية وبلاغتها وبمعرفة أقسام الكتاب من خاص وعام الخ وعلم السنّة بمتنها وسندها ـ يعمل عمله في استفراغ المجهود لاستنباط الحكم من ذلك النص

فانظر كيف أن الدين الاسلامى لم يعمل النص ما لم يكن للعقل السلطان الاكبر عليه

واذا لم يوجد النص في سنة ولا في كتاب فالعمل للعقل : في القياس منفرداً وفي الاجماع مجتمعاً

اذا لم يجد المسلمون نصاً لحكم شرعي قاسه مجتهدهم على حكم آخر من الأحكام المنصوصة ، وذلك حينما يجد أن العلة المؤثرة في الحكم المنصوص موجودة بعينها في الحكم المجهول أمره

فتقرير هذا الحكم الذي كان مجهولا لم يكن بالنص الشرعي : لأن الفرض انه مفقود ، وانما كان بالعقل

قد يقول المعارض ان العقل لم يستبد بتقرير الحكم وانما اعتمد في عمله على العلة المنصوصة ـ فنقول نعم ولكن هذا لم يبطل قضيتنا من أن الدين الاسلامي فسح للعقل (أو الرأي أو الاجتهاد كما يسميه علماء الاصول أحياناً) مجال النظر عند عدم وجود النص . والعلة المنصوصة لم يوجدها الشرع وانما هي موجودة

قبله ومما لا علاقة له بالشرع : مثل عـلة الاسكار في الخمر التي اعتمد عليها المجتهدون في تحريم غـير الخمر من الاشربة متى أسكرت ـ فان تلك العلة لم يوجدها الشرع ولم يكن هو أول من جعلها علة مؤثرة في تحريم الخمر . كيف وقد حرم بعض عقلاء العرب على نفسـه الخمرة قبل الاسلام لهذه العلة الخبيثة التى رآها فيها

على أن القول بأن اعتماد العقل (أو الاجتهاد) على العلة المنصوصة في الشرع لا يجعل له دخلا في تقرير الحـكم ـ قول باطل ـ لما فيه من انكار مزية العقل أو هو بالمعنى جهل بوظيفة العقل . وظيفة العقل انما هي الوصول الى المجهولات عن طريق المعقولات . فكيف يسوغ لامرء أن يقول ان العقل لا دخـل له في تقرير عقيدة « ان الله محدث هذا العالم » ـ لانه اعتمد في ذلك على هذه المقدمة وهي « كون العالم محدثا » !!

ومحصل القول أن القياس الذي أباحه الدين الاسلامي ما هو الا بمثابة اعطاء سلطة للعقل البشري يستعملها عند فقد النص الشرعي . وهذا معنى الاثر المروي « تُحدِثون ويُحدَث لـكم » بكسر الدال الاولى وفتح الثانية . والعقل الذى أجاز له الشرع أن يستنبط حكما أو يقيس فرعاً على فرع قد اشترط في صلاحيته لذلك شروطاً هي شروط الاجتهاد المسطرة في كتب الاصول . فليس لأي كان أن يفهم في الدين ويستنبط الاحكام . كيف وهذه الشرائع الوضعية نفسها ما كان لاحد سلطة التشريع فيها ما لم يكن على استعداد لها ومقدرة عليها

أشرنا آنفاً الى أن العقل في (القياس) يعمل عمله على انفراد . اما هو فى (الاجماع) فيعمل عمله مجتمعاً مع عقول اخرى غيره ومعززاً بقوة مدار كها . فالحـكم الذي تقرر بالاجمـاع أعلق بالصحة وأولى أن تطمئن النفوس اليه ــ من

ذلك الحكم الذي تقرر بالقياس . ولهذا كانت مرتبة الاجماع فوق مرتبته وقد اعتبر الركن الثالث والقياس الركن الرابع

والاجماع في اللغة الاتفاق يقال أجمع القوم على كذا اذا اتفقوا عليه . واذا أجمع قوم على أمر كانوا أبعد عن الخيبة والفشل كما يكون الامر الذي أجمعوا عليه أقرب الى الصواب وأبعد عن الخطل

فمن ثم حض الشرع على الالفة والاتحاد بعد أن امر بتوفير وسيلته الموصلة اليه أعني المشاورة ، ومدح أهلها عليها

لا يفلح قوم ما لم يتفقوا ، ولا يتفقون ما لم يجتمعوا ويشرف كل منهم على رأي أخيه ويقف على دخائل نفسه : فاذا فعلوا ذلك وتطلبوا الحق فيما اختلفوا فيه باخلاص وصفاء نية ـ كانوا أحقاء بالوقوع على الحق والوصول الى الفلاح من وراء العمل بذلك الحق الذي اتفقوا عليه

نبهنا الشرع الى فائدة الاجتماع ، وان الجماعة مظهر من مظاهر أمر الله ، وان يده تعالى معها ، وان الذي يخرج عن الجماعة كالشاة تنعزل عن القطيع لا تلبث ان يلقفها الذئب

أدرك أهل أوربا فائدة الجماعة والاجتماع فاتخذوا ذلك أساساً لادارة شؤونهم وقاعدة لبنيان أمرهم . كما اتخذوا كثيراً من اصول العمران التي جاء بها الدين الاسلامي وأهله عنها غافلون

فمجلس الاعيان والنواب والسناتو والرشستاغ ومؤتمر السلام في نظير ذلك من ضروب المجامع والمؤتمرات ـ كلها ترمي الى غرض واحد وهو : الوصول الى المصلحة من طريق البحث والمذاكرة . وقد ضبط هؤلاء القوم الامر بطريقة تكافلوا على العمل بها وهي : انه اذا خالف بعض المجتمعين البعض الآخر كانت

العبرة للأكثر ، وكان على الاقل السكوت والتسليم واجتناب المعارضة والمناهضة وبذلك صانوا أنفسهم من الشغب والشقاق ، وبلادهم من الفتن والاضطراب

وهـذا ما حث عليه الشارع وأشار علينا به وجرى عليه عمر رضي الله عنه حين عهد الى ستة نفر من الصحابة في انتخاب خليفة يقوم بأمر الامة بعده قائلا واذا اختلفتم كان القول للفريق الاكثر

لننظر الآن في النسبة والمقارنة بين انعقاد الاجماع المعتبر في الدين الاسلامي وبين انعقاد المؤتمرات التي عليها مدار الشؤون العامة في أوروبا

ذكرنا آنفاً أن الاجماع في اللغة الاتفاق أما هو في الشرع أو اصطلاح الفقهاء « فاتفاق المجتهدين كلهم في عصر من الاعصار على حكم شرعي » فالاجماع اذن يتوقف على شيئين :

(١) أن يكون رجاله من أرباب الاجتهاد في الدين

(٢) أن يتفقوا كلهم على المسئلة ، فلا يشذ منهم أحد

اذا أردنا أن يكون لنا مؤتمر اسلامي في هـذا العصر فهل يمكننا أن نراعي فيه هذين الشرطين : اجتهاد أعضائه ثم اتفاقهم جميعهم في كل مسئلة تعرض عليهم ؟ لا يمكن ذلك لما أن الاجتهاد أصبح من المتعذر وجوده . والاتفاق في كل مسئلة أمسى من المتعسر حصوله . وزد على ذلك أن طريقة انعقاد الاجماع المعروفة في التاريخ الاسلامي غير انعقاد المؤتمرات في هذا العصر

يدعى الأعضاء اليوم ثم تعرض عليهم المسئلة فيتذاكرون فيها حتى يقر رأيهم عليها اما بالاتفاق أو الاكثرية

أما انعقاد الاجماع فلا دعوة فيه ولا اجتماع ولا مذاكرة . وانما هي المسئلة الفقهية يبلغنا أن المجتهدين في ما وراء النهر وخراسان والعراق والحجاز واليمن

والشام ومصر وافريقية والمغرب قالوا فيها قولا واحداً فنقول اذ ذاك ان الحكم في هذه المسئلة هو كذا ودليله اجماع المجتهدين عليه

فاذا كانت هذه الطريقة هي الطريقة المعتبرة في صحة الاجماع وكان لا بد في الاجماع من الشرطين المذكورين « الاجتهاد » و « الاتفاق » فلنيأس منذ الساعة في أن يتاح للمسلمين في هذه الايام الاستفادة من هذا الأصل السماوي أعني الاجماع أو أن يتيسر لهم عقد مؤتمر اسلامي يكون لقراراته صفة دينية ومسحة مقدسة يطمئن لها المسلمون في أنحاء المعمور كافة . اذا قلنا انه لا اجماع الا بمجتهدين ولا مجتهدين اليوم فلا اجماع اليوم ـ نكون بكلمة واحدة هدمنا أصلين عظيمين من أصول الاسلام الاربعة وهما (الاجماع) و (القياس) الذي هو ملاك الاجتهاد . وهذان الأصلان هما اللذان أعدتهما لنا العناية الالهية رحمة بنا لنستند عليهما في المسائل والواقعات التي لا بد أن تطرأ علينا في مستقبل تاريخ أمتنا ولا نجد ما نستند عليه فيها من نص سنةٍ أو كتاب . وليس العجب في أن يعطل المسلمون هذين الاصلين المقدسين بل العجب في أن يبقوا الى القرن الرابع عشر بعد أن عطلوهما

انتظام أمر الاسلام يتوقف : على وجود أفراد من أهله يجيدون الفهم في الدين فهما صحيحاً ـ وعلى اجتماع هؤلاء الافراد لنأخذ من أقوالهم بالاتفاق أو الاكثرية قولا واحداً . ولو لم يجتمعوا على هذه الصورة كان لنا في كل زاوية من بلاد الاسلام مجتهد يخالف المجتهد الآخر ويغاضبه ، بل ربما يناهضه ويواثبه . « فالاجتهاد الافرادي » هو في الاغلب من أكبر الآفات على الأمة الاسلامية على العكس من « الاجتهاد الاجماعي » فانه من اكبر نعم الله عليها

كيف الوصول الى سعاد ودونها قلل الجبال ودونهن حتوفُ

الرِجل حافية ومالي مركب والارض قفر والطريق مخوف

نريد أن نسلك في البحث مسلك التوفيق بين الطريقتين طريقة «الأجماع» الاسلامي وطريقة « المؤتمر » العصري الذي هو من مقومات المدنية الحديثة . وسننظر فيما قرروا من شروط الاجماع من دون أن نوافقهم أو نخالفهم كل المخالفة :

حصول العلم عندنا بأن الحكم الشرعي الفلاني تقرر باجماع كل المجتهدين المنبثين في أقطار العالم الاسلامي - من الصعوبة بمكان : كيف يمكننا أن نعرف أولئك المجتهدين كلهم وبأية طريقة يتيسر لنا أن نقف على آرائهم في هذه المسئلة حتى نقطع بأنهم اتفقوا عليها والفرض أننا في العصور السالفة اذ لا يوجد وسائل للمواصلات ولا أدوات للمخابرات تعمل عملها على وجه السرعة كما هو الشأن اليوم فيلزمنا أن نعرف كل المجتهدين ونعي أقوالهم فنجدها متفقة واذا سكت أحدهم ولم يبد رأياً كان علينا أن نعلم أن ذلك الساكت بلغه ماقاله غيره في المسئلة ومضت على الساكت مدة يمكنه أن يتأمل فيها في تلك المسئلة فمضت المدة وتأمل فسكت فيعد سكوته اذ ذاك موافقة لاخوانه ونعتد بالاجماع حينئذ ونسميه اجماعاً سكوتياً

ولأجل ما في ذلك من الصعوبة أنكر بعضهم حصول الاجماع في الاسلام وانه ما انعقد قط في مسئلة من المسائل لتعذر الشروط التي اشترطوها فيه وعدم امكان توفرها

ولو سلمنا بحصول الاجماع ووقوعه بالفعل - فانما كان في مسائل قليلة يمكن عدها كما عدت الاقوال المفتى بها على قول الامام زفر

ومدار تعذر انعقاد الاجماع في ذلك العصر على تعذر المواصلات وفقد

وسائلها أما اليوم فيمكن معرفة أصحاب الرأي في كل بلدة اسلامية ويتيسر اجتماعهم في مصر واحد في وقت معين من كل سنة مثلا وذلك بسبب سهولة المواصلات

لكن اذا كان الوقوف على آراء أهل الرأي سهلا في هذه الايام فما الحيلة في « الاجتهاد » و « الاتفاق » وقد قالوا بلزومهما لتحقق الاجماع ؟

أما الاجتهاد فلنا أن نقول انه لم يشترطه بعض المحققين بل قال في تعريف الاجماع « انه اتفاق أهل عصر من الاعصار على حكم شرعي » وكأن هذا البعض حياه الله فطن الى أنه قد يأتى على المسلمين زمان لا يكون فيهم مجتهد فاذا حزبهم أمر وأرادوا معرفة حكمه الشرعي كان لهم أن يجتمعوا (أي يجتمع أهل العلم والرأي فيهم وان لم يبلغوا درجة الاجتهاد) وينظروا في هذا الامر ويتفقوا على حكمه مستندين في ذلك على أصول الدين العامة وقواعده الكبرى أي لابد أن يكون لهم مستند في الدين يستندون اليه ويعولون عليه . وتوسع بعضهم فقال ينعقد الاجماع لا عن سند : بأن يوفقهم الباري تعالى الى اختيار الصواب كما وفقهم الى ذلك في بيع التعاطي وأجرة الحمام

بقي علينا « الاتفاق » أي اتفاق الافراد (أو الاعضاء) كلهم على المسئلة ليتصور انعقاد الاجماع بحيث اذا خالفهم بعضهم وجهر بالمخالفة لم ينعقد

النادى الذى يضم اليه مئات من العلماء قلما يحصل فيه اتفاق تام في كل مسئلة من المسائل التى ينظرون فيها . فاذا لم نعتدّ الا بالمسئلة التي يتفقون عليها كلهم كان لنا في مائة المسئلة ـ مسئلة واحدة يمكن اتفاقهم عليها ، وهذا تعطيل للمؤتمر وتشويش عليه . أو يقال ان هذا الشرط وحده كاف في أن لا ينعقد اجماع أصلا ولعل الذين قالوا انه لم يحصل اجماع في الاسلام قط كانوا ناظرين الى هذا الشرط وتعذر وجوده

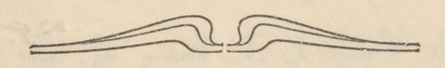
وما دام الشرع يعتبر أن للاكثرية حكم الكل في كثير من مسائله وفروع أحكامه ، فلماذا لا نعتبر الاكثرية هنا ونجعل لها حكم الكل ؟ وهذا عمر رضي الله عنه لاحظ ذلك في مسئلة انتخاب الخليفة الذي وكل أمره الى الصحابة فاعتبر الاكثرية ـ على ما سبقت الاشارة اليه في هذا المقال

على انه يمكن للاقلين الذين يخالفون الاكثرين في مؤتمرنا الجديد أن لايجهروا بمخالفتهم بل يسكتوا ويكون ذلك مما يصرح به في (قانون المؤتمر) فيعرفه الاعضاء ويراعيه المخالف منهم ؟ فيقال اذ ذاك باننا اتبعنا الرخصة فلم يتكلم الكل وانما تكلم البعض وسكت الباقون . ويكون الاجماع سكوتياً وهو معتبر عند السادة الحنفية رضي الله عنهم

فلنا اذن بالنسبة لشرط (الاتفاق) طريقتان : أن نسمى القرار الصادر بالاكثرية اجماعاً تنزيلاً للاكثرية منزلة الكل . أو أن يسكت المخالف فلا يجهر برأيه فنعتبر الاجماع حينئذ اجماعاً سكوتياً

ومجمل القول أننا اذا أردنا أن ننشيء مؤتمراً اسلامياً ينبغي أن نجعله ذا صوت مسموع ورأي نافذ ولايكون ذلك كذلك مالم تكن له صبغة دينية . ولا يتيسر هذا مالم نطبقه على الاجماع الذي هو أحد أصول الدين الاربعة لأن موضوع الاجماع كموضوع المؤتمرات التي اصطلحوا عليها في هذا العصر مع فرق طفيف . ويمكن تسوية هذا الفرق على الصورة التي ذكرناها : بأن لا نعتبر شرط الاجتهاد ـ بناء على قول بعض المحققين ـ وأن يسكت المخالف في صورة المخالفة ليكون العمل بالاكثرية ويكون الاجماع من قبيل الاجماع السكوتى

وأما اذا أريد بالمؤتمر وضع آخر غير ما مر من البيان فهذا شأن وذلك شأن



المنتظر من المؤتمر (١)

لا ينتظر من المؤتمر (الذي أسس لهذه الآونة في القاهرة) أن يبحث في كل شأن من الشؤون الاسلامية الدينية واللغوية والسياسية والأدبية والاجتماعية والصناعية والتجارية والزراعية وما له علاقة بذلك : فان هذا فوق طاقته وربما لم يتصد للقيام به واحد من المؤتمرات التى انعقدت من يوم عرف أمر المؤتمر

واذا اتسع نطاق مؤتمرنا وقوي على النظر في جميع الشؤون التى أشرنا اليها كان ذلك غاية ما تتمناه الامة ، ولكنه مما لا يصح أن نمنى نفوسنا به الآن

المنتظر من المؤتمر أو الموضوع الذي انعقد من أجله يمكن إيداعه هذه الجملة « الاقتصار في البحث من المسائل الدينية على ماله علاقة بشؤون الاسلام الاجتماعية ومن الشؤون الاجتماعية على ما يكون مرجعه النصوص الدينية »

هذا أهم ما ينتظر من المؤتمر لان الغاية منه أن لا يكون المسلمون أحط من الامم غيرهم في المدنية والحياة الاجتماعية :

فالتعاليم الدينية المحضة والمسائل الشرعيـة التي يمارسها المؤمن في ذاته ولا يكون لها أثر في ارتباطه ببقية اخوانه المؤمنين ـ لا ينبغي أن تكون مما يبحث فيه المؤتمر : كاحكام المياه والانجاس والمسح على الخفين والحدث في الصلاة والحيض والاعتكاف والايمان وأمثال ذلك . لان الازهر وعلماءه وسائر المعاهد الدينية وشيوخها هم المتكفلون ببيان تلك الامور وتقرير أحكامها وارشاد الكافة اليها . ولا ينتظر من المؤتمر أن يبحث في تلك الفروع ويرجّح بعضها على بعض ويعلن ما هو الحق فيها . واذا صح أن يكون له عمل من هذا القبيـل فانما هو

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٦ هـ

الارشاد بالوجه العام الى الطرق المثلى في تحصيل تلك المسائل ومايذبغي أن تكون عليه التآليف التى توضع فيها والطرق الاقرب ايصالا في تعليمها وتعلمها

هذا مثال لما لا علاقة له بالاجتماع في مسائل الدين ـ أما مثال ما لا علاقة له بالدين من شؤون الاجتماع فكالبوسطة والتلغراف والتليفون وسكك الحديد والرى والزراعة والعلوم الدنيوية ومدارس تعليمها فان كل هـذا له مصالح خاصة تنظر فيه ولم يكن مستمداً من الشرع وإنما الشرع يكل أمره الى الناس قائلا لهم « أنتم أعلم بأمور دنيا كم »

وهناك شؤون دنيوية اجتماعيـة كبرى أعطاها الدين الاسلامي آساساً وأصولا من عنده وكلف المسلمين أن يديروا تلك الشؤون على مقتضى أصوله وتعاليمه التى قررها . ثم طرأ على العالم في العصور الأخيرة اختلال في موازنته فضعف المسلمون بعد قدرة ، وهانوا بعد عزة ، وقوي غيرهم بعد ضعف وعزّ بعد استكانة . ومن جرْي ذلك أصبحت تلك الشؤون الاجتماعية الدينية التى أشرنا اليها بمثابة الشريعة المعطلة ، واضـطر المسلمون ـ بطبيعة الحال ـ أن يقفوا دون العمل بها والسير عليها . وهذا كمسائل الرقيق والمرتد والحدود والجنايات والديات وسائر الاحكام المدنية التى اتخذ لها قوانين ونظامات ومحا كم خاصة . وكأحكام الحرب والغنائم والمستأمنين وما يسمونه الحقوق الدوليه والمعاهدات السياسية فاننا لا نرى المؤتمر فى حاجة الى البحث في مثل هذا ، وقد لا تطول حياته اذا تطاول اليه ، أو اراد التحويم حواليه

وماذا بقي للمؤتمر وراء ما ذكرنا ؟ بقي له الغـاية من بعثة الرسل والثمرة لتشريع الشرائع . أعني مـكارم الاخلاق والبحث عن جواهرها ووسائل نشرها بين المسلمين

ينبغي أن نعرف الفضائل والاخلاق العالية التى كانت السـبب في

إسعاد أسلافنا وفي إسعاد الامم الراقية لهذا العهد - كما نعرف الرذائل والاخلاق السافلة التى كانت السبب في شقاء كثير من الامم في القديم والحديث . ثم نسلك أقرب الطرائق لحمل امتنا على التخلق بالاولى فتسعد وترقى ، وتجنب الثانية فلا تضلّ ولا تشقى

انحطاط المسلمين في حياتهم الاجتماعية ليس له سبب سوى التواء الاخلاق فيهم كما أن انتياشهم من هوة ذلك الانحطاط لا يكون الا بتقويم أود تلك الاخلاق

ولا نعنى بالأخلاق هنا الرفق والدماثة ولين الجانب وحدها بل نريد بالاخلاق كل ما يورثهم العزة ويذيقهم طعم السعادة ، وبيان ذلك ونشره في رسائل خاصة توزع على المسلمين - هو من جملة ما ينتظر من المؤتمر

وللاخلاق وتثقيفها ارتباط بالعقائد وتصحيحها . وقد مني المسلمون بشيء في هذه العقائد وأصيبوا بما غيّرها في نفوسهم فتبع ذلك تغير في أخلاقهم ثم تغير في حالتهم السياسية وشؤون حياتهم الاجتماعية

فيكون من المنتظر أيضاً أن يعنى المؤتمر بتصحيح تلك العقائد والسعي في جمع كلمة المسلمين على عقيدة واحدة توافق عقيدة السلف وتنطبق على نصوص الدين وتعاليمه الطاهرة ، لان لهذا من الاثر في نهضة المسلمين الشأن الاكبر

وقد كان نشر منذ حين فى المؤيد أنه وقع خلف بين علماء سوهاج في شأن عقيدة اختلفوا في أمرها حتى كاد يفضي اختلافهم فيها الى ما لا تحمد عقباه وأن بعض الوجهاء من أهلها دعا فضيلة الشيخ بخيت فأزال الخلاف وأصلح ذات البين وقد أحببت اذ ذاك أن أقف على كنه الخلاف والسبب فيه فزرت الاستاذ المو ما اليه واستوصفته الحادثة فقال ان بعض علماء سوهاج قال في قوله تعالى « وهو القاهر فوق عباده » ان الفوقية حقيقية مع ملاحظة التنزيه كما أن الاستواء

على العرش الوارد في القرآن حقيقي بالملاحظة نفسها . فأنكر عليه سائر العلماء قوله ورأوا أن الفوقية الحقيقية والاستواء الحقيقي مما لا تصح نسبته الى الله تعالى . وقد انحاز اليهم العامة وجعلوا يشنعون على ذلك العالم وينسبون اليه ما يجب تنزيه المؤمن عنه. فأفهمهم الاستاذ الشيخ بخيت أن خلافهم كالخلاف بين (السلف) و(الخلف) في الآيات المتشابهة . وان الاولين يقولون بالتفويض والآخرين بالتأويل . ومؤدى القولين واحد وهو تنزيه الله تعالى . وانما الخلاف في التعبير وفي الطريقة الموصلة الى ذلك التنزيه : فالسلف قالوا الاسلم أن نفوّض والخلف قالوا الانجع في دحض حجج الملحدين والملبسين أن نأوّل . وقد بسط الاستاذ المقام بسطا لم يدع فيه ريبا لمرتاب ، وأذعن الكل لقوله وانصاعوا لنصحه

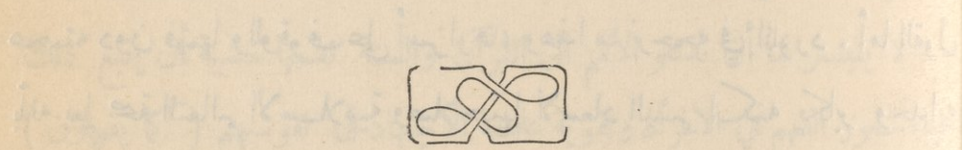
نؤوّل

ولم ينس القراء حادثة دمياط ومسئلة زيارة الاولياء وتقبيل اعتابهم والاستشفاع والاستشفاء بهم وكيف أكفر العامة ذلك القائل وأهانوه ثم حكمت عليه مشيخة الأزهر بقطع الجراية والانقطاع عن التدريس . ولو أتيح للقوم حكم يفصل بينهم على نمط حكم الاستاذ لما آل الأمر بهم الى ما آل اليه

ومسألة دمياط ليست بالتى يحسن أن يؤدي الخلاف فيها الى تكفير المسلم أخاه بل ربما كان الخلاف فيها لفظياً لا حقيقياً فان كل المسلمين على أن لا تأثير في الوجود والخلق والاعطاء والمنع الا لله

على أن مسألة خلق القرآن التى جرى لابن حنبل فيها ما جرى وكانت العامل الاكبر في التفريق بين المسلمين الى معتزلة وأهل سنة ـ هى أيضاً مما كان الخلاف فيه لفظياً عند أهل التحقيق . لأن من قال بخلق القرآن لم يرد به ذات الله ولا صفة من صفاته . ومن قال بقدم القرآن لم يرد ما يقع تحت المشاعر وتتأثر به الحواس من أصوات مقروعة ، وحبر وجلود وأوراق مصنوعة . فان الفريقين ينزهون الله وصفاته عن الحدوث ومشابهة المبروآت

وهكذا نرى الدين ـ الذى أنزل من أجل توحيد قلوبنا وجمع شملنا وتقوية أمرنا ـ قد تحول بغفلتنا وتغير أخلاقنا الى معاول تفريق، ومخالب تمزيق. فاذا تيسر للمؤتمر ان ينظر هذا النظر في التقريب بين العقائد المختلف فيها بين السنة والشيعة وأهل نجد وغيرهم من فرق الاسلام ويرجع بها الى بساطتها فى صدر الاسلام كان صنيعه هـذا مؤديا عن كثب الى اصلاح حال الأمة ، ولم شعثها السياسى والاجتماعي . وبالله التوفيق



وسائل نشر الاسلام [١]

اذا كان في حملة اللورد كرومر على الدين الاسلامي عبر فان من أعظم تلك العبر أن يبقى هذا الدين وتعاليمه الطاهرة وأصوله السامية خفية أو غامضة في هذا العصر والى حدّ أن مثل اللورد كرومر يجهلها ويسيء فهمها ويستشهد بها في غير ما انزلت لاجله

نقول هـذا على اعتقاد أن اللورد نظر في الدين الاسلامي وأصوله فحالت عجمته دون فهمها والوقوف على أسرارها، وهذا ما نرجحه في اللورد . أما القول بأنه يعلم صحة التعاليم الاسـلامية وصلاحيتها لاسعاد البشر لـكنه يكابر وجدانه فينكر عليها مزاياها وخصائصها فهذا مما يستبعد على اللورد ، وربما عرف العارفون من أخلاقه ما ينافي هذه الخطة

علينا أن نعتبر بما كان من اللورد فنسعى كل سعي في تحرير ديننا من الترهات وصيانته من الخزعبلات ونجرده من غواشـيه وملابساته فيغدو أبيض نقيا أو كالبدر في تمه . وهل يماري في رؤية البدر أحد ؟

علينا أن ندعو الأمم الى ديننا ونكشف الغطاء عن حقائقه وأصوله الطاهرة بصورة تنبه أذهانهم وتتلتل شعورهم وتؤثر في نفوسهم

علينا أن نسلك في نشر ديننا الطرق الطبيعية التي تسلـكها الأمم وقد أمرنا بسلوكها ربنا في قوله « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون »

الى متى لا ندعو الى ديننا بصورة تستلفت النظر بل نكتفي بأن الامم

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٦ هـ و١٩٠٨ م

عرفت أن في العالم ديناً يقال له «الدين الاسلامي» مع أن هذا غير كاف في الدعوة وغير كاف في براءة ذمة المسلمين وخلاصهم من التبعة في وجوب الدعوة الى دينهم من منا دعا الى دينه ؟ ومن منا يعرف كيف يدعو ؟ وما الشيء الذي يدعو اليه ؟ أيدعو الى القرآن وحده ؟ أو اليه والى السنة الشريفة ؟ واذا كان لا يباح النظر في القرآن والحديث للمسلم نفسه مهما بلغ من كثرة العلم وقوة العقل فكيف يباح النظر فيهما ليؤمن بهما ذلك الذي ندعوه الي الاسلام ، وهو لا عهد له به ولا بمعرفة لغته أحياناً ؟

لا يتيسر لنا أن ندعو الامم الى القرآن والسنة نفسها خشية أن يتبع ذلك احياء شعور الفهم في الافراد وتقوية عاطفة الاجتهاد فى نفوسهم (كما يقولون) فالدعوة إذن انما تكون الى ماقاله المجتهدون وحققوه وأودعوه كتبهم . ماهي هذه الكتب ؟ وهب أن امرءاً غير مسلم قال لنا ما هي دعوتكم ؟ والى م تدعونني ؟ فبم نجيبه ؟ أندعوه الى القرآن والسنة الصحيحة وحدها ؟ لو أبحنا له ذلك لكان أمة وحده وأتى لنا بمذهب جديد . أم ندعوه الى ما قاله العلماء فى تفسير القرآن والحديث والاصول والفقه والكلام ولو فعلنا لارتد الرجل علي عقبيه ولم يتيسر له أن يصل الى حقيقة منها . هذا اذا كان يعرف لغة العرب فما ظنك اذا كان غريباً عنها ؟

الدعوة الى الاسلام واجبة عينا ومالا يتم الواجب الا به كان واجباً أيضاً . والدعوة لها وسائل لا تتم الا بها ، فهذه الوسائل التي تتوقف عليها الدعوة واجبة أيضاً — وما هي تلك الوسائل ؟

أن نقتنع أولا بوجوب الدعوة علينا ـ وأن يكون لدينا من حسن الاخلاق وجميل الصبر وقوة التلطف ما نستعين به على الدعوة ـ وأن نغتنم الفرص لبث الدعوة أفادت أولم تفد . علي أن الدعوة اذا لم تفد لابد أن تترك فى نفس المدعو

أثراً حسناً مثل أن يعتقد أن الاسلام دين طاهر لا ينافي المدنية ويحث على مكارم الاخلاق - وأن نعرف أن القرآن والحديث وشروح العلماء عليهما لم يخاطب بها المسلمون وحدهم حتى يقتصر في دراستها عليهم بل هي شريعة عامة انزلت ليخاطب بها كل انسان من بني آدم بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم ثم اتباعه من بعده. دخل مرة أحد نبهاء المسيحيين مسجداً اسلامياً ليتعرف الى شيخ يعلم فيه، وكان الوقت وقت الدرس فأرتج على الشيخ وظهر عليه التأثر والانفعال مستنكفاً أن يدخل مسيحي مسجداً ويسمع فيه كلام الله والشروح التي تقال حواليه. وقيل لبعض الحفاظ مرة أقرأ لنا سورة مريم فان في المجلس بعض المسيحيين وهم يحبون أن يسمعوها، فتبرم الحافظ وجعل يدمدم ويقول. « ما نقراش على كيف المسيحيين »

مع أن قوله تعالى « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » - حجة على الشيخ والحافظ المذكورين : فهي تلزمهما أن يسعيا في جلب من يريد سماع القرآن، ويحفظاه من العدوان والأذى ثم يرجعاه الى بلده آمن أو لم يؤمن. وذلك لأن أولئك الذين لم يسلموا بعد - لم يعرفوا القرآن ولا علموا الى م يدعو؟ فهم معذورون اذا لم يسلموا ومعذورون اذا كان المسلمون لا يسمعونهم القرآن ويرفعون عنهم كل أذى وحيف ريثما يسمعون ويفهمون. ولا تقوم الحجة عليهم الا اذا فعلنا هذا، ولا نبرأ نحن من التبعة الا بذلك

الشيخ المدرس لو عرضتَ عليه الآية المذكورة « وان أحد من المشركين استجارك » الخ وطلبت منه شرحها لجاءك بالعجب من أقوال الكشاف والرازي والبيضاوي وحواشي تلك التفاسير، ولأسمعك المطرب من فنون العلم وضروب الاقوال. ولكنه في الحقيقة ونفس الأمر لم يفهم الاية ولم يصب معناها الذي

أنزلت من أجله . معناها أنه يجب على المسلم أن يُفهم غير المسلمين كلام الله ويدعوهم اليه بأسلوب يؤثر في نفوسهم . ومن الاسف أن الشيخ لا يشرح لك هذا في جملة ما يسرد من الشروح ، بل يوشك أن لا يذكر المفسرون شيئا بشأن الدعوة وكيف يعمل المسلم في الوصول الى دعوة غير المسلمين الى دينه

أما القاريء الحافظ الذي قال « ما نقراش على كيف المسيحيين » فانه لم يقرأ ولم يحفظ القرآن وانما هو فونغراف أو ببغاء تتردد في حنجرتها آيات القرآن ولو كلفته أن يقرأ لك الآية المذكورة « وان احد من المشركين استجارك الخ » لا طرب وابدع وسرد لك القراآت الأربعة عشر الواردة في هذه الآية ولحَّن في كل قراءة بلحن مختلف وإيقاع خاص . لكنه لعمري لم يفعل شيئاً ، ولم يُسمع كلام الله ، وانما أطرب الحضور وأسمعهم أفانين الأنغام ، وأثار « الا هات» في نفوسهم . ولو عمل على كيف المسيحيين لكان أفضل وأكثر موافقة للعمل بالآية التي تأمره بأن يجيرهم ويُسمعهم ويرجعهم الى مأمنهم

لا يقال أنهم لا يسلمون . نعم ولكنهم يفهمون الآيات ويدركون معانيها السامية وتعاليمها الفاضلة وفصاحتها الناصعة وآدابها الرائعة

فذكّر انما أنت مذكّر - أي ليس لك من أمر من تذكّرهم الا تذكيرهم . هكذا أمر الله نبيه . وهكذا يجدر بنا أن نفعل : ندعو الى ديننا بمختلف الطرق والهداية من الله . أرسل المبشرون في أقصى الشرق الى جمعية التوراة في لندرة يشكون من عدم قدرتهم على تنصير أحد هناك . وطلبوا أن تجد الجمعية مخرجا من هذا الأمر وان لا تكثر من ارسال المبشرين والكتب الدينية لعدم الفائدة فجاءهم الجواب من قبل الجمعية أن عليهم أن يدعوا الى دينهم وليس عليهم أن يُجابوا ولا ان يقدموا آراء

لم تبق لغة من لغات العالم الا وقد ترجم اليها الكتاب المقدس حتى لغة

البرابرة ونحن الى الآن ندع كلام ربنا لعبةً في أيدي مترجمي الافرنج يترجمونه حسبما يفهمون ثم يحكمون عليه بما يشتهون . قال العلامة الشهير « جونسون » في كتابه « اعلاء الدين المسيحي » : « ان من العار أن لا توجد في مكتبة كل أديب منا ترجمة صحيحة للقرآن الشريف »

ولعمري ان هذا العار لاحق بنا وواقعة تبعته على أعناقنا أكثر من كل أحد أننتظر من الامم أن يتعلموا اللغة العربية ثم يقبلوا على فهم الكتاب والسنة ويتعرفوا منها صحة الدين فيؤمنوا به ويمارسوا شعائره ؟ انما ينتظر هذا من الامم بعد أن يتحققوا ان نجاتهم متوقفة على الدين الاسلامى . وهذا التحقق لا يتأتى ما لم نترجم خلاصة اصول الدين وقواعده العامة الى اللغات المختلفة ثم ندعو الامم اليها بصورة تلفت النظر كما اشترط العلماء ذلك لتصح الدعوة ، ويبرأ الداعي من التبعة ، وتحق الكلمة على المدعو . على انه اذا لم يتيسر لنا الآن أو لم تمكنا حالتنا الاجتماعية من ان نؤلف الجمعيات لاجل الدعوة الى الدين الاسلامي وبث الرجال في الاقطار يحملون الى الشعوب المختلفة هدى القرآن ، وامدادهم بالمال والكتب وكل مايساعدهم على الوصول الى اغراضهم وقضاء لباناتهم ـ فاننا مضطرون قبل كل شيء الى وضع كتاب يتضمن أصول الدين الاسلامي الاساسية وقواعده العامة وتعاليمه الكبرى مستمدا كل ذلك من القرآن الكريم والسنة الصحيحة وعمل السلف ثم يترجم هذا الكتاب الى لغات الامم المختلفة بحيث يصح لنا ان نقول لتلك الامم خذوا الدين الاسلامي عن ذلك الكتاب . ثم يصبح هذا الكتاب أساسا للدعوة الى الدين فيما اذا تنفست الامة ونشطت للعمل ونشر تعاليم القرآن

لا يقتصر في هذا الكتاب على سرد النصوص وانما يعلق عليها من القول ما يبين المراد منها ويوضح وجه نفعها في انهاض الأمم ومبلغ تأثيرها في اسعاد

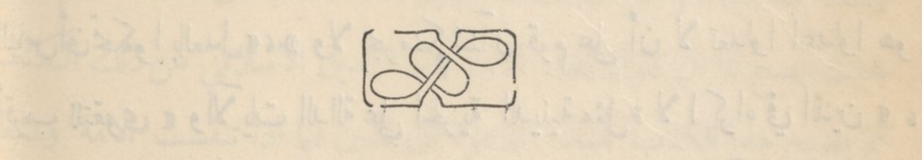
الشعوب . لا يقال ان القرآن والبخاري مثلا يكفيان في هذا الباب فيترجمان الى اللغات المختلفة ، وتُدعى الامم الى النظر فيهما ـ لان في القرآن والبخاري قصصاً مكررة وأحكاماً معادة قد لا يسهل على الاجنبي عن الدين أن يفهمها ويطمئن اليها وما هكذا تكون طريقة الدعوة الى الدين وانما طريقتها بعرض أصوله موجزة بحيث يسهل تناولها ، ويمكن تداولها . وانظر كيف كان الصحابة رضوان الله عليهم يدعون الى الدين في زمن الفتح : كانوا يذكرون للمخالفين الآيات السهلة المأخذ ثم يصفون لهم كيف أن تلك الآيات أثرت في حالهم فنقلتهم من طور الهمجية الى طور الرفعة والسعادة . وما كانوا يقولون لهم ها هو القرآن اقرأوه ، أو ها هي السنة خذوها مسرودة سرداً . فان الدعوة بهذه الصورة لا تلفت النظر ، ولا تغني غناء ولا تنجي من تبعة . قال بعضهم : قرأ ابن عباس سورة النور ثم جعل يفسرها تفسيراً لو سمعته الديلم لأسلمت

يؤخذ من القرآن نصفه أو أقل ، ومن كتب السنة الصحيحة كذلك . ثم تعلق عليهما شروح موجزة بليغة . ثم يترجم كل ذلك الى اللغات المختلفة . فتؤخذ مثلا الآيات الدالة على وجوب الشورى وانها أساس ارتقاء الأمم « وشاورهم في الأمر »، « وأمرهم شورى بينهم » والآيات الدالة على أن العدل حتى في الاعداء أساس العمران « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »، « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » والآيات الدالة علي الحرية الدينية مثل « لا اكراه في الدين » ، « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » والآيات الدالة على وجوب الاداء بالمصالح الى أهلها العالمين بها « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » . والآيات الدالة على الاحسان والبر للمخالفين في الدين اذا لم يضطهدونا « لا ينهاكم

الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم » . والآيات الدالة على وجوب الاستعداد والاخذ بالحزم « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » والآيات الدالة على وجوب الاتحاد والتضافر « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ، « واعتصموا بحبل الله جميعاً » . الى غير ذلك من الآيات وما ماثلها من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأعمال السلف مما هو كالاقطاب أو الأسس لقيام الدين وارتفاع بنائه

ان تأليف مثل هذا الكتاب لا يكلف المسلمين الا أن يريدوا فيؤلف . ويكون له من الاثر في الأمم ما يكون حجة عليهم وبراءة لنا ولديننا من مثل ما اتهمنا به اللورد كرومر !

اما وضع هذا الكتاب وشرحه فلا أراه يتيسر لغير أفراد من نابغي المسلمين وذوي العلم الصحيح فيهم . ولا ننتظر القيام به وجمع الايدي عليه الا من مثل المؤتمر الاسلامي ، فلعله يجعل هذا العمل باكورة الاعمال التي يفكر فيها ويسعى للوصول اليها



البارون والبارونة (١)

(وصف اضطراب العائلة الاوربية)

لكل اجتماع انساني مهما ارتقى عيب يلتصق به . ويحاول أربابه التملص من عاره : فاذا عد الغربيون من عيوبنا الاجتماعية انحطاط شأن العائلة بسبب حجاب المرأة ، والحيلولة بينها وبين التربية الصحيحة - أمكننا أن نعد لهم من عيوب اجتماعهم المرأة نفسها ، لا من جهة احتجابها ولكن بالعكس من جهة ابتذالها ورفع كل حاجز أمام أميال نفسها . وقد تتعرض في الاحايين الكثيرة للوقوع تحت تجارب هذا الابتذال ، لا سيما في مقتبل صباها وقبل أن تستحكم فيها ملكة التربية الفاضلة التي يبغيها لها ذووها ؛ فلا يعود ينفعها حليب ، ولا يقوّمها أدب ولا أديب

فكأننا في الهوى سوا كما يقولون . ولكن الخلاف في أيّ الأثرين أسوأ وأبشع : الاثر الذي ينشأ عن الحجاب ، أو ذاك الذي ينتج عن الابتذال ؟ وأية العائلتين أقلّ هناء ، وأكثر شقاء : العائلة المتحجبة ، أو تلك المتبذلة

وليس الحكم في مثل هذا على كل عائلة منا ومنهم . وانما هو على الأعم الاغلب ، مما كان طريقه الاحصاء وتتبع الحوادث وهو أمر ان عزَّ علينا الوصول اليه ، فلن يصعب علينا ايراد بعض الشواهد عليه

* * *

منذ مساء أمس والبارونة في أشدّ خصام مع زوجها . فكانت تختلي بنفسها وتفكّر في كيفية الوصول الى انفصالها عنه ولو بالطلاق . وقد صمّمت على ذلك أخيراً ، وعلى استرجاع لقب اسرتها . وانها سوف تستصنع بطاقة زيارة ذات

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ و١٩٠٩ م

دائر مذهب ، تكتب عليها هذا اللقب الجديد فتصبح وليّة أمرها ، وسيدة نفسها

وكل من وقف على حقيقة الواقع عذرها : فان البارون ما قضى شهر العسل مع البارونة حتى أتبعه بأشهر حنظل أهملها فيها ، ومال عنها كل الميل الى تلك الفتاة الهلوك ، التي لم ينج من فخاخها غنى ولا صعلوك

ولم تكن (روزا) هذه من اسرة شريفة . وانما كان أبوها يسعى الى رزقه من طريق العمل في بعض معامل السكر . وزد على ذلك أنها لم تكن من الجمال والظرف على ما يتوهمه فيها البارون ، فقد كانت سمراء الى درجة السواد ، عجفاء الى حد أنها تخيف من يراها . ولها أنف كأنه قطعة صفيح ، هكذا كانت تتخيّلها البارونة . ومن عرف أخلاق النساء ومبلغ غيرتهن عذرها في هذا التخيل والشعور

وكانت البارونة في بعض الاحيان تدع المقارنة بينها وبين (روزا) خيالا ، وتمارسها عملا : فتنهض عن كرسيّها الطويل الذي تكون مستلقية عليه ، وتذهب الى خزانة ثيابها ذات المرايا الثلاث ، وتأخذ في لبس هذا الثوب ونزع ذاك ، وتنظر نفسها في المرآة ، وتستجلي محاسنها من هذا الجانب ، ثم تدور فترى نفسها من الجانب الآخر

وهكذا كان شأنها في صباح هذا اليوم ، وقد كادت تُفتن بحسنها وجمالها

كانت تخطر في فسطان أزرق حريري من نسج الصين مزركش بصور خيالية تمثل الطيور تسبح في الفضاء ، والازهار ترفّ في الروضة الغناء

وقد أحسنت خادمتها عقص شعرها وتصفيف خصله : فما كنت ترى شعرة تحيد عن مساواة اختها

وكان شعرها الاشقر يحيط بوجهها ويضيء غرفتها كما تضيئها أشعة الشمس وقت الاصيل

رأت نفسها في المرآة على هذا الشكل البديع ، فبرقت شفتاها فرحا وسرورا وأخذت تجول هنا وهناك ، وتدور دورات تلذّ الناظر اليها

وكانت أحياناً تلهو بالنظر الى فرش الغرفة وما فيها من الأمتعة والزخارف وضروب الزينة : كراسي من قصب الهند مجدولة بأعواد الخيزور . ومقاعد مستديرة لا ظهر لها ، منجدة بالمخمل الازرق الفاخر . وألوف من الصور وأدوات الزينة مبثوثة على الجدران وعلى التربيزات والمناضد المستديرة

هذه هي هيئة غرفة البارونة . وكان وجودها فيها يزيدها رونقاً وبهاء ، وقد أعدت لنفسها في جهة من جهاتها طاولة للكتابة ، وضعت عليها اناء نفيساً من بلور بوهيميا ، ترف فيه زهرات من القرنفل الغض ، ووعاء آخر معدني ، أجاد الصانع صياغته ، وفيه قطع من السكر مختلفة الاشكال والالوان ، وبين الوعائين تمثال برونز يمثّل بعض مشاهير الرجال

الى هذا الحد بلغ اهتمام البارونة بتأثيث غرفتها ، وولوعها بتنسيق امتعتها ، ومع ذلك فقد كان الحقد الذي استولى على قلبها أشد من ذاك الاهتمام والولوع حتى زين لها مغادرة بيتها والرجوع الى دار أبيها ومن هناك تبحث عن محام بارع يجد لها مسوغا قانونيا لايقاع الطلاق بينها وبين زوجها

ولماذا ؟

لان البارون خلع العذار في ليلة أمس وقد رأت البارونة منه وهو يرقص مالا ينطبق على حشمة وأدب

لم يكتف حضرته بالرقص مع (روزا) مرة أو مرتين ، بل كان يدعوها وتدعوه دو اليك . وكانا أحيانا يرقصان رقصاً له معنى لايحسن السكوت عليه

خطر هذا الصنيع في بال البارونة في صبيحة يومها فثار ثائر الغيرة في نفسها . وقالت : من تكون هذه روزا ؟ أما كانت في الدير ؟ أما استعاضت عن الزواج

الشرعي بالحب الفاسد . وسلكت مسلك أولئك البنات الاميركيات اللواتى حسبن اصطياد الرجال ، من جملة الرزق الحلال ؟ أما كانت تفتخر (روزا) بفعلها هذا وتباهي أترابها بانها قادرة على اجتذاب قلب كل انسان تراه ؟

وارحمتاه لأولئك النساء المسكينات اللائى سلبتهن هذه الماكرة أزواجهن، ونغصت عليهن عيشهن . أما أنا فلا ! وألف مرة لا ! أنا أعرف كيف أنتقم لنفسى . قالت ذلك بحدة وغضب ، ورفعت ذراعها ، وجمعت قبضتها،ثم جعلت تحرك اصبعها ، وتطلق طلقات نارية من مسدسها الوهمي الذي تشد عليه بكل قوتها

كانت تقول بيدها هكذا واذا بها ترى البارون من فتحة الباب مقبلاعليها. وكان قد أبصرها عن بعد تبرق وترعد ، وترغي وتزبد . فوقف بين يديها وقال:

— وماذا تصنعين هنا أيتها البارونة المحبوبة ؟

— مَنْ أذِنَ لك بالدخول عليّ ياسيدي ؟ لعلك كسرت الابواب كسراً . والا فاني لم .أنم حتى أقفلتها كلها ؟

قالت هذا . ثم زوت وجهها عن البارون ، وعلامة الغضب بادية عليها

— نعم ولكنك أيتها البارونة نسيت اغلاق الباب الذى يؤدي الى الممشى الخارجي ، ومنه دخلت . واذ قد عرفت انك نهضت من نومك وثقت بأني أراك في غرفتك

— أجل ياسيدي . ولكني أرجوك أن تخرج حالا ، لان حضورك الى هنا يجرحنى

وقد لفظت الكلمة الاخيرة كما تلفظها (سارة برنار) على مرسح التمثيل أما زوجها فانه ابتسم ابتسامة الخبث ، ودنا منها وبسط ذراعيه اليها ، وقال :

— اذن لم ينته الامر بعد ؟ هذا لعمرى حقد شديد . ولا ينبغى أن تحقدى على زوجك الى هذا الحد، وأنت تعلمين مبلغ حبه لك ، وهيامه بك

— لا تضع يدك عليّ . والا ناديت الناس

ثم اشتد عامل الغيظ في نفسها ، وغلب عليها التأثر العصبي ، فارتمت على المقعد ، وجعلت تنتحب ، وأخذت فى النحيب

فغيّر البارون لهجته . وقال :

— انك أيتها البارونة مثّلت ليلة أمس – ونحن راجعون من المرقص – دوراً هزلياً : ففى العربة — حيث اعتدنا أن نجثم جثوم الطيرين الأليفين — ابتعدت عنى بجفاء ، ورشقتنى بقوارص الكلام ، من دون سابق ذنب جنيته . وقد حاولت أن أقنعك وأزيل سوء التفاهم من بينى وبينك فأبيت الا اللجاج . ثم دخلتِ بيتك وأوصدت أبوابه كأن اللصوص تطوف حواليه . كل هذا مستقبح منك ، وألومك عليه أشد اللوم

فلم ترد عليه البارونة بل استمرت في نحيبها وأخيراً قطعته وقالت :

— كلا ياسيدى ! أنت ماعدت تحبنى . هذه (روزا) التي تحبها ، أنت تركت نفسك تقع في اشراك تلك الملعونة

فقاطعها زوجها قائلا :

— اذن نرجع الى الحديث عن الاميرال ؟

لم يكد البارون يتلفظ باسم الاميرال حتى قطعت البارونة نحيبها ، ورفعت اليه عينين زرقاوين مترعتين بالدموع ، وجعلت تحدق في وجهه كمن يطلب تتميم الكلام . فقال :

— هل أقول انك أيتها البارونة تحبين الاميرال ، أو تخطر لي تهمتك في بال ؟

— أنا ! الاميرال ! من أين جئتني بهذا النبأ ؟

— جئتك به مما رأيته منك ومنه أمس . ولم يخفَ أمره على جميع من رآكما

وبعد ان كان موقف البارونة المسكينة موقف مهاجم أصبح موقف مدافع فتلجلج لسانها ، وتقلصت شفتاها ، ولم تعد تعرف كيف تدرأ عن نفسها تلك التهمة التي كانت غافلة القلب عنها ، وقد وجهت اليها على غير انتظار منها . ثم استجمعت قواها وقالت :

— ولكنني لم أرقص مع الاميرال أكثر من مرتين ، وما قضيت السهرة معه ، ولا كنت أترصد الخلوة به فأطارحه كلمات الشوق والغرام ، وما كان يضمني الى صدره فى أثناء الرقص

قالت ذلك تعريضا به وبما كان منه مع (روزا) فأجابها :

— لا ! فانك رقصت معه سبع مرات يابارونة وقد عددتها بغاية الضبط

-- نعم رقصتُ معه سبع مرات كما قلت . وماذا يكون بعد ؟ الاميرال صديقي وأنا أحبه ولا أخشى أحدا

فهزّ البارون رأسه متظاهرا بالكدر والاستياء ، لكنه في الواقع ونفس الامر نال ما يتمناه من شغل البارونة عنه . ولفتها عن معارضته ومقاومته : فقد كان وطد عزيمته على اتخاذ (روزا) بمثابة حظية له ، وان يلهو بها مكان البارونة التي لم يألفها ذوقه . ولا يمكن ان يطلق هذه البارونة أو يسرحها لبيت أبيها . وكان يشق عليه أن يسمع مناقرتها كلما دخل او خرج . حتى اتفق له أخيرا أن رآها ترقص مع أميرال شاب رقصا بسيطا لا يشوبه حب ولا هوى . وانما كان الباعث عليه عادات الفتيان والفتيات في المراقص والولائم والحفلات . فاتخذ البارون ذلك فرصة وعرف ان اتهام البارونة بذلك الاميرال يصرفها عنه وعن (روزا) . فانصرفت المسكينة ولكن الى ذلك الاميرال الشاب الذي كانت ذاهلة عنه حتى أغراها زوجها به . وهكذا انقسمت عائلة البارون على نفسها ، وسقطت في هوة تعسها

دار الآثار العربية

في مصر (١)

يتوقف التمكن من علم أوصناعة علي معرفة تاريخ ذلك العلم أوهذه الصناعة فان في هذه المعرفة ما يدعو المرء الى التوسع في علمه أو تحسين صناعته وزيادة البصيرة فيها

وكان التاريخ في القديم مسطوراً ومقروءاً . أما الآن فقد تنبه الافرنج الى نوع من التاريخ أقرب تناولا من الاول وأكثر فائدة منه . ويصلح أن نسميه التاريخ الماثل المنظور - ذلك التاريخ هو ما يعرض على طلبة هذا الفن في المعارض وفي دور الآثار القديمة : فمن اراد أن يدرس تاريخ صناعة القيشاني مثلا كان عليه أن لايقتصر على قراءة ذلك في السطور والاسفار ، بل يزور ما حفظ منها ونضد في دور الآثار : فهي تعرض عليه ما وجد من آثار تلك الصناعة من أول نشأتها وكيف تدرجت الى أن وصلت الى حالتها الحاضرة

وهذا النوع من التاريخ اتقنه الاوربيون وشادوا له المباني الفخمة ، والدور العظيمة . وقد تنبهنا نحن الى ذلك في الازمنة المتأخرة ، فكان في الاستانة وفي القاهرة بعض الشيء من ذلك

ومن الأسف أن دار الآثار العربية في القاهرة كأنما انشئت للاوربيين وللمشتغلين بالتاريخ والصناعة منهم : فهم الذين يزورونها ويتفقدون معروضاتها ويستفيدون منها ، وقلما ترى زائراً لها من أهل البلاد أو من أهل الحرف والصناعات فيها

واذا سألت حضرة وكيلها علي بك بهجت عن السبب في وضعه «فهرست»

(١) كتبت في سنة ١٣٢٥ ه و ١٩٠٧ م

لتلك الآثار باللغة الافرنجية دون العربية اعتذر اليك بما قلناه وبان الافرنج هم الذين يتداولون الفهرست ويحرصون على الاستفادة مما فيه . أما أبناء العرب فاذا وجد منهم بضعة آحاد يحذون حذو اولئك فهم في الغالب على معرفة من اللغة الاجنبية تمكنهم من الانتفاع بما سطر في الفهرست . ومعظم الآثار الموجودة في « دار الآثار العربية » يرجع عهده الى القرن السابع والثامن والتاسع من الهجرة : أي هي من مخلفات أمراء المماليك والجراكسة الذي عاشوا بين الدولتين الصلاحية والعثمانية

فمن نظر في آثار تلك القرون الثلاثة تبين له من حسنها ونفساتها واتقان العمل فيها ــ ما يحكم معه بأن عصر أولئك المماليك كان عصر عمران وترق في الصناعة والذوق والترف ، وانه امتاز عن العصور التي سبقته وخلفته في ذلك

ويمكن تقسيم الآثار الى خمسة مجاميع :

(١) مجموعة الحجر والرخام : ومعظمها يتألف من شواهد قبور وازيار ماء وبينها صفيحة حجر ضخمة عثروا عليها في الاسكندرية . ومكتوب عليها ما يفيد أن البناء الذي كانت فيه مما أمر بانشائه السلطان صلاح الدين . وشاهدة قبر محمد بك أبي الذهب مملوك محمد بك الالفي . وهي مذهبة ومكتوب عليها شعر يدل على اسمه ووفاته في سنة ١١٨٩

ومعظم الازيار من رخام ، ولها أحواض خاصة بها ترتكز عليها . ومما هو من الغرابة بمكان أن ترى حجراً ضخماً من الرخام نحت منه زير كبير مستطيل أو كريّ الشكل ، وقد جوف تجويفاً تاماً يحار العقل في الطريقة التي اتخذها صانعوه في تجويفه ثم نحت على ظاهره أشكال نافرة ورسوم متناسبة أو أضلاع مستوية كلها غاية في الحسن ودقة الصنعة . وأحد تلك الازيار النفيسة اصطنع برسم الخاتون « تاتار » ابنة السلطان قلاوون . وهناك صفائح من الرخام كبيرة حفر

على سطوحها نقوش متعرجة متناسبة . قال لي محمد افندي عبد العظيم أحد موظفي دار الآثار ان الصفيحة من تلك الصفائح تسمى « السلسبيل » والغاية منها أن يسيل الماء عليها من انبوبة فوقها وفي أثناء سيلانه يتكسر بسبب ما تحته من التعاريج ويكون ذلك وسيلة الى امتزاجه بالهواء ثم يصل الى حوض رخامي صغير في أسفل الصفيحة فيكون ماء صحياً صالحاً للشرب. وعندي أن السلسبيل وتحدر الماء عليه مما اتخذ لترويح النفس وامتاع النظر كما اتخذوا لذلك الفساقي ونوافرها . والسلسبيل في اللغة يوصف به الماء والشراب السائغ في الحلق

(٢) مجموعة الاخشاب: وهي تحتوى على محاريب ومنابر وأبواب وشبابيك ورواشن وكراسي للمصاحف وغيرها : منها ما هو جافٍ غليظ ، ومنها ما بلغ منتهى الدقة والحسن . وقد ترى أغلاق الأبواب والنوافذ مؤلفة من قطع صغيرة من الخشب ذي الالوان المختلفة بحيث يقوم اختلاف تلك الالوان مقام الدهن بالبوية والاصباغ وتلك القطع متناسقة ومرتبة على أشكال وأوضاع هندسية كصناعة الفسيفساء في الزجاج والرخام ، وهي متماسكة الاجزاء لا بالمسامير وانما بطريق الجمع والتحشية

فهل كانت المسامير أو مادة الحديد عزيزة وقليلة الوجود في تلك الاعصر الى هذا الحد ؟ أوأن الصناع يريدون أن يظهروا مهارة وبراعة في صناعتهم بحيث يستغنون عما لا غنية عنه في العادة ؟

(٣) مجموعة المعدن والبرونز : وهي تتضمن ادوات كثيرة واشياء مختلفة . من ذلك الثريات النحاسية التي قد تحمل الواحدة منها زهاء ٣٦٠ مصباحاً. ومنها كرسيان عاليان من نحاس شغل تفريغ مكتّبان بالذهب والفضة وهما مماصنعه الصناع برسم ابن قلاوون

ومن الآثار النفيسة في هذه المجموعة مقلمة الامام أبي حامد الغزالي وهي علبة مستطيلة من النحاس . كان الامام يضع فيها دواته وأقلامه . ومكتوب على ظاهرها : شيخ الاسلام محمد الغزالى الخ

وهناك قطعة من الحلي ضخمة محدبة الشكل على هيئة نصف كرة من فضة وذهب ومرصعة بالياقوت والماس . أهداها الى دار الآثار حضرة محمد مجدي بك مستشار الاستئناف بمصر . ويقال ان صاحبها في القديم كان يعيرها أو يؤجرها الى أهل العروس يزينون بها عروسهم ليلة اهدائها الى زوجها

(٤) مجموعة القيشاني والزجاج : ومعظم هذه المجموعة يتألف من مشكاوات (جمع مشكاة) وقطع آجر منقوشة ومكتّبة وملونة بالاصباغ المختلفة . وقد اختلفوا فى معنى المشكاة في القرآن اختلافا كثيرا ، وأشهر الاقوال فيها انها الكوة غير النافذة . أما المشكاة في دار الآثار فلا خلاف في أنها وعاء من زجاج ، منتفخ البطن ، مخصر العنق ، له عرى حول عنقه يشد منها بالسلاسل الى السقف ، ويوضع في جوفه الزجاجة التي يكون فيها المصباح . والمشكاوات في دار الآثار تبلغ المئة وانك ترى ظاهرها منقوشا ومصبغاً بالالوان . وبعضها مكتّب بالآيات مثل « الله نور السموات » الى قوله تعالى « المصباح فى زجاجة »

ومن نفائس هذه المجموعة قطعة من القيشاني نصف ذراع في مثله ، صورت عليها مكة وحرمها ومعاهدها وضواحيها فهى بمثابة خارطة جغرافية لتلك البقاع المباركة ، وقد نقشت بالاصباغ والالوان المختلفة ، وعليها كتابات تنبىء بأسماء المعاهد ، ومكتوب عليها اسم صانعها . كل ذلك بمادة المينا أو بالدهان الملون الذى يُشوى على سطح الخزف شيًّا

وفي هذه المجموعة زير من خزف ضخم كريُّ الشكل مدهون بدهان قاتم شديد اللمعان . وقد عثروا عليه وهم يحفرون في بعض جدران جامع الازهر . وهناك أواني لوضع الزهور (زهريات) وهى كالزير الصغير . ولها أعناق مستطيلة على شكل الزهريات التى تصنع في شرقي آسيا . وقد صنعت برسم السلطان حسن صاحب الجامع المشهور

ومما تتضمنه تلك المجموعة هنات مدورة من زجاج كانوا يستعملونها في الموازين مكان الصنوج المعدنية : لان هذه يركبها الصدأ أو يأكلها ، فتزيد أو تنقص ، واما تلك فلا تزيد ولا تنقص [١]

(٥) مجموعة النسيج :فيها قطعة من ثوب مكتوب عليه اسم قلاوون . وأنفس مافي هذه المجموعة بل أثمن تحفة تنافس بها دارُ الآثار العربية سائر الدور الاخرى ــ قطعة من حاشية نسيج كان حيك في مصر برسم الخليفة الامين العباسي ابن هرون الرشيد المتوفى في أخريات القرن الثانى من الهجرة ، وقد كتب على هذا النسيج بخيوط السدا واللحمة مانصه :

« بسم الله . بركة من الله . لعبد الله الامين محمد أمير المؤمنين . أطال الله بقاءه . ممـا أمر بصنعته ــ في طراز العامة بمصر ــ الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين »

والفضل هذا كان وزيراً للامين وقد أريد بطراز العامة « دار الطراز » التى كان يصنع بها . والطراز من شارات الخلفاء وشعائرهم . وهو ان ترسم أسماؤهم أو علامات يخصون بها أنفسهم فى حواشى أثوابهم التى يلبسونها بخيوط من ذهب أو حرير ملون . فيدل الطراز على لابسه كما تدل شرائط القصب والحرير الملون على مراتب ضباط الجند لهذا العهد . وكان لنسج الطراز محال خاصة به تسمى (دور الطراز) والقيم الذى يشرف عليها يسمى (صاحب الطراز) . ويؤخذ ممـا كتب على قطعه النسيج المذكورة ان دار طراز الخلفاء العباسـيين في زمن الامين ــ كانت فى مصر .

هذا مثال ممـا يمكن ان يقال عن دار الآثار العربية ومن حسن عناية ولاة الامور بتلك الدار ان اختاروا لها من ابناء البلاد ذوي الكفاية ممن يعرف كيف يرتب تلك الآثار ، ويقرأ الكتابات المختلفة التى عليها ويهتم بحل الرموز التى تتراءى فيها ، ثم يشرح كل ذلك للوافدين ، فيكثر ترددهم اليها ، وانتفاعهم بها .

---

(١) وذهب بعض الباحثين الى ان هذ الهنات نقود لاموازين

مسلم يغضب لقومه

أو

﴿ حقيقة ما تضمره انكلترا[1] ﴾

من أهم المسائل السياسية التي اختلفت فيها الآراء وتعارضت فيها شهادات التاريخ - البحث فيما اذا كانت انكلترا مخلصة في دعواها حب المسلمين وحماية مصالحهم والذود عن حقوقهم ، أو انها في كل ذلك انما تسعى لنفعها وجر النار الى قرصها : فهي توهم المسلمين وملوكهم انها سهم صائب فيقولون نعم ولكن في أفئدتنا - وانها تسعى كل السعي فيقولون نعم ولكن في فساد أمرنا وحل عرى جامعتنا

تمتنّ انكلترا على الدولة العثمانية بانها هي التي وقفت في وجه محمد علي باشا وحالت بينه وبين ما كان يرمي اليه من الاستيلاء والتغلب على الولايات العثمانية. ولكن العارفون يقولون ان انكلترا لم تفعل ذلك حباً في الخلافة الاسلامية وانما رأت انه لو انضمت تلك الولايات الى مصر أصبحت مملكة ضخمة ، لا يتسنى لها ابتلاعها كلقمة دسمة ، فهي قد حرصت على ان تبقيها ولاية ليتيسر لها الحصول على ما تريد منها في مستقبل الايام

وقفت انكلترا في وجه الروسية عند ما شددت هذه وطأتها على الدولة العلية في حربها الاخيرة معها وشطت في معاهدة « سان استيفانوس » - وهي من يومئذ تتبجح بأن ذلك منها كان حباً في المسلمين وخلافتهم الكبرى وصيانة لحقوقهم من عبث الروس بها . ولكن انكلترا انما كانت تخشى صولة الروسية

---

(١) كتبت في سنة ١٣٢٦ هـ و١٩٠٨م

وتبوأها ضفاف البوسفور فتختل الموازنة الاوربية وتفقد انكلترا ميزتها ومركزها . فهذا كل ما تبغيه من تأييد حقوق المسلمين ـ أن تبقى هي مؤيدة ، ومصالحها محترمة

استولت انكلترا على قبرص وعدن ومصر بداعي الذود عن المسلمين وخدمة مصالحهم وتأييد عروش ملوكهم . وهي دعوى لا شاهد لها من الواقع وانما الواقع يخالفها ويشهد ببطلانها . كان من نتائج وعود انكلترا واحتلالها قبرصا وعدناً ومصر ـ ان مكنت فرانسا من تونس أولا ثم مراكش ثانيا ، وبثت الدسائس فى بلاد اليمن وعبثت بحدودها وبشطوط الخليج الفارسي ، ولم تنجز وعودها بالجلاء عن القطر المصري بعد ان فثئت الثورة وتأيدت سلطة الخديوي ولكنها انجحرت فيه كما تنجحر الافعى ، ولفَّت السودان في منديل وضعته في جيبها

تساهلنا مع انكلترا وحسبنا السماح بقبرص وعدن وتسكين الثورة في مصر مما يساعد علي حفظ ممالكنا وصيانة حقوقنا ـ واذا به كان وبالا علينا ، وشرا علي استقلال ولاياتنا . وقد تبينا من خلال مساعي انكلترا أنها انما تحب المسلمين وتريد لهم الخير مادام لها في طيّ الحب مصلحة ، ومن وراء الخير منفعة ـ اما اذا لم تؤمل شيئاً من ذلك فان شأن المسلمين وملوكهم وجميع مصالحهم كشأن زنوج أفريقيا ومتوحشي أوستراليا

وعدت انكلترا ان تخرج من مصر بعدان تؤيد الاريكة الخديوية . فهي لم تف بوعدها فقط بل أصبحت الاريكة الخديوية بحال تحتاج معه الى من يصونها ويحفظ حقوقها من عدوان انكلترا نفسها . وبالامس صرح ناظر خارجيتها في البرلمان بانه ليس للجناب العالي الخديوي الحق فى ان يمنح بلاده دستورا أو مجلسا نيابيا دون انكلترا وان الخلاف الذي ينشأ بين النظار والمستشارين انما

المرجع فى حله الى انـكلترا بواسطة عميدها في مصر . حتى كأن الجناب الخديوي ايس له صفة رسمية تخول له هذا الحق ـ حق الاشراف على الخلاف الذي يثور غباره بين نظاره ومستشاري حكومته . فهل فوق هذا ختل وعدوان ؟

عاملت انـكلترا مسلمي الهند أسوأ المعاملة ـ واحتالت على افغانستان حتى أوقعتها في شرك حمايتهاـ وابتلعت بلوخستان ـ واتفقت في المدة الاخيرة مع روسيا على اقتسام ايران وتحديد مناطق نفوذهما فيها مما يؤدي الى سقوط تلك المملـكة الاسلامية وعرقلة مساعيها في أزمتها السياسية الحاضرة ـ وحامت بالشر والدسائس حوالي الخليج الفارسي ـ وأفسدت قلوب أمراء العرب المنبثين هناك ـ واحتلت عدن فأشرفت منها على اليمن وفعلت الافاعيل ـ وابتلعت السودان ـ وتحكمت في مصر ـ ومكنت فرانسا من تونس ـ ثم من مرا كش فى معاهدتها الاخيرة معها ـ والتهمت قبرص ـ وجضأت نيران الفتن في بلاد حوران وحمات الارمن على الهياج وشق عصا الطاعة وكانت العامل الاعظم في قلاقل كريد وولايات البلقان ـ وخطب غلادستون وزيرها خطبه المشهورة في لزوم اسعاف تلك الولايات بالاستقلال حتى كان من أمر البلغاريين وفتكهم بالمسلمين ما كان ـ ولم يكف انـكلترا ان استقلت تلك الولايات حتى قام وزير خارجيتها اليوم يقترح فصل ولايات مقدونيا عن الدولة العلية : بأن يكون لها حاكم مسيحي عام ينتخب بمعرفة الدول وان يتضاءل عدد الجنود العثمانية من حيث تزداد قوة الجندرمة الاوربية ـ كل هذا فعلته انـكلترا في الماضي وتفعله اليوم وهى تحسب ان المسلمين لم يزالوا مخدوعين في انها أقوى عضد لهم في فض مشاكلهم السياسية ، وصيانة مصالحهم الاجتماعية

لم تحارب أمة غربية الامم الاسلامية بمثل ما حاربتهم به الامة الانكليزية : استولت على بلادهم ، وأعانت عليهـم عدوهم ، ومهدت سبيل المشاغب في

ولاياتهم ، ثم بعد هذا كله تدعي الحب لهم والغيرة على مصالحهم

لم يقم رجال في الغرب يطعنون في الاسلام ويشوهون سمعة المسلمين ويغرون الامم بالفتك بهم والاجهاز على استقلالهم ـ بمثل ما سمعناه عن رجال انكلترا وكبار ساستها

لم يكد غلادستون يسكت من قولته المشهورة في القرآن ـ حتى قام اليوم اللورد كرومر يعلن على رءوس الاشهاد طعنه في الدين الاسلامي وان المسلمين يبقون منحطين ماداموا متمسكين بدينهم . لم يكد غلادستون يسكت من قولة « يحسن طرد الترك من أوروبا حتى لا يبقى لهم أثر فيها » حتى قام السر غراى اليوم يرفع عقيرته بوجوب استقلال مكدونيا استقلالا اداريا تنفصل به عن المملكة العثمانية

ان انفصال مقدونيا على هذه الصورة يجعل العاصمة في طرف المملكة ويقيمها على الحدود مع ان الحدود انما اتخذت لها من أجل صيانتها . وهل يصح للانسان أن يحمل قلبه على كفه ، بل كيف يقوى الطائر على الطيران وقد قطعت احدى جناحيه

ان التفريط في الولايات المقدونية على هذه الصورة يعرض المملكة لخطر يرجف منه قلب كل عثماني يغار على بلاده ووطنه

ان العثمانيين الذين قال قائلهم « فتحنا القسطنطينية بثلاثة آلاف رجل ولا نسلمها مالم يبق منا ثلاثة آلاف » لا يدعون عاصمتهم عرضة لطمع الطامعين . ومديد العابثين

ان الامة التى قال فيها التاريخ « من أراد مقابلة العثمانيين فليتخذ رجلين من رصاص ويدين من حديد » ـ هى الامة التى تعرف كيف تدافع عن حقوقها . وتحمي عاصمة بلادها . فليس من السهل ان تنفصل مقدونيا . بل ليس من متناولات الامكان ان يدع العثمانيون عاصمتهم وشرفهم التاريخي للبلغار واليونان

طرق التدريب

على النظافة والترتيب [١]

مهما قال بعضهم ان الاخلاق صفات نظرية أو وراثية لا تنال بالاكتساب ولا دخل للتربية والتدريب فيها فلا يمكنهم أن يقولوا مثل هذا القول بالنسبة الى ملكة النظافة والترتيب

اذا دخلتَ احدى مدارس البنات فرأيت القاعة التى أعدتها رئيسة المدرسة لاستقبال الزائرين نظيفة مرتبة وكل شيء فيهـا من أمتعة وأدوات على نظام وموضوع في محله باتقان واحكام — حكمت لاول وهلة بأن سيكون لهذه القاعة تأثير بين نفوس تلميـذات المدرسة فيعتدن الترتيب والنظافة . وينفرن من التشويش والقذارة لطول ما الفن الحالة الاولى وغابت عن أذهانهن الحالة الثانية

هذه الطريقة في تعويد الترتيب والنظافة من خير الطرق في الايصال الى المقصود لما أنها تعتمد على القدوة والعمل والمحاكاة فاذا انضم اليها الحث والارشاد بالقول بلغت التربية غايتها من الكمال والاحكام . وان نظار المدارس اذا كانوا متقنين لاحظوا تلاميذهم وتفطنوا لملابسهم وأجسادهم ودروجهم وسائر أدواتهم الدراسية فاذا رأى الاستاذ أن أظافر تلميذه (رفقى) قد طالت وترا كم تحتها درن اسود من فضول الطعام والدسم والتراب لا ينبغي أن يترك نصيحته وارشاده ثم اذا أراد أن يصل الى المقصود من طريق قريب لا يكتفي أن يقول له بغلظة وعنف : قص أظافرك واغسل يديك دائماً ، بل يبتسم في وجهه ابتساماً لطيفاً ويأخذ بيده ويعرضه على منضدة أمام تلاميذ المدرسة ثم يمسك بيديه ويرفعهما ويري رفاقه أظافره واتساخها ويقول لهم : ان الهرة خير من (رفقي) لانها لا

(١) كتبت سنة ١٣٢٨ ﻫ و١٩١٠ م

تفتأ تنظف نفسها وتزيل الادران عن جسمها : ثم يذكر لهم أن هذه الاوساخ التى تكون فى اليد والاظافر تعلق بالطعام أثناء الاكل فينزل الى المعدة ويكون له تأثير ضار فى الصحة والهضم . وان القوم الذين يعاشرهم (رفقى) يكونون معذورين اذا أنفوا من مجالسته أو تقززوا من تناول لقمة فطير من يده .

فيأخذ التلاميذ اذ ذاك فى التبسم والمصادقة على قول الاستاذ ما عدا التلميذ (جودت) فانه يخجل ويطرق برأسه الى الارض ويدس يديه فى جيبه . فيفطن له التلميذ (لطفي) ويهتف بالاستاذ قائلا : ان أظافر جودت وسخة مثل أظافر (رفقي) ، فيعلوا ضحك التلامذة وتشتد جلبتهم ، فيسكتهم الاستاذ . ثم يأخذ مقصاً صغيراً ويقول لرفقي : أما فى بيتكم مثل هذا المقص فتقص أظافرك ؟ ثم يتناول أنامله واحدة واحدة ويقص ما طال منها على مرأى من التلاميذ ويعلمهم كيف يصنعون اذا أرادوا فعل ذلك . ثم يغسل يديه ويدى رفقى والمقص أيضاً وينشفه بمنديل نظيف . وينبه التلامذة الى أن كل ذلك ضروري ليس لاجل النظافة الظاهرية فقط بل لاجل الصحة الباطنية أيضا

وبديهى أن هذا الدرس في النظافة يؤثر فى نفوس الاطفال أبلغ تأثير وربما اتصل أثره بنفوس أهليهم فتنبهوا الى نظافة أنفسهم . ومثل هذا الناظر الحكيم ناظرة مدرسة أخرى رأت التلميذة (لواحظ) ثائرة الشعر ممزقة الثياب . وعلى وجنتيها هنة من الدرن وصلت اليها من أنفها . فجذبتها الناظرة الى أمام المرآة ونادت صويحباتها وألقت عليهن درساً فى النظافة والترتيب مثل الدرس الذى ألقاه الاستاذ على (رفقي) ورفاقه

وهكذا يحسن بأولياء التلاميذ ومعلميهم أن يلاحظوا أجسادهم وثيابهم ويتعهدوا أمتعتهم وصناديق كتبهم وغرف مبيتهم فينبهوهم الى كل ما لم يكن موافقاً للترتيب والذوق والنظافة ويأمروهم أن يستبدلوا به أحسن منه . حتى اذا اعتادوا

ذلك في صغرهم جروا عليه بعد الكبر فى بيوتهم ومخازنهم ومواضع أشغالهم ويربون أولادهم عليه

وقد حدثوا أن غليوم ملك ألمانيا الاخير كان فى صغره يكره الاستحمام وممارسة النظافة فهرب مرة من خدمة القصر ومر على أحد الحرس . فلم يأخذ الحرسى سلامه عملا بأشارة أبيه فاغتاظ الولد وأسرع الى أبيه باكياً وللجندي شاكياً فقلب أبوه طرف أذنه وقال باشمئزاز : ان جنديا باسلا مثله لا ينبغي له أن يقدم الاحترام لوسخ قذر مثلك . فأطرق الملك الصغير خجلا ، وانسل من بين يدي أبيه عجلا .

ومن مواضع الاسف ان كانت حالتنا نحن معشر المسلمين أسوأ من حالة غيرنا من الطوائف من حيث الترتيب والنظافة والمحافظة على أصول الصحة وقواعد الاقتصادحتى كأن روح النظام لا يمكن أن تحل جسم مجتمعنا

نعم قد يمارسها أحياناً أفراد منا اهتدوا اليها بنابل من فطرتهم أو اقتبسوها من أبناء الطوائف الاخرى اذ كان لهم منهم أصدقاء أو (سفرجية) وخدم في بيوتهم

ولكن ليست العبرة في مثل هذا بأفراد من الامة وإنما العبرة بالسواد الاعظم والاعم الاغلب فهو موضع الحكم وبحسبه تتم المفاضلة بين الطوائف

قارن بين فندق وطني ونزل افرنجي ، وبقّال وطنى وبقال رومي ، وقهوة وطنية ومثلها طليانية ، ومطعم وطني ومطعم أجنبى ، تر العجبَ العجاب ، وتحرْ في تعيين البواعث والاسباب

هات يدك أيها القاريء ولنزر منزل الرجل الذي اعتاد النظافة وألف الترتيب والنظام :

لم يكن المنزل كبيرا ولا أنيق البنيان ولا ثمين الامتعة والمفروشات ، وانما لكل متاع من أمتعته محل ، وكل متاع موضوع في محله ،ولا تقع عينك على شىء

شيء في المنزل من دون أن يكون له وبيص ولمعان من شدة النظافة . وسرير النوم والمنضدة والكراسي كلها عتيقة لكنها نظيفة جداً بحيث تحسبها قد خرجت من المعمل الآن . والاشياء التي تخبأ عادة تراها قد نظفت ولفت بأوراق أوقطع النسيج وأودعت محالّها : الثياب معلقة في الخزائن ، والكتب منضدة في الكتبيات ، والادوات المعدنية والزجاجية مصففة في الدواليب . واذا أشرقت الشمس صباحاً نفذت أشعتها من بلور النوافذ النقي وانتشرت تلعب هنا وهناك على أرض الغرفة اللامعة من شدة التنظيف

ما أحلى هذا المنزل ؟ وما أسعد الرجل محب الترتيب في منزله !

ويوجد وراء المنزل حديقة صغيرة . دخلناها فرأينا أحرار البقول تنبت بجانب الازهار ، ولمحنا ثغور القرنفل تلثم أوراق الخس الغض

ما أجمل هذه الحديقة ، وما أكثر ما يخفق المحراث في ترابها حتى عاد كالحناء لا تتخلله حصاة ولا يعلق فيه عشب غريب

وقد تحسب أن صاحب المنزل والبستان اهتم بأمر الترتيب واحكام النظام فيهما اهتماماً أدّى الى اهمال الترتيب والنظام في أشغال مكتبه وعمله الخاص !

لا نستشهد على خطأ ظنك بأكثر من بضع ريالات تراها منعزلة في جانب من الخزانة . وقد اقتصدها الرجل من نفقاته اليومية قرشاً قرشا . ثم في آخر الشهر يحملها الى بنك التوفير والاقتصاد . هذا نهاره أما ليله ففى مذاكرة وتحصيل فى (مدارس الشعب) الليلية

وانهض بنا الآن الى زيارة منزل جاره عدوّ الترتيب والنظام

قبل أن تصل الى البيت تعرفه من بين سائر المنازل . تسمع صراخ الأولاد يتشاءون ويتلاكمون في غيبة أمهم وأبيهم . الرجل قلما كان يأوي الى البيت فحذت أمرأته حذوه . دخلنا المنزل : كل الأثاثات ملونة بالاقذار ، وقد علتها

طبقة كثيفة من الغبار . أدوات المنزل وماعونه مبددة هنا وهناك . الذباب يحوم حول بقايا الطعام المنتشرة على المائدة وله طنين يقلق الآذان . والعناكب نصبت أنوالها ومدت نسيجها في كل زواية من زوايا المكان . والروائح الكريهة تفوح كلما تحرك الهواء خلال الجدران

لاشيء يضر الصحة ويعد الاجسام للامراض مثل القذارة والغازات الفاسدة انظر الى وجنات الاولاد تراها صفراء . واعضاءهم من تحت ثيابهم الممزقة الوسخة تراها نحيفة عجفاء . ارجع البصر فى جوانب المنزل تنظر أوراقا سميكة وسخة مكتوبا عليها بخط قبيح وأحرف ملتوية وملصقة على الجدران بواسطة قطع كبيرة من العجين

أما ماتتضمنه هذه الاوراق من الحكم والنصائح فهو « النظافة من الايمان » « ان الله جميل يحب الجمال » ، « ان الله يحب العبد اذا عمل عملا أتقنه »

لنسرع الى الخروج من هذا المنزل فقد كدنا نختنق ولنتنزه قليلا في الحديقة

ولكن ليست الحديقة أحسن حالا من المنزل ولا أقل ترتيبا منه : المماشى ملآنة بالاحجار والقشور والاضغاث واحواض الزهر استحالت الى ادغال وغابات صغيرة نمت فيها الاشواك والنباتات الغريبة . وقد اختنقت شجيرات الورد النحيفة

اخرج بنا

هو ذا صاحب المنزل قد أقبل محمر العينين يترنح في مشيته ويعربد في كلامه

هو ولا ريب نشوان وقد خرج من محل شغله الى الحانة فانفق نصف أجرته اليومية

أنت أيها التعس الذي لم تهتد الى الاقتصاد ولا الترتيب ولا النظام في أشغالك ولا في بيتك ولا فى عائلتك ، تعال معي وانظر دار جارك

أليس كل منكما يكتسب كفايته من المال ؟

ألم تتيسر لكل منكما وسائل السعادة والعيش الهنىء ؟

يكفيك لاجل تحصيل السعادة لك ولا هل بيتك قليل من الارداة

يكفيك أن تكلف نفسك حسن السلوك وتعودها النظافة والنظام والترتيب

اصلح نفسك واغنم الوقت فان الاهتمام وقوة العزيمة يولدان الهناء والسعادة كما ان الاهما ل وضعف الارادة ينتجان التعس والتعس لا يقع على رأسك وحدك وانما يقع أيضا على رأس عائلتك المسكينة .



الحرّية العلمية

في الاسلام

قرّر الدين الاسلامي - في جملة ماقرّر من أصول الاجتماع وقواعد العمران - أصلا عاماً اليه ترجع الأصول كلها ، وعليه تُبنى الأحكام دقّها وجلّها ، وذلك الاصل هو الجهر بالحق متى تبين للمرء أنه الحق . قال تعالى « ويريد الله أن يُحِقّ الحق » ، « ولا تلبسوا الحقّ بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » ، «وقل الحق من ربكم »

ولم يكتف الاسلام بهذا بل حضّ المسلمين على التعاون في نصرة الحق ، وأن يصبروا على الأذى في سبيله فقال « وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » وقد أوجب هذا عليهم الى حدّ أن الدليل اذا قام على أمر حق تخالفه نصوصُ الشريعة بظاهرها وجب تأويل النصوص والرجوع بها الى ما قام عليه الدليل العقلي . ونظنّ أنه لم يقم في العالم دينٌ رفع من شأن الحق واستخدم له العقل بأ كثر مما فعل الدين الاسلامى المبين، ولذلك كان الاسلام بطبيعته أُسّاً للمدنية ومشرقا للحقائق العلمية

لا جرم ان التمدن مجموعة تجارب ومعلومات صحيحة ولو لم يُعط المرء حق الجهر بالحق لما أمكن الوصول الى معرفة هذه التجارب والمعلومات . فنهوض الامم وارتقاؤها في سُلم المدنية متوقفٌ إذن على جهر أبناء كل امة بما يعتقدون أنه الحق في مسائل العلم . وهذا ما يسميه علماء الاجتماع اليوم (الحرية العلمية). ويشهد التاريخ بأن هذه الحرية هي التي أنقذت أوربا من الجهالة ، وهدتها الى هذا العمران العجيب . وكان رؤساء الدين في القرون الوسطى قد احتكروا العلم وأقاموا أنفسهم مقام السدنة على حقائقه ، الحفظة لكنوزه وأسراره فكانوا لا يُجيزون لأحد

أن يصرح بشيء مما يعلم ولا أن يجهر بحقيقة اقتنع بها. فكانت الحقائق العلمية والاسرار الكونية تموت بموت هؤلاء النوابغ. وكان الملوك يعضدون الرؤساء وينفذون ما يرسمونه لهم، ويشيرون به عليهم، كما فعلوا مع (غليلو) الذي صرح بما يعلم عن حركة الارض. ولما قام (لوثير) وجهر برأيه قاسى من المتاعب والشدائد ضروباً وأهوالا، وكاد يفشل في عمله لو لم يقم فريدريك (أمير سكسونيا) لحمايته والدفاع عنه. وبذلك تم له النجاح، ووضع في أساس مدنية اوربا الحاضرة أول حجر أعنى به الحرية الفكرية والعلمية. وقد قال لى السيد جمال الدين الافغاني: ان تقدم اوربا وارتقاءها نتيجة من نتائج الحرية الفكرية التي جاهد (لوثير) في سبيلها

العمران أثر من آثار سعي البشر وسعي البشر أثر من آثار علمهم واعتقادهم، فما لم يكن للبشر حرية في أن يجهروا بكل ما يعلمون أنه حق و نافع لايتيسر أصلا ظهور آثار العلم، ومن ثم لايكون سعي منهم، ولا عمران لديهم. والله تعالى يقول: «وأن ليس للانسان الا ما سعى»

والنبوغ العلمي موهبة أنعم الله بها على بعض أفراد الانسان من أية طبقة أو صنف كانوا. فاذا لم يكن للامة حق بالحرية العلمية. وخصصنا هذا الحق ببعض طبقاتها أو بعض أفرادها حرمت الامة ثمار عقول كثيرين من أبنائها الاذكياء الذين يكونون قد صودروا في حريتهم، ومنعوا من استعمال مداركهم. حتى اذا دفنوا دفنت معهم هذه المدارك والمواهب السماوية. وبذلك تكون أمتهم فقدت قوة من أكبر قوى تقدمها، وعاملا من أعظم عوامل ارتقائها

ونحن اليوم معشر الامة الاسلامية في حاجة كبرى الى استعمال هذه القوة والانتفاع بثمراتها عملا بتعاليم ديننا الاسلامي ما دام أن تلك القوة أعني (الجهر

بالحق) هي أصل من أصوله المباركة كما قدمنا

ولعل قوماً يجادلون في أن الدين الاسلامي منح هذا الحق لأتباعه. ولكنه هو الحق مهما كابر فيه المكابرون وجادل المجادلون

وما ورد في السنة والقرآن من النصوص التي تحض الامة على قول الحق وبث العلم ــ لايمكن إحصاؤها وقد مرت الاشارة الى بعض ماورد من ذلك في القرآن الكريم أما ماورد في السنة الشريفة فيكفي أنه صلى الله عليه وسلم أباح لصحابته الذين هم تلامذته أن يراجعوه (وهو المعصوم) فيما يكون عندهم منه علم وبالطبع لا يكون هذا العلم الا في الامور الدنيوية . فمن مراجعتهم له صلى الله عليه وسلم ما روي أن الحباب بن المنذر قال له يوم بدر ــ وقد نزل منزلا ليس من المستحسن النزول فيه ــ أهذا منزل أنزلكه الله تعالى لاتتقدمه ولا تتأخر عنه ؟ أم هو الحرب والرأي والمكيدة (الى آخر الحديث) وفي آخر الامر عمل صلى الله عليه وسلم بقول الحباب ونزل على ماء بدر حيث أشار .

ورأى صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة يمارسون عملاً زراعياً ظنه غير لازم وأمرهم أن يجروا على غيره. ثم تبين أن عملهم هو الصواب فأقرّهم عليه وقال : « أنتم أعلم بامور دنياكم » . وكان اذا استوصفه أحدهم علاجا لمرضه أشار عليه أن يذهب الى « الحرث بن كلدة » طبيب العرب وكان نصرانياً . وبديهيّ أن الحرث لو جهر برأى يتعلق بفنّ الطب الذى هو فنّه لقبله منه سيدنا الرسول ولما أنكره عليه عملا بالحرية العلمية . وقد جرى الصحابةُ على هذه القاعدة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ولا نمثّل لذلك بما قاله أحد الاعراب لسيدنا عمر وهو على المنبر « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا » لانّ هذا القول من قبيل (الحرية السياسية) ونحن الآن في صدد تقرير (الحرية العلمية) ولكنّا نمثل بتلك الصحابية الجليلة التي سمعت ــ وهي في المسجد تصلى الجمعة مع جماعة المسلمين ــ

عمر يتكلم بشأن مهور النساء ويرى رأياً لا ينطبق على الحقّ في اعتقادها . فراجعته وردّتْ عليه . فأصغى اليها ورجع الى قولها . وقال : « أخطأ عمر وأصابت امرأة » أى أن الصواب لايكون دائماً مع أمثال عمر بل يكون أحيانا مع غيره ممن يظنّ أنه لا حظّ له كبير من العلم

يُبيح الاسلام لأيّ كان أن يقولَ الحقيقة التي يعتقدها ويصرح بالعلم الذى يعلمه بشرط الوثوق منه : « ولا تَقْفُ ماليس لك به علم » وبشرط الاخلاص فيه : « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » أما فيما عدا ذلك فمَنْهيٌّ عنه أشدّ النهي ، لأنه مجازفة في العلم ، وفوضى تضرّ ولا تنفع

بلغتْ الحرّية الفكرية في الامة الاسلامية في صدرها الأول حداً لم تبلغه في أمة من الامم. وقد كان العلماء من رجال النحل والمذاهب المختلفة يقعد كل واحد منهم فى جانبٍ من جوانب مسجد البصرة أو الكوفة ويجلس اليه من يريد الاستفادة منه ، والتلقي عنه . فيجهر العالم برأيه وتأييد نحلته ، والدفاع عن مذهبه من دون ما وَجَل أو خشية .

ظهور (الحرية العلمية) في هذا المظهر وبلوغها هذا الطور في صدر الاسلام هو الذي أظهر في المسلمين الأئمة والنوابغ في كل علم وفن

لما كان المسلمون يراعون فى امورهم أصول دينهم كانوا يُعطون لعلمائهم الحرية أن يكتبوا في تآليفهم ما يشاؤون . ويصرّحوا من الحق بما يعتقدون ، لاتأخذهم فيه لومة لائم . وبعد ان كرّ الجديدان عليهم ، وتركوا العمل بأصول قرآنهم ، وتمسّكوا باذيال التقليد ، وضربوا (الحرّية العلمية) بيدمن حديد — تأخّرت الامة في العلم . وتأخر العلمُ فيها . وتُنوسِيَتْ حقائقه رُوَيْداً رويداً . ولم يبقَ من مسائله أو مسائل الدين الاّ التى تروج في عقول عامة الناس ، وترتاح اليها نفوسهم . وقد يكون هناك قول آخر ربما كان أوضح دليلا ، وأقوم قيلا ،

وأشد التحاماً بأصول الدين . لكنهم لايأبهون له ، ولا يعوّلون عليه . يذهب بعض العلماء في معنى (القلم) الذي تكتب به الملائكة أعمال الانسان الى أنه قلمٌ ماديٌّ ، وهذا هو المشهور . وصرّح بعضهم بأن ذلك القلم ليس هو سوى العقل ، لأنه كما رُوي « ان أول ماخلق الله القلم » روي أيضا « أن أول ماخلق الله العقل » قال الامام الرازي : فهذه الاخبار تدلّ على ان الاثنين (أي العقل والقلم) شيء واحد ، والا حصل التناقض . فانت ترى أن الرازي لم يبال أن يجهر بما يراه الحق في هذه المسألة وإن كان غيره في غير زمنه لا يجرؤ على الجهر بمثل قوله . ومثلُ ذلك (الصحيفة) التي يكتب عليها (القلم) الاعمال : فقد يرى بعض العلماء أنها صحيفة مادّية . وقد ذكر المفسر البيضاوي هذا القول وذكر عقبه قولا في تفسير قوله تعالى « ونُخرجُ له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » الآية . فقال ماحصّله :

ان الكتاب المنشور كناية عن صحيفة نفس الانسان التي ارتسمت فيها ذكرى أعماله . حتى اذا تجلت له الحقائق يوم القيامة تذكر تلك الاعمال فعرف خطأه ، وندم على ما كسبت يداه . فهذا هو المراد من اخراج الكتاب المنشور . وفي قوله تعالى في آخر تلك الآية « كفَى بنفسك اليومَ عليك حسيبا » مايؤيد ذلك القول ويدل على أنه تمثيل . ولا يدرك هذا الاّ من تذوّق من بلاغة العرب ، وتمسّك من معرفة أساليبهم بأقوى سبب . وليس القصد هنا بيان ما إذا كان هذا القول أرجح أو ذلك المذهب اقوى ، فان ذلك ليس من حقنا . وانما القصد بيان أن علماءنا رضى الله عنهم كانوا في مصنّفاتهم لايبالون أن يذكروا أحيانا ما يرونه الحق ، ولو أدّى ذلك الى مخالفة ما عليه طائفة من العلماء عملا بمبدأ (الحرية العلمية) التي شرعها الاسلام . وانا لنرجو ان نوفق نحن المسلمين للعمل بها في مستقبل الايام . فيحيي العلم وتموت الاوهام .

عقبة في التعليم الابتدائي [1]

يجب أن تذلل

الأمّيّة مقياس التدلي في الامم ، كما أن القراء مقياس الرقيّ فيها . فاذا أردت أن تقارن بين امة وأخرى وازن بين عدد القارئين في هذه والقارئين في تلك فأية الامتين كان القارئون فيها أكثر عدداً كانت أرقى اجتماعاً . وفي المدنية أطول باعاً

عرف هذا دهاقنة السياسة في أوربا فاكثروا من فتح المدارس وبث التعليم بين شعوبهم . وناهيك ما كان من بسمارك حتى قالوا انما غلبت المانيا فرنسا بمعلمي مدارسها لا بقواد جيوشها

فمن أراد اصلاح مملكة من الممالك كان عليه قبل كل شيء أن يوفر ميزانية معارفها ثم يعمل على افتتاح المدارس حتى في آخر مزرعة من مزارعها على آخر حدّ من حدودها

وان العقبات التي تتعرض سيرنا في الوصول الى تعميم القراءة بيننا كثيرة ومن أكبرها صعوبة اقناع السواد الاعظم من قومنا بأن الاقتصار في تعليم القراءة على القرآن الكريم على طريقة عقيمة لا توصل الى الغرض المطلوب

اذا قلنا لهم ذلك عارضونا ، بل ربما أساءوا الظن في عقائدنا . لانهم تلقوا هذه الطريقة عمن تقدمهم في جملة ما تلقوه من العادات . ولما كان أساسها القرآن أخذت شكلا دينيا وصار الباحث فيها ، والمقبح لها كانه طاعن على الدين ، ومتبع غير سبيل المؤمنين .

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ ﻫ و ١٩٠٩ م

تعرف أيها القاريء الكريم مقدار الصعوبة في اصلاح حالتنا الاجتماعية ـ من نظرك في هذه المسئلة البسيطة التي هي تعليم صغارنا القراءة . فاننا الى اليوم لم نبت الرأي فيها ، ونشك في جواز الطريقة الجديدة ، وانها مما يلائم عمل السلف. على ان الامر بالعكس فان المسلمين في قرونهم الاولى كانوا يعلمون الصغير الهجاء وبعد ذلك يمرّنونه على القراءة في المصحف وشعر العرب وصحائف من فنون الادب ثم ترك المسلمون هذه الطريقة في القرون الوسطى والاخيرة معما تركوا من الطرائق الاخرى التي يتوقف عليها رسوخ الحضارة والعمران

وليس في مقدور حكوماتنا ولافي مقدور الاهالي أن ينشئوا في كل بلدة حاجتها من المدارس العصرية . فاذا فرضنا الاهالي في بلدة ثلاثين الفاً كانت كتاتيبهم اربعين كتاباً وفي كل كتاب خمسون تلميذاً . ومجموع التلاميذ الفان على وجه التقريب. فالحكومة تتعهد بتعليم مائتين وجمعية من أرباب الغيرة تفتح مدرسة لمائة تلميذ والباقي وهم الف وسبعمائة كيف نعلمهم ؟ هل نقدر أن نقنع شيوخهم بان يحولوا طرائقهم في التعليم الى الطريقة الجديدة ؟ اظنهم لايقتنعون . واذا اقتنعوا باطناً كابروا في الظاهر . لأنهم يجهلون العمل بها . ولم يسبق لهم تمرن على أسلوبها فهم من أجل ذلك يفضلون أن يبقى القديم على قدمه ، مهما كان من أمر قبحه وعقمه

والبلدة المذكورة التي قلنا ان تلامذة كتاتيبها الفان كان المنتظر ان يكون القارئون منهم كثيرين : خمسين في المائة على الاقل ، لكنك لاتجد في المائة سوى العشر أو أقل يعرفون القراءة

سائل النجار والاسكاف والحداد والجزار وأمثالهم : هل تعرف أن تقرأ ؟ فيقول لك لا أعرف . فتسأله : ألم يعلمك أبوك ؟فيقول بل وضعني في الكتاب

فتعلمت القراءة ، ثم لم أوفق الى التعلم في المدارس الاخرى ، ومع تمادي الايام نسيت ما كنت تعلمته . فهو يقول لك انه تعلّم القراءة . والحق أنه لم يتعلمها . ولو تعلّمها لما نسيها . وكل ما تعلمه في الكتاب تلاوة الفاظ خاصة هي كلمات القرآن

وقد يعتاد أحيانا قراءتها في مصحف واحد فلا يعود يعرف قراءتها اذا عرضت عليه في مصحفٍ آخر ويكون أبوه انفق عليه مالاً ليس بالقليل ،وأضاع من عمره بضع سنوات ثم تكون النتيجة على ما وصفنا

وهو وأبوه وشيخه ينسبون ذلك الى التقادير وعدم التوفيق ،والاصح في ذلك أن ينسب الى طريقة التعليم وأسلوبها العقيم وضلالها القديم

اذا خرج من الكتاتيب كل سنة مائة تلميذ بعد أن يكونوا قرأوا القرآن انحاز اثنان منهم الى طلاب العلوم الدينية . واثنان الى المحلات التجارية . واثنان الى المدرسة الاميرية . واثنان أولعوا بقراءة الكتب الخرافية . واثنان أوتوا ذكاء فطريا فتمكنوا به من تعلم القراءة الحقيقية

هؤلاء العشرة يعدون من القارئين الذين اذا اعطوا كتاباً أو مقالا قرأوه وفهموه على تفاوت بينهم ، اما اخوانهم التسعون الذين لم يشتغلوا اشتغالهم ولم يتيسر لهم من وسائل حذق القراءة ما تيسر لهم فانهم يتفرقون تحت كل كوكب في مهنهم وصناعاتهم وتحصيل معايشهم ، ثم لا يلبثون أن ينسوا التلاوة القرآنية التى كانوا تعلموها ، وتأخذ صور الحروف ونقوش كلمات القرآن تزول من أذهانهم رويداً رويدا . وهم لو تعلموا على الطريقة الحديثة فتمرنوا على القراءة والكتابة معاً كان لنا من المائة تسعون أو أكثر يحسنون القراءة ويستفيدون من المطالعة في الكتب والمجلات والجرائد علماً وأدباً وتدربا على الكسب والاقتصاد وتدبير المعيشة وتربية الاولاد وحسن معاشرة الزوجة والاصدقاء وغير ذلك مما يجعل

العيش هنيئاً والحياة طيبة ، بل لا نبالغ اذا قلنا ان ما ذكرنا هو الحياة نفسها

العامىّ الاميّ المسلم يقطع الوقت في البطالة واللهو وفحش القول . أولاً ولا فالنوم والتثاؤب . أما جاره الذي يقرأ — ويكون من طائفة أخرى — فانه مكبّ وقت الفراغ على قراءة الجرائد والمجلات . والتواريخ والروايات . فكم مقدار الفرق بين الحياتين : حياة هذا وحياة ذاك ؟

العاميّ الاميّ مهما افهمته معنى الدستور والحرية ، والحقوق والواجبات الوطنية وكل ماله علاقة بالامور العامة ، هزأ بقولك ولم يفهم له معنى سوى كلمات يسايرك بها مسايرة ، تزلّفا أو حذار مسبّة . أما جاره الذي يقرأ فانه من كثرة ما طالع وتأمل أصبح ذا رأى وفكر فهو يحكم ويستنتج . ويعد نفسه عضواً عاملاً في قومه . وقوة مؤثرة في تقدم وطنه

العامىّ القارىء يصح أن يسمى وطنياً لانه يشعر في نفسه بالاستقلال . كما يشعر أنه انسان له حقوق وعليه واجبات . أما ذاك الاميّ فلا يصحّ أن يُعتبر كذلك لانه فاقد الاستقلال الذاتى ، مجرد عن ذيّاك الشعور الوطني

وزد على ذلك أن آداب الدين وفضائله لا ترسخ في نفس العامي مالم يتناولها بنفسه من مطاوي الكتب . وكلام أهل التقوى والصلاح . فاذا كان أميا فاته الخير الكثير . وأصابه البلاء المستطير

وانا لنرجو أن يمهد العقلاء العاملون من قومنا هذه العقبة ويذللوا هذه الصعوبة فيقنعوا المتمنّتين الجامدين بان كلام ربنا انما انزل ليكون هداية لنا ، لا لاجل أن نتخذه (مدارج قراءة) فنمتهنه بأيدي أطفالنا . لا سيما ماظهر بالتجربة من أن الاقتصار في التعليم الابتدائي على القرآن يؤدّي الى عكس المطلوب ويبقى الدهماء في الامية العمياء

نهجر هذه الطريقة ونعتمد الطريقة الجديدة بل القديمة التي كان عليها العمل في الاندلس وغيرها من بلاد الاسلام . فبعد أن نعلم الطفل حروف الهجاء وكيف تتركب الـكلمات وينطق بها نمرّنه على القراءة في كتب خاصة تكون سـهلة التركيب . ومتدرّجة في التبويب . وتتضمّن من الدروس والحـكايات ومبادىء المعلومات ما يلائم سـنّه . ويبعث في نفسه الشوق للقراءة ومتابعة المطالعـة والاستزادة من التعلم والتحصيل

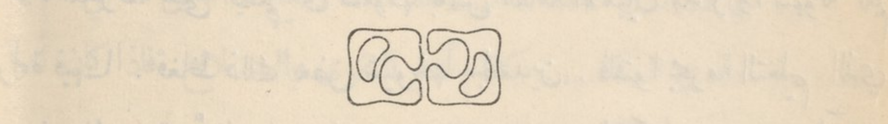
حتى اذا حذق الطفل القراءة ومهر قليلا في المطالعة أعطى له القرآن الكريم أو بعض أجزائه . ويكون استعدّ لأن يتأدب عند تلاوة القرآن وامساك القرآن فينبهه معلمه الى وجوب مراعاة الادب في جميع ذلك ويحمله على تجويد القراءة فيه ، واستظهار جزء منه أو أكثر إن امكن . ويحسن أن يعطى المعلم للطفل شروحا سهلة على بعض الآيات . ويثير في نفسه حبّ فهم معناها ومعنى أمثالها مما يستطيع تعقله وتدبره ، ويسهل عليه التأدّب بأدبه

ومما يحسن ايراده هنا . ليكون عبرة لنا . أن أحد رجال النهضة فى بخارى انشأ مدرسة تعلم على النمط الحديث . مما لم يعتده البخاريون بعد . وقد ظهر النجاح فى هذه المدرسة حتى انضمّ الى صفوفها بعض العامة الاميين مذ رأوا سهولة تعلم القراءة فيهـا . فغاظ ذلك بعض شيوخها الجامدين . فافتوا بحرمة التعليم الذي تعلمه هذه المدرسة وأذاعوا فتواهم بين العامة . فهاجت الافكار . وتشعبت الآراء

ولمـا سأل الوزير رئيس عصابة الجمود واسمه (أعلم حضرت) عن سبب التحريم أجابه بهـذا الجواب العجيب الدالّ على ذكاء وبلادةٍ معاً . فقال « ان هذه الطريقة في التعليم لو عملنا بها لا تلبث أن تحمل الاهالى على قراءة الصحف فمتى قرأوها لا يلبثون أن يطالبوا بالدستور وفي الدسـتور خلع أميرنا المحبوب وحبسه »

دلّ هذا الجواب على ذكاء لان صاحبه أدرك مزية هذه الطريقة الجديدة ومبلغ تأثيرها السريع في تعميم القراءة وحب المطالعة وانها تفكك قيود الاوهام عن الالسنة والعقول والافهام . ودلّ على بلادة لان حضرة (اعلم حضرت) أراد أن يميت شعباً ليحيي فرداً . أراد أن تبقى الامة البخارية برمتها مكبّلة بأغلال الجهل والاستبداد . ليبقى سمو الامير المحبوب حرّاً مستقلا متحكما في رقاب العباد

واتفق أن أمير بخارى لم يكن في العاصمة بل كان في مصيفه خارجها فخشي الوزير أن تحدث فتنة بسبب فتوى (أعلم حضرت) لا سامحه الله . فأمر بأن تقفل المدرسة ريثما يعود الامير فاقفلت . وخرج الاطفال منها باكين وعلى (أعلم حضرت) داعين . ولا أكثر الله مثله في المسلمين



ماضٍ يذكر بحاضر (١)

أو ثورة سنة ٢٥٦ هجرية

يكاد المؤرّخون يُجمعون على أن الضعف الذي حل بالدولة العباسية هو استكثار الخليفة المعتصم من الجنود الاعاجم وتمكين قُوّادهم من التصرّف في الدولة . ولم يظهرْ أثر ذلك في زمن المعتصم نفسه لقوّة شكيمته وفرط شجاعته وانما ظهر في زمن الخلفاء الذين أتَوْا بعده حتى أدى الأمر الى الحالة التي وصفها شاعر ذلك العصر مذ قال :

خليفةٌ في قفص   بين وصيفٍ وبُغَا
يقولُ ما قالا له   كما تقول الببَّغا

وكثرة هؤلاء الجنود في عاصمة الدولة (بغداد) أدت الى امتعاض أهلها وتبرّمهم . فكان يحدث من جراء ذلك شرورٌ ومنازعات تبلغ المعتصم من وقتٍ الى آخر فتُزعجه وتُقلق راحته . فرأى ان أحسن وسيلةٍ للتخلص من ذلك اتخاذ مدينةٍ اخرى ينزل بها جيشه . ويجعلها بمثابة ثُكْنة عامة . أو مركز لنظارة الجهادية . فبنى على مقربةٍ من (بغداد) مدينة (سُرَّ من رأى) التي حرف اسمُها بعد ذلك الى « سامِرّا » وما زالت تسمى كذلك الى اليوم

وقد نزل الخلفاء أنفسهم في (سامرّا) وبنوْا فيها الدور والقصور حتى كانت كعاصمةٍ ثانية للخلافة . ومن هؤلاء الخلفاء الذين نزلوها بطل روايتنا أعني به (المهتدي بن الواثق بنِ المعتصم) الذي بويع بالخلافة (سنة ٢٥٥) وكان يسكن فيها في قصر فخْم يسمى « دار الجَوْسَق » وقد ذكروا من أوصاف ذلك الخليفة

---

(١) كتبت في ١٢ جمادى الثانية سنة ١٣٢٨ هـ وفي ١١ تموز سنة ١٩٠٨م والمراد بالحاضر الذي تذكر به هذه الحوادث ـ اضطراب الامر في طرابزون ثم في مكدونيا من ولايات المملكة العثمانية وذلك قبيل اعلان الدستور فيها بايام قلائل

أنه كان شجاعاً ورعاً غيوراً على الحق . عزوفاً عن اللهو يميل الى مقاومة الظالمين من أُمراء جيشه وكفِّهم عن التلاعب بأموال الدولة . فكان يجلس لحِساب الدواوين بنفسه . وتشدُّده هذا هو الذي أورده موارد الهَلَكة على ما سيجيء بيانه

وقد ذكروا من تقواه وحُسْن تدينه انه كان يسرُدُ الصوم . ويقنع بعض الليالي بخبز وزيت . وقالوا في هيئته إنه قصير القامة . كبير البطن . طويل اللحية . أصلع . واسع الجبهة . أشهلُ العينين . عريضُ المنكبين

والشجاعة والتقوى لا يكفيان وحدهما في تدبير الملك وانما يلزمهما أمرٌ ثالث : وهو « الدّهاء » . ويظهر أن المهتدي مجرد من هذه الخَلّة : فكان ضعيف الحيلة ، عاجز الرأي . فأخذ رجالُ دولته الاعاجم يتصرفون في الأمر حسب أهوائهم

وكان للمهتدي أخٌ يقال له (عبد الله) كثيراً ما استعان برأيه ، وبرأي (عيسى بن فرخانشاه) على فضّ المشاكل التي كانت تحدق به

وكانت قيادة الجيش بيد (موسى بن بُغا) واميريْن آخريْن يقال لهما (بايكباك) و (مُفلح) وكان هؤلاء القواد ـ في اثناء حدوث واقعتنا التي نقصُّها على القاريء ـ غائبين في محاربة الشُراة (وهم الخوارج) . أما الُجند فمعظمه يتألف من الاتراك ، وفيهم من الاعاجم أجناس اخر : كالفراغنه والديالمة والطبرية والشاكرية والاشروسنية والاشتاخنية والمغاربة

أما العامة أو الشعب الذى يسكن « سامِرّا » مقر الخلافة فكان مزيجا من الموالي . والمراد بهم من لم يكن عربيّ الاصل أو هم أولاد أسْرى الحروب . يعتقون ويتزوجون وينسلون . فيُسمون مَوالي . هؤلاء وأولئك هم الذين كانوا يطيفون

بالخليفة ، ويتبوأون دار الخلافة . فأين كان العرب ؟ وأين استقرت ذراريهم النجباء ؟

وكان للقائد (موسى بن بُغا) المذكور أخٌ يقال له (أبو نصر محمد) جار في تصرفه بأموال الدولة . واستبد في امورها الادارية والمالية بقدر ما كان أخوه (موسى) مستبدا بشؤونها الحربية والعسكرية

***

ففي ليلة الاثنين غرة رجب سنة ٢٥٦ هجرية و ٨٧٠ مسيحية تحرك موالي (سامرا) أو عامتها وثاروا جميعهم ساخطين على الدولة . فأرسل المهتدي اليهم أخاه (عبد الله) يسألهم عن أمرهم . فقالوا إنهم يريدون مواجهة الخليفة نفسه . وأقبلوا نحو (دار الجوْسق) فأدارهم عبد الله على أن يبقوْا بموضعهم . ويرسلوا معه جماعةً منهم لمواجهة الخليفة . فأبوْا عليه ذلك . وقد شعر أمراء الجيش ورجال الدولة بأن الثائرين إنما يريدون الانتقام منهم فجعلوا يتسللون ويستخفون حتى أن (محمد بن بغا) الذي وصفنا استبداده بمصالح الدولة كان اذ ذاك في « دار الجوسق » مع الخليفة فخرج منها مما يلي باب النزالة وحاول اللحاق بأخيه (موسى) القائد الاكبر الذى كان في محاربة الشاري الخارجى

ثم دخل الثائرون الدار مما يلي باب القصر الاحمر فملأوها وكانوا زُهاء أربعة آلاف نفس . ولما واجهوا الخليفة سألوه أمورا وزعموا أنها مبعث الثائرة :

(١) أن يعزل عنهم أمراءهم

(٢) أن يولِّي عليهم بدلا منهم إخوته

(٣) أن يحاسِب اولئك الامراء على ما دخل عليهم من بيت المال ويكلّفهم أداءه . وهو مبلغ لا يقل عن خمسة عشر مليون درهم

فطيب الخليفة خاطرهم ووعدهم خيرا . ومكثوا في (الجوسق) ضيوفا عليه يقريهم السويق بالسكر سحابة ذلك اليوم

ولا يخفى ان هـذه الثورة التي حَضأَ نارَها الموالي إنما ترجع الى مصلحة المسلمين وتوفير خزينتهم وتولية الكفيّ من اسرة الخلافة أبناء عمّ نبيّهم . وكل هذا مما يريده الخليفة المهتدي لا سيما وقد قلنا إنه شجاع ورع مقتصد . وهـذه الاوصاف الثلاثة تحمله على تأييد الشعب وتلبية ندائه والضرب على أيدي الامراء الظالمين المبذّرين

أما هؤلا الامراء فقد فسدت قلوبهم وأوجسوا خيفة من إيقاع الخليفة بهم . فجعلوا يتشاورون ويتكاتبون . ثم أرسل الخليفة الى الموالي الثائرين يقول : « إن هـذا الامر الذي تريدونه أمر صعب ، واخراج الامر من أيدي هؤلاء الأمراء ليس بالسهل عليكم ، فكيف اذا جُمع الى ذلك أخذهم بالاموال ؟ فانظروا في اموركم : فان كنتم تظنون أنكم تصبرون على هذا الامر حتى يُبلغ منه غايته أجابكم اليه أميرُ المؤمنين . وان تكن الاخرى فان أمير المؤمنين يُحسن لكم النظر » وقد أراد الخليفة بهذا الكلام اختبار قوّتهم وجسّ نبْض حميّتهم ومبلغهم في الثبات والدفاع . خشية أن يتظاهر العامة مع هؤلاء الثائرين في عداوة الخاصة من رجال دولته ثم لا يجد عندهم غناءً ولا ثباتا فتدور الدائرة عليه هو . ولكن الثائرين أبوْا الا ما سألوا اولا . فكلفهم الخليفة البيْعة على الصبر والثبات وأن لا يسلموه الى الاعداء فبايعه منهم على ذلك زُهاءَ الفِ رجل وأصبح الخليفة العباسى ثائراً مع شعبه على رجال دولته الظالمين. وأخذوا من يومئذ يكيدون لهم المكايد فأول مافعلوه أن كتبوا الى (محمد بن بغا) الذي فر من قصر الجوسق ـ يُنكرون عليه هروبه وإنهم انما قصدوا شكاية بعض حاجاتهم للخليفة . فعاد محمد فى الخاصة من أمرائه الى القصر . ولما دخل على الخليفة قبّل يده ورجله والبساط وتأخر .

فقال له الخليفة « يامحمد ما عندك فيما يقول الموالى؟ قال وما يقولون ؟ قال يذكرون انكم أحتجنتم الاموال (استأثرتم بها) واستبددتم بالاعمال ، فما تنظرون في شيء من أمورهم ولا فيما هو عائدٌ لمصلحتهم . فقال محمد : يا أمير المؤمنين ! وما أنا والاموال ؟ ما كنتُ كاتب ديوان ولا جرتْ على يدى أعمال . فقال له : فأين الاموال ؟ وهل هي الا عندك وعند أخيك وكتّابكم وأصحابكم؟ » ثم أمر الخليفة بسجنه وسَجْن الرَّهط الذين معه فسُجنوا ، وأخيراً قُتل محمد وأخفى أمرُه

ولما شاع خبر فوز الخليفة أقبل العامة من كل صوب يبايعونه ويعلنون مناصرته علي عدوه فأُخذت عليهم البيعة وأجرى على كل واحد منهم درهمان في اليوم وأُطعموا في بعض أيامهم الخبز واللحم . ثم توجهت همة المهتدي الى القبض على (موسى بن بغا) القائد الاكبر ومن معه من القواد كما قُبض على أخيه محمد فأرسل رسلا يبلغون ثلثين رجلا زوَّدهم بالكتب والنصائح التى ترجع كلها الى إيقاع الشقاق بين زُعماء الجيش وحملهم علي الحضور الى حضرة الخليفة. فلم يقصر هؤلاء في وظيفتهم . وكان من أثر ذلك ان أقبل الأمير (بايباك) ومن رأى رأيه من الامراء على معسكر الخليفة . أما (موسى بن بغا) و (مفلح) فرحلا يريدان طريق خراسان فى زهاء الف رجل خوفا على أنفسهما من فتك الخليفة بهما

ولما دخل الامراء على المهتدي « أمرهم بالانصاف الا (بايكباك) فانه أمر أن يوقف بين يديه ثم أقبل يعدّد عليه ذنوبه وما ركب من المسلمين والاسلام » ثم نقل الى حجرة في الدار . ولم يلبث الا قدر خمس ساعات حتى قتل والحق بمحمد بن بغا

وكاد الامر يستتب للمهتدى لولا ماحاك من الحقد والغيرة في نفوس طوائف الجند : فان الاتراك ــ ومعظم الجيش والقواد منهم ــ رأوا بقية الطوائف يزاحمونهم في الوظائف والاعمال. وكانت حراسة (دار الجوسق) من خصائصهم . فشاركهم

فى النزول فيها الفراغنة والمغاربة . فساءهم هذا كما ساءهم قتل أميرهم (بايكباك) وشعروا أن الغرض من هـذا التدبير قتل امرائهم واحداً فواحداً ثم تشتيت شملهم هم أيضاً فخرجوا من « دار الجوسق » وطلبوا أن يفرج عن (بايكباك) ظانين أنه لم يزل حياً

ولما علم الخليفة بتحركهم على هذا الوجه دعا اليه أمراء الفراغنة وأطلعهم على الامر وقال لهم « ان كنتم تعلمون أنـكم تقومون بهم ـ أى تقدرون عليهم ـ فما يكره أمير المؤمنين قربكم . وإن كنتم بأنفسكم تظنون عجزاً عنهم أرضيناهم بالمصير الى محبتهم من قبل تفاقم الأمر

واقد أخطأ الخليفة الآن كما أخطأ من قبل . فان العامة لما كلفوه عزل رجال دولته وقواد جيشه ـ وهم جماع قوة الدولة وقوام أمرها ـ سألهم عما اذا كانوا يثبتون معه ولا يخذلونه . فوعدوه الثبات والمصابرة مع أنه ما كان لمثله أن يثق بمثلهم وهم يلبون كل ناعق حتى اذا احمر البـأس أدبروا لا يلوون على شيء . فـكان على الخليفة أن لا يثق بهم ويحتاط لنفسه . وكذلك هو الآن أخذ يسائل الفراغنة هل يقوون على مكافحة الاتراك ويصبرون على لقائهم ؟ وبماذا أجابوه أجابوا بأنهم يقومون بهم ويقهرونهم اذا اجتمعت كلمتهم وكلمة المغاربة . وكانوا فى مجموعهم يبلغون ستة آلاف . وفيهم فئة من الاتراك . أما مجموع قوة الترك فتبلغ زهاء عشرة آلاف رجل . ولما التقى الزحفان انحاز الاتراك الذين فى جيش الخليفة الى بنى جلدتهم . ولم تكن الا ساعة حتى وقعت الهزيمة فى جيش الخليفة . فثبت هو وأقبل يدعوهم الى نفسه ويقاتل . ثم لما يئس انهزم وبيده سيف مشطب وجعل يحث الناس على نصرته . فلم يتبعه الا جماعة من العيارين ـ وهم الذين نسميهم فى زماننا المتشردين أو العصبجية ـ ولما بلغ باب السجن أمسكه هؤلاء العيّارون وألزموه بأن يأمر باطلاق المسجونين . وقيل انه نفسه رغب فى اطلاقهم

ليكونوا له عوناً وردئا . ولما أطلقهم لاذوا بالفرار . وكذلك يفعلون . ثم ان (المهتدي) صار الى دار (أحمد بن جميل) رئيس شرطته. فلجأ اليها ونزع ثيابه وسلاحه وطلب قميصا وسراويل فلبسهما وغسل الدم عن بدنه وشرب ماء وصلّى . ثم تأثره الاتراك حتى بلغوا الدار التي كان فيها . فضربوا بابها ودخلوها . فهرب الخليفة الى السطح وحاول الدفاع عن نفسه . لكنه جرح . وعلم انه الموت . فأعطى بيده ـ أي سلم نفسه ـ فأخذوه وجعلوه على دابة بين يدي أحدهم وأودعوه دار أمير من امرائهم . وكتبوا الى قائدهم (موسى بن بغا) بالحضور اليهم فحضر وأرادوا (المهتدي) على ان يخلع نفسه فأبى . وقيل انهم مثلوا به وفعلوا به (١) غير شيء حتى مات . وعمره ثمان وثلاثون سنة . وبايعوا الخليفة (المعتمد) على الله . وهو احمد بن المتوكل . وبحثوا عن أميرهم (محمد بن بغا) وهم يحسبونه حيًّا فدلوا على موضعه . فنبشوه فوجدوه مذبوحاً فدفنوه وكسروا على قبره ألف سيف . وكذلك كانوا يفعلون بالسيد منهم اذا مات

***

وخلاصة هـذه الصفحة من التاريخ أن الشعب في زمن خلافة (المهتدي) ثار في وجه القواد والامراء المستبدين . فرأى الخليفة ان هـذه الثورة عادلة . فأيدها ورأسها . لكنه أخطأ في تقدير قوة عدوه . ووثق بهذا الشعب الارعن أكثر من اللازم. فدارت الدائرة عليه . ويقال ان الاتراك المنتصرين كانوا بعد المعركة يدورون في الشوارع ويحمدون العامة إذ لم يتعرضوا لهم ولم ينصروا المهتدي مذ كان يدعوهم الى نصرته ويقول « يا معشر الناس أنا أمير المؤمنين فقاتلوا عن خليفتكم». فالثورة مهما كانت عادلة اذا لم يقم بها رجال ذوو عزيمة وثبات ونشاط واقتناع بمبدأها وانها حق ـ كانت عاقبتها الخذلان . ونتيجتها الخسران

(١) وهذا يذكر بما فعله الانكشارية بالسلطان عثمان الثاني المقتول سنة (١٠٣١) هـ و ١٦٢١ م

السيد جمال الدين

أفغاني أم ايراني (١)

لا ريب أن معظم الفضل في انتباه المسلمين الى اصلاح حالتهم السياسية والاجتماعية انما يرجع الى المرحوم السيد جمال الدين : فحركة الاصلاح في مصر وفي ايران كانت بمساعيه ومساعي أشياعه . قال المستر (بلنت) ان سعي العثمانيين فى تحويل حكومتهم الى دستورية في بادىء الأمر قد ينسب الى شيء من تأثير جمال الدين : فقد لبث في عاصمتهم حيناً من الدهر ، يحاورهم ويخطب فيهم . وعلى هذا القياس يمكننى أن أقول : ان نهضة مسلمي الروسيا كانت أيضاً من بنات همه . فقد زار بطرسبرج ، ويبعد أن لا يكون حاور المسلمين أثناء مكثه فيها ، أو مروره اليها . ويكفيه في التنبيه والايقاظ سُويعات قليلة ، يصدع فيها الغافلين ويتلتل من نفوس الجامدين . عرفت ذلك منه انكلترا : فكانت تحول بينه وبين الاختلاط بالهنديين أثناء مروره في بلادهم الا على عينٍ من رجال شرطتها

واذا كان هذا مبلغ تأثير جمال الدين في ايقاظ الامم فلماذا لم يكن له هذا التأثير في أمته الافغانية ؟ أصحيح ما يقال من أنه لم يكن بالافغانى ؟ أو يكون عدم تأثيره في بلاده على حد قولهم في المثل : لا كرامة لولي في قومه

ومما أذكره في هذا المقام بمزيد الدهشة : أن المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي لم يكن معروفا في بلده (حلب) كما هو معروف في مصر والشام وغيرهما. ولقد سألت — وغيرى سأل أيضاً — كثيرين من أهالي حلب عن نشأته فيهم . ومنزلته في الفضل بينهم . فكانوا يتجاهلونه أولا . وبعد التعريف

(١) كتبت في سنة ١٣٢٧ هـ و ١٩٠٩ م

الدقيق يقولون انه كان رجلا عادياً ! لا مزية له تُعرف ، ولا أثر يوصف . على أن بعضهم كان يتهمه بما نستبعد اتصافه به ، وحصوله منه

ولنرجع الى جمال الدين فنقول : يتبادر الى ذهن كل سامع باسم (السيد الافغانى) أنه من بلاد الأفغان أي أفغانىّ الجنس . ويستبعد أن يكون من بلاد غيرها ثم ينسب اليها . ثم اذا قرأ ما كتبه المرحوم الشيخ محمد عبده في ترجمته التى صدّر بها رسالة الردّ على الدهريين — « هذا هو السيد محمد جمال الدين ابن السيد صفتر من بيت عظيم في بلاد الأفغان ينمى نسبه الى السيد عليّ الترمذي المحدّث المشهور ويرتقي الى سيدنا الحسين . وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة (كُنَر) من أعمال كابل (عاصمة افغانستان) تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام . ولهذه العشيرة منزلة علية في قلوب الافغانيين يجلونها رعايةً لحرمة نسبها الشريف . وكانت لها سيادة على جزء من الأراضي الافغانية تستقل بالحكم فيه وانما سلب الامارة من أيديها (دوست محمد خان) جد الامير الحالي وأمر بنقل السيد جمال وبعض أعمامه الى مدينة كابل . ولد السيد جمال الدين في قرية (أسعد آباد) من قوى (كنر) سـنة ١٢٥٤ هجرية وانتقل بانتقال أبيه الى مدينة كابل الخ » اذا قرأ القاريء ذلك تحققت لديه النسبة . وعلم أن أكبر تلامذة الافغاني لم يكتب ما كتب في أمر نسبته الا وهو معتمد فيه على الافغاني نفسه . فقد كان له معه طول عشرة ، وفيه فرط خبرة

ولما ثارت النائرة بين السيد جمال الدين وابي الهدى الصيّادي كان الاخير لا يحب أن يسمع أحداً ينسب خصمه الى الشرف ، ويقول انما هو « ايراني من مازندران » كأنّ الأشراف حرم عليهم أن يسكنوا ايران ، أو ينبتوا من مازندران . فلم نكن نعبأ بما يقوله الصيادي : لأنه أقل ما يقول عدو في عدوه . حتى اطلعنا على ترجمة للسيد جمال الدين في كتاب (المآثر والآثار) لمحمد حسن

خان الملقب باعتماد الدولة وهو من كبار موظفي حكومة ايران والمقربين لدى ملكها (ناصر الدين شاه) . وكتابه المذكور بمثابة الكتاب السنوي (السالنامه) الذي يصدر في المملكة العثمانية . فرابنا قوله وعسر علينا التوفيق بينه وبين ما قاله الشيخ محمد عبده . قال اعتماد الدولة – « ان السيد جمال الدين من قرية أسد آباد من أعمال ايران ، له مقام عال في العلوم العتيقة والجديدة . يفتخر به أهل ايران ولهم الحق . تعلم العلوم الشرعية فى مدينة قزوين ومدينة طهران . وسافر الى بلاد أفغانستان وهندستان ومنها الى الممالك العثمانية ومصر » الى أن قال – « وأهل السنة والجماعة يزعمون أنه أفغاني الجنس كما كتب كبير تلامذته استاذ الأدب الشيخ محمد عبده في مقدمة رسالته الردّ على الدهريين » اه

المترجمُ الاولُ جعل ولادته ونشأته في الافغان ثم انه مرّ مروراً في ايران على العكس من المترجم الثاني فانه جعلهما في ايران وقال انه سافر الى افغانستان . ولكن الفكر يقف هنيهة في محاولة التوفيق حينما يسمع قول الاول ان منشأ جمال الدين « قرية أسعد آباد من اعمال كابل » وقول الثاني « انه من قرية أسد آباد من ايران » فهل (أسد آباد) هي نفس (أسعد آباد) أعماها النساخ وسَمَلوا عينها . ولكن ماذا نصنع في تأويل باقي الكلامين والتوفيق بين اجزائهما . لا سيما تهكّم اعتماد الدولة باهل السنّة وقوله انهم يزعمون ان السيد افغانيّ الجنس . واذا رجعنا الى الكتّاب الآخرين الذين ترجموا لجمال الدين نرى الذين بعدَ الشيخ (محمد عبده) حَذَوْا حذْوَه ونسجوا على منواله فى نشأة الرجل ونسبته ومنبت دوحته . حتى أن منهم من اكتفى بنقل عبارة الشيخ (محمد عبده) بنصها مثل جورجي افندي زيدان والشيخ ابراهيم اليازجي . أما الذين ترجموا له قبل الشيخ محمد عبده فقد جاءت عباراتهم مؤيدة له على اختصار فيها . فقد قال أديب بك اسحاق وهو من أشهر تلامذة جمال الدين انه « وُلد بكابل فى بيت شرف وعلم »

وقال سليم افندي عنحوري وهو ممن ثافنوه وترددوا عليه انه « نبغ في بلاد الافغان وتعلّم فيها اللغة الفارسية وكان ممن انتظموا في سلك جنديّتها »

فهل بعدَ كلّ ما تقدَّم مقال لقائل ، أو مجال لمؤوّل ؟ نعم سمعت بعض الفضلاء من الايرانيين المقيمين بمصر يوفّق بين الاقوال ، ويؤول اختلافاتها . لكنّه يصرّ على أن جمال الدين ايرانيّ الجنس محتجاً بما يقول الشيوخ من قومه « ان والد جمال الدين من أهالى مازندران احدى ولايات ايران ، وكان ضابطا في الجيش ، فارتأتْ حكومته أن تُرسله الى بلاد الافغان لمهمةٍ تتعلق بالمملكتين فطابت للضابط السكنى فيها ، وتزوَّج ووُلد له جمال الدين . أو أنه وُلد له في ايران ثم حَمله معه صغيراً الى الافغان »

وبهذه الرواية يُجمع بين القولين في الجملة . وتكون تسمية الناس لجمال الدين بالافغاني وهو ايراني كتسمية مؤرخي العرب لاسكندر الكبير ابن فيلبس « اسكندر اليوناني أو الرومي » مع أنه (مكدوني) لم يولد في بلاد اليونان ولا علاقة جنسية له بشعبها . لكنه افتتحها . وكان استاذه من فلاسفتها . ومعظم جنوده من أبنائها

وقد حدثتُ بعض الفضلاء أمس بهذا النبأ عن (جمال الدين) فأكد لي بطلانه وقال ان جعل السيد من مواليد ايران فرية افترتها حكومة ناصر الدين شاه عليه بقصد الانتقام منه . ثم حدثني بحديث يرويه عن بعض الثقات [1] وكان موظفا في ولاية البصرة أثناء وجود جمال الدين آيبا من ايران ، وقد أحببت أن أمهّد لهذا الحديث ثم أنقله الى القراء ، وفيهم الكثيرون من محبي السيد الافغاني وعشّاق فضله . لاسيا أن في الحديث المذكور نتفا من ترجمته ولطائف من خبره . لم تُروَ بعدُ ولم تتداولها الافواه :

---

(١) هو قاضي البصرة اذ ذاك الشيخ عبد الحميد افندي الرافعي الطرابلسي

وفدَ السيد على بلاد ايران مرتين : الأولى بدعوة من ملـكها الاسبق (ناصر الدين شاه) فاحتفل به الشاه ورفع منزلته وسماه وزير حربه . فشاع ذكره في البلاد الايرانية . وعظم قدره . وانصرفت الوجوه اليه . وحوَّمت القلوب عليه . فأوجس الشاه منه خيفةً . ولاحظ السيد ذلك فخرج من ايران . وفي سنة ١٢٨٩ قصد باريز لشهود معرضها فصادف في مونيخ (ناصر الدين شاه) المشار اليه فعاد الى مجاملته وادنائه وألحّ عليه بالعودة معه الى بلاده ففعل . وما كادت تستقرّ قدمه فيها حتى حام حوله الايرانيون بأشدّ من المرة الاولى . وقام معهم بتأسيس حكومة دستورية بمؤازرة الشاه نفسه . غير أن وزيره الاعظم حذره عواقب مساعي جمال الدين . فقلبوا له ظهر المجن واضطهدوه فاحتمى بمزار « الشاه عبد العظيم » على اثني عشر ميلا من طهران وبقي عاملا على بث المبادىء الدستورية . ولما برِمتْ به الحـكومة ارسلت اليه خمسين جنديا احتملوه مريضا الى حدود الدولة العثمانية فأمّ البصرة وهو بأسوأ حال وشرع هناك فى العمل على مقاومة الشـاه ووزيره . فكتب الى زعيم المجتهدين جناب الحاج الميرزا (محمـد حسن الشيرازي) المقيم بسامرّا رسـالةً مسهبةً بليغةً وَصفَ له فيها ما صارت اليه بلاد ايران من الخراب بسبب اهمال الشاه وجهل وزيره . واستفزّه للسعى فى احداث حكومة جديدة فى بلاد ايران . ولم يكتف بهذا بل كتب الى كبير المجتهدين يصف له الضرر الذي يلحق البلاد بسبب المقاولة التي جرت بين حكومة الشاه وبين بعض الشركات الاجنبية بشأن حصر الدخان « الريجي » فى مملـكة ايران وطلب منه إذاعـةَ فتوى عامة بعدم جواز ذلك شرعا ، وبتحريم شرب الدخان . فصدرت الفتوى ووزعت وامتنع الشعب عن الشرب . وهاج ضـد المقاولة المذكورة . فحبطت. ورجعت الشركة على الحـكومة بمبلغ كبير من المال في مقابلة

العُطل والضرر . فكَبُرَ الامر على الشاه وضاق به ذرعا ويقال انه طلب في اثناء ذلك نار جيلة (شيشة) ليدخّن بها . فأجابه حجاب قصره أن المجتهدين حَظَروا التدخين . وليس في القصر نار جيلة

فارتأى الشاه أن يستقدم جمال الدين اليه ، ويصب سوط عذابه عليه ، فكتب الى المابين يطلبه ويدّعي أنه من تبعة ايران ومولود في قرية « اسدآباد » على نمط ما شرحه اعتماد الدولة في سالنامته ، ومرت الاشارة اليه آنفاً .

قال الموظف الذي نروي عنه الخبر الآتي : كان والي البصرة لحين قدوم جمال الدين اليها ـ هدايت باشا . وهو رجل جليل كثير التقوى والصلاح . فاحتفل بالسيد وأكرم نزله . ثم جاءه تلغراف « شفرة » من المابين يسأله عن نشأة جمال الدين وأصله وفصله وهل هو ايراني كما زعم الشاه . فاستحسن الوالي أن يوسّطني في سؤال جمال الدين نفسه عن مبتدأ خبره . من حيث لا يشعر بالامر . فسألته . فقال : انه افغانيّ الاصل والفرع . وانه لا علاقة جنسية ولا تابعية له بايران وان الشاه يشيع ذلك عنه ارادة الانتقام منه . قال (جمال الدين) وفي سنة ١٢٨٧ هجرية في زمن نظارة (صفوت باشا) على المعارف كان تعين عضواً في مجلس المعارف الاعلى بناء على كونه افغانيَّ الجنس . فليسألوا النظارة المشار اليها ان أحبوا . ثم كتب هدايت باشا الى المابين بمحصل ماقاله جمال الدين

قال الموظف وبعد أن أبل السيد من مرضه تهيأ للسياحة في داخلية جزيرة العرب فشغله الوالي عن السفر ريثما يستطلع رأي السلطان ، فأمره بمنعه عن قصده فلم يخف الامر على (جمال الدين) ثم عزم على الرحلة الى لندن فاستأذن الوالي المابين فأذن له بتسريحه ، وبعد سفره تلقى الوالي برقية بمنع جمال الدين عن السفر اليها أيضاً ولكنه كان على أبواب لندن . ولما قصد جمال الدين السفر الى

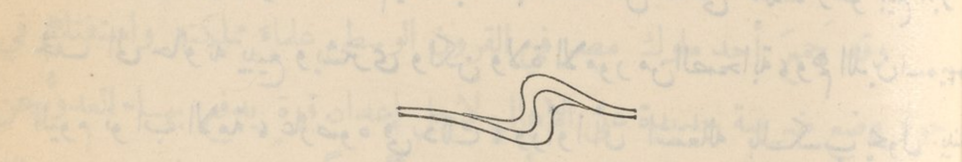
أوربا لم يكن في جيبه سوى عشرة جنيهـات ، فتعجب هدايت باشا من اقدام الرجل وكبر همته ، ثم تذاكر مع أعيـان الولاية بلزوم مساعدته فاكتتبوا له : الوالى بخمسين جنيهاً . ونقيب الاشراف بمائة وخمسين جنيهاً . وهكذا الى أن جمعوا اله خمسمائة جنيه . فسر جمال الدين من صنيع (هدايت باشا) وشكر له عليه . وقال أرجو أن أكافئك خيراً جزاء ما صنعت بى. فقال له الوالي: كيف تكافئنى وقد بلغتُ من الكبر عتيا ؟

ولبث السيد في لندن حقبة من الزمن : يخطب ويكتب في الطعن على الشاه وحكومته ويحرك أضغان الشعب الانكليزي وحكومته على الشاه حتى أثر طعنه في العلائق بين البلادين أسوأ تأثير. وكان يكتب في جريدة « ضياء الخافقين » بتوقيع « السيد » فأغضب صنيعه (ناصر الدين شاه) واحرج صدره. فوالى تلغرافاته الى السلطان يسأله ان يتوسط بينهما . ويسكت جمـال الدين ولو باستقدامه الى الاستانة. فـكتب السلطان الى سفيره في لندن (رستم باشا) فلم ينلح واخيراً افلح الشيخ أبو الهدى فكتب اليه ضروباً من الرقَى وافانين من الوعد ، وكان السيد رحمه الله طيب النفس ، سليم الصدر ، قريب الانخداع ؛ فجاء الى الاستانة وقضى نحبه فيها.

ولقد اجتمع به كاتب هذه السطور هناك فقال لي مرة : ان السلطان طلب منى أن اكفّ عن الشاه ، فقلت لاحتى أسكنه القبر ، قال : ثم لما كثر إلحاحه عليّ قلت « وانى امتثالا لامير المؤمنين ، وعملا بطاعته الواجبة عفوت الشاه ، عفوت الشاه » وفي وقتها أشكل عليّ ان يُعدّيَ جمال الدين فعل « عفا » بنفسه أي من دون حرف الجر « عن » فراجعت التعدية فى كتب اللغة فوجدتها صحيحة ، ثم ان الموظف راوى الخبر ترك البصرة وجاء الاستانة فزار السيد جمال الدين ، فسأله هذا

عن حالة (هدايت باشا) فأخبره بوفاته . فقال له أرجو منك أن تبحث عن مقرّ عائلته. وتسألها عن حاجاتها لاقضيها لها . فبحث عنها وسألها . وكانت اذ ذاك فى أشدّ الضيق : أرملة الباشا وابنته كانتا تسعيان لدى نظارة الحربية فى تقييد ابن ابنة الباشا في سجلّ « الزاده كان » (أبناء الاشراف) لاجل أن يخصص له معاش . فلم تنجح شفاعتهما ، وشفع جمال الدين في الولد فقيد في « الزاده كان » وعين له معاش : ثلاثون جنيهاً وخمسون جنيها أخرى للارملة وابنتها ورتبة لصهرها

بمثل هـذه الاخلاق الفاضلة والمزايا العالية كان جمال الدين جمال الدين ، لا بالانتساب الى الافغانيين أو الايرانيين



مرتب الخليفة (١)

لم أعجب لقول عجبي لقولهم إن جلالة السلطان (محمد الخامس) تنازل عن بعض مرتبه الشهري وأمر بأن يُقلّلوا سائر نفقات بلاطه ، تقليدا لملوك أوروبا، ومحاكاةً لهم في تجنّب البذخ والاسراف .

عجبتُ لهذا من حيث أن القائلين غفلوا عن أن جلالة السلطان انما هو خليفة مسلم ، وانه انما راعى في نفقاته ، ونوع معيشته ، آداب الخلافة الاسلامية واقتدى بما كان عليه الخلفاء الاولون من القصد وترك البذخ ، بل ان عثمان الاول جدّ العثمانيين مات ولم يترك من حُطام الدنيا سوى سيفه ورمحه ومصحفه وقطيع من الغنم كان ينفق منه على نفسه وأهله .

ولا يُجيز الاسلام ان يستبدّ الخليفة أو الملك بالامة ويتصرّف في أموالها كيفما شاء : فيقتني ويدّخر ويتناول من المرتبات فوق الكفاية .

لما ولي أبو بكر الخلافة لم يحسب أنها تمنعه عن تعاطي عمله ، وهو بيع البزّ، فخف الى حانوته يبيع ويشتري ولكن ولاة الامور من الصحابة ، وهم الذين نسميهم اليوم نوّاب الامة ، عارضوه في ذلك ، ورأوا أن اشتغاله بالكسب يحول بينه وبين إحكام أمر الخلافة ، ففرضوا له في بيت المال مايقوم بحاجته . وهكذا كان شأن الخلفاء الراشدين بعده . ثم دالت الايام ، واختلفت الاحوال ، فلم يعد يكفي خليفةَ هذا الزمان القدرُ الذي كان يكفي خليفة الازمنة الاول . والشرع لم يكن ضيّقا حرَجاً الى هذا الحد : فهو يقول ان الاحكام تتبدّل بتبدل الايام . فيجوز لخليفة اليوم أن يتناول من بيت المال اكثر مما كان يتناوله اسلافه . ولكن الى حد

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ ﻫ و ١٩٠٩ م

معلوم تقتضيه المصلحة فلا يصح له ان يتجاوز بنفقاته الى التبذير والاسراف .

وقد ذكر عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه في كتاب له الى بعض عماله ـ أنه كان يقدرُ أن يستكثر من الاموال ويدّخر ويتنعم ولكنه يُحبّ أن يكون أسوةً لمستورى الحال من الأمة الذين لا يقدرون ان يعيشوا معيشة البذخ والرفه . فاذا خالفهم خليفتهم في ذلك نقموا منه، أو ذلوا له . وفي كلتا الخطتين خطر على الامة، وعلى اخلاقها، وعلى علاقة حاكمها بمحكومها

فلا يحسُنُ ان يكون الخليفة في الاسلام مقتّراً عليه في الرزق وأن يعيش معيشةَ البؤساء فيصبحَ مهاناً محقَّراً، ولا أن يكون مالكاً للقناطير المقنطرة ويعيش معيشة البُلَهْنِيَة والرفه بحيث تنحط عنه معظم طبقات الامة، وتحجبهم حالته ومعيشته عن الدّنو منه، والتمكن من رفع مصالحهم اليه .

ومن لاحظ المرتّب الذي تفرضه كل من حكومتي سويسرا وأميركا لرئيسيهما علم ان الحكومتين اهتدتا الى العدل والعقل في هذا الامر ووافقتا فيه تعليم الدين الاسلامي من حيث لم تشعرا به . ولم تقصدا اليه .

وقد جَمعَ أحد ملوك مصر في القرون الوسطى علماء مملكته واستفتاهم في جواز وضع ضريبة جديدة على الاهالي لاجل إعداد قوةٍ يدفع بها العدوَّ عن البلاد . فافتوْه بالجواز ما دام بيتُ المال خاوياً خالياً . سوى واحدٍ منهم، فانه قال : لايجوز وضع ضريبة مالم يأخذ الملكُ جميعَ الذخائر والجواهر والحليّ والاوانى والأدوات الفضية والذهبية الموجودة في قصره وقصور نسائه وأولاده وسائر بطانته ويضرب كل ذلك نقودا ويتقوّى بها في الدفاع . حتى اذا لم تسدّ الحاجة كان له حينئذ أن يضع الضريبة بالقدر اللازم المستطاع

وهذه الفتوى هي الحقّ والعدل، لأنَ ما استولى عليه الملك مما زاد عن

ابن تيمية

حاجاته انما هو مال الامة .

ومن الاسرار السامية التي تضمنها الدين الاسلامي تحريم استعمال الذهب والفضه : فانّ هذا التحريم يُساعد على بقاء الحجرين لاتخاذ النقود منهما. والامة في أطوار تكوّنها ونهوضها في حاجةٍ شديدة الى استكثار النقود في خزائنها.

وقد اهتدى الى هذا السرّ (بطرس الاكبر) مؤسس دولة الروسية الحديثة . فقد ذكروا أنه حظرَ على أهل مملكته استعمالَ الذهب والفضة . وحول جميع ما وجد من هذين الحجرين في بلاده الى نقود . فتوفرت لديه الاموال . وتسنى له بذلك أن ينقل المملكة الروسية من حال الى حال



الزواج والحب[1]

احتفل بعقد نكاح فلان على فلانة . ثم بعد أشهر بنى فلان عليها . فرأت فلانة فيه كل ما تتمناه زوجة فى زوجها : جمالاً وكمالا ومالا وحسنَ عشرةٍ وطيب حديث وسعادة شاملة فأحبته حباً جما . وهى لا تزال تحبه . وكلما اختلتْ بصويْحباتها حدثتهن عنه وعن حسن حظها فى الاقتران به . ثم ندع فلانة مغتبطة بزوجها وزواجها ونزور جارتها التى تزوجت قبلها . ولكنها لم ترزق السعادة فى زوجها مثلها : فقد كان فظ الطباع . جافيَ الاخلاق . سيء النية . شحيحاً . وغداً . دنيئاً . حقوداً . حسوداً . لا يألف ولا يؤلف . فكرهته هذه الزوجة المسكينة ولا تزال تكرهه . وكلما خلت الى واحدة من أهلها شكت اليها أمرها ووصفت سوء حالتها وانها أمست فى جحيم . مع هذا الزوج اللئيم . وتكرر القول : بأنها تزوجت ولكنها ما أحبتْ . وأن لها زوجا ولكن ليس لها حبيب . فما هو رأي الكتّاب الاجتماعيين فى زواج هذا وصفه . وزوجة هذه حالتها ؟

لاحظ الشرع الاسلامى فضل الزواج المؤسس على الحب . فجعل للشاب الحق في أن ينظر الفتاة التى يريد الاقتران بها . ويروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه لما أراد خِطبة السيدة (عائشة) طلب من والدها الصديق (رضى الله عنه) أنه يُرِيَهُ إياها . فرآها وأعجبته وتزوجها وكان كلٌّ منهما قرير العين بصاحبه . مغتبطاً بعشرة إلفه .

وسأل (صلى الله عليه وسلم) بعض الشبان من صحابته عما اذا كان تزوج ؟ وهل كانت زوجته بكراً أم ثيّبا ؟ فأخبره أنه تزوجها ثيبا . فتمنى له لو تزوجها بكراً

(١) كتبت سنة ١٣٢٨ هـ

ولم يتمنَّ ذلك له تقوية لدواعي الهوى . ونزعات الشهوة . كيف وهو (صلى الله عليه وسلم) انما تزوج الثيبات من النساء ولم يتزوج بكراً سوى السيدة (عائشة) لكنه (صلى الله عليه وسلم) حثَّ الصحابيَّ على زواج البكر تنبيهاً الى أن مثله في سنه . وطراوة شبابه . لا يمكن أن تطيب له العشرة مع زوجه وتتوثق عرى الحبّ بينهما ما لم تكن على مقربة منه في هذه الأوصاف .

فأنت ترى أن الاسلام قدّر الحب الزوجي قدره وتشاءم من زواج لاحب فيه . وقد ذكر الفقهاء في كتبهم جواز نظر الرجل لمن يريد التزوج بها . لكنهم لم يتعرضوا ـ على ما أذكر ـ لما اذا كان يجوز له أن يجالسها ويحادثها ويتعرف أخلاقها ومبلغها من العقل والعلم والأدب والدين .

النظر يعرفنا جمال الوجه اما الحديث فيعرفنا جمال النفس . والحبُّ وطيب العيش انما يعتمدان هذا الاخير : فان الحسن ظلٌّ زائل اما الأدب فكنزٌ خالد وحاشا الاسلام في سموّ مقاصده وبُعد غوره في أحكامه أن يقف في تشريعه عند حد الظواهر فيبيح للرجل أن يقتصر في اختيار شريكة حياته . وربة بيته . ومربية أولاده ـ على رؤية وجهها دون تعرف أخلاقها . وأطوار نفسها . ولعل الفقهاء لم يذكروا المجالسة والحديث خشية أن يحصل بين الخطيبين ما يسوءأمره ويقبح ذكره : فان من دأبهم فى فقهياتهم أن يحسموا المشاكل ويسدُّوا الذرائع ويقتلعوا شجرَة الشرّ من جذورها ، أما اذا كانوا في مأمن من الشر والفساد فلا اراهم الا مجوّزين مجالسة الخطيبين ولهم من أصول الدين وقواعده العامة ما يساعدهم على هذا التجويز .

وقد ورد في أخبار السَّلف أن أحدهم كان يزور المرأة ويخطبُها لنفسه أو يعرض لها بالخطبة . بل ان الفقهاء أنفسهم يذكرون في باب الطلاق أن للرجل أن يزور

المطلقة وهى في العدة ويعرض لها بالخطبة والرّغبة في الاقتران بها تعريضاً ولكن ليس له أن يصرح بذلك تصريحاً . فاذا كان يجوز له أن يذاكرها بما يفيد الخطبة فلأنْ يجوز له أن يذاكرها بما يؤدي الى اختبار أخلاقها وآدابها وكيف تحبُّ أن تعيش مع زوجها وتدبر المنزل وتربى الاولاد ـ يجوز ذلك بالطريق الاول . ومجمل القول أن الاسلام يمهدُ للزوجين قبل اقترانهما أن يكونا من أمرهما على بينة وأن يشيّدا بناء بيتهما على أساس الحب واتفاق المشرب وتقارُب الاخلاق

واذا أخطآ الطريق الموصل الى هـذا الغرض الشريف ورأى كلاهما أو أحدهما انه لايحبُّ الآخر ـ لم يسدَّ الدين الاسلاميُّ فى وجوههما باب الخلاص بل شرع لهما الطلاق والتسريح باحسان . واذا قلنا ان الطلاق في الاسلام مشروع كان معناه أنه مباح لا أنه مطلوب ومستحب للمسلم أن يفعله . الطلاق مباح كما أن السفر من بلد الى بلد مباح . ولكن كثيراً ما حرم على المسلم أن يسافر من بلده اذا كان في سفره ضرر يلحقه أو يلحق أحد الناس . وهكذا الطلاق : هو مباح لكنه ينبغي أن يحكم فى ايقاعه الحقُّ والعدل والمصلحة . لا النزق والهوى ونزوع النفس وحبّ الانتقام . فاذا كره أحد الزوجين الآخر كان عليـه الصبر والتحمل . فقد يأتي زمن يتحابّان فيـه ويتجدد بواعث للالفة والاتحاد . وإلا فإنا اذا استحسنا للزوجين أن يتفرقا لعروض نفرة أو قيام شقاق بينهما فلا يقف الأمر عند هذا الحد بل قد يكره كل منهما قرينه الجديد .فيطلقه ثم يتزوج بآخر وهكذا ولا ريب ان هذا يؤدي الى خراب البيوت وفساد أمر العائلات وضياع الاولاد ويتبع ذلك انحطاط شأن الامة التى يفشو الطلاق بينها على هذه الصورة

ونرجع الآن الى تلك الفتاة التى لم تجد فى زوجها ما يحببه الى قلبها :

نقول لهـا كان عليك من أول الامر أن تحتاطي فتتزوجي من تعلمين أنك

ستحبينه . أما وقد قضي الأمر ولم تحبي زوجك فاصبرى بل لا نريد لك أن تسعى في الخلاص منه بالطلاق . اللهم إلا اذا خفتما أن لا تقيما حدود الله وان تقعا في المعاصي . فيوشك حينئذ أن يجوز لكما ذلك

بقيتْ صورةٌ واحدة : وهى هل يجوز لتلك الفتاة التي لم تحب زوجها أن تبقى معه زوجة شرعية . ثم تحب آخر وتعلق به علاقة غراميةً

نقول لها لا . هذا لا يجوز .

تقول : وما أصنع ؟ فان الحب قسْرِي والقلب ليس باليد . نقول لها : هذا لا يجوز قطعاً . يحرّمه الدين . وتنبو عنه الفضيلة .

ثم تلحّ وتقول : كيف أصبر على زوج لا أحبه . واصبر عن صديق أحبه ؟

نقول : تصبرين على هـذه المصيبة كما تصبرين على سائر مصائب الدنيا وآلام هذا العالم :

تصابُ عينكِ بالعور فتصبرين .

يموت ابنك الوحيد فتصبرين .

يسرِق اللصّ جواهرك فتصبرين .

اصبري أيضاً على زوج لاتحبينه . وعفّي عن حرام تشتهينه . وفى آدابنا معشرَ المسلمين الدينية والتقليدية أنه يجوز لك أن تبرئي زوجك من كلّ حق أو مال لك في ذمته ثم هو في مقابل ذلك يطلقك . فتتزوجين بآخر تحبينه ـ يجوز لك الاسلام ذلك ولا يجوز لك أبداً أن تبقي زوجة لزيد وعشيقةً لعمرو . فعليك اذا أصبت بمثل ذلك أن تعفى وتصبري ولا تَقلَقى وتضجري .

وان الدين الاسلامىّ راعى القلوب وتقلبها فشرع للمسلمين الحجاب : فلا تُبْدي المرأة زينتها ولا تعترض للرجال ولا تختلي بالأجانب ، كلُّ ذلك ليبقى

قلب المرأة بيدها ، ويسلم حبَّها لزوجها . بل غلا المسلمون في الحجاب في القرون الوسطى والاخيرة الى أبعد من هذا : فاستحسنوا أن لا يكون خروج المرأة من خدرها الاَّ الى قبرها . كل ذلك اعانة لها على الوفاء لزوجها . ومن أجل الابقاء على عفتها . وشرف أسرتها .

يقول قائل : هذا إذا كانت الفتاةُ التي لم تحبَّ زوجها مسلمةً ، فما قولك اذا كانت مسيحية مثلاً . وأقول في الجواب : اذا كان في الاديان السماوية فرْقٌ فهو في بعض العقائد والعبادات ، أما الآداب فالأديان فيها شَرَع وكلها تحث على الحب والوفاء والاخلاص والعفاف والطهارة . وهذا كل ما يلزم الزوجة إزاء زوجها . ويكفي في الاستشهاد على وجوب العفة في الديانة المسيحية قول الانجيل « من نظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه »

على أن التقاليد في الأديان متعادلة متوازنة . ومسائل التشريع متكافلة متضامنة :

التقليد المسيحيّ ضيق دائرة الطلاق بين الزوجين لكنه وسع دائرة المخالطة بين الجنسين فلا يعذر المسيحي إذا كره زوجه وحاول التخلص منها بالطلاق . إذ يقال له لك من عاداتك وتقاليدك في مخالطة بنات قومك ما يكفل لك اختيار زوج ترضاها في جمالها وآدابها . اما وقد قصرت في الاستفادة من هذا التقليد فاصبر على ما تراه من زوجك صبر الكرام .

والتقاليد الاسلامية أمرها على العكس : ضيقت دائرة المخالطة بين الجنسين لكنها وسعت دائرة الطلاق بين الزوجين فاذا لم يهتد المسلم الى زوج صالحة بسبب صعوبة التعرف والاختيار ورأى أن حياَته مع الزوج البغيضة أمست حياة نكد . وكيد وكمد . كان له أن يطلقها ويسرحها سراحا جميلا . والسراح الجميل

هو الذى لا يكون معه ايذاء . ولا إضرار ولا بخْسُ حق ولا إفشاء سر

ففتاتنا التى ذكرنا أنها لم تحب زوجها إذا كانت مسيحية كانت كأُختها المسلمة عليها أن تصبر وتعفَّ وتُلابس زوجها على علاته . ولا تخون عهده مهما أرادها شيطان الهوى على الخيانة .

ولكن هناك بعضُ الفضلاء من الكتاب المسيحيين سمعناهم يضربون على نغمة فى (الزواج والحب) غريبة الشكل . مشتبهة الغرض . أشهرهم فى ذلك الكاتب العصرى الرشيق (جبران خليل جبران) فقد كتب قصة خيالية عن امرأة سماها (وردة الهاني) قال انها أبغضت زوجها الشرعى فهربت منه وأوت الى زوج غير شرعى كانت تحبه . ثم ساق القصة وأفرغها فى أسلوب يُعطى فيه الحق للمرأة المذكورة . ويشير الى فضل ناموس الحب وأنه مقدس وطبيعي ثم يعرض بجوْر الشرائع التى تحظُرُ على النساء أن يفعلن مثل هذا الفعل .

ولا يخفى أنه لا يقصد بالشرائع الا الشرائع السماوية التى أشرنا الى ما قررته من الآداب في مسألة « الزواج والحب »

هذه الفكرة فكرة السماح للمرأة أن تستسلم لعواطف الحب غير الشرعى الذى يخالط فؤادها ــ لا نُراها تلتئم مع مصلحة الاجتماع البشري . دع عنك مُنافاتها لتعاليم الاديان السماوية الصريحة .

الاجتماع البشريُّ يتألف من العائلات . والعائلات تستقل في كيانها بالثقة والاخلاص المتبادل بين الزوجين . فاذا قلنا للمرأة : استسلمى لعواطف الحب الجديد واتركي زوجك الذي لا تُحبينه سعيا وراء صديق آخر تحبينه ــ تفككت الروابط العائلية . وضعفت الثقة الزوجية . ولو وقف الامر عند هــذا الحد لهان ولكن المرأة التى أوت الى حبيبها قد تعود فتكرهه لبواعث طرأت لم تكن في

الحسبان فتشرد منه الى حبيب آخر . وهكذا بحيث لا تصل هـذه المرأة العاملة بشريعة الحب الى شفير قبرها مالم تعرف عشراتٍ من الرجال . فما الفرق بينها وبين البغي إذن ؟ وكيف لا تكون هـذه الاخيرة أهدأ بالا . وأطيب عيشا . وأ كثر راحة . وأخف ضرراً على الهيئة الاجتماعية من الاولى ؟

إن هـذه الفكرة الملعونة سمعناها من غير ما واحدٍ من فضلاء الكتّاب المسيحيين . وربما كان من آثارها ما جاء في مقالة لاحدى الكواتب السوريات : « إن الحب ألذ من الشرف » فقامت قيامة قرّاء مقالتها عليها . وكلفوها أن تفسر مرادها بما ينطبق على الآداب الدينية ففعلت .

هذه الفكرة أو هذه المشكلة قد يعسر حلها اذا عرضناها على الديانة المسيحية أما بالنظر الى الدين الاسـلامي فيمكن أن نستعين على حلها بشريعة الطلاق التى أباحها فيقال للزوج إن من الشقاء ونكد العيش أن تضم اليك امرأة لا تحب قربك . فاذا طلقتها وتزوجت بزوج آخر زواجاً شرعيا كان أولى من أن تهيم على وجهها في كل واد . وتعرض الهيئة الاجتماعية هي ومثيلاتها للانحلال والفساد .

وقد يقولون ماذا يضر المرأة التي تخالط الرجال أن يكون لها زوج شرعى ثم تتخذ أصدقاء غيره تحبهم كما يحب الرجل صديقه بل ماذا يكون عليها إذا أحبت صديقها حبا لا تشعر بمثله نحو زوجها بشرط أن لا يشغلها هذا الحب أو هذه الصداقة عن القيام بالحقوق الزوجية والاعمال المنزلية وكثيراً ما وجد المرء نفسه يحب صديقه أكثر من أخيه النسبي فليكن حب المرأة لأصدقائها من هـذا القبيل . نعم ولكن نحن لا نعاتب الكتّاب الذين يقدسون هذا النوع من الحب ولكن نعاتب اولئك الذين يجوزون للمرأة المتزوجة أن تستسلم لعواطف حب لا يرضي زوجها لو اطلع على حقيقة أمره . حب يكون من أثره استثقال زوجها

اذا حضر حبيبها وحرصها على الخلوة به كلما سنحت لها فرصة . هذا الحب هو الذي نذكره ويريد بعض الكتاب أن يبرره ويجد له مسوغاً من النواميس الطبيعية والاقيسة المنطقية . وان هدم بذلك أدباً دينياً . وحكما عقليا وتقليداً قومياً .

من أين جاءت فكرة هذا الحب المشؤوم الى عقول اولئك الكتاب الافاضل ودارت على أسنان أقلامهم وتسربت الى ثنيات أفواههم ؟

كنت أتساءل هذا السؤال حتى اتفق لي أن قرأت قصة باللغة الفرنسوية للكاتب الفرنسى الشهير « جوى موپاسان » وصف فيها التأثير السيء الذي أحدثته الثورة الفرنسوية الكبرى فى نفوس الفرنسويين نساء ورجالا وكيف أن طعن الكتاب الذين أججوا نيران تلك الثورة على الاديان حط من شأن هذه الاديان ومحا أثرها من النفوس حتى أدى الامر أخيراً الى امتهان الرابطة الزوجية المقدسة وزعم أن الاجتماع البشري ـ مهما احتاج في حسن انتظامه الى هذه الرابطة ودوامها ـ لا ينبغي أن يخلو من الحب الفاسد الذي يتوقف عليه طيب الحياة!!

هذا المعنى أفرغه الكاتب الافرنسى في قالب حكاية لا أعلم ان كانت واقعية أو خيالية لكنها بالجملة تدل على مبلغ إفساد الثورة وعيثها في الاخلاق وشدة عناية كتاب فرنسا المتأخرين باصلاح الفساد . ولم شعث النفوس وقد خبلها الالحاد .

ولا يخفى ان الغرضَ من تلك الثورة انما هو مُقاومةُ الحكومات الاستبدادية القديمة . ومَحوُ معالمها من الارض . ولما كانت هذه الحكومات معزّزة برجال الدين . وكانت الكنائسُ اشبهَ بقلاع وحصون تحمي الحكومات . وتصد الهاجمين عليها عنها . وتهتف بلسان كهنتها أن الملكية من الله . وأن على الشعب الخضوع والتسليم لها ـ لذلك كله رأى زعماء الثورة أن يبدأوا بالكنيسة فيقوّضوا أركانها

وينقضوا تعاليمها . وقد نالوا منها ومن الحكومة ما أرادوا . ثم غلوا الى حد أن مزقوا شمل العمران القديم . وحطموا كل ماصادفوه أمامهم من تقاليد دينية . وعادات قومية . وآداب اجتماعية . محاولين أن ينشئوا أنفسهم خلقاً جديدا . ويلبسوا أمتهم من الارتقاء الاجتماعي ثوبا قشيبا . غير أنهم لما افاقوا من دهشتهم وصحوا من نشوتهم. نكروا من نفوسهم وأخلاقهم امورا لو بقوا عليها آل عمرانهم الى الاضمحلال . وعزهم الى الزوال . ورأوا ان شيوع الالحاد فيهم مفض الى الاستهانة بالحق والفضيلة والروابط الزوجية والمباديء الأدبية. فقام كتبتهم ينادون بالويل والثبور . ويعملون على إحياء الآداب . وانعاش الفضائل . وكتب جون سيمون في « الدين الطبيعي » و « الواجب » كتابات لفتت الاذهان . الى ما تناسته من مزايا الايمان . ومبلغ تأثير الفضائل. في تقويم الاخلاق والشمائل .

والقصة التي نحن بصددها تمثل الحالة أحسن تمثيل . وقد دار الحديث فيها بين عجوز من أنقاض القرن الثامن عشر تلطخت باوضار الثورة وبين حفيدة لها في ميعة الشباب وطراوة الصبا . وقد تربت هذه الفتاة على حب الخير . ومعرفة الواجب . والتمسك بأهداب الفضائل الدينية . والشرائع الادبية . قال الكاتب ما ملخصه :

القصر مبني على رابية تطل على ما اتصل بها من المزارع والقرى وقد أحاط بها غابة من الاشجار الضخمة . تزيد في مهابة القصر . وتشير الى قدم عهده . ومكانة مشيده . وعلى مقربة من الرابية بحيرات صغيرة متدرجة : بعضها أعلى من بعض . ينصبّ اليها الماء من قمة الرابية ثم يتحدر كشلال من بحيرة الى أخرى. وثم مغارة صغيرة مرصعة بالحصا والاصداف البحرية ، ويخيل للداخل اليها انه يستنشق انفاس سكان القصر الذين طالما اووا اليها . وقضوا لبانات نفوسهم في زواياها .والناظر الى هذا القصر وما حواليه يقرأ نموذجا من تاريخ الجيل الماضي .

واخلاق أهله ومبلغ انهماكهم في اللهو . واغتنام فرص المسرات .

فى غرفة صغيرة من غرف هذا القصر – المغشاة جـدرانها بتماثيل مختلفة – رعاة يغازلون راعيات . ونساء يحملن بأيديهن السلال . وفتيان حسان الوجوه يعدو بعضهم إثر بعض – في هـذه الغرفة امرأة بلغت من الـكبر عتيا يحسبها الناظر اليها ميتة لطول سـكونها وشدة نحولها . وقد استلقت على مقعد طويل . وأرخت على جانبيه ذراعين . تخدد لحمهما . ونشز عظمهما كأنهما ذراعا مومياء مصرية

وكانت هذه العجوز ترسل من وقت الى آخر أشعة نظرها في أعماق الغابة كأنها تبحث عن أيامها الخالية . وتستعيد ذكرى ما قضته من مسرات الصبا ونزعات الشباب . وكان يهب أحياناً نسيم لطيف من النافـذة المفتوحة بجانبها فتعبث بشعـرها الأبيض المنتشر حول جبينها المغضن . والمملوء بالتذكارات الماضية

وفي جانب مقعدها مقعد آخر منجد بالسجاد الثمين . جاست عليه فتاة . أعصرت أو كادت (أى دخلت في عصر الشباب أو كادت تدخل) ذات شعر ذهبيّ . وقد جدلته وأرسلته ضفائر تماوج على ظهرها . وهي مكبة على تطريز ثوب نذرته ليكون غطاء يسدل على مذبح الكنيسة

وكانت يدا الفتاة تتحركان فى دائرة ضيقة من شغلها . أما عيناها فكانتا تجولان في دائرة لا حدّ لها من التصور والافتكار

أدارت العجوز رأسها الى حفيدتها وقالت :

— ماري ! اقرأي علي شيئاً مما فى هذه الجرائد

فتناولت الفتاة جريدة من تلك الجرائد المتراكمة على المنضدة . وجعلت تقلب صفحاتها وتجيل نظرها في عناوينها . ثم قالت :

— لا أرى الا مسائل سياسية . ومشاكل دولية . فهل تريدين أن أقرأ لك شيئاً من هذا القبيل ؟

— ولكن الا يوجد فى هذه الجرائد شيء من أخبار الحب ؟... كأن الحب مات في أرض فرانسا

فبحثت الفتاة طويلا ثم قالت :

— دونك هذا العنوان « حادثة غرامية »

فتهلل وجه العجوز وقالت :

— هات لأرى

فتلت ماري عليها خبراً ماله : أن زوجة أرادت الانتقام من عشيقة زوجها فدسَّت لها سمَّاً أماتتها به . وقد برأها القضاة . وهتف لها الجمهور

فتحركت العجوز في مقعدها مذ سمعت هذا القول . وبدت على وجهها آثار الغيظ والانفعال وقالت :

— ان هذه البراءة في غير محلها . اقرأي لي قصة أخرى .

فقلبت ماري الجرائد طويلا ثم قالت :

— ها هو خبر آخر يقول : ان امرأة خانت زوجها فقتلها . وقد برأته المحكمة . ووقعت هذه البراءة لدى الجمهور موقعاً حسنا

فلم تطق العجوز صبراً مذ سمعت هذا الخبر . وقد عصف الجهل برأسها . فقالت بصوت مرتجف :

— ظهر لي يا ماري أنك أنت أيضاً مجنونة والاَّ فان الله هو الذي خلق الحب في قلوب البشر . فكيف يسوغ لنا أن نستخدم السيف والسمّ في استئصاله .

فجمدت ماري جمود من لم تتأثر بكلام جدتها أو تظاهرت بأنها لم تفهم

مغزاه الشرير . وقالت :

— نعمَ ما فعل القضاة ياجدتى : فان الزوج في القصة الاولى خان عهد زوجه فانتقمت لنفسها

والزوجة في القصة الثانية خانت زوجها ودنست شرفه فانتقم منها . والانتقام على هذه الصورة حق تجيزه الشريعة العادلة

فجحظت عينا العجوز وجعلت ترتعش وتقول :

— من أين جائتكُنَّ هذه الافكار السخيفة ؟ ...

فأجابتها (ماري) بهدوٍّ ورقة :

— ولكن رابطة الزواج يا سيدتى رابطة مقدسة تكفَّل الزوجان حين العقد باحترامها . والمحافظة عليها .

فاستوت العجوز على مقعدها : والتفتت الى حفيدتها وجعلت تهز ذراعيها . وتنتفض انتفاض المقرور (الذي أصابه القر أي البرد) وتقول :

— ويحك أيتها الجاهلة ! ليست رابطة الزواج هى المقدسة . وانما رابطة الحب .

قالت العجوز هذا القول ، وجهرت به مسوقة بسائق من تربيتها الفاسدة . وتأثير تعاليم الثورة ونزغات كتابها . وآراء رجالها . ثم قالت :

— اصغى أيتها البنية الغرة الى امرأة قضت شبابها وحصة من شيخوختها فى معرفة أسرار الناس : نساء ورجالا والوقوف على هواجس نفوسهم . وخطرات قلوبهم . وقد عاشرت ثلاث سُلالات ! عاشرت الآباء ثم أولادهم ثم أولاد أولادهم ، فهي ثقة فى كل ما تقول : ليس الحب والزواج سواء فى الواقع ونفس الامر . يتزوج المرء لكى يؤسس عائلة . ومن هذه العائلة تتألف جماعات البشر فالجمعية البشرية بمجموعها لا تستغنى عن الزواج . ولو فرضنا الجمعية البشرية

سلسلة كانت كل عائلة فيها بمثابة حلقة من حلقاتها . ولأجل لحم حلقات السلسلة بعضها ببعض يلزم أن نبحث دائماعن المعادن المتشابهة كى يتسني لنا إجراء عملية اللحام بينها . فاذا أردنا أن نعقد نكاحاً بين زوجين كان علينا أولاً أن نلاحظ فيهما الطبقة والثروة والاخلاق . اذ لا يمكن أن يكون الزواج الا مرة واحدة فى العمر : ذلك لان طبيعة الكون تقتضي ذلك . أما الحب فلا يكون مرة واحدة فى العمر كالزواج وانما هو الخ الخ .

ومن هنا أخذت العجوز تملي على حفيدتها تعاليم الثورة الشريرة وتنفث فى نفسها الطاهرة سموم العهر والفحش وحب الخنا . ولكن كانت الفضيلة والتربية الصالحة قد تمكنت من نفس الفتاة فلم تتأثر بكلام جدتها بل زوت وجهها عنها وقالت :

— أفٍّ لهذا الكلام الذي تقولينه . وعندى أن الحب مثل الزواج . لا يكون الا مرة واحدة فى العمر . وزوج المرأة هو موضع حبها

فرفعت العجوز يديها المرتعشتين نحو السماء كأنها تريد أن تستنجد بالله الذي كفرت به . وقالت لماري بغيظ وحدّة :

— يظهر أن فطرتك قد فسدت وأصبحت كنفوس عامة الناس . ولم يبق في إمكانك أن تظهري فى مظاهر الطبقات العالية . وتعيشى معيشة العائلات الشريفة .

وأكثرت العجوز على الفتاة من وصف فساد الحالة الاجتماعية السالفة ، وكيف أن الثورة وتعاليمها أصلحت هذا الفساد . ثم ابتسمت ابتسامة مسمومة . ولمعت فى عينيها شرارة من الخبث : خبث معنوى . خبث شخص ملك الريب فؤاده . وغمر عواطفه . وأصبح من أولئك الذين يرون أنفسهم من طينة غير طينة الآخرين . ويريدون أن يعيشوا مالكى أمرهم : فلا يقلدون أحداً فى اعتقاده

ولا يتابعون صاحب رأي على رأيه

ولما لحظت الفتاة ذلك من جدتها وانها تريد أن تفسد فطرتها امتقع وجهها وخنقتها العبرات وقالت :

— اذن يتجرد النساء من الشرف ؟

فتركت العجوز اذ ذاك الابتسام . وعدات عن سخرية « فلوتير » المقلقة الى فلسفة « روسو » المحرقة وقالت :

— وما هو الشرف ؟

وأرادت أن تتم كلامها فأمسكت ماري بيديها الصغيرتين . يدى جدتها المرتعشتين وقالت لها :

— اسكتي ياجدتي اسكتي ! أرجو منك أن تسكتي . ثم جعلت ترسم علامة الصليب على وجهها وصدرها وتصلي الى الله خاشعة . وتطلب منه أن يجعل قلبها طاهراً نقيا ويهبها حباً واحداً أبديا

انتهى ما أردنا الاستشهادَ به من كلام « موپاسان » ومنه يعرفُ القارىء منشأ الفكرة التي يجري عليها بعضُ الفضلاء من كُتاب بلادنا في أمر « الزواج والحب » وكيف أننا اذا غلونا في الحب الى حد أن نفضـله على الزواج تفككت عرى العائلات ، وآل أمرها الى الفرقة والشتات



الانشاء والنشء[1]

لاحظ بعضهم تقصير الشبان وناشئة المدارس في صناعة التحرير وعدم إجادتهم فيها : فاذا أحصيتَ أولئك الطلاب المتعلمين لم تجد في الالف منهم عشرةً يُحسنون الكتابة والتعبير عما في نفوسهم من المعاني والافكار الادبية والاجتماعية والسياسية بعبارةٍ بليغة مؤثرة

قال : ومن الغريب أنه اذا وجد من المصريين من يحسن التحرير تراه لا يميل الى الاكتساب به . ولا يحبّ ان يتخذه له صناعة . واستشهد على ذلك بالجرائد اليومية ومحرريها حتى ان واحدة منها أعلنت منذ سنة حاجتها الى محررٍ مصري فلم يلبّ أحد نداءها .

ولا يخفى أن ملاحظة هذا الفاضل صحيحة باعتبار الاحصاء المذكور وباعتبار نسبة المحررين من المصريين الى غيرهم من الطّراء « الغرباء »

ثم تساءل هذا الفاضل عن السبب ، ولماذا كان الناشئون يميلون الى التوظف أولا واذا زهدوا فيه أحبُّوا أن يكون الواحد منهم طبيباً أو محاميا أو مهندسا أو مقاولا أو سمسارا ، ولا يحبُّ أبدا أن يشتغل في صناعة التحرير ؟ فقال ان ذلك فطريّ فيهم . وان لم يكن فطريا فسببه أن الجرائد التي يمكنها استخدامهم قليلة وفقيرة . والناشيء المصري لا يُرضيه أقلُّ من اثنى عشر جنيهاً من أول الامر . واذا مضت السنة عليه يحاول أن يأخذ العشرين واذا لم يظفر بالعشرين بعد سنة أو سنتين وجد نفسه مغبونا ، وندم على اشتغاله بالتحرير وتركه الاشتغال بالمحاماة واخواتها من الاعمال الحرة التى تغل له من الايراد ما يكفيه ويرفه عيشه ولا يقع تحت حد محدود .

---

[1] كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م

فالسبب اذن في زهدهم في صناعة التحرير وطني اقتصادي . وكان في المجلس بعض الشبان المتحمسين في الوطنية ، فوافق على ان المصريين مقصّرون ، وان المجيدين منهم قلائل ، وانه كان من المنتظر أن ينبغ منهم كثيرون ليعرفوا كيف يفيدون أمتهم ويرشدونها الى طريق منجاتها . وان المصري اذا اشتغل في صناعة الصحافة والتحرير كان أعرف بمواضع الداء ودوائه من غير المصري ، بل أشد حرصاً واخلاصا في خدمة أمته ووطنه . ثم عجب من كون جليسه لم يعرف السبب في هذا التقصير فكان تارة ينسبه الى الفطرة وطوراً يعزوه الى حالة الصحافة الاقتصادية . وفنَّدَ هذا الرأي الاخير بقوله إنه لو نَبَغَ في ناشـئة المدارس من يجيد التحرير ويقدر على التفنن في أساليبه ـ لـكان له مورد للكسب عظيم . ولا ينتظر أن يعين محررا ببضعة عشر جنيها في الجرائد اليومية ثم يقف عند هذا الحد ـ بل ينشيء هو انفسه جريدة ، فان البلاد لاتزال في حاجة الى جرائد كبرى غير الموجود منها الآن . واذا انشأ تلك الجريدة وثبت على خطة معينة أشرعها لها كان له من الكسب والربح ما لغيره من أصحاب تلك الجرائد . أو أنه يكتب للجرائد بأجرة تناسب مقدرته ونبوغه . فان الجرائد لا تبخل على المجيد اذا وجد .

ثم قال : إن السبب عندي في تقصير المصريين فى التحرير هو خارجيٌّ سياسيٌّ وان هناك عوامل متسلّطة على المدارس وناشئتها تُميت فيهـم الميل الى الصحافة والتحرير . وتخنق فيهم هـذه الروح الشريفة لو وجدت في بعضهم وكان مستعداً لها بفطرته

والوسيلة التي اتُّخذت في أزهاق هذه الروح هي اماتةُ اللغة العربية في نفوس التلامذة أو تدريسُها فى المدارس تدريساً قاصراً . وعدم الـكفاية في معلّميها الا

قليلا . وذلك القليل لا يمكنه أن يعتني بتلامذته الكثيرين الاعتناء اللازم ويُصلح ما ينشئونه ويكتبونه . فقد يُعرض على المعلم مثلا سبعون كراسا في فن الانشاء ويكون ملزماً أن ينظر فيها كلها ويبيّن أغلاطها . ومن اطلع على تصليح المعلم لتلك الكراريس . وكيف يتساهل في بيان أغلاطها ويتعجل الفراغ منها أدرك أوّل وهلة ان عمله لا يقوّم اعوجاجا . ولا يخرج أدباء . ولا محررين أكفياء فالعناية بالعربية قليلة جدا . وطريقة تعليمها ملتوية وأمرها خداج . وهناك عامل أقوى في التأثير من سائر العوامل الاخرى وهو عدم تمكن التلامذة من التمرّن على الانشاء . والتدرب على الاجادة في أساليبه التدرب الكافي . وملكات العلوم لا تنال الا بالممارسة والتمرن كما لا يخفى . فكيف ننتظر أن نرى محررين أكفياء أو كتاباً مجيدين في التلامذة وهم لا يسمح لهم أن يتمرنوا ويمارسوا الكتابة عملا ؟

على أن المدارس العالية لا تعلم فنّ الانشاء ولم تخصّص معلمين لتدريب الناشئة على التحرير والخطابة ــ اعتماداً على أن تلامذتها يكونون قد أتقنوا هذا الفن في القسم التجهيزي

ولكن حظّ هذا الفن في القسم التجهيزى لا يماثل حظ سائر الفنون فيها . وطريقة تعليمه ليست بالتى تؤدّى الى الغاية المطلوبة من تخريج محررين أكفياء يسدّون حاجة البلاد ، على ما حققه الخبيرون . ومدار تعلّم فنّ الانشاء في تلك المدارس في اعتقاد التلميذ انما هو أن يجوز الامتحان فى هذا الفن بسلام . وهو إذ ذاك قلّما يفكر في مستقبله . أو يضع خطة للاعمال التي يزاولها في أدوار حياته فليس ما يبعثه على إتقان فنّ الانشاء وصناعة التحرير . وينبهه الى أنها من أشرف الصناعات . وأبينها أثراً فى خدمة الامة والنضال عن مصالحها . والذود عن حياضها .

حتى اذا انتهى ذلك التلميذ الى القسم العالى ، ودخل مدرسة الهندسة أو الطبّ ، كان زهده فى صناعة التحرير ، ومحاولة الاجادة فيه ـ أشد من زهده فى ذلك وهو تلميذ في القسم التجهيزى .

ولا ينتبه الناشىء بعض الشيء الى فائدة التحرير وثمرات التمرن على الانشاء ـ الا اذا دخل مدرسة الحقوق : ثم قدر في نفسه أن يتعاطى المحاماة . فيأخذ اذ ذاك فى حفظ الكلام الفصيح . وتحدى أساليب بلغاء الكتّاب. ليعرف كيف يحتج ويؤثر في النفوس اذا وقف يوما ما موقف الجدل والدفاع . ولا نُنكر أن بعضاً من هؤلاء قد يأخذ بنصيب وافر من هذا الفن : فن التحرير ـ لكنه في موضوع خاص وشُعْبَةٍ واحدة من شعبه . وليس هذا هو المنتظر من مثله. ومن مدرسة مثل مدرسته . على أن الذنب ليس ذنبه في هذا وانما الذنب لتلك القوة الخفية ذات السلطة الكبرى ، تلك القوة العاملة التى تحول بين الطلاب وبين ممارسة التحرير في كل شعبة من شعبه ـ تخشى أن ينبغ محررون سياسيون في ناشئة المدارس فتنبه أعصاب البلاد تنبها سياسيا . كما تنبهت في الروسية والهند بعد أن نبغ في كلياتهما الخطباء المفوهون . والمحررون المُجيدون .

قام في مصر تلميذ [1] أجاد التحرير والخطابة من الوجهة السياسية فقلق له المسيطرون على البلاد واضطرب أمرهم . وانتكث فتلهم فكيف لو قام في ناشئة المدارس عشرات من مثل هذا التلميذ ؟

أضعفت الحكومة التعليم العربىّ في مدارسها وشوّهت وجهه . ثم أماتت روحه باعلانها انها تطرد من مدارسها كلّ تلميذ يكتب في الجرائد رسائل أو مقالات : تعني أنها تطرد كل من أراد أن يتمرن علي اللغة العربية ويريد الاجادة فيها . فهى تحبّ أن يتعلموا . لكنها لا تحبّ أن يتمرنوا !! وهل هذا في الواقع

(١) هو المرحوم مصطفى باشا كامل

ونفس الامر حبٌّ للتعلم أو حب لعدم التعلم ؟ وما أشبه حبها بحب أبي مالك

يحب المديح أبو مالك ويَفْرَقُ من صِلة المادح

كبِكْرٍ . . . .

ليست العربية والبراعة فيها حفظ قواعدها واستظهار مسائلها . القواعد والمسائل قشور لبابها الاجادة في التحرير والقدرة على تصوير ما يخطر بالبال من المعاني والافكار بعبارة فصيحة صحيحة

وليس لهذا طريق الا التمرن . ولا يكفي في التمرن أن يقال للتلميذ أو المتعلم اكتب فصولا فى مختلف المواضيع . واعرضها على معلمك فهو ينقّح لك ويرشدك الى الصواب من الخطا . ثم ألق هذا الفصل الذى كتبته جانبا واكتب غيره . هذه الطريقة في التمرن عقيمة جداً فيما أحسب . لا ينشط العامل للعمل مالم يعرف ان عمله يعرض على الانظار . ويقع تحت نقد الناقدين المختلفين في الآراء والافكار . هذا العرضُ والنقد يزيد في النشاط ، ويهدي الى سبيل الرشاد في العمل ، ويؤدي غالبا الى الاجادة فيه . طريقة التمرن المفتوحة أمام التلامذة الآن عقيمة جداً . أو هي كالشجرة ليست ذات اكل . وان أُثمرتْ فانما تثمر ثمرةً فجةً . اذا تمرن التلميذ على الكتابة فى الجرائد سمع من الناقدين استحساناً يزيده نشاطاً ، أو استهجانا يدعوه الى اصلاح غلطه وتقويم أَوَده

اذا كتب التلميذ لنفسه لا يلبث أن يَمَلّ ويُعرض عن الكتابة . واذا تمّتْ مدة الدراسة • وحَذَق كل ما يبغي من مختلف العلوم والفنون • ووجد نفسه مقصّراً في العربية والتحرير فيها ـ صعُب عليه أن يشتغل في صناعة ليس بمجيد فيها أو أن يعود الى التمرن عليها خارج المدرسة وهو انما أراد خارجها أن يستفيد مما تعلم لا أن يشتغل في التعلم ويتكبّد عناء التمرن. لاجرم أن تنصرف نفسه الى

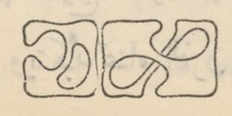
مزاولة الاعمال التي يطيقها بحيث يمكنه أن يكسب مالا من ورائها كالمحاماة والهندسة والطب .

هذا ما أحسبه السبب في عدم إجادة النشء في صناعة الانشاء . وزهدهم فيها .

وهذا التقصير يرجع عليهم وعلى وطنهم بالضرر . لان الوطن عربيّ ولغة سكانه عربية . وهم في حاجة شديدة الى كتاب ومحررين من أبنائه ينشؤن الفصول الطوال في الاقتصاد وتهذيب الاخلاق واصلاح العادات وحثهم على تحسين هيئة اجتماعهم . وكان المنتظر أن يتخرج كلّ سنة من كل مدرسة من المدارس التجهيزية الاربع عشرةُ على الاقل فأين هم هؤلاء الكتاب الاربعون ؟

يقول المسيطرون نخشى أن نمهد الطريق أمام الاربعين فينشز واحد منهم الى السياسة وينشر سمومها في الشعب . فنحن نقضي على الاربعين لاجل القضاء على ذلك الواحد . لكن ألا يعلم هؤلاء أن القضاء على الاربعين ليس قضاءً على الواحد وانما هو قضاءٌ على أمة بأسرها . قضاء على شعب آمن وديع من أعرق الشعوب في المدنية والحضارة . قضاء على شعب له فضل تاريخي على سائر الامم وكان فيما مضى منبعث أنوار الحكمة والفلسفة يُشعُّها الى سائر أطراف المعمور . قضاء على بلاد هي بمثابة الامّ التاريخية لجميع البلاد العربية . أيحسن بنا أن نجتثَّ أصلنا . ونعقّ رحمنا . ونقضي على أمنا ؟

يحكى أن الرُتيلاء (أبو شبث) تلدُ أولاداً فأولُّ ما يفعل هؤلاء الاولاد البررة في مكافأة أمهم أن يأكلوها ويرتاحوا منها ! ! !



عبادة القبر

في الهند ومصر (١)

لم يشدد الدين الاسلامي في النهي عن شيء مثل تشديده في النهي عن تقديس رفات أسلافنا . وقبور عظمائنا . واحترامهم الى حد العبادة كما كان يفعل مشركو العرب وأمثالهم من سائر الامم

قال لنا ديننا : خيرُ القبور الدوارس . ولكننا خالفنا هذ القول . وجعلنا خير القبور المواثل مثول الانصاب . وقد شُيّدت فوقها القباب . تناطح برؤوسها جباه السحاب .

علمنا ديننا الادب في زيارة الاموات : بأن ندعو لهم ونستغفر . ونعتبر بهم ونزدجر . فتخطينا ذلك الى طلب حاجاتنا منهم . واتّكالنا في امورنا عليهم .

علَّمنا أن نقول « اللهم ربّ هذه الاجساد البالية ، والعظام النخِرة » فجعلنا نقول : إنهم أحياء في قبورهم يأكلون ويشربون . وعلينا يتآمرون . وفي شؤوننا يتصرفون

نهى الشارع عن شد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد . فجعلنا نشدُّها الى مساجد تفوق الحصر . ومبثوثة في كل باديةٍ ومصر . بل شيدنا باسم الوليّ الواحد جملة مساجد . نحجّ اليها وننثر النذور عليها . أصبحنا مضغة في أفواه الامم ورجال النقد من علماء الاجتماع والاخلاق : فاذا رأى أحد سيّاح الاجانب المسلمين يطوفون حوالي أضرحة أوليائهم حَكَم لاول وهلة أننا وثنيّون أو مشركون . واننا في صنيعنا هذا نحاكي (الهندوس) في طوافهم حول أصنامهم .

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م

وهيا كل معبوداتهم . ومهما حاولنا ان نبرّىء ديننا الطاهر من وصمة الشرك وأن نحيل الناقدين على براءة القرآن والسنة وعمل السلف ـ لم يعبأوا بكلامنا واحتجاجاتنا . وقالوا : إنّ دين كل قوم ما نراهم يمارسونه بأنفسهم من الطقوس والشعائر . فاذا كان لديهم تعاليم سواها مودعة في كتبهم فانما تلك التعاليم دينُ الأرَضَة والحشرات التي تدبّ اليها . وتطوف حواليها . وليست هي بدين القوم ما داموا غير عاملين بها . ولا منصبغين بصبغتها .

دعنا من نقد الاجانب عنا . وانظر الى المستنيرين من نشئنا تراهم ينقمون منا هذا الغلوّ في تقديس الاضرحة والاموات . حتى كادوا يسيئون الظن في كثير من تعاليم الدين .

تراهم يتجنبون شهود الاحتفالات الدينية : لانهم يجدون فيها ما ينافي المعقول . ولا يلتئم مع صحيح المنقول .

كنت في بعض زمني خالى الذهن من أمر الشيخين الجليلين « الجيلاني » و « الرفاعي » سوى انهما وأمثالهما قوم آمنوا وكانوا يتقون . فهم من أجل ذلك لا يخافون ولا يحزنون . حتى اتفق لي الدخول في زاوية لبعض شيوخ الطريق ثم خرجت منها وأنا أشعر في نفسي بانقباض واستيحاش من هذين الوليين الكريمين :

أطلعوني على تآليف تضمنت ما لا يحسن من القول في (الجيلاني) وأولاده فارتبتُ وشككت . وسمعتهم يذكرون (الرفاعي) في حلقات الذكر أكثر مما يذكرون الله فوقع في خلدي ان الرفاعي ينازع إلهي في الوهيته فاستوحشت وتنكرت . أحسست بهذا التغير في نفسى فهمنى أمره . ولم أجد وسيلة للخلاص منه أمثل مما كان يعتقده السلف في الذين ماتوا منهم : مات في بدر وأُحُدٍ وفي

حرب مسيلمة وفي وقعة الجمل وصفين واليرموك والقادسية كثيرون من أجلاء الصحابة والتابعين . وليس أولياؤنا اليوم بأفضل من صحابتنا أمس . وهـذا والحمد لله موضع وفاق بيننا معشر المسلمين كما اننا على وفاق في أن الدين لا يكلفنا من العقائد الا ما كان كلفه أسلافنا المذكورين . فتكون النتيجة أن الواجب علينا أن نعتقد في أوليائنا في هـذا العصر ما كان يعتقده سلفنا فى الأجلاء من أمواتهم في العصور السالفة .

اذا وصلنا الى هذا الحد من البيان هان علينا الامر وتقلّص من بيننا ظلّ الخلاف وانتهجنا الطريق الوسط في الاعتقاد . وقلنا ان اولياءنا لهم حياة في قبورهم الله أعلم بها وأنهـم كانوا على هدًى يحسن بنا أن نقتدي بهم فيه بحيث لا نبالغ فنرفعهم الى مستوىً من التقديس لم يأذن به الشرع . ولم يدّعه الوليّ نفسه لنفسه .

حقاً إن البدوي والجيلانيّ وأمثالهما يسوءهم جداً أن يروا اخوانهم المسلمين يطوفون حول رجامهم طوافاً لم يرضه الاسلام الا للكعبة .و يطلبون منهم مالا يجوّز الشرع طلبه الا من الله.

ما أشدّ ما يستحيي الاولياء يوم القيامة من ربهم حينما يحاسب الجمّ الغفير من المسلمين على غلوهم في اعتقادهم فيهم وتنزيلهم إياهم منزلة الرب تعالى وتقدس فليتق الله أولئك الغالون ان كانوا للاولياء يحبون .

لم أ كن لأ تعرض لهذا الموضوع الذي لا يستفيد المقدم عليه سوى سوء الظن فيه . لولا كتاب أرسله اليّ فاضل من الاقطار الهندية وكتاب آخر أرسله صديق من مصر . وقد وصف لي كل منهما في كتابه الحالة في قطره . وكيف أن العامة في القطرين غلبوا على شعورهم وحسهم . حتى أوشكوا لا يعرفون لهم إلهاً سوى الاولياء المشهورين في بلادهم . وتمنى الفاضلان المومأ اليهما لو أ كتب في هذا

الموضوع . وأنبه أذهان اخواننا المسلمين فى تلك الاقطار النائية الى أن الاعتقاد في الاولياء على هذه الصورة البشعة لا يجتمع مع دين جعل شعاره الخاص «لا الهَ الا الله »

ما أشد تشابه المسلمين على تباعد ديارهم في هذا الاعتقاد — وما أكثر تهافتهم عليه ؟

فاذا قال أهل بخارى وهم فى أقصى المشرق : ان الملاَّ (فلان) يحمى بلادهم من صولة الروسية أجابهم المراكشيون في أقصي المغرب بانهم كذلك لا يخشون صولة فرانسا ما دام مولاي (ادريس) دفينا فيهم . وعينُه ترعاهم ! !

ياسبحان الله شدَّ ما غفل القبيلان عن رب (الملاّ) و (المولى) ! !

شدَّ ما غفلا عن الآية الكريمة التى تكرَّر عشرات من المرات في كل يوم « إياك نعبد واياك نستعين »

أما مصر فان لمعظم مسلميها شغلا شاغلا فى السيد البدوى . وأمرهم فيه معلوم . ولكننا ما كنا نعلم أن هناك أوليـاء لا يقل شأنهم عن شأنه : فقد قال الفاضل المصري ان في بلدة (أبي تيج) ولياً يسمى (السيد الفرغلي) يسعى الى مولده كل سنة نحو (٣٠٠) ألف (كذا في الأصل ولعل أحد الصفرين زائد) وان له سَدَنةً وخداماً تجبى اليهم النذور والهدايا من كل ناحية . ويتحدثون عن أعمال ذلك الولي بكل غريب وعجيب : من ذلك أن رجلا نذر له جَدْياً ان رزقه الله ولدا . فرزقه الله الولد فأخذ في تربية الجدْي حتى كبر ثم ضنّ به على الولي وأهدى اليه جديا آخر أصغر منه . فأصيب ابنه بالخرس . وأخيراً رأى الوليَّ في المنام فقام له : اذبح الجدي الكبير . فذبحه . فنزل دم كثير من فم الولد وشفي للحال . وما شاعت هذه الحادثة بين الناس حتى صدقوها وازدادوا اعتقاداً في السيد (الفرغلي) واتكالا عليه .

ومسلمو الهند ليسوا أقلَّ من المصريين استسلاماً لأوليائهم، وتعلقاً بهم، واتكالا عليهم. بل لعمري انهم سبقوهم، وأربَوْا عليهم بنشر الدعوة، وارسال الدعاة مبشرين ومنذرين. فقد كان مسلمو جاوة لا يعرفون من أمر الجيلاني أكثر مما يعرفونه من أمر غيره حتى أرسل اليهم أهل (ناقور) في الهند جماعة يدعونهم الى « الجيلاني » وان شئت قلت الى عبادته. وأسسوا لهم على اسمه ثمانية معابد فى ثماني مدائن. وهي هذه : (١) سنغافورا (٢) ملاك (٣) فلفلان (٤) الفوه (٥) تأيفييغ (٦) فادغ (٧) ولي ميدان (٨) سيام. ومن يومئذ أصبح (الجيلاني) يعبد فى جاوه كما يعبد في الهند. ويقام له مولدٌ في كل بلد له فيها معبد أو يوجد فيها ثلاثة من الهنود (التامبل) على الاقل. ويبتدأ المولد في شهر جمادى الآخرة من كل سنة فيتنافس المحتفلون فى اقامة الزينات والانفاق عليها. ويتخللها منكرات. أدناها المسكرات والعاهرات. وفى اليوم العاشر تنتهي الزينة ويطاف بالموكب فيخرجون بملاهيهم وقيناتهم وعلمائهم ويحملون تابوتاً عظيما يسمونه (كودو). ولا تألو حكومتهم الاوربية !! جهداً فى حراستهم. وحفظ نظام موكبهم. لكثرة ما يحدث فى ذلك اليوم من الزحام. ووقوف حركة العربات والترام.

هذه نموذجات قليلة من عبادة القبر فى الهند ومصر. ومثلهما في ذلك المغرب الاقصى وما وراء النهر. وقد يحاكيهم أيضاً مسلمو الافغان والعراق. وربما كان جميع من ذكرنا أشد غلواً فى هذه البدعة من سائر البلاد الاسلامية كبلاد الترك والتتر والمغرب الاوسط والحجاز واليمن. أو أن اليمن أقل غلواً وأشدُّ احتياطاً. ولعل بلادنا الشامية على مقربة من اليمن فى ذلك. فلا موالد ولا نذور للاولياء. ولا طواف حول مقاصيرهم ولا تصرّف فى الكون يروى عنهم. وقولنا هذا انما هو في حق الاعم الاغلب. والا ففي السذّج من رجالنا ونسائنا من يطلبون من

الاضرحة قضاء مصالحهم . وانجاز حاجاتهم. لكنه قليل مغمور نرجو أن يزول مع الزمن بسعى العلماء الفضلاء . كما نرجو أن يعمل الغيورون فى البلاد الاخرى على اصلاح الحال. وتمييز الرشد من الضلال

التربية النفسية

والمقارنة بين كتبها الابتدائية [١]

هذه التربية هي التي تتوقف عليها رجولة الناشيء . أو هي الاساس الذي يبني عليه هيكل سعادته وبناء مستقبله . وقد اتفق الباحثون على أن نقص هذه التربية في الشعوب الشرقية هو الذي أخرها وحط من شأنها ومكّن يد الاجنبي من ناصيتها

وهـذه التربية عسرة جداً . وهي أشق على المربي من أختيها : التربية الجسدية والتربية العقلية ، أما سهولة الاولى بالنسبة اليها فأمره ظاهر . وأما سهولة الثانية فلأنها ترجع الى تقوية العقل بتعليم الولد أصول العلوم والفنون وعرض صور المعقولات على ذهنه وتمرينه على النظر في الاشياء والمقارنة بينها واستنتاج الحكم الصحيح . ولا يعترض المربي في سبيل نجاحه في هـذه التربية الا ضعف عقل الناشيء وبلادته المستحكمة فيه لا سيما اذا كانت موروثة

أما التربية النفسية فان على ممارسها أن يغوص في أعماق نفس الطفل ويتفقد مخادعها ويسير في ظلماتها ثم يعمل على خلاص تلك النفس وانتياشها من هذه الظلمة .

النفس الانسانية ــ والطباع الموروثة والاخلاق المكتسبة تلتفّ حولها ــ

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م

كالريشة في مهاب الرياح المتناوحة . وقلما تسكن هذه الريشة في موضعها ما لم تسكن تلك الرياح ، وتخف سورتها من حواليها .

سهولة التربيتين الجسدية والعقلية أوجد فينا كثيرين ممن يحسنونهما ويربون الاطفال عليهما . أما التربية النفسية فقلما نجد من يحسنها أو يهتدي الى الطرق الموصلة اليها . ومن عرفها علما فانه يجهلها عملا .

يعرف المربي منا مناشىء الغضب وأسبابه وآثاره القبيحة ويفصل كل ذلك لتلاميذه تفصيلا . ثم تراه بعد ذلك كثير الغضب حتى في معاشرة تلاميذه الذين ينهاهم عن الغضب . فكيف ترى هؤلاء صانعين ! أيستفيدون من علم استاذهم ما هو الغضب فيجتنبوه أم يستفيدون من غضبه نفسه فيغضبوا لاقل سبب . بل يا ربما أربوا عليه في الغضب .

علم الاستاذ هـذا كالشجرة لكنها لا تثمر الا الجهل . وهذا غريب في حكم القياس : شجرة التفاح تثمر تفاحا . والعنب عنبا . فكيف اثمرت تلك الشجرة جهلا مع انها هي شجرة علم !

عسر هـذه التربية واضمحلالها في نفوس الآحاد الذين يربون ـ وكلنا مربون ـ أضر بالولدان وحال بينهـم وبين النبات الحسن الذي نتمناه لهم . وبديهي أن نهضة الامة في مجموعها انما تتوقف على احكام هـذه التربية وتقوية الملـكات الفاضلة في نفوس الناشئين

اذا وُجد فينا معلم أو أب مارس الاخلاق عملا ، وحاول أن يأخذ تلميذه أو ابنه بمحاسنها ، ويطبع نفسه على جواهرها ، ويدربه على العمل والمزاولة فيها « لا يكاد يخطو بعض خطوات ومبـدأ السير تحت نظره » حتى تعترضه أمّ الطفل في عمله ، وتضع العواثير في طريقه : معلمه أو أبوه يعلمه الصدق ويكلفه

أن يصدُق ويصدُقُ هو أمامه ـ لكن امه تلقنه الكذب وتحكي له الكذب وتكذب عليه وعلى اخوته وعلى أبيه احيانا على مسمع منه. فكيف نرجو ونأمل أن ينجو الولد من لوث الكذب ويسلم من شر آفته ؟ وهناك اخوة الناشىء وخادمه وخادمته وأقاربه المترددون على منزله واستاذه ورفاقه في المدرسة ومعاشروه خارجها ـ كل أولئك كانوا مسئولين عن أخلاق الطفل ، ونشوء طباعه . فهم الذين يكوّنونها فيه ، ويطبعون نفسه عليها .

انحطاطنا في الاخلاق وفساد التربية النفسية فينا هو الذي حمل رؤساء البلاد وأغنياءها على أن يقذفوا بأولادهم في أحضان المدارس الاجنبية . أو يجلبوا لهم حاضنات أوربيات . أو يستبدلوا المعلمين الأوربيين في مدارسنا بالمعلمين الوطنيين كي يثقفوا أولادنا ، ويأخذوهم بالاخلاق والطباع التي اشتهر بها الغربي

الاهتمام بشأن الولدان وأمر العناية بتربيتهم في الشرق ضعيف جدا . ومن ألم بالمتنزّهات العامة وشاهد أطفال النزلاء وما احتف بهم من ضروب الاهتمام والعناية بملابسهم ومآكلهم وأدوات لعبهم وتسليتهم وكل ما له أثر حسن في تقويم أخلاقهم ـ ثم التفت من جهة ثانية فلم ير شيئا من هذه العناية وذاك الاهتمام في أولاد الوطنيين بل لم ير فى تلك المتنزهات للوطنيين أولادا لتتأتى له الموازنة والمقارنة ـ من شاهد الاول ولم ير الثاني عرف مبلغ الفرق بين القبيلين في توفير هذه القوة التي يسمونها (التربية)

كلام البذاء والفحش والرفث من مُلح الحديث التى لا يُبخل فيها على الناشئين فترى الرجال والنساء فى البيوت والمجتمعات والشوارع والاسواق يرفعون أصواتهم بها على مسمع من أولئك الناشئين الساذجة نفوسهم ، الطاهرة قلوبهم فلا تلبث ان تلوثها وترين عليها رويدا رويدا حتى يسود القلب وتلتوي الطباع

ولا شيء ينبه الوليد ويشغل نفسه بموضوع « الفساد » مثل أن يسمع هذه الكلمات وقد قصد بها ذلك المعنى .

ولذلك ترى الغربيين يشددون النكير على أولادهم في معاشرة أولادنا ومخالطتهم خشية أن يسرى إلى نفوسهم ويعلق بأذهانهم ما يفسد عليهم أمر تربيتهم

وقد حدثوا ان بعض النزلاء كان يمارس هو و ولده الصغير تعلم اللغة العربية وتعرف اصطلاحاتها وتراكيبها وكان لا يسمح له أبداً أن يخالط أحدا من أولاد الوطنيين فاتفق لهما ان مرّا في أحد الشوارع الوطنية فسمع الولد جملة عربية فاحشة مما نسمعه كلما مررنا في الاسواق وتمتهن به الأمّ وقد تبع تلك الجملة قهقهة وضحك شغل بال الولد ، فسأل أباه عن معنى الجملة وكان الاب يعرفها ، فلم يشأ أن يخبره به ولا أن يمتنع لئلا يزيده تعلقا بالجملة وبأمثالها فترسخ في نفسه . فقال له سلني عنها في وقت آخر لاعطيك شروحا عليها وهكذا أخذ يلهيه عنها تارة ، ويتناساها امامه تارة أخرى ، حتى نسيها الولد

وربما عدّ بعض الشرقيين عمل الاب هذا من قبيل التنطع البارد . لكنه بالجملة يدل على شدة عناية القوم بتربية أبنائهم واهتمامهم بأن لا يخلص الى نفوسهم ما يضرّ بها ويشوش عليها أمرها .

ويظهر أثر عنايتهم على الاخص في الكتب المدرسية التى يؤلفونها لهم ويودعونها - من معجبات القصص ومستملح الحكايات - ما يلائم أذواقهم وينطبق على رغائبهم ويكون ملؤه حكمة وأدبا وارشادا .

وقد تنبه المشرفون على أمر التربية في بلادنا الى حسن هذه الطريقة . وانها أقرب ايصالا الى تهذيب الولدان . فأخذ المربّون والمعلمون يؤلّفون كتبا

مدرسية ويودعونها قصصا وحكايات على النمط الذي قلنا ان الافرنج يمشون عليه في ترتيبة ولدانهم

لكننا لم نزل مقصرين فيه عن شأوهم فانك ترى كتبنا المدرسية تتضمن حكايات وقصصا ترمي الى غرض شريف مثل تعويد الناشيء التدبر . والقناعة . والتواضع . والنجدة . والاقدام . والشفقة . ومعرفة الجميل . الى غير ذلك من الفضائل والاخلاق العالية . لكن الوصول الى تلك المقاصد عن طريق تلك الحكايات عسير جدا : اذ أنها لم تفرْغ في الاساليب التي تنبّه نفس الطفل . وتحرّك عواطفه . وأميال قلبه . على العكس من قصص الافرنج فانهم يستدرجون الولدان فيها من حيث لا يشعرون الى ما يريدونه منهم . فالفرق بين الاسلوبين كالفرق بين طريقين أحدهما سهل محفوف بالخضرة والازهار . والآخر وعر يتعثّر السائر فيه بالتضاريس والاحجار . فالطفل يمشي في الاول بارتياح ونشاط ولا يلبث أن يصل الى حيث يقصد . أما شأنه في الطريق الوعر فهو تعب ونصب ، ويوشك أن ينقطع دون الوصول الى غايته

*
* *

ليس الاولاد سواء في حب المدرسة والرغبة في تعلم العلوم بل ان منهم المجتهد النشيط . وأكثرهم المتقاعد الكسلان . فكيف نعمل لنحمل الاخير على الرغبة والاجتهاد في التعلم وتحبيب المدرسة اليه .

الضرب والقهر لا يُجدى نفعا وان كان له نفع فهو تلويث نفس الناشيء بالخمول والذلّ . أو التمرّد والعقوق . فمالنا اذن الا أن ننصح له بلطف ووداعة ونقصّ عليه من حكايات المجتهدين من أترابه ما يلقي في نفسه حب العلم ويتخذ من هؤلاء الاتراب قدوةً يتمثّل بها ويعمل على شاكلتها : فقُصّ عليه أولا هذه المحاورة لنرى ما اذا كانت تؤثر في نفسه التأثير المطلوب . أولا تؤثر لما هي عليه

من التكلف وركاكة الاسلوب : كان صبحي ولداً طائشا وقد بلغ السنة التاسعة من عمره من دون أن يبتدىء في تعلم القراءة . وكان أبوه يُلحُّ عليه أن يذهب الى المدرسة وكان يَعِدُه تارة ويهدّده تارة أخرى . وصبحي لا يغتر بوعد ولا يبالي بوعيد . وفي يوم من الايام كان يلعب بالكرة في الساحة أمام منزلهم واذا صديقه فريد ـ الذي اعتاد أن يلعب معه ـ يحمل كيسا تحت ابطه وقد مر من امامه من دون أن يكلمه فقال له :

« صبحي . صباحك سعيد يا فريد

فريد . أسعد الله صباحك وأدام انشراحك

صبحي . الى أين تذهب الآن يا أخي وما الذي أراه تحت ابطك ؟

فريد . أنا ذاهب الى المدرسة وهذه كتبي وأدواتي

صبحي وماذا تصنع هناك ؟

فريد . أتعلم الآداب والعلوم وأستفيد الدروس النافعة

صبحي. وما هذه الدروس ؟

فريد . الدروس كثيرة في علوم مختلفه فاننا نتعلم اللغة العربيـة واللغة الانكليزية والحساب والجغرافية والاشياء والخط وغير ذلك.

صبحي . عجيب وهل فكرك يسع كل هذه الاشياء وكيف تحفظونها مع كثرتها ؟

فريد . هذا هين لمن التفت اليه فان من جد في طلب شيء حصل عليـه .

صبحي . حقيقة ان في المدرسـة فوائد عظيمة. لابد أن أقول لابي يدخلني المدرسة لاتعلم العلوم والآداب فاني الآن مهمل لنفسي .

فريد . وما الذي أخرك الى الآن عن طلب العلوم ؟

صبحي . ماأخرني الا الكسل أما الآن فلا بد من مرافقتك ان شاء الله في دخول المدرسة وسأخبر أبي بذلك . السلام عليكم

فريد . وعليكم السلام »

هذه الحكاية في الحث على التعلم وحب المدرسة قلما تؤثر في نفس الطفل التأثير المطلوب . وهي وان كانت في صورة محاورة أو قصة لكنها لا تتعدى أسلوب الكلام الذي يكره وليّ الطفل على مسمعه في مثل هذه الحالة فهو يقول له ان المدرسة تعلمك الآداب والعلوم النافعة كالعلم الفلاني واللغة الفلانية ثم يقول له وهذه العلوم وان كانت كثيرة يابني لكن من جدّ وجد . أما الكسل فانه يحول بينك وبين هذه العلوم فتُحرم فائدتها الى غير ذلك من الكلام الجافّ الذي يثقل على سمع الناشيء وتتجافى عنه نفسه . وان ساقه الى المدرسة وحمله على تحصيل العلوم فيها فانما يكون ذلك بمثابة سوق العصا له فهو لا يشعر بتقلص سلطتها عنه حتى يرجع الى الكسل والزهد في المدرسة وعلومها .

لا ترجع الانفس عن غيها مالم يكن منها لها زاجر

* * *

وان اتفق وكان لك ولد كسلان يكره المدرسة والتعلم فقصّ عليه قصة (صبحي) المذكور لكن في قالب آخر وأسلوب شعري يستهوي لبّه ويؤثر في نفسه فتقول : كان عند والد صبحي خادم وهو الذي كان يربي صبحي منذ طفولته وكان ذلك المربي شيخا هَرِما . ولما بلغ الولد السنّ الذي يلزم فيه ادخاله المدرسة قال والده لذلك المربي خذ صبحي الى المدرسة وسلمه الى المعلم وأوصه بالعناية به فأخذه من يده وسار به نحو المدرسة. وكانت المدرسة في ضواحي المدينة فسلكا اليها من طريق مظلل بالاشجار الكبيرة وعلى جانبيه المروج الخضراء ترعى فيها

القطعان • حول الجداول والغدران • وكانت الطيور تغرّد على أغصان الاشجار التى كانا يسيران تحتها • لكن كل هذا ما كان ليلتفت اليـه صبحي الصغير أو يُظهر الابتهاج به بل كان يمشي وهو مُطرق مفكر يتنفس الصعداء من وقت الى آخر : لانه كان خائفا من المدرسة التي لم يكن دخلها من قبل • فلحظ مربيـه منه ذلك وفطن لما خامر قلبـه من الخوف والرعب. فوضع يده على كتفه وقال له : أراك ياصبحي مضطربا قلق البال لعلك خائف من المدرسة ألا تعلم أنني أتمنى من كل قلبي أن يدخلني والدك في المدرسة مكانك

فرفع صبحي رأسه اليه وصرخ بهيئة المتعجب : أنت ياعمّ مع كبر سنك تريد أن تدخل المدرسة ؟ فقال له نعم أنا . ولو كنت أعرف الكتابة وقليلا من الحساب لما كنت خادما جاهلا كما ترانى الآن . وطالما قال لى والدك لو كنت أعرف الكتابة والحساب لاعطاني مرتباً شهرياً أكثر مما آخذه الآن بأربع مرات . بل كان يمكنني أن أفتح دكان عطارة وتأتيني الارباح بلاحساب . ولكن اتفق من تعاستي . ان التعليم في زمن حـداثتي . لم يكن منتشراً كما هو الآن ولم يكن في المدينة مدارس لتعليم أولاد الفقراء والمعوزين مجانا . ولو كان يوجد في هـذه المدينة اليوم مدارس ليلية لاجل تعليم الكبار أمثالي لكنت تعلمت فيها وتخلصت من عار الجهل والامية.

آه لو كنت ترضى يا ابنى أن تشتغل مكاني بعمـل القهوة وتريحنى من هذه المكنسة الكبيرة التى لا تكاد تفارق يدي وتعطيني كيس الكتب التي تحت ابطك فأذهب مكانك الى المدرسة ـ لورضيت ذلك عملت معروفا أشكرك عليه ماحييت

عندها تنبه صبحي فنظر الى كيسه الجديد الذي ما كان يظن أن له كل هذه المنزلة في القلوب . ثم أعاد نظره الى وجه المربي فوجده مكتئباً حزيناً . وكانا اذ

ذاك خرجا من الطريق المظلل الذي كانا يمشيان فيه . وتراءت لهما شرفات المدرسة البيضاء المتلألئة بأشعة الشمس .

وكان صبحي صامتا يفكر في كلام مربيه . ومن نظر الى هيأة وجهه اذ ذاك ظنه يفتش عن شيء ضائع فى رأسه .

ثم صرخ صرخة فرح . وأمسك بذراع مربيه وقال له أتعرف ياعم ؟ اني أريد أن أجتهد في تعلم القراءة والكتابة حتى اذا تعلمتهما جيداً أعود اليك فأعلمك مما تعلمت . وعلى هذه الصورة لا تكون محتاجاً الى الدخول في المدرسة . ها أنا ذاهب اليها مكانك .

فتأثر المربي من هذه الفكرة الجميلة التي خالجت نفس صبحي . ثم عانقه قائلا : تعلم واجتهد ياعزيزي فان العلم سينفعك كما ينفع جميع المتصلين بك والمطيفين حواليك

ثم دخل صبحي المدرسة مبتهجاً مسروراً .

وعاد مربيه الى الدار حيث يهيء القهوة ثم يتفقد الاصطبل فيضع علفاً للحصان ومرت على ذلك شهور . ونسى الخادم الهرم كل مادار بينه وبين صبحي الصغير من الكلام

ففي ذات يوم بينما كان قاعداً على كرسي في ساحة الدار يستريح من عمل أتعبه منذ الصبح . وكان اليوم يوم جمعة واذا بصبحي يحمل بين يديه الطاولة الصغيرة واقترب من مربيه فوضعها أمامه . وقدم له دفتراً وقلماً ودواة وقال : أتريد أن أعلمك الكتابة ؟ فقال له كيف يا بنيّ لا أريد ؟ اني أتمنى ذلك من كل قلبي . أنت اذاً مانسيت الحديث الذي جرى بيننا على طريق المدرسة في الربيع الماضي . لكنك يابنى لاتعلم الصعوبة التي يقاسيها من كان في سني . ورأسه جامد مثل رأسي . فأجابه الولد مهما كنت أنت يابس الرأس لأظنك مثلنا نحن الاولاد

الصغار : فان معلمنا يقاسي في تعليمنا مشقة كبرى . فهيّا بنا ولا يلزم أن تستصعب شيئاً . وسأجتهد في أن أتذكر كيف كان يعلمني معلمي وأعلمك مثله . أمسك هذه الورقة البيضاء فقد كتبت لك في رأسها سطراً فاتخذه قاعـدة واجتهد أن تكتب مثله .

وهكذا في كل يوم جمعة كان صبحي الصـغير يعطي درساً في الخط لمربيه الكبير • عدا الدرس القصير الذي كان يعطيه اياه في الليل قبل أن يذهب وينام في سريره وكان يصلح له أغلاطه على ضوء المصباح • وكان يكلمه أحيانا بنفس اللهجة التي كان يسمعها من معلمه وهو يعلمه . وكان يشعر في نفسـه بفخر وتيه يليق بمن كان في سنه

ولم تمض الا أيام قلائل حتى نجح ذلك التلميذ فكان يعرف أن يقرأ بسرعة ويعمل الاعمال الحسابية الاربعة

وكان يباهي بمعلمه الصغير . بقدر ما كان هذا يفاخر بتلميذه الكبير . وكان يكرر لصبحي الشكر من وقت الى آخر . ويقول له أحياناً ان الحياة في هذه الازمان أحسن منها في الازمان السالفة . ونشء هذا العصر هم بلا ريب سعداء .

انتهت قصة صبحي وانتهى بها المثال الذي أردنا أن نقارن بينه وبين المثال الاول الذي وردت فيه قصة صبحي نفسه لكنها بنمط آخر وأسلوب مختلف : فموضوع القصتين واحد وهو تربية نفس الولد وتحبيب المدرسة اليه واقناعه بأن العلوم التي يتلقاها فيها هي عماد سعادته والسبب في طيب حياته .

لكن الاسلوب في القصة الاولى هو الذي يتوخاه المربون والمعلمون والمؤلفون للكتب الابتدائية في بلادنا في تهذيب ولدانهم . والاسلوب في القصة الثانية هو ما عليه العمل في أوربا في كتبهم المدرسية . والفرق بين القصتين ـ وايّهما اشد

تأثيراً وأقرب ايصالا للغرض المطلوب ـ ظاهر

ـ والسبب في تقصيرنا عنهم أننا بعد مبتدئون فى سلوك هذه الطريقة التعليمية التي ساروا هم فيها منذ سنين طويلة .

ومنذ سنوات كان الطفل لايرى بين يديه كتابا يتمرّن فيه على القراءة ويتدرّب على صور الحروف ونقوش الكلم ـ سوى القرآن الكريم

فكما كان المجتهد المطلق ـ وهو أكبر رجل في الامة ـ يحدق نظره في آيات القرآن لاجل ان يستنبط منها الاحكام كان الطفل في الوقت نفسه ـ وهو أصغر عضو في الامة ـ يحدق نظره في القرآن لاجل ان يستخرج من آياته صوراً للحروف والكلمات يودعها نفسه ويقيس غيرها عليها

فانظر كم كانت وظيفة القرآن عامة شاملة . وكم كان المسلمون يعتمدون في جميع شئون حياتهم ـ مهما كان جنسها ـ على هذا الكتاب السماوي الكريم .

ثم عرف عقلاء الامة في هذه الازمان الاخيرة مبلغ الخطأ في قَصْر نظر الطفل على القرآن وحده لاجل تعلّم نقوش الحروف والكلمات . أو ارادة ان تنطبع نفسه على الفضائل والملكات . وانه سبحانه ما أنزله لمثل هذا الغرض . وأخذوا من يومئذ يضعون كتبا ابتدائية لأجل أن يتعلّم الطفل من ثناياها القراءة ومحاسن الخلال . وأضافوها الى دراسة القرآن . فيتناول الطفل من كل منهما الفائدة المنتظرة منه . والا فان القرآن وآياته ـ التي تعلوعن أفهام المجتهدين أحيانا ـ قلما يمكن أن تؤثر في نفس الناشىء الساذج فتهذب نفسه وتكوّن ملكات الاخلاق والآداب فيه لاسيما اذا أخذ فى تعليمه على الصورة التي نعهدها : وهي العناية في أن يجوّد النطق بكلمات القرآن فحسب

أما الكتب التي تؤلف لاجل تعليم القراءة وذكرنا منها النموذجين المذكورين

على اختلافهما في قرب الايصال — فان ما أودعته من الحكايات والامثال المراعى فيها ذوق الاطفال ودرجة عقولهم ـ خيرُ موصّل الى تهذيبهم وطبع نفوسهم على الفضائل والآداب : ولابد أن نصل يوما مامن الاجادة في هذه الطريقة التعليمية الى الغرض المطلوب . مع الاستمرار في أخذهم بالقرآن الذي يحفظ اللغة على الالسنة والدين في القلوب .

مكتوب ولا كاتب[1]

نريد بذلك الكتب والتآليف المتداولة بين أيدي الناس ولا يعرفون لها كاتباً أو مؤلفاً . أو أنها قد تعزى الى كاتب ثم يكون هناك ريب في نسبتها اليه . وقد وجد من هذا القبيل تآليف وقصص وقصائد نادرة في بابها . وهى غفل من نسبتها الى أربابها . فتارة يعلق البحث بما يصح أن يكون سبباً من أجله تكتم المؤلف وفضل ترك الانتساب للكتاب . وتارة يحار الذهن في أن منثوراً أو منظوماً كهذا كيف تبرأ منه صاحبه وطاوعته نفسه أن لا يجعله مفخرة من مفاخر حياته يحفظها له التاريخ . والمرء مفطور على الحرص على آثاره والاحتفاظ بنسبتها اليه . كما هو حريص على أولاده فلا تطاوعه نفسه أن يتبرأ من أحد منهم أو يسقطه من بين أولاده وأحفاده مهما كان ضئيلا خاملا . أو زَمِنا عاجزاً . وقد اعتذر بذلك أبو تمام مذ قيل له ما ضرّك لو حذفت من شعرك تلك الابيات الركيكة في أساليبها التافهة في معانيها فتخلص قصائدك منها وتصون سمعتك عنها ؟ فأجاب بأن أشعار الشاعر كاولاده والولد محبوب مهما كانت حالته .

فمن أشهر تلك الكتب التي جهل صاحبها أو شك فيه — كتاب « الفقه

---

(١) كتبت سنة ١٩٢٥ ﻫ و١٩٠٧ م

الاكبر » والمراد بالفقه هنا علم التوحيد . وسماه أكبر لان موضوعه أشرف من موضوع فقه الفتاوى والفروع . يعزى هذا الكتاب الى الامام الاعظم أبى حنيفة النعمان المتوفى سنة ١٥٠ من الهجرة . وقد نجد بعض نسخ مخطوطة من الكتاب ولا نجد عليها اسم المؤلف لا أبى حنيفة ولا غيره .

وفي هذا الكتاب مسألة كلامية لم ينطبق التعليم فيها على ما هو المشهور من مذهب أهل السنة والجماعة . وهى مسألة نجاة أبوى النبي صلى الله عليه وسلم فكأن مقلدى مذهب أبي حنيفة استبعدوا أن يعلم الامام هذا التعليم البشع في حق الأبوين فانكروا أن يكون الكتاب من تصنيفه بالمرة .

وبعضهم حقق نسبته اليه وقال إنه وقع فى التعليم تحريف وأصل العبارة « ما ماتا على الكفر » فسقطت « ما » الاولى من قلم الناسخ وصارت العبارة « ماتا » . والله أعلم . ومن غريب الاتفاق أن يكون للامام الشافعي كتاب بهذا الاسم « الفقه الاكبر » وقد شكوا في نسبته اليه أيضاً وذهبوا الى أنه من تأليف بعض أكابر العلماء . والكتاب فيما ذكروا جيد جداً

ومن تلك الكتب المشكوك في نسبتها كتاب (نهج البلاغة) الشهير . والمشهور بين أهل الفضل انه من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب . وأنكر بعضهم أن يكون من كلامه وزعموا أن نسبته اليه كذب عليه إذ كيف يعقل أن يصدر منه رضي الله عنه السب الصريح والحط على السيدين أبي بكر وعمر . قالوا وانما هو للشريف أبي القاسم علي بن طاهر المرتضى أو أخيه الشريف الرضي البغدادي جمعه من كلام أمير المؤمنين . وقد قال الذهبي فى ميزان الاعتدال « ومن طالع كتاب نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين » وذلك لما فيه من السب والحط من قدر الصحابيين الجليلين

والشك فى نسبة هذين الكتابين الى الامامين يجر الى الشك في نسبة كثير من الكتب الى أربابها . وما ذكروه من السبب الذي بعث الشك في نفوسهم ليس هو فى الواقع ونفس الأمر سوى جعل عقولهم عقالا لما تشتت من العقول . ونسخة صحيحة يجب أن تطبق عليها جميع الاصول . مع أن الامر بالعكس وعلينا أن نتدبر ما نقل عن الامامين في الكتابين ونتعرف الحقائق التي بنينا عليها رأيهما . وولدا منها تعليمهما . فاما أن نقتنع ونرجع اليهما . أو لا . فنقلد غيرهما ، من دون أن ننعي عليهما .

وكل القصص التى ألفت في الاسلام لا تكاد يعرف لها واضع . ولئن كان يوجد منها التافه الحقير ــ فان منها النفيس الذي يفاخر به : كقصة عنترة وألف ليلة وليلة فالمعروف صاحبه من تلك القصص المتداولة ــ « قصة فيروز شاه » وهى للمولى صالح بن جلال ترجمها بالتركية للسلطان سليم خان العثمانى

أما قصة الملك الظاهر (بيبرس) والملك سيف وبنى هلال ــ فليس لها مؤلف معروف سوى أن يقال ان الثالثة من رواية (نجد بن هشام) مثلا . والتى قبلها رواية (أبي المعالي) وكل هذا لا يعطينا الحق اليقين . في تعيين المؤلفين

وقصة عنترة مما تفيد الاحداث مطالعته لا سيما اذا نقحت وحذف منها ما كان من قبيل الخرافة أو السخافة . ولعل في هذين من الاحماض ما يرغب في مطالعة تلك القصة

ولا يعدم قارئها استفادة ثلاثة أشياء (١) أشهر الكلمات العربية الفصيحة المتداولة بين الكتاب والشعراء (٢) الترغيب في الفضائل والتنفير من الرذائل (٣) معرفة تاريخ عرب الجاهلية وأيامهم وتقاليدهم وعاداتهم وان كان الكثير من تلك الحوادث منقولا عن موضعه ومجعولا بحيث يكون لعنترة فيه مدخل أو مشهد

فالقصة من هذا القبيل أشبه بألياذة « أوميرس » بالنسبة لتاريخ اليونان القدماء وقد توفى عنترة قبل الهجرة بعشرين سنة تقريباً . ويروى أنه صلى الله عليه قال « ما وصف لي اعرابي قط فاحببت أن أراه الا عنترة » ويقولون ان واضع قصته هو الاصمعي . وهو خطأ لأن تلك القصة لم يذكرها المؤرخون فيما ذكروا للاصمعي من التصانيف . على أن أسلوبها وطريقة وضعها لم تكن لتشابه قط كتابات الاصمعي في تصانيفه .

واذا رجعت الى نسق قصة عنترة وجدت أن لها واضعاً غير الاصمعي لكنه يعزو بعض الحوادث تارة اليه وتارة الى راوٍ آخر كأبي عبيدة اللغوي الشهير وحقق بعضهم أن واضعها عالم مصري كان في عصر الخليفة العزيز الفاطمي . فوقعت في قصر هذا الخليفة ريبة أكثر العامة من اللغط بها . فأشار الخليفة لذلك الفاضل بأن يضع للناس قصصاً تشغلهم عن قصته فجعل ينشر لهم من وقت الى آخر كراريس عن عنترة ضمنها من أخبار العرب وشؤونهم مروية عن الاصمعي تارة وأبي عبيدة أخرى . وكانا قريبي العهد من ذلك العصر : مائة وخمسين سنة تقريباً . فنشرُ كراريس القصص في تلك العصور ، كان كنشر نسخ الجرائد في هذا العصر على الجمهور . وقد ترجمت قصة عنترة الى الفرنسوية وطبعت في باريس سنة ١٨٧٨ وترجمها الى الانكليزية العلامة (هاملتون) وطبعت ترجمته سنة ١٨٢٠ كما ترجم العلامة نفسه كتاب (الهداية) في الفقه الحنفي الى اللغة الانكليزية . ولا بد أن يكون علماء الافرنج بحثوا بحثاً دقيقا عن مؤلف قصة عنترة كما بحثوا عن واضع قصة ألف ليلة وليلة ـ وان كانوا لم يهتدوا اليه لكنهم سدّدوا وقاربوا . ولم نرَ علماءنا عُنوا بالبحث عن مثل ذلك : كأنهم رأَوا القصّة والبحث عنها من لهْو الحديث ولغْو الكلام . وموضع الغرابة هو في السبب الذي حمل واضعي

القصتين علي الاستخفاء والتكتم مع ان في تأليف المقامات الهمذانية والحريرية مايدفع عنهما عار الكذب والتلفيق .

ويسمّى الافرنج قصة ألف ليلة وليلة « الليالي العربية » وقد قلوا ان تلك القصة وُضعتْ بعد زمن هارون الرشيد بمدة قليلة لان ذكره كان يتردّد في معظم الحكايات والحوادث . وظن بعضهم أنها أُلّفت في حوالي القرن العاشر من الهجرة . وهو الوقت الذي بدأ فيه الشرقيون باستعمال التبغ والقهوة لأنه جَرَى ذكرهما في تلك القصة ثلاث مرات . وأنكر بعضهم ذلك ذاهبا الى ان ذكر التبغ والقهوة كان مدسوسا بيد بعض النساخ والا فلو كانت القصة موضوعة في عصر التبغ والقهوة لتردد ذكرها فيها مئاتٍ ومئات ، لكثرة ما هنالك من المقتضيات .

وقد يقال ان قلة ذكرهما في القصة لقلة استعمالهما في ذلك العهد لان الشيء في بداءة أمره قلما يستعمله الا الخواص والمترفون لا سيما وأن عبارة القصة ولغتها وأسلوبها تؤيد أنها أُلفت حوالي القرن العاشر

ومؤلفها مسلم قطعاً لانه ينحي إنحاء شديداً على أبناء الملل الاخرى . وقد أكثر في قصته من ذكر دمشق ومصر وبغداد ، فهو في الغالب من احداها . وذهب بعضهم الى أنها الفت في بلاد فارس . ومن قرأ الميثولوجيا اليونانية — سيما الياذة أو ميروس — والخرافات الفارسية لاسيما المجموعة المسماة « ألف خرافة » ولاحظ مابين القصة العربية وهاتين القصتين من المشابهات ، في كثير من الخرافات والحكايات ، حكم بأن مؤلّفها قرأ ماتُرجم من القصص اليونانية والفارسية لعهده ثم ألف قِصَّته علي مثالها كما تحدَّى غيرُه من فضلاء الاسلام قصة (كليلة ودمنة) الهندية . وألَّفوا مثالها عن أفواه الطيور والحيوانات .

ولم يقتصر صاحب ألف ليلة وليلة على ماروَى من أساطير الاوّلين بل ضمّ اليها طائفة من نوادر العرب وحوادث الخلفاء في الاسلام كما يظهر لمن تصفح القصّة . ولم يُخْلِها من ذكر بعض تقاليد أهل الهند ، كالمرأة التي تُدفن مع زوجها إذا مات قبلها ، وهو معها اذا ماتت قبله .

وبالجملة فان مؤلف ألف ليلة وليلة لم يُعْرَف قط على كثرة ولوع الباحثين بمعرفته .

وما قيل في قصة عنترة وألف ليلة وليلة قيل في الياذة أوميروس التي كادت تكون مصدراً لتينك القصتين العربيتين في تنسيق الوصف ، وسرد غرائب الاخبار . فقد استبعد كثيرون من الباحثين في أوروبا أن يَقدِر (اوميروس) وحده على وضع قصة تبلغ ستة عشر ألف شطر من الشعر . يحومُ في كل ذلك حول حادثةٍ واحدة من مجموع حوادث حرب (طروادة) الشهيرة . وقالوا أن هناك مؤلفين كثيرين نظموا الالياذة قِطعةً قطعة : ثم ألف الرواةُ بينها وضموا بعضها الى بعض . بل تطرف بعضهم فزعم أن (اميروس) نفسه ليس له حقيقة في الوجود الخارجي ، وانما هو من مخترعات الخيال .

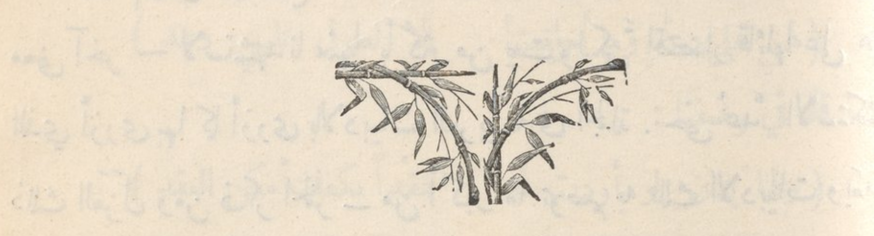
ولا يَسُوءنَّ ذلك (اوميروس) فقد قالوا ـ مثل قولهم فيه ـ في (مجنون ليلى) و(المعري) وفيما رُوي لهما من الشعر . بل قالوا مثله في روايات (شكسبير) الشاعر والقصصي الشهير : كتابات (شكسبير) مُفعمة ببدائع الفلسفة العالية ، وروائع الحكمة الفاضلة . ويتخللها كثير من شؤون البيوت والطبقات التي تعيش معيشة الرَفه والتأنق . وتاريخ شكسبير و كيف تربى أمرٌ معروف : فهو لم يتربَّ التربية العلمية ولم يتخرج في المدارس العالية ، فمن أين له كل هذا الشعور الفلسفي والخيال الحكمي والتصور العالي ؟

أما الوسط الذي تقلب فيه فهو أيضاً لا يصلح أن يهيء مثله لمعرفة حوادث الطبقات العالية في (لندن) ووصفها وصف من شاهدها وحدثت له وقائعها

ثم بحث هؤلاء عمن توفرت فيه التربيتان العاليتان تربية المدرسة وتربية الوسط — فوقعوا على (باكون) الفيلسوف واللورد معاً . فنسبوا تلك الروايات اليه : وقالوا انه كان يؤلفها ويدفعها الى شكسبير ليمثلها باسمه .

وغريبٌ أن يكون في هؤلاء القائلين من أعاظم الانكليز مثل بيكنسفليد وبالمرستن وبيرون : فهم يعتقدون أن (شكسبير) أجهل من أن يؤلف أمثال هذه الروايات ، فهي ليست له .

أما السبب الذي زعموا أنه حمل (باكون) على عدم التظاهر بتأليف الروايات المذكورة فهو يرجع الى مايقال من اتصال نسبه بالملكة اليصابات ملكة انكلترا . وفي الروايات تلميح الى ذلك الاتصال وماله علاقة به من شؤون (باكون) وشؤون البلاط مما يجعل حياته في خطر لو تظاهر به ونسب اليه



منظوم ولا ناظم

ذكرنا فى المقال السابق شيئاً مما ألف وكتب ولم يعرف كاتبه أو عُرف على سبيل الظن والتخمين .

وانا ذاكرون الآن بعض الشعر البليغ الذى جُهل ناظمه وتعارضت الاقوال فيمن عساه يكون صاحبه .

ونفاسة ذلك الشعر مع جهل صاحبه دعا غواة الشعر أن ينتحلوه وربما تنازعوا فيه وتلاحوا عليه .

من ذلك ثلاث قصائد من أنفس الشعر . وأعلاه أسلوبا . وأحسنه تركيبا وتنسيقاً :

(١) القصيدة الهائية الشهيرة التى مطلعها :

صاح فى العاشقين يالكنانهْ   رشأ فى الجفون منهُ كنانه

وهى كلها على هذا النمط من حسن السبك . وجودة الرصف . ورشاقة القوافى ويُقال انه ادّعاها سبعون شاعراً . ولم تعترف هي بهذه النسبة لواحد منهم

ولو لم يكنْ موضوع القصيدة الغزل المحض في الغلمان من دون أن يتخلله معنى آخر — لاستشهدنا منها بأكثر من بيت ولكنّ اقتصار قائلها على هذا هو الذي أزرى بها كما أزرى بالادبيات العربيـة فى الجملة . حتى عُدّ الاستكثار من ذلك الغزَل ومن ذكر الخمر — من أكبر ما توصم به تلك الادبيات ويُعدّ عليها

(٢) القصيدةُ الدالية المسماة « الدرّة اليتيمة » لم يقتصر الشعراء على انتحال هذه القصـيدة بل تخطوه الى المماراة والملاحاة بسببها وقد حلف عليها أربعون شاعراً منهم . ولم يقصّر أيضاً رواتها فى مشاركة الشعراء في هذا النزاع : فكان كلٌّ منهم يتألى أنها للشاعر الذي يروي له دون غيره

ثم غلب على القصيدة اثنان من شعراء دولة بني العباس. أحدهما أبو الشيص والآخر العكوك . وبعـد تلاح ونزاع طويل صحَّ أنها للعكوك الكندي . وفي القصـيدة ذكر لقبيلة كندة التي ينتمي اليها العكوك. وافتخار بذلك . ومعظم القصـيدة في غزل النساء . وهو ما يسمونه النسيب . وهي نيف وسبعون بيتا وأسلوبها في الوصف وطريقتها في أفانين القول ، تشبه طريقة شعراء الجاهليـة وأساليبهم . خُذْ مثلا لذلك البيتين اللذين تماجن فيهما . فانهما نسخة من مجون النابغة الذبياني في قصيدته الدالية الشهيرة التي شبَّب فيها بالمتجردة زوجة النعمان ومستهلُّ القصيدة في وصف الاطلال وآثار الديار :

(هل بالطلول لسائل ردُّ أمْ هلْ لها بتـكلم عهْد)
(درس الجديد جديد معهدها فـكأنما هي رَيطةُ جَرْدُ)
(من طول ما تبكي الغيومُ على عرصاتها ويقهقه الرَّعْد)

قوله درس الجديد أي الزمن لانه دائما في تجدده والجديدان الليل والنهار والربطة ضرب من الثياب . وثوب جرْد على وزان فلس خلقٌ بال كما يقال سحْق وأسمال

ومن نسيبها العذب قوله :

(لهفي على دعْدٍ وما خُلِقتْ الا لطول تلهفي دعد)

ومما قاله في وصفها :

(ولها بنان لو أردت له عَقْداً بكفك أمكن العقد)
(ما شانها طولٌ ولا قصر في خلقها فقوامها قصد)

ومن قوله في العتاب :

(قد كان أوْرق وصلـكم زمناً فزوى الوصال وأورق الصدُّ)
(ان تتهمي فتهامةٌ وطني أو تُنجدي يكن الهوى نجد)

(واذا المحبُّ شكا الصدود ولم يعطفْ عليه فقتله عمْد)

ثم قال مفتخراً :

(إمَّا تريْ طمْرىَ بينهما رجلٌ ألَحَّ بهزْله جدُّ)

(فالسيف يقطع وهو ذو صدأ والنصلُ يفرِي الهام لا الغمد)

(لا تنفعنَّ السَّيْفَ حليته يوم الجلاد اذا نبا الحدُّ)

« إما » أصله « إن ما » وهو شرط جوابه البيت بعده . والطمْرُ الثوب البالى . والهزْل مصدر كالهُزال . يقول إن رأيت فى أثوابى البالية رجلا لم يزل يلحّ الجدُّ بجسمه حتى صيّرَه ضاوياً هزيلا فلا تعجبي فان السيف الخ أو أن الهزْل هنا بمعنى المزاح وهوضد الجد ويكون إلحاحُ الجِدّ بالهزال كناية ً عن غلَبَته عليه بحيث أصبح مغمورا به : يقول ان رأيت بين ثوبىَّ البالبين رجلا نزّاعا الى الجدّ في أعماله بحيثُ لم يكن للهزل فيها نَصيب فلا تعجبى الخ فالشاعر عدّ التأنق فى اللبوس و العناية باستجادته من قبيل الهزل الذى يحسُنُ برجال الجد تجنّبه

ثم ذكر الشاعر فى قصيدته أنْ ليس المطامع عليه سلطان لقوة نحيزته . وطيب منبته . فقال :

(منعَ المطامعَ أَنْ تثلَّمنى أنى لمِعْوَلها صفاً صلْد)

أنى بفتح الهمزة فاعل منع : أى أن صلابةَ صفاته منعت المطامع أن يكون لمعْولها تأثيرٌ فيه :

(فأظلّ حرًّا من مذلّتها والحرُّ حين يُطيعها عبدُ)

(هيهات يأبى ذاك لى سلف خمدُوا ولم يخْمُدْ لهم مجْد)

(فالجَدُّ كندةُ والبنون همو زكت البنون وأنْجبَ الجَدّ)

(فلئن قفوْتُ حميدَ فعلهم بذميم فعلي إننى وغد)

قوله خمدُوا يعني ماتوا . ومن قوله في الرقائق والحكم :

(أجملْ اذا حاولتَ في طلب فالجدُّ يغني عنك لا الجِدُّ)

الجدُّ الأولى بفتح الجيم البخت والحظ والثانية بكسرها بمعنى السعي والاجتهاد

(ليكن لديك لسائلٍ فرَج إن لم يكن فليحسن الردُّ)

وهذا معنى الآية الكريمة « وأما السائل فلا تَنْهرْ »

وربما كان في أسلوب القصيدة وطريقة نظمها ما يبعد أن تكون للعكوك أو أبي الشيص لاسيما أن كتاب الاغاني لم يُشر اليها في ترجمة هذين الشاعرين ولم نجدْها مدوَّنة في شيء من كتب الأدب المتداولة بيننا وانما هي مما كتبه (الشنقيطي) بخطِّه في مجموعته وهو الذي روى أن العكوّك غاب عليها بعد تلاحيه ومقاسمته لأبي الشّيص ولولا ذلك لعظُم الريب في أن تكون للعكوّك ولكن (الشنقيطي) ثقة

(٣) أما القصيدةُ الثالثة فليست من بابة هاتين القصيدتين : وصفِ غلمان ، أو تشبيبٍ بحسان . وانما هي في موضوع اسمى من ذلك وأكرم — هي في المعاياة العلمية . و (المعاياة) في اللغة أن تسأل الآخر سؤالا لايهتدي الى جوابه . والشيء الذي عايبته به يُسمى « أعيّية » فقصيدتنا إذن أعيّية . وأول من نبّهني اليها صديق من فضلاء الاتراك أرسلها الي وكتب معها ماترجمته :

« أرسلت اليكم في طيّ كتابي هذا بديعة أدبٍ ذات قيمةٍ عظيمة وهي قصيدة غراء نظمتْ لمعاياة رجل يُسمى « عبد الرحيم » ويُستدل منها على أنّ عبد الرحيم هذا كان من أفاضل علماء الاسلام . يسأله ناظمُها فيها مسائل في علم الخط والبلاغة واللغة والعروض والتفسير والفقه والتاريخ في جملة مسائل من علوم أخر

وقد ذكر تلك القصيدة (تاجُ الدين السبكي) في طبقاته الكبرى . وهو من رجال القرن الثامن في ترجمة (محمد بن أحمد) التركاني الذهبي قائلا : وقفت على قصيدة غرّاء لبعض الأدباء أحببت تخليدها في هذا الكتاب . لكنه لم

يصرح باسم ذلك الاديب الذى نظمها ولعله لا يعرفه : ولو علمنا على الاقل من هو عبد الرحيم (المعاني بالقصيدة) لاهتدينا الى الناظم وعرفنا من رجال أي عصرٍ هو ؟

وقد وصلت القصيدة من التصحيف والتحريف الى حد لا تقرأ معه . وقد راجعت أكثر كتبخانات الاستانة لاجل تصحيحها . ونسخة القصيدة التى قدمتها اليكم هى أصحُّ وأكمل من جميع النسخ التى ظفرتُ بها . ومع هذا فقد بقي لى اشكالات في جملة مواضع منها .

وآخرُ كتبخانةٍ راجعتُ فيها كتبخانة « كوبريلي » وقد اتفق لي في تلك الكتبخانة أمر غريب عسى أن لا أكونَ مثقّلا عليكم بذكره هنا : ان الكتبخانة المذكورة مُتشعثة الى درجة يَصحّ أن يُقال معها إنها « خراب » وفي أثناء وجودى فيها جاءها مأمور من قبل نظارة المعارف لاجل الكشف عليها . فجعل قيّم الكتبخانة يُرى المأمور المحالّ المحتاجة الى ترميم وقال: « إننا ياسيدى نستحي من الاجانب الذين يَفِدون بكثرة الى الكتبخانة » فأجابه مأمور المعارف « كلا إن الاجانب قلما يزرون هذه الكتبخانة » أما أنا فلم أُطقْ الصبر على ما سمعت فقلت مدفوعاً بقوة قاهرة « ما معنى قولكم أجانب ؟ أما يجب أن نستحيَ من أنفسنا ؟ ألسنا من البشر ؟ أيليق أن نستحي من الاجانب فقط ؟ فضحك الرجلان ثم سكتا واجمين مذعُورين . لان التفوّه بمثل هذه اللهجة في الاستانة يتوقّف على جراءة عظيمة . وقد تذكرتُ حينئذٍ بيتاً من الشعر للمرحوم (كمال بك) ضمّنه كلمة حكمةٍ لافلاطون وهى « مَن يَستحى من الناس ولا يستحى من نفسه فلا قَدْرَ لنفسه عنده » ولنرجع الى ما كنا بصدده :

والقصيدةُ المشار اليها أشبهُ بحسناء غطّتْ وجهها أمام عاشقها . وهى مفتقرة في تفسير آيات حسنها الى فاضل مثلكم . وعليه فاني أرجو منكم أن تضعوا

عليها شرحاً بين الموجز والمسهب ، انتهى ما أردنا نقله من كتاب ذلك الاديب التركي .

ولما قرأت اقتراحه عليّ وجمت وقلت في نفسي كأن الاديب لاحظ في بعض كتبي اليه شيئاً من عُجب أو غرور فأرسل يعاتبني ويُعاييني في فهم مغازي هذه القصيدة كما عاني ناظمها صاحبه « عبد الرحيم » فكتبت اليه أعتذر وأبرأ اليه مما ظنه فيّ . وقلت له إن قُصاراي في هذه القصيدة أن أزيدها لك تصحيحا وضبطاً .

ومن محاسن الاتفاق أن كان في مكتبتنا نسخة مخطوطة من طبقات ابن السبكي ربما لم يكن لها أخت في بلادنا الشامية .

فأعملْتُ الفِكر في تصحيحها على النسخة التي عندي وتصحيح نسختي عليها وكثيراً ما استفدت في تصحيحها وتقويم أَوَد أبياتها من مراجعة بعض اخواني من أهل الفضل . ومع هذا فلم يزل معظم أبياتها على غير تصحيح . والتصحيحُ انما يَعتمدُ فهم المعنى . فما لم نفهم معنى الكلام لا يمكن تصحيحه . وفهمُ معنى أبيات هذه القصيدة مما لا يتيسر لا مثالنا فتصحيحها أيضا مما لا يتيسر . مثال ذلك قوله « وما الزبرق المالي اذا غاب نجمه » وفي نسخة أخرى « وما الزئبق المائي اذا غاب فحمه » فمعرفة الصواب منهما مُحال ما دمنا لا نفقه معنًى لهذا ولا لذاك . وأحسبُ ان قد تُوُدّع من فهم هذه القصيدة إلا إذا نُشر ناظمها من القبور وصحت عليه . وقد راجعناها في نسخة الطبقات التي طُبعت حديثاً في القاهرة في صحيفة ٢٢١ من الجزء الخامس فلم نستفد منها سوى تصحيح بيت وإقامة وزن بيت آخر . وتبلغ القصيدة مائة بيتٍ ونيفا . والعلوم التي جرت المعاياة فيها تسعة . ولكل علم عشرةُ أبيات كاملة . تتضمن أسئلةً فيه . ومطلع القصيدة :

(سلا صاحبيَّ الجزَعَ من أبرق الحِمى عن الظَبيات الخرَّد البيض كالدُمى)

وبعد عشرة أبيات من الغزَل الجميل الذى منه قوله :

(كأنَّ قضيب البانِ في مَيَسانه رأى قدَّه لما انثني فتعلَّما)

قال في تقريظ (عبد الرحيم) والثناء عليه :

(وحُثَّا الى (عبد الرحيم) ركائبا تحاكي قِسِيَّ النبعُ فوّقنَ أسهما)

(فتًى جُمعت فيه الفضائل راضعا ونال العُلى من قبلِ أن يتكلَّما)

(حليفُ التقى تِربُ الوقار مهذب الـ خِلال يَرى كسبَ المحامد مغنما)

(له خُلق كالروض غِبٌّ سمائه تضوَّع مسكا أذفراً وتنَسَّما)

(اذا جئتماه فامنحاه تحيـةً ملوكيـة بل أكبراهُ وأعظما)

(وقولا له اسمع ما نقول ولا تكن ضجوراً به مستثقلا مُتبرما)

(رأينـاك في أثناء قولك معجبا بكونك أوفى الناس فهما وأعلما)

(فان كنتَ من أهل الكتابة واثقاً بنفسك فيها لا تخاف تهضما)

أراد بالكتابة الخط ورسم الحروف . وهاك نموذجاً من تلك الأسئلة في هذا الفن :

(... ادا مُدَّت° غدت غير نفسها وصارت حديثا عن هواك مترجما)

(وان قصرت كانت غرابا بقفرةٍ يرود لكي يلقى خليلا أو ابنما)

ثم قال :

(وإن كنت من أهل البلاغة جامع الـ لغاتِ بأنواع الأقاويل قيما)

ومراده بالبلاغة معرفة غريب اللغـة بدليل قوله «جامع اللغات» وبدليل تلك الـكلمات التي سأل عنها وهي كزمازم المجوس . أو طلاسم الـكنوز . ودونك هذا المثال منها :

(وما العنقفيس والملاجج والـكبا وطارسة والعارصات وعظلما)

والتحريف والتصحيف واختلاف النسخ في هذه الاسئلة اللغوية أكثر منها في سائر أسئلة القصيدة

ثم قال في علم النحو :

(وإن كنت ممّن يدّعي عربيةً ويحقر في النحو الامام المقدما)

ومن أمثلة الاسئلة في هذا الفنّ قوله :

(وما حرف عطف ليس يوجد عاطفا اذا المرء آلى في المقال وأقسما)

ثم قال :

(وان كنت في علم العروض ووزنه جميع القوافي للورى مُتقدّما)

ومن الأسئلة في هذا الفن قوله :

(وما الحبل المطويّ أصبح ناشراً اذا هو بالتشعيب صار مهشما)

ثم قال :

(وان كنت في نظم القريض مجوّدا وكنت عليه قادراً متحكما)

وقد سأل في هذا الفن عن كيفية وصف السحاب وآثار الديار فقال :

(وكيف ترى وصف السَّحاب وذكره اذا أحصرت أهدابه واذا هما)

(ووصف أثافيّ الديار اذا انطوتْ محاسنها وابيضَّ ما كان أسحما)

ثم قال :

(وان كنت في القرآن أتقن حافظ وأدرى بأصناف الخلافِ وأفهما)

ومن الأسئلة في هذا الفن قوله :

(ومن حقَّق الهمزات في سورة النسا ولينها في العنكبوتِ وأدغما)

ثم قال :

(وان كنت ذا فقهٍ بدين محمدٍ على ذكره صلى الاله وسلما)

(فمنْ جعل الاجماع في البيع حجة وصيّره في الصرف ظنًّا مرجما)

ثم قال :

(وان كنت في حفظ النوادر أوْحداً تجمّع من أخبـارها ما تقسّما)

وقد سأله في هذا الباب باب غرائب المسائل بقوله :

(ومن حظر التزويج الا بثيّب وصير تزويج البكار محرّما)

لا تجمع البكر على بكار وانما يقال أبكار فلعل صوابه مثلا « وصيّر تزويجاً لبكْر محرّما »

ثم قال في أسئلة التاريخ :

(وإن كنت ممّنْ يدّعى علم سيرةٍ وحفظاً لأخبار الاوائل محكما)

ثم سأله بقوله :

(ومن هاب خوض النيل ساعة جزره وخاض سواءَ البحر والبحر قد طما)

الى هنا انتهت العلوم التي عاياه بها . ثم ختم القصيدة بقوله :

(لعمركَ إنا قد سالناك هينا ولم نقصد المعنى العويص المغمغما)

(ففكرْ ولا تعجل بمـا أنت قائل وسرْ منجداً تبغى الجواب ومتهما)

(فان أنت فيما قد سألنا بيانه أصبت فحقٌ أن تعزَّ وتكرما)

(وان أنت أخطأت الصواب ولم تجب فحقك أن يخنى عليك وترحما)

(فمـا لك علم بالامور وانمـا قصاراك أن تروى كلاما منظما)

ولا نعـلم ماذا كان من شأن (عبد الرحيم) مع هذه الاسئلة . واذا كان معجبا متنفجا كما قال عنه ناظم القصيدة في فاتحتها فستكون هذه الاسـئلة أكبر زاجر له . وأنجع دواء في تعديل أخلاقه . ويظهر من قولهم في تعريف المعاياة إنها الكلام الذى لايهتدى الى حله — أن المعاياة غير المعمّيات والألغاز والأحاجى: فان هذه مما يسهل حله ولا يعسر الاهتداء اليه . وقصيدة عبد الرحيم من قبيل المعاياة . ويا ليت شعرى ماهى الفائدة من كلام لايمكن لأحد أن يهتدى الى فهمه

سوى قائله ومخترعه . وحبذا لو أن ناظم القصيدة المذكورة فك رموزها وفسر غامضها حتى اذا اعترف المسئول بعجزه وتقصيره ـ أعلن شرحها وتفسيرها ونشره بين الناس . والا فان هـذه القصيدة وأمثالها من الأعابي (جمع أعيية) كالداء العُقام . أو الطائش من السهام .

قصيدة المعاياة

أشرنا في مقالة « منظوم ولا ناظم » السابقة الى قصيدة المعاياةوانه لايعرف ناظمها ، ولا من هو (عبد الرحيم) الذى عوبى بها ؟ حتى ان تاج الدين السبكى نفسه لم يسمّهما في طبقاته حينما ذكر هذه القصيدة وأتى عليهابرمتها . وقد كتب الينا من دمياط حضرة الاستاذ الفاضل (الشيخ عبد الفتاح البنا) يقول ان عنده نسخة من تلك القصيدة . كان اشتراها مع غيرها من تركة وهى بخط جميل على القاعدة الفارسية . ويظهر عليها الصحة وقد ذكر في طرّتها مانصه : « هذه القصيدة البديعة الغريبة الجامعة لأشتات الفضائل والرموز العلمية من فنون كثيرة نظمها الامام الفاضل والهمام الكامل أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب وبعث بها الى الامام كمال الدين عبد الرحيم الأنبارى رضى الله عنهما . ونفعنا بعلومهما ، قال القيسي رحمه الله لم نر من شرح هذه القصيدة الى الآن »

ثم أرسل الينا الاستاذ المومى اليه القصيدة التي عنده فاذا هى كما ذكروبطرتها العبارة المذكورة . فكانت الفائدة من هذه النسخة أنها سمت لنا اسم ناظم القصيدة واسم الذى نظمت من أجله .

أما صحة روايتها وضبط أبياتها فهذا مما لا أمل لنا بالظفر به فيها بل يصح أن نقول انه قد تجدد معنا في كثير من أبيات القصيدة نسخ واعتبارات واحتمالات لم نكن نعهدها من قبل فزادت الحيرة ، وتفاقم الاشكال . هذا مايقال من جهة

حصول الطمأنينة بصحة ضبط أبياتها . أما مايقال من جهة حصول الطمأنينة بما كتب على تلك النسخة من أن القائل والمقول فيه هما ابن الخشاب وابن الانبارى فلا يقل في زيادة الاشكال والحيرة . نعم أن كلاً من الفاضلين المذكورين عاشا في بلدة واحدة وهى (بغداد) وفي عصر واحد (توفى ابن الخشاب سنة ٥٦٥ والآخر سنة ٥٧٥) ولكن هناك ما يُبعد أن يكونا بطلى القصيدة لاسيما أن تكون مقولة في شأن (ابن الانبارى) وذلك لامور :

(١) لم يشر ابن خلكان الى تلك القصيدة لافى ترجمة (ابن الخشاب) ولا ولا فى ترجمة (ابن الانبارى) بل لم يشر اليها أيضا نفس السبكى حينما ترجم لكمال الدين ابن الانبارى فى طبقاته

(٢) اتفق كل من ابن خلكان والسبكى على ان (كمال الدين الانبارى) يسمى « عبد الرحمن » ولم يشيروا الى أن بعضهم سماه « عبد الرحيم » ولا يخفى أن القصيدة انما عايت فاضلا يسمى (عبد الرحيم) ويبعد أن يكون الناظم تسامح فسماه (عبد الرحيم) وهو عبد الرحمن

(٣) انه كان لكمال الدين ابن الانبارى من الصفات والاخلاق ما يُبعد أن يتهجم عليه متهجم بمثل هذه الاسئلة ويُعابيه بها : فان الرجل كان ورِعا زاهداً وقد انقطع في منزله عن الناس مشتغلا بالعلم والعبادة قال الموفق عبد اللطيف : « لم أر في العبّاد والمنقطعين أقوى منه في طريقه . ولا أصدق منه في أسلوبه . جِدٌّ محض . لا يعتريه تصنّع . ولا يعرف السرور . ولا أحوال العالم . وكان له من أبيه دار يسكنها . ودار وحانوت مقدارُ أجرتهما نصفُ دينار في الشهر يَقْنع به ويشترى منه ورَقاً . وسَيَّر اليه المستضيء (الخليفة) خمسمائة دينار فردّها . فقالوا له اجعلها لولدك فقال : « ان كنت خلقته فأنا أرزقه » وكان لا يوقد عليه ضوء . وتحته حصير قصب . وعليه ثوب وعمامة من قطن يلبسها يوم الجمعة .

فكان لا يخرج الا للجمعة ويلبس في بيته ثوبا خلقا » فهل يحسب القارىء بعد هذ أن يقوم ابن الخشاب ويتعرض لمن كان هذا شأنه . وابن الخشاب له الجم من الفضائل والمحاسن عدّدها العماد الاصبهاني في خريدته . وليس من المحاسن في شيء أن يرسل بهذه القصيدة الى ناسك قبع في بيته . وتخلى عن هذا العالم وزهد في زينته

(٤) ان القصيدة ـ كما يظهر من فاتحتها وخاتمتها والتصرف في أساليبها ـ من جيّد الشعر وجزله لا يقدر على مثلها الا مَن أكثر من النظم . وهام في أوديته . وقد صرّحوا ان ابن الخشاب المعزوّة اليه القصيدة قليل الشعر حتى أن ابن خلّكان لم يرْوِ له سوى بيتين في شمعة وبيتين آخرين لغزاً في كتاب

واذا كان لا بد لنا في هذه العُجالة من أن نسمي لها ناظما ولو على وجه التقريب فالاجدر بنا أن نبقي على نسبتها الى ابن الخشاب المذكور مادامت تلك النسخة الدمياطية تشهد بذلك وليس لها من معارض . ومما يساعدنا على هذا الرأى ان ابن الخشاب كان شاعراً ومن المتضلعين من العلوم الدينية واللغوية التي جرت المُعاياة فيها في تلك القصيدة . ومن تلك العلوم علم القرا آت والخط وقد قالوا في ترجمة ابن الخشاب أنه حفظ القرآن بالقرا آت الكثيرة وكان خطه في نهاية الحسن وانه متبحر في الادب والنحو والتفسير والحديث والنسب والفرائض والحساب وكل هذه العلوم مما تضمنته القصيدة

أما المرسلة اليه القصيدة فالعقل يجزم بانه ليس (كمال الدين ابن الانباري) لما قلنا آنفاً : ان اسمه (عبد الرحمن) لا (عبد الرحيم) وللاعتبارات الاخر. واذا بحثنا عن مُعاصري ابن الخشاب ممن تسمى بعبد الرحيم ظفرنا باربعة :

(١) عبد الرحيم السهروردي : لم نعرف ان كان عاش في بغداد أولا . على أنه كان واعظاً صوفياً ولم يكن متضلعا في أنواع العلوم

(٢) عبد الرحيم القاضي الفاضل المشهور هو أهل لأن يُسأل بهذه الاسئلة وأعوص منها لكنه لم ينقل أنه عاش في بغداد أو رحل اليها . وانما كان يعيش في مصر والشام ويبعد أن ينبري له ابن الخشاب من (بغداد) فيعاييه ولم يكن بينهماما يقتضي ذلك

(٣) عبـد الرحيم الزنجاني تفقه ببغداد وقدِم دمشق ثم وُلّى قضاء بعلبك فقتل فيها شهيداً وكان عالما بالمذهب والاصول والقرا آت . هذا جُلّ ماقالوه في خبره . وان لم يكن هو بطل القصيدة فبطلها اذن الامام القشيري :

(٤) عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري : لاحاجة لأن نذكر ما قالوه في ترجمته وما وصفوه به من ألقاب المدح والتعظيم . ويكفي أن نقول انها من بابة ألقاب (الغزالي) و(امام الحرمين) . والرجل كان من علماء فارس لكنه « تأهب للخروج للحج وحين وصل الى بغداد وعقد له المجلس ورأى أهل بغداد فضله وكماله وعاينوا خصاله بدا له من القبول عندهم مالم يعهد مثله لاحد قبله وحضر مجلسه الخواص ولزم الأئمة ـ مثل أبي اسحق الشيرازي فقيه العراق في وقته ـ عتبة منبره وأطبقوا على انهم لم يروْا مثله في تبحره وخرج الى الحج ولما عاد الى بغداد كان القبول زائداً على ما كان من قبل . وبلغ الامر في التعصب له مبلغاً كاد يؤدي الى الفتنة » ثم حج ثانية ولما عاد الى بغداد «وجد أمر القبول بحاله . والفتنة مشرئبّة تكاد تضطرم . فبعث اليـه نظام الملك يستحضره من (بغداد) الى أصبهان . فاكرم مورده وبقي أهل (بغداد) عطاشاً اليه والى كلامه : منهم مَن لم يفطر عن الصوم سنين بعده . ومنهم من لم يحضر من بعده مجلس تذكير قط ودخل(عبـدالرحيم) مرة على الامام (أبي المعالي الجويني)فأنشدالامام ارتجالا

(تميسُ كغصن اذا ما بدا وتبدو كشمس وترْنو كريم)

(معانى النجابة مجموعة لعبد الرحيم بن عبد الكريم)

هذا بعض ما قيل فيه . وفتى هذا شأنه وشيوخه تمدحه بمثل هذين البيتين جدير أن يحسده (ابن الخشاب) ويعاييه بمثل تلك الاسئلة العلمية العويصة وربما كانت الفتنة التي أشاروا اليها في ترجمته وأنها حصلت في بغداد ابان زيارته لها في المرتين ـ من أكبر الادلة على انه هو المتحدّى بقصيدة ابن الخشـاب وان ابن الخشـاب هو الذى حضأ نار تلك الفتنة . وكانت تلك القصيدة محضاءها (حضأ النار الهامدة حرّكها والمحضاء العود الذى تحرّك به) . وذكروا في ترجمة ابن الخشاب انه كانت فيه بذاذة (سوء حال) وقلة اكتراث بالمأكل والملبس ولعله لما رأى من إقبال أهل (بغداد) على القشيرى مارأى ومن احتفائهم به الى هذا الحدّ . وهو غريب عنهم . وابن الخشاب منهم وفيهم . ولم يكن يرى منهم قليلا مما خصُّوا به عبد الرحيم وجم ونقم وأراد أن يظهر لاهل بلده منزلته من منزلته فعاياه بالقصيدة وأظهر عجزه .

لكن ذكر بعضهم أن الفتنة المذكورة انما هى فتنة الحنـابلة : فان القشيري شدّد النكير عليهم في بغداد فثاروا في وجهه .

ويشوس علينا أيضاً ان ابن الخشـاب كان عمره حينما زار القشيري بغداد أقل من عشرين سنة ، فيبعد أن تتوفر فيـه مقدرة وقريحة ينظم بهما مثل هذه القصيدة

هذا ما نراه : وليس هو بالرأى المحتم ، وانما الاجدر أن يقال : والله أعلم .



الثروة والانتفاع بها [1]

قال قوم المـال . وبال . والغناء . عناء . وأن المشتغل فى جمع الثروة مشتغل بجمع أدوات قهره . ومادة تعذيبه . وقد تفنن بعضهم فى التنفير عن المال حتى ذهب مذهب الشعر والخيال فقال ان آخر الدينار نار . ونصف الدرهم همّ . لكن الصوفية بنوا رأيهم فى وجوب التقلل من الدنيا على أن المـال يشغل المرء عن الطاعات . ويُغريه بتقحم الشهوات . وذهب أبو ذرّ الصحابى الى أنه لا يسوغ للمسلم أن يبيت وعنده شيء من المال بل عليه أن يسعى لتحصيل كفايته وا... فضل عنه شيء صرفه الى المحتاج اليه فوراً بحيث لا يبقى منه بقية الى اليوم التالي وجهر برأيه هذا في الصحابة وجعل يصادرهم فيما كانوا يرتأونه من اباحة الادخار وخزن المال بعد اخراج زكاته الشرعية . حتى اضطر الخليفة الثالث الى ابعاده الى (الربذة) خشية أن يؤدى الجدال الى مراء وشقاق . ويوشك أن يكون هذا أول خلاف اجتماعي اقتصادي حدث بين الصحابة رضوان الله عليهم .

ويصح أن يعدّ رئيساً لهذه الطائفة التي تكره المـال وتنعي على أصحابه (ديوجينوس) اليونانى فانه اكتفى من دنياه ببرميل ينام فيه فيدحرجه حيث أراد ــ وبطاسة يشرب بها . ثم رأى مرة ولداً يشرب براحتيه فادرك جهله وعلم أن الولد أكبر عقـلا منه . فألقى الطاسة . وأراح نفسه من همّها وجعل يشرب براحتيه

أما الطائفة الاخرى فرأت أن المال هو الحياة لانه مادتها . أو هو الشرف لانه وسيلته . أو هو الدين لان معظم الطاعات والعبادات وتحصيل الثوب بالمبرات يتوقف عليه . فأخذ الواحد من هؤلاء يجمع المال من أيّ طريق عنّ له . وينا...

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٤ هـ و ١٩٠٦

وسعه في تحصيله وخزنه كيفما اتفق حتى جنّ البعض بالمال جنوناً فلم يعد ينتفع به وذهل عن كونه انما يجمعه لثمرته لا لذاته وفي مثل هذا قال المتنبي :

« ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي صنع الفقر »

وشأن الناس في المال وجمعه شأنهم في كثير من أعمالهم ومصالح دنياهم منهم المفرط . ومنهم المفرّط . وأفضلهم الوسط المعتدل :

والاخير هو الذي أدرك أن المال قوة منحتها العناية الالهية للبشر كسائر القوى التي أفاضتها عليهم : فكان عليهم أن يعتدلوا في استعمالها ويسلكوا جادة الوسط في تحصيلها ويحكموا في ذلك الدين والعقل والتجارب .

ولم يخرج المال عن كونه قوةً كالكهرباء أو البخار : ان أقللت منه وقصّرت في تحصيل القدر اللازم لك وقف العمل وتعطلت الآلة . وان أكثرت وأفرطت في توليد قدر اكثر من اللازم بحيث عجزت عن ادارته والانتفاع به أضرّك ودمّر ما أحاط بك ومزق الآلة شذر مذر

واذا كان المال قوة كان تبذيره وانفاقه في غير سبله المشروعة إضاعة لتلك القوة وتفريطاً فيها ثم لا يلبث أن يلحق المبذّر الندم حينما يحس بالحاجة اليها ويرجع على نفسه باللائمة والتعنيف

وليس الذي يخزن المال ويبخل به دون مصارفه وطرُقه المشروعة باشدّ غفلة وأكثر رعونةً من صاحبه الاول الذي يبذّر المال تبذيراً . ومثله في حبس المال مثل من أعطاه الله قوة البصر ليهتدي بها في غدواته وروحاته . وسائر شئون حياته فحمله الحرص على عينيه وحب الاحتفاظ بهما على أن أغمضهما بالمرة أو لا يكاد يفتحهما . فعاش في حياته بين جدار يلطمه . أو هوّة تلتهمه . حتى يقضى نحبه .

ولكسب المال وانفاقه فنّ يقال له (فن الاقتصاد السياسي) وسمي سياسياً مع ان مدار البحث فيه على ثروة الافراد ـ لان لسياسة الامة علاقة وارتباطاً

بثروة أفرادها

وهذا الفن مما يدرّس للتلامذة في المدارس . حتى اذا نشطوا منها للعمل وأخذوا في السعي والكسب وتأسيس العائلة والاستقلال في المعيشة عن والديهم عرفوا كيف يكسبون ومن أية الطرق يستغلون ثم كيف ينفقون وبأي الوجوه ينفقون .

وهذا الفن نما في أوربا وأينع بين الاوربيين وبه تنوعت في تحصيل المال أساليبهم . فغزرت أرباحهم ومكاسبهم . وبهذا الفن عرفوا كيف ينتفعون بالمال وكيف ينفقونه في توفير راحتهم ، وما فيه هناء حياتهم . وأثر ذلك مشاهد فى القوم لكل من له عينان .

أما الشرق فلم يكن لهذا الفن من الاثر فيه كما في الغرب. وذلك لانه مجهول فيه أولم يزل بعد في طور الاختمار والحضانة . واذا ظهر أثر له في حياة بعض أشخاص منا وطريقة معيشتهم فانما ذلك لمعاشرتهم الاوربيين وتقليدهم إياهم في شئونهم وأطوار حياتهم . وأهم تلك الشؤون وأجدرها بالعنايه المعيشة المنزلية وهذه عمادها وأساس نظامها الاقتصاد أو الاستكثار من المال ثم انفاقه بصورة يحافظ فيها بين الدخل والخرج أو الايراد والمصرف كما يقولون .

وعلى قدر مخالطة الطوائف الشرقية للافرنج كان لها نصيب من ذلك الفن والانتفاع به . ونصارى الشرق أكثر مخالطة لهم وأقرب امتزاجا بهم لذلك كان حظهم منه أوفر . وانتفاعهم به أكثر . وطريقهم في ذلك التقليدُ والمحاكاة. ولا أظن أن ذلك الاثر ظهر فيهم مما درسوه وتلقوه في المدارس فان ذلك غير كاف أو غير عام . ومثل النصارى كثير من أغنياء المسلمين ووجهائهم ممن كثرت معاشرتهم للمقتصدين واقتباسهم منهم طريقتهم . وشاهدُ ذلك ظهور أثر هذا التقليد في المدن الكبرى حيث يكثر الافرنج ومن حذا حذوهم من النصارى

كالقاهرة والاسكندرية وبيروت . ولا يوجد شيء من هذا الاثر في دمشق وحلب والموصل . اللهم الا بعض أفراد اهتدوا الى فن الاقتصاد بمعناه الحقيقي بعقلهم . واعتدال فطرتهم .

وقد يقال بوجه التقريب ان عدد من يعرف كيف ينتفع بثروته من المسلمين مثل عدد من لم يعرف كيف ينتفع بها في الطوائف الاخرى من غيرهم .

اذا وجد المرء من غيرنا ثروة استوثق باديء الامر من حفظها وما يضمن له بقاء عينها . ثم أخذ في تنميتها وتقليب وجوه الرأي في كيفية استثمارها . وأفرغ وسعه في أن يكون دخله منها من وراء الغاية . ولا يغفل عن توفير وسائل يزيد بها ذلك الدخل في كل سنة عن سابقتها . حتى اذا عرف قدر الدخل جعل ينفق منه في حاجات معيشته متوخيا فى انفاقه القاعدة الأساسية في الاقتصاد وهي أن يكون الدخل زائداً عن الخرج بحيث يفضل منه بقية يرصدها لمفاجأة مالم يكن في الحسبان

أما كيفية انفاق الدخل فى ضروب المنافع وأنواع المصالح فمن الصعوبة بمكان. وهذا هو جل الفرق بين أرباب الثروة مسلمين وغيرهم . وربما كان القبيلان فى الثراء ، أو تحصيل الثروة سواء . لكنك تجد الأوّلين أو أغلبهم لا يعرف كيف ينتفع بتلك الثروة أو القوة بخلاف الاخيرين . وقد قال بعض علماء الاقتصاد ان الانتفاع بالثروة يحتاج الى معرفة وحذق أكثر من تحصيلها. وقيل أيضاً « أوقية ذهب تحتاج الى قنطار عقل »

تضطر في بعض الاحايين الى زيارة الخواجه في بيته لأجل فضّ مشكلة مالية قامت بينك وبينه . وليس هذا الخواجه من ذوى الثروة الواسعة بالنسبة لغيره فان دخله السنوى ألف وخمسمائة جنيه أو ألفا جنيه . لكنك ترى أثر الغنى ودلائل النعمة بادية على منزله وخدمه وأولاده وأثاث بيته وغرفة استقباله وحجرة طعامه

وقلما يعوزك شيء من مرافق الحياة وادوات المعيشة الا وجدته في منزله . ولكل شيء محل . وكل شيء في محله . واذا رثّ أو بَلي أو فسد استبدل به غيره أو ماكان أوفى منه بالحاجة . ومن خلال حديثك مع الخواجة يتبين لك أن عمله وعمل أفراد أسرته وأكلهم ونومهم وغدوّهم ورواحهم ـ كل ذلك تحت نظام مقرّر وقواعد مطردة لا يتعدّونها : فنشأ عن ذلك اعتدال في الحصة ، اعتدال في الاخلاق ، اقتصاد في النفقات ، اقتصاد في الاوقات . وبالجملة اعتدال في المعيشة التي يشعرون بطيبها ولذتها واذا فاوضت الخواجة فيما جئت لاجله آنست منه اهتماماً بتوفير حقه . وجرّ النار الى قرصه . بل تشعر منه أحياناً بطمع وتكالب في هضم حقوقك وأكل شيء من أموالك . لكن يكون ذلك تحت ستار من الختل والتمويه وما يقترن بهما من عبارات التحبب والمجاملة بحيث لا يدعك تنقلب من مجلسه مالم تكن منبسطاً راضياً

ثم لا تجد معك وقتا لزيارة ذلك المثرى المسلم في النهار فتؤجل الزيارة الى الليل. وهو غنيٌّ كبير . من أشهر الاغنياء . وأكثرهم أطيانا وعقارات ويبلغ دخله منها عشرين ألف جنيه أو أكثر . داره واسعة وهي ذات غرف وحجرات كثيرة. ولا تصل اليها ما لم تسلك رواقا طويلا له سقيفة من أعواد الخشب قد تكسرت على طول الزمن فبقي بعضها قائماً في محله وبعض أعوادها ملقى في أرض الرواق بداد : هنا وهناك ، يعلَقُ بذيول المارّين تارة . ويدْمي بمساميره أرجل الحافين مرة أخرى . وترى في ذلك الرواق رهطا من الخدم لكنك لا تقدر أن تميز الخادم من أولئك الفلاحين أو المزارعين الذين أتوا يعرضون أعمال المزرعة على سيدهم فكنت تحار فيمن منهم تكافه قضاء حاجتك. أو أيَّهم تسأل عما يهمك من شؤون ربّ المنزل : وليس في الرواق مصباح ينير طريقك فكنت تتلمّس بيدك الجدران وبرجليك الدرج والمنخفضات . لئلا تزلّ بك القدم فتكبّ لوجهك وتهشم. وغرفة الاستقبال مضاءه بالبترول لان الخدم أو أهل الدار آلف له وأعرف بكيفية

اعداد أدواته من الغاز الهوائي أو ذلك النور الجديد الذي يسمونه كهرباء فان الجهل بخصائص هذين النورين ربما أودى بحياة من يستعملهما

والكراسيّ المصفوفة والزرابيّ المبثوثة في جنبات القاعة مما ورثه صاحب المنزل عن أسلافه فمنها المكسر ومنها البالي : لكنّ الاحتفاظ بها أدلُّ على تمسّك صاحب المنزل بعادات آبائه وحبّ التشبه بهم . وأقرب الى التواضع . وعدم الاغترار بزخارف الحياة الدنيا . ومهما قلّبت طرفك في أطراف الدار وأثاثها وأدوات زينتها وموادّ طعامها وشرابها وما على ربّ المنزل وأولاده وحاشيته من الزي والشارة — لا تجد فيه ما يدل على النعمة والغنى . ولا تراه منطبقاً على ما تسمعه عن ربّ المنزل من الثروة ووفرة الدخل . واذا تدرجت في الحديث معه ظهر لك أنه مديون وان دخله لا يفي بنفقاته . وان الدنيا دار زوال . وانه لا فرحة لمؤمن دون لقاء ربه . لكن اذا طال جلوسك معه وعرض له شيء من أشغال الدنيا ومعاملاتها المالية . وجدت من بوادر غضبه وفلتات كامه ما لا يجتمع مع ورع . ولا يدلّ على عفاف ونزاهة نفس مما تخيّلته فيه لأوّل الأمر

وتغلب هذه الحالة من الثروة والمعيشة التي وصفناها في أغنياء الشيوخ ورجال الدين . وذوي البيوتات والشرف . وبين الطبقات السافلة الذين كدحوا في جمع المال من زراعة أو صناعة أو تجارة . وعذر الاوّلين الإعراض عن الدنيا والتهيوء للآخرة . وعذر من بعدهم المحافظة على تقاليد الآباء والاجداد . وعذر الاخيرين اعتيادهم على ما كانوا عليه من المعيشة قبل الإثراء . فمن كان يلبس البلغة[1] قبل الثروة واعتادها هان عليه وخف على طبعه لبسها بعدها . فما الداعي الى تغيير عادته وزيّه الا الرعونة !! بل يؤول ذلك الى تطلع الأعين اليه والى ثروته !! أما العذر الحقيقي فهو غلبة الجهل المطبق أو الجهل بفن الاقتصاد وعدم تيسّر اقتباسه من أربابه . وتعود الانتفاع به

(١) هي ما تسمى في بلاد الشام الزربول أو التاسومة

منذ سبعمائة سنة (١)

كما يشكو كتاب اليوم من جهل العامة وفساد أخلاقهم والتواء عقائدهم كذلك كان شأن زملائهم منذ سبعمائة سنة : فقد خرج واحد من ادباء بغداد من داره في الرصافة فعبر جسرها المشهور الى شاطىء دجلة الغربي . وكان ذلك في صبيحة اليوم العاشر من شهر رمضان سنة ٥٧٥ هجرية فحار الاديب بين أن يسير في شارع دار الرقيق الى « الكاظمية » أو يستدير حوالى قصور الخلفاء فيجتاز نهر الصراة الى « الكرخ » والكرخ أشهر أحياء بغداد وأشدها زحاما وأكثرها سكانا وفيه محال الاشغال وفنادق التجار . واليه يتردد أهل اللهو والطرب . ورواد الشعر والادب فهو أشبه بأزبكية مصر . في هذا العصر . ثم رأى الاديب أن يقصد الى الكرخ فولى وجهه شطره وجعل يخترق الشوارع والسكك المؤدية اليه فكان كلما رأى جمعا من العامة وقف عليهم . أو رأى قوما يتشاكون في خصومة أصغى اليهم . وكان يعجب من اختلاف هيئاتهم . الدال على اختلاف بيئاتهم : فان فيهم العربى والنبطي والخراساني والرومي والتركي والزنجي . وهناك تجار الاقمشة الحريرية والجواهر والرقيق وباعة الطعام والشراب . ورجال الشرطة منبثون في برازيق الطرق يقودون هذا ، ويتهددون ذاك . وكان يرى أحيانا أناسا من الادباء والندمان ينقلون البواطى والمعازف والرياحين . ويرتادون مواطن لهم اعتادوا الجلوس فيها على نهر عيسى . وهو فرع من دجلة يجرى حول الكرخ من جهته الجنوبية فكم لأولئك الندامى في تلك المواطن من مسرات قضوها وليالي بالطرب أحيوها .

وكان الكاتب يسمع النـاس في ممره يتحدثون عن أسرى الافرنج الذين أرسلهم صلاح الدين الايوبي بعد واقعة مرج العيون . وكان عدد الافرنج فيها

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ و١٩٠٩م

عشرة آلاف فكسرهم صلاح الدين وقتل شطرهم وأسر منهم نحو ٢٧٠ أسيراً وغنم تحفا ونفائس كثيرة فأرسل منها جانبا مع الاسرى الى الخليفة العباسي المستضيء بالله بن المستنجد : وكان هذا الخليفة سمحا جوادا متمسكا بآداب السنة : فكانت الناس في زمانه يرتعون في بحابح الامن والعدل لا يروعهم سوى ما كان يشيع بينهم من أن الافرنج استولوا على الحصن الفلاني أو أنهم يتهيئون للوقعة الفلانية .

وقد سمع الكاتب من عامة بغداد في أثناء تخلله بينهم أحاديث غريبة وأفكارا شاذة تدل على مبلغ جهلهم بالدين واسترسالهم في الخرافات . وربما كان في سرد ما قاله ذلك الكاتب عبرة لنا تبعثنا على المقارنة بين عامة ذلك الزمان وعامة زماننا . وأكثر ما كان ينتقد أولئك العامة من الوجهة الدينية ومن حيث كانوا يحرفون العقائد الصحيحة ويتخذون لانفسهم عقائد جديدة لا منشأ لها سوى الوهم والخيال . فقد قال انه جلس على طرف حانوت في أطراف الكرخ يبيع صاحبه الاقمشة المصبغة والثياب الغليظة للانباط والاكارين الذين ينتابون بغداد من المزارع والقرى المنبثة حواليها . فأصغى اليه وهو يعظ أولئك الاكارين على زعم أنه يرشدهم الى تعاليم ناصعة وآداب رائعة . فكان يحضهم على أن يوالوا علي بن أبي طالب وشيعته : لانه وصي النبي صلى الله عليه وسلم والاحق هو وذريته بالخلافة . ثم يأخذ بالتعريض بأبي بكر وعمر والتكلم فيهما بما لا يحسن ذكره . ويقول هذا وهو يلتفت يمنة ويسرة خشية أن يسمعه أحد من أهل السنة . وكان في بغداد فريقان فريق يتعصب لابي بكر ويتقرب الى الله بموالاته وفريق آخر يوالي عليا ويفضله على أبي بكر . وكم حروب جرت بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة بسبب هذه العصبيات . فكان بعضهم يقتال بعضاً ويحرق هذا دار ذاك أو محل تجارته وما أشبه هاتا من الفظائع والمنكرات

قال الكاتب ومن عجيب أمر هؤلاء العامة والخاصة أحيانا ـ أن يغلوا في

بعض التعاليم الى حد لا يعرفه الدين كبغض ولي . أو اعتقاد في ولي . ثم ترى هذا المعتقد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويرتكب الفواحش . ويفعل الافاعيل. فكيف يسوّغ لنفسه هذا لولا أن يكون أصيب بصدوع في دماغه ؟ وقد سمعت صاحب الحانوت يخلط في أمر أبي بكر وعليّ أمامَ أولئك العامة . فلم أشأ أن أعارضه أو أعرّض نفسي لفتنة يشبّ ضرامها بيني وبين أولئك الجهلاء . حتى سمعتهم يخوضون في انه تعالى خلقنا وخلق السموات والارض ، فمن خلق الله ؟ وأين مكانه ؟ فاقشعرّ جسمي ولم أطق صبرا عن الردّ عليهم . وقلت لهم ان مباحث المتكلمين لا تعنيكم . والدخول في هذه المحارات ربما يضلكم ويرديكم . وانما ابتليتم بهذه المحنة لغلبة الحسّ عليكم : فلم تعودوا تطيقون أن تسمعوا بوجود شيء من دون الظن بأن ذلك الشيء له خصائص الموجودات الاخرى وملابساتها . فأنتم تعلمون أن الله موجود . وتعلمون أن الموجودات لها موجد . فتحسبون أنه تعالى له موجد أيضا . وهو محال : لان الموجود الحادث هو الذي له موجد . أما القديم فلا موجد له . والا كان لموجده موجد وهكذا . وترون ان كل موجود له مكان يستقر فيه . وتعلمون انه تعالى موجود فتحسبون ان له مكاناً يستقر فيه . وهو خطأ لانه لو كان له مكان لكان محدوداً محسوساً محتاجا الى حيز يقوم فيه . وهذا محال في جانب الالوهية ذات الكمال والاستقلال المطلقين ولكن أنتم غلب عليكم معنى الحس ويصعب عليكم أن تتعقلوا الشيء مجرّداً فينبغي أن تقفوا في ذلك موقف الروية والاحتياط . وتعتقدوا بأنه تعالى لا يشبه أحداً من خلقه . وانه وان كان موجوداً فليس وجوده كوجودهم حتى يحتاج الى موجد ومكان بل أقول لكم على سبيل التقريب والتمثيل انظروا الى (المكان) نفسه أليس هو مخلوقا . ومع هذا فليس له مكان ، أي ليس للمكان مكان . والا كان للمكان الثاني مكان وهكذا . فاذ قد وجد بعض الموجودات الحادثة وهو (المكان) لا مكان له فأحر بأن يكون الموجود القديم وهو الله تعالى

لا مكان له .

ومن عجيب أمركم أيها العوام أنني لو أردت مشاركة أُحدٍ منكم في صنعته فمددتُ يدي الى مساعدة النجّار والحداد والحائك لقلتم لي دعنا فقد أفسدت علينا عملنا . فاذا قلت لكم انى عالم تقولون : نعم ولكنك لست بنجار ولا حداد ولا حائك . ومع هذا فانني أراكم تدخلون فى عمل العلماء فتبحثون في مسائل الكلام وتسلكون من البحث مجاهل مشتبهة الأعلام . ألا يكون من الحق أن أقول لكم دعوا هذا لاربابه وخذوا فى شؤونكم الخاصة بكم ؟

فلم أكد أفرغ من حديثي حتى مر بنا رجل ثائر الرأس . أصفر الوجه . غائر العينين . عليه جبة ذات رقاع مختلف ألوانها . وبيده عكازة في أعلاها حربة صغيرة . وكان يمشي متخشعاً مطأطئاً رأسه الى الارض . فانصرفت اليه عيون الحاضرين وقلوبهم . وقاموا اليه يدعونه الى الجلوس معهم لاجل التبرّك به فأبى ومضى في سبيله . وقد سمعتهم يثنون على ذلك الرجل . ويصفونه بالزهد : فهو لا يتزوج . ولا يتأثل عقاراً . ولا يتناول من الطيبات شيئاً . ولم ير قط يأكل عنباً أو رطباً . ثم قالوا وأين هو من فلان وفلان الذين يتنعّمون ويتورّنون . وجعلوا يعددون جملة من العلماء الذين تفتخر بهم بغداد . وينافس بهم عصرهم سائر العصور . فكانوا يفضلون هذا المتزهد الجاهل على اولئك العلماء : وليس من سبب لذلك سوى انخداعهم بزهده وطريقته التي خالف فيها طريقة النبى وأصحابه . فهو وأمثاله قد تعمدوا الفقر والبطالة وأعرضوا عن الكسب والارتزاق بقصد العبادة والتقرب الى الله . أما اذا كان في أصحاب النبى فقير فقد جاءه الفقر من عدم مواتاة الاحوال والبلد الذى يعيش فيه مثلا لأن يكون غنياً . لا أنهم رضوان الله عليهم اتخذوا الزهد فى الدنيا وترك السعي فى مناكبها طريقة دينية وسنة شرعية : اذ أن هذه هي الرهبانيــة بعينها . حاشاهم من ذلك وحاشا العلماء أن يخالفوهم فيه .

أما أولئك المتزهدون فقد فهموا الدين معكوسا. وأخذوا من حلة بعض الصحابة قاعدة حسبوها مطردة واجبة الاتباع فخدعوا بذلك العامة وتزحزح الدين شيئاً فشيئاً عن أساسه الاول وهو الجمع بين مصلحتي الدنيا والآخرة « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » وفي تقديم حسنة الدنيا ارشاد لاولئك الغالين من المتزهدين • على أن من هؤلاء من يحبّ المال حباً جما لكنه وجد الزهد والتقشف أقرب طريق لخديعـة الناس واستدرار المال من جيوبهم • وبئس ما فعلوه

قال الـكاتب وقد لاحظت من العامة أنهم يميلون الى الغرباء ويفضلونهم على علماء بلدهم فتراهم يعطفون على الغريب ويخضعون لقوله ويعتقدون فيه فوق ما هو فيه من العلم والمعرفة . وربما كان سيء الأخلاق واهي العقيدة . أما ابن بلدهم من العلماء فلا يحترمونه ولا يميلون الى قوله مهما كان عالما فاضلا . ومن طباع العامة أنهم يصدقون من الكرامات ما لا يصدقه العقل ، ولا يؤيده النقل ، ومن العامة من يرتكب المنكرات ويحتج لفعلته بأن فلاناً وعلانا من العلماء يجترحون المعاصي أحيانا وآخرون يرون أنفسهم أحقر من أن يعذبهم الله لاجل ذنوبهم ويقول أحدهم « من أنا عند الله حتى اذا تبت لا يغفر لى ذنبي » وبعضهم يغتر بنسبته لآل البيت أو لفلان العالم أو فلان الزاهد : فيعصي الله اتكالا على شفاعة من انتسب اليه . ومثل هذا من يقول أنا من أهل السنة . وأهل السنة على خير • ثم لا يعود يتحاشى المعاصي • وهناك قوم من العيارين يسمون أنفسهم « فتيان » يتنزّهون عن الزنا والـكذب والتعرض للاعراض لـكنهم يستحلون السرقة وأخذ أموال الناس بالباطل ويسمون طريقتهم « الفتوّة » وكما أن الصوفية يلبسون الداخل في طريقتهم المرقعة كذلك الفتيان يلبسونه سراويل كالتبان . وقد يقتل أحدهم اخته اذا سمع عنها كلمة سوء . وربما كانت كذباً ومينا . ويدّعون أن هذا من الفتوّة.

ومن أكبر آيات الفتوة أن يصبر واحدهم على الضرب فيتناثر لحمه تحت سياط الشرطة ولا يشكو ولا يتأوه . ولما مدّ أحمد بن حنبل للضرب وأحضرت له السياط — جذبه انسان من ورائه بثوبه فالتفت اليه فقال أتعرفني قال لا قال أنا « خالد الحداد » رئيس عصبة العيارين اللصوص . مكتوب فى ديوان الشرطة اني ضربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق . وصبرت فى ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا فاصبر أنت على طاعة الرحمن لأجل الدين » وكم من عامي تعبد برأيه وبكى فى حلقة الذكر وواظب على صلاة الرغائب وأعرض عن الفرائض وبقي مصراً على الفواحش . وقام بعض العامة مرة فتزهد وتشدّد في العبادة ماشاء وحفظ القرآن . ورأى أخيراً أن يجبّ نفسه . ففعل . وهو يحسب أنه يتقرب بذلك الى الله

هذا نموذج من أحوال عامة بغداد في القرن السادس واذا قابلت بين أحوالهم هذه وبين أحوال عامة القرن الثالث عشر وجدتهما نسختين متقابلتين بالحرف لا اثبات فيهما ولا حذف



الطلاق في الاسلام[١]

مهما تحرى الرجال في أن يختاروا لانفسهم زوجات صالحات . ومهما توخى النساء في أن لايكون من نصيبهن الا الازواج الصالحون — مهما توخى الجنسان ذلك واتخذوا للوصول اليه كل وسيلة حتى المعاشرة والمخالطة قبل العقد — لابد أن يوجد فيهم من لم يقع على جنسه . ولم يؤلف العقد بينه وبين شكله . بحيث تتنغص الحياة ويفقد النكاح مزاياه التى أشار اليها سبحانه وتعالى في كتابه الكريم « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فاذا لم يحب أحد الزوجين الآخر أو لم يجد في نفسه سكوناً وارتياحاً اليه أو فقد التعاطف والتراحم بينهما — كان الشقاء من نصيب هذا الزواج . وكانت العاقبة وخيمة على العائلة التي تتكون بين هذين الزوجين .

ومن رحمة الله بالبشر أنه لم يهمل هذه الحالة التي قد يتفق وقوع الزوجين فيها — فوضع لها حدوداً وجعل للزوجين منها مخرجاً وهو حل عقدة النكاح التي ألفت بينهما . ويسمى في لسان الشرع بالطلاق.

ولما كان الطلاق من البشاعة بحيث تشعر به كل نفس كريمة وبحيث يقول الشارع في الاشارة الى تلك البشاعة « أبغض الحلال الى الله الطلاق » — جعله الشرع في العدوة القصوى فلا يخلص اليه الزوج ما لم يجتز اليه خمس مراحل

وقبل بيانها نذكر أمرين حريين بالذكر : الاول ان مرادنا بالطلاق هنا الطلاق الذي لارجعة له الا بعد نكاح زوج آخر ويسميه الفقهاء بالبينونة الكبرى . والثانى أن المراد بالحلال في قوله صلى الله عليه وسلم السابق « أبغض الحلال الى الله الطلاق » مجرد الجواز كما هو مدلوله اللغوي لاكما تعورف عليه من أنه العمل المستحسن الذي يطلبه الشرع ويثيب عليه : فيقال اذ ذاك كيف أن الطلاق حلال ؟ وكيف

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م

أنه تعالى يبغضه ؟

أما المراحل الخمس : فهى (١) أن يصبر الزوجان صبراً جميلا لا يصحبه أذى ولا يتخلله اجحاف · فيوشك أن يأتى عليهما زمن يفهم أحدهما صاحبه . ويقف على مخادع نفسه وكنه طباعه . فيتوائما اذ ذاك ويتوالفا . وقلما يتفق الزوجان لأول عهد اتصالهما : وسببه عدم معرفة أحدهما أخلاق الآخر فيتنافران ويتناكدان ثم لا يلبثان ان يتطامنا ويسكن الواحد الى صاحبه . فلو طلق الزوج زوجته لمجرّد حصول هذه الكراهة الاولى ساءت عاقبة أمره : فاما أن لا يعود يتزوجه أحد ولا يرغب فى مصاهرته . أو يتزوج من يكرهها وينفر منها فى أول الامر حسب العادة فيطلقها أو يضطر أن يصبر عليها . وهو لو صبر على الاولى وغفر لها أراح نفسه من هذا العناء . لذلك كله نقول إن على الزوج مهما اشتد النفور بينه وبين زوجته أن يصبر وينتظر : فان طول الزمن كفيل بتهذيب النفوس . وترويض الأرنّ الشَّموس .

(٢) المرحلة الثانيه : اذا لم يعد الزوجان يطيقان الصبر وكثر النكد وحصول الجور بينهما رفع الامر الى الحاكم فيبعث حكما من أهله وحكما من أهلها لاجل التوفيق بينهما : فان الحكمين يبحثان بحثا دقيقا عن مثارات النفور وأسباب الكراهة ويريان إن كانت من قبل الزوج أو الزوجة ثم يشيران بالعلاج الناجع ويعملان على ازالة تلك الاسباب . فيزول سوء التفاهم بين الزوجين . ويتميز صاحب الذنب من البريء منهما . فيعرف ذنبه . ويصلح عيبه . فالحكمان كالطبيب الذي يشخص الداء ويعين موضعه . فتسهل معالجته : ومعرفة دواء له

(٣) المرحلة الثالثة: اذا كان الزوج والزوجة من الجهل والأفن بحيث لا يعرفان كيف يصلحان عيبهما ، ويقدعان نفسهما ، ويلتزمان حدود الله ، فتماديا في الجَوْر والخصام والشقاق ـ كان للزوج حينئذ أن يخطر زوجته أول اخطار فينذرها

بالطلاق (أي بالفراق) الذي لا رجعة معه. وهذا الاخطار هو ماسماه الشرع (الطلقة الاولى). فيقول الكلمة التى جعلها الشارع علامةً على ذلك. فاذا قالها تزعزعت الزوجية واضطربت النفس الساكنة فيساعد ذلك على تصور المآل والعاقبة ويقع في خيال كل منهما صورة للمستقبل الجديد الذى أقدما عليه : ما حال الاولاد الصغار الضعاف بعد هذا الفراق ؟ هل يبقى الواحد منهما أرمل بعد الفراق محروما من هدو المعيشة المنزلية التى ألفها أم يتزوج ؟ ومن يتزوج وكيف تكون أخلاق ذلك القرين الجديد ؟ وهل يوائمه أو لا ؟ وهناك خواطر كثيرة تعرض للمرء في تلك الحالة لاسيما أنه عرف من شؤون البيوت وأسرار الزواج مالا يعرفه سواه

لا جرم أن الاخطار الاول أو الطلقة الاولى خير وازع للنفوس عن غيها ومعيد اليها صوابها. واذا طلقها الطلقة الاولى كما قلنا وأدركا عاقبة الفراق كما وصفنا أثر ذلك في نفوسهما تأثيراً يحملهما على العتاب وتلافي ما كان هنالك من أسباب فيراجعها الزوج بقول أو عمل يفيد الاضراب عما كان نواه من الفراق. ويديل الوفاق من الشقاق.

(٤) المرحلة الرابعة : أن لايكون للطلاق الاول أو الإخطار الاول أثر في الزوجين لتحجر البغض في نفسيهما أو غلبة الجهل عليهما، فيدلى اليها بالطلاق الثاني أو الاخطار الثاني. وهذا يكون أشدَّ من الاول في ازعاج الزوجين وانذارهما وادناء صورة المستقبل الوخيم الى خيالهما

(٥) المرحلة الخامسة : هى أن يطلق الزوج زوجته الطلقة الثالثة وتسمى (البينونة الكبرى) فتصبح أجنبية عنه لا تحل له الا بعد زوج آخر.

ولماذا اشترط هذا الشرط الاخير أعنى الزوج الآخر ؟ يقولون ان اشتراطه لتأديب الزوجين على ما كان منهما. وقد يقال : ان أساس الزواج الحب والمرحمة والسكون كما أشار اليه تعالى في الآية السابقة. وهذا الاساس نفسه مبنيٌّ على

أساس آخر أعنى اتحاد الزوجين في الطباع والاخلاق : فاذا فقد هذا الاتحاد لم يعد حب ولاسكون . وربما حصل سوء تفاهم بين الزوجين اذ قد يكون هنـاك تقارب في كل مامن شأنه أن يؤلف بينهما لكنهما يخطئان سبيل الالفة والوفاق . ولذلك أرشدهما الشرع الى الرفق والتؤدة في أمر الفراق . وأشار عليهما باجتياز المراحل الخمسة قبل إيقاعه . حتى اذا اجتازاها وتفرقا تبين ان الخير فيما حصل . وانهما لو بقيا مرتبطين بارتباط الزوجية كانا في شقاء دائم . وعجزا عن المحافظة على الحدود التى أوجب الشرع المحافظة عليها . اذ لا معنى لزوجية ـ السعادة فيها مفقودة . وحدود الله غير مرعية .

واذا أرادا المراجعة بعد اجتيـاز المراحل المذكورة حظرها عليهما الشرع للقطع بأنهما لا يعرفان كيف يتفقان ولا يقيمان ما وجب من الحدود . ولكل منهما أن يبحث عن زوج يوائمه ويلتحم مع أخلاقه وطباعه . فيكون له في الزواج الثاني من الهناء والسعادة المنزلية ما لم يتيسر له في الزواج الاول .

فاذا تزوجت تلك المطلقة وائتلفت مع الزوج الثاني بورك لها . سواء أكان ذلك الائتلاف ناشئاً عن خوفها من أن تُطلّق ثانيةً . أو كانت أخلاقُها في الواقع ونفس الامر حسنةً . وطباعها كريمة : فلم تلتئم مع الاول لسوء أخلاقه : والتئمت مع الثاني لكرم طباعه

أما اذا طلقها الثاني فيكون ذلك بمثابة تسجيل عليها بأن سـوء الاخلاق مطلعه من قبلها . وأنها السبب في كل ماوقع بينها وبين زوجها الاول فتستخذي وتنكسر من حدّة طباعها وغُلوائها ـ مما يساعد على الالتئام بالزوج الاول اذا عادت عليه . ولذلك أباحه الشرع لهما

والحاصل أن (شريعة الطلاق) مما يتطلبه الاجتماع البشرى بطبيعته . وان الاسلام علّمنا الادب فيه : فنصبر أو نوسّط محكمين أو نتدرّج في إيقاعه تدرّجا

بطيئا نتمكّن معه من التدبّر وتصوّر العاقبة حتى اذا يئسنا من الوفاق كان الفراق

هذه هى آداب الاسلام فاذا كان من أبنائه أو كثيرون منهم يطلّقون زوجاتهم

دفعة واحدة لاسباب تافهة أو لذنبٍ جناه غيرهن في الاسواق ومواطن الاشغال

لم يكن الاسلام مسئولا عنه وانما المسئول عنه أهله الغافلون. وأولو الامر المفرّطون



تقييد الطلاق

قال المستر (اجنيري) الانكليزي معلم اللغة العربية في مدرسة عامة الفنون في مدينة اكسفورد « ان أصحاب الابل (يعنى العرب) قد عرفوا أن الريح تلقح الاشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوربا بثلاثة عشر قرنا » يشير الى قوله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) أي تنقل اللقاح بين النباتات.

ونقول نحن: ان الدين الاسلامي كما أشار الى بعض قواعد كليةٍ في العالم الطبيعي كمسئلة التلقيح قرّر أيضا أصولاً عامة للعالم الادبي والاجتماعي.

فبينما الشريعة الاسلاميــة منذ ثلاثة عشر قرنا تقرّر الطلاق وجواز زواج الرجل بأخت زوجته المتوفاة كانت أوربا طول هذه المدة تكابد عناء حرمانها من هاتين الشريعتين اللتين يتطلبهما الاجتماع البشري بطبيعته. حتى ظفر أخيرا ملك انكلترا بأمنيته وهتف بملء فيه في البرلمان فرحاً متهللا قائلا « وقد مهدت عقبةً كؤودا تتعلق بزواج الرجل بأخت زوجته المتوفاة زواجاً شرعياً »

وأخذت شعوب أوربا وأميركا يتلمّسون الوسائل في الخلاص من شريعة التضييق في منع الطلاق. وقد قرّر (السينودس) الروسي أخيراً - جوازه تحت شروط معدودة. وناهيك بالروسية الارثوذكسية المتعصبة

لهذا كله أ كبر العقلاء لأوّل وهلةٍ ماجاء في تقرير اللورد كرومر الاخير

من أن في الدين الاسلامي « سنناً وشرائع عن علاقات الرجال والنساء مناقضة لآراء أهل هذا العصر »

كيف وأهل العصر أنّى اتجهوا اهتدوا اليه . وكلما أرادوا الهروب منه وقعوا عليه ، مهما قلنا ان في الاسلام أصولا عامة وتعاليم سامية تصلح للبشر على اختلاف أعصارهم وتباين أمصارهم لا يمكننا أن نقول ان المسلمين اليوم وُفقوا الى العمل بهذه التعاليم وبنوا اجتماعهم الحاضر على أسس تلك الاصول .

من ذلك أمر الطلاق فقد شرحنا في المقال السابق حكمته وكيف علمنا الشرع أن نوقعه اذا أُلجئنا اليه . ولكن شأننا اليوم على خلاف الادب الذي علمنا الشرع اياه لا سيما عامة المسلمين الذين لم يراعوا في علاقاتهم مع زوجاتهم شرعاً ولا أدباً . وقد كثر فيهم الطلاق كثرة كانت عاقبتها وخيمة عليهم وعلى عائلاتهم وعلى أولادهم الذين يتكوّن منهم سواد الامة . حتى ضجّت من حالتهم هذه المحاكم والحكام . والكاتبون الكرام .

وقد تطالّت أعناق العقلاء الى وضع حدّ لهذه الحالة يحول بين هؤلاء العامة وبين الاضرار بأنفسهم وأهليهم في مواقعة الطلاق ـ لغرض تافه . أولا لغرض الا للجهل والشهوات

الشرع أعطى الحق للزوج في أن يطلّق اذا شاء فليس من مقدور أحد أن يسلبه هذا الحق أو يفتات عليه به .

ثم جاء علماء الدين والمشتغلون بالفقه فتوسّعوا ما شاؤا وشاء اجتهادهم في تفصيل صور الطلاق وأنواعه وضروب ألفاظه . وانه حق الرجل مهما كانت صفته حراً أو عبداً عالما أو جاهلا فطنا أو غبيا . فليس لأحد أن يقول ـ بعد ما قال الفقهاء ما قالوا ـ ان هؤلاء العامة الجهلة الاغبياء لا يحسنون استعمال هذا الحق الا بقدر ما يحسن الطفل استعمال الآلة الجارحة في يده .

ليس لأحد أن يقول ان الشرع الذي علم بالطلاق وأجازه علّم أيضاً بوجوب تعلّم العلم واستكمال آداب النفس وجعل كل ذلك فرضاً عينيا فقال « طلب العلم فريضة على كل مسلم »

ليس لأحد أن يقول ان الشارع الذي قرر هذين التعليمين (طلب العلم واباحة الطلاق) واحد . وان الزمن الذي تقررا فيه واحد ـ فكان من مقتضى هذا أن يكون أحدهما شرطاً للآخر فلا يباح الطلاق الا للعالم بآدابه . الواقف على اسراره .

ليس لاحد أن يقول ان اباحة الشارع الطلاق بعد تقريره فرضية طلب العلم كقول الطبيب للمريض يجب عليك أن تتناول دواء كذا ويباح لك أن تأكل كذا . فأكل المريض ما أباحه له طبيبه . لكنه لم يتناول الدواء الذي أوجب عليه تناوله فضرّه ذلك الطعام من حيث أن جسمه لم يكن تقوى بذلك الدواء فقامت قيامة الناس على الطبيب الذي أباح للمريض أكل ذلك الطعام . مع أن الطبيب انما أباحه له بعد ان أوجب عليه تناول الدواء ـ إيجاباً لاهوادة فيه . ولا مندوحة عنه .

نعم ليس لاحد أن يفتح فمه بمثل هذا القول لان العلماء يحتجون على القائل بأننا اذا لم نوقع طلاق العامي الجاهل تشابهت الحدود بين العلماء والجهلاء وأعوز الفرق بين الاذكياء والاغبياء وقد يتفق أحياناً أن يدعى العالم الذكيّ انه أبله من البلداء ليتخلّص من طلاق صدر منه ثم عرف ما ينتج عنه من خراب وبلاء . كما يزعم بعض المطلقين أو معظمهم انهم كانوا حين إيقاع الطلاق في حالة غضب شديد يشبه الجنون ـ يتوسّلون بهذه الدعوى الى عدم وقوع الطلاق عليهم .

لذلك كله كان علينا أن نتنكب هذا الطريق الوعر في بحث تخفيف شرور الطلاق ونسلك اليه طريقة مأمونة . وننظر فيه من جهة مألوفة :

لا يخفى ان الامور التى أباحها الشرع لنا ثم أمر بها امام المسلمين أو نهى عنها يصبح بعد الامر أو النهي واجبة أي يجب على المسلمين أن يفعلوها في صورة الامر أو يتركوها في صورة النهي . وذلك لان الامام لا بدّ أن يكون له من وراء أمره أو نهيه غرض حميد يرجع الى مصلحة المسلمين وتعود بالخير عليهم . مثال ذلك النكاح فانه لا يشترط فيه شرعاً سوى حصول العقد بحضور شاهدين وليس من شروطه أن يخبر الزوج أو العاقد ـ وليّ الامر بأنه سيجرى العقد ويطلب الاذن منه . لكنه لو فعل وأخبره لما ضر ذلك وكان مباحا . ثم لما أخذ عامة النـاس في الامصار الاسلامية يتزوجون كيفما اتفق بدون تبصر ولا تدبّر ووجدوا من جهلاء الشيوخ وذوي الطمع فيهم من يعقد لهم ويبارك عليهم . وقد يتفق أن تكون المعقود عليها في عدة الغير . أو تكون ذات زوج غائب . أويكون ثمة مانع شرعيّ من العقد لا تتنبه العامة اليه أو يحملهم جهلهم على الاعراض عنه اتباعا لاغراضهم وشهواتهم ـ رأى ولاة الامور أن لا يعقد أحدٌ على امرأة إلا بعد الاستئذان منهم

ففي بلاد الدولة العلية يراجع الزوج المحـكمة الشرعية فيعطيه القاضي ـ بعد البحث والتنقيب عن حلة الزوجين ـ ورقة تسمى « اذنـامه » تتضمن اذن أحد الشيوخ باجراء عقد الزوج على مخطوبتـه إن لم يمنع مانع شرعي أو نظامي وأيّ زوجين تزوّجا من دون اذن نزل القصـاص بهما وبالشيخ الذي عقد لهما وبشيخ الحارة المنتسبين اليها .

وكذا الشأنُ في (مصر) فان المـأذون الشرعي هو الذى يتولّى العقد أو يكون العقد في حضوره . ولا يجوز اجراء عقد من دون مشارفته . وكلّ أحد منا يعلم أن هذا الصنيع من ولاة الامور لم يكن من قبيل الافتئات على الشرع . ولا تعطيل لاحكامه . ولا ابطال للحرية الشخصيّة . ولا تحليل أو تحريم في الدين ـ

وانما هو من قبيل ضبط الامر المنتشر واستصلاح فساد العامة بل هو يرجع الى تنفيذ أحكام الشريعة وحفظ حدودها ورفعة شأنها

والاّ فانّ العاقد على امرأةٍ من دون استئذان وليّ الامر يصحّ عقده واذا دخل عليها لم يكن زانياً ولم تكن أولاده لزنْية . بل كان كل ذلك حلالاً في حلال : لكنّه مؤاخذ لمخالفته وليّ الامر في أمر فيه مصلحة عامّة . وطاعة أولياء الامور فيما كان من هذا القبيل واجبةٌ شرعا

فاذا فهمنا هذا الوضع في النكاح وألفناه ورأينا نتائجه الحسنة ودرجنا عليه حقبة من الزمن في كثير من البلاد الاسلامية ـ سهُل علينا أن نفهمه فى الطلاق وندرج عليه فيه . ونستفيد من نتائجه .

نحن نقول للمعارض : لانُريد في هذا الوضع أن نحرّم الطلاق . أو نمنعه عن صاحب الحق فيه وهو الزوج ! وانما نرجو من هذا الاخير أنه اذا أراد الطلاق أن يراجع المأذون ويطلّق على عينه . ونكونُ قد وضعنا للمأذون من قبل لائحة تتعلّق بهذا الشأن يمشي عليها ويكون فيها تفصيل النظر لحالة الزوج وزوجته والباعث على الطلاق واتخاذ الطرق الحكيمة فى منع وقوعه ـ الى غير ذلك مما فيه تقليلٌ لواقعات الطلاق وتخفيف لشرّه ثم اذا طلّق امرءٌ من دون مراجعة المأذون لا نقول إن طلاقه لم يقع ولم يكن من أثره الفراق بين الزوجين ـ هذا لانجسر عليه وانما نقول إن المطلّق خالف أمر الإمام فيما رأى مراعاته مفيدة في مصلحة المسلمين ومن خالف أمره كذلك استحق من التعزير على قدر أثر المخالفة . لاجرم أن العامّة اذا رجعوا في طلاقهم الى المأذون كما رجعوا اليه فى عقود أنكحتهم وكان المأذون عالماً فطناً ذلق اللسان ـ أمكنه أن يرأب الصدع ويُصلح بين الزوجين . ويقوم مقام الحكمين اللّذين ورد ذكرهما فى القرآن الكريم

ويرد على هذه الطريقة اعتراضان لايحسن إغفال ذكرهما :

(١) ان الطلاق في الاعمّ الاغلب انما يقع في حين الغضب : تناقر المرأة زوجها فيغضب فلا تبالي بغضبه فتكثر من اعناته والصخب في وجهه فيشتدّ غضبه فيطلّق . فمن أين نأتي بالمأذون ساعتئذ ؟ وكيف نكلّف العاميَّ الغضبان أن يكون في حِلْم الاحنف ومعاوية بن أبي سفيان . فيكظم غيظه ويمسك عن الطلاق حتى يحضر المأذون أو يسعى هو اليه

(٢) اذا أفلتت كلمة الطلاق من فم المرء في حال غضبه وعرف أنه سيعاقب على تطليقه زوجته من دون استئذان ـ أنكر الطلاق وأخفى أمره وتوسل بكل حيلة في أن لا يصل خبره الى ولاة الامور ثم يعيش مع زوجته فى الحرام ويكون أولاده منها لغير رشْدة

أما موضوع (الاعتراض الاول) فهو عين ما نشكو منه ونطلب ازالته : نريد أن لا يكون الطلاق بين العامة من نتائج الغضب . فاذا عرفوا أنهم معاقبون تبصروا رويدا رويدا واعتادوا فى غضبهم أن لا يتفوّهوا بكلمة الطلاق فيخفّ الشرّ ويقلّ الويل .

أما (الاعتراض الثاني) فهو أوجه من الاول . وقد يقال فى الجواب عليه ان الزوج اذا خاف فكتم الطلاق يبعد أن تجاريه زوجته . وهى تعرف أن بقاءها معه على غير مايرضى الشرع .

على أنّي لم أبتّ الرأي بتًّا وانما مهّدت الطريق أمام الفضلاء الباحثين وجئت بكلامي كمقدّمةٍ لما يكتبونه فى هذا الموضوع الذي يتوقف على إصلاحه إصلاح بيوتنا . وحفظ كرامة عائلاتنا . ودفع طعن الطاعنين في ديننا

بدعة ضرب السلاح

عند الشيعة وأهل السنة [1]

مهما حالت بين أهل السنة وبين الشيعة حوائل سياسية وحواجز تقليدية — فلن تحول هـذه الحواجز دون اعتبارهم أمةً واحدة . تجمعهم رابطةٌ واحدة . وتلفهم اخوّة واحدة . أعني أخوّة الاسـلام . فالقرآن كتابهم . ومحمد نبيهم . والكعبةُ وجهتهم . ونحن وإياهم على شهادة أن لااله الا الله وأن محمداً رسول الله . وإقام الصلاة . وايتـاء الزكاة . وصوم رمضان . وحج البيت من استطاع اليه سبيلا .

وقد كتب الينا — بمناسبة دخول شهر محرّم — طائفة من نجباء الايرانيين في القاهرة يكلفوننا أن نكتب كلمة في البدع التي تجري يوم عاشوراء فننهى عنها كما جرت عادتنا أن نندّد بالبدع المختلفة التي يفعلها أهل السنة

وماذا نقول في تنبيه الشعب الايرانى النجيب الى ملافاة تلك البدع وهاهو قد نهض نهضة الأسد القسور لاصلاح حكومته وبنائها على أساس من الحكمة والدين متين

فما هي بدعة عاشوراء أمام هذا الشعور الشريف ؟ وماهو ثباتها أمام هذه النهضة العالية ؟

ليست بدعة عاشوراء سوى هـذه الملحمة الهائلة والدماء البريئة السائلة . وما عدا ذلك مما يجري في ذلك اليوم فكله تزاور وتعاطف . وعمل مبرات . وتوزيع صدقات .

وقد حقّق الخبيرون أن نشوء تلك البدعة بين الايرانيين يرجع الى سبعين

(١) كتبت سنة ١٣٢٦هـ و ١٩٠٨ م

سنة أو أقل . وأن محوها من بينهم لا ينتظر سوى كلمة من أحد مجتهديهم .

ان حادثة الحسين عليه السلام لمن أكبر الحوادث في الاسلام . وأشدّها إيلاماً لنفوس المسلمين

لولم يعلّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أدب الحزن في قوله عند دفن ابنه ابراهيم « ان العين لتدمع وان القلب ليخشع ولا نقول الا ما يرضي الرّب وإنا عليك يا ابراهيم لمحزونون » وينهانا عن اللدم وقصّ الشعر مما كان من خصال الجاهلية — لولم يعلمنا ذلك لكانت حادثة الحسين جديرة بأن تذهب نفوسنا وراءها حسرات . لا أن نكتفي عند ذكراها من الدم بقطرات . الأخلق باخواننا الايرانيين أن يضنوا بدمائهم فلا يبذلوها في غير إحياء الحق وإقامة العمود المائل كما يفعلون في أنحاء مملكتهم لهذه الايام . وكما بذلها الحسين نفسه (رضي الله عنه) في هذا السبيل الشريف — في سالف الأزمان .

إن بين أولئك القوم الذين يريقون دماءهم في تلك الملحمة الهائلة — فقراء نراهم في أشد الحاجة الى تلك الدماء يشدون بها أبدانهم ويقوْون بها على الكسب والسعي وراء قوت عيالهم .

إن في هذه الحفلة إثخان أجساد . وشماتة حسّاد . وضحك أعداء . وبكاء أولياء .

إن اقامة هذا الموكب على وجهه لا يتيسّر مالم تحمه الحكومة . ولا تحميه مالم تنفح ببضع مئات من الجنيهات . وهذه الاموال تجمع من القوم وربما كان فيهم من لم تساعده مقدرته على دفعها طيبة بها نفسه .

فهل في فضلاء الايرانيين وذوى الكلمة النافذة فيهم من يصغى الى هذا النداء . ويجيب سؤال اولئك النجباء من النزلاء الايرانيين . فيسعى في اماتة هذه البدعة . ودفع أذاها . وزحزحتها عن عاتق أولئك البائسين الذين يقومون

بها وليسوا على بينة من أمرها.

لم أكن من جناتها علم الله وإني لحرها اليوم صالي

* * *

وإذا صحّ قولهم « الشيء بالشيء يذكر » فإننا قد ذكرنا بما يفعله الشيّعة من ضرب السلاح في يوم عاشوراء وهو يوم واحد في السنة ـ مايفعله أهل السنة من ضرب السلاح في كل الايام وفي كل الاقطار وبمناسبة ومن دون مناسبة.

قد يقول اخواننا الايرانيون انه يشتد حزننا. ويقوى أسفنا على ما جرى لآل البيت الى حدّ أن لا نعود نعي على نفوسنا. ولا نملك حواسنا. فنحز أجسادنا ونريق دماءنا. ولا يستنكر من عاطفه الحزن أن تبلغ بالمرء هذا المبلغ وهو أمر معهود في كل الامم والاجيال. وأما أنتم ياأهل السنة أو يا أهل الطريق ورجال التصوّف فما معنى أكلكم النار. وضرب أجسادكم بالسيف البتار. وما هي العاطفة الدينية التي نشأ عنها هذا الصنيع الممقوت؟ حقاً ان موقفنا مع إخواننا الشيعة في هذه المسألة موقف حيرة وخجل

هم يحزنون فيضربون أنفسهم. ثم يبالغون فيسيلون دماءهم. وأما نحن فلماذا نعذّب أنفسنا. ونريق دماءنا؟ ليس هناك عاطفة نفسية يكون من أثرها ايلام الجسد بحيث يمكننا أن نركن اليها في الاعتذار. وليس أمامنا مفر من أن نقول إن في عملنا هذا قربة الى الله: لأن عليه صبغة دينية. ولكن مامعنى هذه القربة وما منشؤها؟ وهذا النبيّ صلى الله عليه وسلم الذي علمنا العبادات وأنواع القربات علمنا الادب فى أكبر عبادة لنا فقال « اذا أتيتم الصلاة فأتوها وعليكم السكينة والوقار»، فكيف نتقرب الى الله بما ينافي السكينة والوقار؟ وقد عاتب الله سبحانه نبيّه مذ كان يتشدّد فى العبادة ويصلى ويطيل القيام حتى تورمت قدماه وجعل يرفع قدما ويضع قدماً فقال تعالى « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » يعني أن

الدين لايكون وسيلة لبخع النفس وشقائها وامتحانها بالأوصاب . وضروب الآلام والاتعاب .

إن كان يجوّز ذلك دينٌ فهو دين الهنود القدماء الذين كانوا يتقربون الى الله بضرب أنفسهم بالخناجر وتعريضها لصنوف الآلام . وانا على يقين من أن هذه البدعة الخبيثة اتصلت الينا معشر المسلمين من أولئك الهنود . وبعد أن فتح بلادهم الغزنوي محمود .

من زار الجامع الاقمر في شارع (مرجوش) في ظهر كل يوم جمعة رأى العجب العجاب .

والذي يزور مزار (الشيخ يونس) في القرافة يرى من الرفاعية وتحلق النساء حولهم الاعجب والاغرب .

ولا تنس أيضاً اخوانهم (رفاعية) القلعة و (مرغنية) سوق السلاح وشاذلية (الحسينية) . بل لاتنس المواسم والحفلات التي تقام في سائر بلاد الاسلام عجمها وعربها فانه يجري فيها من ضرب السلاح وايلام الاجسام وتعذيب النفوس التي كرّمها الله مالايقاس فى جنبه صنيع اخواننا الشيعة فى يوم عاشوراء

فاذا كنا نعيب هؤلاء وننعي عليهم تقليدهم ونطالبهم بالكفّ عنه والابقاء على سمعتهم ثم لانفكر نحن فى انفسنا ولا نرعوي من سيء أعمالنا صدق علينا قول الشاعر :

(يا أيها الرجل المعلّم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم)

(ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فاذا انتهت عنه فأنت حكيم)

وان عقلاء الامم الاسلامية وزعماءها مسئولون أمام الله عن إهمالهم وتراخيهم في اصلاح هذه البدع الضارّة . ومحو تلك التقاليد السيئة . وقد تيسرت لهم من سهولة المواصلات وحرّية نشر الافكار . ووسائل المباشرة بانجاز الاعمال ـ ما ان انتهزوا فرصته لن يضلوا بعده . والامر لله وحده .

سعيد وحسني (١)

لاشيء ينغّص العائلة ويلقى الشقاق بين أفرادها مثل ان يبتلي بعضهم بشرب الخمر . وتعاطى المسكرات . وما كفى المسلمين اليوم أن يغلب على عامتهم وكثيرين من خاصتهم فساد الاخلاق . والتواء الطباع . حتى تسطو عليهم الخمرة . وتزيد عائلاتهم فساداً على فساد . وارتباكا على ارتباك .

ومعظم الارتباك انما ينشأ عن أية الطرق نسلك في انقاذ المدمن من حالته وشغله عن المعاقرة والتردد الى الحانات . لايجيء الوقت الذي اعتاد المدمن أن يشرب فيه ويجتمع مع خلانه وندماه حتى تراه قد استحوذ عليه القلق ولم يعد يعي ولا يسمع من دون أن يسرع الى حيث يسكّن قلقه وينهنه من نزوع نفسه بتجرع ذلك السم القاتل .

فاذا حاول أبوه أو أمه أو أى واحد من أهله أن يأخذ بحجزته . ويحول بينه وبين المضي لطيته . حاول عبثاً وذهب سعيه سدى .

ومن كان مثل أبي سعيد فى عدم ممارسته . وقلة دربته . ثم نزل به حادث من مثل ماذ كرنا كان جديراً بأن يعييه أمره وتعوزه الوسائل لملافاته .

***

السيد أبو سعيد من سكان الغورية . وقد أوتى من كثرة المال . وانفساح النعمة مايضمن له الراحة . وطيب الحياة . وله زوجة تحا كيه في الصلاح والتقوى وقلما مرّ عليها يوم من دون أن تتقرب الى الله بطاعة . أو تسدي الى فقير مبرّة

وكان ابنهما البكر (سعيد) فى الثلاثين من عمره وقد تخرج من بعض المدارس التجهيزية . وله صهر موظف في الدواوين فلم يدعه يتمم الدراسة في

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ ه و١٩٠٩ م

المكاتب العالية بل اجتلبه الى دائرته . وضمه الى من فى كنفه من الكتبة والمستخدمين . أما أخوه الاصغر حسنى فكان فى الرابعة عشر من عمره وهو تلميذ فى مدرسة القربية . يغدو ويروح اليها في طلب العلم كالطير تغدو خماصا وتعود بطانا . فكان يستفيد علما وأدبا وتربية . أما الدين فلم يكن مما يستفاد من بروغرام هذه المدارس وانما كان يستفيده من البرغرام العائلي : أى من سيرة أبيه وأمه وتقواهما وحسن تدينهما . وكانت حالتهما هذه نعم الدليل أمامه الى آداب الدين . وخصال الاسلام .

ثم غفل أبو سعيد عن سعيد حاسباً ان وجوده فى ذرى صهره وكنف رعايته كاف لبقائه مصون الدين . موفور الآداب . ولم يدر أن هذه (البارات) المنتشرة حوالي الازبكية تخدع شباننا الاغرار . كما تخدع الفخاخ حوائم الاطيار . فاتفق لسعيد أن عاشر رفقاً لاخلاق لهم . ولا نصيب من تربية عندهم . فسوّلوا اليه الشرب . وسهلوا عليه أمره . فانقاد اليهم صاغراً . وشاركهم في الجلوس على البارات معاقراً .

لحظ أبوه وأمه منه ذلك فكان الأول يعظه باللين تارة . ويأخذه بالشدة طوراً . وكثيراً ماتناول من مكتبته أسفاراً دينية تتضمن النهي عن شرب الخمر . وذكر ماأعدّ الله للمدمنين من العذاب . وأن شارب الخمر ملعون . وانه لا يشربها مؤمن . وانه اذا دخلت الخمرة في جوف الشارب خرج الأيمان من صدره . وأن السكيرين يعذبون يوم القيامة بالصورة الفلانية . وان فلاناً من الصالحين رأى بعض المدمنين فى المنام فسأله عن حالته فأجابه بأنها من أسوأ الاحوال . وحفر بعض التربية مرة قبراً لمدمن خمر فوجده أسود الوجه مشوّه الجثة . وقد التفّت على عنقه أفعى كبيرة . الى غير ذلك من العبر والزواجر . ولكنّ شيئاً منها لم يزجر سعيداً ، ولم يؤثر في نفسه أثراً . وانهمكت أمه بكتابة حُجُب له وتعاويذ .

وأكثرت من التردّد على أضرحة الأوليـاء . ومقامات الصالحين : تنذر لهم . وتستنجد بهم . وتسألهم أن يتوب الله على ابنها . ويوفقه لترك الشرب .

والى هذا اليوم ماكان التلميذ (حسني) قد شعر بأن أخاه يعاقر الخمرة حتى رآه مرة راجعاً الى البيت ووجنتاه حمراوان وعيناه متقدتان وهو يترنح في مشيته فرابه أمره . ولم يزل يفكر ويسأل حتى عرف أن أخاه عاشر قوماً فاسدى الاخلاق من الشبان فأدت به هذه المعاشرة . الى تلك المعاقرة . وتذكر (حسنى) أنه من قبل كان يسمع أخاه يجيب أمه بجفاء وغلظة . وينتهرها أحياناً على غير ماعرفه من حسن معاملته لها وبرّه بها . فكان يعجب لذلك . ويتساءل عما يكون السبب في تغيّر أخلاق أخيه . وارتكاس طباعه . حتى عرف السبب أخيراً .

وكان يرى أمه — حينما ينتهرها أخوه — يربدّ وجهها . وتختلج شفتاها . وتمتلىء بالدمع مقلتاها . فلا يسعها الا السكوت وقول « لاحول ولاقوة الا بالله » . وسمع أباه مرة يقول لأخيه « انك يابني تعاشر قوماً يعرّضون مستقبلك للضياع . فارع حرمتي . ووقّر شيخوختي . ولاتدعني أخرج من هذه الدنيا الا وأنا راض عنك » ومع كل هذا فلم يكن (حسني) يرى من أخيه الا اللجاج والعناد .

فسولت للصغير نفسه الكبيرة أن يتصدّى لاخيه . وينتشله مما هو فيه . فقال له مرة وقدهم بالخروج : أتريد أن تخرج ؟ كم أكون مستوحشاً اذا قعدت وحدي فى البيت ؟ ماضرك يأخي لو بقيت معي قليلاً وانتظرنا أبوينا فهما لايلبثان أن يجيئا ؟

فتبسم سعيد وقال له : وماذا تريد أن تصنع ؟ قال له أقرأ لك فصلا من هذا الكتاب المفيد الذي أطالع فيه . فانه يتضمن مباحث في الحث على الاخلاق وممارسة الفضائل . فأجابه أخوه : إن هذه المباحث التي تلذّ لك ياعزيزي (حسني) تسبب لي مللاً وسآمة . قال حسني : أنت تظن هذا ياأخى ظناً . والافانى سأختار لك

من هذا الكتاب فصلاً من ألذ الفصول · ألا تثق بي ياأخي ؟ ألا تحب أن تطلع على درجة تحصيلي · ثم تخبرني عما اذا كنت ناجحاً في هذه المدرسة فأزداد اجتهادا أو غير ناجح فتوبخني وتحضني على الاجتهاد ؟ ولم تكن العشرة السيئة بالتي تذهب بعاطفة الحب من قلب (سعيد) فرأى نفسه مسوقا للجلوس بجانب أخيه . والاصغاء اليه . ففتح حسني الكتاب ورفع صوته بقراءة فصل أعجب به سعيد كل الاعجاب كما كان تنبأ بذلك أخوه الصغير · وحينما أتم الفصل قال له : حقاً ياعزيزي انك تقرأ أحسن قراءة . وقد دلت بحسن اختيارك لهذا الفصل على ذوق فيك .

هما على ذلك واذا بأبويهما دخلا عليهما : الاول من محل تجارته . والاخرى من عند أقارب لها ساكنين في حارة (أم الغلام) وقد تعجبا جداً مذ رأيا سعيداً لم يزل في البيت وهو يسمع فصلاً يقرؤه له أخوه الصغير · ثم تجدد هذا الدهش المرة بعد المرة لأن (حسني) كان يغتنم كل فرصة تسنح له ويلح على أخيه بدلال وظرف أن يبقى معه في البيت . ويسمع منه فصلاً من ذلك الكتاب المفيد . فكان يجيبه الى سؤاله · وعلى تمادى الايام أنس به وما عاد يناديه الا بياأستاذي الصغير ! وكان أحيانا يبدي ملاحظات على قراءته ، ويصحح له أغلاطه · فكان (حسني) يظهر اهتماماً بكلام أخيه ويأخذه في اصلاح غلطه . وبهذه الطريقة أصبح (سعيد) كالاستاذ الذي يراقب تقدم تلميذه . ويسرّ بترقيه في مراقي النجاح .

وفي بعض الايام أخذ (حسني) الكتاب المعهود وفتحه وبدل أن يقرأ منه حسب عادته سكت كمن أصيب بحيرة . فقال له أخوه ماذا تنتظر ؟ ها أنا مصغ اليك . فأجابه : لاأعرف ماذا أقرأ ؟ وقد قرأت اليوم في هذا الكتاب فصلا نافعاً جداً ولكن ... ثم قطع كلامه وظهر الاحمرار على وجهه . فقال له سعيد

ولـكن ماذا ؟ قال لعلك لاتحب أن تسمع هذا الفصل ؟ فقال (سعيد) عن أي شيء يتكلم ؟ قال عن السكر . قال (سعيد) كأنك تعتبرني أصبحت من كبار السكيرين حتى لم أعد أطيق سماع النهي عنه ؟ قال (حسني) : لايا أخي ولـكن.. ثم سكت . فقال سعيد ولـكن ماذا ؟ اقرأ اقرأ

فاندفع حسني في القراءة . وقد أفعم قلبه سروراً : اذ رأى أخاه هو الذي أمره بالقراءة طائعاً مختاراً . وكان يقرأ بحركة صوت ولهجة تدل على أنه يفهم مايقرؤه وأنه يريد أن يؤثر في نفس أخيه كخطيب بارع

* * *

جاء في أساطير العرب أن نوحاً عليه السلام لماغرس الـكرمة سقاها الشيطان بدم حيوانات مختلفة . وفى الأخير . سقاها بدم خنزير . ومن أجل ذلك ترى كل من شرب الخمر لايلبث أن يصبح شبيهاً بهذه الحيوانات . ثم لايزال ينحط فى الدركات البهيمية حتى يصبح شبيها بالحيوان الا كثر خسة ودناءة . ذلك الحيوان هو الخنزير فيتمرغ على الارض مثله . ويتمطى بيديه ورجليه . ثم يستغرق في النوم .

السكر فى الحقيقة مضيع لـكرامة الانسان . الناس عادة يسخرون من ذاك الذي يغيّر صورته البشرية : فيتخذ خرطوم كلب . أو آذان حمار . فـكم يكون مقدار سخريتهم بذاك الذي يتجرد من شيء أثمن من الشكل الخارجي الانساني شيء يميزه عن البهائم والعجماوات ، اعني به نعمة العقل والادراك . هذا الرجل الذي شأنه ما وصفنا هو السكران . من منا يمكنه أن يرى — من دون أن يشعر بالخجالة قوماً من اخوته بني آدم هائمين على وجوههم . لا يعرفون الى أين يذهبون؟ نظراتهم مثل نظرات المجانين . أرجلهم مصطكة . أيديهم مرتعشة . هؤلاء القوم

هم السكارى الذين بعد أن يخرجوا من الحانات يبقون يتشحطون على الأرض معظم ليلهم حتى يصلوا في آخره الى بيوتهم. تراهم في أجسام البشر. ولكن لانرى لهم عقول البشر. اذا كان السكران لايعي ولا يعرف مايصنع فلابدع اذا كان عُرضة لأن يرتكب جميع الموبقات. وقلّما يمر يوم من دون أن يجترم السكارى جريمة القتل أو حوادث أخرى فظيعة. وكلما ازداد عدد الشاربين ازداد عدد الجرائم والفظائع سواء بسواء[1].

وان الاشربة الروحية لاتحدث السكر فقط بل هي أيضاً تسمم الأبدان. ولكن تأثيرها بطيء فيتمّ من دون جَلَبَة وفي زمن طويل. وهذا مايجعلها أشد هولا وأقوى تأثيراً.

ترى عقل السكران يكلّ رويداً رويداً كما يكلّ السيف. واذا تفكر أو تصور كان تصوره سطحياً لانتيجة له. واذا نظرت الى وجهه رأيته مشوّها بالبثور مغشّى بالشحوب. وصوته متغير. ويده على الدوام مرتعشة وقدمه لا تواتيه اذا أراد المشي فهو ينسحب انسحابا. وحينما يصل التسمم بالعرقي الى هذه الدرجة يصبح غير قابل للشفاء. ويؤدي الى الموت ألبتة.

وهكذا الالكحول فانه أيضاً سمّ قاتل. وزد على ذلك انه يعد الجسم لقبول كافة الامراض وكل ما يسبّب الموت. أقل انحراف في الصحة أو أخف جرح يحدث في جسم السكّير يجعله في حالة خطرة. قلما ينجو معها من الموت. وان الاعضاء التي تحترق أو تنهك بتأثير الالكحول تكون مستعدة دائما للانحلال والانخساف كما ينخسف البيت اذا أصابته زلزلة أو حريق.

---

(١) وكان عبدالله بن جدعان ذا شرف وسن وهو من جملة من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية بعد ان كان مغرماً بها. وسبب ذلك انه سكر ليلة فصار يمد يده ويقبض على ضوء القمر فحلف لايشربها ابدا. ومثله عثمان بن مظعون حرمها وقال لا أشرب شيئا يذهب عقلي ويضحك علي من هو ادنى مني. ويحملني على ان انكح كريمتي من لا اريد

الحميات . الجدري . الدوسنطاريا . جميـع الامراض الوبائية تشتد وطأتهـا
في الغالب على السكيرين . وقد اثبت بعض الاطبـاء أن السكير لا يعيش أكثر
من خمسة عشر سنة بعـد ادمانه الشرب . وان جسم الانسان مهما كان قوياً
لا يحتمل أكثر من ثلاثة آلاف سكرة يكون تعاطاها في خلال هذه المدة تقريباً .

ويا ليت السكيرين يصبحون وحدهم فرائس لهذه الرذيلة التي اعتـادوها
ولكن المرض أو الموت بعد أن يكون افترسهم يعود ثانيـة فيصيب أولادهم .
المرض الناشىء عن استعمال الالكحول يؤثر في الدم وينتقل من سُلالة الى سلالة .
وقد ذكروا أن سكيراً مات وترك من بعده سبعة أولاد فعاجلتهم المنون في أول
سني حياتهم : مات الاولان الصغيران بعلة تشنج الاطفال . وجُنَّ الثالث في الثانية
والعشرين من عمره . وابتلي الرابع بوسواس الانتحار وآل به الامر الى أن صار
أبله . وأصيب الخامس والسادس بالسوداء (الماليخوليا)

أما السابع فكان وحده ذا عقل وصحة حسنة بالجملة ولكنه مع هذا لم يقدر
أن يخرج من هوة التعاسة التي ألقاه فيها والده .

أيهـا السكران ! تيقن أنك مع طول الزمن سوف تصبح متوحش النفس
متسمّم الجسم . تحمـل الى عائلتك المسكينة الخزي وسوء السيرة بين النـاس
تجعل أولادك فرائس للعاهات والامراض . وغالباً للبله والجنون . فهل بعد كل
ما تصبّه على رأسك ورأس المتصلين بك من الآلام وأنواع العـذاب تكون
معذوراً غير مؤاخذ ولا مسئول ؟

حقا أن السكر جريمة من أفظع الجرائم » انتهى .

كان (حسني) الصغير يقرأ وأخوه (سعيـد) مصغ اليه أتمّ اصغاء . ولما
فرغ قال له : ناولني هذا الكتاب وقم أنت الى البستان فالعب قليـلا : لانك
اشتغلت اليوم أكثر من اللازم .

فأسرع (حسني) الى البستان . ولم يكن له ميل الى اللعب . فجلس على مقعد هناك وقد داخله شيء من أمل . وقليل من خوف . ثم عاد بعد هنيهة الى البيت وأطل من احدى نوافذه فرأى أخاه يقرأ الفصل الذي أسمعه إياه . وبعد أن أتمه ألقى الكتاب جانباً وأخذ رأسه بين يديه وانغمس في لجج الافكار .

هو في هذه الحالة واذا بأمه دخلت عليه فقام اليها وعانقها وقد اغرورقت عيناه بالدموع . ثم نادى أخاه فدخل عليهما فأخذه بيده وقدمه الى امه وقال «أحبيّه يا أمي لانه يحبّ أخاه »

ونبشر القاريء الكريم بأن (سعيداً) ترك رفاقه القدماء وقطع علاقته بهم . وما عاد أحد يقول رأيته في حانة .

نعم ان من عاشر الصالحين أصبح صالحاً . ومن رأى الشرمراراً أصبح شريرا

هل السعادة مكتسبة[١]

طلب السعادة في الدنيا والرغبة في تحصيلها غريزة في كل انسان مفكر

لـكن لماذا كان السعداء قلائل في البشر مادام كل منهم يتطلب السعادة، ويدأب في السعي وراءها.

لابد إذن من سبب يحول بين المرء وبين نيل سعادته.

وما هو السبب ياترى ؟

شيءٌ كامن في نفس الانسان ؟ أو منبثّ في الوسط الخارجي الذي يعيش فيه ؟ أو لا ولا. انما السعيد سعيد الازل والشقي شقي الازل ؟

في تعاليم الدين الاسلامي مايشعر بالأخير. لـكن النظر والاختبار أدى الى أن في غرائز بعض البشر وطباعهم وأمزجتهم ووراثتهم ونوع تربيتهم مايحول بينهم وبين السعادة — والى أن الوسط الفاسد كثيراً ما كان معوِّقا للمرء السليم الفطرة والوراثة المعتدل المزاج عن بلوغ سعادته

وما قرّره النظر وأثبته الاختبار لايأباه الدين الاسلامي ولا ينافيه بحال. بل قد نجد في نصوصه الـكثيرة وأحكامه وآدابه مايؤيد النظر ويتفق مع الاختبار

فما ورد من مثل « السعيد سعيد الازل والشقي شقي الازل » ليس على اطلاقه بل له معنى يجتمع مع ما أدّانا اليه النظر. وصرحت به النصوص الاخر

حديث « تخيروا لنطفكم » و « العرق نزاع » وأشباههما يرشد الى أن النسب والوراثة تؤثر في أخلاق الطفل: فيكون سيء الاخلاق اذا كانت أمه سيئتها والعكس بالعكس. والا فما معنى الامر بالتخير وتوقي نزوع العرق ؟

وسوء الاخلاق شقاء وحسنها سعادة. فالدين قد علّم بأن السعادة مكتسبة

---

(١) كتبت سنة ١٩٠٧

وأن لها أسباباً ووسـائل يمكن للمرء أن يتوخاها فيكون سـعيداً . أو يهملها فيكون شقياً .

وكما أرشدنا الشرع الى أن غرائز الانسان وطباعه الموروثة قد تكون سبب شقائه أو سعادته — أرشدنا أيضاً الى أن المحيط والوسط الذي يتقلب فيه المرء قد يكون سبباً لسعادته إن كان حسنا أو شقائه إن كان فاسداً . خذ على ذلك مثلا ماجاء في السنة من التشديد على العالم في اقتراف المعاصي . وان المعصية منه ليست كالمعصية من غيره لما أن العالم موضع قدوة . ومثال يحتذيه خلطاؤه والعامة الذين يطيفون به ، وأن زلته تؤدي الى زلة ألف واحد منهم . ولا معنى لهذا النهي والتشديد الا أن معصية العالم قد تكون وسيلة لشقاء الآخرين وحرمانهم من السعادة . فلوسط الذي كثر علماؤه المستهترون كان وسطاً رديئاً وسبباً لشقاء الشعب الذي يعيش فيه .

وان قل أولئك العلماء علماء السوء وحسن حالهم كان وسطاً حسناً صحيحاً ووسيلة لسعادة ذلك الشعب الذي يقلدهم . ويحتذي مثالهم . وفي تعاليم الدين الاسلامي كثير من الاحكام والاوامر التي ترجع الى صلاح العامة وحفظ الآداب بينهم . مما فيه اسعادهم وترقية هيئة اجتماعهم .

والقول بأن هـذه الاوامر والنواهي والاحكام لاصنع لها ولا تأثير في حالة الانسان أفراده وجماعاته . ولا تتوقف عليها سعادة أو شقاوة — مكابرةٌ وذهاب مع الوهم . بل هو تعطيل لنصوص الشريعة ونسخ لأحكامها . فسعادة الفرد أو المجموع وشقاوتهما تتوقف على أسبابها ووسائلها التي نبهنا اليها الشارع الحكيم . وأفادنا إياها النظر والتجربة والاختبار الصحيح .

ونحن مأمورون بتوخي السعادة من طرقها وتجنب الشقاوة بالابتعاد عن مزالقها .

لكن مهما تحرّيت السعادة فوصلت اليها وتجنبت الشقاوة فافلتّ من أشراكها — هل تحسب أن الباري تعالى غير عالم بصير أمرك ، ومستقبل حالتك : إن كانت سعادة أو شقاوة . كلا فانه تعالى واسع العلم يتعلق علمه بمستقبل البشر وما يصير اليه أمرهم . كما يتعلق بماضي حالتهم وما كانوا عليه في سالف أزمانهم . فالسعيد يعلمه الله من الأزل أنه سيكون سعيداً . لانه تعالى يعلم أن ذلك الانسان يتوخى في أعماله وسائل السعادة ويمتثل الاوامر الالهية ويعمل بالتجارب المطّردة حتى يكسب السعادة ، كما يعلم تعالى من الأزل أن فلاناً سيكون شقياً لانه يجري في شئونه على عكس السعيد فيدابر الأوامر الالهية ، ولا يحفل بالوسائل الكونية فيواقع الشقاوة ، ويكون أليف التعاسة .

فلا جرم اذن أن يصح التعليم الديني القائل : « ان السعيد سعيد الأزل والشقي شقيّ الأزل »

وان لم نقل بصحته لزم منه القول بان الله تعالى على غير علم بما ستؤول اليه حالة البشر الذين خلقهم وصوّرهم ، وماذا عساه يكون مستقبل أمرهم في مجموعهم وأفرادهم .

فاذا اتضح من هذا الشرح أن السعادة والشقاوة مما يُنالان بالاكتساب . وان المرء يمكنه أن يكون سعيداً بتوخي أسباب السعادة والسلوك مسالك النجاة وشقيًّا بأهمال تلك الاسباب والاعراض عنها — وجب علينا اذن أن نتعرّف جهدنا تلك الاسباب والوسائل ، ونتقصّى النصوص الدينية الثابتة والآثار الصحيحة التي تعلمنا كيفية الحصول على السعادة الدنيوية والاخروية وتشرح لنا ضُروب الأسباب والوسائل التي توصل اليها فنراعيها ونتوفر على توفيرها ، كما أن علينا أن نتدبّر أقوال الحكماء والفلاسفة الذين عرّفوا السعادة وشرحوا أسبابها وآفاتها ونستفيد من تجارب عقلاء الامم ونوابغ الشعوب الذين ألّفوا

وصنفوا وكتبوا وعرفوا من الطرق ما لم يعرفه غيرهم فنأخذ من كلّ ذلك ما يلتحم بأخلاقنا، ويتفق مع تقاليدنا مما يكون من ورائه سعادتنا في أفرادنا وجماعاتنا

عود الى السعادة

قال علماؤنا رضي الله عنهم : للهداية استعمالان : الأول أن تكون بمعنى الايصال . والثانى أن تكون بمعنى الدّلالة والارشاد . فقوله تعالى « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » من قبيل الهداية الموصلة أى انك يا محمد لا توصل الى مقرّ النجاة وإنما الله هو الموصل . ولا يصح أن تكون هنا بمعنى الدلالة . لأنه صلى الله عليه وسلم يدل ويرشد الى طريق النجاة .

أما قوله تعالى « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » فهو من باب الهداية غير الموصلة : فهو تعالى انما دلّ ثمود وأرشدهم الى طرق السعادة على لسان رسله . لكنّهم استحبوا ان يسلكوا طرق الشقاوة ويواقعوها .

ومثله قوله تعالى « وهديناه النجدين » (النجد) في اللغة الارض المرتفعة ومنه سميت بلاد نجد . وفسروا النجدين هنا بطريقي الخير والشر . فهما مرتفعتان امام الانسان . والباري تعالى يقول انه هداه أى دله وأرشده اليهما : وان في كتابه وسنة نبيه تفصيلا لشؤون هاتين الطريقين : وتحديداً لكل منهما . وتمييزاً لها عن الأخرى .

فاذا كان تعالى أوضح لنا الطريقين ودلنا عليهما . كان معناه بالضرورة أن السلوك في احداهما متوقف على إرادتنا واختيارنا . فمن اختار واستحب طريق الخير نجا وسعد . ومن اختار الأخرى المشؤومة خسر وشقي .

وهو سبحانه عالم بصير الانسان . الا يعلم من خلق ؟

مهما أحاطت ارادة البارى وقدرته بالانسان — فقد لطف الله به اذ جعل له من الارادة والاختيار ماتقوم عليه به الحجة ويصلح معه أن يكون موضعاً للتكليف الشرعي . والخطاب الآلهي . ولو جرد الانسان منهما لما كان أهلا للتكليف . ولا مستحقاً للتشريف

فالانسان اذن يسرح فى دائرة واسعة من ارادته واختياره . وفي ضمن تلك الدائرة طريقان للخير والشرّ وله ان يسلك أيهما شاء . لكن تلك الدائرة التى يسرح فيها الانسان مهما ترامت ابعادها : وانفسحت ارجاؤها. تبقي محاطةً بقدرة الله وارادته وعلمه : فمهما حاول الانسان ان ينفذ منها لا يخلص الا الى ماقدره الله ولا يقع الا على ما أراده وعلمه . فهو اذن مختار فى ضمن هذه الدائرة . وفي سلوك ماارتفع أمام عينيه فيها من النجدين نجد الخير ونجد الشرّ ولو قلنا ان الانسان فى نفس تلك الدائرة وفى سلوك الطريقين لا ارادة له ولا اختيار لا جرم ان يكون اذ ذاك مجبراً. واذا قلنا إنه مجبر مسلوبُ الاختيار كان التكليف والخطاب والاوامر والنواهي والهداية الى النجدين وقول القرآن ان ثمود استحبّوا العَمَى على الهدى وأنهم بذلك استحقوا العقاب الآلهي - كان كل ذلك عَبَثاً وسدى مما نُجلّ مقام الالوهة عنه ونبرأ الى الله من لوث الاعتقاد به . فحصل مامر معنا أن القرآن علّم بأن الانسان حرّ ومختار في سلوك طريق الخير أو طريق الشر . ومن هنا ننتقل الى مذاكرة حضرة الفاضل الذي ناقشنا في مقالة (هل السعادة مكتسبة) ونقول له : هل ان كلمتى (خير وسعادة) مترادفتان بحيث يصحّ أن نقول طريق السعادة وطريق الشقاوة بدل طريق الخير وطريق الشر — أو انهما غير مترادفتين وأن للسعادة في اصطلاح الشرع معنىً غير معنى الخير ؟ ان قال بالاخير سلمنا له ماذهب اليه . ورجونا منه أن يبدّل كلمة (الخير) بكلمة (السعادة) التي وردت في مقالتنا المذكورة . ويسلم معنا في كل ماجاء فيها : لان الكلام اذ ذاك يكون فى أن سلوك

طريق الخير اختياريا وان تحصيل الخير للانسان مُيسّر له وفى امكانه أن يكتسبه اكتسابا - وان قل ان السعادة والخير بمعنىً واحد. وان السعادة نعمة من الله مخبوءة للانسان لايد له فى تحصيلها ولا اختيار في اكتسابها وان ما ورد من أن السعيد سعيد الازل والشقي شقي الازل يلزم أن نفهمه بالمعنى المطابقي الذي لاتأويل له ولا مغزى سوى مايتبادر منه الى الفهم وأن مايقال فى (السعادة) يقال أيضاً فى (الخير) وان طريق الخير وطريق الشر الماثلين أمام عين الانسان لا اختيار له فى سلوك أيهما شاء. بل ان يَدَ القدرة الالٓهية تدعُهُ دعاً فى أحدهما. وتجبره جبراً على سلوكهما. ان قال حضرته ذلك فاني أحاكمه الى وجدانه وأسائله هل ان آية (وهديناه النجدين) وآية (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العَمَى على الهدى) تنطبقان على قوله وتأتلفان مع ماذهب اليه ؟

نعم لا أنكر أن هناك كثيراً من النصوص والآثار التى يجد المنتقد فى ظاهرها مايدعم رأيه : غير أنه ينبغي لنا ان ننظر فى تلك النصوص والآثار نظراً يجمع بينها وبين النصوص الأخر وما أدى اليه اختبار البشر على نحو ماقلناه فى مقالنا السابق في (السعيد سعيد الازل والشقي شقي الازل)

بقي لى فى الموضوع كلمة أحب أن لا يفوتني التصريح بها : وهي أن الانسان مختار فى سلوك طريق الخير والسعادة وطريق الشر والشقاوة مادامت لديه وسائل تساعده على ذلك السلوك. أو يقال بعبارة أوضح : ما دامت تلك الوسائل مما يتناوله امكانه وكسبه ويدخل تحت تصرف قدرته التى أفاضها عليه موجده تعالى

أما اذا عصفت من فوق رأسه انواء البحر، أو مادت من تحت رجليه زلازل البر فأصيب ونكب وخسر وأحاطت به الشقاوة وأدبرت عنه السعادة — فليس هذا مما نَنْتَحيه بل لا يتأتى النزاع فيه

رؤيا منام (١)

أو

سياحة مع (لاتام)

دقّت الساعة السابعة على الاصطلاح العربى فقلت : ها قد انتصف الليل . ثم ألقيت الصُحف من يدى . وأطفأت المصباح . وأخذت مضجعي . وحاولت أن أنام . فلم أستطع .

تقلّبت فى الفراش طويلاً طردت الذكرى بعيداً . أغمضت عيني مراراً . وحاولت أن أنام . فم استطع .

جمعت حواسي . ولم أعد أفكر في غير تردد أنفاسي . حسبما أشار به بعضهم لطرد الارق . واسترضاء النوم . وحاولت أن أنام . فلم أستطع .

شعرت بصُداع في رأسي . واضطراب في أعصابى . وحرارة انبثت في أعضائي وكأن أطراف الإبر تعمل في جسدي . ثم تمنيت أن أنام . فلم أستطع .

نهضتُ من الفراش بنزق . ونزعت بعض ثيابى . وفتحت إحدى النوافذ . واستقبلت النسيم البارد بوجهي . وقلت لاألبث أن أنام فلم أستطع .

اتكأت على طرف النافذة . سمعت أمواج البحر تدوي من بعيد . رأيت البدر يتلألأ في كبد السماء . وقد ألقى أشعته على ثلوج لبنان فزادها بهاء . لمحت النجوم تحفّ بالبدر كما الجواري تحفّ بالعروس . ثم ذهبت بالفكر الى ماوراء هذه النجوم . الى فسيح هذا الفضاء . الى تلك الابعاد غير المتناهية وهمت قائلاً : واهاً لكِ أيتها (اللانّهاية) ما أكبر دهشتي من أمرك . وأشد حيرتي في تصورك !!

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٨ هـ و ١٩١٠م

هنالك عدت الى تذكر ماقرأته في ليلتي عن حفلة أسبوع الطيران في (عين شمس) . تذكرت ما قاله محررو الصحف في جمال تلك الحفلة . وتفننهم في وصف الطائرين . وغريب أطوارهم . رددت في خاطري حلاوة الركوب في الطيارات . تمنيت لو يُتاح لي السياحة في طبقات الجو . حسدت أولئك الذين يحلّقون في أعلي السماء بطياراتهم . تخيلت (لاتام) وهو ممتطٍ طيارته امتطاء الفارس جواده . والدولاب في يده . ولفافة التبغ في فمه .

ما هذا الشبح الاسود الذي أراه يتماوج من بعيد على وجه البدر ؟ ما هذا الطيف الغريب في هذه الليلة الهادئة ؟

هذا (لاتام) يتجوّل وحده في هذا الفضاء المقمر . يلذّه الطيرانُ في أشعة القمر . والتمتّع بجمال الطبيعة وسكونها . يسبح في أمواج هذه الاشعة اللجينية ثم ينتفض بطيارته ما بين آن وآن انتفاض الصفور بلله القطر .

أطبقت جفني على هـذا المشهد البديع وأنا أعلمه خيالاً . واذا به تحوّل رؤى وأحلاماً .

لاتام ! لاتام ! أدنُ مني . أقبل عليَّ . مدَّ يدك اليَّ .

هو ذا الشبح أقبل عليَّ . كَبُرَ بعد أن كان صغيراً . رأيت أجنحة الطيارة . سمعت صلصلة آلاتها .

دنا الشبحُ من النافذة . أخذ يتفرّس في وجهي . ويُصغي الى نجواي .

ملك الهواء ! ملك الهواء ! بحقك الا ما لبيت ندائي . كاد فرط الشوق يستهويني . ها أنا ذا اكاد أسقط من النافذة . ارفق بي . واصطحبني في رحلتك السماوية وأرني عجائب القدرة الآلهية .

ما أجمل هذه المطية الذلول ؟ ما أجمل هذا الليل المقمر ؟ ما أجمل هـذا النسيم المنعش ؟ ما أجمل هذا المنظر المدهش ؟

أخذنا في الجوّ صُعُدا . فكنتُ أرى الارض تتحرّك في الجهة المقابلة . ثم جعلتْ تبتعد عني رُويداً رُويداً · وأنا ساكن وادع · كأَن ممسكاً منعني عن الحركة . وأُخـذ بأنفاسي . وبعد هُنيهة اطلعت على الارض . فرأَيتُ جرمها قد صغر . ولم أعد أتبين فيها سوى مصابيح قليلة . تبعث منها أشعة ضئيلة . ورفعت نظري الى السماء فوجدتني مندفعاً في عرض الفضاء الواسع الى حيث لاأدري . وما كان أشد دهش (لاتام) حينما ابتدأت أحدثه بلسان افرنسي . فانى على مايذكر القراء كنت مارست هذه اللغة . وتعلمت شيئاً منها وقد ازداد انبساط ملك الهواء وطابت له السياحة . وجعل يكلمني مبتسماً . ويلفت نظري الى مالم أكن أهتدي اليه بنفسي .

صغر حجم الارض : فلم أعد أرى منها الا رسماً حائلاً . وظلاً زائلاً . على عكس القمر . الذي رأيتُه كبيراً كبيراً في عيني وما كان أشد ذهولي حينما وصلتُ اليه .

(القمر) سيّار يدور حول الارض. وهو كريّ الشكل مثلها . ويستفيدنوره من الشمس استفادتها لـكنه أقلّ حجماً وأصغر جرماً .

شاهدتُ فى القمر جبالاً أعلى من جبال أرضنا . وبين هذه الجبال سهول منفسحة الاطراف · قد يبلغ محيطها ثلاثمائة ميل .

تتركب مادة القمر من العناصر التي تتركب منها الارض تقريباً . سوى البحر والماء والبخار والهواء : فان القمر جاف خال منها . وليس فيه شيٌ من آثارها . الوقت في القمر نهار . ومع هذا فقد كنا نرى السماء شديدة الظلام . ومنطبقة عليه انطباق السقف المقبب .

وكنت أرى النجوم في تلك السماء المظلمة نُقطاً بيضاء لامعة . وما أشبهها بنسوة اجتمعن في مناحة . والسماء نفسها لالون لها وانما نراها زرقاء بزرقة الهواء

الذي تكاثف فيها .

وضعت قدمي على أرض القمر ذات الحجارة . ثم أخذت أبحث فى جنباتها على نباتٍ أو حيوان يعيش فيها فلم أجد .

أفلم يكن يعيش فيها أحياء من قبل ؟

لا أعلم .

غادرنا القمر الى الكواكب الاخرى السابحة فى هذا الفضاء : الى السيّارات التي تدور حول الشمس كما تدور الارض حولها فكنا نطوي المسافات طياً . ونلمح الاجرام المنبثة فيها لمحاً .

وفي نهاية الفضاء لمحت السيار (نبتون) وهوأ بعد اخوته عن الشمس . ويرسم حولها أوسع دائرة .

وبعده السيار (أورانوس)

ثم (زحل)

ومنظر هذا السيّار من أغرب المناظر فهو منتطق بمنطقة نارية . وليست هي سوى حلقة مستديرة تحيط به من وسطه من دون أن تمسّ شيئاً من جرمه . وهذه الحلقة تومض بنور لامع . استعارته من نور الشمس . وهي تنير زحل طول ليله كما يُنير القمر أرضنا .

ثم برحنا زحل الى أعظم السيارات حجما — الى (المشترى) الذي هوا كبر من أرضنا بألف وخمسمائة مرة تقريباً وهو يستمد نوره ليلا من أربعة أقمار تطوف حوله طواف الاطفال حول أمهم . وكل قمر منها أكبر من قمرنا الارضي الوحيد .

تركنا المشتري واتجهنا الى غيره : فعثرنا في طريقنا على نحو مائة سيّار غاية في قلة الحجم . وهي بلا ريب انقاض سيّار كبير حدث له حادث هائل فتفتّت قددا . وانتثرت قطعه في الفضاء بددا

واقتربنا من (المريخ) ومنظره يحكي منظر الارض . ولو لم أَلمح أرضنا عن بُعد

لحسبته إياها . حجمه حجمها . وبحوره بحورُها . وقطباه مكللان بالجليد مثلها .

والغيوم تسبح فى جوّه مثلما تسبح في جوّها .

وما يُدرينا أن يكون مبدع الكون سبحانه وتعالى سوَّى من عناصر المريخ

بشراً وحيواناً ونباتاً كما سوَّى كل ذلك من عناصر أرضنا !!

حاولت أن أقف هنيهة على هذا السيّار كما وقف امرؤ القيس بسقط اللوى .

ولكن الطيارة وثبتْ بنا وثبة ألقتنا بعيداً عن المريخ

ومررنا على (الارض) ثانية فرأيناها لم تزل منغمسة في ظلام الليل .

حتى اذا أشرفنا على (الزهرة) أرسلنا اليها تحية الوامق المشتاق

هذه السيارة ندعوها (نجمة الصبح) . وهي جارة الارض الحسناء . وتشبهها

بما يحيط بها من الهواء . ويعلوها من الجبال المغطاة بالثلوج

وكيف يا (لاتام) هل يسكن الزهرة أحياء كما هم يسكنون الارض ؟

لا أعلم .

ثم غادرنا الزهرة واتجهنا مسرعين نحو الشمس فكنّا — كلما دنونا منها —

نرى جرمها ينبسط ودائرة قرصها تتسع ونورها يزداد توهجاً ولمعانا .

وقبل أن نصل الى الشمس استوقفنا مرآى سيّار صغير الحجم وقد أَلحَّت

عليه الشمس بحرارتها حتى أحرقته أو كادت

هذا السيار يدعى (عطارد) وهو أقرب السيّارات الى الشمس والصقها

جواراً بها ومع هذا لم ينج من شرها . وأذى حرّها . فما أُشبهها باولئك اللئام الذين

لا يرعون للجوار حرمة . ولا يحفظون للصداقة الا ولا ذمة

(الشمس) : (الشمس) هـذه هي الشمس كرة كبيرة جهنمية ملففة بجو

ناری . تتخلله غيوم حمراء . ويترقرق في جوانبه ضباب مستنير .

جمرة من نار . تخطف العقول والابصار .

كل عناصر هذه الجمرة ذائبة . ومعادنها مصهورة وملتهبة الى درجة البياض وبعض هذه المعادن استحال بخاراً رقيقاً يتخلل طبقات الجوّ .

هذا الأتون العظيم الذي تدور حواليه الارض والسيّارات هو نفسه أيضاً سابح في الفضاء بسرعة شديدة وله مركز من الشموس البعيدة أكبر منه يدور حولها ويلوذ بجوارها كما أنه هو ملاذ للسيارات وأقمارها . فالشمس التي نعجبُ من أمرها نحن معشر الارضيين ليستْ سوى نجم هائم على وجهه تحت رحمة العزة الالهية في جملة هذه النجوم .

فرغنا ياصديقي (لاتام) من رؤية (النظام الشمسي) فهل لك أن تذهب بي الى تلك النجوم البعيدة التي يسمّونها (ثوابت) والتي تتراءى لأهل الارض في الليل مجاميع مجاميع . وعناقيد عناقيد . تزين سماءهم . وتلذ أبصارهم

ما أبعد هذه النجوم ! وما أطول المسافات اليها

منذ هُنيهة كنّا نقطع الشقة بين سيّار وسيّار بمدة قليلة . أما الآن فعبثاً نجد في الطيران لبلوغ تلك النجوم . نقطع المسافات اليها فنشعر بأننا لانزال في أول تلك المسافات . نحاول الاقتراب منها وكأننا كنا نحاول الابتعاد عنها .

لاتام ! لاتام ! ما هذا الجارّ والمجرور ؟ ما هذا الجرمُ الذي يسحب وراءه ذؤابة من نور

بل بالله قل لي يالاتام : أهذا الذي أرى ذيل عروس ؟ أم ذنب طاووس ؟

هذا أحد نجوم (ذوات الاذناب) وهو يذهب نحو الشمس بحركة سريعة ، ويرسم حولها في رحب الفضاء دائرة مستطيلة منفسحة الاطراف جداً يحتاج في قطعها الى ألوف من السنين .

ابتعد يالاتام لئلا نصطدم بهـذا الذنب الهائل أو يحرقنا بناره

ليس هذا الذي تراه سوى بخار لطيف يلتفّ حول النجم أنى اتجه : فاذا وقعت أشعة الشمس عليه صبغته بلونها ، وبدا للعين على شكل ذنب مستطيل مخضّب بالنور . لكنك اذا جئته من قريب لم تعد تراه عينك ولا تلمسه يدك اذاً هلمّ بنا اليه .

فلم نلبث ان خضنا عُبابه فرحين ، ثم اجتزناه سالمين ،

الى الملتقى أيها المذنب الشارد على وجهه في فسيح الفضاء الذي لا بد أن يشرق على أرضنا فيراه أهلها ويزدان به أفقها

ولكن اسمح لي أن أعتذر اليك عمّا يتهمك به اولئك الجهلاء من سكان الارض : فهم يحسبونك نذير الشؤم والموت والحـرب

عفواً أيها الكريم !

أنت قلما تفكر في أحوالنا أو تهتم بملوكنا بل لا أظن أرضنا نفسها تخطر لك على بال . أنت مشغول عن جميـع ذلك بما تعرفه من أسرار الـكائنات في هذه الغـدوات والروحات : إن كان لتلك الغيمة الرقيقـة السابحة في جو أرضنا والمستنيرة بأشعة الشمس تأثير في سعود البشر ونحوسهم ـ فيكون لك أنت أيضا أيها المذنب البريء مثل هذا التأثير

تركنا محاورة ذلك النجم المختال عجبا بذنبه اختيال الطاووس وغالبنا الصعاب بغية الوصول الى تلك النجوم المنثورة فى أقصى الفضاء .

هذه النجوم هي فى الحقيقة شموس . وكل شمس منها اكبر من شمسنا وأبعد بملايين من المرّات .

أسرعنا أسرعنا ولـكن ماأبعد الشقة وأنأى المزار ؟

التفتُّ الى الارض لازوّدها بكلمة وداع

أين هي؟

غابت وراء حجاب البعد الكثيف

آه ! ما أحقر هـذه الارض التي نعيش عليها بضعة أيام . ونستمسك بها بكل قوانا .

ما أشدّ ما نراها حقيرة قليلة الشان إذا قارنا بينها وبين هذه العوالم المزدحمة فى محيط السموات .

أرضنا مظلمة وتستمد نورها من الشمس وتدور حولها وتنظر الى تلك النجوم القاصية . أما هـذه النجوم فهل تظنها ترى أرضنا؟ أو تحسب حسابها؟ أو تتخيل وجودها فى عالم الكائنات ؟

ما أصغرنا نحن معشر البشر الذين نعيش في هذه الدائرة الضيّقة !

الا أننا إن كنا صغاراً بجسومنا فنحن كبار بعقولنا

عقولنا تقيس الأبعاد وتقدر الازمان وتسع الكون وتتصور (اللانهاية)

النجومُ التي نيممها بطيارتنا لم تزل في مكانها وعلى حالتها التى كنا نراها عليها من سطح الأرض ، فلم تزدنا السرعة في الطيران اليها دنواً منها ولا اشرافا عليها أما السيارات والارض في جملتها فلم نعـد نرى لها أثراً ، وأما الشمس فـكانت تتراأى لنا عن بعد وقد تضاءل جرمها واصفرّت أشعتها وضاقت دائرتها

(لاتام) يا (ملك الهواء) ! إنّ طيـارتك وألف طيّارة مثلها لهي أبطأ من أن تبلغ بي الى أقرب نجم من هذه النجوم

وبينما أنا أقول ـ العودة العودة يالاتام ، انتبهت من المنـام ، وعلمت أن الامر أضغاث أحلام

الانفاق في الـكماليات (١)

منشط للصناعات

رأيت مرة بعض الورعين . من رجال الدين يقلّب طرفه في دار قوراء . أنفق صاحبها ألوف الجنيهات في بنائها وتجصيصها وبث النقوش والفسيفساء في سقوفها وجدرانها . وقد فرشـها بأثمن الاثاث وأفخر الرياش . وكان كثير من الامتعة والادوات التي فيها لا تصلح الا لامتاع النفس برؤيتها والتباهي على الاقران بامتلاكها نظر ذلك الورع الى كل ذلك ثم تنفّس الصعداء وقال لي أنظر الى أولئك الاغنياء كيف يضيعون أموالهم وفي أيّة الطرق ينفقونها ؟ فلم أملك نفسي أن قلت له : ولـكنهم اذا لم ينفقوها في هذه الطرق أتراهم ينفقونها في الطرق التي تريدها من مثل الصدقات وبناء المعابد وتوزيع المصاحف وقراءة الموالد ؟ اذا لم ينفقوها في هذه الطرق ويخرجوها من خزائنهم الى أيدي البنّائين والنجّارين والنقّاشين وسائر أرباب الصناعات بقيت محفوظة في تلك الخزائن . وحُرم أولئك الصناع وعائلاتهم من الانتفاع بها . فكانت كالقوة الطبيعية المهملة . أو الحاسّة الجسمية المعطّلة . ترى الاغنياء يملـكون من المال أكثر من حاجتهم وقد غرس في النفوس الحرصُ على المال : فهي تضن ببذله . مهما كانت مستغنيةً عنه . وهناك أقوام أكثر عديداً من الاغنياء في احتياجٍ شديد الى فضلات الاموال المكنونة في خزائن هؤلاء الاغنياء فكيف السبيل الى انتقال الزائد عن الحاجة من يد هؤلاء الى يد أولئك ؟

اختلفت السبل . وتعدّدت الطرائق : ومن هذه الطرائق ماينقل به المال من دون عوض من جنسه وانما عوضه الاجر والمثوبة من الله . وقد يكون الباعث

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ و١٩٠٩م

على البذل مجرد عاطفة الرحمة لا الطمع في الثواب . ومن وظائف الاديان حفظ الموازنة بين آحاد الانسان في الغناء والفقر : فهى تطمع الاغنياء في الثواب تارة . وتحرك عاطفة الحنان في قلوبهم تارة أخرى . ولا غرض لها من ذاك وذلك الا نقل المال الى المحتاجين اليـه . لتحصـل الموازنة وتبرد الاحقاد فتعم السعادة المدينة أو الأمة

ولكنّ هناك أقواماً قد يستبطئون الثواب الاخروى أو يشغلهم شاغل عن ذكره . أو تقسو قلوبهم فلا تشفق ولا ترحم . فكيف العمل لحملهم على بذل ما يفضل عن حاجاتهم الى اخوانهم المحتاجين اليه وماهو الطريق المؤدى الى ذلك ؟ قام الاشتراكيون فأقلقوا العالم بصراخهم وعويلهم . وذهبوا الى أن توزّع الاموال بين الناس على أصول الامتلاك والاكتساب الحاضرة — جائر وفيه اجحاف بمعظم الناس : فيجب العدول عنه واحداث أصول تتوزع بها الثروة لا يكون فيها اجحاف ولا جور . وقد كان من هؤلاء الاشتراكيين قوم غلوا غلوّاً كبيراً . ولكن نشأ عن غلوّهم انتباه الملوك والحكام والاغنياء وأرباب الاموال أنفسهم فنهجوا مناهج أدّت الى تحسين حالة الفقراء وطبقات العمال ودفع صولة أرباب الأموال عنهم .

ومن أهم الطرق وأقربها وصولا الى الغرض الذي هو نقل الثروة وتداولها في الايدى — إيجاد الصناعات المختلفة والتفنّن فيها بحيث يلقي هـذا التفنن في نفوس الاغنياء الميل اليها . والتنافس في اقتنائها والمباراة في بذل المال للحصول عليها . ومن وراء هذا وذاك يجد الكثيرون من أرباب الكسل والبطالة عمـلا يرتزقون منه ويشتغلون به عن اللهو وارتكاب المآثم . الاقتصار في الصناعة على الحاجات الضرورية لمعيشة الانسان لا يكفي في تداول الاموال وتنقلها من يد الى يد

ولا يوجد أعمالا لاولئك المتشردين وأرباب البطالة الذين يكثرُون وينمون بنمو النوع البشري فلابدّ اذن من وجود صناعات ومصنوعات كمالية . فوق الحاجات الضرورية .

يحسُن أن نغرى الغنيّ بنقش جدران منزله وتزيينه بالفسيفساء ولا ندعه يكتفي بتجصيصه. يحسن أن نزّين له صرف الاموال في سبيل اختيار الفاخر من الرياش والنادر من الامتعة والاثاث . والثمين من الخرثى والماعون .

يقول بعض رجال الدين ومنْ ضرب على نغمتهم إن بذل المال في هذه السبل اسراف . وان الاسلام حثّنا على الزكاة وصدقة الفطر وتقديم الضحايا وأنواع الكفّارات وضروب الصدقات و « اتقوا النار ولو بشق تمرة » و« داووا مرضاكم بالصدقة » — الى غير ذلك من الطرق التى أشرعها الاسلام بين أيدي الاغنياء لينفقوا فيها الزائد عن أموالهم . أما طرُق البذخ والاسراف فان الاسلام لم يرضها لنا وزهدنا فيها .

هذا ولكن ماقول سادتنا الفقهاء في ابتياع الاحجار الكريمة والجواهر الثمينة لانزاع ان الجوهرة التى تقوم بألوف الجنيهات لافائده منها للانسان ولا هى من حاجياته ولا كمالياته ومع هذا فان الشرع يعتبرها ذات قيمة تختلف باختلاف حال السوق هبوطاً وصعوداً . ولا يُنهى الغنيّ عن شرائها . واذا سرقها السارق قطعت يده . وغير ذلك من الاحكام التى تدل على ان الاسلام يقرر ماقلناه من القاعدة الاقتصادية أعنى لزوم تداول المال وتمهيد السبل فى انتقاله من يد غير المحتاج الى يد المحتاج ولو في تحصيل أشياء لا نفع فيها ولا تُسمن ولا تغنى من جوع . وبالامس وجدوا بين كنوز يلديز سبحة من الجوهر قوموها بخمسة وسبعين ألف ليره . فهل يقال انه لايجوز لغنى شراء مثل هذه السبحة لعدم الفائدة منها وأن المال الذى يُبذل في سبيلها ضائع وسرف ؟ ورووا أنه كان في زمن بني العباس جوهري في

كرخ بغداد ساومه يحيى البرمكي على سفط من الجوهر بسبعة ملايين درهم فلم يبعه وهو جزء مما في حانوته. فما قولك بسائر مافى الحانوت من الجواهر؟

أنا لا أرى فرقا بين أن ينفق المرء أمواله فى شراء الجواهر الثمينة يفاخر بها أقرانه وبين أن ينفقها فى تشييد القصور وزخرفتها وشراء الاثاث والرياش والامتعة والتحف، وأن يشتري لجهاز ابنته ضروب الحلىّ وأنواع اللبوس وأن يبذل النفقات الكثيرة فى الولائم والاعراس وأنواع الحفلات. وربما كان فيما ذكرنا نفع وفائدة للمرء والمتصلين به أكثر من النفع فى شراء الاحجار التى يلقبونها بالجواهر تارة ويصفونها بالكريمة تارة أخرى

اذا لمْ تنفق الاموال الزائدة فى شراء مختلف الادوات وضروب المصنوعات تموت هذه المصنوعات كلها وتبور الصناعة وتقف حركة الاعمال وبديهي أن هذا يؤدي الى بطالة الصناع وانهماك الكثيرين منهم فيما يُفسد أخلاقهم ويجلب الشر على الامة العائشين بين أبنائها

وهنا شروط أو ملاحظات لا بد من ذكرها وهي :

(١) أن يكون باذل أمواله فى تحصيل الزخارف والزينة الكمالية — مؤدياحق الشرع فى هذه الاموال فيخرج زكاتها وحقوق العباد المستحقة فيها. ومن قبيل ذلك النفقة الواجبة عليه لزوجةٍ أو قريب أوذي رحم. والا فلامعنى لان ينعش الصنّاع والصناعات ويكون هناك أقوام يموتون من جرّاء طمعه. وخراب ذمته

(وحسبك داءً أن تبيت ببطنةٍ وحولك أكباد تحن الى القدّ)

(٢) أن لا ينفق أمواله الزائدة في ما لا يحل شرعاً : فلا يشتري أدوات اللهو المحرّم. ولا أنواع الخمور. ولا ينفق على البغايا ومواطن الشهوات ويدّعي أن في ذلك تنشيطاً لأرباب المهن المختلفة ونقلا للمال من جيب غير المحتاج الى

يد المحتاج وانما هو تنشيط للفسق والفجور . وفي ذلك خراب دينه . وفساد أخلاقه . وتمهيد السبل أمام أرباب المآثم والفسوق . فيزيدون طغيانا . وتزيد الامة بهم ذلا وهوانا

(٣) أن يُنفق المرء في الكماليات وهو قادر على استيفاء الحاجيات : فلا يجوز شرعا ولا عقلاً لصاحب المئات من الجنيهات أن يُنفق إنفاق صاحب الالوف ويقلده في أفراحه وأتراحه ولا يحسن بمن أراد أن يزوّج ابنه أو ابنته أن ينفق عليهما ثروته ويوقع نفسه في الضنك والعسر أو يستدين بالفائض لاجل شراء جهاز وأمتعة ولبوس واقامة مآدب وحفلات أعراس حتى يؤدي به الحال أخيراً الى الفقر والافلاس . ولا أن يكون مع المرء ألف جنيه لا يملك سواها فيشيّد بها داراً ويُفرغ جهده في زخرفتها واستجادة فرشها واستكمال مرافقها ويقول في نفسه انه بذلك يحيي الصناع ويُنعش الصناعة وربما كان ما ذكرناه من الملاحظات أو الشروط واضحاً جليا لا يحتاج الى تنبيه اليه أو عناية به أما العناية الحقيقية أو الملاحظة الواجب أن تُقدر قدرها فهي:

(٤) أن تكون المصنوعات والامتعة والادوات التي يبتاعها الاغنياء — من فيض الوطن ومن مصادره . حتى تعود الاموال التى تبذل في سبيل شراء هذه الاشياء الى الوطن وساكنيه . وتنتعش الصناعة والصناع الذين يعيشون فيه . أما اذا كنا ننفق زوائد أموالنا أو رءوسها أحياناً في شراء المصنوعات والادوات الاجنبية ونجلب الصناع الأجانب للقيام بأشغالنا وأعمالنا ومشاريعنا فيأخذون الاموال ويؤوبون بها الى بلادهم غير خزايا ولا ندامى فهناك البلاء المظيم على الوطن والشرّ المستطير على صُنّاعه وصناعته

فاذا روعيت هذه الشروط وماماثلها فى تحصيل الكماليات والانفاق من الثروة العامة عليها كان ذلك مساعدا على تقدم الحضارة ونموها في البلاد وبثّ

الراحة والهناء في نفوس الكثيرين من طبقات الصناع وأرباب الحرف والمهن المختلفة من حيث يجدون مرتزقا يقيهم مصارع العطلة . ويحميهم موارد الهلكة . وبذلك يتمّ التوفيق بين أصول الاقتصاد القائم عليها بنيان التمدّن الحديث وبين أصول الدين الاسلامي الذي إن زهّد في الدنيا فانما يزهّد في الطمع فيها والتكالب عليها . ولا يمكن أن يزهّد في توسيع نطاق العمران . وإسعاد بني الانسان

يوم في القاهرة

كانت مدينة الفسطاط ـ المعروفة في هذه الايام بمصر القديمة ـ أثراً فخماً من آثار الفتح الاسلامي ، وقد استبحر العمران فيها وتبسطت الحضارة الى درجة كادت تزاحم فيها مدينة بغداد العظيمة ، ثم لما ضعف شأن أمرائها وشاخت دولتهم طمع فيها ملك المغرب المعز لدين الله الفاطمي وأرسل اليها مملوكه (القائد جوهر) فلم يشأ هذا أن ينزل فيها وانما اختط له ولجنوده ـ حسب أمر سيده ـ مدينة على مقربة من تلك وسميت « القاهرة »

وكانت الأرض التى أنشئت فيها القاهرة رملة فسيحة الاكناف يسلكها الذاهب من مصر القديمة الى عين شمس ، وما كان يشاهد فيها مجتازها سوى بستان لاحد أمراء مصر يعرف ببستان الكافوري ودير للنصارى يعرف بدير العظام، وفيه بئر سمتها العامة بعد ذلك بئر العظمة ، ومكان يعرف بقُصَير الشوك (بصيغة التصغير) ، ثم لما بُنيت القاهرة أنشيء في موضعه قصر الشوك الذي هو أحد قصور الخلافة الفاطمية

في هذه الرملة انشأ جوهر مدينة القاهرة ، وكان أول ما اختطه فيها القصور الزاهرة ، والجامع الازهر

أما الجامع الأزهر فكلنا نعرفه ، وكان يسمى في كتب التاريخ جامع القاهرة ولعل وصف الازهر جاءه من كونه على مقربة من القصور الزاهرة ،ويراد بالقصور الزاهرة منازل الخلفاء الفاطميين ومساكن حُرمهم وبطانتهم ورجال دولتهم وهذه القصور قسمان :

(١) القصر الكبير الشرقي وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح ، وله عدة أبواب أعظمها باب الذهب ، ويعلو عقد هذا الباب منظرة يشرف منها الخليفة على الناس في أوقات معلومة ، ومن أبوابه باب الديلم وموضعه الآن جامع سيدنا الحسين ، ومن تلك الابواب باب تربة الزعفران ، وهي مقبرة الخلفاء ونسائهم وذراريهم ، وموضعها اليوم خان الخليلي

وبين باب الديلم (جامع الحسين) وتربة الزعفران (خان الخليلي) الخوخ السبع التي يتوصل منها الخليفة الى الجامع الازهر في ليالي الوقدات ، فيجلس بمنظرة الجامع ومعه حرمه ، فيشرف منها على الجموع المحتشدة ، ويشاهد الوقيد والزينة

والخوخ جمع خوخة وهي مخترق ما بين كل دارين لم ينصب عليه باب ، فقد كان موضع جامع الحسين باباً للقصر ، وخان الخليلي باباً آخر ، وكان بين البابين منافذ ومسالك سبعة ــ هي الخوخ ــ ينفذ الخليفة الى الجامع الازهر من أيها شاء ، وتعدد تلك المنافذ يقصد به اظهار أبهة الملك وفضل عظمة الخلافة ، أو أن الخليفة كان يخشى أن يقعد أحد له بالمرصاد فيغتاله فهو قد اتخذ لنفسه عدة مسالك يعمّي بها على الناس الطريق الذي يسلكه

(٢) أما القصر الغربي فواقع على مقربة من الخليج ، وهو دون القصر الكبير منزلةً وشأناً ، وكان للخليفة فيه منظرة يتحوّل اليها في أيام النيل لاجل النزهة على الخليج

وبين القصرين الشرقي والغربي فضاء منفسح الاطراف يسع عشرة آلاف من العساكر يقال له بين القصرين ، ومن ميادين القصر الغربي الميدان المعروف بالخرنشف ، ولك أن تسميه الخرنفش أيضا

بُنيت القاهرة لأول أمرها موئلا وحصناً للخلافة الفاطمية ، وداراً ينزلها الخليفة بحرمه وخواصه ورجال دولته وجنوده وقواده ، الى أن دالت الدولة الفاطمية وخلفتها الدولة الايوبية فتحولت الدولة برجالها وأبهتها الى قلعة الجبل وعادت القاهرة مدينة سكنى فهانت بعد عزّها وابتذلت بعد احترامها

وكان استيلاء الفاطميين على مصر في سنة ٣٥٨ من الهجرة ، وانقراض دولتهم منها في سنة ٥٦٧ فلبثوا فيها مائتي سنة تقريبا .

وكان شأنهم في مصر شان سائر الدول التي كانت تقوم في العصور القديمة : طفولية ، فشباب ، فكهولة ، فهرم ، فموت .

وقد تغلب في أُخريات أيام الخلافة الفاطمية القواد والمماليك والعمال — على نحو ماكان يحصل لاختها الخلافة العباسية — ومنهم أمير الجيوش بدر الجمالي وابنه الأفضل وصالح ابن رزّيك واضرابهم . وهذا الاخير بدأ استبداده بشؤون الدولة في زمن خلافة الفائز بأمر الله الذي تولى الخلافة وعمره خمس سنين وغادرها قبل أن يبلغ أشُدّه .

ففي يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ — في زمن وزارة (الصالح بن رزيك) المذكور — كان الناس في القاهرة يتأهبون لاستقبال وفد جليل أو ركب مقدس يقدم عليهم من نحو بلاد الشام . وكانوا على اختلاف أجناسهم وطوائفهم يظهرون الاسف والحزن ، ويتأوهون من أعماق قلوبهم . وهناك نفر من الزعانف الذين لايبالون كانوا يقفزون ويغنون ، وهم في غفلتهم هائمون . وكان العقلاء ينهونهم ويؤنبونهم ويقولون لهم ان الاجدر بكم أن تبكوا وتندبوا ،

لا أن تغنوا وتصخبوا وكانت علائم الحزن واللوعة بادية على وجوه شيعة الفاطميين وأهل مذهبهم أكثر من ظهورها على الطوائف الاخرى التي كان يتألف من مجموعهم سكان القاهرة لذلك العهد كالاتراك والمغاربة والسودانيين والشاميين والعراقيين الذين ينسبون الى الدولة العباسية . ويدعون الى مبايعتها في السر

وكانت زَرافات من الناس يمشون في الاسواق وينشدون المراثي والاشعار المحزنة

وكنت ترى بعض التجار من محبي الخير والاحسان يوزّعون الصدقات والثياب على الفقراء والمعوزين . وبعضهم كان يفرش في حانوته سفرةً من أدم (جلد) ويضع عليها ألوان الطعام والزبادي المفعمة بالاجبان والسلائط والمخللات والالبان الساذجة والصحاف المترعة بعسل النحل والفطير والخبز المغير لونه بالقصد . ثم يدعو المارة أيا كان جنسهم الى الأكل عن روح سيد الشهداء (الحسين رضى الله عنه) . وهناك حانوت آخر جمع فيه صاحبه الوعّاظ والقراء والشعراء . فكانوا يقرأون قصة مصرع الحسين ويندبونه ويعدّدون فضائله ومناقبه ويلعنون قاتليه وشانقيه

وقد بلغ الحزن ببعض الشيعة أن كانوا يمشون حفاوة ملثّمين وعلى غير زيهم المعتاد وكنت ترى الغيظ والحنق يقطر من وجوههم

وكانت الشوارع من على الجانبين مرصوفة بالمصاطب والدكك لاسيما الشارع الاعظم المؤدي الى الجامع الحاكمي (جامع الحاكم) وباب الفتوح حيث ينتظر أن يمر الموكب المقدّس . وكنت ترى المتفرجين متراصين على تلك المصاطب والدكك وهم يتنهدون ويتحسرون وآخرون يتخاصمون ويتلاكمون . ومنهم قوم يتجادلون فى أيّ وقت يمكن أن يصل فيه الوفد ؟

وكان بين المتفرّجين رجلان أحدهما شاب ولد في القاهرة ونشأ على المذهب الشيعي الاسماعيلي الذى كان مذهباً للفاطميين . وقد درس العلوم وفنون المنطق والحكمة وأسرار الاديان وتاريخها فى مدارس الفاطميين . وله غيرة ونعرة على مذهبه الشيعي . وكان يجادل فيه ، ويناضل عنه بقوة . وكانت تبدو على وجهه آيات الذكاء والفطنة . وتدل لهجته فى حديثه أنه يحب أن يكون له تأثير على جليسه وفى قومه وبني نحلته .

أما رفيقه فقد كان في سن الشيخوخة وأصله من بلاد العراق وقد وفد على القاهرة من أجل تجارة . ثم طابت له السكنى فيها . ولم يكن على المذهب الشيعي ولكنه يتظاهر به أحياناً ترويجاً لاشغاله ومصالحه ورغبة في الامتزاج بالمصريين الذين كان معظمهم لذلك العهد شيعياً

وكان العراقيّ يحبّ البحث والمذاكرة ويُكثر من المطالعة ويميل الى معاشرة العلماء والفضلاء . ولذلك كان يرتاح الى حديث الشاب ويدعوه الى حانوته من يوم الى آخر . وكلما كان الشاب يتكلم في موضوع أو يحقق مسئلة كان ذلك الشيخ يصغي اليه بانتباه واعجاب . فكان الشاب يزداد رغبة في التردّد عليه . والتبسّط في الحديث بين يديه . وكان موعد وصول الموكب قُبيل العصر لكن العصر أذّن . وهتف المؤذنون على منار جامع الحاكم (بحّى على خير العمل) . والموكب لم يصل بعدُ . فقال الشاب الفاطمي لصديقه الشيخ العراقي : هيّا بنا نتفسح خارج باب الفتوح ونستقبل الموكب ثمّهْ . فأجابه الى سؤله وأخذا يخترقان الجموع تارةً ويتنحّيان عن طريق الجماعات المتدافعة في السير تارة أخرى . حتى وصلا الى باب الفتوح فجاوزاه الى الرحبة خارجه. وكان فيها (منظرة) من تلك المناظر التى كان يتخذها الخلفاء للنزهة والاشراف منها على الجمهور . وكان ثمهْ بستانان كبيران ينتهيان الى (منية مطر) وقد عرفت بعد

ذلك بالمطرية .

ثم أخذا في التجوال هنا وهناك حتى وصلا الى الباب الآخر المسمى بباب النصر . وكان في رحبته الخارجية مُصلى العيد فجعلا يتأملان في بناء الباب واحكام صنعه ثم قال الشيخ انى أرى في الشرفة العليا نقوشاً وخطوطاً لم أفقه لها معنى . فقال له الشاب الفاطمي إنها كتابة كوفيّة ومعناها (لا اله الا الله محمد رسول الله . عليّ وليّ الله . صلوات الله عليهما) ثم قصّ الشاب على صاحبه خبر ذلك الباب وباب الفتوح وانهما من آثار أمير الجيوش (بدر الجمالى) الذي قلده الخليفة المستنصر وزارتى السيف والقلم . ولم يقبل أمير الجيوش الوزارة مالم يمكنه الخليفة من سحق أمراء مملكته . فصرّفه فيهم . فجمعهم الوزير في داره من أجل دعوة صنعها لهم . ثم فعل بهم مافعله زميله (محمد علي باشا) بالمماليك .

وقد اصلح أمير الجيوش مصر بعد ان قتل الكثير من سكانها حتى قيل انه قتل من أهل البحيرة وحدها عشرين ألف نفس . وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر . ومن آثاره الباقية بمصر عدا البابين المذكورين باب زويلة (وهو الذي يقال له اليوم باب المتولي) وقد حدث بعضهم أنه « طاف البلاد ورأى مدن المشرق فلم يشاهد في مدينة من المدائن أعظم من باب زويلة . ولا رأى مثل بدنتيه اللتين عن جانبيه . ومن تأمل الاسطر التى قد كتبت على أعلاه من خارجه فانه يجد فيها اسم أمير الجيوش والخليفة المستنصر وتاريخ بنائه وقد كانت البدنتان أكبر مما هما الآن بكثير . هدَم أعلاها الملك المؤيد لما أنشأ الجامع داخل باب زويلة وعمر على البدنتين منارتين »

وذكر بعضهم « ان فردتيه يدوران في سكرجتين من زجاج »

وهذا الشارع الموصل الى باب الفتوح ويسمى اليوم « مرجوش » —

منسوب الى هذا الأمير أيضاً . ولفظه محرف عن (أمير الجيوش)

ثم تنفس الشاب الصعداء . وقال ان أول عناية بالرأس الشريف رأس سيدنا الحسين عليه السلام إنما كانت من هذا الأمير الجليل . فانه لما بلغه قتل ولده شعبان في مدينة عسقلان إحدى مدن ساحل بحر الروم في سنة ٤٦٠ نهض اليها . وبلغه ان بها مكانا دارساً فيه رأس الحسين . فاهتم بالامر وشرع في بناء مشهد فخم في عسقلان على نية أن يودعه الرأس الشريف . ولكن عهدي برأس الحسين عليه السلام انه بقى في دمشق فما الذي جاء به الى عسقلان ؟ فأجابه الشيخ العراقي : يغلب على ظني أن العباسيين هم الذين أرسلوه الى عسقلان . فقد ذكر رواة التاريخ انه بعد وقعة كربلاء المشؤومة وارسال رأس الحسين وأهل بيته الى دمشق « مكث الرأس مصلوباً فيها ثلاثة أيام . ثم أنزل في خزائن السلاح حتى ولي سليمان بن عبد الملك فبعث اليه فجيء به وقد محَلَ (تغير) وبقى عظما أبيض فجعله في سَفَط وطيبه . وجعل عليه ثوباً . ودفنه في مقابر المسلمين . فلما ولي عمر بن عبد العزيز بعث الى خازن بيت السلاح أن وجه الي برأس الحسين ابن علي . فكتب اليه ان سليمان أخذه وجعله في سفط . وصلى عليه ودفنه . فلما دخلت المسوِّدة (وهم بنو العباس) سألوا عن موضع الرأس الكريم فنبشوه وأخذوه والله أعلم ماصنع به » ثم قال ويخطر لي ان العباسيين أرادوا ان يضعوا رأس الحسين بحيث يخفى مكانه عن شيعة الامويين فلا ينالوه بأذى — وعن شيعة العلويين فلا يتخذوه ذريعة لتحريك الفتن واثارة القلاقل . وهيج الاحقاد والضغائن . فاختاروا له مدينة عسقلان . ثم طلب الشيخ من الفتى الفاطمي أن يتمم له حديثه عن المشهد الذى كان شرع أمير الجيوش في بنائه ليودعه الرأس — فقال له انه لم يكمله هو وانما أكمله أبنه شاهنشاه الملقب بالافضل الذي تولى الوزارة بعده . فان

الافضل كان خرج فى سـنة ٤٩١ الى بيت المقدس وبهـا بعض أمراء الاتراك فاستخلصها منهم . وعاد منهـا فدخل عسقلان . ورأى ما كان شرع فيه والده فاجتهد في إكماله . ثم أخرج الرأس المبارك من مكانه وعطره وحمله في سفط على صدره . وسعى به ماشياً الى أن أحلّه في مقره من المشهد العسقلانى . وهاهم اليوم يحملونه من ذلك المشهد الى القاهرة . وقد جاءت الاخبار من عسقلان الى بعض التجار هنا بأنهم حينما أخرجوا الرأس من مشهده وجدوا دمه لم يجف . وله ريح كريح المسك . فتبسم الشيخ العراقي لقوله وكان داهية وقال كيف يلتحم زعمك هذا مع مارويته لك آنفاً عن التاريخ — من أن الرأس بقي في دمشق في خزائن السلاح الى زمن سليمان بن عبد الملك . ولما أحضره في مجلسه وجده عظماً أبيض . فمن أين يقطر الدم ؟ وكيف يكتبون اليكم من عسقلان بذلك ؟

فحمي الفاطمي واحتملته الحماسة الدينية وقال للعراقى كيف صدقت مؤرخيك وكذبت مؤرخينا ؟

فأجابه ان خبرك ليس تاريخاً وانما هو مما يُراسل به بعض العامة بعضاً . ألم تقل ان الخبر أرسل من عسـقلان الى بعض التجار هنا . وأنا من التجار وأعرف ما هو مبلغ عنايتهم بتمحيص الاخبار .

وبعد فاني لأحبّ لك يابني أن يخنق عَمى التقليد أو الغلو في الاعتقاد نور عقلك ويشوه جمال الحـكمة التي أخذت تتجلى في نفسك . فتحسب أن حياة الشهداء حياة حيوانية لها خصائصها وتكاليفها . وانما هي حياة روحانية استأثر الله بعلمها وأشار تعالى الى هـذا الاستئثار في آية الشهداء نفسها حيث قال « بل أحياء عند ربهم » فان كلمة « عند » تشير بلطف الى ما ذكرت لك فسكت الفاطمي عن اقتناع ، وكان منصفا ، والانصاف شعار العقلاء ، وحلية الفضلاء .

ثم سأل الفتى الشيخ عن جثة الحسين رضى الله عنه ومصير أمرها بعد استقرار

الرأس في دمشق ثم في عسقلان . فقال له ان الجثة بقيت بعد أخذ الرأس الى دمشق — مطروحة في الفلاة حتى دفنها أهل العاضرية — وهم قوم من أسد — في أرض الطف . وبقيت بحيث تُعرف وتزار الى زمن المتوكل العباسي . وكان يكره العلويين . فأمر أن تسوّى أرض كربلاء وتمهد وأن تزرع حنطة وشعيراً . ففعلوا وبقيت الارض هكذا مدة أربع عشرة سنة . حتى قتل المتوكل وخلفه ابنه المنتصر فأذن بزيارة قبور شهداء كربلاء رضي الله عنهم . ثم ان الشيعة غلّبوا الحدس والتخمين في تعيين مكان الجثة . وأقاموا فيه قبراً . ان لم يكن على الجثة نفسها فعلى مقربة منها . وهم الى الآن يزورون ذلك المشهد في كربلاء ويحجون اليه . فاغرورقت عينا الفاطمي بالدموع وقال حقا ان الامة لم تنصف آل البيت ولم ترع لهم ذمة . وقد اذكرني مارويته عن تاريخ مشهد الحسين — بتاريخ مشهد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام . فان ابنه الحسن دفنه في أرض النَّجَف ليلا وأخفى قبره حسب وصيته له . وكان في تلك الارض بناآن يعرفان بالغريين « ويقال أنهما قبرا مالك وعقيل نديمي جذيمة الابرش . وسميا غريين لأن النعمان بن المنذر كان يُغريهما (أي يلصق بهما ويطليهما) بدم من يقتله إذا خرج في يوم بؤسه » أو أنهما سميا بذلك لحسنهما : فان الغري كغني الحسن . وكل بناء جيد حسن يصح لك أن تسميه غرياً . ثم قال :

وبقي مرقد عليّ عليه السلام مجهولا الى زمن هارون الرشيد فاتفق ان ذهب الرشيد الى أرض النجف لاجل الصيد فشاهد ثمّ أبنية متهدّمة واطلالا دارسة فسأل الفلاحين الذين يعملون في الارض عن تلك الاطلال . فقالوا له انها بقايا الغريّين وانقاضهما . ونسمع عن آبائنا والاشياخ من قومنا أن قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على مقربة من الغريين وتحت طيات هذه الاطلال . فاهتم الرشيد بالامر وجعل يحقق الخبر بنفسه من سكان تلك الناحية حتى ثلجت نفسه

أخيراً الى بقعة معينة حسب أنها تضم تجاليد أمير المؤمنين . فأمر حينئذ أن يشيد ثمّهْ قبر باسمه عليه السلام . فشيد وبقي يزار ويتبرك به الى زمن معزّ الدولة من آل بويه . فبنى معز الدولة على ذلك القبر قبة فخمة . وأخذت الدور والمنازل تبنى وتُشيد من حواليه رويداً رويداً حتى أصبحت مدينـة مقدسة هي مدينة (النجف) الشهيرة

ثم لم يرُعْ الشيخ العراقيّ وفتاه الفاطمي الا طلائع الموكب تتبدّى لهم من بعـد . وأصوات الدعاء والندب والنحيب تتعالى من كل جانب . وكان خدم قصر الخليفة يمشون في ثنيّات الموكب وعليهم دلائل الاهتمام وأمارات القلق والاضطراب . وكانوا ينظرون شزراً الى مماليك الوزير الصالح بن رزّيك الذي كان هو والخليفة اذ ذاك ينتظران الموكب في المنظرة خارج باب الفتوح . فـكان الفتى الفاطمي يتفرس في وجوه أولئك المماليك والخـدم كلما مر من أمامه أحد منهم . فسأله صاحبه عن شأنهم وما للخدم وللمماليك ؟ وكان عزيزاً على مثل ذلك الغريب ـ ممن ليس من صميم الشيعة الفاطمية ـ أن يعرف مثل تلك الاسرار . فقال له الفتى : ان فى الامر مشكلا عظيما . قال وماهو ؟ قال ان الوزير ابن رزيك سعى في نقل الرأس الشريف من مشهده في عسقلان الى القاهرة . وبنى جامعه خارج باب زويلة (بوابة المتولي) وأحبَّ أن يدفن الرأس فيه ليكون له بذلك الشرف والفخار ، على كر الدهور والاعصار . قال الشيخ ومن الذي يعارضه في ذلك والخليفة والدولة في قبضة يده ؟ قال الفتى نعم . غيرأن خدم قصر الخلافة تعصّبوا وتألّبوا وأبوا الا أن يدفنوا الرأس عندهم فى قبة الديلم حيث أحد أبواب القصر الشرقي الكبير . فبنوا له مشهداً ثمّهْ ونقلوا اليه الرخام . ليكون الفخر لهم ـ أو لأجل أن يظهروا للملأ ان قصر الخلافة لم تزل فيـه بقيـة من الارادة والسلطة والاختيار . فقال الشيخ وكيف ترى ؟ ولمن تكون الغلبة ؟ قال

الفقى لا أراها الا لأولئك الخدم ومن التف حولهم من العامة . لان المسئلة مهما كانت عظيمة لا تتعدى أنها دينية . وهؤلاء السياسيّون ـ ومنهم ابن رزّيك ـ انما يهمهم القبض على أزمة شئون المملكة ، وان تخلص السلطة لهم . فهو يدع للعامة والخدم والخصيان جميع الأضرحة والاولياء ، وكل ماله تعلق بالمملكة الباطنية اذا كانوا يدعون له الاستبداد بالمملكة الظاهرية . على أنه اذا لم يتيسر للوزير الظفر بهذه المنقبة ، منقبة دفن الرأس الشريف فى جامعه ، فانه فاز بمنقبة اسمى منها أعني أنه كان السبب في نقل الرأس من مشهد عسقلان الى القاهرة فقد مضى على بناء مشهد عسقلان ووضع الرأس فيه زهاء خمسين سنة . وهي المدة ما بين الافضل بن أمير الجيوش ووزيرنا الحالي الصالح بن رزيك . ولما رأى هذا استفحال أمر الصليبيين ، وتمكنهم من فلسطين ومدن الساحل ، أشفق على مشهد الحسين في عسقلان من أذاهم وعبث يدهم ، فأرسل وفداً من العلماء والنقباء والقضاة والشهود الى عسقلان وأمرهم أن يتحققوا من مكان المشهد واستقرار الرأس الشريف فيه ، ثم ينقلوه باحترام الى القاهرة . وقد فعلوا ما أمرهم به . وهذا هو اليوم المشهود الذي يصلون فيه . انظر انظر هذا هو الموكب

وكان في مقدمة الموكب الامير سيف المملكة تميم والي عسقلان . وكان يمشي بين يدي الرأس الكريم أيضا مشارف عسقلان القاضي المؤتمن بن مسكين ثم « قدم الاستاذ مكنون بالرأس وأنزله في بستان (الكافوري) ، ثم حُمل فى السرداب الى قصر الزمرد ، ثم دُفن عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة (حيث مكانه فى المشهد الحسينى اليوم) فكان كل من يدخل من الخدمة يقبل الارض أمام القبر ، وكانوا (أي الفاطميون وشيعتهم) ينحرون فى يوم عاشوراء عند القبر الإبل والبقر والغنم ، ويكثرون النوح والبكاء ، ويسبون من قتل الحسين ، ولم يزالوا على ذلك حتى زالت دولتهم »

ولكن ما بال النسوة[1]

يقولون ان اختلاف الأئمة رحمة ، ويفسّرون ذلك بالنجار وبائع (المانيفاتورة) الأول حنفيّ المذهب ومذهبه هذا يحكم عليه بأن يجدد وضوءه كلما سال منه دم ولو قليلا والادوات الجارحة التى يزاول بها صناعته قلما تبقي على يده و ترحمها فلا تدميها . فمن ثمّ كان مرهقا بتعبّده على مذهب الامام أبى حنيفة (رضي الله عنه) فله أن ينتقل الى المذهب الشافعي الذي لا يقول بانتقاض الوضوء بسيلان الدم ، ثم يقول الفقيه فى بيان حكمة اختلاف الأئمة : أما ذاك بائع (المنيفاتورة) أعنى جار النجار الحنفي — فان مذهبه الشافعي يلحق به مشقة كبرى : لانه مضطر الى أن يلمس أيدي السيدات فى أثناء الاخذ والعطاء ، فينتقض وضوؤه ويحتاج أن يجدّده كلما صلى ، فله أن يدع مذهبه الى مذهب أبى حنيفة الذى لا يرى انتقاض وضوء الرجل بلمس المرأة

قال الفقيه : فانظروا رحمكم الله الى فضل اختلاف الأئمة وكيف رحم هذا الاختلاف النجارين وبائعي (المنيفاتورة) فحال بينهم وبين العنت والمشقة .

نقول للفقيه : ولكن ما بالُ النسوة اللاتي في المدينة ؟ ما بال هند ودعد وفلانة وفلانة ؟ ما بال اختلاف الأئمة لم يرحم اولئك البائسات اللواتى لا يعرفن أنفسهن إن كنّ زوجات أو مطلّقات وقد رَثَتْ رحمةً لهن الأرَضُونَ والسّموات ولم ترحمهن المذاهب والخلافات . لماذا عامل « اختلاف الأئمة » النجّارين وبائعي (المنيفاتورر) بهذا العطف الكثير . ولم يعامل أولئك النسوة بمثل ذلك وهن اللواتى قيل فيهن « رفقا بالقوارير »

هنالك ضاق صدر الفقيه ولم يعد يُطيق صبراً على ما سمع فقال : أىّ نسوة

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٦ ﻫ و ١٩٠٨م

تعني ؟ وما بل اولئك النسوة اللواتى تزعم أنهن فى حاجة الى الرحمة والحنان ؟ بل أية امرأة يضيق عن تفريج كربها مذهب الشافعى أو مذهب أبى حنيفة النعمان ؟

ولم يكدْ يتمُّ قوله هـذا حتى تقدّمت اليه من بين أولئك النسوة الآنسة أو العقيلة . . فارتمت على يديه تقبلها وتبكي وتقول : ارحمني ياسيدي الاستاذ . دع رفاقك العلماء المشتغلين بشرح اسرار الدين يرحموني . دع اختلاف الائمة الذى قُلتَ عنه ما قُلتَ يرحمني كما رحم النجّارين وبائعي (المنيفاتورة) . فقال لها الفقيه : قصى حكايتك، وأطلعيني على دخيلة أمرك

وكانت الفتاةُ نحيلةَ الجسم عصبيّة المزاج . وكانت اذا ذكرت شقاءها وماطرأ عليها في ماضي حياتها أصابها شبه دُوار أو غُشيّ تفْقدُ معه صوابها فمنعتها أمها عن الـكلام . وقالت للفقيه :

مات زوجى وترك ابنته هذه صغيرة في حضانتي . وقدورِثَتْ منه أطياناً تُساوي ألوفاً من الجنيهات . هذه الاطيان هي أصلُ الشقاء . ومنبَعَثُ البلاء . لانها أغرت الخاطبين أو الطامعين بها . فلم يدعوها تقصر (أى تصل الى سن الرشد) فتختار لنفسها من ترضى خُلقَه ودينه وجميع ما تحبُّه النساء في الرجال فجملوا يخطبونها من أخوتِها لأ بيها . فتوقّف هؤلاء بداعي أن أختهم صغيرة السنِّ غير أنَّ أَحدَ الخاطبين احتال للامر فدَسَّ اليهم بعض متفقهة المحاكم فأقنعهم بأن لهم أن يزوجوا أختهم هذه ولها هي أن تختار نفسها لحين بلوغها . وكان هذا الخاطب غنيًّا طاعنا في السنّ عنيداً سيّئ الاخلاق . ولما راهقت البنت وبدا جمالها وفطنت لشؤونها جعَلَ صُوَيْحباتها يصفن لها من حالتها مع زوجها ماغيّرَ قلبها . وأفسد نيّتها : أنت فتية وهو شيخ كبير . أنت جميلة وهو مشوّه أبخر . أنت رَضِيَّة الُخلْق بشوشةُ الوجه . وهو أحمق حديد المزاج . أنتِ أنت . وهكذا كلما اجتمعن بها أعطينها درساً جديداً . ومن تلك الدروس — أنّ

اخوتها انما زوّجوها من هذا الشيخ الكبير لاجل أن لا تلد منه فيموت: فتموت. فيرثوها . وقالت لها إحداهن مَرّةً . سمعتُ أبي يقول إن لك أن تختاري نفسك إذا بلغت أي أن تقولي « انني لا أريده زوجا لي » قالت الأم ولكن وَاأسفاه لنا مَعْشَرَ النساء : أعطانا الشرع حقوقاً ولكن لم يُعطِنا آباؤنا علماً نصون به تلك الحقوق . ثم بلغت ابنتي فقالت لا أريده زوجاً لي . ولما بلغ قولها الزوج وأعوانه عارضوها في ذلك . وقالوا إن اختيارك نفسك غـير مقبول لان له شروطاً مسرودة في كتب الفقه وانت لم تراعيها في أثناء اختيارك نفسك . ومن أين لتلك الفتاة الغرّة ان تعرف مسائل الفقه . وإذا حاولتْ أن تتعلّمَ ذلك وتُراعيه هل تحسب أيُّها الفقيه أن اخوتها يمكّنونها من ذلك وقد ذكرتُ لك أنه ربما كان لهم غرض في تزويجها من ذلك الشيخ . وكانت أم الفتاة تتكلم والفقيه ينكث باصبعه في الارض كمن يفكّر في هذه المسئلة و كيف يطبّقها على الحكمة الذهبية « اختلاف الأئمة رحمة » .

ثم قالت الأمّ : واذا أردت أيها الاستاذ أن تعرف ماذا أصابنا من التّعب والشّقاء في أمر تخليصها من زوجها— فدونك المحاكم الشرعية وقُضاتها ووكلائها ومُحضريها وسجلاّتها فلديهم تفصيلُ كل شيء . ولكن هل أَجْدَى ذلك نفعا ؟ وهل تمتعت ابنتي بحقها وحريّتها التي كرَّمها بها الشرع الشريف ، كلا

قالت ثم ان الوسطاء والشفعاء دخلوا بيننا وبينه وأقنعوا البنت بلزوم زفافها على زوجها :فزفّت اليـه . ولبثت معه شهراً على أحرّ من جمر الغَضا: فقد كان يضارّها ويسيء عشرتها . على أَنّي لاأبرّيء ابنتي ولا أقول انها كانت مَلَكاً سماوياً ولـكن أقول إنهما لم يتّفقا وانّ مُعظم أسـباب الشّقاق يرجع الى ذلك الزوج الذي لم يكن لابنتي رأيٌ في اختياره . ويبعُدُ أن يكون الدّين — الذي

أعطاها من الحرّية والحقوق مالم يُعطه دينٌ آخر — مما يحول بينها وبين الاختيار في مسائلها التي شرحناها لك . وآل الامر أخيراً الى أن رَجَعَتْ البنت الى منزلي. ومن يومئذ أخذت الهواجس تتغلب عليها فساءت صحتها وتغيرت أخلاقها ، وكادت تخرج عن ارادتي لكثرة مايهمس به في أذنها النساء اللواتي يعاشرنها ويُشِرن عليها . وقد تعبتْ الرُسُل بيننا وبين الرجل . علّه يطلّقها ولو بمال تفتدي به نفسها فلم يفعل تعنتاً أو تشفياً أو ربّما كان ينوي أن تموت أسىً وكمداً فيرثها ويتمتّعَ بمالها ويكذّب ظنّ اخوتها فيخسروا المال الذي كانوا يتلَحّزّون عند ذكراه ويُرزأون باختهم التي تركها أبوهم لعطفهم وحنانهم — ان كان لهم قلب يختلج فيه عِرقُ رحمة أو حنان على تلك البنت المسكينة اليتيمة . ولماسمعت البنت هذه الكلمات الاخيرة من أمّها أغرورقتْ عيناها بالدموع ، و بَكَتْ أمها شجوها ولم يملك الاستاذ نفسه عن ارسال الدموع .

قالت الام ولم يكن يُخفّف عن ابنتي كربها ويُغيّض من عَبَراتها سوى التأسي بالكثيرات من النسوة اللواتي نصيبهن في الزواج نصيبُها . فكنّا نقول لها إن لفلانة قصةً مع زوجها تُشبه قصتك . وفلانة أصابها من الشقاء فوق ماأصابك . وفلانة هجرها زوجها ومَنَعَ النفقة عنها ولا مال لها تُنفق منه على نفسها وأنتِ بحمد الله ورِثْتِ من أبيك ماتعيشين به معيشة التَّرَفِ وهكذا

ثم أخذت المسألة في هذه الايام دوراً جديداً أشد خطراً من سائر الادوار التي مرّت فيها : ذلك أن بعضَ النساء المستهترات حرّضْنَ ابنتي على ان تتزوّج بمن تشاء مادام أن زوجها لايقيم حدود الله الواجبة عليه . وقالت أخرى انه لا يجوز لها ذلك مالم ترفع الامر الى أحد العلماء من المذهب المالكي فهو يُفتيها بحسب مذهبه . فأجابتهما ثالثة ان هذا لايتمّ مالم يكن ذلك العالم المالكي قاضياً موظفاً من قبل السلطان فيصحّ له حينئذ أن يجلبَ الزوج ويُلزمه بأن يُحسن عِشرة

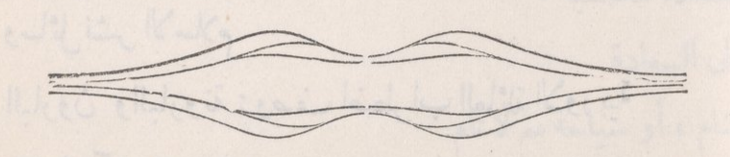
زوجته حتى اذا امتنع ألزمه بطلاقها أو حكم القاضي بفسخ النكاح وان لم يطلق هو. ولما سمعت ابنتي أن في المذهب المالكي ما ينفس كربها تمنت لو ينقلها بساط الريح الى بلاد المغرب حيث العمل هناك بمذهب الامام مالك . لكنها لما رأت ان ذلك ضربٌ من المحال وأن المحاكم الشرعية في بلادنا لاتحكم بغير مذهب أبي حنيفة ، وهذا المذهب لايجوّز للقاضي أن يفتات على الزوج في تطليق زوجته منه . وانما كل ما على القاضي ان يُلزم الزوج بالانفاق على زوجته فيعزّره أولا ثم يحبسه ، والمفلسون لايحسبون . ولا أسهل من دعوى الافلاس على الزوج - لما رأت ابنتي كل ذلك تملكها اليأس . وخامرها الوسواس وساورتها النوبات العصبيَّة وكاد يتعدّى أثر ذلك الى عقلها . فخفتُ أن تختلط وتُجنّ . وكانت كلما رأت من زوجها وإخوتها إعراضاً عنها وازراءً بها ازدادت حنقاً وغيظا وتلمّست الوسائل للانتقام منهم والتشفّي : فكانت تقول لا لا لا أنتحر ولا أموت : فأن موتي هو أقصى ما يتمنّونه واني سأعمل كما . . .

ثم سكتت الأمُّ بعد أن حوقلت وتعوّذت بالله من الشيطان الرجيم . وقد فهم الفقيه أنّ العمل الذي كانت تنويه هذه التعيسة هو أحد أمرين: اما الخروج من دينها الى مهاوي النار . واما السّلوك في مسالك الخزي والعار .

ثم قالت أم الفتاة ولما بلغنا أيها الاستاذ أنك تُفتي النجّارين وبائعي (المنيفاتوره) بالمذاهب المختلفة . فالحنفيُّ منهم يقلّد الشافعيَّ والشافعيُّ الحنفيَّ عملاً بمبدإ « اختلاف الأئمة رحمة للامة » بادرت بابنتي اليك عسى أن تجد لنا في أحد المذاهب ما يرحمنا وينفي الشقاء والبؤس عنا.

فلم يكن من الفقيه إلا أن تلطّف وصرف السيدتين صرفا جميلا . ثم فكّر في الأمر طويلا . فعلم أنّ التبجّح باختلاف الأئمة وانه رحمة للمكلفين وأنه يجوز

للنجّار أن يقلد المذهب الشافعي ، ولبائع (المنيفاتورة) أن يقلد الحنفي ، وأن الدّينَ الاسلاميَّ بسبب تلك المذاهب أُصبحَ يُسْراً لا عُسْرَ فيه ورحْباً لا حرج معه – كل ذلك انمـا يتمشى في زوايا المساجد ، ويمكن أن يهمس به في آذان السذَّج من المجاورين . أما حيث العمـل الحقيقي ، حيثُ ينفع ويفيد اختلاف الأئمة – في المحاكم الشرعية ، في محالّ التجارة ، في مجالات الاشغال العامة ، في مواطن المصالح الكبرى ، مما يكون للعمل بذلك الاختلاف أثرٌ بيّن في انهاض المسلمين ، وتحسين حالتهم الاجتماعية ، وإصلاح روابطهم العائلية – فان في كل هذا لا ينبغي لنا أن نذكر اختلاف الأئمة . ولا نتبجّحَ بكونه رحمةً أو نعمة للامة والا فكيف نضطر هذا الجمعَ الكثير من نِسْوَةِ المدينة فيستسهلنَ الانتقال من دين الى دين ولا تستسهل محاكمنا الشرعيةُ الانتقالَ من مذهبٍ الى مذهب في بعض الفروع الفقهيّة ؟ اذا كان المسلمون يعتقدون أن الأئمة على هُدى . وأن اختلافهم رحمة فلا شيء يؤيّد ذلك الاعتقاد مثل أن يقلدوهم في كلّ ما يحتاجون اليه في مصلحتهم العامة من المسائل وفروع المعاملات . وأوّلُ ما يبدأ بذلك في ساحات المحاكم الشرعية على نحو ما أشار به أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده في « تقرير المحاكم الشرعية » ومنْ يوم أن خطرَ لذلك الفقيه هذا الفِكْرُ في الانتقاد على مبدأ « اختـلاف الأئمة رحمة » لم يعد يتبجح به ، بل صار اذا أحبَّ أن يتخذَ هذا المبدأ قدوة سمع كأنَّ هاتفاً يقول له – ولكنْ ما بالُ النسوة ؟



فهرس

صفحة

فهرست الخطأ والصواب في كتاب البينات

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١	٧	ختل	أختل	١٣٧	٣	القراء	القراءة
١١	٩	المتنوين	المتنورين	١٣٧	١٣	تتعرض	تعترض دون
١٢	١٩	العالمكرية	العالمكيرية			سير نا	سيرنا
١٤	٢٠	انشغاله	اشتغاله	١٣٧	١٥	على طريقة	هي طريقة
٢٠	٥	يندهش	يدهش	١٣٨	٢١	بل	بلى
٣٢	١٦	رأسي	هامتي	١٤٣	٣	إن الضعف	ان سبب الضعف
٣٥	١٥	بارودون	باردون				
٣٧	٩	تساقت	تساقطت	١٤٧	١٦	بالانصاف	بالانصراف
٤٠	٢	فالاطناف	كالأطناف	١٦٣	٤	الأول	الاولى
٤٨	١٥	التتفل	التنفّل	١٦٩	٩	جون سيمون	جول سيمون
٥٤	٨	اندهشت	دهشت	١٩٩	٥	بنينا	بذَنيا
٥٩	٣	الفراء	القراء	٢١٨	٢	والفناء عناء	والفنى . عَنا
٦١	٤	أولادا	ولاداً	٢٢٢	٥	الحصة	الصحة
٧١	٩	التعبيرات	التغييرات	٢٣١	١٢	الأرَنّ	الأرِن
٧٣	٨	كفالته	كفالة	٢٤٧	١٦	ويأخذه	ويأخذ
١١٥	١٥	الاميريال	الأميرال	٢٥٩	١١	الصفور	العصفور
١٢٤	١١	وجضأت	وحضأت	٢٧٤	١٤	وشانقيه	وشانئيه
١٢٤	٢٢	وأعان	وأعانت	٢٧٤	١٥	حماوة	حفاةً
١٢٦	٩	بين نفوس	بيّن في نفوس				



في
الدين والاجتماع والادب والتاريخ

للاستاذ

الشيخ عبد القادر المغربي

الجزء الثاني

القاهرة
١٣٤٤

المطبعة السلفية - ومكتبتها
لصاحبيهما : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

بسم الله الرحمن الرحيم

النهضة الدينية[1]

في الامة الاسلامية

— ١ —

ورد على بعض الفضلاء كتاب من مدينة (فلمبغ) احدى مُدُن جزيرة سومطره من بلاد جاوه قال فيه مُرسله ما يلي:

« وفي هذه الايام جرى نزاع شديد بين السادة العلماء في هذه البلاد بشأن أسئلةٍ عرضها عليهم رجل متنصّر من مسلمي (فاداغ) وقد أراد بها إعناتهم وإفحامهم ليكون ذلك مُمهِّداً لعُذره . ومبرّراً لعمله » والاسئلة هي:

(١) كيف يعمل المسلم الذي يسافر على متونِ الطّيارات . ويخترقُ بها أجوازَ السّموات ؟ هل يُتِمّ الصلاةَ او يقصر وهل يصومُ رمضان أو يُفطر ؟

(٢) وذاك الذي ألبس ثناياه وأضراسه غِشاءً من ذهب هل يصحُّ اغتساله أولا يصحّ مادام الماء لم يصل الى ماتحت الذهب ؟

(٣) وهل يجوز إيداع آلة الفونوغراف آيات القرآن الكريم فتتلى في القهاوي والنّوادي وعلى برازيق الطرق أو لايجوز ؟

وقد قام الجدال والنزاعُ بين حضرات العلماء على أثر إلقاء هذه الاسئلة: فمن قائل بالجواز ومن قائل بعدمه . ثم كتبوا بهذه الاسئلة الى (السيد علي الحبشي)

---

(١) كتبت سنة ١٣٣٤ هـ و١٩١٦ م

في حضر موت والى (الشيخ بخيت) في مصر والى (الشيخ بو حاجب) في تونس. وفي غالب الظن أن أجوبةَ هؤلاء العلماء سوف تأتي أيضاً مختلفةً متخاذلة. لا مُتَّفقةً متشاكلة. وقد تساءلَ مُرسلُ الكتاب عمَّا إذا كان يحسنُ أن يبقى السادةُ العلماء لا جمعيةّ دينية كبرى تؤلف بينهم، وتجمع بين المتشتت من أقوالهم وعما اذا كان يصحّ أن يبقى المسلمون هكذا لا مَرْجعاً لهم يرجعون اليه في أمثال هذه الحوادث الطارئة التي لم تكن على عهد المجتهدين الاوّلين.

وقد أحببت أن أعلق مقالاً على هذا الكتاب فكتبت ما يأتي :

قامت في العالم منذ أوّل ماعرف تاريخه مدنيات وأمم وأديان لا تحصى. ولكنَّ شيئاً منها لم يشبه قيامه قيام الامة الاسلامية. ولا ظهوره ظهور الدين الاسلامي.

يصف التاريخُ من فتوحات الرومانيين وشرائعهم وامتداد سلطانهم. ولكنه يفعل ذلك بعد أن يضعهم في المرتبة التي تلي مرتبة الامةِ الاسلامية. ويذكر من عظمتهم ولكن بعد أن يُصلّي ويُسلم على عظمة الامة الاسلامية.

وإلاّ : فانَّ قيام رجل — وهو محمد بن عبد الله — يتيمٌ لا ناصر له. أمي لم يدرس الكتاب. عائلٌ لا مال له. في بلدٍ كمكة : لا حضارةَ فيها ولا عمران ولا فلاسفة ولا علماء. ولا علوم ولا شرائع ولا مدارس - يقوم وحدهُ في هذا البلد القاصي. وفي وسط هذا الشَّعب العربي الصعب المراس. ويأتيهم بكتابٍ فيه هُدًى وتبيان لكلّ ما يهمُّ الانسانَ معرفته في حياتيه الدنيوية والاخروية : ثم لا يقبضه الله اليه حتى يرى جزيرة العرب وساداتها وقبائلها خاضعةً لسلطانه. عاملةً بشريعته — وهي الجزيرة التي هاب التعرضَ لها أكبر الفاتحين. ثم يقوم أصحابه بعده فيتغلّبون باسم شريعته وببركة بشارته على معظم العالم المتمدّن المعروف في ذلك الوقت في مدّة سبعين سنة مما لم يقدر الرومانيون أن يستولوا عليه إلا بعد سبعمائة سنة - رجلٌ هذا شأنه لا يتردد العقل في الحكم بأنه مُرْسل

مقدّمة

الجزء الثانى من

كتاب البينات

بسم الله الرحمن الرحيم

رغب الىّ صديقي صاحب هذه « البيّنات » أن أكتب مقدّمةً للجزء الثاني منها بعد أن صدر الجزء الأوّل متوّجا بمقدمةٍ لصديقي وصديقه أمير البيان ، الأمير شكيب أرسلان ، فيكون هذا معمّما ، بعد أن كان ذاك متوّجا . وهل يغادر الأمير من متردّم ، إذا كان كما يستحقّ هو المتقدّم ؟ إلا مايترك البَدْه للثنيان ، من شوط الرهان ؟ لا ولكن صاحب (البيّنات) قد رضي مني بالقليل ، لِما يعلم من ضيق وقتي عن عملي الكثير ، وكتب الىّ بذلك بعد أن طال العهد ، على إنجاز الوعد . إذ كانت المطبعة السلفية قد أرسلتْ اليّ اكثر الكرّاسات التى طُبعت لأنظر فيها ، وأقول كلمتى وهي بالطبع لها لاعليها ، فوضعتُها بين يديّ ، حتى لاتغيب عن عينىّ ، ومرّتْ الأيام والليالي فالاشهر ولم أقرأ الا مقالةً واحدة منها .

ثمّ عرَضَ لي السفر الى الحجاز ، وقد آذنتنى المطبعة بأنّ طبع الجزء قد تمّ أو كاد ، فوضعتُ تلك الكرّاسات بين الأوراق والكتب التى أردتُ حملها في السفر ، عسى أن أتسلّى بقراءتها وا كتب المقدّمة لها في الفُلك ، ولكنها

نُسيتْ في مكتبي ، فأنا اكتب ما اكتب على ظهر البحر في صاحب البيّنات لافي بيّناته الغنية عن تعريفها لقارئيها . وكم من قارئ لهـا لايعرف من سيرة صاحبها شيئا ، ومَنْ أولى مني بمعرفته ، والتعريف بحقيقته ، وهو اللِّدةُ والتِّرب ، والصاحبُ بالجَنْب ، في المدرسـة الوطنية العصريّة ، ثم في المدرسة الرجبيّة الدينية ، والرفيق الملازم فى المذاكرات الاجتماعية والسياسية ، والمساجلات الفنية والأدبية ، والمباحثات الإصلاحية الجمالية الافغانية العبدية ،

(قد علِقتْ بي وبه سورية | من وطن اختيراً أبا فما أبى [1])
(ونَقَتنا توأمين أغتـذي | ببركات أرضـها كما اغتذى)
(كان فِصالي وفِصالهُ معاً | بحجْرِها حيثُ حَبَوْتُ وحبا)
(ثم ترعرعتْ قوى نفسى كما | ترعرعتْ من نفسه تلك القوى)
(لم تختلفْ في مبتدَا مسألةٍ | إلاَّ وكان للوفاق المنتهى)
(كمَنْ على المحيط من دائرة | إما تفارقا فبعدُ مُلْتقى)
(وقد تساوَى الودُّ إذ تعادل الجَذبُ | والانجذابُ فينا واستوى)

***

سبَقَني صاحب هذه البينات صديقى الشيخ عبد القادر المغربي الى طلب العلم وسبقته الى مطالعة بعض كتب الأدب والتصوف والتاريخ قبل طلب العلم ، وحفظت شيئا غير قليل من وسط الشعر ، ولما دخلتُ المدرسة الوطنية في طرابلس الشام كان هو في الصفّ الأول من تلاميذها ، وكان الشعر والأدب أول أسباب التعارف والتآلف بيننا . وكان موضع عجبٍ مني في اجتهاده : اذا شَرَعَ في حفظ درس يضع رءوس ابهاميه في أذنيه ، وبقية أصابعـه فوق عينيه ، حتى لايسمع صوتا ، ولا يرى شـيئا ، ثمّ يقرأ مايريد حفظه قراءةً بصوت بين

---

(١) المراد بالوطن مجموع البلاد التي تسكنها أمتنا الكريمة

الجهر والمخافتة ، ولا وسيلة لجمع الفكر وتوجيه قوّة النفس أمثل من هذه الوسيلة

ثم عطلت المدرسة الوطنية وانتقل ناظرها استاذنا الشيخ حسين الجسر الشهير الى المدرسة السلطانية في بيروت وتبعه بعض تلاميذها فدخلوها ومنهم صديقي صاحب البينات ، ولما تركها الاستاذ وعاد الى طرابلس عادوا معه لثقتهم بتعليمه وتربيته ، وانقطع الى تعليم فنون اللغة وعلوم الشرع ؛ والتقينا ثانية عنده في المدرسة الرجبية ؛ فكان لكل منا وجهة هو مولّيها في العلوم الشرعية [1] وانما كنا مشتركَيْن في طلب آداب اللغة والعلوم العصرية ؛ ومطالعة المجلات والجرائد حتى المصرية الممنوعة من البلاد العثمانية التى كانت تأتى فى البُرُد الاجنبية لقناصل الدول . فيطلعنى عليها بعض أصحابى من أدباء النصارى فنطالعها مجتمعَيْن تارة ومنفردين أخرى .

وأ كبرُ ما أثّر فى أنفسنا وعقولنا من مطالعة الجرائد وظَهرَ أثره فى انشائنا لفظًا ومعنى (جريدة العروة الوثقى) لحكيميْ الشرق ومجدّديْ نهضته العلمية والادبية والاجتماعية والسياسية والدينية الاسلامية .

وجدتُ أعداداً منها فى محفوظات والدي فلما قرأتها شعرت بأني قد دخلتُ في حياةٍ جـديدة ليس لي أن أصفها هنا لاننى أتكلم عن غيري لا عن نفسي ، وإنما ذكرتُ نفسي لاعلام قرّاء « البينات » الذين لا يعرفون صاحبها معرفةً شخصية أنْ تعريفي اياهم به من حيثُ صـدورها عنه لا يجدونه عند غيري ، وأنَّه من قبيل ما يكتبه مُدوّن التاريخ لما سمع بأذنيه ورأى بعينيه وخبرَ بنفسه ، لا لما روَى عن غيره ، أو استنبط بفهمه ، من موضوعات المقالات ، ومثاني العبارات .

---

(١) كان جل عنايته في فقه الحنفية استعدادا لمنصب القضاء الشرعي . وجل عنايتي في علوم العقائد والحديث ... استعدادا للخدمة التي انشىء لأجلها المنار وهى معروفة

أَطْلَعْتُ صديقى على أعداد (العروة) التى ظفرتُ بها كدأبنا في إطلاع كلٍّ منا للآخر على مايستحسنه ويراه مفيدا . ثم طفقتُ أبحثُ عن بقية الاعداد وأستنسخ ما أجده منها وينسخه هو أيضا حتى كملتْ لنا ، ورسختْ آراء الحكيمين وأفكارهما أو مذهبهما الاصلاحيّ في أنفسنا . وكنتُ أنا داعيةً لهما ، ومدافعاً عنهما . وكان هو يتقى الظهور بذلك فلم يكن يعرفه منه الا الأفراد من أصدقائنا كالاستاذ الشيخ محمد كامل الرافعي (رحمه الله تعالى) وقد قال لنا مرّةً استاذنا الشيخ حسين الجسر (جزاه الله عنا غير الجزاء) : إن بينكما جوامع كثيرةً أخصُّها حبّ السيّد جمال الدين الأفغانى واتباع أفكاره .. فقلنا له بل أخصُّها تتلمُذُنا لفضيلتكم وتلقينا عنكم .

بعد هذا ذهب هو الى الآستانة بقصد السعي للانتظام فى سلك القضاء الشرعي وكان السيد جمال الدين فيها فزاره وكتب اليَّ كل ماسمعه منه ولم يكرّر الاختلاف اليه خشية التُّهم وبلّغه كتاباً منى ذكرت فيه شغفي به ومكانته عندي وانني أودُّ لو يُتاح لي الاتصال به لتلقي الحكمة ، قلتُ « ولكنني اعلم ان القسطنطينية العظمى على سعتها بل الممالك العثمانية بما رحُبت لا يتَّسع فيها لسيدى مقام لان ممالك الشرق أمست كالمريض الأحمق يأبى الدواء ويعافه من حيث أنه دواء » . وقد أثنى السيد رحمه الله لصديقي على هذا الكتاب أجمل الثناء

لم ينجح سعيُ صاحبنا فى طلب القضاء ، ولو نجَحَ لحال القضاء والقدر دون اشتغاله بالتحرير والانشاء ، ولُحرِمَتْ أمته العربية من هذه الآيات «البيّنات» . ولكن الله قدّر أن يكون كاتباً لاقاضيا ، وأن يكون لمطالعاتنا الشخصية من التأثير والتمهيد لحياتنا العملية ماليس لغيرها .

سَبَقْتُه الى العمل فهاجرتُ الى مصر وأنشأتُ المنار وكان هو العامل على نشره

في لواء طرابلس وقد كتب في المجلد الثاني من المنار مقالات بليغة عنوانها « استنهاض همم » .وقد دعوته الى الاشتراك معي في المنار فأبي لانه كان لايزال موّطنا نفسه على عمل رسمي ّ شرعي ّ يكون ثمرة لمعارفه الفقهية ، ولم يكن يرجو من النجاح المالى للمنار مايقوم بأودي وأوده .

ولما اشتدّ اضطهاد الحكومة الحميدية للاحرار ، وأصحاب الأقلام والافكار، وأسرفت فى إيذاء قرّاء المنار ، كان نصيب صاحبى ونصيب آخرين من أهل العلم والفضل السجن ، فلما انقذه الله تعالى منه هاجر الى مصر فسألت شيخنا الاستاذ الامام أن يجعله كاتبا للافتاء عنده فارتاح لذلك واستكتبنى مذكرة لوزارة الحقانية في ذلك وهو فى سرير المرض الذي توفاه الله تعالى فيه لانه تعالى قدر أن يكون هذا الرجل كاتبا اجتماعيا لاقاضيا ولا كاتبا شرعيا ، وهولو لم يكن موطناً نفسه على هذا العمل ولا شاعراً بقوّة استعداده له ، حتّى انّه لما دُعي الى الكتابة فى الجرائد المصرية استشارنى فى الموضوعات التى تُرجَى فائدتها وتلقيها بالقبول ، وفى الاسلوب الذى يحسن اختياره ، ولعلّه ماأبهم امضاءه (المغربى) فلم يصرح باسمه إلا لأنّ شعوره باستعداده كان دون قوته، كما هو شأن طلاّب الكمال الذى لاحدّ له ، بعد أن يصيبوا حظـّا عظيماً منه ، وامّا الناقصون المغرورون فانهم يتيهون عجباً بكلّ ما يخطّونه بأيمانهم من رأيٍ أفين ومعنًى سقيم . في لفظٍ مبتذل ، وأسلوب ركيك . لأنّه مهما يكن في نفسه حقيراً فهو عظيم على استعدادهم ايّ عظيم .

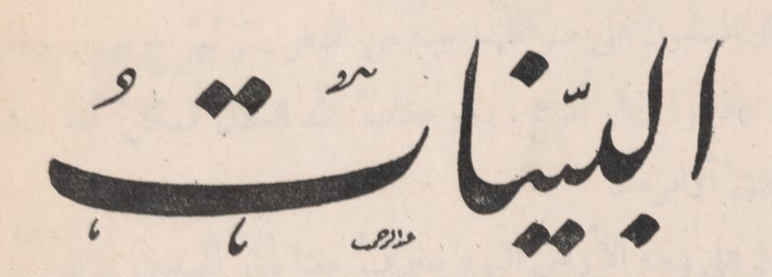
كَتَبَ « المغربيُّ » المتنكّر ما كتب في جريدتي الظاهر والمؤيّد بمصر فصار بها أشهر من نار على علم ، ولما عاد الى سورية بعد إعلان الدستور العثماني أنشأ جريدةً في طرابلس سمّاها (البرهان) أيّد فيها سياسة جمعيّة الاتحاد

والترقي ، ثم كان في أثناء الحرب مدير تحرير جريدة (الشرق) التي صدرت في دمشق ، ولكنه لم يكن ناصراً لهم على التنكيل بالأمة العربيّة كبعض المُدْهنين بل كان يكتب في المسائل الدينية والاجتماعية على ما بَلَغنا ، و كان يُلَخّص بعض دروس الشيخ بدرَ الدين الحديثية ويمدّ بعض مسائلها التى تهمّ الجمهور مَدَّ الاديم العُكاظي .

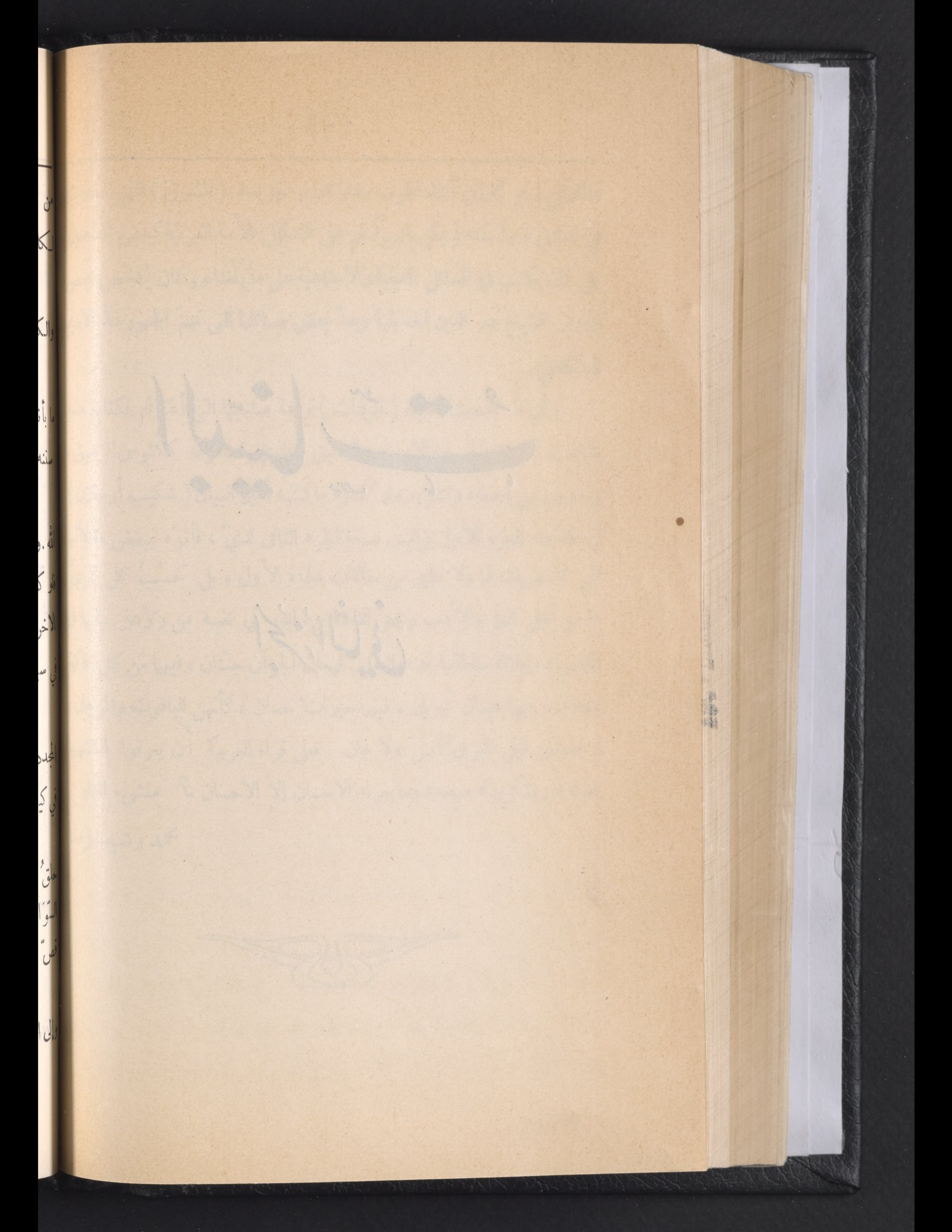
أراني قد ّلخصتُ لقراء (البيّنات) ترجمة صاحبها التى أعدَّته لكتابة هذه المباحث الاصلاحيّة بهذا الاسلوب الرشيق ، الذي يتساقَوْنه ككُئوس الرحيق ، وحسبهم من وصفه، والتنويه بعلوّ قدره ماكَتَبَه أمير البيان (شكيب أرسلان) في مقدّمته للجزء الأول ويااليت نسحة الجزءِ الثانى لديّ ، فأنوّه ببعض مقالاتها التى لا شريك لها ولا نظير من مقالات الجزء الأول ، بل حَسْبُ كلّ قارئٍ لها من أهل العلم والأدب ومحبي الاصلاح مايجد في نفسه من رَوْعةِ بيانها في القلب ، وجلالة سلطانها عند العقل . فهذان الجزآن جنّتان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فيهما عينان تجريان ، فيهما خيراتٌ حسان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، لم يطمثهن قبل المغربىّ أنسٌ ولا جان . فعلى قراء العربيّة أَن يعرفوا لمنشئهما فضله ، ويشكروا له صنعه ، وما جزاء الاحسان إلاَّ الاحسان ؟ منشيء المنار

محمد رشيد رضا





الجزء الثاني



من الله . وأنه إذا لم تكن له معجزة وبرهان على صدق نبوته الا ما ذكر لكان كافياً .

مضى محمد (صلى الله عليه وسلم) لسبيله وترك فينا من سنته الصحيحة والكتاب المبين ما إن تمسكنا به لن نضل أبداً .

وقد سار المسلمون على صراطهما حيناً من الدهر . ثم خرج بهم . وغيروا ما بأنفسهم . وذاقوا وبال أمرهم . وهو عقاب الله العادل لكل أمة تنكبت سننه . وخالفت أوامره .

كل مسلم على وجه الأرض اليوم يعترف معنا بأن المسلمين خالفوا أوامر الله . وإلا فكيف أخلفنا الله وعده مذ قال : إن الأرض يرثها عبادي الصالحون فلو كنا لم نخالف أوامره وبقينا سائرين في طريق الصلاح لكنا ورثنا بلاد الامم الاخرى : وها نحن اليوم نزع منا إرثنا ولم يبق منه سوى بقية نهريق دماءنا في سبيل الدفاع عنها .

فمخالفة المسلمين لأوامر دينهم واقعة بالاتفاق بين المحافظين منهم وبين المجددين من أبنائهم : فلا نزاع بين الفريقين من هذا القبيل وإنما النزاع بينهما في كيف حصلت هذه المخالفة وما هي وجوه المخالفة ؟ .

فالمحافظون يقولون : ان المخالفة التي استجوبنا بها العقاب الالهي هي مثلا : حلق لحانا . وعدولنا عن العمائم . ولبس عمامة لا عذبة لها . وتركنا استعمال السواك . وأن يكون طوله شبراً . ومثل تركنا اتباع ما هو الافضل في كيفية قص الأظافر وهكذا ! !

أما أبناؤهم المجددون فيسلكون في بيان وجوه هذه المخالفة طريقاً أرحب . وإلى الحق أقرب .

وها نحن الآن نذكر موجزاً من هذا الموضوع . مقتفين فيه أثر أبناء الامة

المجدّدين الذين عرفوا من أحوال الانقلاب الاجتماعيّ العامّ وأسرار هذه المدنية الحديثة ما لم يكن على عهد آبائهم الأوّلين .

يمكنُ تعريفُ الدين بقولنا « هو وضعٌ آلهيٌّ تصان به مصالح الانسان منفرداً ومجتمعاً » . ومصالح الانسان ترْجعُ الى أمرين :

(١) مصالحُ تتعلّقُ بادارتِهِ وسياستِهِ باعتبار كونه أمّة .

(٢) مصالحُ تتعلّقُ بأحوالهِ الشخصية والعائليّة والاجتماعيّة باعتبار كونه فَرْداً من أمّة :

فالمصالحُ الاداريّةُ والسياسيّةُ فوّض الشرعُ أمرَها الى خليفةِ المسلمين ورجال حكومته . والمصالحُ الشخصيّةُ والعائليّةُ والاجتماعيةُ فوّض أمرَها الى علماءِ المسلمين ومُجتهديهم . ففريقا الحكّام والعلماء هم القابضُون على زمام مصالح الأمة وهم ذوُو الحلِّ والعقد في أمورها . وهم الذين سمّاهم اللهُ في الكتاب « أولي الأمر » مذْ قالَ : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم »

ولكنَّ الحكّامَ عرْضةٌ للخطأ في الحُكم وللتلوّث برذيلةِ الاستبداد . كما أنَّ العلماءَ عُرْضةٌ للخَطَأ في الفهم وللتمسّك بأهداب التقليد .

فماذا قرّرَ الدينُ الاسلاميّ لحفظ الحُكام والعلماءِ من هذين الامرين ؟

أوصَى الأولينَ وهم الحكّام بأن يرجعُوا في إدارة شؤون الامة الى الشُّورَى فيستشيروا أربابَ الكفايةِ ورجالَ الاختصاص بفنّ الإدارة فقال « واسألوا أهلَ الذكرِ إن كنتُم لاتعلمُون » وقال : « وأمرُهم شُورى بينهم » . وقال خطاباً للنبيّ المعصوم « وشاورْهم في الأَمر »

وأوصَى الآخرينَ وهمْ العلماء بأن يرجعُوا في المسائلِ الاجتهاديّة التي يكونُ مدارُها مصالحَ المُسلمين العامّة — الى الاجماع فيجتمعُوا ويتّفقوا ويوحّدُوا كلمتَهم في تلكَ المسائلِ وبذلك تبقَى كلمةُ المُسلمين واحدة .

اتّفاقُ العلماء علَى هذهِ الصورةِ حضّ عليه الشارعُ حضّاً لاهَوادةً فيه فقال: « ولا تَنازَعُوا فتَفْشَلُوا » وقال: « اقرأُوا القُرآن ما ائتلفتْ عليه قلوبُكم فإذا اختلفتْم فقُومُوا عنْهُ » وقال محذِراً من الجَدَل المُفرِق « ما ضلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه الا أوتُوا الجَدَل » وقال مبيّناً فضلَ الإجماع والاتفاق « لن تجتمعَ أمّتي على ضَلَالة »

فالذي يجعل اجتهاد العلماء وفهمهم فى الدين نافعاً للمسلمين صائناً لمصالحهم انما هو اجماعهم فى اجتهادهم. والتأليف بين ما تفرّق من آرائهم فلا يقصرون بحثهم على مجرد الجدل. ولا يعمل كل واحد منهم برأيه مع فرقة من أتباعه • ويُصبحُ المسلمون بسبب ذلك قوماً بددا. وطرائق قددا

أما سلفنا الصالح (رضوان الله عليهم) فانهم ــ حكامهم وعلماءهم ــ حافظوا على هذين الأصلين. وراعوهما فى أعمالهم • ومصالح الامة التى وكلت اليهم:

مثال رجوع حكام السلَف الى الشورى مافعل سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): فانه حينما طعن جعل أمر الخلافة شورى بين أولى الامر من الامة وعين أشخاصهم • وعلمهم كيف يصنعون اذا اتفقوا أو اذا اختلفوا • فهذا المجلس والنظام الذى وضعه له عمر عمل برلمانى مشروع مفيد جداً فى تحديد سلطة الخليفة وتقييده بالشورى • وكان يحسن أن يكون عمل عمر نموذجا يسير عليه المسلمون فيكون لهم مجلس سياسى مؤلف من أكبر رجالهم: يساعد الخليفة فى إدارة شؤون الامة ويضرب على يده اذا حاول الاستبداد.

ومثال رجوع علماء السلف الى الأجماع في المسائل الدينية مافعله سيدناعثمان (رضى الله عنه) مذ بلغه أن القراء ــ وهم الذين نسميهم العلماء اليوم ــ اختلفوا في قراءة القرآن وكيفيات أداء الفاظه. وجعل يتبع كل واحد منهم فريق يؤيده وينصره. وكاد يحصل من جراء اختلافهم فتنة وشقاق. فتدارك الامر عثمان

واستدعى اليه قراء الصحابة من سائر الجهات : ثم استعرضوا جميعاً آيات القرآن آية آية . واتفقوا عليها . وكتبوها في مصحف واحد سمي فيما بعد (الامام) ونسخوا عنه أربع نسخ أرسلها سيدنا عثمان الى أقطار العالم الاسلامى وأمر بحرق ماعداها .

هذا العمل من علماء سلفنا الصالح في الاجماع على توحيد كتابة القرآن وتلاوته اكبر عمل حفظ وحدة الامة من الوجهة الدينية . وهو يذكر لسيدنا عثمان بالشكر كما يذكر مثل ذلك لسيدنا أبى بكر فى قمع فتنة أهل الردة . وان صنيع عثمان وعلماء زمانه يصلح اسوة للذين جاءوا بعدهم من العلماء والمجتهدين فلا يرى الواحد منهم رأياً فيما يتعلق بمصالح المسلمين العامة ثم يدع رأيه يتغلغل بين الناس ويعمل به فريق من المسلمين ثم يقوم ثانٍ وثالثٌ ورابعٌ فتتكاثر الفرق الدينية . وتتمزق الوحدة الاسلامية .

— ٢ —

إن هذين الأصلين النافعين « الشورى » و « الاجماع » تحولا فيما بعد الى شرّين متفاقمين . وقيدين وثيقين : غُلَّت بهما أيدى المسلمين فلم يعودوا يعرفون كيف يعملون ؟ وكُبّلت أرجلهم فلم يعودوا يعرفون كيف يتقدمون :

فالطريقة الدستورية التى قررها (عُمر) تنوسيت بالمرة وجعل الخلفاء والملوك يستبدون في أمر المسلمين كما يشاؤون .

والطريقة الاجماعية التى قررها (عثمان) أهملت أيضاً وأصبح كل عالم مجتهد يعمل برأيه مع من التف حوله من أتباعه

ولما لم توضع طريقة ثابتة لحمل المجتهدين على الاجماع والاتفاق فى المسائل العامة الطارئة على المسلمين أصبح أمر الاجتهاد سهلا وادعاؤه هيناً : إذ لا يضطر المجتهد أن يجلس مجلساً (رسمياً) عاماً مع اقرانه واكفائه كى يظهر فضله . وتتحقق اهليته : وانما يكفيه أن يرفع صوته برأيه فيجد من يتابعه عليه ويصبح مجتهداً

وهذا ما حملَ العلماءَ أخيراً على سدّ باب الاجتهاد لئلا يلجه منْ لا يصلح له فيكثر التلاعبُ في الدّين باسم الدّين .

فبينما كان المسلمون ينتظرون أن ينتظم أمرُ الاجتهاد ويتّفق المجتهدون على عقْد مجالسَ للاجماع في المسائل العامة — اذ الاجتهادُ نفسهُ قد رفع وسُلمبته الأمّةُ الاسلامية وقام مقامه شيءٌ يقال له (التقليد) .

و (التقليد) عبارةٌ عن أن يتنازل المسلم عن حقّه في عقله . بحيث لا يجوزُ له استعماله في فهم المسائل الدينية . ويجبرُ على استعمال عقـل غيره . واتّباع فهم ذلك الغير وان شعَرَ من نفسه أن فهمه هو يقين وتقليده لفهم غيره ظنّ . مع أن علماء التقليد أنفسهم يقولون « أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس » . والله تعـالى يقول « وإنّ الظن لا يغني من الحق شيئاً » وقال « ولا تقْفُ ماليس لك به علم » وعابَ على سادات قُريش قولهم : « إنا وجدنا آباءَنا على أمة وإنا على آثارهم مقُتدون »

واذا كانَ الإسلام حرّم الخمرة لئلا يتعطَّل العقل الانساني بسببها لحظةً من الزمن أفيجيز الاسلام أن تتعطل ـ بسبب التقليد ـ عقول مسلمين لا تحصى في أزمنةٍ لا نهاية لها ؟ ؟

وهكذا ـ في الأصلين المذكورين معاً ـ تحوَّلَ الدستور العمريّ الى استبدادٍ كسرويّ . وانقلب الاجتهادُ الاسلاميّ الى تقليد جاهلي .

أُسدل الستار بعد ذلك على الأُمة الاسلامية وهي ممسكةٌ بمعولي تخريب وتدمير : بيد معول (الاستبداد) وبالاخرى معولُ (التقليـد) . فـكانت تنحر بهما نفسها وتخرّب بيدها بيتها . ولبثتْ على ذلك زهاء الف سنة كان من أثر ذلك في تغيير نفوسها وارتكاس أخلاقها أن حدثت المذابحُ في عُقْر دارها بين أبنائها باسم سنّيين وشيعة وحنابلة وباطنية . واستكانت للعشائر التي

زَحفَتْ عليها تحتَ لواء (جنكيزخان) وتضعضعت أمام حملات الصليبيين . وضعُفتْ عن مقاومة الأسبانيول فجَلت عن الاندلس بعد لُبثها فيها زهاء ألف سنة .

نعمْ إنه كان ينبغُ بين المسلمين في خلال تلك القرون ملوكٌ عظام كصلاح الدين الايوبى وياوُز سليم العثمانى اللذين حاولا توحيد كلمة المسلمين وإقالة عثرتهم وجمع ما انتشر من أمرهم غير أن الامة اذ ذاك كانت قد وهنَتْ عزائمها . وتغيرت أخلاقها . وحلم أديمها . فلم يكن يموتُ الملكُ من هؤلاء المصلحين حتى تسود الفَوْضى وترجع الحالةُ الى أسوأ مما كانت عليه من قبلُ .

بقى المسلمون هكذا مُستغرقين في نومهم العميق الى أن دوّتْ مدافعُ الفرنسيس في الجزائر والانكليز في الهند والروس في بخارى . وذلك في أواسط القرن الماضي . فأخذ النائمُ المستغرق يحرك يديه . ويُراْريء بعينيه

وكان أول من انتبه من أبناء الأمة أفذاذاً متفرقين في الاقطار الاسلامية المختلفة : فكان منهم في بلادِ المغرب خيرُ الدين باشا التونسي وفي مصر رفاعة بك الطهطاوي وعلي باشا مبارك . وفي الهند سيد أحمد خان . وفي الافغان السيد جمال الدين . وفي إيران ملكوم خان وفي الاستانة مصطفى رشيد باشا من رجال السياسة وخوجه تحسين افندي من رجال الدين .

أخذ هؤلاء النبهاء وتلاميذهم يصرخون بكل قوتهم قائلين : أيها النائمون انتبهوا من رقادكم الطويل هذه هي النار قد وصَلَ اليكم لهيبها ، وهذا هو العدوُّ أخذ ينقص بلادكم من أطرافها .

ولكن ماذا يجدي الصراخُ وماذا يُفيد : والقَيْدُ في الرجْل حديد . والكابوسُ على الصدر شديد . والعلّةُ المزمنة (استبدادٌ) و (تقليد) .

وكان هؤلاء النفرُ الذين انتبهوا ومن خلفهم من تلامذتهم يؤلّفون الكتب

ويحبرون الخطب . وينشرون المقالات . وكلها حض وتنبيه وتحذير . وكانوا تارةً يوجهون كلامهم الى ملوك الاسلام وأمرائه . وطوراً الى شُيوخه وعلمائه . وهذا الدورُ في نهوضِ الامم يُعبر عنه بدور الانتباه .

ولما قام رجالُ هذا الدور لإحداث انقلاب اصلاحي عام في الامة وجدوا أمامهم عقَبَتين كؤودين : الاستبدادُ الممثل في رجال الحكومة الاستبدادية . والتقليدُ الممثلُ في شُيوخ التقليد المحافظين على القديم .

فحار الاحرارُ المجددون في أي فريق من الفريقين يبْدأون وأيَّ عقبةٍ من العقبتين يُذللون . قال روسو : وضْعُ الشرائع الجديدة سهل أما الصُّعوبةُ فبهدم القديم

ورجالُ الانقلابات الكبرى إنما يستندون بالاكثر على الشَّعب : فاذا كان الشَّعبُ خاملا جاهلا . وضيعَ النفس . فاسدَ الاخلاق اضطروا أن يصبروا زمناً يقضونه في تعليم الشعب . وتنوير ذهنه . وبهذا الاعتبار يصحُّ أن يُسمَّى دوْر الانتباه « دَوْر حضانة » أيضاً

فاذا بلغ الشعبُ أشُدَّه . واستعدَّ استعداده كان اذ ذاك موضعَ الثقة في العمل . ونقطةَ الارتكاز في الهدْم .

والبَدَاءَةُ في العمل تكون في هدْم عرش الاستبداد أولا لا في هدم صروح التقليد : لان الاستبداد هو السندُ الاقوى الذي يلجأ اليه الجامدُون المقلدون . فاذا هُدِم الاستبداد فُتِحَ الطريقُ الى هدْم التقليد بسهولة .

وهذا ما كان من المصلحين العثمانيين : فانهم بعدَ أن قضوْا أكثر من نصفِ قَرْن في دوْر الانتباه أو دوْر الحضانة نهضوا نهضتهم السّياسية المشهورة التي هي في التاريخ العثماني بمثابة الغُرَّة في جَبْهة الفرَس — فقوَّضوا عرش

الاستبداد اللعين . وشيّدوا الدستور على أساسٍ من الحكمة متين .

وبذلك يكونُ العثمانيّون اجتازُوا من ادوار النهضة دورين مهمّين :

[١] دورَ الانتباه وهو الذي عرَفُوا فيه انّهم على شفير الهاوية إن لم يغيّروا شكْل حكومتهم .

[٢] دورَ الانقلاب السياسيّ وهو الذي هدَمُوا فيه الحكومة الاستبدادية .

وبقِيَ عليهم العمَلُ لاجتياز الدور الثالث وهو :

[٣] دورُ الانقلاب الدّيني أو الاجتماعيّ . فكأنَّهم في انقلابهم السياسيّ أجابوا نداءَ سيّدنا (عمر) ورجعوا الى سُنّته في وجوب تأليف مجلس كبير يشتغل في فضّ المسائل السياسية الكبرى .

أمّا الآن فقد جاءَ دور العمَل للانقلاب الدينيّ الاجتماعيّ : وكأنَّ سيّدنا (عثمان) ذا النُورين يهتِفُ بهم طالباً منهم أن يُحيوا سُنّته ويُجدِّدوا طريقته في الرجوع في المسائل الدينية الى إجماع علماء الدين : فيكونَ للأمّة مجلسٌ نيابيّ ديني كما أصبح لها مجلس نيابي سياسيّ : وإلاَّ فإنَّ الانقلاباتِ السياسيةَ وحدَها لاتكفي في نجاة الأُمم وإنقاذها من خطَر الفناء إذالم يَعقُبْها انقلابات اجتماعية وهو ما نحتاج اليه اليوم نحن معشر المسلمين

— ٣ —

ماهو الانقلاب الدينيّ الاجتماعيُّ اللازم لنا ؟

هو انقلابٌ علميٌّ سلمي محض لايُحتاج فيه الى سَوق جيوش . ولا إعمال سلاح . وانما قد يصحبُه شيء من المنازعات الجدليّة . والمنافسات الشخصية . بين أفراد من العلماء .

لـكن هـذا لايخشى منه . ولايتعدّى طوْره مادامت الحـكومة ساهرة العين . وما دام السادة العلماء يعلمون أن القصد من هـذا المسعى إنما هو إظهارُ أمر الدّين وتهيـاتُهُ للعمل به . بعـد أن كادت تُنسى أحكامه . وتُطمس

معالمه .

وليس في هـذا الانقلاب مروقٌ من الدين ولا إبطال لشيء من أحكام الشريعة الغرّاء كما قد يتوهمه بعض إخواننا المحافظين . وانما هو عمل بالكتاب والسُّنة ورجوع الى طريقة عثمان (رضي الله عنه) في حمل العلماء على (الاجماع) فيجتهدون مجتمعين لا منفردين .

نعم إننا قد نُضطر أحياناً الى ترك كثيرٍ من آراء المجتهدين التي لم تعدْ توافق مصلحة المسلمين اليوم . ونعمل بآراء مجتهدين آخرين قد تكون أكثر موافقة وملائمة : كأئمة آل البيت وكالاوزاعيّ وابن عُيينة وسُفيان الثورى وأشباههم . ولو فرضنا أننا لم نجد قولاً لمثل هؤلاء المجتهدين فى مسائلنا الطارئة كان لعلماء عصرنا الحاضر أن يروا رأيا فيها مجتمعين ومُستندين على أصول الدين بحيث لو كان أحـد المجتهدين السابقين حيا لما وسعه الا أن يرى مثل رأيهم في تلك المسألة .

إن ألفَ سنةٍ كافيةٌ لأَن تحدُثَ اختلافاً في شئونِ الحياة العامة وأطوار الاجتماع الانساني يجوز معه تغيير الرأي الاجتهادي . وهذا سيدنا الامام الشافعيّ (رضي الله عنه) كان يرى مذ كان في بغداد مذهباً ثم جاء مصر فرأى في أطوار عمرانها واختلاف حالتها الاجتماعية عن حالة بغداد ماحمله على تغيير مذهبه في كثير من المسائل . هذا وزمنه واحد فكيف به الآن وقد تغيرت الارضُ غير الارض . ونشأ هذا العمران العبقريّ الغريب في أطواره . العجيب في اكتشافاته واختراعاته !! .

فاصلاحُنا الاجتماعي إذن متوقف على نظرةٍ اجتهاديةٍ يقومُ بها جمع من أكبر علماء الاسلام في هذا العصر تحت مشارفة الدول الاسلامية الراقية .

قال لي السيد جمال الدين الافغاني : ان إصلاح الاجتماع الاسلامي متوقفٌ

على حركة دينية .

وقد فصَّل قوله اكبر أصدقائه المرحوم الشيخ محمد عبده فقال : إن وسائط الإصلاح الديني في الاسلام ثلاثة أشياء :

(١) المؤتمرات

(٢) الصحافة

(٣) التعليم

(فالمؤتمرات) أساس النهضة . وبديهي أن الشيخ عبده لايريد بها الا تأليف مجالس دينية من كبار علماء الاسلام كي ينظروا في الحوادث الطارئة . ويستنبطوا لها من الشريعة أحكاماً على حدّ ما ورد في الاثر « تحدثون ويُحدث لكم »

و (الصحافة) هي التي تُهيّء الشعب الاسلامي لقبول الانقلاب وفهم فوائده وتصوُّر الغرض منه .

و (التعليم) هو الذى يُخرج رجال دين لا يتم من دونهم نهوض ولا إصلاح . والتعليم في الواقع ونفس الامر اكبر عامل في النهضة ومكوّنٍ لها :

قال بعض كبار الحكماء (التعليم أول حاجة للامة بعد الخبز) .

وما بالك بامة مثل أمتنا مازال أبناؤها مُكبين على دراسة آراء وأفكار قديمة إن كانت أفادت المسلمين في الماضي فانها لم تَعُدْ تفيدُهم اليومَ بل لم يعدْ ينتظمُ بها أمر . ولا يَستوسِقُ عمران ! ولاتحيَ أمة .

إنّ الامةَ الاسلامية بعد أن كانت تسبحُ من سماحةِ دينها ويُسْره في بحرٍ رهوٍ . وتتجه في جَنَباته أنى شاءت أصبحت اليومَ — هي وهو — كسمكات جَمَدَ ماء البحر عليها ففقَدَت قُوى حياتها وثبتَتْ مكانَها ولم تعدْ تقدرُ على الحركة والسباحة كسابق حالتها فما أحوَجَها الى حرارةٍ تُذيب ذلك الماء الجمد فيرجع الى هذه السمَكات حِس الحياةِ . وتعودُ الى السبْحِ الطويلِ في تلك المياه

والتعليمُ الدينيّ لايكون مفيداً في إنهاض أمّتنا ما لم يكن مبنياً على الكتاب والسُنّة وفهم أسرار نزولها مضافاً ذلك الى فهم أسرار الاجتماع البشريّ المؤسّس على فلسفةِ التاريخ ونظامِ تكوينِ الجماعات .

واذا حكّمنا الانصافَ بيننا وبين إخواننا المخالفين لنا في الرأي . وجعلْنا الحقَّ رائدَنا والاخلاصَ واسطةَ التفاهم في محاوراتنا — لانختلفُ أصلاً في موضوع الاصلاح الدينيّ : لاسيّما بعد أن ينظروا بإمعانٍ في هاتينِ المقدِّمتين ونتيجتها :

(١) نحنُ لانستجيزُ لأيٍّ كان من المسلمين أن يجتهدَ في الدين . فيعملَ كما يفهمُ أو كما يشتهي ويُريد .

(٢) نحنُ لانستجيزُ للعلماء الذين نرَى فيهم الاهلية للاجتهاد (الآن أو في المستقبل) أَن يجتهدَ كل منهم ويستتليَ أتباعاً ينصرُونه ويعملون برأيه ويُضيفون اسمه ولَقبَه الى أسماء المجتهدين السالفين والقابهم

(٣) بل كُلُّ مانُريده أن يَنْشأ في الامة علماء تتوفّر فيهم ملكة الفهم في الدين فيستنبطُوا من أصولِهِ أو من أقوال مَنْ تقدَّمهم من المُجتهدين أحكاماً تنطبقُ على مصالح الأمة في الوقت الحاضر . ويكونُ استنباطهم هذا واجتهادُهم إجماعياً . لا فردياً استقلالياً يُصبح به المسلمون فِرَقاً . وجماعات حِزَقا .

— ٤ —

قد يوجد في إخواننا مَنْ يَكرهُ الخوضَ في بحث هذه النهضة الدينية أويتشاءَمُ من إحداث مؤتمر ديني ينظرُ في مصالح المسلمين الدينية . ويَعدُّ ذلك من قبيل البِدعة في الدِين . كما لايُعجبه أن يكون من مقاصد المدارس الدينية تخريجُ مجتهدين في الإِسلام

ولكننا نقولُ لذلك الفاضل المتشائم : إن المؤتمر الدينيّ لاعلاقة لنا به الآن وانما علاقته بالمستقبل الذي لايُردُّ حكمه

وأما تخريج أئمة مجتهدين من المدارس الدينية فهو أمر سابق لأوانه أو هو مما يُؤجَّلُ النظر فيه . ريثما تستعدُّ الأمة له .

أما الفائدة المنتظر تعجيلها من هذه المدارس الدينية التي يعمل المسلمون على الاستكثار منها في بلادهم فهي تخريجُ علماء تحتاجُ اليهم الامةُ الاسلاميّة للقيام بثلاثة أعمال :

(١) القيامُ بالوظائف الدينية على وَجهٍ أتمّ ونفع أعمّ : كوظيفة القضاء والافتاء والامامة والخطابة والتدريس والوعظ والارشاد وترؤّس الحفلات الدينية .

إن أرباب هذه الوظائف همُ الذين يُمثلون المسلمين من الوجهة الدينية في نظر الاجانب عن الدين : فإذا رآهم هؤلاء منحطين في عقولهم وأفهامهم وأخلاقهم وسائر أطوارهم سقطوا من أعينهم . ونظروا الى الدين الاسلامي نظرَ نُفْرة منه . وزراية عليه . ويقولون في سرهم « إذا لم تكنْ نَفْحةُ المسك ذاتَ رائحة طيبة من أثر المسكِ الذي في جَوْفها فأحرِ أن لايكونَ ذلك المسكُ مسكا »

وبذلك يتطرّق الشكُّ الى أصل الدين الاسلامي . ويصبح رجالهُ حجة بل خطراً على الدين . على أن شبُّان المسلمين وأفراداً من عامتهم المتنبهين اذا حضَرُوا خُطَب أيام الجمع ومجالسَ التدريس والوعظ وقراءة الموالد والمعاريج والتهاليل والحفلات الأخرى وسمعوا من القائمين بها خلطاً وخبطاً . وتشويشاً وتغشيشاً . وقصصاً خرافية . ومزاعم جلجلوتية . انقلبوا الى أهليهم آسفين . بل ربما أصبحوا شاكين مارقين . والعياذُ بالله تعالى .

إنَّ تعيين أرباب الوظائف الدينية من أهل المقدُرة والكفاية هو من أكبر العوامل في إسعاد المسلمين وانتشالهم من حالةِ الانحطاطِ التي هم فيها فمن الواجب اهتمامُ الكليات الاسلامية بتخريج علماء ذوي علم وسداد . يكون فيهم من هذا

العوز سداد إن شاء الله تعالى

(٢) العملُ الثاني المنتظرُ من المدارس الدينية تخريجُ علماء يقومون بوظيفة تعليم النشء الاسلامي وتربيته تربيةً دينية فاضلة . ونقولُ بأكثر صراحة : إننا نريدُ أن نشغلَ طائفة كبيرة من رجال ديننا في تأسيس جمعيات تعليمية دينية تقبضُ على زمام التعليم الابتدائي العام : فيكون لها مدارس كمعاملَ تفرغُ أطفال المسلمين في قوالب تربيةٍ اسلاميةٍ صحيحة .

إن هذه الوظيفةَ أو هذا العمل من خير الاعمال واشرفها وأشدها تأثيرا في إنهاض المسلمين . وإصلاح أخلاقهم . وإرجاعهم الى فضائل دينهم

رأى رجال الدين المسيحي في أوروبا أنهم بعد الثورة الفرنساوية . وبعد سقوط الكنيسة الكاثوليكية . وبعد شيوع المبادئ الحرة الاشتراكية والدروينية — أصبحوا كمية مهملة مستغنى عنها في هذا الوجود . فلم يروا وسيلةً لاثبات وجودهم وبقاء دينهم . أحسن من قبضهم على زمام التعليم الابتدائي العام يغرسون بواسطته في نفوس الاطفال منذ الصغر بذورَ التعاليم الدينية . والآداب المسيحية . ففعلوا وتسابقوا في تأسيس جمعيات تعليمية اقتصادية في آن واحد : جزويت . فرير . بيربلان . اميركان . دونومينيكان . راهبات سان جوزيف . راهبات محبة . راهبات عازارية . الخ وجعلت هذه الجمعيات أو الرهبنات تجدُّ وتجتهدُ وتتنافس حتى تمَّ لها ما أرادت . وبذلك أحيوا دينهم بالظهور والانتشار . وأحيوا أنفسهم فكان لهم بين الطوائف شأن واعتبار .

فما أحوجنا نحنُ المسلمين الى مثل تلك الجمعيات . وما أجدرَ طرائقنا الصوفية أن تسيرَ في هذا الطريق . وما أحرى مدارسنا الدينية أن تبث في نفوس طلابها هذه الفكرة الشريفة وتدربهم على هذا العمل النافع ديناً ودنيا

(٣) العمل الثالث المنتظر من المدارس الدينية — أمرُ التبشير بالدين

الاسلامي . وهو يدور حول محورين :

(١) نشرُ الدين بين الامم ودعوة الشعوب اليه .

(٢) مناظرة كل مَنْ يطعنُ في الدين أو يريد أن يشوه محاسنه بالاكاذيب والمفتريات .

إن الدين الاسلامي بطبيعته يتطلب من أبنائه نشره والدعوة اليه والذبّ عنه : « ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن». « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن » . « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمعَ كلامَ الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ». فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون »

كل هذه الآيات تدل على أن المسلمين وخاصة علماءهم — مكلفون بالتبشير بدينهم ودعوة الامم اليه .

ولو فرضنا أن ديننا لم يكلفنا ذلك ، فان ناموس (تنازع البقاء) والزحام على الحياة يضطرنا الى نشر ديننا واظهار أمره ما دمنا نرى رجال التبشير من أبناء الاديان الاخرى يتهافتون علينا بشدة ولجاج طالبين منا أن نغير ديننا وندخل في دينهم . ونترك يقيننا ونتمسك بيقينهم

فاذا بقي هؤلاء القوم يعملون بآية كتابنا (وان ليس للانسان الاما سعى) وبقينا نحن نعمل بآية كتابهم « ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فخل له رداءك ايضا » — كانت عاقبة أمرنا وأمرهم مفهومة عند من يتبصر في الامور بعقله لا بعقل غيره . وعندها لا يلبث أن يحكم بان انشاء مدارس دينية — هو من أهم ما يخدم به الدين وتصان به كرامة الاسلام والمسلمين

الاخلاق ومناشئها

أو

قوى النفس وشعبها [1]

(إن كان سرُّ الكهربا في عصرنا أبدى من الأعمال كلَّ عجاب)
(فَلَربَّ خُلقٍ قامَ في نفس امرئٍ فَحَدَا له الاقطارَ حَدْوَ ركاب)

هذان البيتان قلتهما لأول عهد الاشتغال في الادب . ولذلك كان معناهما بحيث يحتاج الى فضل شرح وتفسير . أريد : ان كانت الكهربائية وهي مادية محسوسة أتت بالغرائب في عصرنا الحاضر فان الاخلاق وهي أعراض معنوية كان يتخلق بها الرجل العظيم في العصور الغابرة فتسوق أمامه الامم والاقطار كما تساق الركائب والحمولات .

فما الذي مكّن عُمر ومعاوية والرشيد والاسكندر ونابليون ويوليوس قيصر من معظم العالم ؟ أهو كونهم من لحم ودم وعلى شكل الانسان وكل البشر كذلك . أم لكونهم أوتوا من المواهب والاخلاق مالم يُؤت غيرهم من العالمين .

كل شيءٍ في الانسان من صفات ومزايا وأخلاق يصدر عن قوة واحدة كبرى تسمى النفس .

والنفس تكاد لاتعرف بكنهها وذاتها وانما جُلّ ماتعرف به آثارها وظواهرها التي هي التعقل والادراك والطباع والاخلاق والسجايا . وينطوي تحت النفس ثلاث قوى مختلفة هي أمهات لتلك الطباع والاخلاق المتباينة في الانسان .

فنابليون بونابرت لما استولى على القطر المصري كانت نفسه تفكر في جغرافية البلاد وجيولوجيتها وطبيعة تربتها واقليمها وأنواع نباتاتها وحيواناتها ومعرفة

---

(١) كتبت سنة ١٩٠٧ م

تاريخها وآثارها — ونفسه في الوقت نفسه كانت تفكر في أعدائها الانكليز وتغلي مراجلها عليهم وتخترع الاسباب والوسائل لاضعافهم والتمكن من مصر لاجل قطع طريق الهند عليهم — وهي هي التي كانت تشتاق الى (جوزفين) وتناغي خيالها وتكلف النسيم أن يحمل القبلات الى وجناتها .

فهل تلك الحالات الثلاث — التي هي كناية عن (١) تعرف الحقائق . (٢) والغيظ وحب الانتقام . (٣) والحب والشوق — صدرت عن نفس نابليون من جهةٍ واحدة وباعتبار واحد ؟ أم كان للنفس اذ ذاك ثلاث جهات . أو ثلاث قوى .

الجواب ان لها ثلاث قوى :

(القوة الاولى) تنظر في الحقائق وتميز صحيحها من فاسدها . وهذه القوة هي التي تعطي النفس الانسانية اسماً جديداً ولقباً سماوياً أعني « النفس الناطقة » وبهذه القوة تمتاز نفس الانسان عن سائر نفوس الحيوان

فلا يتسنى لنفس حيوان قط ان يكون لها من القوة ما لنفس نابليون فتشتغل في النظر في شؤون مصر الجغرافية والفلكية والطبيعية والتاريخية .

والنفس الناطقة هذه ليست نفساً قائمةً برأسها وانما هي الشعبة المقدسة من شُعَب النفس وقواها الثلاث . ومن الفلاسفة من يجعلها نفساً مستقلة قائمة بذاتها .

وكما اختلفوا في ذلك اختلفوا في مقر تلك النفس من الجسد . هل هو الدماغ أو القلب أو هي في هذا ولها شُعاع متصل بذاك ؟ وهذا الخلاف والذي قبله لا يفيدان القارىء اذا كان زاهداً في قواه الناطقة بحيث يُهملها ولا يتعهدها بالتقوية والتربية ولا يمدها من الغذاء بالعلوم والمعارف وتجارب الحكماء والفلاسفة . أما اذا فعل فهناك يجني من نفسه الناطقة ثمرات العلم والحكمة . ويتمتع بالسعادة التي تنتج عنها .

(القوة الثانيــة) من قوى النفس الثلاث الاصلية « القوة الغضبية » وتسمى السَّبُعِيّة أيضاً . وهي التي قلنا ان نابليون كان بواسـطتها يجتهد ويسعى في قهر أعدائه الانكليز والانتقام منهم واحباط مساعيهم .

وظيفة هذه القوة الغضب والاقدام والترفع وحب التسلط والغلبة : ولاتختص هذه القوة بالانسان فانها تكون في الحيوان بل ان الحيوان معدنها . والحيوانيــة مستودع جرثومتها . ولذلك سُميت السبعية . فترى الاسد يغضب ويثور ويُحب الانتقام والتسلط — مثلما كان يصنع نابليون مع أعدائه وفي البلاد التي يفتحها . ويقولون ان مقر هذه القوة القلب

(القوة الثالثة) من تلك القوى الثلاث « القوة الشهوية » وتسمى البهيمية أيضاً : وقد زعموا أن موطنها من جسد الانسان الـكبد . هذه القوة أصل في تلمس الغـذاء والتشوف الى اللذات والاخلاد الى ضروب الشهوات الحسية . وهى كما ترى ليست من خصائص الانسان في شيء وانما هي مشتركة بينه وبين نوع الحيوان ـ بل هي في الحيوانات أشد منها ظهوراً وتمكنا . ولذلك سميت البهيمية

وهـذه القوة هى التي قلنا انها كانت تثور في نفس نابليون فتجتذبه الى الفيا جوزفين ومباعلتها . وتجدد ذكراها في قلبه وتعرض صورتها من وقت الى آخر على خياله

ويشبه في ذلك حنين النياق الى فصلانها . وصغار الحيوان الى امَّاتها وانظر الى الحمام كيف يلازم ويكاعم . فان عمله هذا انما هو ظاهرة من ظواهر تلك القوة النفسية

هذه القوى الثلاث الاصلية اذا تـكافأت ولم تقوَ واحدة منها على أختها ولم تبطل فعلها ـ اعتدلت نفس الانسان ونشـأ عن هذا الاعتدال اعتدال في

أخلاقه وأعماله ونزعاته أما اذا لم تتكافأ تلك القوى وقويت احداها على الاخرى أضرت بها واختل توازن النفس وتبع هـذا اضطراب في الاخلاق وشذوذ في الطباع .

وعدم التكافؤ هذا قد ينشأ عن الوراثة ونزوع العرق وقد يكون سببه المزاج أو العادة . أو طريقة التربية . وأسلوب التأديب . فالنفس اذن كجذع شجرة وقد انشعب من أعلاه ثلاث شعب هى « النفس الناطقة » و « الغضبية » و « الشهوية » . وكما يتفرع من شعب الشجرة فروع وأغصان ـ كذلك تلك القوى الثلاث يتفرع منها فروع كثيرة هى الاخلاق والطباع والسجايا والشيم التى تكون في الانسان . وهي تنقسم الى ثلاث مجاميع تابعة للقوى الاصلية الثلاثة وكل مجموعة منها ينطوي تحتها أخلاق وطباع خاصة . وكل خلق من هذه الاخلاق ان كان طرفا كان قبيحاً مذموماً ويسمى حينئذ رذيلة . وان كان وسـطا كان حسنا ممدوحاً ويسمى حينئذ فضيلة : كالسفه والحـكمة والبله : فان هذه الاخلاق الثلاث مما ينطوى تحت « القوة الناطقة » فالطرفان وهما السفه والبله رذيلتان مذمومتان والوسط وهو الحـكمة فضيلة ممدوحة . وكالخبث والذكاء والبلادة : الوسـط فضيلة والطرفان رذيلتان . وهكذا جميع قوى النفس المدركة : ما كان وسطاً كان فضيلة وما كان طرفا كان رذيلة

ومـمـا ينطوي تحت « القوة الغضبية » من الاخلاق ـ الجبن والشجاعة والتهور الطرفان رذيلتان والوسط فضيلة . وكالسرف والسخاء والتبذير : الوسط فضيلة والطرفان رذيلتان

ومما ينطوي تحت « القوة الشهوية » الشره والعفة وخمود الشهوة : الطرفان رذيلتان والوسط فضيلة

ففضائل النفس الناطقة الذكاء والعقل وسرعة الفهم وصفاء الذهن وسهولة

التعلم وغير ذلك . ورذائلها ما أفرطت أو فرطت فيه من تلك الاخلاق

وفضائل القوة الغضبية الشجاعة والنجدة والثبات والصبر والحلم والشهامة والاناة . ورذائلها ما أفرطت أو فرطت فيه من هذه الاخلاق وفضائل القوة الشهوية العفة والحياء والدعة والسخاء والقناعة والدماثة والمسالمةوالوقار والورع . ورذائلها ما أفرطت أو فرطت فيه من تلك الاخلاق

ومتى عرفت الفضيلة التي هى الوسط بين الطرفين لا يصعب عليك معرفة الطرفين وتحديد معناهما في نفسك وان لم تعرف لهما اسما في اللغة : فالوقار مثلا فضيلة وهو وسط بين رذيلة نعرف اسمها وهو « الطيش » وبين رذيلة ثانية لا نعرف اسمها وانمـا نحن نتصور معناها وهي أن يكون الانسان وقوراً وقوراً وقوراً فان وقاره حينئذ يكون مذموماً ويصبح به سمجاً بارداً ثقيلا وحسبه هذه الاوصاف الثلاث . ويصح أن نضرب مثلا لذلك النوع من الوقار ــ ما رووه عن أحد القضاة وقد كان يمشي فى بعض الشوارع غبّ وابل من المطر . فاعترض سبيله مياه راكدة فى منخفض من الأرض يشوبها أكدار وأوحال بحيث لا يمكنه الاجتياز ما لم يخُض فيهـا ويتلوث بها . فلم يشأ القاضى أن يرجع من حيث أتى . ولا أن يتخذ وسـيلة للاجتياز من دون أن يتلوث . اذ أنه يعد ذلك منافيا للحشمة مشوها للوقار وأدب القضاء ــ بل جعل يخوّض في تلك المياه بنعليه وسراويله وذيول جبته حتى قام الوحل بها وسال الماء . وكان يراه الناس على هذه الحالة فيعجبون له ويتساءَلون ما ذا عَراه ؟ وهكذا وصل القاضى الى منزله . وربما لم تبخل اللغة العربيـة على مثل هذا القاضى باسم ينطبق عليه فقد ذكرُوا أن الزَّميت كجريح الوقور . والزمّيت كسكّين الاوقر منـه . وهما مشتقان من الزماتة بمعنى الوقار . فهل تعنى العرب بالزميت المشدَّد من كان مثل قاضينا . أم هم لم يعرفوا قطُّ مثله فيضعوا له اسما يلائمه . ووصفا يلتحم مع أخلاقه ؟

آخر الكلمات

في الاولياء والكرامات [1]

بلغنا من أنباء دمياط أن أحد علمائها وخطبائها (الشيخ حسن علي) دعي الى قراءة قصة المولد الشريف . فقرأها خالية مما اعتاد العامة سماعه . وجاءت في درسه مناسبات اضطرته الى تحذير العامة من الاستغاثة بالاولياء . وتقبيل أعتابهم . والنذر لهم . وقد حضَّ الحاضرين على التبرع للمحتاجين . ثم أنحى باللائمة على (المحالل) وان عمله لا يجوز شرعا . فنمى الخبر الى بعض العلماء الذين يستغلون أشلاء الاولياء . ويتعاطون طريقة (التحليل) . فكبر عليه الامر وحسبه حائلاً بينه وبين رزقه . فاستصرخ العامة . وخلب عقولهم . وأوقع في خيالهم أن (الشيخ حسنا) مارق من الدين وعدو للاولياء والمرسلين . فأقامت العامة القيامة على رأسه . وجعلوا يلعنونه ويكفرونه ويرمونه بالاحجار . ويتحفزون للايقاع به . فرفع الامر الى الحكومة والى مشيخة الازهر . فكتبت المشيخةُ الى شيخ علماء دمياط تستوضحه الامر وتكلفه إطفاء النائرة وكفَّ يد العدوان .

غير أن شيخ العلماء لم يعدل — كما زعموا — في القضية . وتحامل على (الشيخ حسن) فرفع هذا أمره ثانيةً الى مشيخة الاسلام . فأعادت المشيخة كتابته الى شيخ العلماء . فغاظه ذلك وأمر بوقف الشيخ حسن وقطع الجراية عنه ومنعه من التدريس . فزاد ذلك في حنق العامة على المتهم . وأكثروا من الارجاف به . والقول بأن (أهل الباطن) ثأروا لانفسهم منه . فسلطوا عليه (أهل الظاهر) الذين لايزالون يوالون البحث في التهمة والتحقيق عنها . وقالوا

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ ه و ١٩٠٧ م

إن المتهم لم يزل مهدداً من العامة .

هذا محصل مافي النبأ : وما كان لنا ان نعتمد عليه في تبرئة (الشيخ حسن) والدفاع عنه — مهما كنا واثقين بمصدره — مادمنا لم نسمع كلام خصوم ذلك الشيخ . ونوع التهمة . ومبلغ حجتهم في اتهامه .

غير أن في النبأ المنقول أمراً يوشك ان يكون الطرفان متفقين عليه : وهو أن الشيخ حسناً نهى عن الاستغاثة بالاولياء وتقبيل أعتابهم والنذر لهم .

الشيخ حسن قال ذلك ولابد . لان هذا القول روي عن مصدر ينتصر له . وخصومه يسندون اليه — ولا ريب — هذا القول . ومثل مثله معه . ويعدونه من نزغاته . ولعب الشياطين به . فاذا بحثنا في هذه المسئلة « مسئلة الاولياء الكرامات » وبينا ما نعتقد أنه الحق فيها — نكون قد بحثنا في موضوع اتفق الطرفان على أنه مثار اللغط . ومنبعث النائرة :

حادثة دمياط هذه ليست بأول حادثةٍ من نوعها وقعت في بلاد الاسلام فكم لها من أخواتٍ ونظائر في كل بلدة اسلامية . ولا نبالغ اذا قلنا إنهـا من الواقعات اليومية .

ترى الناس فيها فريقين : فريق وهو الاكثر يقول بكرامات الاولياء . ولو بعد مماتهم . وجواز الاستغاثة بهم . والاتـكال عليهم . والفريق الآخر لايقول بذلك وينكر على القائلين . ولا يقف الامر عند حدّ القول . بل يتعدى الى الجدل فالحنق فالحقد فالايذاء . وبعد أن يكون الخلاف بين اثنين يتفشى في المسلمين — والمسلمون اخوة ـ فيتواثبون ويتضاربون على ما بلغنا من نبأ دمياط

أترى لو كان بيننا وبين برازخ الاموات تلغراف أو تليفون وأخذنا نبلغ الاولياء رضي الله عنهم هذه الحوادث اليومية التي تقع بين المسلمين . وما يتبعها من الضغائن والاحقاد والخصومات والشرور والمفاسد ـ بسببهم رضي الله عنهم

ومن أجلهم وعلى نيتهم . هل يعجبهم ذلك منا ويكونون راضين عنا ؟ أو انهم يكرهون لنا ذلك . ويلوموننا عليه ؟ ومن يلومون ياترى ؟ ذاك الذي يقول أنا لا أصدق كرامة البدوي وحادثةَ رسوله مع أبي المعاطي ولا كرامةَ الشيخ عبد الغني النابلسي الذي ازدرد الغلام اليهودي ثم لفظه من فيه مؤمناً موحداً مهللاً مكبراً . أو انهم يلومون ـ خصمه الذي يقول له أنتَ كافر من أجل إنكارك تلك المسئلةَ البسيطة . فيسجل عليه الكفر . وحبوط أعماله السابقة وانه خالد في جهنم . وان زوجته طالق منه . وان أولاده وأعقابه من سلالة كافر . فيعيرون بذلك الى ما شاء الله . هل يرضى البدوي أو النابلسي بذلك لأخيهم المسلم ياترى؟ هل تحسب الرفاعي ـ في ورعه وطيب نفسه وتمسكه بآداب الدين ـ يضمر السوء والحقد لأخيه المسلم إذا قال له يارفاعي أنا لا أعتقد بأن لك كرامة أو أن الاسود والسباع تحمي ضريحك . أو أنك تضر وتنفع بعد موتك ـ أيغيظه ذلك أو تراه يهشُّ الى القائل . ويدعو له ويستغفر . أو يعرض عنه على الاقل ؟ فما بالنا لم نعرض نحن عنه . ولكننا نهينه ونشتمه ونحبسه ونقطع رزقه دع عنك تطليق زوجته منه . ووسمه بميسم الكفر . والعياذ بالله تعالى .

هل ترى الرفاعيّ يغضب ممن لم يؤمن بكرامته بعد موته . وهو في حياته لم يغضب من عدوه الذي اعترض سبيله وأمسك بلجام دابته وسبّه وشتمه وقال له ياكذا وكذا ـ مما يستحيى من ذكره ـ ولم يدع كلمة من كلمات الفحش والقذع الا ألصقها به . وأفرغها عليه . والرفاعي رضى الله عنه مع كل هذا وادع باسم يدعو له . ويسكن من سورة غضبه . دعنا من هذا ولنسلك في المسئلة مسلك الجد في البحث.

الكرامة أمر خارق للعادة . يقع على يد مسلم صالح . غير مقرون بدعوى النبوة . ولها ثلاث حالات أو اعتبارات :

(١) الدين يأمرنا بأن نعتقد جواز وقوع الكرامة . أي بأن الله قادر أن يوقعها على يد المسلم الصالح . وهذا لانزاع فيه بين المسلمين الآن والحمد لله .

(٢) الدين يأمرنا بأن نعتقد وقوع الكرامة بالفعل من أناس ثبت ذلك الوقوع لهم بالنص كالآية والأثر الصحيح .

وهذه الكرامات الواقعة والثابتة بالنصّ اذا تتبعناها لم نجدها تتجاوزُ عدد الأصابع . وقد أكرم الله بها بعض الاصفياء من خلقه : مثل آصف ومريم وأصحاب الكهف وأبي بكر وعمر وخالد بن الوليد والعلاء بن الحضرمي رضوان الله عليهم أجمعين .

نحنُ لا نحبُّ لأحدٍ الآن أن ينازعنا في هذه الكرامات المنقولة . وفي أنّ الأحاديث التي وردت بشأنها هل هي صحيحة أو غير صحيحة . وهل تنطبق الحادثة المروية عن المذكورين على ما يسمونه الآن بالكرامة أو لا تنطبق ـ لان المقام مقام التعجيل بالوفاق . والاجهاز على الشقاق . فلذلك نفضل جانب التسليم بتلك الآثار المروية . وان الخارق وقع على يد هؤلاء القوم كرامة لهم .

وهذه الكرامات الثابتة بالآثار لايكاد يقع فيها خلاف والحمد لله بين جمهور المسلمين . فاذا قلتَ لأيٍّ كان ان مريم أو عمر أكرمه الله بكذا للآية الفلانية أو الاثر الفلاني . لم يجد في نفسه حَرَجاً وسلَّمَ اليك تسليما

(٣) هل وقعت الكرامةُ لغير النفر الذين ذكرناهم أي ممن لم يأت به نصّ ولا أثر . هنا موضع النزاع ومجال التردّد والشك : ذلك لأن الأولياء أصحاب الكرامات المأثورة انما عاشوا بعد القرن الثاني أو في أخريات سنيه . أي بعد انقطاع الوحي بمائتي سنة تقريبا . فالكراماتُ المنقولة عنهم انما نُقلت الينا عن طريق التاريخ كما تُنقل جميع حوادثه . لا عن طريق الدين : فان توفرت شروط الصحة في نقل تلك الكرامات كان على من توفرَت لديه أن يصدّقها ومن لم

تتوفّر لديه لا جُناح عليه أن لا يصدق. اذا قلتَ لي أن للجيلاني قدّس سره كرامة كذا كنت كأنك تقول لى إنه ولد في سنة كذا. ولقيَ فلاناً في سنة كذا ورحل الى البلدة الفلانية في سنة كذا. فاذا اقتنعتُ أنا بصدق حجتك على الكرامة التى نسبتها اليه، كان عليّ أن اصدقك ولا أكابر، والا كنت معذوراً في أن أرفض قولك، وليس لك عليَّ سلطان فتضطرني الى تصديق الكرامة التي تقصها ما دام مصدرها أنت أو غيرك أو ألفَ واحد من الرواة مما لم يجعل الشارع قولهم حُجة في الدين. فان الشارع صلوات الله عليه لم يجعل الأخبار التي ستحدث في تاريخ الاسلام - مهما كان النقل صحيحاً - من أصول الدين ومأخذاً من مآخذ التعاليم والاحكام الشرعية

أصول الدين أربعةٌ: الكتاب والسنة والقياس والاجماع، وتلك الكرامة التي ذكرتها لم تثبتْ لديَّ بأحد تلك الاصول وانما رواها لي ولك رواة التاريخ فأنا مختار في رفضها وقبولها. أما اذا صحت الكرامة بالرواية الصحيحة والنقل المتواتر - لدى أحد من الناس كان عليه أن يصدقها والا عُدّ مكابراً مقيتاً كما اذا صحَّ عند أحد من اتباع طريقة السيد أحمد الرفاعى كرامة تقبيله يدَ النبي صلى الله عليه وسلم وقد مدت اليه من المرقد الشريف كان عليه أن يصدق تلك الكرامة، كما كان عليه أن لا يكفّر منكرها مهما تواتر خبرها لانها ليست من أحكام الدين ومسائله في شيء، وانما هي حادثة تاريخية حصلت في الاعصر الاسلامية، لكن اذا أنكرها منكرٌ بعد ثبوتها والاستيثاق من وقوعها - عُدَّ عنيداً مكابراً، أو بارداً سمجاً على الأقل وكان كمنكر وجود أمريكا أو الغزالي أو مجيء نابليون الى مصر - فاننا لا نكفّر هذا المنكر ولا نؤذيه، ولكننا نهال عليه بما يستحقه من كلمات التجهيل والتفنيد. ليس لأحد أن يقول: يلزمنا أن نصدق ما ينقل عن الاولياء من الكرامات - بدليل وقوعها من آصف ومريم وعمر الخ

وثبوت ذلك الوقوع بالنصوص والآثار ـ لأنّ تلك النصوص وهذه الآثار انما دلّت على وقوع تلك الكرامات بعينها . ولا دلالة لها بالمرة على وقوع أية كرامة أخرى سواها . بل لا علاقة لها بغيرها من الكرامات على الاطلاق . اللهمّ الامن حيث دلالتها على جواز الوقوع . فتكون تلك الاخرى مما يجوز أن يقع . وفرق بين الوقوع وجواز الوقوع .

سنة الف من الهجرة أمطرت السماء مطرا غزيراً فـكان الخصب والخير فى البلاد وقد ثبت حصول المطر فى تلك السنة بالدليل التاريخي المنقول والمعقول فجزمنا بوقوعه وبحصول الخصب على أثره . ثم لم نعلم ان كان حصل مطروخصب فيما تلاها من السنين فلا يصح لنا أن نقول ان سنة ١٢٠٠ كانت سنة خصب وبركة بدليل حصول المطر فى سنة ١٠٠٠ ـ لان الدليل التاريخي انما دلنا على الاخير . وهو براء من الاول الذي يحتاج الى دليل خاص به . وهذا ظاهر

والحاصل أن الاثر الذى احتججنا به على وقوع كرامة لواحد معين كعمر مثلا انما يصح لنا أن نستدل به على وقوع تلك الـكرامة نفسها وعلى جواز وقوع مثلها من مثله ـ لا على وقوع مثلها بالفعل من مثله

وهذا معنى قول جوهرة التوحيد :

(وأ ثبتن للاولياء الـكرامه ومن نفاها فانبذن كلامه)

أى أثبت جواز وقوعها منهم رضى الله عنهم . واعتقد ذلك الجواز بالدليل الذي قام عليه وهو وقوعها بالفعل من جماعة ورد بهم النص . فمن لم يعتقد الجواز ـ وكلنا والحمد لله ممن يعتقد ـ كان مخالفا لمذهب أهل السنة والجماعة . وله في هذه المخالفة جزاؤها في الدنيا والآخرة . وليس مراد صاحب الجوهرة أن يقرر في البيت المذكور عقيدة وقوع الكرامة بالفعل من كل من اشتهر بالولاية : بمعنى أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد وقوع الـكرامة من أيّ ولي كان ـ عن طريق

أي نقل كان . كيف ؟ والولاية سر بين المرء وربه . كما أن خاتمته أى حالته عند اسلامه الروح سر مجهول لنا أيضاً . . . فتأمل

يلزم من القول بوجوب اعتقاد وقوع الـكرامة من ولي بعينه ـ أن يكون لاهل بخارى عقائد ليست لاهل مراكش وبالعكس : لأن لـكل قطر اسلامي أولياء غير معروفين في القطر الآخر ، مع أن الشرع نص على العقائد ووحدها بيننا . وقد بلغنا إياها نبينا صلى الله عليه وسلم . وأمر أن يبلغها الشاهد الغائب فالمسلمون مكلفون بعقائد معينة في قرآنهم و كتب سنتهم . ومن جملتها عقيدة جواز وقوع الكرامة من المسلم الصالح . ولم يكلفهم دينهم عقائد من الـكرامات لا عداد لها ولا حد تقف عنده . ولا تنضبط تحت قاعدة ثابتة . وشروط مطردة . وهذه مزية من المزايا التى فضل بها الدين الاسلامي سائر الاديان فنحمد الله على ذلك

ومجمل القول أن (١)جواز الـكرامة حق . وهي عقيدة دينية يجب أن نأخذ بها أولادنا . و (٢) وقوع الكرامة بالفعل ممن نص عليهم الشرع ـ حق . وهي عقيدة دينية أيضاً كالاولى . و (٣) وقوعها بالفعل من غير المنصوص عليهم ممن هو مظنة ولاية ـ حق عند من تحقق لديه الوقوع بالدليل الذي يكفي لاطمئنان قلبه . وليس لنا أن ننازع ذلك المعتقد . ولا أن نشنع عليه. كما أنه هو ليس له أن ينازع غير المعتقد ـ ما دام أن قلبه لم يطمئن للوقوع . ولم يقع تحت المؤثرات التى وقع المعتقد تحتها . والا كان على شيخى الاسلام في الاستانة والقاهرة أن يعتقدا بما يعتقد به عامة المصريين من كرامات السيد البدوي

وليعلم ذلك المعتقد لـكرامة ما ـ أن اعتقاده هذا ليس عقيدة دينية . وإنما هي حادثة تاريخية مجزوم بها في التاريخ الاسلامي عنده وعند من وافقه من المسلمين

وغير مجزوم بها عند البعض الآخر منهم . فلا ينبغي إذن أن يؤدي الخلاف فيها الى النزاع والمهاترة والحقد والسب والقذع والتضليل والتكفير والتعيير والتشهير فان ذلك لا ترضاه لنا شريعتنا السمحة · ولا نبينا الذي قال « وكونوا عباد الله اخوانا » ولا الاولياء أنفسهم الذين نعرف من آدابهم وأخلاقهم ما نعرف

فان كانت كلمتى هذه معقولة فأرجو أن تقع من حضرات العلماء موقعا . ويكون لها أثر في تهدئة الخواطر التى يثور ثائرها من أجل هذه المسألة . وان كانت الاخرى وكانت كلمتى خاطئة فلم أكن لاقصد الخطيئة وانما قصدت الاخلاص فى النصيحة لاخوانى من عامة المسلمين والمسلمات . ويوشك أن تكون آخر كلمة لي في موضوع الـكرامات . بحيث أرجو مثوبتها بعد الممات



المصالح والاغراض (١)

يقولون ان أفعال العاقل تُصان عن العبث وهم يعنون أنه لا بدّ أن يكون له من وراء فعله مصلحةٌ أو غرض يرمي اليه .

ولما كانت الحيوانات مجرّدة عن العقل كانت أفعالها بالضرورة مجردة عن الغرض والمصلحة أي عن القصد اليهما والا فان للعصفور الذي يبني عشه في أعلا الشجرة مصلحةً هي وقاية فراخه من أيدي العائثين . غير أنه لا يقصد تلك المصلحة قصداً وانما هو مسوقٌ اليها بسائق الغريزة والطبع . كما أن الآلة تعمل عملها بتأثير القوات الطبيعية والميكانيكية من دون أن تشعر بالفعل الذي يصدر عنها .

وكلما ارتقى الحيوان وانجلت عن نفسه العماية ظهر قصدُ الغرض في أعماله . وكانت درجته من صحة الغرض على مقدار درجته من قوّة الادراك : فليست الحيوانات والحشرات المرتقية كالقرود والكلاب والنمل والنحل ـ في أعمالها مثلَ غيرها من الحيوانات والحشرات الدنيا : فان النحلات لما ضِقْنَ ذرعاً بالحلزون الذي ألمَّ بخليتّهن ضيفاً ثقيلا ـ سدَدْن فتحة صدفته بالشمع وتركنه فمات فيها . وقد حدّثوا أن هرّة البيت رأت الطبّاخة نائمةً بقرب الموقد وقد علقت النار بذيلها فأسرعت الى مكتب سيدها وجعلت تموء بما نبهه الى أنها تستصرخ به فاسرع معها الى المطبخ وأنقذ الخادمة من عذاب الحريق .

أما الغرض الصحيح فهو لذي العقل الصحيح . أعني به الانسان . وصحة عقله تعرف بميزان صحة أغراضه : فكلما كانت أغراضه كاملةً ومقاصده حسنة كان هذا دليلا على حصافة عقله . وقوة ادراكه . حتى اذا امتلُخ عقله (انتزع)

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ

أو أصيب بجنة عاد كالآلة الميكانيكية أو الحيوان الاعجم : لا مصلحة يتوخاها . ولا غرض يقصد اليه .

والمعتوه أو المأفون قد يريد من عمله مصلحةً لكنها خبط عشواء : اذ تنقلب اليه أحياناً وتتحوّل الى ضرر . فان « دُغَة » كانت ترمي الى غرض شريف وهو شفاء طفلها من وجع يافوخه وقد رأته ليناً فحسبته دُمّلا . وزعمت أن هذه الدمّل هي سبب أرقه وبكائِهِ طول الليل فعمدت الى سكين . وجعلت تعقر بها يافوخ طفلها المسكين حتى قضى نحبه بين يديها .

وقد يكون الحمق والأفن ممزوجاً بشيء من فطانة وذكاء مثل ذاك الخامل الذي أراد لنفسه شهرةً تسير مسير الشمس فى كل بلدة فبال في بئر زمزم فأخرج منها وأهين وشاع خبره في الحجيج فتداولوه بينهم ونقلوه الى سائر أطراف المعمور . ومثله ذاك الذي تَوَقَّلَ (صعّد) في قُبّة كنيسة (أثينا) الكبرى بمعولٍ في يده وجعل يهدمها به .

وهكذا كلما خفّ ضغط الحمق والأفن على العقل نما هذا ونشط وأحسن القيام بوظيفته حتى يصل الى درجة عقول الفلاسفة والدهاة والسياسيين والمخترعين .

فهنالك تُلفى الأغراض الصحيحة . والمقاصد السامية . التي ترجع عليهم وعلى ذويهم بالراحة والهناء .

هذا في المخلوق أما في الخالق فلا يصح أن يقال ان لافعاله سبحانه غرضاً اذ ان هذا اللفظ يشعر بأنه تعالى مسوق للفعل أو محمول عليه مما لايجوز اعتباره في جانب الالوهة . لكن إن نفينا الغرض عن أفعاله تعالى فلا يصح لنا أن ننفي الحكمة عنها . ومن نفاها فهو خلي منها .

وأفضل الاغراض والمصالح ما خلص اليه صاحبه من دون أن يلحق ضرراً

أو أذى بالآخرين. وكلما استحكمت الفضيلة في فرد أو شعب توخى في الوصول الى أغراضه سلوك هذا الطريق. وبالعكس اذا ملكت الأثرة والطمع نفسه فانه إذ ذاك يستحلّ كل جريمة في الوصول الى غرضه. والظفر بلبانته.

ولما حدثت (حادثة الستين) في بلاد الشام وعزلت الحكومة جناتها ومثيريها في سجن لاجل تنفيذ القصاص فيهم جاءهم بائع كحك (كعك) فوضع صنيته في جانب من السجن وجعل يحمل اليهم من اقراص كحكه ويبيعهم. فما كان من بعض السجناء الا أن تسلل الى تلك الصنية فحملها على رأسه وأسرع بالخروج من باب السجن. فلم يشك الحارس الواقف على الباب في انه بائع الكحك نفسه. وهكذا نجا من أن يكون هدفاً لرصاص البنادق. وأناب عنه في هذه المهمة بائع الكحك المسكين.

أما أن المرء يلحق الأذى بنفسه كي يتوصل بذلك الى غرض أو مصلحة له صحيحة — فهذا مما لا يعاب به. وما مثله الا كمثل من يسلم جسمه للجراح يعمل به مبضعه فينجيه بذلك من سريان الامراض والعاهات.

فلا ينعى على «قصير» جدع أنفه توصلاً الى أخذ الثار من الزباء التي فتكت بسيده. وقد ضرب بصحة غرضه المثل فقيل «لامر ما جدع قصير أنفه». أما ذاك الذي يسملُ عينه أو يقطعُ اصبعه. لاجل التخلص من الخدمة العسكرية فليس مثل قصير في ذلك: لان تخلصه هذا ليس غرضا صحيحاً. وانما هو فرار من حق يطالبه به الدين. ومصلحة يتوقف عليها شرف وطنه الذي ينتمي اليه.

وشتان بين ما يتحمله هذا من الضر والأذى وبين ما تحمله ذاك المخترع الاوروبي فانه كان يحاول أن يخترع طلاءً ثابتا للخزف فيحكي الخزف الصيني فما زالت به التجارب حتى حرّق أشجار بساتينه وأخشاب منزله في اختبار الدهان

مرة بعد أخرى . وكلما ازداد غرضه بعداً عنه ازداد هو تراميا عليه . فنزع باب الدار وأغلاق النوافذ وأضرم عليها الاتون ومضى في تجاربه . وهكذا فاز وظفر بحاجته . واستحال الضرّ والأذى الذي لحقه الى نفع وفائدة له ولقومه .

ومثل ما يقال في الافراد قد يقال في الأمم من حيث تحملها الأذى . وصبرها على الشدائد في سبيل نيل أغراضها . والظفر بمصالحها : فان ثورة فرنسا كانت شراً وبلاءً على الفرنساويين . وقد قاسوا من نارها العذاب الاليم . لكنها لم تلبث ان استحالت الى برد وسلام كنار ابراهيم . وليس مثلها في ذلك مثل الثورة العرابية العمياء . فانها كانت سلسلة من المصائب : أولها السفك والفتك . وآخرها سقوط البلاد وضياع استقلالها . فالامة لم تكن على بصيرة من هذا العمل الهائل الذي قامت به . فبهرج بها الطريق (انحرف) الى غير الغرض الذي تتوخاه . والامنية التي تحن اليها .

وهكذا ترى الانسان في مجموعه وأفراده عاملا . وكل له في عمله غرض: فمن صحح الغرض وجود العمل . فاز بالسعادة وطيب الحياة . ومن أعماه الهوى فاتبع من الاغراض فاسدها . أو استولى عليه الخرق فزاول من الأعمال باطلها — خاب وخسر « وأن ليس للانسان الا ماسعى . وأنّ سعيه سوفَ يُرى . ثم يجزاهُ الجزاءَ الأوفى »



نهاركم سعيد. نهاركم سعيد! (١)

اذا انتقص زيد عمراً واتهمه بسوء. ولم يكن في يد عمرو حجة يبرىء بها نفسه أو كانت لديه حجة لكنه وجد الطريق الى اقناع زيد بها عسيراً — لجأ حينئذ الى سلوك أقرب الطرق. وأشفاها للغيظ. وهو قوله: انني ان كنت أنا كذا فأنت أيضاً يازيد تفعل كذا. ومن خلائقك كذا.

والغرض من دفاع عمرو عن نفسه بهذه الصورة: إما تذكير زيد وتنبيهه الى عيوب نفسه وان اللائق به أن يبدأ بها فينهاها عن غيها. أو يكون غرض عمرو معنى اسمى من ذلك. وأدنى الى المنازع الفلسفية. كأنه يقول: انك يازيد من جبلّة مثل جبلتي. ومركوزٌ في فطرتك من الطباع والاميال مثل ماهو مركوز في فطرتي: فاذا استسلمت هذه الاميال والشهوات قيادي. وورطني في الشرور والآثام لايكون بدعاً. الاترى يازيد أنك أنت أيضاً تفعل كذا. ومن مساويك كيت وكيت. ذلك لاننا انسانان. وكلانا في الهوى سيان.

وكما يقع التنازع بين آحاد الناس على هذا المثال باعتبار أشخاصهم يقع بينهم مثله أحياناً باعتبار مللهم وأجناسهم: فقد ينتقص العربي التركي. والتركي العربي. والكردي الارمني. والارمني الكردي وهكذا. وقد يعير المسلم المسيحي بشيء ارتكبه أبناء طائفته فلا يكون من المسيحي الا الرد عليه بتعديد مساوي المسلمين. وأرى من الاعتدال. والتناصف في الجدال. أن يلاحظ المتناظرون في مثل هذا الحال. براءة أصل الدينين الاسلامي والمسيحي من لوث العيوب التي يذكرونها. ثم لهم أن يلصقوا باتباع الاديان ماشاءوا من المساوي. والا فان الدين واحد. وهو الحق الثابت. والاديان مهما اختلفت في عوارضها هي واحدة في جوهرها: أعني

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ ﻫ ١٩٠٩ م

الايمان بالله وملائكته و كتبه ورسله واليوم الآخر .

وبالامس اجتمع أربعة أصدقاء من ملل مختلفة في بعض المتنزهات . وكان الحديث بينهم يرمي الى المطايبة والمفاكهة . ولم يتخطوا فيه حدود الادب واللياقة. وكان مما تجاذبوه بينهم خبر « فرنسيسكو فرر » الزعيم الاشتراكي وكيف قتله الاسبانيون وهاج صنيعهم الرأى العام :

المسلم — لم يكن يخطر في بالي أن الاسبانيول بلغوا هذا المبلغ من الجمود ومقاومة العلم والحرية حتى قرأت في الجرائد ماارتكبوه من قتل ذلك المصلح الكبير فعلمت من أمرهم مالم أكن أعلم .

الكاثوليكي — ماأسرع مانسيت جيرانهم المراكشيين وشدة تعصبهم وانغماسهم في الجهالة . أما سمعت ماجاءت به الاخبار من انه بينما كانت بالونات الاسبانيول تحوم في الفضاء فوق رؤوس المراكشيين يستكشفون مواقعهم ويستشرفون طلائعهم — كانوا هم وسلطانهم مشغولين في البحث عما اذا كان يجوز شرعاً لعن الكافر المعين أو لايجوز ؟...

المسلم — لعل المراكشيين لم يروا لزوماً للبحث في هذه المسألة الا حينما بلغهم أن قداسة البابا أرسل الى الحكومة الاسبانية يهنئها بانتصارها على أعدائها المغاربة الكفار . فلماذا ترضون هذا الوصف لنا ولا ترضونه لانفسكم . وترون العود الرفيع في أعيننا ولا ترون الخشبة الضخمة في أعينكم ؟

الكاثوليكي — مهما بلغ الاسبانيول في الجمود والانحطاط الاجتماعي لايصلون الى درجة المراكشيين . أليس سلطان مراكش هو الذي ألقى الروجي (أبا حمارة) بين أنياب الوحوش في قصره وعلى مرأى من نسائه . فهل يُتصوَّر فوق هذا استبداد وقسوة في الحكم ؟

المسلم — بلى يوجد فوق هذا أنْ تبقى في اسبانيا محكمة التفتيش الى القرن

العشرين . وأن ترتكب حكومة الملك هذا الاثم الفظيع فتسوق (فرر) الى ساحة الاعدام وتقتله صبراً من دون محاكمة علنية . ومن دون أن يُمكن من الدفاع عن نفسه . ومن دون أن تثبت عليه جريمة . وكل ماثبت عليه أنه قضى حياته في نشر المبادىء الحرة التي تنتشل الانسانية من حضيض شقائها وفي فتح نيف ومئة مدرسة لتهذيب الولدان وتثقيف عقولهم وتمحيص تربيتهم وقد شوهها استبداد الحكومة وتخريف الكهنوت . إنَّ قتل رجل مثل هذا هو الهمجية أما قتل (أبي حمارة) بما كان يقتل به الناس والتنكيل به كي يرتدع غيره فليس من الهمجية في شيء . فانبرى الارثوذكسي لمساعدة الكاثوليكي وقال للمسلم:

الارثوذكسي — لو تذكرت مافعله قومك في الاستانة لما كنت قلت ماقلت

المسلم — وماذا فعلوا ؟

الارثوذكسي — أنسيت اذ هجموا على المسلمة والرومي اللذين تعاهدا على الاقتران ثم قتلوهما شرَّ قتلة ؟

المسلم — اذا نسيت ذلك أذكرنيه مافعله قومك الارثوذكس ونشرته جريدة (أميد) التي تصدر باللغة التركية في كريد : من أن القوم هناك غاظهم من المسلمين إباؤهم الانضمام لليونان فهجموا عليهم وهم يصلون في جامع (الوزير) في قندية فبطشوا بهم وشوّهوا جمال مسجدهم ثم قبضوا على شيخ مسلم في الخامسة والثمانين من عمره اسمه (علي شريف) فطعنه أحدهم بسكين ست طعنات . ومثلوا به أفظع تمثيل حتى مات . فان كانت المسلمة والرومي انتهكوا حرمة الاسلام في عاصمة الاسلام فان هذا الشيخ الهرم لم يَجنِ ذنباً . ولم يقترف اثماً .

كان الجدال محتدماً بين الاصدقاء الثلاثة وبقى زميلهم الرابع البروتستاني ملازماً جانب الحياد . ومتجنباً الدخول معهم فى الموضوع . حتى اذا رآهم تكافئوا فى مواقفهم . وتماثلوا فى حججهم وبراهينهم . أراد أن يستعلي عليهم بقومه .

ويفتخر بآداب بني ملته فقال :

البروتستانتي — حقاً إن التسامح الأتم . والمدنيـة الفاضلة لايوجـدان الا عنـد البروتستانت . فهم الذين عرفوا أسرار الدين الصحيح . وتمسكوا بآداب يسوع المسيح .

الـكاثوليكي ـ ان الـكمال المطلق يا أخي لم يوجد قط عنـد قوم بعينهم . وانما الفضائل تراثٌ ينتقل الى الشعوب عن أنبيائهم وآبائهم الأولين ففي كل شعب أو ملة أفراد متمسكون بالفضيلة وآخرون مفرّطون فيها . فهي كالنشب وحُطام الدنيا : لا يتجرّد منه جيل من الناس . ولا أمّة من الامم .

البروتستانتي — ان الانـكليز في مستعمراتهم بلغوا الغاية من التسامح الديني مع غير بني ملّتهم . وقد يتفق أن يوجد قوم من الهنود يعبدون القرود فاذا كان يومُ عيدهم . والاحتفال بمعبودهم . حملوه في محفّةً وساروا به الى المعبد . فيصطفّ العسكر الانـكليزي على برازيق الطرق الى باب الهيكل . ويطرقون خشوعا واحتراماً للقرد المقدّس في نظر هؤلاء القوم . وأين هذا مما يصنعه الاسبانيول في مستعمراتهم .

الـكاثوليكي ـ وما صنعوا ؟

البروتستانتي ـ روى المؤرّخون ان الاسـبانيول لما استولوا على بلاد المكسيك وقبضوا على الملك الوطني كلّفوه أن يتنصر ولما أبى أضرموا له النار ، وعرضوه عليها إرهاباً وتخويفاً ، ثم جاءه الـكاهن وسأله عما اذا كان قد اقتنع بلزوم التنصّر بهذا الدليل المحسوس فقال وماذا يكون لي اذا تنصّرت ؟ قال تدخل ملكوت الله قال وهل أصادف في ملكوت الله أحدا من الاسبانيول؟ قال تصادف منهم كثيرا ، فقال دعني أمت وثنيّا وأدخل الجحيم ، ولا أموت نصرانياً وأرى

وجوه الاسبانيول في ملكوت الله ، ثم أحرقوه . فاستحيى الكاثوليكي ، وقهقه القوم ضاحكين

الكاثوليكي ـ القصة التي ذكرتها فعلها الاسبانيول في القرن السابع عشر أو القرن الذي قبله ، ولكن قومك البروتستانت بل الانكليز أصحاب الدعوى الطويلة العريضة ، والذين يتبجّحون بانهم أرقى أمم العالم اخلاقاً ، وأكثرهم تحققاً في الآداب المسيحية ـ لا يزالون في هذا القرن يفعلون ما يُنافي تلك الآداب

البروتستانتي ـ وماذا فعلوا ؟

الكاثوليكي ـ أنسيت ما فعلوه مع قومي الكاثوليك في العام الماضي . منذ أراد هؤلاء أن يحتفلوا بالقُربان المقدس ، ويطوفوا به في شوارع لوندرة حسب عادتهم فقامت قيامة قومك البروتستانت ، وحاولوا امنعهم بالقوة ، حاسبين أن هذا العمل ماسّ بكرامة دينهم ، ومُشوّه لجمال عاصمتهم ، فكيف سمحوا للهنود أن يطوفوا بقردهم ولم يسمحوا لقومي فيطوفوا بقربانهم ؟ ومن الغريب أن ملك انكلترا نفسه مكلّف حين الاحتفال بتتويجه ـ أن يلعن هذه العقيدة ـ عقيدةَ القربان المقدس ـ التي يقول بها الكاثوليك ، فهل فوق هذا تعصّب وامتهان لشعائر الآخرين وطقوسهم الدينية في عاصمة تدّعى أنها عاصمة الامم وحامية الحرية ؟

فارتبك البروتستانتي عند ما سمع هذا القول من الكاثوليكي وأراد تحويل الحديث الى الهزل وكأنه استخفّ بالمسلم فمال اليه مداعباً وقال :

البرتستانتي ـ ومهما يكن من أمر القربان المقدّس فان البروتستانت لا تطاوعهم ذمتهم أن يقتلوا واحداً من غير بني ملّتهم اذا تزوج امرأة من بناتهم كما فعل المسلمون في الاستانة

المسلمُ ـ اذا لم يفعل ذلك بروتستانت لوندرة فان اخوانهم في نيويورك

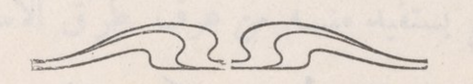
قاموا بالواجب وفوق الواجب من هذا القبيل

الجميع ــ وكيف ذلك ؟

المسلم ــ بلغ التعصب الجنسي في أمريكا حداً فاق مثيله في كل مكان . فان البيض ثمة يعاملون السكان الاصليين معاملة لا يتصور أقسى منها . ولا أبعد عن حدود الحق والانصاف . وقد اتفق مرة أن زنجياً من زنوج أمريكا مسّ كرامة امرأة بيضاء فهاج البيض هيجة شؤمى . واخترطوا على السود من حب الانتقام سيوفاً فجعلوا يطاردونهم كما يطارد الوحش ويقتلونهم حيث ثقفوهم . وكانوا يقتلون كل من رأوه أسود الوجه . وتخطّوا في الانتقام حدود العقـل والشرع فأحرقوا كثيرا من بيوت الزنوج . وهتكوا حرمة سكانها . ولم يُبقوا على امرأة ولا طفل ولا عاجز . وقد صادفوا شيخاً هَرِماً على وشك الموت فجروه بالحبـال الى حيث قتلوه بصورة وحشية .

كل هذا لا لأن هؤلاء السود المساكين طمحوا الى الاستقلال بحكم بلادهم . التي هي تراث آبائهم وأجدادهم . ولا لانهم ثاروا في وجه الحكومة الاميركية . مطالبين بمالهم من الحقوق السياسية بل لأن واحداً منهم أفلتت منه نفسه فلم يعد قادراً على ردّ جماحها . واجترح خطيئة لم يغفرها له الاميركيون مع أن السيد المسيح غفر لمثله مثلها . اذ قال مرة وقد أرادوه على رجم امرأة زانية : « ليرجمها منكم من لم يصنع جريمة »

ولم يصل الحديثُ بالمسلم الى هنا حتى نهض القوم جميعهم مردّدين فيما بينهم كلمة « نهاركم سعيد . نهاركم سعيد »



الاقتصاد السياسي والاسلام

ان جعلوا العلوم الادبية والفنون الجميلة من الـكماليات وحكموا عليها بأن تعطى فضلة الوقت في التعليم المدرسي — فهم بلا ريب لايحكمون هذا الحـكم على الفنون الاقتصادية ولايرضون لها الا أن تعطى جانباً عظيما من الوقت اذ ليست هي من الـكماليات وانما من الحاجيات التي يتوقف عليهـا عظمة الامة في مجموعها وهناؤها في آحادها .

والاقتصاد باعتباره عملا وجد مع الانسان منذ توزع الى عائلات أو منذ اهتدى الى النجدين (الخير والشر) . أما باعتباره علماً ذا أصول وقواعد فلم يوجد الا منذ وجدت المدنية الغربية .

كان أغلب الناس في القرون الوسطى بل منهم من يزعم في زماننا هذا أيضاً أن الثروة هبة سماوية لاصنع للانسان في تحصيلها . كما أنه لاصنع له في وجوده وصحته وايمانه . وكما لاصنع للملك فى صيرورته ملـكا يأمر وينهى في شؤون الامة التي يتولى أمرها .

ثم لما وضعت قواعد علم الاجتماع الحديث أصلحت أغلاط كثيرة كانت شائعة في القرون السالفة : من ذلك أن المَلِكَ انمـا صار ملـكا بارادة أمته واختيارها . والصحة والمرض انما ينتابان الجسم لأسباب قد يراعيها المرء فيصح أو لايراعيها فيمرض .

والغنا والفقر من هذا القبيل : لهما وسائل وطرائق اذا توفرت لدى الانسان وأحسن استعمالها استغنى . وان لم تتوفر أو لم يعرف كيف ينتفع بها كان نصيبه الخصاصة والفقر .

قلنا ان تدوين فن الاقتصاد كان بسعي أهل المدنية الغربية أما معرفته بالجملة

فلم يفت العلماء في أي عصر كان . وفى أية أمة كانت . ولابن خلدون في مقدمته الشهيرة كلام عن بعض أصول الاقتصاد وتداول الاموال بسبب مايحدثه العمران من الصناعات وعن طرق الكسب وبيان ماهو طبيعي منها وما هو غير طبيعي — لو جرد هذا الكلام لوحده بشكل رسالة لكانت من أحسن ماألف في فن الاقتصاد بالنسبة لتلك القرون التي عاش فيها ابن خلدون

وفي تعاليم الدين الاسلامي وقرآنه وسنته وأقوال علمائه والمجتهدين في أحكامه ـ عدة نصوص ونقول تدل على منزلة الاقتصاد فى الاسلام. وانه مما يأمر به ويحث عليه . وان العلماء المسلمين ان لم يوفقوا لوضع كتب خاصة فى تدوين مسائل هذا العلم وتنسيقها كما اهتدى الى مثل ذلك المتأخرون فان دينهم يأمرهم بالعناية بهذا العلم والاستفادة من مباحثه وتسهيل أمر تعليمه على الامة : فان في ذلك عِزَّتها ومنعتها وعظمة شأنها

وانظر : فان أعظم الامم شأناً وأوسعها سلطاناً هى التي عممت هذا العلم فى مدارسها ونشرت أصوله ومسائله بين أبنائها .

قال علماء الاقتصاد ان الوسائل التي بها يمكننا تحصيل الثروة واحداث الغنا ثلاثة أشياء (١) العمل أي سعي الانسان واشتغاله بنفسه كما فى العمال والصناع والمحترفين فانهم بذلك يحصلون على معايشهم ومابه كفايتهم (٢) رأس المال أي بأن يكون للمرء شيء من المال يمكنه أن يتاجر أو يضارب به . وبهذه الصورة تأتيه الارباح وتحدث له ثروة(٣) مصادر الثروة الطبيعية كالارض فان تربتها ونباتها وحيوانها ومعدنها وفحمها الحجري وهواءها وبحرها ونهرها وشلالها كل ذلك مورد للثروة عظيم يستفيد منه من عرف طُرُق الاستفادة واهتدى الى أساليب الانتفاع .

هذه الأشياء الثلاثة نبهنا اليها الاسلام وعرّفنا بها منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً وأرشدنا الى الانتفاع بها والحرص على الاستفادة منها : ففي القرآن والسنة نصوص كثيرة تحثنا على العمل والاجتهاد والسعي وترك البطالة والعطلة « وقل اعملوا » «وأن ليس للانسان الا ما سعى » « فامشوا في مناكبها » « فانتشروا فى الارض » « اعمل لدنياك كانك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كانك تموت غداً » « لايقعد أحدكم عن طلب الرزق » في نظائر ذلك من الآيات والآثار التي ترشد المسلم الى قوته العملية أو الجسدية . وتدله على الانتفاع بها وعدم التفريط فيها . فيكون له منها ثروة وراحة وهناء .

هذه منزلة « العمل » فى الاسلام وليست منزلة « رأس المال » بأدنى منها ، ففى القرآن والسنة آيات وأحاديث تعلمنا الحرص على أموالنا وعدم اضاعتها فيما لايفيد . وليس معنى ذلك أي معنى استبقائها الا لاجل تقليبها فى وجوه الكسب وأساليب الانتفاع . والا فأمّا أن لا ننفق منها شيئاً وهو البخل بعينه أو ننفقها رويداً رويداً من دون ان يخلفها خالف فتفنى وتتلاشى ونكون كأننا أضعناها جملة واحدة : من ذلك « ولا تبذر تبذيراً » « ما عال من اقتصد » « التدبير نصف المعيشة » . فان هذه النصوص تعلمنا طرق الانتفاع برأس المال وعدم التفريط فيه فنحسن استعماله وتقليبه في طرق التوفير والربح .

أما « الأرض » بجملتها وتفصيل مواردها فتكاد تكون معظم آيات القرآن منزلة لشرح منافعها وفوائدها ولاجل الامتنان علينا بها . والامتنان لا يكون الا بالنعم التى يؤدي الانتفاع بها الى راحة وسعادة قال الله تعالى « والارض مددناها — وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . وأنزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات » فأشار في هذه الآية الى الارض اشارة اجمالية بقوله والارض مددناها أي بسطناها وجعلناها مهيئة امامكم لتنتفعوا بها

على ظهرها أو في بطنها . ثم ذكر من وسائل الانتفاع الإنبات . ثم فصل استنباتها وقسم طرق استغلالها الى قسمين : جنائن ينتفع بفواكهها . وحقول ينتفع بحبوبها وخص من القسمين نوع النخل : فان النعمـة به أتم ، وطرق الفائدة والانتفاع أكمل ، ولم يقل أحد من رجال الاقتصاد فى الحث على الزراعة والانتفاع بالارض مثل ما جاء في الحديث ونرويه بمعناه وهو : اذا قامت القيامة وكان فى يد أحدكم فسيلة فلا يشغله هول الساعة عن غرسها ، وفى حديث آخر « من باع عقاراً ولم يردد ثمنـه فى مثله (أي فى شراء عقار آخر) فذلك مال قمين أن لا يبارك له فيه » .

وقال تعالى فى ارشادنا الى الحيوانات المأكولة وغير المأكولة مما ننتفع به ويعد من أكبر موارد الارض الاقتصادية وثروتها الطبيعية « والانعام خلقها لـكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » أي أن هناك أموراً لا تعلمونها من وسائل الركوب الحيوانيـة كالحيوان المسمى « بالرنة » ويستخدم في الاقطار الشماليـة ـ أو الصناعية كالاوتوموبيل والسكك الحديدية ، ففي الآية المذكورة تنبيهنا الى الثروة الحيوانية التى هى من موارد الارض . وتلك الثروة قسمان قسم ننتفع بلحمه ودره وصوفه ووبره وعظمه

(لنـا غنمٌ نُسوّمها غزارٌ كأن قرون جِلّتها العصيُّ)
(فتملأ بيتنا سمناً وأقطاً وحسبكَ من غنىً شِبَعٌ وريُّ)

وقسم ننتفع به ركوباً وانتقالا من ناحية الى اخرى : فنصون أجسامنا من الكلال ، وأوقاتنا من الضياع

وفى آية أخرى أشار الى البحر وكيف ننتفع بالانتقال بسفنه من بلد الى آخر كما ننتفع فى اليابسة بالحيوانات فقال « وجعل لـكم من الفلك والانعام ما تركبون »

أي أنه تعالى سخّر لنا الارض براً وبحراً وهدانا الى وسائل الانتقال فيهما : فكان
لنـا بذلك راحة فى الجسم واحتفاظ بالوقت الذي له فى الدين منزلة عظمى اذ
أقسم الله به فى القرآن «والعصر إنّ الانسان لفي خسر» فقوله والعصر أي والوقت
وقد دل بالقسم به على عظم قدره وانه قوة ورأس مال لا ينبغى للانسان أن
يُضيعهما بل عليه أن يحافظ عليهما وينتفع بهما

وفى آية أخرى كشف عن منافع البحر ومختلف مرافقـه ومتعدد فوائده
بأ كثر مما مر ، قال تعالى :

« وما يستوي البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج
ومن كلّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر
فيه ولتبتغوا من فضله ولعلـكم تشكرون » أي أنه تعالى لم يسوّ بين البحار فلم
يجعلها كلها ملحاً ولا كلها عذبة بل جعل بعضها ملحاً وبعضها عذباً لينتفع البشر
من كلّ بالمنافع التى هى من خصائصه ، ثم ذكر موارد للبحر اقتصادية أخرى
كلحوم الاسماك التى تؤْكل ويتجر بها ، وكاللؤلؤ والمرجان وأمثالها مما يستعمل
حليةً وزينة وكلها موارد عظمى ومرافق للتجارة كبرى . ووراء ذلك كله الفلك
التى تمخر في البحر وتختط لها طرقا بحرية من قارة الى قارة ومن قطر الى قطر
فتنقل المحصولات وتجلب أنواع السلع ومختلف البضائع فتغزر أرباح التجار
وتتضاعف مكاسب رجال المال . ولم يدع القرآن الكريم الاشارة الى الرياح التى
هى من جملة موارد الارض وقواها فى احداث الثروة قال تعالى « ومن آياته أن
يرسل الرياح مبشراتٍ وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من
فضله » فالريح تهب فتلقح النبات وتسوق الغمام من جهة الى جهة وتزجى السفن
من بلد الى بلد ، وترانا من وراء حركة الرياح هذه نبتغى الرزق ونرود فضل الله
هنا وهناك

فهذه الآيات التى حضتنا على العمل والسعى فلا نبْطل ـ وحضتنا على الاحتفاظ بأموالنا فلا نضيعها ـ وحضتنا على أن ننتفع بقوّات الارض ومواردها الطبيعية فلا نهملها ـ أليست كلها أصولا كبرى لفن الاقتصاد السياسي وقد جمعت موارده الثلاثة بحيث يصح لنا معاشر المسلمين ان نقول ان ديننا دين اجتماعى وناموس عمراني يسوق الامم التى تعمل به الى سعادتها ويمنحها ما تشاء من عزها ومنعتها

لنجتهد

في ايجاد المجتهد[1]

الاجتهاد في اللغة تحمل الجهد أى المشقة وأما هو فى الاصطلاح فاستفراغ المجهود في استنباط الحكم الشرعى الفرعي عن دليله . والمجتهد من تكون له ملكة يقتدر بها على ذلك الاستنباط

وهذا ما عناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله لقاضيه أبى موسي الاشعري « الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم »

فاذا عرض لاحد المسلمين أمر أتبع فيه ما قاله الله أو الرسول . فان لم يبلغه عنهما قول رجع الى فهمه واجتهاده .

فالاجتهاد اذن مما فرضه الاسلام على كل مسلم .

ولكن من الفروض ما يسقط التكليف به أحيانا ضرورة العجز عنه . قالوا: والاجتهاد من هذا القبيل : فان المسلمين في قرونهم الاولى كانوا قادرين على

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ و ١٩٠٩ م

الاجتهاد بما تيسر لهم من شروطه ووسائله . اللهم الا يعض عامتهم . فكانوا يقلدون فيما لا يعلمون . ثم بعد ذلك غابت عن المسلمين كافة شروط الاجتهاد . فلم يعودوا قادرين عليه . ولا مكلفين به . وأصبحوا كلهم بمنزلة العامة العاجزين من حيث وجوب التقليد عليهم .

وهذا القول إن لم يكن السفسطة ، أو لم تكنه فهو أخوها . غذته امه بلبانها وربته تحت أحضانها .

وعندي أن السبب في هذا التقليد : أعني سد باب الاجتهاد وتعطيل العقل شيئان : (الاول) تغاير العلماء فى القرون الوسطى وتحاسدهم : فقد يجتهد أحدهم اجتهاداً صحيحا . فيصعب على زميله أن لا يجاريه فى هذا الميدان . ويكون أدنى منزلة منه . فيأخذ فى مشاغبته والرد عليه . ودخل فى صفوف العلماء كثيرون من الاعاجم الذين لم يتيسر لهم الاجتهاد لضعف ملكتهم فى اللغة العربية : فكانوا ينافسون المجتهدين . ويتطالون الى مراتبهم . وهم بعيدون عنها فلم ير هؤلاء العلماء عربا كانوا أو عجماً وسيلة لقطع النزاع بينهم أحسن من الجهر بسد باب الاجتهاد ومعارضة كل من حاول الاجتهاد . وقد ساعد على ذلك أن كان معظم الدول الاسلامية فى القرون الوسطى غير عربية . فلم يكن للاجتهاد في نفوس أمرائها كبير منزلة . ولم يروا في منعه ومعارضة أهله كبير أمر . أما السبب (الثاني) فى ترويج القول بلزوم سد باب الاجتهاد فهو السياسة الغاشمة ، وروح هذه السياسة استبداد ملوك الاسلام

هذه السياسة لا دين لها . وانما دينها إرادة المستبد . وشهوته وطمعه وقوة عصبيته فلا يستتب للملك المستبد أمر . ولا يستأثر بالحكم المطلق ما دام فى الامة مجتهدون يرجع الناس اليهم . ويرجعون هم الى الدين من وقت الى آخر

فيستنبطون من اصوله ونصوصه تعاليم وأحكاما يلزمون جمهرة الامة بها ، ويحذرونهم عاقبة التفريط فيها

هؤلاء الملوك المستبدون هم الذين استفادوا من منع الاجتهاد . فأقفلوا بابه بايديهم . كما أطفأ اولئك العلماء نوره بأفواههم . الاجتهاد نور ورحمة وهدى . حض عليه القرآن . وعلّمت به السنة . وقد سمعت آنفاً ما قاله عمر بن الخطاب لقاضيه أبي موسى . واصرح منه ما قاله صلى الله عليه وسلم لمعاذ مذ أرسله الى اليمن وقوله معروف ومشهور

كون الاجتهاد فرضاً على المسلمين أمر مفروغ منه . ولاخلاف فيه . وانما الخلاف في أن هذا الفرض هل سقط عن المسلمين ضرورة العجز عنه . كما تسقط سائر الفروض عند العجز ؟ أم لم يسقط عنهم ؟

نسألهم ماشروط المجتهد؟ يقولون : (١) أنْ يحويَ علم الكتاب بمعانيه وأقسامه (٢) أنْ يحوي علم السنة بمتنها وسندها (٣) أنْ يحوي علم موارد الاجماع لئلا يخالفه في اجتهاده (٤) أن يحوي علم وجوه القياس .

واذا قلنا لهم : إنه لم يخل عصر من وجود مجتهدٍ توفرت فيه هذه الشروط أنكروا وعارضوا . ومن بواعث الاسف أن المسلمين من يوم قتل عثمان فقدوا القوة الكبرى التي يرجع اليها في مثل هذا الخلاف . وأصبحوا — من حيث التضامن الديني — فوضى . وآحاداً شتى . على العكس من أهل الملل الأخرى الذين هم مجامع دينية . قولها الفصل . وكلمتها النافذة .

ومن أجل ذلك نوجز في البحث مع القائلين بسقوط فرضية الاجتهاد ونجاريهم على رأيهم . ولكننا نسألهم : هل إذا سقط فرض الوضوء عنك لفقد الماء جاز لك أن تلبث متيمماً أبد الدهر ولا تسعى في التنقيب عن الماء والتطهر به . لاسيما إذا كان في الامكان العثور عليه . وبديهيٌّ أنَّ الجواب سيكون بلزوم

البحث عن الماء من وقت الى آخر .

و كذلك نقول في الاجتهاد اليوم بالنسبة لمجموع الامة : انه قد سقط عنها — كما يقولون — فرض الاجتهاد لعدم وجود من يصلح له . ولكن أما على المسلمين أن يسعوا في تعليم طلابهم تعليما صحيحاً يؤهلهم لهذه المرتبة . ويدنيهم منها رويداً رويداً . ان لم يكن في عصرنا هذا ففي عصر يتلوه بحيث ينشيء هذا التعليم طبقةً منهم تتوفر في أفرادها أدوات الاجتهاد فيجتهدون . وبهذه الفريضة المقدسة يقومون . وللمسلمين من وصمة التقليد وتعطيل العقل ينقذون .

حقاً إن المسلمين اليوم في مقدورهم وسائل الوصول الى الاجتهاد ان لم يكن في مقدورهم الاجتهاد نفسه .

سمعت آنفاً ماقالوه في شروط الاجتهاد ويمكنني أن أورد شروطه بأسلوب آخر وأحصرها في ثلاثة أشياء (١) تعلم اللغة العربية تعلماً صحيحاً بحيث تستحكم ملكتها في ألسُن الطلاب . وترسخ في نفوسهم (٢) درسُ القرآن وصحيح السنة وعمل السلف وتاريخ نشأة الاسلام وفهم ذلك فهماً خالصاً لايشوبه توهمٌ ولا تأويل ولا مشاغبة (٣) صفاء النفس واخلاص القلب وطهارة الخلق واستعداد الفطرة .

إذا يئسنا من المسلمين الى حد القول بأنه ماعاد يمكن أن ينشأ من أبنائهم في المستقبل أفراد تتوفر فيهم هذه الاشياء نكون قد أنزلنا أنفسنا منزلة العجماوات. وحكمنا على ديننا وأمتنا بالممات ثم اذا كان لابد لنا من استعانةٍ بشيء من هذه العلوم المستحدثة في الاسلام لاجل تدريب طلابنا على الاجتهاد والاستنباط — فلنستعن بفن أصول الفقه . ولكن نجتهد قبل كل شيء في وضع تآليف فيه سهلة الايراد . قريبة المأخذ كثيرة الأمثلة . تساعد الطالب على الفهم وطريق

الاستنباط . وتطبيق قواعد العلم على العمل . لا أن نكتفي بحفظها . وترديد كلمات الخاص . العام . المطلق . المقيّد . النص . الظاهر . المحكم . المتشابه الخ . ثم اذا عرض لنا أن نفهم نصاً ونستنبط منه حكما عجزنا وأحصرنا

ومن كبرى مصائبنا نحن معشر الطلاب المسلمين أن ندرس فنون التفسير والحديث والاصول بشروحها وحواشيها وتقريراتها ونضيع أعمارنا في تحقيقاتها وتدقيقاتها . ثم لا يباح لنا أن نرى رأيا أو نفهم فهما غير ماراه مؤلفو الكتب وفهموه .

اذن نسألك يا أستاذنا لماذا تتعبنا في فهم الآيات والاحاديث ومسائل الاصول ؟ قد يقول في الجواب عن قراءة التفسير والحديث انها تورث الخير والبركة . وتلقي النورانية في القلب !!

واذا كان الاستاذ أكثر دهاءً وأشد فطنة . قال ان التفسير والحديث ليشحذان من أذهانكم . ويذكر انكم بمسائل العلوم والفنون الاخرى : كالنحو واللغة والبلاغة والفقه والمنطق والكلام والمقولات فانكم اذا قرأتم التفسير والحديث تطبقون مسائل هذه العلوم وتمرنون عقولكم على ارجاعها الى قواعدها . وبذلك تزدادون بصيرة ورسوخاً فى العلم . فنقول للاستاذ أصبحت كتب التفسير والحديث اذن كتب تطبيق وتمرين . لا كتب علم وفهم في الدين .

دعنا من التفسير والحديث ؛ ولكن مابال علم الاصول ننصب أنفسنا فيه . ونضيع أعمارنا في تلقيه . ونسمعكم تقولون في بيان ثمرته وغايته : انها « معرفة الاحكام الربانية بحسب الطاقة الانسانية . لينال بالجريان على موجبها السعادة الدينية والدنيوية »

اذا كانت هذه هي ثمرته فلماذا يا أستاذ لا تدعنا — وقد تعلمناه وأنفقنا

أعمارنا فيه نبذل طاقتنا ونتعرف أحكام ربنا. لننال السعادة في ديننا ودنيانا؟

لاجرم أن الاستاذ يسكت. ولا يحير جواباً

وهكذا أشبه علم الاصول شجرة باسقة وارفة الظلال. دانية الثمار. قاسى علماء الامة وفلاسفة فقهائها اتعاباً كثيرة في غرسها وتسميدها وتعهدها بكل ماينميها حتى اذا أينعت وحان قطافها. ودنا زمن استثمارها قالوا لنا لاتجنوا. ولماذا لانجني؟ بل لماذا أتعبتمونا وأتعبتم أنفسكم فيما لا يفيدنا ولا يفيدكم

ومحصل القول أن مانعي الاجتهاد اذا قالوا انه لايوجد في المسلمين اليوم من هو أهل له. لايمكنهم أبداً أن يقولوا إن المسلمين قد امتلخت عقولهم. وارتكست طباعهم. وفسدت فطرهم. فلم يعودوا قادرين أن يتعلموا تعلما يهيئهم الاجتهاد. وتطبيق قواعد الاصول.

وبعد فخير خدمة تقدم للامة هي السعي في تطبيق برنامج هذا التعليم في معاهدنا الدينية. وعندي أن تحصيله أسهل من تحصيل علومنا التقليدية على الطريقة المعهودة بيننا التي يقضي ألوف الطلاب أعمارهم في السير عليها. ثم لا يصل منهم سوى أشخاص قليلين اليها. وهناك قوم ينكرون صحة تسمية هؤلاء الاشخاص بالعلماء وأن تكون علومهم التقليدية مما يفيد فائدة. أو يعطي علما. وانما كلّ ماتعطيه كلام بكلام. وأوهام في أوهام. ويقولون اذا رأيت أحداً من علماء التقليد استنار قلبه. وتفككت العُقُل عن عقله فذلك لانه درس بنفسه علوماً أخرى سددت فهمه. وصححت تصوره وحكمه. وان علومك التقليدية ياسيدي الاستاذ: قد وقفت أمتك الاسلامية موقفاً حرجا إزاء بقية الامم التي تزاحمها في هذه الحياة وتطيف بها عن كثب. فقد استجدت طرائق للحكومات. وأساليب في التجارات. وأفانين في المعاملات. لم يكن يعرفها أسلافنا الاولون.

وفقهاؤنا المجتهدون . بل انقلب كثير مما قرروه وحكموا فيه اجتهادهم رأساً على عقب .

أين زكاة السوائم . والذي يجبي العشور : وأحكام الركاز . وأين الرقيق والمكاتب وأحكام نكاحهما . وأين الحدود والشهادة على الزنا . وأحكام قطاع الطريق . وأين أحكام الجهاد والغنائم والمرتد والآبق والربا والصرف ومسائل الجنايات والديات والقسامة والمعاقل ؟؟ كل هذا ياسيدي الاستاذ أصبح كالشريعة المعطلة : فبعضه نسخ اسمه وبعضه نسخ حكمه . وأحيل لمحاكم وحكام يقولون انهم أصحاب الاختصاص فيه . فهل من مصلحة الدين وشدة الورع أن ينظر علماء الاسلام من بعيد الى هذا الانقلاب العظيم . ويغضون رؤوسهم : ويكتفون بالحوقلة والسبحله . ويُمسون في هذا الوجود (كميةً مهملة) ؟؟ أو الواجب أن ينظروا في جميع ماحدث واستجد نظرة الحازم الحكيم . فيطبقوه على أصول الشريعة . وقواعدها العامة فنترك بعض الأحكام عن بصيرةٍ وبينة وحجة . ونسعى في فهم الاحكام الاخرى التى استجدت فهماً عملياً مطبقاً على مقتضيات الزمان . ومصالح العمران مراعاة للقول المأثور « تحدثون ويحدث لكم » واتعاظاً بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم » . نسمعك أيها الاستاذ الفقيه الورع تقول : قال إمامنا فلان في كتابه كذا وكذا . وقرر تلميذه في حاشيته عليه كذا وكذا . ثم نرى المسلمين بل نراك أنت أحياناً تعمل في المحاكم والدواوين ومواطن الاشغال التجارية . والشركات الاقتصادية وكل الشؤون الدنيوية — تعمل على غير ماقرره إمامك . وحققه تلميذه شيخك : ذلك لانه ليس في الطاقة تطبيق مافي الكتب العتيقة على حاجات الناس الجديدة . اذ أن الزمان قد استدار . وتغيرت الطباع والاطوار . وأمست الواقعات التي تحدث في هذا الزمن لاتحاكي نظائرها في الازمنة السالفة وقت أن ألفت تلك الكتب التي نتدارسها . فنحن ندرسها

ولـكن لانقدر أن نعمل بهـا . فأصبحت بمثابة حزب البَرّ . وحزب البحر . ودلائل الخيرات التي تقرأ للتبرك وتنوير القلوب !!

فهذه الواقعات التي تتجدد في أشغال الناس ومتاجرهم وأساليب مكاسبهم . اذا لم نرجع فيهـا الى الاستنباط من اصول ديننـا لم يعد في إمكاننا أن نحكم بها حكما شرعياً . ولا أن نقول ان لها في شريعتنـا السمحة — شريعة آخر الزمان — حلاً مرضياً .

يقول العلماء السالفون إن ثمرة علم الاصول الاستنباط . ويقول العلماء الخالفون إنه لايجوز الاستنباط بواسطته . واذا عرضت لهم واقعة جديدة أو سئلوا عن أي أمر لم يعهده أسلافهم — وقفوا وقفة عواجز . لايحيرون معها جواباً . ولا يملكون فيها خطاباً . هكذا شـأنهم . وكأنهم بوقوفهم هـذا يقولون إن الشريعة ضيقة ولاحكم فيها لما تسألون عنه . وان الواجب عليكم أيها السائلون . أن ترجعوا الى أنفسكم فتتصرفوا في المسألة حسبما تشاءون أو تستعينوا بالنظامات التي وضعها الاوروبيون .

وليس فوق هذا إزراء بالاسلام . وخذلان للشريعة المطهرة . وكفران بنعمة صاحبها عليه الصلاة والسلام .

أنرجع الى غير الدين الاسلامي فيما يعرض لنا من مختلف الامور . ونحن نعتقد أن ديننا آخر الاديان . وانه تضمن جميع مايحتاج اليه البشر على اختلاف الاعصار والازمان ؟

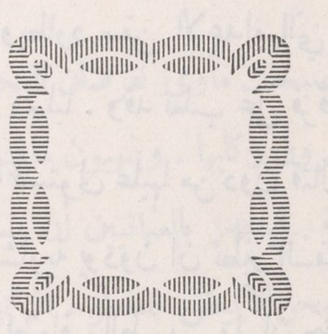
أنحجر على أنفسنا ونجحد نعمة العقل التي أنعم الله بها علينا . فنزعم أن عقول غيرنا من المشترعين . وواضعي القوانين . خير منهـا وانها أصحُّ حكماً . وأوسع علماً ؟ .

أيمتن الله علينا بالدين وبالعقل فنميتهما ونطفيء نورهما وندعى أن ذلك مما

يثيب الله عليه ؟ وأنه طريق الزُّلفى اليـه ؟

أنا أشعر أن الاستاذ لم يعد يملك نفسه غضباً وحفيظة مما سمع من حضى على الاجتهاد .

ولـكن الاستاذ نسى أنني لاأريد أن أجتهد في نفسى . أو أن أمهد طريق الاجتهاد أمام غيرى من المعاصرين . وإنما أنتظر من انصافه أن يطاوعني في القول بلزوم تمهيد الطريق أمام الامة الاسلامية المستقبلة فنعلم أبناءنا تعليما أصوليا يؤدي الى الفهم الصحيح في الدين والمقدرة على الاستنباط من أصول الشريعة . فلا نعود نعدم أحكاماً وفتاوي لـكل مايطرأ من الواقعات . في ضروب الاشغال والمعاملات .



سنابك الجياد

مفاتيح البلاد [1]

في أواخر شهر نيسان من سنة ١٠٥٥ هجرية كانت الدونما العثمانية تتخلل جزائر الارخبيل الرومي وكانت بوارجها الحربية تتهادى على دأماء البحر. تهادي العرائس، على فاخر الطنافس

ولم يكن أحد يعرف وجهة الدونما. وما هو الغرض الذي سافرت من أجله على حين فجأة. نعم كانوا يقولون انها تقصد مالطه. ولكن هناك قرائن تدل على انه ليس في مالطة ما يستحق هذه الحملة. ويستدعي كل هذا الاستعداد. فلم يكن أحد يعرف سرّ الامر الا (الاميرالية) وكبار القواد. وكان بين هؤلاء الامراء قبودان يسمى (قره بتاق بك) بلغ من الجرأة والبسالة منتهاها فكان ينفرد عن الاسطول بفرقاطة أحياناً ويطارد سفن الاعداء التي تسنح له في عرض البحر. فيدركها. ويوقع بها أسراً وسلبا. وقد تغلب على فرقاطة كريدية ثم صادف سفينة أخرى مملوءة ذخائر حربية فاستولى عليها من دون قتال

وكانت ابطال الانكشارية يودون ان تطير السفن بهم الى البرّ. فيفترسوا أعداءهم افتراس النسور. لضعاف الطيور. ولسان حالهم يقول:

(السيف والخنجر ريحاننا   أفّ على النرجس والآس)

(شرابنا من دم أعدائنا   وكاسنا جمجمة الراس)

وكان اثنان منهم واقفين على مقدم احدى سفن الدونما وهما ينظران الى سيرها وكيف أن حيزومها يشقّ عباب الماء فيسمع لحبابه حفيف لطيف. ويرى لزبده بياض ناصع. فقال أحدهما للآخر: اذا كان الاسطول قاصداً مالطة فلماذا

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ و ١٩٠٩ م

يشغل نفسه بمطاردة السفن الاخرى ؟ أما كان الاجدر به ان يتابع السير الى طيّته قبل ان يبلغ المالطيين الخبر فيتحصنوا ويحتاطوا لانفسهم . فمهما أبدى سيدك (قره بتاق بك) من البسالة لا أراه الا مضيعاً الرأي في هذا التلهي والتباطيء .
فتبسم رفيقه لقوله . وقال له ان لومك لسيدي يحملني على افشاء سرّ لم يحن افشاؤه بعد . ولكني قد جرّبتك المرة بعد المرة . فانا اذن أقص عليك الخبر :

ان أسطولنا لايريد ما لطه . وانما ورّى بها تورية . وهو يريد جزيرة كريد . أما ترى سيدي طار وراء الفرقاطة الكريدية وأسرها ؟ قال له رفيقه : ولكن ما بال السفينة الاخرى وهي ليست كريدية ؟ فأجابه نعم انها ليست كريدية ولكنها لاهالي البندقية (ڤينيسيا) شحنوها بالذخائر الحربية وأرسلوها مدداً الى الكريديين فقال له صاحبه : وماذا جنى الكريديون حتى تنتقم دولتنا منهم . وتسوق أسطولها اليهم ؟

فأجابه ان جزيرتهم أصبحت مأوى لقرصان البحر الابيض وحصنا لهم : فهم يرقبون منها السفن . فيأسرون ركابها . وينهبون ما فيها . وموقع هذه الجزيرة من أهم المواقع البحرية الحربية . فيجدر بالعثمانيين أن يستولوا عليها . والا عرّضوا ثغورهم المنتشرة حوالي البحر الابيض للخطر . ألم تبلغك حادثة « سنبل أغا » التي وقعت في العام الماضي ؟ فأجابه لا فاني كنت منذ أعوام أسيراً في يد أعدائنا في البحر الاسود . قال : ان السلطان ابراهيم غضب على سنبل أغا المذكور وكان أغا دار السعادة فتقرر نفيه الى مصر . واستحضار علي أغا الملقب برامى الحجارة منها . وتعيينه خلفاً لسنبل أغا . ولم تكن الدونما يومئذ في الاستانة لتنقل سنبل أغا الى مصر فاضطرت الدولة الى انشاء سفينتين لهذا الغرض فانشئتا . وعين (ابراهيم جلبي) قبودانا لها ثم أنزل سنبل أغا في احداهما بأهله وخدمه وسائر أمواله حتى

خيوله ودوابه . ولم يشفع فيه تملقه وضحكه ولا تسخطه وبكاؤه .

وسافر مع هاتين السفينتين جماعة من حجاج بيت الله الحرام . فيهم (محمد أفندي جلبي البروسوي) وقد عين قاضياً لمكة المكرمة فسأله صاحبه وقد بدت عليه آثار الدهشة والاستغراب:

أليس محمد افندي المذكور هو الذي نال حظوة في السراي السلطانية بممارسة الخزعبلات . وادعاء السحريات .وايهام انه من أهل الكرامات ؟ فكيف يليق أن يكون قاضياً لمكة ؟ فأجابه بلى ! ولكن خمسة الآلاف قرشاً التي دفعها رشوة مهدت له السبيل الى هذه الوظيفة . ثم عاد الى حديثه فقال : وقد اضطر قبودان السفينتين أن يعجّل السفر قبل أخذ ما يلزمه من المهمات والذخائر الحربية : فقد كان رجال الدولة يريدون المسارعة بابعاد (سنبل أغا) عن السراي السلطانية . ومن جهة ثانية كان الحجاج يصخبون ويلحّون بلزوم السفر خشية أن يفوتهم موسم الحج . فسافر القبودان وليس معه سوى أربعة مدافع . وكأن الريح أو قوة عجيبة في الهواء كانت تنقل الى لصوص البحار ما يهمهم من الاخبار . فخف جماعة من قرصان مالطه . وقد بلغهم أمر « سنبل أغا » فكمنوا في جزيرة كريد حيث يشرفون على السفن الصادرة من الاستانة والواردة اليها . وأخذوا في انتظار السفينتين العثمانيتين . أما السفينتان فاجتازتا بوغاز « جناق قلعه » وصادفتهما ريح طيبة فاسرعت بهما الى جزيرة «رودس» وهناك ثار ثائر الخلاف بين سنبل أغا وبين الآخرين : فهو كان يريد السفر الى مصر من دون ابطاء . أما الركاب والقبودان وأهل رودس أنفسهم فقد أحبوا البقاء والاحتباس ريثما ييأس القرصان ويتفرقون ويخلون لهم الطريق . وجعل القبودان يتضرع الى سنبل أغا ويسأله أن لا يدعهم يخاطرون بأنفسهم اذ لا عسكر معهم ولا قوات حربية لديهم يدفعون بها صولة القرصان فلم يصغ سنبل أغا الى أقوالهم ولم يعبأ بنصائحهم . وعضده في رأيه

قاضي مكة وبقية الحجاج حرصاً على شهود الموسم . فاضطر القبودان المسكين الى السفر . وما وصلوا الى مياه كريد حتى دهمهم القرصان وصوّبوا أفواه مدافعهم الى سفينة سنبل أغا ونشبت بينهم معركة هائلة قتل فيها سنبل والقبودان وخمسمائة وأربعون راكباً ولم ينج سوى ستين شخصاً وأسر القاضي وفاته موسم الحج . وجرّ القرصان السفينة بما فيها الى كريد وجعلوا لها كمها نصيباً مفروضا من الغنائم . وكان بين جياد سنبل أغا جواد كريم أنزله القرصان الى الجزيرة وقدموه هدية نافلة الى الحاكم المذكور . ولكن لم يطأ حافر هذا الجواد أرض كريد حتى قامت قيامة رهبانها وتشاءموا من هذا الامر و قالوا : ان وطء حافر الحصان التركي في أرض جزيرتنا ليس علامة حسنة : فان رودس وقبرص وغيرهما من البلاد وطئتها سنابك جياد الاتراك أولا ثم تلا ذلك فتحهم لها

قال : ولما وصل خبر مقتل سنبل أغا وجماعته الى الاستانة تكدر أهلها . ولا سيما أغوات السراي السلطانية . فقد بلغ الحزن من نفوسهم مبلغه وتركوا الطعام والشراب فصدرت ارادة شاهانية بتجهيز هذا الاسطول الذي نحن مسافرون فيه . فجهز وحشدت فيه المقاتلة من أبطال سلانيك والروملي . واستؤجرت نحو خمسين سفينة من سفن التجار لاجل نقل الزاد والذخيرة . عدا سفنا أخرى أمرت ان تقوم من جهات مختلفة تحمل ألوفا من الكلل والمدافع وقناطير البارود وسائر أدوات الهدم والتخريب

وقد جعل سرداراً على هذا الاسطول « يوسف باشا » بعنوان (سپهسلار البر والبحر)

وما كاد ينتهي بهما الحديث الى هنا حتى تراءت لهم عن بعد جبال كريد كالغمام فأعلن السرّ وعرف الناس الامر .

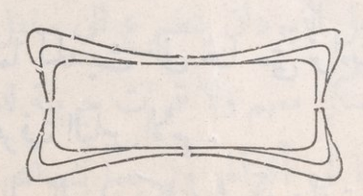
ولما وصل الاسطول الى (سكاليه) رآه ديادبتها عن بعد فأطلقوا الدخان

في طبقات الجو لاعلام الاهالي . وكان (قره بتاق بك) غيّر شكل قرقاطته فهجم عليهم وقتل وأسر بعضا منهم .

ولم يشأ السردار محاصرة (خانيا) مالم يأمن على أسطوله . فلجأ به الى مكان حريز . ثم أمر بانزال الجنود والمهمات الى البر . واحتلت العساكر التلال الواقعة على مقربة من الجسر الحجري أمام قلعة (خانيا) وكان الاهالي اذ ذاك آخذي زينتهم منتشرين في متنزهاتهم . متوفرين على اجتناء ملذاتهم . فلم يشعروا الا بالعثمانيين قد انقضوا عليهم انقضاض البواشق . فاستولوا على مساكنهم وأموالهم واستاقوهم أسارى بين أيديهم .

الى هنا تم فتح الجنود الجزيرة . أما سردارهم فلم يكفه هذا الفتح وانما أراد أن يقوم بفتح آخر أشرف وأفضل : ذلك الفتح هو فتح القلوب واستعباد النفوس . فكانوا كلما جاؤه بطفل أو امرأة أنعم على العساكر وردّ الطفل الى حضن أمه والمرأة الى ذراعي زوجها . ومنعهم أيضاً من حرق البيوت وقطع الاشجار وقتل الاسرى

ولما شاع أمر هذه المعاملة الحسنة في انحاء الجزيرة وبلغ أهاليها أن السردار العثماني يعاملهم معاملة الأب المتحبّب لا الفاتح المتغلّب . أقبلوا عليه من كل ناحية والقوا اليه بمقاليد أمورهم . وأعجبوا بشهامة العسكر الاسلامي فكانوا يقدمون اليه المؤن والذخائر . وأخيراً رضوا بأن تدخل بلادهم في حوزتهم . وهكذا ملك العثمانيون هذه الجزيرة وصدَق فأل رهبانها



تلميذة مسلمة

في سوق الصاغة (١)

لم تكد (نفيسة) تبلغ السنة الخامس عشرة من عمرها حتى أخرجها ذووها من المدرسة وألزموها الحجاب صيانةً لها وتأديباً لها بآداب دينها. وتقاليد قومها.

وكان أهمّ ما استفادته في المدرسة الميل الى المطالعة . والرغبة في توسيع دائرة معارفها : فهي قد أدركت انه لايمكنها في تلك المدة التي قضتها في المدرسة أن تتعلّم كل شيء وتقف على كل مسئلة من مسائل العلوم ولاحظت ان المعلّم والتعليم المدرسي انما يقفها بالاجمال على أصول العلم وأمّهات مسائله . ويرشدها الى كيفية الفهم والاستدلال والاستنتاج بنفسها . ويودع قلبها حبّ العلم والمطالعة والاستفادة من كل ما ترى وتسمع وتقرأ وهذا كل ما تطيق المدرسة أن تنيله المتخرجين والمتخرجات فيها

وكان هذا شأن نفيسة : فانها لما استنار عقلها . ورأت نفسها في كنف الحجاب متوفرةً على المطالعة . وأنه لاشيء يشغلها عن العلم — انصرفت بكل قواها الى سلوك الطريق الذي كان التعليم المدرسي أقامها على فوهته فجعلتْ تطالع الكتب التي تؤلف في مختلف المواضيع . وتتبع ما تنشره الجرائد والمجلات من وقت الى آخر . وكانت ترى أثناء المطالعة ما يذكرها بمسائل العلوم التي كادت تنساها فتعود ترسخ في نفسها ، وتثبت في ذهنها . وتارةً كانت ترى في الكتب والمباحث العلمية الجديدة ما يوضح لها ما أشكل عليها أمره . ويزيح النقاب عن كثير من مسائل العلوم التي جاءت في الكتب المدرسية موجزةً مبهمة . وأحياناً كانت تجد مباحث جديدة وتظفر بفوائد طلية ما كانت قط لتعرفها من قبل .

---

(١) كتبت سنة ١٩٠٧ م

لكنها مع هذا ما كانت تجد صعوبةً في فهمها لأنها تنطوي تحت الاصول والقواعد التي تعلمتها في المدرسة أو تواخي المسائل التي تلقتها ثمة

وكان أولياؤها القائمون عليها من ذوي الكيس والفطانة . ولم يكونوا علماء ولا فلاسفة . وانما كانوا يعرفون بالجملة الفائدة التي تعود على الفتاة المتعلّمة . فكانوا يمدونها بالكتب ويشرون لها الروايات والقصص الادبية . ويشتركون من أجلها بالجرائد والمجلات ويذاكرونها في كل ما يعرض من الشؤون في العالم الخارجي الذي أمست (نفيسة) في معزلٍ عنه .

وقد شعر أهلها ان ابنتهم لا تبلغ سنّ الزواج ـ العشرين أو الحادي والعشرين من عمرها ـ حتى تصبح على حصةٍ موفورةٍ من العلم والمعرفة بحيث لا يخشى عليها نسيان ما تعلمت . أو يلهيها عن العمل بعلمها أيُّ شاغل كان. زوج أو منزلٍ أو تربية ولدان .

وكان لأهلها علاقة ببعض الشيوخ ذوي التقوى والصلاح فرغبوا اليه أن ينتاب دارهم ويخصص لنفيسة وقتا يذاكرها فيه وتراجعه فيما يشكل عليها أو يعرض لها من المسائل والاحكام الدينية .

وكان الشيخ يُعجب بفطانة (نفيسة) وذكائها لاسيما عند ما كانت تحاوره في بعض الفروع الفقهية التي قلما تعرض للمكلفين . وترجوه أن يقتصر في تفهيمها على ما تسأله عنه هي مما هو موضع مساس الحاجة . وعليه تتوقف صحة العبادة : فلم تكن تقبل منه أن يسهب لها في أحكام الحيض ومسائل « المحيرة » والنفاس والطلاق والعدة والرضاع . ولا أن يكثر لها من الكلام على الطهارة والنجاسة وأحكام المياه . وتقول له : ياحضرة الاستاذ إن أحكام الحيض والنفاس التي يهم معرفتها يمكن إيداعها صحيفةً واحدة . ثم ارجاع البصر عليها كرّةً أو كرّتين ويزاولها المكلف بالعمل مرةً أو مرتين . فلا تلبث حتى يصير علمها ملكةً راسخة .

أما الطهارة والنجاسة فما يرجع من أحكامها الى الوضوء والغسل فيقال فيه كما قيل في أحكام الحيض والنفاس . وما يرجع الى النظافة المنزلية وتطهير الادوات والاواني والامتعة من الأقذار والانجاس فهذا ينبغي أن يحال فيه المكلف على فطرته : فان الفطرة الانسانية مهما خبثت لاتزال تتقزز من القذر والنتن .

والانسان بطبعه يعرف كيف يتنزه عن النجاسات والاقذار . ومهما ألقى عليه معلمه ومربيه من المسائل والتعاليم المتعلّقة بالنظافة والطهارة فلا يحسن منه أن يجعلها له علما بأصول . وأن يقيدها بالاصطلاحات فان ذلك يزيدها تشوشاً في نفسه . ويزيده ارتبا كا في فهمها .

وهكذا كانت (نفيسة) تريد أن تفهم المسائل الفقهة . وتحب أن تتلقاها عن شيخها الذي كان يسر بحديثها . ويعجبه انتقادها . وان كان لايمكنه العمل بنصائحها وتقليد طريقتها .

وكانت (نفيسة) اذا ملت المطالعة مالت الى ممارسة الاعمال البيتية ومساعدة زوجة أبيها في إدارة المنزل . فان أمها كانت ماتت بحمى النفاس فتركتها طفلة . ومن حسن حظها أن اتاح الله لأبيها زوجةً من فضليات النساء فحنت عليها واحسنت تربيتها . حتى لم تشك نفيسة في أنها أمها كما لم تأل الأخرى جهداً في أن تعاملها كابنتها . ومما ساعد (نفيسة) على الامعان في المطالعة واجتناء ثمراتها ـ ملازمة الخدر . وكراهتها التردد على الأسواق . وانتياب المخازن والحوانيت كما كان يفعل أترابها وصويحباتها بدعوى شراء حاجاتهن وأمتعة لهن .

والسبب في هذه الكراهة أنها نزلت مرةً الى سوق الصاغة فرأت وسمعت ماهاج نفسها بعواطف الأنفة والحمية . وأخذت على نفسها من يومئذ أن لاتنزل الى الاسواق . وأن لاتجعل شرفها كالكرة تتلاعب به ألسنة الفساق

ثم أحبتْ أن تشتري لنفسها أساور من ذهب مثل التي اشترتها ابنة عمتها .

واستشارت الفقيه الذي يعلمها في النزول الى السوق لتنتقي الجنس الذي يعجبها .
فنصح لها الشيخ بأن لا تنزل بنفسها وأن تبعث من يحضر لها الاساور فتختار
منها ما تحبه . وخجل أن يصرح لها بما تتفوه به العامة من كلمات الفحش مما يحسن
بمثلها أن تنزه سمعها عنه ـ وانما ألمع الى ذلك إلماعاً . فتعللت هي بأن نزولها
بنفسها الى السوق يساعدها على انتخاب النوع الذي تريده .

فقال لها : إذا كنت نازلة ولا بد فعليك بالصائغ فلان فانه صديقي . وهو ذو
تقوى ودين وأمانة . وحانوته على رأس سوق الصاغة مما يلي السكة الجديدة .

خرجت (نفيسة) ثم انقلبت الى دارها مغضبة واجمة . سادمة نادمة .
وبقيت طول يومها تفكر وتهجس فيما رأت وسمعت . وأخذت تتولد في ذهنها
خواطر وأفكار ترجع كلها الى تحرير المرأة المسلمة من حالتها الحاضرة . ونشلها
من مهواة المهانة التي أوقعها فيها جهلها . أو الجهل العام الذي أحاط بها . وملك
قياد الشعب بأسره .

وكانت (نفيسة) في زمان الدراسة ائتلفت مع إحدى التلميذات . وقد
جمع بينهما التقارب في السن والطبقة والذكاء والرغبة في التحصيل . فاتخذتها
صديقة لها . ولما غادرتا المدرسة بقيتا على ما كانتا عليه من الودّ . والوفاء بالعهد

وكانت صديقة (نفيسة) تسكن (شبرا) . ولم تكن احداهما تكتب الى
صاحبتها الا عند أمر عرض . أو تفقد في مرض . لكن لما وقع لنفيسة في سوق
الصاغة ما وقع شحذت هذه من غرار قلمها . وأخذت تكتب الى صديقتها
(منيرة) ما كان يجول في صدرها . وتصف لها فساد آداب الرجال والنساء معاً
وتسائلها عن رأيها فيما اذا كان من الممكن ملافاة هذه الشرور وجعل المرأة
المسلمة في حالة من الادب والوقار تحاكي ما لبنات جنسها من سائر الطوائف .
وكانت (نفيسة) تريد من صديقتها أن تعطيها عهداً على أن تشاركها في متابعة

البحث في هذا الموضوع . وأن تسعيا في أن تضما اليهما جميع البنات اللواتي درسن وتعلّمن في مدرستهن أو غيرها . فلعله يحصل من اجتماعهن وكتاباتهن واهتمامهن ما يكون له أثر بين في تحسين حالة المرأة المسلمة وحفظ كرامتها فتماسك الأخلاق والآداب التى تراخت وشائجها . ووهنت عراها بين الجنسين الرجال والنساء .

وقد أمَّلت نفيسة أنها بهذا الاهتمام التي تظهره هي وبنات جنسها في اصلاح حال المرأة المسلمة يحملن الحكومة نفسها على تلبيتهن والاخذ بيدهن . فيما اليه يقصدن .

وسواء كان ما توهمته (نفيسة) وعقدت النية عليه ممكن الحصول أو غير ممكن — فانه آية على شهامتها . وكبر نفسها . واذا ظفرنا ببعض تلك الجوابات التي كانت تدور بينها وبين صديقتها لانبخل بنشره اذ يوشك أن يكون من وراء نشره فائدة وذكرى لقوم يعقلون .

أما وصف رحلتها القصيرة الى حانوت الصائغ وما جرى لها أثناء اجتيازها سوق الصاغه للوصول الى ذلك الحانوت فقد قصته بالحرف على مسامع شيخها قالت : —

لم أكد أبرح منزلي حتى وجدتُني في سوق الصاغة فحَمَلَتْني السذاجة على أن ألتفت يميناً وشمالا وأتفرّس في أشكال الاساور التي كانت معروضة على النظارة من وراء الزجاج ـ لأكون على بينة من أمر أساورى التي أريد شراءها . واذا بأرباب الحوانيت والصناع أخذوا في استدعائي اليهم ومحاورتي بكلام سَمج . وقول فاحش . ففطنت اذ ذاك الى أنّ تلفتّي هو الذى أغراهم بى . وجرّأهم عليّ . فأطرقت برأسي في الارض وتوخّيت المسير في وسط السكة وجعلت اسرع في في خطواتي . لكني مع هذا لم أنجُ من المارّة الذين كانوا يتحرّشون بي . ويهمسون

اليّ بعبارات التصبّي . ويناغونني بالكلام الغزل . عندها ارتجفتْ رجلاي . ودار رأسي . ولم أعد أبصر ولا أسمع شيئاً . اللهم الا كلمتي « قشطة » و « مفتاح » فقد كانت لا تخلو منهما جملة من كلام أولئك السخفاء الاحلام

أما كلمة (قشطة) فاني أعرف المراد بها من دروس البلاغة التي يلقيها الباعة مجّاناً على أسماعنا من آونة الى اخرى في الازقة والشوارع : فهم يُشبهون القرنبيط والبيض بالقشطة . كما يشبهون العنب بالجواهر . أما كلمة (مفتاح) فلم أفقه لها معنىً . فتبسّم الشيخ من قولها ولم يجبها .

ثم قالت : ولا أكاد أيها الاستاذ أحصي عدد أولئك الرجال الذين تعرّضوا لي في تلك المسافة القصيرة . ولو قسمنا عددهم على الخطوات التي مشيتها ـ لخصّ كل خطوة رجلان ونيّف على الأقل ! وقد كادت (نفيسة) أن تخرج في حديثها مع شيخها عن حدّ الحشمة والادب : فقد تطرّقت الى لوم الحكومة على سماحها بتخصيص محال للفجور ارادة صيانة الحرائر مع أن هذه المحال أصبحت تحت حماية الحكومة مستنقعاتٍ تتكون فيها جراثيم الفحش والخنا . ثم تتفشّى في الشعب الجاهل تفشي الوبا . وتنتقلُ من واحد الى آخر انتقال ميكروب السلّ بالعدْوى . وهذا المعنى لم تقدر أن تفصح عنه تمام الافصاح أمام شيخها بل كانت تجمجم به جمجمةً خجلا واستحياء منه . أما هو فقد كبرَ عليه خوضها أمامه في هذا الموضوع . وبدَتْ على وجهه آثار الكراهة والاشمئزاز . فأسَرَّتْ (نفيسه) في نفسها أن تسهب في شرحه عند ما تكاشفُ به صديقتها ساكنة (شبرا) .

ثم قالت : وليس من الحق ياسيدي أن أقصر لومي على الرجال فان في النساء من لا تعرف للعفة والصيانة والأدب معنى . بل إن منهن من تغري الرجال بالتطلع اليها . وتحملهم بابداء زينتها . ومعاري جسمها . على العبث بها : فقد

رأيت امرأةً شابة متبرّجة تمشي الى جانبي في تلك السوق وتتلوها وليـدة في السنة الثامنة من عمرها « وقد أحاطت بها أخلاط الزمر . إحاطة الهالة بالقمر . والأكمام بالثمر » فكانت تبسم الى هذا وتلفتت الى ذلك. وقد انهالت عليها كلمات (القشطةوالمفتاح) من كل جانب مما كان نصيبي منه أقل من نصيبها . والحمد لله

ومما تعجّبتُ له وقاحة تلك المرأة وتنمرها : فان صانعاً نبّهها الان تجمع ذيلها المسترخي خشية أن يتمزّق تحت أقدامها فأغلظت له في الرّد . وأنحتْ عليـه بالسبّ . وكان في جوابها من كلمات الرفث والفحش ما لا يسعنى ذكره خجلا من سيدي الاستاذ . ولم أعرف السرّ والسبب في امتعاض تلك المرأة ممن نبّهها لجمع ثوبها الى هـذا الحد . ولو قال لي الرجل ذلك القول الذى قاله لها لشكرته وشمّرتُ ثوبي ومشَيْتُ في طريقي . فلعلّ لهذه الجمـلة معنى اصطلاحيا يفهمه هؤلاء المُجّان والمواجن لحاهم الله !

وأكثر ما كانت رحمتي وشفقتي ياسيدى الاستاذ على هذه الوليدة الصغيرة التى كانت تلوذ بتلك الشّابة . ولم أعرف إن كانت هي أمهـا أو أختها . فقد كانت تلك الوليـدة تنظر تارة اليهـا وطوراً الى أولئك الرجال الذين كانوا يتحرشون بها . فيصـل الى قلبها من دروس الفحش والفساد ما ينتقش فيه انتقاش الحجر . ويكون بئس المساعد لها على التبذّل والتهتك في زمن الشبيبة وطور الكبر .

وكلّ هذه الشرور والاعمال الخاطئة كانت تجرى تحت أنف البوليس وعلى مرأى ومسمع منـه . وهو ـ ولا أبخسه حقه ـ منتبه لـكل ما كان يقع أمامه عامل على حفظ الراحة والنظام جهدطاقته : فلو انبرى أحد شيوخ الازهر أو بعض نجباء التلامذة ذوى الغيرة والشمم العربي ـ لاولئك الطَّغام . ووقف فيهم موقف الخطيب : فحذرهم مساوى الاخلاق وبيّن لهم وخامة عاقبـة الفساد .

وانتهاك الحرُمات . وهدَّدهم بقوّة الحكومة وسيطرة البوليس ـ لكان البوليس أوّل المستخفّين به الزارين عليـه . ولنصح له بكل اخلاص أن يدَعَ الناس في غفلاتهم . ولا يتعرّض لما لا يعنيه من حركاتهم وسكناتهم .

فكيف لا تفشو المحارم . وتنتشر المآثم اذا كان لها من قوة الحكومة هذا العضُد . ومن عنايتها هذا الجناح ! !

وهذه الرواية التى كنا نمثّلها معشر الوطنيين والوطنيات لم تعدم رهطاً من الاوروبيين يشاهدونها . ويأخذون العبر من مطاوى فصولها : فقد كان هؤلاء النفر من الافرنج رجالاً ونساء واقفين على بعض الحوانيت يشرون لهم حليًا شرقية . فلفتتهم سيدة منهم الى مشاهدة ما هو جار بين الوطنيين والوطنيات . من المطارحات والمباغمات .

وقد دَميَ قلبى . وأحسَسْتُ المهانة في نفسي مذ رأيت تلك السيدة الافرنكية تتبسّم وهي تنظر الينا ـ تبسُّم الفخور بنفسه المُدِل ّ بمكانته . المستخفّ بشأن من لم يكن من طبقته . ولاعلى شاكلته .

وكان السياح جميعهم يظهرون العجب والاسف لهذه الحالة . ويرثون للنساء المسلمـات اللواتي حكم عليهنّ نكد الأيام وسوء الطالع أن يعشن فى هذا الوسط الردىء فيفسدن وتفسد أخلاق البنين والبنات بفسادهن .

فهمت ذلك من السياح من كثرة مارأيتهم يشيرون الى الروميات والارمنيات والقبطيات واليهوديات الغاديات الرائحات اللواتى لسن على الزى المصري بجلبيات مبرقعات وكانوا يقولون : ولماذا ياترى كانت الوطنيات المسلمات موضع إهانة واحتقار في نظر رجالهن حتى أنهم يمتهنونهنّ كل هذا الامتهان . ويرشُقونهن بكلمات الفحش والفجور الى هذا الحد ؟ وقد لاحظ السُّيّاح أن هذا التعرّض والتحرّش بالمسلمات لا يقْتصرُ فيه على الرجال المسلمين فقط بل كان يُشاركهم

فيه بالضرورة سائر الرجال الاجانب بعامل القدوة والتظرّف باتّباع عادة أهل البلد

فبرمَ (الفقيه) وضجر من طول حديث (نفيسة) فقال لها : وبعد ذلك هل شريت الاساور أم لا ؟ فقالت إن صديقك قال انه لا يوجد لديه الآن أساور من الجنس الذى اريده . وان لديه جنساً آخر تحت الشغل وستتمّ صياغته عما قريب . وهو أحسن طرزاً وأجمل نوعا من الاساور المجهزة . فوعدته بالعودة وانقلبت مسرعة الى البيت .

فقال لها الشيخ اذ ذاك : هذا ما كنتُ أحاذره وأخشى أن تتعرضي له . ولعل الخير فيما وقع . فانك بعد هذا تلزمين خدرك وتحفظين بذلك دينك وشرفك . لان خروج أمثالك من بيوتهن انما كان والناس ناس . اما هم الآن فقد تحولوا الى نسناس .

ولما سمعت (نفيسة) من الشيخ هذا الكلام طار صوابها . وأحسَّت كان طائراً من كواسر الطير قبضَ بمخالبه على قلبها . وأدركت مرارة عيشها . في مستقبل حياتها . فهي لا تقدر أن تخرج من الدار لئلا تمَسّ كرامتها . وتسمع ما ينبو عنه سمعها . ولُبْثُها في بيتها يورثها على تمادي الليالي والايام . الاسقام والآلام . وليس أهلوها من ذوي الثروة فتقتني لها عربة تخرج بها الى النزهة والزيارات وقضاء اللبانات . فهي مضطرة الى أن تمشي على رجليها فتسمع كلمات القشطة والمفتاح . أو تقطعهما وتقعد في البيت فترتاح .

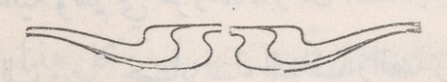
فتصورت البيت اذا ذاك قبراً أو سِجناً . وتذكرت أن أمهات المؤمنين كنّ يرافقن النبي صلى الله عليه وسلم في غزواته . وكان الصحابة يزورونهن في بعض الاحيان ـ في نظير ذلك من أخبار نساء السلف والصدر الاول الاسلامي . فكاشفتْ الشيخ بما خطر لها وقالت ينبغي للحكومة بصفتها اسلامية . وعلى العقلاء والكتاب ونصراء الانسانية . أن يجدوا للمرأة المسلمة مخرجاً من هذا

الضيق . وَيُوفّقوا بين حالتها و بين ما يستدعيه الدينُ والعقل وعلم التربية والنفس والصحة . ومدارُه كله على أن يكون للمرأة المسلمة الحقُّ في أن تخرج من بيتها الى حيث يجوّز لها الشرع الخروج . من دون أن تُمَسّ كرامتها . ويهان شرفها .

ثم ترقت (نفيسة) في إبداء الافكار فقالت : وما المانع ياحضرة الاستاذ ان يكون المسلمات المتعلّمات متنزهات ومنتديات . ومجامع مذاكرة وأدب خاصة بهن . وملائمة لعفتهن ودينهن ولما استحدث في تربيتهن . أو أن يخصص لهن في مجتمعات الرجال الدينية والعلمية والادبية مواضع ينتبذنها ويتلقفن من الخطب والمذاكرات التي تدور بين الرجال ما يكون مهذّبا لنفوسهن . ومربيا لعقولهن ومداركهن ؟

فانتهرها أستاذها حينئذ وقطب في وجهها . ونهاها عن الاسترسال في هذه الافكار . زاعما انها تقود النساء المسلمات تواً الى الدمار . ومواطن العار والشنار .

فسكتت نفيسة على كره . وعلمت انه لا يمكن أن تجد من مثل هذا الشيخ نصيراً . ولا من الحكومة اللاهية والشعب الجاهل ظهيرا . وأن عليها الآن أن تُلزم سرها صدرها . كما تلزم جسمها خدرها . وإن أفشت من سرّها أحياناً فانما يكون الى صديقتها (سجينة شبرا) . لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرا .



الآراء والمبادئ والتردد فيها[1]

رأيُ الانسان وفكره ومشربه ألفاظ متقاربة تستعمل في معنى واحد : هو مايرتأيه الانسان ويعتقد صحته ويجادل غيره اذا خالفه فيه . واذا كان هذا الرأي متعلقاً بالشئون العامة اجتماعية وسياسية اصطلح الكتاب على تسميته (مبدأ) : يقال ان من مبادىء فلان مناوأة المحتلين ولزوم جلائهم عن البلاد للحال . ومن مبادىء الآخر أن يمهلوا في ذلك الى أن تحين الفرصة . ويمكن الجلاء . ولا يصح أن نقول ان من مبادىء فلان تفضيل اللون الفلانى من الطعام . واستحباب الضرب الفلانى من اللبوس

وكثير من الناس لارأي لهم ولافكر وهم الذين لم تستحكم فيهم قوة العقل ولم يتدربوا على الحكم والاستنتاج : فترى الواحد من هؤلاء يتابع كل انسان على رأيه . ويسمى من هذا شأنه في اللغة العربية إِمَّعة . فكل انسان يراه معه .

وقد يبلغ بالآخر الامر الى حد العناد في الثبات على رأيه : فيظهر له خطله وقبح أثره ووخامة عاقبته ثم تراه يلزمه ولا يتحول عنه .

ومثل هـذا ذاك الذي يترك رأيه — وقد وثق منه ، وحصحصت حجته فيه — إلى رأي غيره . يفعل ذلك تزلفاً وتملقاً . أو جبنا ومكراً . أو لمصلحة له دنيوية يحاول قضاءها .

ويمكن أن نمثل للحالتين المذكورتين — بما كان من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه — ومن المغيرة بن شعبة : فان المغيرة جاءه لاول ذرور قرن الفتنة وكان عنده ابن عباس فأشار عليه بأن يدع معاوية على عمالته في دمشق حتى تهدأ الخواطر . وتفثأ جيشات الفتن . ثم كان له بعد ذلك أن يعزله . فلم يقبل

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م

الامام ما أشار به عليه . ثم برح المغيرة مجلس علي وعاد اليه فقال : الرأي ما رأيته يا أمير المؤمنين فانه الصواب . فقال ابن عبـاس ان الرأي يا أمير المؤمنين هو ما أشار به عليك أولا وقد خدعك في الثانية ويروى أن علياً قال له انى أعلم ذلك منـه ولم يفتني أمره . فانظر كيف ان أمير المؤمنين على قرب نفسه من حظائر القدس لجّ في الاعتصام برأي كان غيره خيراً منه بشهادة المغيرة وابن عباس وهما من أعقل الصحابة وأشدهم دهاء وأكثرهم حنكة . بل بشهادته هو نفسه : فانه كان يعرف أن رأي المغيرة الاول هو الصواب لـكنه لم يعمل به لحـكمة أرادها الله حتى كان من أمر معاوية وتألب أهل عصبيته حوله ما كان . ثم أنظر كيف ان المغيرة رجع عن الرأي الصواب الى الرأي الفائل لمأرب في نفسه لا يعدو الدنيا وزهرتها . والامارة وأبّهتها .

والعدل في هذا أن يستمسك المرء برأيه ما رآه صوابا سديداً حتى اذا تبين له خطأه وضعفه مال عنه الى الحق الذي ظهر له من دون أن يجد في نفسه حرجاً أو غضاضة . بل هو يكون في صنيعه هذا أسمى مكانة في نفوس العقلاء مما لو بقي مستمسكا بالخطل في رأيه . مصراً على الخطأ في فعله .

ولا ريب في أن العدول عن رأيٍ حقٍّ صحيح الى ضده لاغراض سافلة - مما يعاب به الانسان ويلام عليه .

وهناك حالات تشتبه بهذا العدول القبيح وليست هي منه : مثل أن نحكم على الشيء الواحد بحكمين متناقضين يؤدي بك أحدهما الى كراهته والاستيحاش منه والآخر الى حبه والانبساط اليه . وهذا ما يسميه المناطقة (الشعر) ويعنون به كلّ كلام منظوم أو منثور أُلِّفَ من المخيلات التي تخيل للنفس ما تتأثر به قبضاً أو بسطاً فتنفر أو ترغب وتصير مبدأ فعل أو ترك أو رضاء أو سخط أو اقدام على اللذات أو على المضرات مستلذةً اياها : فاذا أردت أن تنفر أحداً من العسل

تصفه بقولك هو صديد الذباب أو قيء الزنابير . واذا أردت أن تحببه اليه قلت هو مُجاج النحل أو رضابه . وكأن تقول مرةً : الخمر جنون مُذاب . ومرة أخرى : الخمر ياقوتة سيّالة .

وليس هذا من التردد في الرأي أو التردد في الحكم وانما هو من قبيل الترديد في وجوه الكلام لغرض اقتضته البلاغة . وإذا عددنا هذا الصنيع من الاقوال المستهجنة والطرائق المذمومة ـ لزمنا أن نترك الشعر ونهمل ثلاثة أرباع بل أربعة أرباع أقوال شعرائنا . وبلغاء كتابنا .

والى هذا الضرب من ضروب البلاغة في الوصف ـ أشار الشاعر في قوله :

(تقول هذا مُجاج النحل تمدحه وان ذممت فقل قيء الزنابير)

(مدحٌ وذمٌّ وذات الشيء واحدة إن البيان يُري الظلماء كالنور)

وقد حدثوا أن قد جرى في مجلس المرحوم السيد جمال الدين مرةً ذكر فتاة افرنكية بارعة الجمال وفدت على القاهرة ولاصناعة لها سوى سقي البيرة . فقال الفيلسوف لجلسائه هلموا اليها لنخبر أمرها . فكان من حديثه معها ووعظه لها ووصفه حالتها وكيف أن تلك الحالة تؤدي الى ضياع رونق شبابها وشرف سعادتها ومجد مستقبلها المستعدة له بفرط ذكائها وبديع جمالها كل ذلك بعبارة يكفي أن تقول « جمالية » ـ ماأثر في نفس الفتاة المسكينة وجعلها تذرف الدموع على وجنتيها أسىً وأسفا . فرق لها الحاضرون ورغبوا الى الفيلسوف أن يبدلها سروراً بحزن وابتساماً ببكاء . فطفق يصف من شبابها وجمالها وشرف صناعتها وحريتها في معيشتها ونزوع النفوس اليها ـ ماحسبت معه أن الملكات دونها . وانها فوقهن هناء وغبطة . فطابت عند ذلك نفسها . وبرقت له شفتاها

ومن هذا القبيل أن يعمد الكاتب الى الشيء أو الشخص تكون له حالتان

حالة مستهجنة . وأخرى مستحسنة . فيهجوه اليوم ويذكر من مساويه بقدر ماتقتضيه الحال . ويتطلبه المقام . ضارباً صفحاً عن محاسنه ومواضع المدح منه. ثم اذا عرض له من مقتضيات الاحوال مايستدعى ذمه نال منه بالقدر اللازم . ولايكون في فعله كاذباً أو متردداً أو متقلباً ـ مادام صادقا في قوليه الاول والآخر

ومن ثمه عاشت الاحزاب السياسية . وراجت أقوالها . ووقع قول كل حزب لدى أتباعه موقع القبول . فالحزب الذي يمدح المحتلين قد يجد مجالا للمدح ولساناً قائلا فهو يمدح ويقول . وهناك حزب آخر يجد في المحتلين والاحتلال نقائص ومساوىء كثيرة ظاهرة ظهور الشمس فهو يهجو ويذم . والعبرة بالنتائج . والاعمال بالنيـات .

وهذا السيد جمال الدين كان في جريدة العروة الوثقى ينحي على الانكليز باللوائم إنحاء شديداً ويقبح أعمالهم ويذكر من سيئاتهم وشرورهم مايستعيذ منه الحر الـكريم . لـكنه لما حقد على ملك العجم (ناصر الدين شاه) وأراد الانتقام منه وشخص الى لندرة كان ينشر في جريدة (ضياء الخافقين) التي كانت تطبع ثمه بالانكليزية والعربية — من أماديح الانكليز والثناء عليهم وحسن سياستهم في مستعمراتهم ما كاد يكون نقيض الاول . أو هي البلاغة ترى الظلماء نورا . أو انه فى الصورة الاولى كان يذكر السيئات وفي الثانية الحسنات

ولايمكن لاي شعب او شخص كان أن يتنزه مما يعد له . ويعد عليه

ويمكن أن نذكر مثالا لهذا النوع من التريد في الـكلام ما كتبه صاحب المؤيد في اللورد (كرومر) أولا وثانياً : فان وجود اللورد في القطر كل هـذه السنين الطويلة يقتضي حسن المجاملة فى وداعه . وتناسى كل مايؤخذ عليه . وإن ذكر شيء منه فانما يذكر بلطف ورفق . وهو عين ماصنعـه صاحب المؤيد في

ما كتبه اذ ذاك : فانه أشار الى أن تبعة الخطأ في سياسة اللورد انما هي ملقاة على عاتق بطانته ومواضع ثقته

وصاحب المؤيد يعلم من مواضع المؤاخذة أكثر من ذلك — لكنه لم ير مقام التشييع صالحاً للتشنيع . ولا حالة الوداع تقتضي غير المجاملة والتلطف في القول . ولكن لما قام جناب اللورد وخطب خطابه المعهود . ونبش من شئون المصريين مايسوءهم ذكره . ويؤلمهم وقعه . تجدد لصاحب المؤيد من المقتضيات ماسوّغ له تجديد القول وتشديد الوطأة على حد قول المعلقة السياسية :

(ولم أجحد عوارفه ولكن رأيت المنّ داعية الجحود)

فذكر في الرد على ذلك الخطاب مالا يزال فى ذاكرة القراء .

وأقرب الشواهد على سداد هذه الطريقة وحسنها بل جوازها وحِلها — ما كان من عمرو بن الاهتم وابن عمه الزبرقان بن بدر سيدي بني تميم : فانهما وفدا على النبي صلى الله عليه وسلم فعرضت مناسبة مدح فيها عمرو — ابن عمه الزبرقان، فقال « انه لمطاع في أنديته . سيد في عشيرته » فقال الزبرقان « لقد حسدني يارسول الله لشرفي وقد علم أفضل مما قال » . فقال عمرو « انه لزمن المروءة . ضيق العطن . لئيم الخال » ويروى أن الزبرقان نفسه قال « يارسول الله أنا سيد تميم . والمطاع فيهم . والمجاب منهم . آخذ لهم بحقوقهم وأمنعهم من الظلم . وهذا (مشيراً الى ابن عمه) يعلم ذلك » فقال عمرو « انه لشديد العارضة . مانع لجانبه . مطاع فى ناديه . مانع لما وراء ظهره » فقال الزبرقان « والله لقد كذب يارسول الله . وما منعه أن يتكلم الا الحسد » فقال حينئذ عمرو « أنا أحسدك ؟ والله انك للئيم الخال . حديث المال . أحمق الوالد . مبغض في العشيرة » فرأى عمرو الانكار في وجهه صلى الله عليه وسلم فقال « يارسول الله والله لقد صدقت في الاولى وما كذبت في

الثانيــة . رضيت فقلت أحسن ماعلمت . وسخطت فقلت أقبح ماعلمت »
وفي رواية « والله يارسول الله لقد صدقت فيهما . أرضاني فقلت أحسن ماعلمت
واسخطني فقلت أسوأ ما علمت » فعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم « ان من
البيان لسحراً » وفي رواية « ان من البيان سحرا . وإن من العلم جهلا . وان من
الشعر حكما . وإن من القول عياً » وقد أقر صلى الله عليه وسلم عمراً على ما قاله في
ابن عمه . ولم يسخطه منــه . ولم يعده كذبا أو نفاقا . وانما هو من قبيل السحر
الحلال .وعلى حد قولهم : لــكل مقام مقال »



المتحف المصرى (١)

من طاف في أرجاء هـذا المتحف وتجول بين معروضاته وحدق نظره في عادياته وغرائب آثاره — أدرك أول وهلة عجزه عن أن يفيَ تلك الآثار حقَّها من الوصف وبيان المعنى الذي وُضعت له والغرَض الذى اتخذت من أجله . وان ذلك المتحف بما حواه من الآثار الجمة التى كادت تفوق الحصر كالبحر الزاخر المتلاطم بالامواج : ففيه أدوات وهَنات (خرداوات) لايكاد يتبينها الطرف لدقتها وصغر حجمها . كما أن فيه من المحاريب والتماثيل الهائلة . والعمد الممددة أو المائلة ماينوء بالعصبة أولي القوة ويحتاج في زحزحته من مكانه الى مساعدة الآلات . وإعمال الماكينات . فكيف يتسنى للكاتب أن يودع أوصافاً وملاحظاتٍ غيرَ محدودة . مقالةً محدودة . ذاتَ سطور معدودة ؟ سُئِل بعض الوعّاظ عن معنى قوله تعالى « والسماء ذات الحُبُك » فأجاب بقوله « السماء هي هذه التى نشاهدها فوق رؤوسنا وأما (الحبك) فهو شىء لا نعرفه لانحن ولاأنتم » وهكذا أراني عاملا في الاعتذار لاديب كلّفني وصف المتحف وآثاره . فأقول : المتحف بناء جليل . بجوار قصر النيل . وأما العاديّات التي فيه فشىء لا أعرفه ولا يتيسر لي وصفه : المتحف المصري مكتبة تاريخ . ومعجم هيروغليف . ومعرض صناعة . وهيكل عبادة . والباحث في عاديّاته يلزمه أن يعرف ـ عدا ماذكر ـ التاريخ الطبيعي والكيميا والهندسة وان يكون له ذوقٌ خاصّ فى الفنون الجميلة كالنحت والنقش والتصوير . والاّ كان شأنه أن يدخل فيرى كلَّ شىء ؛ ثم يخرج فلا يبقى في ذهنه شىء اللهم إلاّ وقفة على رأس « رعمسيس الثانى »

(١) كتبت سنة ١٣٢٦ هـ و ١٩٠٨ م

تنتزعُ المرءَ من عالم الشهادة الى عالم الغيب . وتقذفه فيها أمواج اليقين على صخور الريْب .

اذا دلَّنا النيلُ بصراحة على أن الامّةَ المصرية القديمة أمة زراعية بطبيعتها فان هذا المتحف يدلنا باكثرٍ صراحة على أنها كانت أيضاً أمة صناعية ضربت في اتقان الصنائع وإحكامها بسهم وافر

أما الكهانة والديانة والعبادة وسر الروح والموتُ والحساب والعقاب فهذا يكاد ينطق به كل أثر تقع عينك عليه فى هذا المتحف .

وقد راعت الحكومة النظير فى البناء الذى شيدته لتلك الآثار . فكان فخما مفخما مثلها : بل ربما قاسمها إعجاب الزائرين . ولفت اليه عنها أنظار المتفرّجين .

والمتحف قسمان : وقد وضع فى القسم الاسفل العاديّات الضخمة الهائلة : ففيه ألواح وصفائح حجرية كبيرة جدّاً وقد رسم عليها بالخط البربائى صور طيور وحيوانات وإشارات ورموز أخر ويتخللها صور شخوص أيضاً . وهذه النقوش تراها منبثة على ظاهر التوابيت والنواويس والتماثيل وقلما يخلو أثر منها. وأكثر مايرى بين تلك النقوش من الحيوانات صور الجِعلان (جمع جُعَل) والعجول والغربان . ثم القرود والبواشق وبنات آوى . ولا أذكر أنى رأيت مابين تلك الصور صورة فرس أو فارس فكأنّ المصريين القدماء ما كانوا يقتنون الخيول ولايزاولون الفروسية .

وقد ترى على ظاهر التابوت الحجري صورة بقرة يحلبها رجل وقد ربط عجلها من مقوده باحدى قوائمها كيلا يفلت ويضلّ .

والفرق بين التابوت والناووس أن الاول على هيئة الصندوق من الحجر أو الخشب . ويوضع على الارض كما يوضع الصندوق . أما الناووس فوضعه عمودي

وفتحته على طول الانسان المقابل له بحيث يمكنه أن يدخل من تلك الفتحة كما يدخل من باب الدار

وترى بين المعروضات موائد من حجر على أشكال مختلفة . وهي كمذابح كان يضع عليها كهنة المصريين الادوات التي يمارسون بها طقوس عباداتهم

وترى تماثيل حجرية هائلة جداً منها ماهو على اسم المعبودات . ومنها ماهو على اسم الملوك والفراعنة . وشأن المصريين كشأن اليونانيين الاقدمين من حيث أن القبيلين مزجوا بين معبوداتهم وملوكهم حتى اختلط حابلهم بنابلهم وقد نحتوا من حجر الغرانيت سفينة سموها مقدسة وكأن المقدسة عندهم هي التى يتخذونهـا للجنائز ونقل الموتى من شاطيء الى آخر . ويوجـد من تلك السفن زورقان كبيران كزوارق البحار . وباقيها مُثُل صغيرة تمثل الـكبيرة فى سواريها وأشرعتها وملاّحيها وهي فى الدور العلوي . وليس أكثر من التوابيت الحجرية والخشبية . والأولى مغطاة بأحجار منحوتة على شكل الانسان تمثل الميت المودع ذلك التابوت . أما الاخرى الخشبية فيرسم على غطائها صور ذات ألوان وأصباغ تمثل الميت أيضاً . وفى هذا القسم كثير من الاحجار المختلفة فى الحجم والشكل: فمنها العمودي . ومنهـا الهرمي . وكثير منهـا شظايا حفظت لتجمع مع مايوائمها ويأتلف معها .

أما الدور العلوي ففيه معظم العاديات وأنفس ذخائرها . وأثمن كنوزها . من ذلك مجموعة الحلي والمصوغات . ومجموعة المومياوات البشرية . وأخرى المومياوات الحيوانية ومجاميع للنسيج والخزف وأجناس المعبودات والتوابيت والأمتعة والادوات والماعون والُخرثي فى نظير ذلك مما كان المصريون القدماء يرتفقون به فى منازلهم ويعولون عليـه فى قضاء مصالحهم ومزاولة مهنهم وحاجهم . والمومياء كناية عن جثة الميت تعالج بالادوية والعقاقير ثم تشد وتلف بقطع ولفائف من

النسيج شداً ولفاً محكمين على شكل خاص فتحفظ بذلك من البلى وتصل سليمة الى الدار الاخرى . ويوجد فى المتحف من تلك المومياوات زهاء عشرين مومياء مابين ملوك وملكات وقواد وكهان وأطفال صغار . وفيها مومياء أعظم وأجل ملك قام في تاريخ مصر القديم وهو (رعمسيس الثانى) من ملوك العائلة التاسعة عشر واذا نظرت الى تلك الجثث رأيت عجباً . وباعثاً على الاتعاظ والدهشة الى حد الذهول وانفعال المشاعر . ولم يبق من تلك التجاليد الا رق من جلد على فخ من عظم . وقد تتراءى لك مزع (قطع) اللحم محمرة أو كامدة اللون . ولكنها لاطئة على الاعضاد والافخاذ حتى عادت كالجلد اليابس . ومن تلك الجثث ماهو سليم تام الجوارح . ومنها ماتشوه بهتم أسنانه أو صلم آذانه أو سمل عينه أوهشم أنفه . ومنها ما أمسى لونه اسود كالزنجي . ومنها المحمر والرصاصي اللون وما استولت عليه الكمدة .

وقد قال أبو النجم الشاعر العربي إن جذب الليالي وكرور الايام عليه حلقت شعر رأسه وميزت عنه قنزعاً من قنزع . فماذا يقول هؤلاء الفراعنة وقد كرت عليهم آلاف من السنين فوق الارض وتحتها ثم فوقها ثانية اذا رأينا شعورهم مدلاة خصلا وقنازع ذات ألوان منكرة لايدري هل هي طبيعية أو نشأت عن جذب دهر الدهارير . أو تأثير الادوية والعقاقير ؟

واذا رأى المرء هذه المومياوات تذكر ما قاله ابن خلدون من أن الاقدمين ما كانوا أضخم مناجئة ولا أطول قامة الى الحد الذي وصفه القصاص والممخرقون. وانما هم أمم أمثالنا بدليل تلك المومياوات التي عثروا عليها في المدافن والنواويس. كما ان تقليب الفكر في هذه الجثث يوحي الى النفس أن العذاب الذي أوعد به الكافرون في برازخهم لايصيب الا الروح . والا فيلزمنا القول بأن أموات

المصريين الاقدمين كانوا على عقيدة صحيحة تنجيهم من عذاب البرزخ . أوانهم لم تبلغهم دعوة رسول فما كانوا معذبين . أويقال ان صناعة التحنيط المصرية كانت تحول بين القدرة الالهية وبين التنكيل بهذه المومياوات فلا يصيبها شر . ولا يلحقها أذى . اللهم غفرا . أما المومياوات الحيوانية فلها مستودع خاص بها . وترى هناك تمساحين : طول الواحد زهاء أربعة أمتار . وسمكة طولها أكثر من متر وطيور ماء ودجاجاً وأفراخاً وكلاباً وقططاً وقروداً . وغزلاناً ووعولا وخرفانا . وهذه الاجناس الاخيرة ماثلة أمام النظارة هياكل عظام مجردة عن اللحم كما ان بعض الطيور والقرود قد اودعت نواويس تناسب حجمها . وبين هذه المومياوات كثير من الأصداف والأبواق والقواقع البحرية وعدة قطع من الذَّبْل (عظم السلاحف) — ومن بيض الدجاج وبيض آخر أكبر منه وأصغر من بيض النعام. وقد ألحقوا بهذه المومياوات الحيوانية مومياوات نباتية : فترى غصوناً وأوراق أشجار وأثمارا وضروباً أخرى من النبات وحبوباً وبذوراً وعدة أقراص من الخبز وقرص عسل من شمع النحل وكلها معالجة بالادوية والعقاقير ومحفوظة بذلك من الاندثار .

واذا حفظ المصريون أجساد أمواتهم من البلى لتقوم سليمة ساعة الحشر والنشر فلابدع إذا تداركوا لهم من أطايب الزاد وشهيّ الاثمار ما يقوون به على تحمل أعباء الحساب. ولكن ما الغرض من حفظ جثث الكلاب والقطط والقرود ياترى ؟

وقد خصصوا في المتحف مكاناً للحُليّ وأدوات الزينة . وانك لترى فيها قطعا نفيسةً جدا . واذا أدركت كنه بعضها وفقهت الغرض الذي تتخذ لأجله كالأسورة والعقود والخواتيم — فانك ترى منها مالا تعرف له مغزى ، ولا تفقه له غرضا . بل اذا حاول المرء وصفه بقلمه أو لسانه لم يقدر عليه . ومن ثمه كانت

الزائرات من نساء الافرنج يصورن ما يستحسنَّه من تلك القطع في مذكراتهن تصويراً . وقد رأيت فتاة تصور خنجراً له مقبض جميل مطوّق بالذهب ومرصع بالاحجار الكريمة . وأخرى تصور عقدا مؤلفا من عدة أسلاك نظمت فيها الاحجار الكريمة . وفصلت بالجمان وخيوط الذهب تفصيلا . وليست تلك الاحجار الكريمة مما نعهده بيننا اليوم كالماس واللؤلؤ والياقوت والمرجان . وانما هي أجناس أخر ليست منها . وليس لها بريقها وبصيصها .

ثم اذا طفت في أرجاء ذلك المتحف وقلبت طرفك بين عادياته وذخائره بصرت بأشياء وأدوات كثيرة : منها ما له مثال في مرافقنا وتكاليف مدنيتنا كالجرار والأسرة والمسارج . ومنها ما ليس له مثال كقطع من خزف أو طين على هيئة مخروط لايعرف المرء منفعتها مهما قلب فيها الطرف . وقطع أخرى متخذة من الخزف والبرنز والزجاج والمرمر والحجر والعاج وغير ذلك بحيث لا يدرى ان كانت تستعمل في مرافق منزلية أو صناعية . وترى أواني خزفية عليها كتابة فينيقية مما يدل على اتصال المعاملة والمتاجرة بين تينك الامتين القديمتين. وزوارق من خشب لها سوارٍ وأشرعة على غير الوضع المعهود بيننا . وفي تلك الزوارق صور رجال تمثل الملاحين والنواخذة وشراذم جنود بأيديهم الدرق والرماح وآخرون بأيديهم السهام والسيوف

وهناك تمثال شخص منحنٍ على ركبتيه ويداه في أجّانة أو وعاء أمامه كأنه يعجن فيه أو يغسل . وآخر بيده حجر كأنه يسحق به عقاراً . وخدم على رؤوسهم كهيئة الصناديق يمشون بها . ونعال من جلد أو خوص ومراوح من خوص ونسيج وكراسي ومقاعد وعربات على شكل غير معهود وصحاف وأزيار وأسرة لوضع المومياوات في الاحتفالات الجنائزية . وأمتعة وأواني غريبة الشكل منقوشة

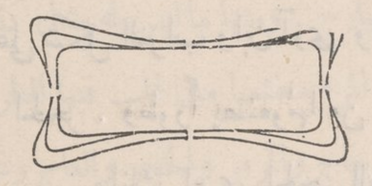
ومكتبة بالقلم البربائي القديم . وأدوات وآلات للصناع وأرباب الحرف كالبنائين والنجارين . وموازين ومقاييس ومكاييل ومثاقيل ومغازل وصناديق صغيرة من خشب مطعمة بالعاج والعظم . كما أن أخشاب التوابيت والزوارق مجموعة على طريقة التحشية المعروفة اليوم لدى أرباب هذه الصناعة . ورقوق وأدراج من البردي عليها نقوش وتصاوير ملونة بالاصباغ الزاهية . ودمى وتماثيل صغيرة من مواد مختلفة : من مثل الذهب الى مثل الخزف . تمثل موميات الأموات . وكانهم يحفظونها كتذكار لامواتهم .

وأ كثرما ترى بين التماثيل المبثوثة في جنبات المتحف تمثال الجمل والعجل وهناك تماثيل أخر على شكل الغراب وابن آوى والباشق والقرد . وهم تارة ينحتونها من الخشب أو الحجر . وطوراً يصنعونها من المعادن والفلز وآونة من اللازورد والجزع واليشب . وانك لترى الحجر الضخم بحجم حجر الرحى الكبيرة وقد نحت في أعلاه صورة جعل كبير طوله نصف ذراع أو أ كثر . وقد ينقشون الجعل تذكاراً لبعض الحوادث والامور كالجعل الذي نقش تذكاراً لاقتران « امنوتس » الثالث بزوجته (تي)

أما العجل (أبيس) فقد أبدعوا في تمثيله وتصويره . وتفننوا في الرمز الى أحواله وأطواره : أبيس واقف . أبيس رابض . أبيس على شكل رجل برأس ثور . أبيس على يمينه « أسيس » وخلفه « نفتيس » الى غير ذلك . وتماثيل المعبودات مختلفات الهيئات. متعددات الاشكال : فمعبودة « صا الحجر » يخالف شكلها معبودة « عين شمس » وتماثيل المعبودة (سلكيت) على وضع غيروضع تماثيل المعبودة (حاتحور) وغير تماثيل المعبودة (نفتيس) . هنـا معبودة في حجرها طفل ترضعه. وهناك معبود له جناحان . وقد نجم في رأسه قرنان كقرني

الشيطان . وأشرق من بينهما مثال الشمس أو القمر . وثمه آخر يرفع يديه الى السماء يمنعها أن تسقط على الارض . وأمامه معبود رأسه رأس كبش ووراءه آخر برأس سبع . وما هذا المعبود الذي أمسك بكلتا يديه ثعبانين وعقرباً وغزالاً وأسداً وقد وطيء بأخمصه رأسي تمساحين ؟ وما هذه المعبودة الأخرى التي نصفها الاسفل أفعى والاعلى امرأة ولها مكان اليدين جناحا نسر وكأنه قد بسطها لامر ؟

هذا ما وعته الذاكرة أيها الاديب. من أمر ذلك المشهد العجيب . فان كان مما يعجبك . والا فاني قائل ما قاله الواعظ في « الحبك »



نشيد الثناء

باق مابقيت الارض والسماء [1]

هبت الريح من جهة الجنوب باردة شديدة ، تراكضت قطع السحاب في الافق كما تتراكض خيل السباق ، الطيور تسرح في الفضاء فتأخذ ذات اليمين ثم تعوج ذات الشمال حائرة في أية جهة تسلك كي تأمن على نفسها من غائلة العاصفة المقبلة .

أمطرت السماء مطراً غزيراً : فطفت مياه النهر . وغمرت الاراضي على جانبيه الى مسافات بعيـدة . وكانت أمواجه تحمل علي عاتقها جثث الحيوانات التي أتلفها . وأخشاب البيوت التي هدمها في طريقه

على ذلك النهر أقيم جسر كبير ذو أقواس هائلة وأعمدة ضخمة . وفي وسط الجسر انشيء منزل صغير يسكن فيه (مأمور) عينته الحكومة لمشارفة أعمال الري في تلك الجهة .

دهمك الخطر أيها المأمور المسكين ، فاحتلْ في طلب الخلاص ، وأنقذ زوجتك وأولادك الصغار .

ماهذا الصوت الشديد ؟

الجسر يهتز كأنه يريد أن ينقض ، والامواج المتدفقة أحاطت بالمنزل من جهاته الاربع . هاهو المأمور صعد الى أعلا السطح ، وأخذ يستشرف الشواطيء ويصرخ « هلـكنا ، هلكنا ! من ينقذنا ؟ »

قطع كبيرة من الاحجار . وجذوع الاشجار . تتقلب في مجاري النهر فتصدم

---

(١) كتبت ١٣٢٧هـ ١٩٠٩ م ولموضوع هـذه المقالة اصل في اللغة الافرنسية . ومثلها مقالة (سعيد وحسني) في ص ٢٤٤ ومقالة (رؤيا منام) في ص ٢٥٨ من الجزء الاول وقد نسينا أن ننبه الى ذلك حيث نشرنا .

أقواسه بقوة . وتضغط على أعمدته بشدة . تفككت الاقواس . وترعزعت العمد. فجرفها التيار أمامه ، ولم يبق شك في قرب انهيار الجسر وسقوط المنزل .

تعالت أصوات تلك العائلة المشئومة الحظ . ودوت في الفضاء بأشد من صوت العاصفة . فكانوا يرتجفون من هول ماهم فيه . ويصرخون بصوت محزن « الرحمة ! الرحمة ! أيها الاخوان »

وكان يرى من بعد جمهور من أهل القرى والكفور تجمعوا فوق رابية . وأخذوا يتطالون الى جهة المنزل . يسترجعون ويحوقلون . ويضربون يداً بيد . معولين مستغيثين . ولكن ليس فيهم من يفكر في انقاذ أولئك المنكوبين .

متى نسمع في الفضاء صوت الشهم الشجاع الذي يغيث هؤلاء المساكين . ويبذل حياته في سبيل انقاذهم من هذه التهلكة ؟

تقطعت أوصال الجسر . وأخذ الخراب يدنو من وسطه حيث أقيم المنزل الصغير .

أظهر نفسك أيها البطل الذي يبذل نفسه في سبيل مصلحة الآخرين ، فقد حان وقتك .

هاهو أمير قد أقبل نحو القوم على ظهر جواده ينهب الارض نهباً ، وفي يده كيس ملآن أظهره للجمهور . ونادى « مائة جنيه جائزة لمن يعمل على انقاذ هؤلاء المساكين » من هو المغيث الشهم الذى ننتظره ؟ أهو هذا الامير ؟ ان الامير في الحقيقة شهم الفؤاد ، كبير الهمة . ولكننا ننتظر رجلا غيره أكثر شهامة . وأشد اقداماً . أين أنت أيها الرجل ؟ فقد طال انتظارنا لك . ماء النهر يتعالى رويداً رويدا والريح تزداد شدة في هبوبها بقدر ماأخذت شجاعة النظارة (المتفرجين) تزداد في الضعف والتناقص .

ولم يزل الامير يصرخ ملء فيه والكيس ملء يده قائلا « أين أنتم ياأهل

النجدة أين أنتم يارجال المروءة ؟» وكان الحاضرون يسمعون نداءه، ويتلحزون على الـكيس ولـكن ما كان أحد منهم ليخاطر بنفسه ويتقحم هذه الغمرة لانقاذ هؤلاء المنكوبين الذين كانت تضيع أصوات استغاثتهم سدى في وسط زئير العاصفة وضجيج اللجج.

انظر، انظر هاهو فلاح قد أخذ يدنو ويقترب من موقف القوم. نزل عن حمارته. ألقى هراوته على الارض. نزع (جلابيته) الزرقاء السميكة بعد أن وضع في جيبها سبحته الـكبيرة. ومسواكه الطويل. ولم يبق عليه من الثيـاب سوى سراويله البالية. سمع الفلاح نداء الامير. ورأى خطر الفاجعة. وقرب وقوعها. فقذف بنفسه في أول قارب رآه بالقرب منه.

الريح تعصف بشدة فتقصف الاشجار وتقذف بالاحجار. التيار يجري بقوة. ويأخذ بكلـكله (صدره) كل شيء يصادفه أمامه. ولم يكن ذلك بالذى يمنع الفلاح من الوصول الى المنزل المتداعي

لـكن ياللأسف! القارب صغير لايسع أفراد العائلة. ولا يقوى على نقلهم جميعهم بمرة واحدة. لم يضعف ذلك ايضا من همة الفلاح ولم يثن عزيمته. فجعل يدفع القارب تحت سلطان الرياح. وقهر الامواج. وينقل الرجل وزوجته وأولاده حتى أنقذهم جميعهم على ثلاث مرات. يغدو ويروح بذلك القارب الصغير بين الشاطيء والمنزل ولم يكد يصل في المرة الثالثة الى الشاطيء ويوصل من في القارب الى مأمنهم، حتى كانت بقية أعواد الجسر قد انهارت في وسط النهر وابتلعتها أمواجه الهائجة.

فياللتوفيق! ويالحسن الحظ !!

من هو الرجل الشجاع، من هو ؟

ان الفلاح عرض حياته للخطر . ولـكن هل تحسبه فعل ذلك حباً في كيس الدنانير ؟

قد تقول لولم (يخشخش) له الامير بذهبه ، ما كان هو ليخاطر برأسه .

أسرع الامير الى الفلاح وخاطبه قائلاً حياك الله أيها الشجاع الباسل . والشهم الـكريم . دونك هذا الـكيس خذه جائزة لك على حسن بلائك .

إن في بذل الامير هذا المبلغ من المال عن طيب نفس آية كبرى على علو همته وكرم عنصره .

نعم ان ذلك حق . وان صنيعه يدل على أن فيه عبقة من الشعور السماوي . ولـكن لدينا من هو أكبر همة . وأكرم عنصراً . وأعطر شعوراً . نعني به ذلك القلب الذى كان يخفق تحت تلك (الجلابية) الزرقاء .

بماذا أجاب الفلاح الامير ؟

قال له « ان حياتى ليست سلعة تجارية أعرضها للبيع . أنا فقير ، نعم أنا فقير . ولـكن بفضل الله عنـدي من الخبز ما يكفينى ويكفي عائلتي . فاحتفظ أنت بذهبك وان شئت أعطه الى ذلك الرجل المنكوب الذي خسر كل شيء »

هكذا قال الفلاح وعواطف الشعور العالى تتدفق من أعماق قلبه .

قال الفلاح هذا ثم انكفأ الى حيث كانت الهراوة فأخذها . والحمارة فركبها . ومضى الى كوخه .

ان ماصنعه هذا الفلاح لايليق أن يكافأ بالذهب . واذا كان له ثمن يصلح مكافأة له فهو نشيد الثناء ، الذي يبقى ما بقيت الارض والسماء



أمالى أدب

في لغة العرب [1]

قال عبدُ الملك ذات يوم لجلسائه : أي المناديل أفضل ؟ قال أحدهم مناديل مصر . ثم أراد أن يذكر من مزيتها وحسنها فقال : كأنما هي غِرْقِيءُ البيض . والغرقيء بكسر الغين والقاف وبينهما راء ساكنة اسمٌ للقشرة اللينة الرقيقة التي تحيط ببياض البيضة ومحها . أما قشرتها العليا اليابسة فتسمى القَيْض . ومناديل مصر بيضاء رقيقة لينة فهي أفضل المناديل .

فلم يعجب عبد الملك هذا القول . فانبرى أحد الحاضرين وقال :

أفضل المناديل ياأمير المؤمنين مناديل اليمن : اذ هي كأنوار الربيع . يعني أزهاره . وهذه الازهار تكون ذات ألوان مختلفة والمناديل التي تكون متعددة الالوان أجمل من تلك التي تصنع في مصر وتكون ساذجة ذات لون واحد

فقال عبد الملك ماصنعتما شيئاً : أفضل المناديل ما قال أخو تميم وهو عَبْدة ابن الطبيب :

ثُمَّتَ قُمْنا الى جُرْدٍ مُطَهَّمَةٍ أعرافُهنَّ لايدينا مناديل

فاستبان للحاضرين أن عبد الملك لم يُرد بالمناديل حقيقتها وانما أُراد شيئاً آخر ناب عن المناديل فى التمسح والتنظيف بها . وذلك الشيء هو أعرافُ الخيل وعُرْف الفرس بضم العين الشعر المتدّلِي على عنقه . والعرف أيضاً المعروف «لايذهب العرف بين الله والناس» . أما العَرف بفتح العين فهو الرائحة

وكان عبدة بن الطبيب هذا في فتية من أصحابه يصطادون فأراد أن يصف ماجرى له في أبيات فقال اصطدنا وشوينا وأكلنا ثمت قمنا الخ

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ و ١٩٠٩م

(ثُمّتَ) هي ثمّ حرف العطف الحقت بها التاء لتأنيث لفظها . وتكتب هذه التاء ممدودة . ومن أجل ذلك لايوقف عليها بالهاء . أما (ثَمّه) المفتوحة الثاء ويشار بها الى المكان فتكتب تاؤها مربوطة ويوقف عليها هاء . و(الجرْد) جمع أجرد : الفرس القصير الشعر الرقيقه . وهذا مما يستحسن في صفات الخيل . و (مطهَّمَة) عالية تامّة التكوين . ويروى « مسوَّمة » مكان مطهمة . والخيل المسومة هي التي ترسل في المرعى . من سامت الابل إذا رعت . أوهي التي يجعل عليها سمة وعلامة تميزها وتشير الى أنها من عتاق الخيل .

واتخاذ أعراف الخيل مناديل ذكره امرؤ القيس بأحسن أسلوب وأكمل بيان فقال :

نَمُشُّ بأعراف الجيـاد أكُفنا إذا نحن قمنا عن شِواء مُضَهَّب

(نمش) أي نمسح وننظف . ومنه سُمي المنديل (مَشوش) لانه تمش به اليد . ولاأعلم لماذا سمي (المِش) الذي يؤكل في مصر مشاً . والشواء (المضهب) هو الذي لم يدرك أي لم ينضج تمام النضج . ولعل وصفه بالمضهب اتفاق . والا فان الايدي يلزمها التنظيف سواء كان اللحم الذي تناولته ناضجاً أو مضهبا غير ناضج . وفسر بعضهم المضهب بالذي شوي على الحجارة المحماة وهي المسماة رَضْفا . وهل كان يألفون الاوساخ والادران الى هذا الحد حتى كان ابن ملكهم أعني امرأ القيس يكتفي من تنظيف كفه وقلع الدسم عنها بمسحها بشعر جواده ؟ كلا . وانما كانوا يكثرون من التطيب ويولعون به . وفي أشعارهم وأخبارهم مايدل على ذلك . لكنهم كانوا يتجنبونه في موضعين : الحرب والصيد .

فان التطيب من أحوال الرفه والدعة ولامعنى له في وقت الحرب . قال النابغة يصف قوماً طالت عليهم الحرب :

(سَهِكينَ من صدأ الحديد كأنهم تحت السَّنوَّر جنَّة البقّار)

(السهك) بفتح السين والهاء الريح الكريهة المنبعثة من العرق واللحم والسمك وصدأ الحديد . والوصف منه سهك بكسر الهاء . و (السَّنور) كحزور جملة السلاح دروع وسيوف وغيرها . كما يقال لجملته أيضاً شكة بكسر الشين وتشديد الكاف . و (الجنة) بكسر الجيم الجنّ و (البقار) موضع برمل عالج يضرب المثل بشرارة جنه وكثرتها .

وكذلك لا يفيد الطيب في قوم خرجوا يطاردون الظباء ويصرعون الوحش . فلا يلبثون أن تتلوث ثيابهم ويصيب رشاش الدم أجسامهم .

ومن طريف ما يحكى في هذا الصدد ان ابنة قيس بن خالد سيد بني شيبان كانت متزوجةً بلقيط بن زرارة الفارس المشهور . وكانت شديدة الولع به ثم قتل عنها فتزوَّجت بواحد من قومها . فكان يسمعها من وقت الى آخر تذكر لقيطا وتحن اليه . فقال لها مرة : وماذا أعجبك من لقيط ؟ قالت كل أموره معجبة . ولكني أحدثك بواحد منها : خرج يوماً الى الصيد وقد انتشى فطارد الوحش ما شاء . ثم أقبل عليَّ وفي قميصه نضخ (بالخاء المعجمة أثر باقٍ) من دم صيده . والمسك يضوع من أعطافه . ورائحة الشراب تفوح من فيه . فضمني ضمة . وشمني شمة . فليتني كنت مُت ثمة . . تمنت الموت لعلمها أنه ما عاد الدهر يسعدها فيعوضها ما سلبها . أما زوجها فلم يشأ أن ييئسها وأراد أن يؤكد لها أنه تعالى أخلف عليها بأحسن من لقيط . فتناول من الشراب وخرج الى الفلاة فاصطاد ثم رجع اليها فضمها اليه وقال : أين أنا من لقيط ؟ فتنفست الصعداء وقالت « ماء ولا كصدآء »

(صدْآء) اسم عين مشهورة بجودة مائها . ودالها ساكنة لا مشددة وبعد الدال همزتان بينهما ألف لينة .

تقول ابنة قيس لزوجها : ان ما صنعته وقصدت أن تحاكي به لقيطا قد

يسمى مباعلة ولكن ليس فيه من نشوة الحب الحقيقي ما في فعل لقيط . كما أن أي ماء شربته قد يرويني ويدفع عني الموت عطشا غير أنني لا أجد فيه من اللذة والعذوبة ما أجده في ماء عين صدآء . « لقد حكيت ولكن فاتك الشنب » .

وكما يقال شواء مضهب للذي لم ينضج يقال شواء رشراش اذا كان كثير الدهن بحيث يقطر ويصيب الجسم منه رشاش

فالرّشراش بمعنى الرشاش الا أن فيه شيئاً من مبالغة وذلك لزيادة الراء فيه . وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كالشقدف والشقندف والشقنداف . وهي أسماء لمحامل يركبها الحجاج فما كان منها أكبر اسماً كان أكبر حجما .

قال اسحق الموصلي المغني الشهير :

حججت مع هرون الرشيد في بعض السنين فلما قفلنا (رجعنا) الى المدينة آخيت فيها رجلا له سن ومعرفة وأدب (قوله له سن يريد أنه بلغ من العمر مبلغا كان له فيه وقار الشيوخ وحسن سمتهم) فكان هذا الصديق يمتعني بحديثه . وحلو خبره . فاني ذات ليلة في منزلي اذا بصوته يستأذن علي فظننت أمراً قد فدحه (أثقله . ومثله بهظه) ففزع (التجأ) فيه الي . فأسرعت نحو الباب فقلت ماجاء بك في هذا الليل ؟ فقال اذن أخبرك : دعاني صديق لي الى طعام عتيد (مهيأً ومنه قوله تعالى وأعتدت لهن متكأ أي هيئت) وشراب قد التقى طرفاه (لم أفهم ما أراد . ويخيل الي أنه يعني أن مجلس الشراب كان حافلا بالاصدقاء بحيث التقى طرفاه) وشواء رشراش وحديث ممتع . وغناء مطرب . فأجبته وأقمت معه الى هذا الوقت . ثم غنى المغني بقول نصيب :

(بزينبَ ألمم قبل أن يرحلَ الركبُ وقُلْ إنْ تَملّينا فما ملَّكِ القلبُ)

فكدت أطير طرباً من لذة ما أنا فيه ولكنني وجدت في الطرب نقصا اذ لم يكن معي من يفهم هذا كما فهمته أنا . ففزعت اليك لأصف لك هذه الحال ثم

أرجع الى صاحبي الذي دعاني . وضرب نعليه مولياً عني (ضرب نعليه كناية عن أنه تعجل الرجوع فكانت نعله تصفق بالارض تصفيقا) . قال اسحق : فقلت له قف أكلمك . فقال مابي الى الوقوف اليك من حاجة اه

مهما كان هذا المدني ذا سن وأدب ومعرفة كما وصفه صاحبه اسحق فلا نبرئه من الشذوذ أو شيء من دخل في عقله أو نقول على الاقل انه سوداوي الطبع قد غلبت عليه الماليخوليا والا فما معنى أنه يترك أصدقاءه ويسرع في ظلام الليل الى اسحق كي يشاركه في لذة طربه ثم يرجع من ساعته ولم ينتظر الغد فيحدثه بما شاء . اللهم إن لهؤلاء الموسوسين أطواراً قد تعجز عن فهمها العقول. ولكن يقال في الجملة ان صناعة الغناء لعهد بني العباس بلغت من ولوع الناس بها، وانكباب الخاصة عليها . ورفعهم لاقدار أصحابها مبلغاً عظيما .

قال سفيان بن عيينة (الامام المشهور) مرةً لجلسائه : إني أرى جارنا يحيى ابن جامع (المغني) قد أثرى وانفسحت له نعمة وصار ذا جاه عند الامراء ووافداً الى الخلفاء (أي ممن يفدون عليهم) فمَّ ذاك ؟ قالوا انه يصير الى الخليفة فيغني له قال سفيان فيقول ماذا ؟ (كأنه رحمه الله لا يعرف ما يقول المغنون لتجنبه شهود مجالسهم) فقال بعض الحاضرين يغني له بمثل قول الشاعر :

(أطوفُ نهاري مع الطائفين وارفع من مئزري المسبلِ)

(لعل رفع المئزر كناية عن الانكماش والنشاط في العمل مثل قولهم شمر عن ساعد الجدّ)

فقال سفيان : ما أحسن هذا . ثم ماذا ؟ قال ويغني أيضاً :

(وأسهرُ ليلى مع العاكفين وأتلو من المحكم المنزل)

قال سفيان : حسن والله جميل : تهجُّدٌ وتلاوة قرآن . قال الرجل وبعد هذا شيء . قال سفيان وما هو ؟ قال :

(عسى فارج الكرب عن يوسف يسخر لي ربّة المحمل)

(المحمل الهودج) فزوى سفيان وجهه (أي أداره أو أ كاده وقبض عضلاته كما يفعل العابس الكاشر) وأومأ بيده للرجل أن كف (أي دع ذ كرباقي الابيات) ثم قال سفيان : حلالا حلالا . أي اذا أردتم إنشاد الشعر والتغني به فاختاروا منه ما فيه حث على فضيلة وخير ونهي عن رذيلة وشر . وهذا هو الحلال من الغناء في رأي سفيان .

واذا كان المغنون في زمن ابن عيينة خلطوا قولاً صالحا وآخر سيّئاً . ويغنون من الشعر بما فيه حض على خير كالكسب وقيام الليل تارة . وحث على شر كتمني الاتصال بربة المحمل طوراً . اذا كان شأن مغني ذلك الزمان هذا فاني حضرت حفلةً دينية ظل حادي الذاكرين فيها (أعنى مغنيهم الذي يبعثهم على النشاط بغنائه) ينشد من أول الحفلة الى آخرها « آنست يانور العيون » ولا أعلم من يعني بنور العيون في هذا المقام ؟ وماذا كان إيناسه ؟ ولكنني أعلم أن شراح ديوان ابن الفارض لا يصعب عليهم تفسير ذلك وتأويله فيقولون في تفسير النور مثلا : إن المراد به الاشراق النفسي . والتجلى القدسي . وفي تفسير الايناس : أن المراد به توارد الاحوال على القلب الغافل فيطرب . وإشراف المريد على شيء من عالم الغيب فيجد ويدأب . اللهم عفواً .

* * *

(فهرس) نذكر فيه ما جاء في هذه الأمالي من جديد القول . ورشيق التعبير مما يجدر بالكتاب أن يحيوه بينهم . ويراعوه في كتاباتهم . نعم قد تنبو عن بعض كلماته أسماع القراء في أول الامرحتى اذا صقلته الاقلام . وتداولته الافواه . لا يلبث أن تزول الوحشة عنه . وتزداد الرغبة فيه :

(غرقيء البيض) يشبه به الشيء الرقيق . اللين . (لحم مضهب) غير ناضج (شواء رشراش) كثير الدهن (فلان له سن) أي هو شيخ طاعن فيها . (ضرب نعليه موليا) انقلب راجعاً وهو يجد في مشيته . (انفسحت لفلان نعمة) صار ذا نعمة واسعة . (زوى فلان وجهه) أكاحه أو أداره

شيخ صالح

في تياترو التمثيل [1]

صادفتُ صديقاً لي من الشيوخ الصالحين ثمه ومعه بعض رفاقه ممن يألفهم ويسر بالاجتماع بهم . فجعل الشيخ يشير الى ان رفاقه هم الذين زينوا الحضور له . وأرادوه عليه وأنه هو لايميل الى مشاهدة مثل هذه الملاهي . وكأن الشيخ آنس مني انكاراً فأخذ يعتذر بذلك .

أما أنا فقد مهدت له طريق العذر وعددت الاجتماع بمثله في مثل هذا الموطن فرصة يحسن اغتنامها . فيعرف المرء كيف يحكم هؤلاء الصالحون المتورعون على فن التمثيل . وما هو قدر تأثرهم بمشاهده . ومختلف شؤونه وأطواره .

فكان أول ما قلته له : إن مثل هذا الاجتماع قلما يخلو من محظورات ويندر ان يسلم المرء فيه من التلبس بما نهاه الشرع عنه . وهو من هذه الجهة مفيد أيضاً للعاقل من حيث أنه يتعود كبح جماح نفسه ويمرنها على الثبات والمقاومة اذا تعرضت لما يثير هواجسها ويهيج عواطفها .

فقال الشيخ على أن رؤية الناس مجتمعين في مثل هذا المكان وهم على هذه الصورة من مختلف الازياء والهيئات — تعطي النفس نشأة ومسرة خاصة لا بأس

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م

بها. دع عنك مايستفيده المرء وتتمكه به نفسه من مشاهدة الرواية التي تمثل أمامه .
وتعرض غرائبها تحت مواقع نظره . فقلت له إن عقلاء الافرنج وفلاسفتهم الذين
عنوا بهذا الفن . ونشروا مطويه في ربوعهم وبين شعوبهم — أرادوا أن ينهوا
الغاوين والمستهترين نهياً عمليا من كثرة ما رأوا أن النهي القولي يذهب ادراج
الرياح وقلما يصادف من النفوس التي استحجر فيها الهوى موضعاً للتأثر . فانظر
الى هذا المشهد الذي أمامنا الآن : فقد عرض فيه على الانظار فتاة نشأت على
غير العفاف والصيانة . فهي تقاسي من جراء ذلك الذل والشقاء . حتى همت بأن
تلقي نفسها في النهر وتتخلص من عبء هذه الحياة . فكاتب الرواية ينهى
المشاهدين بلسان حال الدور الذي تمثله هـذه الفتاة التعسة — عن أن يجعلوا
للشيطان اليهم سبيلا فيقودهم الى البؤس والشقاء كما قاد تلك الفتاة . ولسان الحال
هذا أقوى تأثيراً من لسان المقال وأشد حملة على النفس . وقمعاً لنزواتها .

وهذه فتاة أخرى عفيفة تراها على مرسح التمثيل وقد اقتربت من الفتاة
الأولى . وأخذت تعزيها وتشجعها وتضرع اليها أن لاتبخع نفسها (تقتلها) وهي
تنفحها بشيء من الدراهم لاجل أن تنفقها في سبيل تعيشها . وهو درس آخر يعلمنا
التمثيل إياه ، ويرشدنا الى أن نحسن معاملة هؤلاء البائسات ونشفق عليهن . فان
ذلك أعون على نشلهن من الهوة التى سقطن فيها . أما اذا نفضنا أيدينا منهن
وخليناهن وشأنهن فانهن يزددن تمادياً في الشرور والرذائل .

وستنظر ياسيدي الاستاذ في أثناء فصول هذه الرواية كيف أن الفتاة البائسة
المذكورة تتأثر من هذه المعاملة الحسنة فيثوب اليها رشدها . وتعود تؤثر الفضيلة
وتسلك مسالك العفة والتحصن . حتى أنها لتفدي بنفسها تلك التي أحسنت اليها
وتصدقت عليها وقد حكم عليها بالنفي .

وانظر الى هذا الفتى المسمى (يعقوب) كيف يعربد ويترنح من شدة السكر

وكيف أن أمه تلهو وتقسو. وكيف أن حالتهما تؤثر في نفوس النظارة (المتفرجين) مالا يؤثره فيها النصح مهما تفنن فيه الناصح : فالتمثيل اذن خير ذريعة للترغيب في الفضائل والتنفير من الرذائل .

قال الشيخ : ولكن الناس الذين يهرعون الى التمثيل قلما يتنبهون الى عظاته وما فيه من العبر . وهم إنما يجذبهم اليه حب اللهو . ومغازلة الحسان . والتفكه بالالحان . وهذا يمهد لهم السبيل الى الحانات التي تسلمهم يداً بيد إلى الفواحش والموبقات فليس التمثيل وفوائده هي المقصودة بالذات من هذا الاجتماع . وانما المقصود هو ما ذكرت لك . وكأن الشيخ آخذ نفسه فيما قال وحسبه سوء ظن أو طعنا في إخوانه المسلمين . وعلى المسلم أن يحسن الظن بأخيه ما وجد الى ذلك سبيلا — فاستدرك قائلا : ولكن لايخلو هذا الجمع من وجود أناس صالحين فيه . وإن السادة الشافعية يقولون في كتبهم : قلما اجتمع أربعون رجلا الا كان فيهم رجل صالح . وفي وجود هؤلاء الصلاح ما يبعث البركة . ويستجلب الخير . ويقي الاسواء ان شاء الله تعالى

فقلت له حسن ما تقول . ولكني أحب لهؤلاء الصالحين المنبثين بين المتفرجين أن لا يكتفوا بالتأثيرات الروحية . والبركات المعنوية : فان هذه التأثيرات والبركات قد تكون وقتية تزول بزوال هؤلاء الصلاح . وخروجهم من مواطن التمثيل . والاجدر بالصالحين ومن يهمهم أمر العامة من العقلاء ورجال الدين — أن يتعهدوهم بالارشاد والنصيحة . ويبينوا لهم عواقب ارتكاب الموبقات والتمادي في العكوف على الملذات . وتقحم الشهوات . قال الشيخ : ولكن العامة الذين أولعوا بهذه الملاهي ومشاهدة هذه التياترات — قلما يؤثر فيهم وعظ أو نصح . وإن أحدهم ليترك جميع الفروض ولا يترك شهود مثل هذه الرواية ويمل كل عمل يكون له من وراءه خير ولا يمل التردد على هذه التياترات . فقلت له

اني لم أرد من العلماء أن ينصحوا للشبان أن لا يشهدوا التمثيل . فان هذا لايكون ولن يكون : فان الرغبة في مشاهدة التمثيل تنمو شيئاً فشيئاً في نفوس الناس . والعقلاء يتمنون لو تكثر دور التمثيل بحيث تفي بحاجة الشعب و تساعد على تهذيب أخلاقه وتقويم اعوجاجه . ويقولون إن التمثيل في بلادنا لم يزل بعد في طور الطفولية . ويقدرون له الوصول الى طور الاشتداد والـكمال . وما كان هذا شأنه وأمل عقلاء البلاد فيه لايمكن تقليص ظله . وصد الناس عنه

قال الشيخ : ولكنهم مهما قالوا في مدح التمثيل . ومهما ذكروا له من الفوائد فلا يمكنهم أن يكابروا وينكروا أن له سيئات وشرورا أنظر الى هذه المائدة ومن تحلق حواليها . ثم أشار الى المرسح والممثلون يمثلون عليه أشراف فرانسا في خلوة لهم مع فتيات من بنات الهوى بأجمل زينة وهم يأكلون ويشربون الخمر ويغنون ويأتون من ضروب الخلاعة والمجون بما يأنف منه العفيف الكريم . وقال الشيخ إن هذا المشهد سيكون بئس الدرس للناشئين . والاغرار من المتفرجين : يتعلمون منه مايضرهم ويذهلون عما ينفعهم .

فقلت إن التمثيل كالحقل : ينبت فيه أحرار البقول (جيدها) ويتخللها كثير من النباتات الضارة . ولا يحسن بالفلاح النشيط ان يهمل الحقل غيظا وحنقا . فان هذا يساعد النباتات السامة علي النمو والاشتداد فتخنق البقول النافعة. وتلتف حول الاغراس المثمرة فتتلفها وتميتها . والفلاح الحاذق الفطن يعمل على تنقية تلك النباتات الضارة من بين البقول النافعة . ويتعهدها من وقت الى آخر حتى يستأصلها أو يقللها فلا يعود يخشى منها . وهكذا العالم الفطن الذي يهمه اصلاح المجتمع وتهذيب العامة . تراه يجاريهم في أعمالهم ولا يجري معهم في شرورهم . يلاحظهم من حيث لايشعرون فيمدهم بوسائل التربية والتهذيب . وينزع من بينهم وسائل الفساد والشر . أما إهمالهم والاعراض عنهم بالمرة أو مقاومتهم

ومصادرتهم فيما اعتادوه وألفوه بالقوة ـ فان هذا وذاك لايأتي بخير . وليس من الحكمة وحسن السياسة في شيء .

أما ما رأيته أيها الاستاذ في المرسح من تبرج النساء . ومعاشرتهن الرجال على هيئة التهتك والخلاعة ـ فهذا ليس لمجرد اللهو . ولا لاجل أن يتمتع الحاضرون برؤية جمال النساء . وانما القصد منه شيء آخر يكاد يكون أساس التمثيل وقوام أمره :

التمثيل يريد أن يصور لنا حالة أشراف فرنسا فيما مضى من الزمن . وكيف كانوا يلهون ويعاقرون ويرتكبون المنكرات . ويعاشرون البغيات . وهذا التصوير لايتأتى مالم نقلد فيه الحقيقة التي تقع في الخارج . ونتحرى في تمثيلها وعرضها على أنظار المتفرجين مطابقتها للاصل بحيث تكون كأنها هو . وكلما كانت هذه المطابقة وافرة كاملة كان التمثيل أتقن والتأثير أبلغ . بحيث تنفعل النفس مما تشاهده انفعالها بمشاهدة الحقيقة ذاتها . وانظر كيف ان سيدنا سليمان صلوات الله عليه راعى هذا في قصته مع بلقيس واجتهدفي أن يمثل لها الماء كأنه يترقرق حقيقة بين يديه . وما كان في الواقع ونفس الامر الا صرحاً ممرداً من قوارير « قيل لها ادخلي الصرح . فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها » (سورة النمل) فأطرق الشيخ حينئذ وجعل يفكر في الآية . وينظر فيما إذا كان ما فعله سليمان هو من قبيل التمثيل الذي يعرفه أهل هذا العصر أو أن له به علاقة ما . لكني قطعت عليه حبل التفكير وقلت له : وسترى بعد هنيهة كيف أن التمثيل يصور لك مبلغ دعارة أشراف فرنسا في القرون السالفة حتى إنهم يرسلون من رجالهم من يخطف لهم الفتيات المحصنات الجميلات من قارعة الطريق نهاراً ليتمتعوا بهن ويلوثوا عفافهن أنظر هذه هي الفتاة التي خطفوها . قد أحضروها الى مجالس الاشراف . واسمع لها كيف تجادل عن نفسها وتقرع الاشراف على غوايتهم وفسقهم . حتى

أثرت في نفس بعضهم . فحملته على انقاذها . ومبارزة أحد زملاءه وقتله من أجلها . ولا يخفى عليك أيها الاستاذ أن التمثيل لو عرض على أنظارنا أشراف فرنسا وحدهم من دون ان يكون بينهم نساء – لـكان عمله سدى ولا معنى له . ولو عرض معهم نسوة مشوهات قبيحات غير متأنقات بالزينة والملابس – لما كان مصوراً لنا الحقيقة التي تقع في الخارج عادة : فان أشراف فرنسا ما كانوا يعاشرون المشوهات . ولما كان حصل التأثير المطلوب والمقصود من تمثيل الروايات

على أن التمثيل في بلادنا قد يراعي فيه أهلوه العادات والآداب القومية ما أمكن حتى انهم يغفلون من الاعمال ما يستدعي الواقع تمثيله وتصويره . فان الرجل في أوروبا قد يقبل المرأة الاجنبية عنه احتراماً لها وتكريما . والممثل ثمه قد يقبل الممثلة على مرأى من المتفرجين سواء كانت عشيقة له أولا . دع عنك ما اذا كان التمثيل يفرضها أمه أو خالته . أما الجوق هنا فانه يترك ذلك ويتجنبه ولو خالف الحقيقة – مراعاة للآداب والاذواق . واذا حضرت رواية (تليماك) وشاهدت الفصل الاخير منها رأيت تليماك ينكب على أبيه (عولوس) يوسعه تقبيلا ولثما . ويتحاشى أن يقبل أمه أو يضمها . وهذا مخالف للذي يقع عادة في الخارج : فان المرء اذا غاب عن أمه وانقطع خبره عنها فظنته هلك ويأس هو من الاجتماع بها ثم اجتمع بها لا يملك نفسه عادة من لثمها وتقبيلها . لكن الجوق هنا يراعي الآداب العامة فيتجنب جهده مالا يلائمها

قال الشيخ : وحبذا لو أكثر الجوق من هذه المراعاة والتجنب . فيكون ذلك سبباً لاقبال العلماء وذوي الهيئات على حضور التمثيل والتمتع بمشاهده وفوائده

ثم قال الشيخ : واذا دققنا النظر في مشاهد التمثيل وعرضناها على محك الانتقاد الشرعي لم نر فيه ما يستنكر شرعاً الا تبرج الفتيات وظهورهن بأبهى زينة أمام قوم معظمهم من الشبان الذين لايقدرون أن يملكوا قياد أنفسهم .

ويكبحوا جماح أميالهم . وأرى أنه لو خلا التمثيل من هذا النقص لما كان ثمه ما ينكره الشرع اللهم الا القليل التافه . فقلت ولكن من الاسف يا أستاذ أن ذلك غير ممكن . وأن الذي سميته نقصاً هو التمام بعينه أو هو روح التمثيل الذي لا يقدر أن يحيى من دونها . ولو كنت ياسيدي الاستاذ تعرف شيئاً من سيرة الممثلة الشهيرة (ساره برنار) ومالها من التأثير في فن التمثيل ـ لعلمت أن صناعة التمثيل صناعة نسائية . وأن منزلة الرجال فيها ستكون بعد منزلة النساء .

فقال الشيخ اذا كان ما تقول حقاً . وان التمثيل لا يمكن تقايص ظله من بلادنا وان النساء روحه وقوام حياته ـ فيمكننا أن نجد لاخواننا المسلمين المبتلين بهذه الآفة آفة الولوع بالتمثيل ـ مخلصاً شرعياً نستند اليه ونطبق عملهم عليه بحيث لايكونون في فعلهم هذا مرتكبين مأثما . فان النظر الى المرأة الجميلة المتبرجة غير جائز وقد قالوا إن الاصرار على الصغيرة كبيرة .

قلت وما هو ذلك المخلص ؟ قال ذكر علماؤنا رضي الله عنهم أن المرأة اذا كانت برزة مترجلة كان حكمها حكم الرجل ولا يعود يحرم النظر اليها . وهؤلاء الممثلات من قبيل المترجلات . فلا جناح في النظر اليهن.

قلت ولكن يا أستاذ هذا التطبيق أو الفتوى إذا جعلتها مخلصاً لغواة التمثيل فلا تنس الذين يجلسون في سبلندبار واوبره بارونيوبار ـ ولا المتنزهين في الجزيرة ولا الماشين في الموسكي : فان كل هؤلاء ينتظرون رحمتك في أن تطبق الفتوى عليهم ولا تجعلهم آثمين برؤية المتبرجات الاجنبيات . ولا من قلدهن أو أربى عليهن من الوطنيات . فان هؤلاء وأولئك ممن يصح أن يطلق عليهن اسم المترجلات .

وبعد يا أستاذ فاني لا أحب للعلماء والعقلاء أن يلقوا حبل العامة على غواربهم فيحكموا عليهم بأنهم عصاة مذنبون أو ناجون متأولون . ثم انهم على كلا الحالتين

ينفضون أيديهم منهم . ويعرضون عن إرشادهم وانتشالهم من وهدة غوايتهم : فان هذا يرجع بالضرر والخسران على مجموع الشعب . ومعظم التبعة فيه على علمائهم وزعمائهم قل الشيخ وهو كذلك . فتح الله عليك . وتحفز للذهاب قبل الفراغ من التمثيل لانه يريد أن يستيقظ لصلاة الصبح في السحر حسب عادته . وودع وانصرف

الخلافة

اليوم وأمس (١)

ذكرتُ جبين العامرية مذ بدا هلال الدجى والشيء بالشيء يُذكر

كما كان الهلالُ مما يصحّ أن يذكر الشاعر بجبين العامرية لما تخيله بينهما من الشبه — كانت خلافة مراكش اليوم والنزاع عليها مما يصح أن يذكّر بالخلافة في الأمس لما يعلمه المؤرخ من تماثلهما . ووحدة أمرهما .

لما توفي سلطان مراكش أوصى بالملك الى ابنه عبد العزيز السلطان الحالي . وفي إخوته من هو أكبر سناً . وأغزر علماً منـه . ولماذا ؟ لان أمّه كانت ذات حظوةٍ لدى أبيه !!

ولما اوتي عبد العزيز الملك لم يحسن سياسته . وضعُفَ عن القيام باعبائه . فاضطرب حبل البلاد . وطمع الاجنبي فيها . وأخذت رؤوس الفتن تنجم في نواحيهـا . كما تنجم قرون الماعز . حتى كانت الحوادث الاخيرة فاحتلت فرانسا بعض الثغور . وقام على أثر ذلك مولاي الحفيظ يجاذب أخاه زمام الملك ويناقشه الحساب وهاهما الآن يتحفزان للصدام وفصل الخصام . بحد الحسام .

رواية الخلافة والاستماتة في الحصول عليها من الروايات التي كانت تمثل

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و١٩٠٧ م .

في القرون الاسلامية السالفة . وإن لاهل أوروبا وُلوعاً بمشاهدة تمثيل الروايات . لاسيما أن رواية اليوم على باب دارهم . ومرسحها تحت مواقع أنظارهم .

وقد كان جرى تمثيل أخت هذه الرواية منذ أربعة قرون في العُدْوة الثانية المصاقبة لعدوة مراكش : أعني (غرناطة) حيث كان خليفتان يتواثبان في داخلها . والاسبانيول يشددون عليها الحصار من خارجها . حتى خارت قوى الغرناطيين . فاستسلموا للعدو صاغرين . وجلوا عن البلاد مدحورين .

لم يقصر التاريخ . فهو يعيد لنا نفسه من وقت الى آخر لكي نعتبر ونزدجر ونأخذ بالحزم في شئوننا وسياسة بلادنا . ولكن قلَّ المعتبر وأقلُّ منه المزدجر .

الحكومة في البلاد كمضغة القلب في الجسد : إن صلحت صلح وان فسدت فسد . أدرك أهل أوروبا هذا فكان لهم مع الحكومة شأنٌ يذكر . ولم يزالوا بها حتى خضدوا شوكتها . وأنزلوها على حكمهم من شاهق منعتها .

ومن يوم انتظم أمر الحكومة في أوروبا . ومشت على سنن السداد في قيامها وتكونها وانتخاب رئيسها — انتظم حال تلك البلاد وتوفرت فيها أسباب الراحة والهناء ووسائل الحضارة والعمران حتى رأينا من آثار ذلك ماكاد يكون من خوارق الطبيعة .

ومن مدهشات القدر أن تستفيد اليابان من حالة أوروبا هذه وهي منها على بعد ألوف من الأميال فترتقي حكومتُها ويتّسِقَ أمر زعامتها — ثم تبقى مراكش وهي على بعد بضعة عشر ميلا من أوروبا متسكعة في ظلمات الجهل والاستبداد . وقد عادت رواية « الخلافة » والنزوان عليها تمثل في ساحاتها . كما كانت تمثل في قرون ألف ليلة وليلة .

***

مهما اختلفنا فيما عساه أن يكون نوع الحكومة الذي قرره الدين الاسلامي

لا ينبغي أن نختلف في أنه شيَّدَ بناءَها على قواعد أربع (١) أن يكون للامة رئيس (٢) أن يكون أهلا للرئاسة (٣) أن ينتخبه أهل الحل والعقد (٤) أن يكون أمره في رئاسته شورى .

ومنزلة الرئيس في الاسلام بمنزلة الرئيس في الجمهوريات الحرة . غير أن هذه الجمهوريات تضرب لرئيسها مدة معينة . وأما الاسلام فان مدة رئيسه هي مدة استقامة ذلك الرئيس ومراعاته لشروط الخلافة وصلاحيته للقيام بأعبائها . فاذا فسد عزله من ولاّه . أو انعزل من نفسه فلم يعد ينفذ له حكم .

وكلُّ من قرأ تاريخ الامم الاسلامية وبحث عن علة شقائها وسبب انحطاطها وجده لا يعدو هذه الرئاسة . وحبٌّ الاستئثار بها .

وليس السبب في الحقيقة سوى الامر الثالث من تلك الامور الاربعة أعني انتخاب الرئيس والحيرة في طريقة انتخابه من بين سائر أفراد الامة انتخاباً يذعن له أولئك الافراد . ويكون بينهم من التضامن ما يكبح جماح الناشز منهم .

هذه الرئاسة أشرف بل أقدس وظيفة في الاسلام . وكل فرد من أبنائه يطمح ببصره اليها . ان لم يكن لأجل المثوبة الاخروية فلأجل المظاهر الدنيوية التي لا تفارقها وقلما يخلو أحد من الميل اليها .

علَّمنا الدين أن ننتخب رئيساً قادراً وسماه « إماماً » وأباح لنا أن نسميه بما شئنا فسميناه « خليفه » . ولكن الدين لم يعلمنا طريقة انتخاب ذلك الرئيس . أعطانا صفات المنتخَب (بفتح الخاء) وما يجب أن يكون عليه من المواهب والمزايا والاخلاق وما يسمونه أدوات الرئاسة . ولكنه لم يعطنا صفات المنتخِب (بكسر الخاء) ومزاياه والشروط التى يلزم أن تتوفر فيه . وما هو عدد اولئك المنتخبين ؟ وكيف يعملون اذا اختلفوا وتضاربت آراؤهم أو تعددت مشاربهم . نعم لم يعلمنا الشرع هذا بالتفصيل . وانما علمنا إياه بالاجمال . وبما انطوى تحت

أصوله العامة . وقواعده الاساسية من الهداية والارشاد . وقد وكل تفصيل ذلك والعمل به الى ذوي البصيرة والرأي من المسلمين . انظر الى عمر بن الخطاب كيف عهد بانتخاب الرئيس بعده الى ستة نفر من أهل الحل والعقد . ثم علمهم كيف ينتخبون . وكيف يعملون اذا تنازعوا أمرهم بينهم . ولما أجمعوا على أمر أذعن الكافة له . واطمأنت نفوسهم اليه : لانه نتيجة نظام وترتيب معقول يوائم اصول الدين العامة ، ويلتحم مع مقاصده السامية في إسعاد بنيه . واتساق شؤون متبعيه .

قد يكون فى الصحابة من لم يرضه الانتخاب ونتيجته . ولكن هل تحسبه كان يقدر أن لا يخضع له ؟ ولم ذلك ؟ لان الانتخاب بنى على نظام عام لم يجعل فيه مساغ للاهواء والاغراض الشخصية . وقد ارتضاه أولو الحل والعقد من المسلمين

صنيع عمر فى تقرير طريقته هذه لانتخاب الرئيس من خير الذرائع لضبط الامر . وعدم انتشاره . ولا نعلم ان كان عمر فعل ما فعل قياساً على شيء من مثله ورد فى الدين أو أنه استنبطه من عند نفسه وقرره لما رآه ملتحما مع أصول الدين أو ان بعض العارفين بطرائق الامم القديمة فى انتخاب الرئيس أشاروا عليه باقتباس ذلك عنهم فاقتبسه : كما اقتبس وضع التاريخ وترتيب الدواوين

وقد اقتبس صلى الله عليه وسلم من الفرس طريقة حفر الخندق حول المدينة تحصيناً لها من مفاجأة العدو

واقتبس الخلفاء بعد عمر كثيراً من شؤون الادارة مما كان معروفا عند الامم الاخرى ويجهله العرب كل الجهل

وقد كان لدولة الرومان ولجمهوريات اليونان القديمة طرائق وتراتيب خاصة

مضمونةٌ بينهم لأجل انتخاب الرئيس . فلا يبعد أن يكون بلغ عمر شيء من ذلك فاستحسنه وقرره . ولو وفق المسلمون الى الثبات على هذه الطريقة المثلى التي أشار بها عمر أو الى وضع آخر يماثلها فى دفع الشغب ودرء الفتنة بحيث يؤاخي مقاصد الدين العليا . لما كنا رأينا ما رأيناه فى تاريخ الاسلام السياسي من انتكاث الفتل . وانقطاع الحبل . حتى صار يتسنم تلك الرئاسة كل من لم تتوفر فيه المزايا المشروطة لها وان توفرت فيه كل وسائل الغلبة عليها . والاستبداد بها

لا يقال ان طريقة عمر هذه لم تنتج الا ما نعلم فظاعته من فتنة عثمان ـ لان تلك الفتنة وأذنابها اذا لم تكن أسبابها أبطالها أنفسهم ـ فان لها أسبابا أخر لا علاقة لها بذلك الترتيب والنظام الذى وضعه عمر أصلا . ولو راعى أرباب الحل والعقد ذلك الترتيب ووسعوا دائرته ووثقوا عروته ثم تجنبوا ما أمكنهم الاسباب الاخر التى قد تفسد عليه عمله من مثل ما حصل فى فتنة عثمان ـ لو فعلوا ذلك لكان حال العالم الاسلامى على غير ما هو عليه اليوم . ولكانت الأمة الاسلامية فى مقدمة الامم ـ ان قدر الله أن تعيش معها أمم

*
* *

لما ذهل المسلمون عن الطريقة التى أرشد اليها عمر فى انتخاب الرئيس لم يجدوا امامهم طريقة سواها ـ الا استثارة العصبيات وجعلها وسيلة للتغلب والنزوان : فمن كانت عصبيته أقوى وساعده أشدّ فاز بما أملَ . والا كان نصيبه الخيبة والفشل .

والقوة والعصبية دولة بينما تكون اليوم متوفّرة لهذا اذا هى من الغد فى جانب خصمه . فلا تستقر رئاسة أساسها العصبية — فى نصابها . أو تستقر الريشة فى

الرياح ومهابها . هذا ماحمل معاوية على البيعة لابنه يزيد وجعلها هرقلية تنال بالوراثة وتحويلها الى ملكٍ عضوض كما أخبر بذلك الصادق المصدوق (صلى الله عليه وسلم)

لا جرم أن انتخاب رئيس توفرت فيه الاهلية — من عامة المسلمين أسلم عاقبة من نصب شخص بعينه لكونه انحدر من صُلب شخص بعينه ولكن هذه الطريقة الاخيرة على ما يحاذر من سوء مغبتها — خير من انتشار الامر وتركه للاقوى عصبية أو الاكثر همجية .

فصنيع معاوية حسن . والحسن فيه حصْرُ الرئاسة فى أُسرةٍ معينة . ولكن ربما لم يكن من الحسن فى شىء أن يكون ابنه أول الوارثين . وطليعة الملوك الجائرين .

ولما لحظ معظم الصحابة (رضوان الله عليهم) ما فى صنيع معاوية من الحكمة والسَّداد ارتضَوْه وأقروه عليه .

نعم إن توريث الملك لم يمنع تعدد الخلافة فى الاسلام . ولم يقطع عرق النزاع من أجلها بين المسلمين — لكنه بالجملة خفف الشر . وقلل عدد الاسر المالكة : فمهما تأثر تاريخ الاسلام متأثر لا يجد زمناً تجاوز فيه عدد تلك الاسر العشر . ولو كانت طريقة التوريث محظورة وكانت الخلافة لمن غلب عليها بقوة عصبيته وحدة شوكته وسعة حيلته لطما الشر وتضاءل شخص الاسلام ولكان فى كل مدينة أو قرية أمير المؤمنين ومدع بالخلافة عن رسول رب العالمين

انقضت القرون الاولى والوسطى والرئاسة فى الاسلام على ماوصفنا من الإرث والتوريث حتى استهلت القرون الأخيرة . واستهلّ معها العلم وأشرق نور العقل في ربوع الغرب . فرجع أهلوه فى الرئاسة الى الطريقة التى علم بها الدين ورضيها لنا : أعنى إلقاء مقاليدها الى من توفرت فيه الجدارة وشروطها مهما كان

من شأنه . والى ذلك الاشارة فى الحديث « أطيعوا ولو ولي عليكم عبدٌ أسود كأن رأسه زبيبة » يعني أطيعوه لتوفر الاهلية فيـه ولا تنظروا الى نجاره ومنبته وأصله وفصله . وهذه البلاد الاميركية اليوم لاأظنها تبخل برئاسة جمهوريتهـا على واحد من زنوجها كأن رأسه زبيبة إذا قويت فيه الثقة . وصحت منه العزيمة .

وقد كان أوّل من كسر قيود التقليد وحطم الطرائق القديمة فى أمر الرئاسة العامة — الامة الفرنسوية . ثم اقتدى بهـا بعض الامم وتحفز البعض الآخر للاقتداء لولا أن الأسر المالـكه تنازلت عن حقوقها أو استبدادها وجعلته ثمناً لبقاء الملك في أعقابها .

فـكان الملك الوارث أشبه برئيس جمهوريّ مقيد بمجلس أعيان ونواب . وكانت مملـكته ملـكية في الظاهر جمهورية فى الباطن لأن الحـكم للجمهور . والـكلمة النافذة للشعب

وهذا الملك (أدورد) ملك انكلترا لاينفذ له أمر مالم يوافق عليه مجلسا الأعيان والنواب . ويسمى مجموعهما البرلمان .

استفاد الغربيون من هذه الطريقة في تقيد الرئاسات وانتخاب الرؤساء . ونحن معشر المسلمين في ذلك على خلاف مايأمر به الشرع . ويشير به العقل . وتحض عليه التجارب : فيعهد الرئيس منا الى من شـاء من أبنائه بالرئاسة وان لم تتوفر فيه الشروط اللازمة كما فعـل سلطان مراكش في العهد الى ابنـه السلطان الحالي وإذا ضعف رئيس عن القيـام بوظيفته ضقنا به ذرعاً . وأعوزتنا الحيل للتخلص من شره : فاما أن نعرك الأذى بجنوبنا . أو نستسلم الى الثورات والفتن والانقسامات كما هو شأن مراكش اليوم . أو يتغلب علينا الاجنبي كما هو شأن غير مراكش قبل اليوم . فالرئيس لم نقرر طريقة انتخابه . والوارث لانقدر على تقييده . والثائر لانقوى على كبح جماحه . والاجنبي لاطاقة لنا بجنوده

(فياقومِ هلْ من حيلةٍ تعرفُونهـا أشيروا بهاواستوجبوا الشكرَ من ربي)

تأثير القدوة والوسط

في الأخلاق (١)

اذا اتخذتَ تصوير اليد صناعةً لك واردت اتقانها والاجادة فيها. كنت مضطراً أن تضع نصب عينيك صوراً تقلدها. وتحتذي مثالها

وبديهي أنك اذ ذاك لا تختار من هذه الصور قاعدةً لك الا ما كان حسناً بالغاً حدّ الاتقان في الصنعة. وتتجنّب جهدك الرسوم القبيحة المشوّهة. واذا ظفرت بصورةٍ من عمل (رفائيل) الشهير عددت نفسك سعيداً موفّقاً

هذا هو مبلغُ عنايتك في تصوير صورة تنقشها اليوم فتتلف غداً: فكيف ينبغي أن تكون عنايتك بتصوير نفسك. وتكوين أخلاقك التي تتمتع بطيبها وتورثها لسلالتك وتجعلك حديثاً لمن بعدك

(وانما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن روى)

تصويرُ نفسك يتوقّف على خليطك وعشيرك فأنت من حيث تدري ولا تدري تنْعمُ النظر فيه. وتستجلي ظواهره وخوافيه. شأن المصوّر في الرسم الذي أمامه. ثم تنتقش أخلاقُ خليطك وطباعه في نفسك. لا كما تنطبعُ الصُّور في المرآة بل كما يثبت النقشُ في الحجر. ومن ثمّ قيل في مأثور الحكم «أخبرني من صديقك لأخبرَكَ مَنْ تكون»

فعلى المرء بالنسبة لنفسه ولمن يربّيهم من أولاده وتلامذته أن لا يدعهم يتعرّضون للعشرة السيئة ولا يصاحبون من الخُلطاء الا من تكون آدابه وأخلاقه صورةً حسنة يصح أن يأخذوا عنها صورة لأنفسهم التى هي أعزّ شيء عليهم

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ و ١٩٠٩ م

وتأثيرُ البيئة (الوسط) في المرء قد لايكون اختياريا وانما يكون قسرياً ينفعل المرء به من حيث لا يشعر : فان النفس تتأثر بما تراه . والروح تفْرغ في قوالب العوامل التي تحيط بها . وتأخذ شكل تلك القوالب وهيئتها .

(أصبحتُ منفعلا لما تختاره مني ففعلي كله طاعات)

واذا لم يكن انفعالُ النفس بما يحيط بها عن طريق التأثير العصبى فهو قريب منه . ومثال انفعال النفس انفعالا عصبياً أن تنفعل نفس عمرو حين يتثاءب خالد أمامه فتغلبه أعصابه . فيأخذ في التثاؤب. وقد يأتى بعض الظرفاء فيقفُ في باب قهوة مكتظة بالناس . ثم يأخذ بالتمطي والتثاؤب على مرأى منهم . فتعديهم الثؤباء . ولا يملكون ردها . وقد ذكرت فتاة عن نفسها قالت : انها فقدت شهوة الطعام . وأخذ جسمها من جرّاء ذلك في النحول حتى اعيا الأطباء أمرُها واتفق أخيراً ان رأت بستانيَّ جنينة أبيها قعد بَعْدَ لغوب شديد في ظل شجرة . وأخذ يأكل غداءه . ويلتهم الخبزَ والبصل الذي بين يديه التهاماً ذريعاً . وكان في أثناء ذلك يحرّك أعضاءه . ويشحو فمه (يفتحه فتحاً شديدا) ويمضغُ بعنف . ثم يتناول القلة من جانبه فيكرعُ منها الماء كرعاً كرعا . قالت وقد أثر فيها صنيعه هذا وأحدث لها اشتهاء للطعام فطلبت الاكل . وهكذا شُفِيَتْ من مرضها العضال

ومجمل القول أن أمرَ القدوة وتأثيرها في الناشئين ممّا لا يخفى على أحد . وانما موضع الخفاء أوالصعوبة هو كيف نتنبهُ لتأثير القدْوة . وكيف نتقي شره ؟ ولا يمكن اتقاء هذا الشر بحبس الوليد في البيت . والحيلولةِ بينه وبين كلّ عشير وخليط .

هذا لايتيسر أبداً . وان تيسر فان ضرره أكبر من نفعه . إذ ينشأ الولد عيًّا فدما (غبيًّا) جاهلا . وقد رووا انه كان لاحدهم مهر كريم . فمن كثرة حبه

له . وحذره عليه . كان لايخرجه من اصطبله . ثم اتفق ان أخرجه مرة فبهره الضوء . وأفقده بصره . فالمخالطة والمعاشرة على كونها موضع خوف وحذر هي ضرورية للناشيء . وعاملة على تكوين أخلاقه . وظهور السجايا المندمجة في مطاوي نفسه .

فليسلم الاب ابنه الى الخادم والخادمة والاستاذ والتلامذة الذين يخالطهم في قاعات الدرس وساحات اللعب ويرافقهم في مسارب الطرق غادياً رائحا بين البيت والمدرسة — يسلمه اليهم ثم يطلب الحفظ والتوفيق من الله .

وهل تمت وظيفة الأب حينئذ ؟ كلا . وانما عليه ان يراقب سير الولد . ومختلف أطواره من وقت الى آخر . فيتساءل عن أولئك الخلطاء والمعاشرين حتى اذا استوثق من حسن حال الاستاذ واستقامة أخلاقه . تفحص أمر ابنه ومن يعاشر من أولئك التلامذة . وهل يتردد بعد خروجه من المدرسة على أحد الباعة : فيشتري فواكه ولعبا . ويقتني أقلاماً وكراريس ؟ بل يتفحص أخلاق الخادم والخادمة . ليعرف كيف يعاشران ابنه . وكيف يودعان نفسه أخلاقهما وطباعهما .

ومن هنا حدثت وظيفة جديدة للأب : عليه أن يختار من الخدم من يكون على شيء من حسن الاخلاق واستقامة الطباع . واذا آنس فيه زيغاً قومه ولمشعثه بقدر الامكان . ليعود ذلك بالخير على طفله

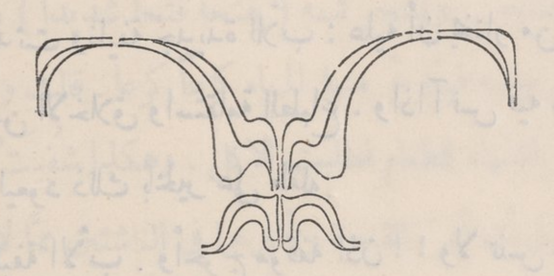
ما أكبر وظيفة الأب . وأحرج موقفه اذن ! ! ولا تنس ما اذا آنس الأب من زوجته أم ولده بعض الاخلاق الرديئة والطباع الملتوية . فانه حينئذ تتجدد له وظيفة أخرى أعنى تنبيه الأم الى سوء خلقها . وتحذيرها من أن تسري عدوى ذلك الى طفلها . الساذج النفس . النقي القلب . وكيف يمكنه ذلك ؟ كيف يمكنه أن ينشيء زوجته خلقاً جديداً . وهي ربما تعد التعرض لها في أخلاقها خرقاً لحرمتها . ومساً لكرامتها . فتنفر من زوجها وتحمل قوله على إرادة التعريض

بها . والتلميح الى تفضيل غيرها من أترابها عليها .

دعنا من الخدم والاستاذ والزوجة . ولنستعرض الأب نفسه . لنتثبت من أخلاقه . لنعرف إن كانت نفسه صورة متقنة يصح أن نصور نفس الطفل عليها ونفرغه في قالبها

اذا لم يكن الأب وطباعه من الاستقامة بحيث يصلح قاعدة لتربية ابنه — فهناك الخطر عليه وعلى مستقبله .

فمن نظر فيما ذكرناه تبين له أن الوسط الذي يتقلب فيه الطفل من أول ما يجب أن يهتم به المربي ويفتح عينيه لمراقبته . وهو وان لم يمكنه أن يجد لابنه وسطا نقيا بريئاً من كل وصمة لاسيما أن حالتنا العائلية والاجتماعية على ما يعلم القراء — فانه بيقظته وانتباهه يمكنه أن يدفع عن ابنه غوائل كثيرة . ويقيه شروراً وبيلة وما لايدرك كله لايترك قله



تمرين

على الكلمات العشرين (١)

كان حضرة السريّ الفاضل (احمد بك تيمور) أهدى الى أبناء اللغة العربية على صفحات (المؤيّد) عشر كلمات من فُصُح اللغة راجياً أن تخالف مايمعناها من الكلمات الدخيلة أو المولدة. ثم أهدى اليهم أيضاً عشر كلماتٍ أخر من هذا القبيل نشرت في (المؤيد). وان كان ثمه من ينازع في الكلمات الدخيلة وانه لاداعي الى اهمالها وقد أصبحت بعد استعمالها والتفاهم بها عربية — فليس أحدٌ ينازع في أن تلك الكلمات الفصحية العشرين وأمثالها مما يجب تناوله ثم تداوله. ولذلك فائدتان:

(١) ان شيوع أمثال تلك الكلمات يساعدنا على فهم كلام العرب وأقوال فصحائهم التي تتضمن من الفصيح شيئاً كثيراً. وان جهلنا لتلك الكلمات الفصيحة يجعل أقوال المتقدمين أشبه برموز. أو طلاسم كنوز.

(٢) اذا شاعت تلك الكلمات الفصيحة وكثر عديدها بيننا اتّسعت دائرة لغتنا. وغزرت مادتها. وجارت بقية اللغات الحية في النمو والانتشار. وبالجملة فان احياء كلمات اللغة العربية غير المستعملة عامل على احياء تلك اللغة بشرط أن تكون الكلمة من تلك الكلمات سهلة في اللسان خفيفة على الآذان — وبشرط أن لانقاوم الطبيعة فنبذل الجهد في اماتةِ الكلمات الدخيلة المتعارفه مثل «طاقية» «عطفة» «يشمق» «عزبة» «معدّية» «سردين» الخ. فنكون بذلك عاملين على تأخر اللغة. وإقامة العوائير في طريقها بينما نحن عاملون من جهة ثانية على نهضتها. وتوسيع خطاها في سبيل تقدّمها.

---

(١) كتبت سنة ١٩٠٨ م.

وماذا يضر أن يكون لذلك السمك الصغير أسماء متعددة : منها العربي : كالصير . ومنها المعرَّب كالصَحْناة والسَّردين — وهذه الخمرة لها اسماء كثيرة متداولة على ألسنة الفصحاء : منها عربي كالصهباء . ومنها المعرب كالخندريس .

ثم إن احياء كلمات قديمة لتنوب مناب كلمات أخرى دخيلة — لا يكفي فيه ذكرها وسردها في الجرائد . وقد كان المجمع اللغوي الذي ألف في مصر منذ سنين جمع بعض كلمات من هذا القبيل فلم يكن حظها منا سوى أن نتذكرها من وقت الى آخر تذكراً

وتلك الكلمات التي جمعها أديبنا المومأ اليه ونبه الاذهان اليها سيكون حظها منا حظ تلك إذا بقينا مُعرضين عن استعمالها في كلامنا وايداعها منظومنا ومنثورنا .

ولا شيء ينفخ روح الحياة في تلك الكلمات مثل أن يتداولها الادباء على أسلات ألسنتهم . ويتعاورها الكتاب بأسنة أقلامهم . فان ذلك هو الذي يجعلها ثابتة في النفس . ويسهل على الذاكرة تناولها عن كثب . وقد كتبت الى صديق لي فيما وراء القطر مولع بالمباحث اللغوية كتابا وصفت له فيه بعض شؤون القاهرة . وأودعت الكتابَ كلمات الاديب المومأ اليه مطوية في ثنيات جملها طيا . وأنا ذاكر الآن جملا منها لتكون بمثابة تمرين على تلك الكلمات العشرين . وهذا هو نص الكتاب :

« ما أكتبه اليك أيها الأخ في أحوال مصر إنما هو مُدَّة قلم (بضم الميم . ملئه أو غطته) بالنسبة لما يستحقه ذلك القطر السعيد من الاسهاب في الوصف والاطالة في الشرح

والقاهرة هي عاصمة البلاد وأُمُّ مدائنها . وهي مبنيةٌ في سهلٍ فَسيح مُنبسط قلما يُشاهد فيه انخفاضٌ أو ارتفاع . وهي قسمان قسم شرقيٌّ وقسم غربي :

ومُعظم القسم الأول مشغولٌ بسكنى الوطنيّين. كما أن معظم القسم الثاني مشغولٌ بسكنى الاجانب

وكيفما تجولت في أنحاء المدينة وأرباضها وجدت قصراً يُشيَّد. أو منزلا يجدَّد. وترى الوهين (ناظر العمارة) قد اتخذ له في زاوية من زوايا العرصة التي يُشيِّد فيها البناء جوسقاً (كشكا) من خشب يُقيم فيه ويُشرف منه على البنائين والفعَلة الذين يعملون في العمارة وتهيئة موادها. فيراقبهم ويحثهم على العمل

ويضعُ النساء المصريات على وجوههن برقعاً وهو لعامّتهن. أما الخاصةُ منهن فيستعملنَ اللفام (بالفاء اليشمق) كما هو زيُّ النساء التركيّات.

والعامةُ من الرجال يضعون على رؤسهم السكْبةَ (بفتح السين. الطاقيّة) ويلوثونَ عليها منديلا كبيراً كالعامة. ويلبسون ثوباً كالقميص لكنه سابغٌ ينطبق على الكعبين. ومصبوغٌ باللون الأزرق. والطبقة التي هي أعلا من العامة يلبسون الفرُّوج (ويسمّونه القفُطان) لكنّه مسدودٌ من خلْف وليس مشقوقاً كالفراريج التي كانت يلبسها السلف. والخاصة لهم ألبسةٌ وأزياء متعدّدة وهي مختلفة باختلاف غناهم وتفنّنهم في الترف وللموظفين منهم سوادٌ (لباس رسمي) خاصٌّ يلبسونه في التشريفات ومواطن الاحتفالات. وفي القاهرة وضواحيها ساحاتٌ كثيرة يتنزّه فيها القوم ويروّضون أجسامهم، ومنهم من يلعب بالكرة والطبطابة (وتسمى الميجار أيضاً وهو الصولجان) وآخرون ينصبون دريئة (نيشان التعليم) يتمرّنون على اصابته، ومنذ حين احتشدوا في ميدان العباسية من أجل سباق الاوتومبيلات فاصطدمت احداهن بأحد أنفار البوليس ثم حادت عن الطريق فقطعت الماصِرَ (الحبل الحاجز بين النظّارة والمتسابقين) وأودت بحياة نفر من النظارة وجرحت آخرين، وبعض هؤلاء المجروحين

اندمل جرحه وعلته الجُلْبةُ (بضم الجيم . قشرةُ الجرح) وشُفي . وبعضهم اعتلّ وقضى نحبه

وللاروام في القطر المصري تجارة رابحة وقلما يخلو شارع من بدّال منهم أو صاحب حانة. كما لايخلو منهم كَفر ولاضيعة (عزبة)

وقد انتشر شُرب المسكرات بين عامة المصريين انتشاراً هائلاً فتراهم داخل الحانات سماطين . وقد يجلسون على باب الحانة وأمامهم بواطي النبيذ وأقداحه يتخللها النقْل (بفتح فسكون . المزة) والصير (ويسمى الصحناة أيضاً وهو السردين) وضروب المشهيات

وقد يحمل الولوع بالكسب أحد هؤلاء الاروام فيتخذ له مخزنا في السكة الجديدة على خطوات من سيدنا الحسين . يجعل قسمه الأمامي حانوتاً لبيع المأكولات وأنواع السمن والزيت والجبن والزيتون ـ وقسمه الخلفي حانة يتسلل اليها غواة الخمرة تسللا فيعاقرون ويعربدون . واخوانهم في مسجد الحسين يهللون ويكبرون .

على أن آخرين من النزلاء لم يستغلوا جهل الاهالي وغباوتهم هذا الاستغلال الممقوت بل تناولوا الكسب من وجوهه المشروعة . وما أكثر تلك الوجوه وأعجب أفانينها : فان واحداً من هؤلاء اتخذ مخزناً في أشهر موقع في القاهرة وخصصه لمسح الجزم . فجمل فيه من الكراسي والمرايا وأدوات المسح وضروب اليرندج (بوية الجزم) مايحتاج اليه في هذه الصناعة . وأحضر صناعا يمسحون جزم الناس على حسابه . ولا يكلف الزبائن سوى خمسة مليمات . وهي الأجرة التي يأخذها مساحو الاحذية المنبثون في الشوارع والسكك

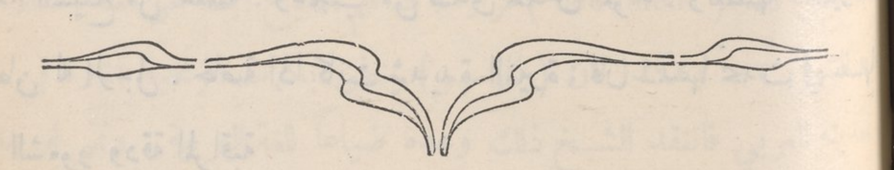
والمسلمين هنا عادة في جنائزهم غير مألوفة في الاقطار الاخرى . وهي أن يسير أمام النعش جماعة بملابس سوداء وفي أوساطهم فوط حمر . و في أيديهم

شماقم . وآنية معدن ذات سلاسل تتدلى بها الى قرب الارض وفيها طاقات الزهور « الطاقة صحبة الورد » وباقته يمشون هكذا صفين على أبعاد معينة .

والسالك في شوارع القاهرة وأزقّتها قلَّما يضلُّ أو يغيب عنه مكان : فان أسماء الشوارع والسكك والأزقّة مكتوبةٌ على ألواح زرقاء مثبتةٍ في فُوَّهاتها فترى فى فوّهة الشارع اسمه . وفي فوّهة الحارة اسمها وفي فوّهة الرّدْب « بفتح الراء . العطفة والزقاق » اسمه وهكذا

ومهما كثرت الجسور والكباري على النيل ـ لأجل أن يتوصل بها الناس من أحد شاطئيه الى الآخر . فانه لا يزال يوجد قومٌ من الأهالي يعملون في النهر وينقلون الناس بواسطة المِعبر « كمنبر المعدّية والقايق » من جانب الى آخر فترى الواحد من هؤلاء ينظر حتى اذا آنس من بُعدٍ أحداً مقبلا نحوه أسرع الى أنشوطة الحبل « عقدة وشنيطة أو عقدة وشوطة » الذي يكون قد ربطه بشيء ثابت فى الشاطيء فيحلها ويسرع بك الى حيث أردت .

هذا ما أردت ذكره لك أيها الصديق من شؤون القاهرة وهو غيض من فيض فأرجو أن يقع منك موقعاً كما أرجو أن تهدى تحياتي الى سائر قرابتك وذويك سيما ظأبك (عديلك) الفاضل واخوته الكرام والسلام



عدوى الصهباء

كعدوى الوباء (١)

طال الجدال بين الشيخ وزوجته . وأخيراً قل لها الشيخ إنني وان كنت من المنتسبين الى الازهر الشريف ـ غير محظور عليّ شرعا أن أجيب دعوة صديق لي من غير أبناء ديني . على أن اختلاف الدينين إنما يمنع أحدنا من دخول معبد الآخر . وأن يصلي صلاته . ويعتقد اعتقاده . أما ما عدا ذلك من أنواع المعاملة . وسائر ضروب المجاملة . فجائز بلا خلاف . والخواجه الذي دعاني دعا لاجلى سائر زملائنا من معلمي المدرسة وناظرها وبعض أعضاء جمعيتها . وإني أحب أن تتوثق الروابط بيني وبين هؤلاء القوم: فان في ذلك ضماناً لمستقبلي. وصوناً لموارد معيشتي . وكان الشيخ عبد الجليل هذا قد أوشك أن ينال الشهادة الازهرية لكنه غادرها الى التعليم في بعض المدارس المسيحية حباً في الارتزاق وتوفيراً لهناء عائلته . فلو بقي في الازهر لما رتب له أكثر من ثلاثة جنيهات أو أربعة في الشهر . أما المدرسة المذكورة فانها تعطيه ثمانية جنيهات من أجل ثلاث ساعات يعلم فيها العربية والبلاغة والانشاء .

فقالت له زوجته : كأني بك نسيت أنك عالم أزهري لم تعتد حضور مأدبة افرنكية : أديرت فيها كؤوس الصهباء وتقصفت عليها المتبرجات من النساء . فصحا الشيخ من غفلته . وعجب من صدق حدس المرأة . وتفطنها لكثير مما لا يفطن له الرجل . خاصة اذا كانت شديدة الغيرة : فان شدتها تحدث في نفسها قوة الشعور ودقة المراقبة

وبدل أن يثنيه قولها عن عزمه جدد في نفسه شوقاً وميلا الى الذهاب :

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ و ١٩٠٩ م

فيقف على مالم يكن يعرف من آداب القوم في احتفالاتهم ورسومهم في ولائمهم .

وصل (عبد الجليل) الى منزل زميله المعلم قبل سائر المدعوين فشعر في نفسه بوحشة واستحياء . وجعل يعتذر بأنه أراد السبق الى مشاهدة أنوار صديقه والتمتع بحسن حديثه .

ثم أخذ القوم يفدون واحداً بعد واحد ولم يكن فيهم مسلم غير الشيخ . فأخذ يحيي من يعرف منهم . ويتعرف الى من لم يسبق له به معرفة . وكان بينهم شخص مخالف في زيه . غريب في أطواره . كثير الاندفاع في حديثه . وكان لا يتكلم بلغته العربية بقدر ما كان يتكلم باللغات الاجنبية التي يعرفها . وأكثر ما أتقن منها اللغتان الطاليانية والفرنسوية . ويظهر من مطاوي أحواله وأقواله أنه قضى جانباً من عمره في معاشرة الافرنج . ومن أجل ذلك غلب عليه لقب (الموسيو) فكانوا ينادونه به من وقت الى آخر .

وقد استدعت حالة (الموسيو) انتباه الشيخ . فكان لا يحول نظره عن التفرس فيه . وسمعه عن الاصغاء الى حديثه . ولم يقصر الموسيو في الحفاوة بالشيخ وملاطفته . وقد عجب الشيخ من كثرة ما كان يتخلل حديثه من الكلمات الاعجمية : فكان في كلامه عن مراعاة الصحة يعيد ويكرر كلمة (Regime) حتى سألهم الشيخ عنها فقالوا ان معناها الحمية . ثم تكلموا على الاخلاق والفضائل والمقارنة بين الآداب الافرنكية والعربية . فكان الموسيو يستعمل كلمة (Sentiment) مراراً . فسألهم الشيخ أيضاً عن معناها فقالوا هو « الشعور » . وهكذا كان (الموسيو) ينطق بكلمات افرنجية كثيرة في خلال حديثه العربي فانتقد الشيخ ذلك وعده ضياعاً للغة العربية . وتمنى لو يعدلون عنه . فقال له بعض الحاضرين يتفق أحياناً أن لا تؤدي الكلمة العربية تمام معنى الكلمة الافرنجية فنضطر الى استعمال هذه . مثال ذلك كلمة (Regime) فانه

كما تفيد معنى الحمية تفيد معنى تدبير الغذاء وترتيب أوقات الطعام وليست كلمة « الحمية » العربية بالتي تفيد هذه المعاني . وهكذا يقال فى كلمة (Sentiment) وغيرها مما نقتبسه من كلام الاعاجم .

ثم قال الشيخ كلما سألتكم عن كلمة افرنجية وردت في حديث (الموسيو) تقولون انها افرنسية مع ان حضرته يتقن غير ما لغة ، فلماذا لا يستعمل كلمة من اللغات سواها ؟ ألمزية في اللغة الفرنسوية ؟ أو لان كلماتها بالقلب أعلق . وللارادة أملك ؟ قالوا ان السبب في ذلك كون اللغة الفرنسوية أكثر انتشاراً وشيوعا بيننا. فاذا استعمل أحدنا كلمة منها كان على ثقة من أن مخاطبه عارف معنى تلك الكلمة. على عكس ما إذا استعمل كلمات المانية أو انكليزية . فسر الشيخ من هذا الايضاح . ثم خاض القوم في ذكر عادات الافرنج وآدابهم التي اصطلحوا عليها في حفلاتهم وولائمهم . وكان ذلك بمناسبة لبوس المسيو الذي لم يعتد الشيخ رؤية مثله . قال الشيخ أنا لم أستغرب البنطلون . وانما الغريب عندي هذه البالطوالتي أجحف صانعها في الاخذ من أطرافها وذيولها . فلم تعد تنطبق على الفخذين من أمام كما تنطبق الأردية التي تلبس من فوق الثياب عادة . فقالوا له إن هذا الرداء يدعى « الردنجوت » [1] وهو زي خاص بشهود الحفلات والولائم اصطلح عليه الافرنج وقلدهم فيه المقلدون من أهل الشرق . فأبدى الشيخ عجبه من شيوع التقليد في بلادنا حتى تعدى التشبه بهم الى استعمال هذا (الردنجوت) . ثم أخذ بعض القوم يصف ما اعتاد الافرنج لبسه في مجتمعاتهم على اختلاف أنواعها . قال وان الشرقي هناك مضطر أن يحذوحذوهم . والا أصبح ضحكة فيهم . وانه تعرف بشيخ مصري صادفه في أوروبا فكان هذا الشيخ اذا دعي الى حفلة نزع عمامته

---

(١) لعلهم قالوا للشيخ ان اسم ذلك الرداء (السموكن) لا (الردنجوت) لانطباق الوصف على الاول دون الثاني .

وجبته واتخذ مكانهما القبعة والردنجوت . وقد راعى رب المنزل مقام الشيخ فلم يضع مائدة الشراب في الصالون حيث كان القوم جلوسا . وانما وضعها في البهو. فكانوا يتعاقبون اليها . ويتناولون ما يشتهون من عليها . غير أن ظريفاً منهم شق عليه القيام والقعود والدخول والخروج فأسرع الى المائدة وحملها بين يديه الى وسط مجلس القوم وقال لهم مشيراً الى الشيخ ان الاستاذ يكره التشديد ويميل الى التساهل . فأطرق الشيخ ولم يجب بشيء . وجعل ينظر الى الصحاف وما فيها . فرأى في إحداها هنات مستديرة سمراء تشبه أن تكون من قديد اللحم . ورأى في صحفة أخرى حيواناً صغيراً مستطيلا أعقف الجسم برتقالي اللون . له زوائد وأرجل كثيرة . ورأى لماظات (مازات) أخرى لم يتبين حقيقتها . وغاب عنه وصفها .

كان المدعوون يتناولون من هذه اللماظات . ويتعاطون ضروب المسكرات . والشيخ يفكر في أمرهم . ويعجب كيف أن هذا الذي يأ كلونه لا يفقدهم شاهية[1] الطعام وهم سينهضون اليه بعد قليل . وكان على المائدة نوع من المسكر له لون الماء حتى إذا مزجته به استحال لونه وصار أبيض كاللبن الحليب . فكان (الموسيو) يقدم منه للشيخ ويصف له من نفاسته . ولم يكتف بهذا بل كان يطوف عليه بصحاف اللماظة ويفاضل بين أنواعها وينصح له بتناول الأحسن منها فكان الشيخ يشكر له ويعتذر .

ثم سأل بعض القوم الشيخ عن كلمة (مازة) التي يطلقونها على المشهيات في مائدة الخمور هل هي عربية الاصل ؟ فقال قد يكون أصلها عربيًّا . وقد جعلها بعضهم محرّفة عن كلمة (اللماظة) واللماظة واللماظ كحساب الشيء القليل يذوقه

(١) شاهية بتخفيف الياء بمعنى شهوة الطعام والناس يشددون الياء ويحذفون الالف فيقولون (شهية) والشاهية مصدر كالعافية والعاقبة كما في التاج

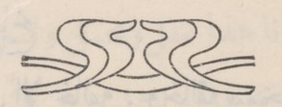
الانسان ويتلمظ به أي يلوكه في فمه لوكا . فحذفوا اللام من أول الكلمة ورققوا ظاءها الى زاي فصارت (مازة) ويخطر لي إمكان أن يكون أصلها (مُزَّة) بضم الميم وتشديد الزاي . والشيء المز ما كان بين الحامض والحلو . أو (مَزَّة) بفتح الميم وتشديد الزاي بمعنى المصة من مز الشيء يمزُّه اذا مصه .

ثم نهض القوم الى المائدة فتحلقوا حولها حاسري الرؤس . وقد حار الشيخ بين أن يقلدهم فينزع عمامته أو يبقيها استبقاء لسمته ووقاره ففضل ابقاءها .

وكان حديثهم على المائدة في سيء العادات ورديء الخصال وانها اذا تمكنت من نفس امريء عسر عليه التخلص منها مالم يكن قوي الارادة . صحيح العزيمة . وزعم بعضهم أن قوة الارادة مما في مقدور كل انسان أن يجتلبه لنفسه بالصبر والمزاولة والتعود . وقد ارتبك الشيخ أثناء تناول الطعام بعض الارتباك: فتذكر كلام زوجته وتبسم . ولم يخفَ أمره على أصدقائه فكانوا يفاكهونه ويمازجونه . وأراد أن يتناول قليلا من الطرشي (المخلل) الافرنجي ففعل لكنه تأذى به ولم يكد يسيغه لشدة حرافته . وقوة لذعه .

وقد لاحظ الشيخ أن للشمبانيا منزلة في نظر القوم وميزة على سائر الأشربات فانها أديرت عليهم بعد أن فرغوا من تناول الطعام . وقد شربوها في أقداح خاصة بها اتخذها الصناع من البلور الصافي فكانت مستديرة ولا عمق لها. فهي أشبه بالصحاف لولا القوائم البلورية التي ترتكز عليها . وأرادت احدى السيدات أن تسكب للشيخ كأساً من الشمبانيا فأبى عليها . واعتذر لها. فتعجبت وقالت له إنه شراب لطيف خالٍ من الضرر حتى سماه الفرنسيون « الشراب الالهي » . فقال مهما أطالوا في مديحه وأعطوه من الالقاب فان ديننا الاسلامي لا يبيحه كما لا يبيح تعاطي شيء من هذه الأشربة الروحية التي تغتال العقل وتسطو على الحواس وان كانت قوة الاسكار فيها ضعيفة . لان الشرع انما ينظر الى الشأن

العام لا الى الشذوذ الخاص : فاذا كان من شأن هذه الأشربة أن تفعل وتؤثر . وشأن هذه الامزجة البشرية أن تنفعل وتتأثر ـ وجب النهي وحق التحريم .ولا عبرة بعد ذلك بقولهم إن الشراب الفلاني لايسكر ولا يؤثر أو إن الشخص الفلاني قد لايسكر ولا يتأثر. وضرب الشيخ لعدوى الصهباء مثلا عدوى الوباء . فقال إن الطبيب ينهى أحدنا أشد النهي عن أن يشرب ماء ملوثا بميكروبات الامراض المعدية مهما قلنا له أن المكروب الذي في الماء قليل لاتأثير له. إذ يقول الطبيب : يجوز أن يصيب الميكروب من مزاجك استعداداً لنموه فينمو ويتكاثر ويتغلب على جسمك الذي تظنه قوياً فلا يعود تنجع فيه جميع وسائط الشفاء وضروب العلاجات . وهكذا الاسلام حرم علينا كل مسكر ما دامت قوة الاسكار كامنة فيه . لئلا تصادف تلك القوة في نفس الشخص استعداداً لها وضعفاً عن مقاومتها . فلا يعود يفيده وعظ الواعظين. ولا تنفعه شفاعة الشافعين. ثم يهلك مع الهالكين .



الاخلاق والعقائد

والاولياء والمراقد [1]

ماكان لامة أن تنهض قبل أن تصحح عقائدها . وتقوم من أخلاقها . وأوَد نفوسها .

وبهذا نهضت الأمة العربية . وسادت على العالم بأسره .

انحطت عقائد العرب قبل الاسلام الى درجة كانوا يعبدون فيها الاحجار — وأخلاقهم الى درجة كانوا يستطيبون معها كسب امائهم وقد أكرهنهم على البغاء . ثم ارتقت تلك العقائد بعد الاسلام فكان عُمَر يقول للحجر الاسود . والله انى لاعلم انك حجر لاتضر ولاتنفع . وتبع الارتقاء في العقائد ارتقاءٌ في الاخلاق : فكان أحد المجاهدين لايستطيب كنوز كسرى وقد وقعت في يده غنيمةً باردة فأنف من أخذها وردّها الى قائده . فجعل القائد يباهي به . ويذكر نعمة الله على العرب مذ بلغت نفوسهم هذا المبلغ من العفة والامانة والانفة وعلو الهمة .

الصحة في العقائد والاخلاق هي التي سَمَتْ بالعرب الى ذرى العزّ . وبحابح العظمة والمجد . وانتكاسُ تلك الصحة هو الذي دهورَهم عن تلك الذُرَى . وأخرجهم من جنة هذه البحابح

ليس أفضل من الانسان الا خالقه . وخالقه سبحانه هو الذي عرّف الانسان بمزيته هذه . وحظر عليه من أجلها — أن يعبدَ انساناً مثله مهما عظم أمره . وفخم مظهره . فكيف يرضى له مع هـذا أن يعبد من كان أحط منه منزلة . وأدنى في مراتب الوجود مقاماً كالأحجار والاشجار ورمم الاموات

« العبادة » لفظ مشبع من معاني الاستكانة والخضوع والتذلل . والله تعالى

---

(١) كتبت سنة ١٩٠٧ م.

خلق الانسان وفسح له في الوجود آمالا . وهيأ له للارتقاء منازل . وهو يعلم — ألا يعلم من خلق — أن تذلل الانسان واستكانته لغيره من مماثليه في الحدوث حائل بينه وبين وصوله الى هـذه المنازل وتلك الآمال التي استعدّ بفطرته للوصول اليها .

ألا يكون من لطف خالقه به ورحمته له أن حرّم عليه أن يستكين ويخضع لغيره . وبعبارة أصرح أن يعبده — بجميع معنى العبادة وأن تبرأ من لفظها — ويتصاغر بين يديه فتموت نفسه . وتخبو همته . ويرتكس في الوجود خلقه ؟

ألا يكون فعل الانسان هـذا جناية على نفسه ونوعه بحيث يستحق من أجلها — بعد أن أرشده خالقه وأعذر اليه — أكبر قصاص . وأشد تعنيف .

ليس من آثار صحة العقيدة تهذيب الروح . ودخول جنان الآخرة فقط — بل إن من أعظم آثارها تقدم الامة وارتقاءها بمجموعها في دار الدنيا أيضاً

اعتبر ذلك في الامة الاسلامية لأول أمرها وقد صحت عقائدها . وخلصت من الاوهام والخرافات تعاليمها . ثم لاحظْ حالها في هذه الازمنة المتأخرة وقد شاب تلك العقائد والتعاليم شوائب مما نهاها الله عنه . وحذرها منه .

الله حي حياة قديمة . وموجود بعلمه في كل مكان . وقد قال « ادعوني أستجب لكم » . فكيف مع اعتقادنا هذا نغفل ونحمق ونسعى الى الاضرحة — لا لأجل أن نعتبر بالموت والزوال كما علمنا الشارع بل لأجل أن نتضاءل ونتذلل بين يدي الضريح . ونطلب منه حاجاتنا . وتكاليف حياتنا ؟

يا سبحان الله ! أدَعُ خالقي . ومن أعطاني وجودي . ووعدني بالاجابة إذا سألته : وهو أقرب اليَّ من حبل الوريد — هو يجيب دعاي في المنزل والشارع والحانوت والمسجد والصحراء وفي كل مكان .

أعرضُ عن كل هـذا . وأخفُّ مسرعاً الى الأضرحة والمزارات وأسأل

أربابها ماليس من مقدورهم وهم أموات ؛ أسألهم وهم (رضي الله عنهم) في شغل شاغل من لقاء ربهم — عما أكلفهم قضاءه من الصغائر والمحقرات ؟ اسألهم ما يكفيني الله مؤنته إذا سألته . وأخلصت في الضراعة اليه !

تباً لى إذا فعلت ذلك . واعتقدته . وعوَّلت في حياتى عليه

أنا لا أسعى في طلب حاجاتي الى الاولياء (رضي الله عليهم) . ولا أقصدهم في تفريج كربي . وكشف ضري . ومانزل بي من الشدائد — مادمت أجد الطريق الى ربي أقرب من الطريق اليهم . بل إن كان بيني وبين الاولياء « طرق » ومسافات فانه ليس بيني وبين خالقي طريق . ولا يحول بيننا حائل في وقت الضيق .

أنا لا أكون في صنيعي هذا زاهداً في الأولياء . منكراً لمنزلتهم عند ربهم . جاهلاً قدر كرامة الله لهم — كلاَّ بل أراني أعرف لهم من ذلك أكثر من المتظاهرين بحبهم . المولعين بزيارة ضرائحهم . والاتكال على شفاعاتهم

إن كنت أنت تزورهم في مراقدهم . وتناجي الاحجار المرصوصة فوق قبورهم فاني طالما زرتهم زيارة خيراً من زيارتك هذه . زيارة ترضيهم أكثر مما ترضيهم زيارتك . وأرجو أن أثاب عليها أكثر مما تتوقعه أنت من الثواب على زيارتك :

إذا أردت أن تزورهم مثل زيارتي فما عليك إلا أن تذهب الى (الكتبخانة) الخديوية أو غيرها من الكتبيات . وتنقب عن الكتب التي ألفها أولئك الاولياء . أو الفها العلماء في مناقبهم وآدابهم وفضائلهم . ثم تطالعها بامعان وتدبر فتستفيد منها . وتنقل عنها . مااستفدته أنا ونقلته .

خير لك أن تزور كتاب « لطائف المنن » و « تعطير الانفاس » و « الجواهر السنية » في سيرة الشاذلي والمرسي والبدوى — من أن تزور قبورهم ز ؛

ما هذا التعبير السخيف

لا تفيدك أنت · ولاترضيهم هم :

لايرضى البدوي أن تكحل عينيك بتراب قبره وأنت تنظر بها الى مالايحل النظر اليه. لايرضيه أن تلمس بيديك قفصه وأنت تتناول بهما مالا يطيب لك تناوله. لايرضيه أن يتحرك لسانك باسمه وأنت تحركه بكلمات الفحش والسفه والنيل من أعراض الناس. لايرضيه أن تسعى الى زيارته بقدم طالما مشيت بها الى مايشين سمعتك. أو الى حيث تضر إخوتك. احفظ نظرك ويدك ولسانك ورجلك ودع زيارة الاولياء — زيارة جاهلية — وأنا الضمين لك بأنهم يكونون راضين عنك. مفاخرين بقوة ايمانك وخلوص قلبك لربك. ولايقصرون عن الشفاعة فيك يوم القيامة إذا استطاعوا الى ذلك سبيلا. بل لاحاجة لك الى شفاعتهم بعد أن شفعت فيك أعمالك

بني الاسلام على أصلين — التوحيد — وهذا اذا خلص من الشوائب وأشربناه في قلوبنا صافياً نقياً — بث فينا روح العزة والهمة والنشاط. وحرر عقولنا من عُقل الاوهام فنشطت الى معرفه الحقائق واقتناص شوارد الحكم

أما الأصل الثاني فهو الاخلاق. وليس هذا الاصل بأدنى منزلة من الاول. بل يوشك أن يكون أظهر أثراً في إسعاد الامم. وثبات أمرها. وطول عمرها. والى ذلك الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ».

(التوحيد) يحرر العقل. ويعلي الهمة. ويشحذ العزيمة — و (الاخلاق) تزكي نفوس الآحاد. وتورد الامة بمجموعها موارد الغبطة والسعادة والهناء.

ليست الاخلاق كما يظن بعضهم — لين القول وحسن العشرة ومفاكهة الجليس وتحمل فظاظته أحيانا — الاخلاق: كبر النفس. وعلو الهمة · وثبات العزيمة. والترفع عن الصغائر. والصبر. والحرية. والنجدة والاناة. والسخاء.

والايثار . والمواساة . والصداقة . والمكافأة . والمروءة . والتودد . والامانة . والعفة . والصدق في القول . والاتقان في العمل . والطهارة في الوجدان والاخلاص في النية .

اذا انطلق العقل من مطمورة الشرك والجهل فصحت العقائد — ونشطت النفس من عقال اللؤم والضعة فتهذبت الاخلاق ورسخت ملكات الفضائل بشر الامة اذ ذاك بالحياة الطيبة . والعز الاقعس . والمجد الشامخ . والسلطان القاهر . والا فيكون حظ الامة من الوجود حظ العجماوات تتقلب في مصلحة غيرها . وليس لها من دنياها سوى الاكل والنوم والتوليد وتقمم قاذورات الشهوات .

منيت الامة الاسلامية من دواهي الدهر ونوائب الحدثان — بما أضعف فيها هذين الاصلين — صحة العقائد وصحة الاخلاق — وأوهن من تماسكهما فيها . وكان من نتيجة ذلك تغلب الامم عليها . وتبسطهم بضروب الاستعمار في بلادها

وقد أصفق الباحثون في ادواء عمرانها ، العاملون على انعاشها وانهاضها — على أنه لا يرجى لها انتعاش أو نهوض مالم تصلح هذين الاصلين (العقائد) و (الاخلاق) وتسعى في تقويمهما جهد طاقتها .

أما اصلاح (الاخلاق) فانا نرجوه من معلمي المدارس ونتوقعه لدى القائمين على تربية الاحداث والناشئين

وأما إصلاح (العقائد) فكيف الوصول اليه ؟ وممن نرجوه ؟ ومن أي جانب نتوقعه ! ونبدأ فيه

على أنه مضت عشرات من السنين كان ينتظر في خلالها أن نرى للتربية المدرسية أثراً في تهذيب الاخلاق وتقويم أود الملكات . لكننا لم نر بعدُ من ذلك شيئاً يذكر . وقد حقق الخبيرون أنه لا يمكننا أن نرى منه مايرضينا مادامت

طريقة التربية والتعليم العامة وأسلوبهما على ما هي عليه الآن

فهل نيأس من إصلاح عقائدنا وأخلاقنا معاً . ونقنط من الوعود السماوية التي وعدنا بها على لسان نبينا وكتابنا ؟ أو نتأدب بآداب القرآن الكريم الذي نهانا عن اليأس والقنوط في عدة آيات . وجعلهما في آيات أخر شعاراً للضالين وعنواناً على الخذلان والمخذولين ؟

لاجرم أن عاقبة الرجاء أسلم . وطريق الثقة بوعد الله أهدى وأقوم

أمالى أدب

في لغة العرب[1]

القرآن كلام الله . لكنه أنزل بلغة العرب . وروعي فيه اسلوبهم . وبلغ من ذلك مبلغاً أعجزهم وتقطعت دونه أعناقهم . فلا نكون مباعدين عن موضوع أمالينا اذا أودعنا أمليتنا هذه آيات من القرآن ثم فسّرناها وبيّنّا وجه الأعجاز فيها وعجّبنا القراء من فصاحة مبانيها وبلاغة معانيها

« قلْ هو اللهُ أحَد . اللهُ الصَّمَد . لم يلدْ ولم يولَدْ . ولم يكنْ له كُفُواً أحد » .

(الصمْد) بسكون الميم مصدر صَمَدَ اليه أي قصد اليه . فاذا فتحتَ الميم كان معناه سيّدَ القوم . سُمي بذلك لان الناس يقصدونه في قضاء حاجاتهم . والمصمَّد على وزن معظّم المقصود

(الكفو) المِثْل . فكما يُقال كافأَ فلان فلانا بمعنى جازاه يقال أيضاً كافأ زيدٌ عمراً اذا ماثله . وتقول فلان كِفاء فلان (بكسر الكاف) وكفؤه (بفتحها)

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ و ١٩٠٩م

وكُفؤه (بضمها) وكفوؤه كل ذلك بمعنى أنه مثله . ويقال في الجمع أكفاء . ثم شاعت الكفاءة في المماثلة بين الزوجين حسباً ونسباً

(بنُو دارمٍ أكفاؤهم آل مِسْمَع وتَنْكحُ في أكفائها الحَبَطات)

(آل مِسمع) على وزان منبر قوم من العرب سموا باسم جدهم مسمع و (الحبطاتُ) أولاد الحرث بن مالك بن عمرو . كان يسمى هو الحَبِط ككَتِف ثم سمي أولاده (الحبطات) . يقول الشاعر : اذا أراد هؤلاء الحبطات أن يتزوجوا فليلتمسوا لهم زوجات من أمثالهم . وليَدَعوا بني دارم لآل مسمع : فانهم لهم أكفاء . ودمهم لدمهم بَوَاء

و (البَوَاء) في القصاص بمثابة (الكفاءة) في النكاح . يقال باءَ دمُ فلان بدم فلان اذا عدَله وساواه . ومنه قول مهلهل لابن الحرث بن عباد لما قتله « بُؤ بشِسْعِ نعل كليب » وبُؤْ فعل أمر من البواء . أي لم أقتلك ليكون دمُك بواء لدم أخي كليب وانما لتكون بواءً ومعادلا لشسع نعله فقط

وشِسع النعل وقبال النعل الزّمام الذي يكون بين الاصبع الوُسطى والتي تليها فيُمسك القدم أن تنسلَّ من النعل . والشسع انما يكون للنعل الحجازية . فهو لها بمنزلة الزمام يكبح جماحها . ويمنع شرودها . أما النعال الاخرى فذُلُل مروّضة لا تجمح ولا تشرُد . (رجع الى سورة الاخلاص)

يقول الله تعالى لنبيه . أعلن يامحمّدُ عقيدةَ التوحيد واجهر بها بين الامم والشعوب الذين ضلوا فيها . وغابوا عن حقيقتها . و (قُلْ) لهم (هو) أي الحال والشأن الذي أنبّه أذهانكم اليه (الله أحد) أي قد ثبتت له الوحدانية من كل وجه : فلا يمكن أن يتطرّق الى ذاته أو صفاته أو فعاله شيء من التعدد . (الله الصّمد) أي الذي ينبغي أن تصمِدَ اليه الناس ويقصُدوا اليه في جميع شؤونهم

فلا يتّكلوا الا على إمداده وتوفيقه . وليدعوا الاستغاثة بالشجر والحجر . والشمس والقمر . أو أحدٍ من البشر . أو أيّة قوةٍ وقدرةٍ من القُوَى والقُدَر . (لم يَلِد) أي انه تعالى لم ينبثقْ منه أو ينفصل عنه شيء غيره . (ولم يولد) لم ينبثق هو ولم ينفصل من شيء آخر . (ولم يكن له كفْواً أحد) أي ليس إله غيره يكافئه ويساويه في صفات الالوهيّة . ومزايا الربوبية

هذه السورةُ على قصرها . ووجازة جُملها استوعبت الردَّ على جميع الامم الذين أساءوا فهم الوحدانية . وتكفلت بأبطال سائر أنواع الشرك . فبعد أن قرّرت الوحدانية المطلقة له تعالى بآية (الله أحد) انبرت للمشركين الذين يعترفون بوجود الله لكنّهم يقولون بأن هناك وُسطاء بيننا وبينه نستشفع بهم لديه . ويقرّبوننا زُلفى اليه .

فقالت لهم السورة (الله الصمد) أي هو وحده الصَّمد والمقصودُ في طلب كلّ ما لا يقدر البشر على كسبه وفعله . أما ما يقدرون عليه فيجوز الاستعانة بالبشر فيه

ثم عطفتْ السورة على أقوام آخرين يعتقدون بالله لكنهم يقولون إنه انبثق منه غيره . ومعنى انبثق انفصل : يقال انبثق ماء النهر اذا كسر شطّه وانفجر والموضع الذي يندفق منه الماء وينبثق يسمى (البِثق) ومن هؤلاء الاقوام بعض المشركين الذين يقولون أن الملائكة بنات الله . فقالت السورة لهم ولأمثالهم (لم يلدْ)

وهناك قومٌ آخرون ذهبوا الى أنه تعالى انبثق وانفصل من آخر كان موجوداً قبله . وذاك الآخر هو الشيطانُ المعبود الاول : فالشيطان في زعم هؤلاء أزليٌّ قديم لا أوّل له قد انبثق منه الباري تعالى وتولد عنه . ثمّ قام هذا الابنُ بعد ذلك يضادُّ أباه وينازعه الالوهة فردّتْ السورة عليهم بقولها (ولم يولد)

وقد بقيَ معنا من الطوائف طائفةٌ زعمت أن له تعالى في الالوهية نداً يماثله فيها ويساهمه مزاياها . وهم الذين يعتقدون بآلهةمتعددة . أو بآلهين فقط كالمانوية القائلين بالنور والظلمة . ويلقبون الأول باآله الخير . والثاني باآله الشر . ويزعمون أن كلاً من هذين الآلهين كفؤ لقرنه . ومعادل له في خصائص الالوهية تارةً يغلبُ هـذا ذاك . وطوراً يغلب ذاك هذا . فردّت السورة على تلك الطائفة بكلمتها الأخيرة (ولم يكن له كفوا أحد)

وان المتأمل في هذه السورة ليحار في أي الامرين أحقُّ بأن يكون مظهر الاعجاز : ألفظُ السورة وأسلوبها ؟ أو معناها ومضمونها ؟

السورة مؤلفة من خمس جمل :

أربعةٌ منها تتركب من كلمتين

اثنتان من تلك الاربع تتركبـان من اسمين . والاخريان تتركبان من أداةٍ واسم

وانظر أيها القاريء هل يمكن حذفُ كلمة من تلك الجمل الخمس أو زيادة كلمة عليها ؟ وهل في ألفاظها لفظٌ سخيف . أو في معانيها معنى غيرُ شريف ؟ حقاً ان هذه السورة في الوصف والايجاز غايةٌ في البـلاغة والاعجاز . ومحال أن نشعر نحن اليوم أو نتأثرَ بها كما كان يشعرُ ويتأثر عربُ الجاهليـة . وذلك لسببين :

الاول أنّ العرب لذاك العهد لم تفسد ملـكاتهم وأذواقهم . كما فسدَتْ ملـكاتنا وأذواقنا اليوم . فقد كانوا لأسرار لغتهم أزْكَن . وببلاغتها ألحن . ولمواقع الإعجاب والاعجاز فيها أفْطَن .

والسببُ الثـاني : أن القرآن فاجأ القوم مفاجأةً على غير عهدٍ بأساليبه . ومن دون أن يَسبْق لهم استئناسٌ بألفاظه وتراكيبه . فكانوا يتأثرون بآي القرآن

ويدهشون لبلاغتها أكثر منا نحن الذين أَلِفنا نظم القرآن وغَفَلنا عن عجائبه الكثيرة ما نردده ونقرؤه ونسمعه صباح مساء. ولكثرة ما أخذ الكتَّابُ والشُّعراء منذُ صدر الاسلام يقتبسون من كلماته وتراكيبه وأساليبه. فيودعونها منظومهم ومنثورهم. وقد حقّق الخبيرون أن اللغة العربية من بعد الاسلام تهلهلت وتزخرفت وحسُنت ديباجتها على لسان الكتاب والشُّعراء أكثر مما كان عليه حالها قبل الاسلام.

وما ذلك الا لتأثير القرآن وشيوع كلماته وتراكيبه وأساليبه بين أولئك الكتاب والشعراء بل بين جميع الناطقين بالضاد: فاذا سمعنا اليوم قوله تعالى «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم» لا ندهش ونتأثر دهش الجاهليّ وتأثره. هذا يدهش لانه لم يعهد بعد من فصحاء زمانه أنهم استعملوا تلك الكلمات على هذا الاسلوب في مثل هذا المعنى. وانما هم يذهبون في ذلك إذا أرادوه مذهباً آخر من التركيب والتعبير. على العكسِ منّا نحنُ اليوم: فان أسلافنا منذُ صدر الاسلام وبعد أن سَمِعوا آية «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم» حفظوها مفردةً ومركبة. وأكثروا من استعمال كلماتها. وتحدّى أسلوبها. فشاعت تلك الكلمات على صور مختلفةٍ وقد تحدي فيها طريقة الآية وأسلوبها. فأنست الاسماع بها. ولم يعد الناس يدهشون ويتأثرون ببلاغتها.

فليس من الإنصاف أن يقول قائل في هذه الأيام إن القرآن وآياته ليست من البلاغة والإعجاز بحيث يدّعي المُدّعون بعد أن شرحنا ما تقدّم من السبب كما أنه ليس من الانصاف أيضاً أن يقال ــ ولله المثل الأعلى ــ إن أديصن الكهربائي لا فضل له في اختراعاته ولا مزيّة له على غيره الذين درسوا طريقة هذه الاختراعات وصنعوا مثلها في معاملهم. اختراعاته هذه اعتدناها الآن وفقهنا أسرارها بالجملة وسيأتى وقت لايعود أحدٌ يتفطّن الى

مواضع الغرابة فيها . لكثرة ما صنع الصنّاع منها . وتأمّل المتأملون في أجزائها وأدواتها وأصغى المصغون الى ألحانها وأصواتها

مثال آخر من كلام العرب أنفسهم يدلُّ القـارىء على مبلغ ذهاب الالفة والاعتياد بالتأثر والانذهال :

نحن نعرف المثل السائر وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ، وقد ألفناه وشاع بيننا حتى بين عامتنا في الاسواق . وحتى لم نعد نرى في تركيبه وأسلوبه ومعناه غرابة وحسنا . ولكن لا يمكن أن يكون شأن هذا المثل لحين أول ناطق به كشأنه لهذا الحين . كما لا يمكن أن يكون وقعه في أسماعنا كوقعه في أسماع الرهط الذين قيل بينهم . وأنشد على مسمع منهم

نظر شيخ طاعن في السن من الاعراب الى امرأته العجوز الدردبيس وقد تصنعت وتكحلت وتعطرت وخضبت كفيها بالحناء ولبست ثياباً صفراً كما تلبس عذارى الحي . وكان أحس من قبل أن عجوزه تسرق من مؤونة البيت وتعطي ما تسرقه الى العطار تستبدل به الطيب والكحل والحناء والعطر فاغتاظ منها وأنشد :

(عجوز ترجى أن تكون فتية   وقد لحب الجنبان واحدودب الظهر)

(وما غاظني الا خضاب بكفها   وكحل بعينيها وأثوابهـا الصفر)

(تدس الى العطار سلعة بيتها   وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر)

(لحب الجنبان) قلَّ لحمهما . وبعير ملحوب أي مهزول (تدس) تعطي خفية ومن غير أن يطلع عليها أحد . و (سلعة بيتها) كناية عن السمن والدقيق وما أشبه .

وما ظنك بوقع هـذا المثل — وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر — في نفوس أهل الحي رجالا ونساء ومبلغ تأثيره في قلوبهم وهم بعد لم يألفوا استعمال

كلمة « العطار » في مثل هذا التركيب. ولا إيرادها في مورد التنكيت والتبكيت

وقد هاج هذا الشعر الشيخة وأثار سخطها على بعلها فاستصرخت معارفها من النساء فأقبلن جميعاً على الشيخ يضربنه ويلطمنه . فاستغاث بالرجال. فلم يكن أحد منهم في الحي ينصره عليهن . وينقذه من بين أيديهن . ثم لم تكتف الشيخة بضربه ولطمه . بل رأت ان تتشفى بهجوه وشتمه فقالت ترد عليه :

(ألم تر أن الناب تحلب علبة ويترك ثلب لاضراب ولا ظهر)

(الناب) الناقة المسنة . و (علبة) بضم العين إناء من جلد يحلبون فيه . و (الثلب) بكسر الثاء الجمل المسن . و (الضراب) نزوان الفحل .

تعرض العجوز بزوجها وتقول له : كيف تزعم أن الدهر أفسدني فلم أعد أصلح لشيء ؟ أنت الذي ما عدت تصلح . أنا وأنت كالناقة والجمل المسنين وكثيراً ما تراهم يحلبون هذه الناقة فتملأ العلبة لبناً . أما ذاك الجمل فيترك مهملا في المرعى لا ينتفع بضرابه . ولا بالركوب على ظهره .

ولكن ياحضرة الشاعرة . والزوجة الشريرة القادرة . اذا كان زوجك على ما ذكرت . ومن العجز بحيث وصفت . فلمن تتزينين ، وعلام تتخضبين وتتعطرين ؟

حيرة عائلية

في مسألة مالية[1]

في يوم ١٣ يوليو من الصيف الماضي كان رجلان يمشيان في الموسكي ووجهتهما العتبة الخضراء . وكانت الساعة ٤ بعد الظهر فكانا يتصببان عرقاً ويتأففان من شدة الحر . حتى اذا وصلا اليها لجآ الى قهوةٍ هناك وجلسا على ترابيزه . ونزع وهبي طربوشه ورداءه وألقاهما عليهما . أما الشيخ خليل فلم تكن تسمح له الآداب أن ينزع عمامته وجبته ويأخذ الراحة لنفسه كما فعل أخوه الأصغر : فكان يمسح رأسه بمنديله ثم يعيد عمامته على رأسه للحال . وكما خالف بينهما الأدب من هذه الجهة خالف بينهما من جهة أخرى : فقد طلب (وهبي) من صاحب القهوة أن يحضر له كازوزاً أما أخوه الشيخ فانه رأى في شرب الليمونادة مندوحة عن شربها لاسيما ان كثيراً من شيوخه واخوانه الصالحين من الازهريين يتجافَوْن عن تناول تلك الأشربة المختلفة التى تتعاطى في محال الأجانب تورعا أو تجنّباً للشبهة . فخشي أن يراه أحد منهم يشرب الكازوزة فيحسبها مما لا يحلّ وكان الشيخ خليل في الاربعين من عمره وقوراً حسن السمت كثير الدرس والمطالعة . وقد تأهل للتدريس وافادة الطلاب . غير أنه ما زال يفضّل تلقى العلوم عن شيوخه في الازهر ويَعُدُّ نفسه مقصّراً . وكانت أساتذته يعجبون من تواضعه وحسن أدبه وطالما نوّهوا به على مسمع من اخوانه في حلقات الدروس .

أما أخوه (وهبي) فكان عمره نيفاً وثلاثين سنة ، وكان كثير الفكاهة والدعابة . وقلما تراه عابساً . وله ولوع بقراءة المجلات والجرائد ومناقشة جلسائه

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٥هـ و١٩٠٧م

في مباحثها وموضوعاتها . ويكثر من مخالطة تلاميذ المدارس ونوابت العصر الحديث . وهو لم يكن متمكنا في العلوم الدينية كاخيه الازهرى . ولا متمسكا مثله بالمندوبات والمستحبات — لكنه كان ذا المام بالعلوم الدينية . والاحكام الشرعية فان والده كان أراده على المجاورة في الازهر فمكث فيه سنتين أو ثلاثا مع أخيه . ثم ضاق صدره من المجاورة وألح على والده بأن يسعى له في وظيفة كاتب فى بعض الدواوين وكان والده يأبى عليه ذلك وطالما كتب اليه يعنفه على زهده في المجاورة وكراهة تلقى العلوم الدينية . غير أن وهبي كان عنيدا شديد الراس فأخذ يتكاسل وينقطع عن الدروس ويتردد على مواضع اللهو أحيانا فنمى الخبر الى والده بواسطة بعض معارفه من شيوخ الازهر الذين كتبوا اليه وأنذروه بسوء عاقبة وهبى ان بقى يسرح مسارح اللهو والبطالة . فخفّ والده الى العاصمة وبعد محادثة طويلة مع ولديه وجد أن تعيين وهبي في بعض الوظائف هو الاصلح له والاضمن لمستقبله . والاّ خَسِرَ الدنيا والآخرة . وذلك هو الخسران المبين

ومن يومئذ ترك وهبي الازهر وانتظم في سلك كتاب الدواوين بمرتب ثمانية جنيهات في الشهر .

والعهد بوهبي أنه ضحوك السن كثير المزاح والدعابة . فما باله الآن صامتاً مطرق الرأس يكثر من التأوه والتفكير ؟ ومابال أخيه الشيخ قلقاً مضطرباً ينظر الى أخيه ويودّ أن يفاتحه الحديث ليفرغ في سمعه ما كان يجول في نفسه ؟

وربما كان وهبي لا يجهل ما كان يريد أخوه أن يقوله لكنه بقي معرضاً لا ينبس بكلمة ثم افتتح الشيخ خليل الحديث قائلا والآن يا أخي اما توافقني على لزوم احضار أمنا وابن أخينا الى القاهرة . ثم نستأجر منزلا نسكن فيه جميعنا .

فلم يجبه وهبي بل بقى مطرقا متشاغلا بمسح العرق عن جبينه بمنديل كان بيده .

ولما رآه الشيخ معرضاً عن الجواب تمّم حديثه وقال : ان بقاء أمنا وذلك
الطفل معها في بيوت أخوالنا – مزرٍ بنا . موجب لطعن النّاس فينا . وتقوّلهم
علينا . على أن والدنا المرحوم لا يرضيه ذلك منا . ولم يُربنا ويعتن بتعليمنا
لاجل أن نظهر كل هذا الجفاء لوالدتنا . ثم أغرورقت عيناه بالدموع فشغل
بمسحهما عن المضيّ في الحديث .

فلم يرَ وهبي بُداً من الكلام فقال : ولكن ألا تعلم يا أخي أن إحضار والدتنا
وابن أخينا الى هذه العاصمة يكلّفنا نفقات طائلة . أنسيت غلاء المعيشة فيها
وارتفاع أجور المساكن . وأمك في القاهرة لا يمكنها أن تقوم بخدمة البيت وتربية
الطفل من دون أن يكون بين يديها خادم تساعدها . أو أنها تضطر الى أن
تزوّج أحدنا . وهناك النفقات الباهظة التي لا نطيق حملها . فقال الشيخ إن
ما ورثناه عن والدنا من المال يمكننا أن نقرضه لبعض التجار الأمناء أو نضعه
في أحد البنوك . ثم نستعين بفائدته على معيشتنا وحاجات حياتنا .

قال وهبي أتحسب يا أخي ان فائض ذلك المال يكفي لقضاء تكاليف المعيشة؟
هل تظن ان المعيشة في العاصمة لا تختلف عن المعيشة في بلاد الفلاحين . حيث
كان يعيش المرحوم والدك . إنك يا أخي رُبيت في الازهر وشغلتك علومه عن
تعرّف الوسط الاجتماعي المحيط بك . وما تكابده فيه العائلات . وما يكتنفها
من المصاعب في توفير أسباب المعيشة من حاجيات وكماليات .

فقال الشيخ خليل لو كان الارث الذي ورثناه من والدنا أطياناً لكنتُ
أشك في أنها تغل لنا ما يكفينا أما وقد باعها المرحوم والدك حينما اغتنم فرصة غلاء
الاطيان – فان فائض الألف وسبعمائة جنيه مع ما تستثمره أنت من الأعمال
في أثناء السنة يكفي لمعيشة عائلة مثل عائلتنا مهما أسرفنا وتأنقنا في ضروب الرفه

فتبسم وهبي اذ ذاك من بساطة أخيه الشيخ بالرغم من حزنه وارتباكه في

حالتهم العائلية. وجعل يعض على شفتيه . ليخفي ما عراه من الاستخفاف بآراء أخيه. إذ كان يجله ويحترمه لصلاحه وتقواه وسلامة قلبه كما كان يحترم والده

ثم مضى الشيخ في حديثه فقال : وكأني بك ياأخي وقد نسيت ارث ابن أخينا الصغير وان السبعمائة جنيه التي تخصه سنضمها الى ما يخصني ويخص والدتك من الارث ونودع المبلغ جميعه بعض البنوك .

ولما ذكر الصغير والسبعمائة جنيه تغيّر وجه (وهبي) وظهرت عليه دلائل الكراهة والاشمئزاز . فلحظ ذلك منـه أخوه فقال له : لا تزال ياأخي متأثراً مما جرى ؟

ألم تعلم بأن جميع معارف أبيك استحسنوا رأيه وحمدوا صنيعه في الايصاء الى ابن أخينا الاكبر المتوفَّى بما كان لابيه من حقّ الارث في مال جده . وان أبانا لو لم يفعـل ذلك ثم مات كان حفيده المذكور عالة يتكفّف الناس أو تؤويه دور اليتامى واللقطاء . ومرّ زمن على الأخوين وهما ساكتان واجمان .

ثم استأنف وهبي الحديث فقال لأخيه :

قلتَ آنفاً إنك تريد أن تقرض الألف والسبعمائة جنيه التي تخصك وتخص ابن أخيك . ولم تذكر السبعمائة جنيـه التي تخصني كأنك لا تريد أن تشركني معكم .

قال الشيخ كنت أحب ذلك ولكن لا يحل لك الفائض كما يحل لنا نحن .

قال (وهبي) وكيف ذلك ؟

قال الشيخ ان الربا حرام وحيلة المبايعة التي سموها شرعية واتخذوها وسيلة لتحليله لا تفيده حلاّ . وانما تزيده حرمة . ولم يرخص الفقهاء في استعمال هذه الحيلة الا للأرملة واليتيم والمنقطع لطلب العلم . أعني من كان مثلي ومثل أمك الارملة وابن أخيك اليتيم

لاتسمى هذا ربا

قال وهبي : ولكن آية « وأحل الله البيع وحرّم الربا » عامة . أجابه الشيخ نعم هي ظاهرة في تحريم جميع ضروب الربا كما أنها ظاهرة في حل جميع ضروب البيع . ولكن هناك أدلة خصصت بعض البيوع فكانت حراما كما خصصت بعض أنواع الربا فكانت حلالا . ومن الربا الحلال (بشرط المبايعة) الربا في مال الارملة واليتيم والمنقطع لطلب العلم . قل وهبي : افسح لي يا أخي مجالاً في مراجعتك والبحث معك في هذا الموضوع . واذكر أني أزهري ولم يبرح من بالي كثير من المسائل العلمية والاحكام الفقهية التي تلقيتها فيه .

قال له أخوه الشيخ : قل مابدا لك .

قال (وهبي) ولماذا حللوا الربا لهؤلاء الاصناف الثلاثة ؟ قال ان امك مثلا التي ورثت الثلاثمائة جنيه من والدك لا تقدر أن تقلّب هذا المبلغ في التجارة أو في نوع آخر من ضروب الكسب بنفسها . واذا أعطته الى أحد التجّار ليتجر به ويكون لها حصة من الربح على سبيل شركة المضاربة ـ يخشى أن تلحق به الخسارة فيضيع المال عليها لاسيما أن الارامل مطموع فيهن . فليس ثمه طريقة لحفظ المال عليها والاستفادة منه بصورة مضمونة سوى اسلافه الى أحد الامناء وأخذ فائدة عليه (بشرط المبايعة الشرعية) . على أن هناك شرطا آخر لا ينبغي اغفال ذكره وهو أنه يشترط أن لا يكون للارملة مال آخر أو إيراد آخر يكفيها لتناول نفقتها ومؤونة معيشتها طول حياتها . أما اذا كان لها شيء من ذلك فلربا حرام عليها أيضاً . ومثل ما قيل في الارملة يقال في طالب العلم واليتيم . الربا حرام على كل الوجوه

قال وهبي : هل أنت واثق يا أخي من أن قوله تعالى « وحرم الربا » ليس على عمومه . وان هناك شيأ منه محللا ؟ قال نعم وقد نصّ العلماء على ذلك فقالوا في الآية المذكورة « والظاهر عموم البيع والربا في كل بيع وفي كل ربا الا ماخصه

الدليل من تحريم بعض البيوع واحلال بعض الربا»

ثم قال الشيخ : على أن الربا ضروب وانواع كثيرة . ولم يرد في أصل الشرع استقصاؤها وانما وردت أصول عامة وأمثلة لبعض الانواع. وقد تُرك بيان كثير من الانواع الأُخر الى اجتهاد المجتهدين . ومنشأ هذا لفظُ الربا الذي ورد في القرآن . فانهم قالوا انه من الالفاظ المجملة التي لا يُفهم المراد بها من لفظها. وتفتقر في البيان الى غيرها بدليل قول عمر بن الخطاب « كان من آخر ما أُنزل الله على رسوله آية الربا (يعنى من آيات البيوع) فتوفى رسول الله ولم يفسرها » فهي اذن من الالفاظ المجملة المفتقرة الى البيان والتفسير . لكن اعلم يا أخي أن عمر لم يرد أنه (صلى الله عليه وسلم) لم يفسر آية الربا ولا بيَّن المراد منها . وانما أراد أنه صلى الله عليه وسلم لم يعمّ جميع وجوه الربا بالنص عليها للعلم الحاصل أنه صلى الله عليه وسلم قد نصّ على كثيرٍ منها : كتحريمه التفاضل وبيع الغائب بالناجز وبيع الملامسة والمنابذة . فعمر يعني ان من وجوه الربا ما هو بيّن ـ لنص النبى عليه . وباطن خفي ـ لعدم النص فيه . ولقد تمنى عمر ان تكون وجوه الربا ظاهرة بحيث نعلمها بنصّ النبى . ولا نفتقر الى طلب الادلة في شيء منها .

وكان (وهبي) يودّ ان يستثمر دراهمه بالفائدة . لكنه كان يخشى لوم أخيه الشيخ وتعنيفه . ولما سمع منه في هذه المرة أنه هو نفسه يريد أن يستثمرها بهذه الصورة قوي قلبه وانفتح له باب لعمل ما كان ينويه . وجعل يجدّد في نفسه ذكرى شيء من المسائل العلمية التى كان تلقاها في الازهر لاجل ان يستعين بها في جدال أخيه . واكتفى في هذا المجلس بان استوثق من أخيه بان لفظ الربا في القرآن مجمل وان له وجوها متعددة . بينت النصوص بعضها وسكتت عن البعض الآخر .

ثم اجتمع وهبي بأخيه الشيخ خليل مرة ثانية ففاتحه أخوه الشيخ راغبا اليه أن يتفقا معا على احضار امهما وابن أخيهما من بلاد الفلاحين وان يسكنوا جميعهم في منزل واحد. فاستدرجه وهبي الى مسئلة القرض والفائض وسأله عن الربا وكيف كان في الجاهلية ؟ وعن سبب تحريمه ؟ والنصوص الواردة في ذلك ؟فقال الشيخ : الربا في أصل اللغة الزيادة وهو في الاصطلاح عبارة عن فضل مال لا يقابله عوض — في معاوضة مال بمال . والربا الاصطلاحي قسمان : ربا فضل . وربا نسيئه .

وكان ربا الجاهلية في الديون . أن يكون للرجل منهم على الرجل الدين . فاذا حل أجل ذلك الدين قال الدائن للمدين : أتقضى الدين الذي لي عليك أم تزيد فيه وأزيدك في الأجل ؟ فان قضاه الدين أخذه . والا زاده في الحق وزاده صاحب المال في الأجل . وهكذا يقول له عند كل أجل حتى يستغرق بالشيء القليل ماله بالكلية . ويقال لصاحب المال « مُرْبٍ » من أجل الزيادة التي يستزيدها في دينه لتأخيره الى أجل .

وقد كثر هؤلاء المربون في الجاهلية وأثروا من حيث أفقروا أولئك المعوزين وأرباب الحاجات

وقد فشا هذا الامر فيهم حتى لم يعد بين أغنيائهم من يقرض أخاه المحتاج قرضاً حسنا مجرداً عن المنفعة . وكانت تنزل بالبعض منهم جائحة تغتال أمواله . أو تحل به ضائقة تأخذ باكظام أهله وعياله — فلا يجد من اخوانه الاغنياء من يمد اليه للمعونة يداً سوى يد الربا التي تأتي على البقية الباقية من أمواله وأملاكه ومقتنياته .

فكان هؤلاء المربون يسمنون وينغمسون في الترف والنعيم واللذات . وأولئك المحتاجون يهزلون ويسبحون من الفقر والبؤس في بحور طاميات .

فقال وهبي لاخيه : ان الحالة اذ ذاك تشبه حالة أرباب المال والاعمال لهذا

العهد في أوروبا وأميركا وقد قام الاشتراكيون في أوربا وروزفلت في امريكا يقاومونها ويخففون من ويلاتها .

فعاد الشيخ خليل الى الحديث قائلاً : ثم جاء الاسلام والحالة الاقتصادية والمعاملة المالية بين الاغنياء والفقراء على ماوصفنا من الطمع والقسوة والارهاق . وقد تنكرت القلوب وتقطعت الروابط بين القبيلين بحيث كان كل منهما ينوى للآخر الشر . ويتربص به الدوائر . فكان من رحمة الله بالناس أن أمدهم بتعاليم الاسلام الطاهرة التي أصلحت كل شأن من شؤونهم . ومدار الاصلاح على اجتماع كلمتهم ولا تجتمع كلمتهم مع هذا التفرق الذي كانوا فيه . ومعظم هذا التفرق ناشيء عما ذكرناه من سوء طريقة المعاملات المالية . وانتزاع الرحمة من قلوب المتعاملين . فكان من جملة شعب الاصلاح الاسلامي المقدس — إعلان أن المسلمين اخوة وارجاع أمر المال الى أساسين عظيمين : هما ملاك الحب ومنبعث الطمانينة في النفوس . فيتحقق اذ ذاك أمر الوحدة . وشأن الاخوة :

(١) الزكاة الشرعية (٢) القرض الحسن . وسمى الشرع هذا النوع الاخير قرضا لله فقال « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له » وكما حث الشرع على وجوب أداء الحقوق الى أهلها أرشد الى حسن التقاضي وعدم التشديد والاعنات في المعاملات .

ثم حمل الاسلام على منشأ الفساد في الامة ومفكك روابط الالفة بين أفرادها — أعنى الربا — حملة شديدة .

فكان مما أخبرنا الله أن أمة من الامم حلت بها نقمة الله لمنكرات كانت تأتيها « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه »

وأسلم قوم كانوا يتعاملون بالربا في جاهليتهم ثم جعل بعضهم بعد الاسلام يتقاضى مافي ذمة البعض الآخر من أموال الربا . فانزلت آية « يا أيها الذين

آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا » الى آخر الآية . وهي بمجموعها وأسلوبها غاية في الزجر والوعيد .

وهناك آيات في البقرة . وآية أخرى في آل عمران. وآية ثالثة في سورة الروم. سيقت كلها للنهي عن الربا . وبيان أضراره ووخامة عاقبته دنيا وأخرى

أما آيات البقرة فهي « الذين يأكلون الربا لايقومون الخ ــ وأحل الله البيع وحرم الربا ــ يمحق الله الربا ويربي الصدقات »

وأما آية آل عمران فهي « يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » الآية .

وأما آية الروم فهي « وما آتيتم من ربا ليربو الآية »

وتلك الآيات تدل بمنطوقها على حرمة الربا ــ وتشير بسياقها الى ان الربا والولوع به كان يصرف نفوس القوم عن ارفاد الفقراء الذين كانوا لاول نشأة الاسلام ــ في حاجة شديدة الى الارفاد والمساعدة . كما كان الربا في ذلك العهد يصرف نفوس أولئك المربين أيضاً عن الانفاق في سبيل الله الذي يتوقف عليه نشر الدعوة وقمع حدة الكفر والشرك : ذلك لان أولئك المربين اعتادوا أن لايبذلوا درهما من أموالهم مالم يتناولوا من ورائه ربحاً محسوسا معجلا . واعتقادهم هذا وحبس أموالهم عن الارفاد الادبي . والامداد الحربي معوق للدين عن النهوض . حائل بين الدعوة والانتشار . مضعف للمجاهدين الفقراء عن المضاء في المناهضة . والانكماش في الجهاد .

ومن قرأ آيات البقرة وجد أن قد تقدمها عشر آيات أو أكثر كلها ترمي الى غرض واحد وهو النعي على الممسكين . وحثهم على الانفاق في سبيل الله . وفي سبل الخير وسد حاجة الفقراء

ومثلها في ذلك آية آل عمران : فقد سبقتها آية في الحث على الجهاد والانفاق .

في سبيله . ولحقتها آية أخرى فى الحث على الانفاق وابتغاء المثوبة من ورائه .

وآية الروم « وما آتيتم من ربا ليربو »الخ سبقتها آية « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل »

وبالجملة فان الربا كان شؤماً في الجاهلية والاسلام ولولا مقاومته وتحريمه لما تقررت الاخوة والوحدة الاسلامية بين طبقات أهله . بل ربما اضطرب الاسلام في سيره فلم يصل الى الغاية المكتوبة له والمستعدّ لها بطبيعته .

وليست السنَّة بأخف حملة على الربا من القرآن . ومن أشهر ما ورد في ذلك ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن آكل الربا وموكله .وشاهده وكاتبه . وقال هم سواء » وقد أجمع علماؤنا رضي الله عنهم على أن الربا محرم : أجمعوا على تحريمه في الجملة . لكنهم اختلفوا في تفصيل مسائله وتبيين أحكامه وتفسير شرائطه . ولما كان القياس يعتمد في تقرير الاحكام وتحريم الاعمال على العلة ودورانها فهو يحرم الربا لوجود علته الشنعاء . ويلحقه بكل مامن شأنه أن يضر بالامة . ويفسد أمرها . ويضعف عرى التماسك بين أفرادها

فالربا محرم فى الشرع تحريماً لاتسامح فيه — من حيث انه مؤكد بالكتاب والسنة والاجماع والقياس .

الى هنا انتهى بالشيخ خليل الحديث . وكان أخوه وهي يصغي اليـه . ولم يشأ أن يقطع عليه حديثه أو يعترضه بالاسئلة والاشكالات . حتى اذا انتهى منه انكفأ عليه بشرح ماخطر له من الآراء والملاحظات . فقال : حقاً ان فشوّ الربا في جماعة الاغنياء وتربصهم للفقراء وأرباب الحاجات في كل سبيل : يغتنمون فرصة عوزهم . ويتخذون من خلَّتهم وخصاصتهم مزرعة للاستغلال — أن هذا مفسد للنفوس . مستأصل للرحمة من القلوب . مقطع لأواصر المودة التى يجب أن تكون

موثقة بين آحاد الامة . اذا وقع امرؤ في حاجة اضطرته الى الاستقراض كان على اخوانه أن يقرضوه . واذا أشفقوا على ماهم كان لهم أن يأخذوا عليه رهنا مثلا . وليس لهم . أن لا يُقرضوه الا بالربا . واذ فعلوا كانوا هم الآثمين . وهو الناجي الذي لا إثم عليه .

ولقد لطف الله بنا إذ حرّم علينا هذه الآفة المجتاحة للامم . المفسدة لاخلاق الشعوب .

ولم تغفل الشرائع المدنية والقوانين الوضعية النظر الى أرباب الحاجات الفقراء والحيلولة بينهم وبين أرباب الطمع . الذي لا يشبع . فتولّت هي بنفسها تقدير فوائد الديون بما لا يلحق الضرر بأولئك الضعاف المستقرضين

ثم قال وهبي لأخيه خليل : غير أن في ثنيات كلامك عن الربا ما نبه خاطري . وأثار معنى في نفسي . أحب عرضه عليك . قال وماهو ؟

قال انك قلت ان لفظ الربا في القرآن مجمل . وان الشارع لم يستقص كل وجوهه وتمنى عمر لو أنه استقصاها . وان مدار الربا في الجاهلية كان على صورة بشعة : وهي أن يستغل جماعة المربين حاجة اخوانهم المحتاجين دهراً طويلا . ثم يضعوا أيديهم أخيراً على ما بقي لهم من الاموال والاملاك ويعيدوهم الى فقر ومتربة شؤمى. وسياق آيات الربا يشعر بأن الخطاب كان مع أغنياء يقرضون فقراء . لا العكس أي فقراء يقرضون أغنياء لعدم صلاحية الحالة الاجتماعية اذ ذاك لهذا النوع من القرض . وان الآيات والاحاديث والقياس تضافرت في حظر تلك الصورة من الربا والنهي عنها والتشنيع على غواتها . وحاصل هذه الصورة البشعة أن يقرض الاغنياء الفقراء ويمتصوا دماءهم رويداً رويداً امتصاص العلق . وهناك صورة على العكس من هـذه الصورة . وبقدر ما كانت تلك بشعة منكرة كانت هذه حسنة مقبولة . فجاشت نفس الشيخ خليل لـكلام أخيه وأحبّ أن يسمع ما عسى أن

تكون هذه الصورة ؟

فقال وهبي : الصورة التي أشرتُ اليها هي أن يقرض الفقراء أموالهم للاغنياء فيمتصوا من دمائهم الغزيرة مايرفه عيشهم ولا يضر باولئك الاغنياء بل ربما أفادهم .

قال الشيخ — وقد أر بدّ وجهه — أفصح عن مرادك فاني لم أفهمه .

قال وهبي : ان الذي نبهني الى هذه الصورة بخصوصها قولك ان الفقهاء أجازوا للأرملة واليتيم وطالب العلم — أن يقرضوا أموالهم بفائدة . من أجل أنهم على ضرورة تجوز الربا بشرط المبايعة الشرعية

ولاريب أن هذه التوسعة رأي للفقهاء . واجتهاد منهم . والا فان أبا هريرة وزملاءه من أهل الصفّة المنقطعين لطلب العلم ماكانوا يملكون مايقرضونه لغيرهم ولم تكن المبايعة الشرعية المتخذة في تحليل الربا الآن — معروفة في ذلك العهد ومادام تحريم الربا مبنياً على علته الشنعاء . وتحليله لاولئك الاصناف الثلاثة مبنياً على الضرورة — فنحن نرقب تلك العلة وهذه الضرورة فنحرم الربا حيث وجدت العلة ونحلله كما حلله الفقهاء حيث وجدت الضرورة .

كان (وهبي) يتكلم بهذا وأخوه الشيخ خليل شاخص اليه وهو ممتقع الوجه منفعل النفس كأن عقرباً تدب على شغاف قلبه .

وأراد أن يقطع على أخيه الحديث مراراً فلم يطق . وكان كأنه يغريه باظهار كل ما في نفسه .

ثم قال وهبي : وان الوقوف عند حدود الالفاظ والمباني خطأ بين . ومفسد للدين . وقد استسلم له الفقهاء الى درجة ربما خالفوا بها الشارع الاعظم (صلوات الله عليه)

فصاح الشيخ خليل في وجه أخيه وقال ويحك ! وهل تريد أن تجتهد ؟ وهل

بعد جرئتك هذه جرأة على العلماء وحملة الشريعة . ومن أين بلغك انه (صلى الله عليه وسلم) لايعمل بألفاظ الشريعة ومبانيها

قال نعم ياأخي ينبغي أن تكون السلطة في النصوص الدينية للمقاصد والمعاني. لا للالفاظ والمباني . يكفيك شاهداً على هذا ما جاء في البخاري من أنه صلى الله عليه وسلم نهى الصحابة عن الانتباذ في آنية مخصوصة وهي التي يسرع الاختمار الى الاشربة التي تنبذ فيها فقال الانصار انه لابد لنا منها (أي من الانتباذ فيها اذ لاشيء لديهم يقوم مقامها) فقال صلى الله عليه وسلم « فلا اذن » أي فلا نهي وقد قال العلماء : ان النهي عن الآنية المذكورة انما كان قطعا للذريعة فلما قال الانصار لابد لنا منها قال لهم انتبذوا فيها كلها من دون استثناء ثم حذرهم الاسكار الذي هو العلة في النهي عن الانتباذ في تلك الاوعية . فهو صلى الله عليه وسلم أشفق عليهم من تناول الاشربة المسكرة فنهاهم عن أوعية مخصوصة من دأبها أن يسرع الاختمار الى ما فيها لكنه لما تبين أن تلك الاوعية لابدمنها للانصار قال لهم انتبذوا في أي وعاء شئتم ولكن احذروا المسكر . وقوا أنفسكم الاسكار . فانظر كيف أنه صلى الله عليه وسلم لم يقف على الالفاظ ولم يجعلها قيداً للحكم . وانما جعل العلة هي القيد الذي يمنعه عن الشرود والتفلت

أما الشيخ خليل فقد أصابه شبه الدوار من تفتح أخيه (وهبي) في الكلام وجرأته امامه على الخوض في المسائل الاجتهادية فلم يعد يعي ولا يسمع . ثم تمم وهبي حديثه فقال : ومثل هذا النهي كل نهي كان النظر فيه الى غيره كنهيه صلى الله عليه وسلم عن الجلوس فى الطرقات . فلما ذكروا أنهم لايجدون بداً من ذلك قال لهم : اذا أبيتم (أي فعلتم) فأعطوا الطريق حقه (أي من غض البصر . والامر بالمعروف والنهي عن المنكر) .

وقد فرح وهبي بنفسه إذ وجد نفسه يقيس ويستنبط مثلما يفعل كبار العلماء

فهجم به الزهو والعجب الى الاستشهاد بما كان من عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : وقد حصل فى زمن خلافة عمر جدب وقحط شديد انزعج له الناس وجملت أيدي الفقراء والبائسين تعبث بالسلب والنهب توصلا الى ما يمسكون به رمقهم ويطفئون نار جوعهم. فتقدم عمر الى عماله بأن لا يقطعوا يد سارق فى ذلك العام. رفقاً بالناس ورجوعا بالمعذرة عليهم . ولولم يفعل قطعت أيدٍ وتعطلت رجال . وخربت بيوت .

وهذه هي أول مرة تجرأ فيها وهبى على ان يظهر كل مافى نفسه الى أخيه مما يعلم انه يغيظه ويقع منه موقع الكراهة والاشمئزاز . ولكنه اندفع اليه من حيث لا يشعر بعامل الزهو والعجب كما قلنا . أو بعامل حب المصلحة المالية التي يبغي توفيرها لنفسه . أما أخوه الشيخ فقد بلغ به الحنق من جرأة أخيه وتفتحه فى الحديث امامه مبلغا وقد كاد ينتهره ويغلظ له القول لكنه أدرك ان صنيعه هذا ربما أدى الى مقاطعة أخيه وهجره . والمقاطعة والهجر يضر بمستقبل وهبي ويفسح امام عينيه مجالات الحرية والانطلاق فى ميادينها والتلوث بشرورها . فكظم غيظه . وأظهر التجلد . وجعل يراجع أخاه بلطف . ويناقشه فى مزاعمه وأوهامه التي حسبها حقائق برفق . فمما قاله له : إن الارملة واليتيم وطالب العلم لا يمكنهم ان يتجروا بأموالهم أما أنت فيمكنك ان تتاجر بها . واذا فتحنا للناس سبيل الربا بأموالهم أعرضوا عن التجارة وخسروا أرباحها العظيمة . واتكلوا على الربا وفوائده الطفيفة . فيفوت الامة بذلك خير عظيم . فقال وهبي فرض المسألة ان ذلك الفقير الذي معه مال لا يمكنه ان يستثمره بنفسه : لما انه لا يعرف التجارة أولم يرب تربية تجارية . ولم يزاول الاعمال الاقتصادية . فهو ان تاجر كان عرضة الخسار وضياع المال . فاذا لم يسمح لي الشرع بوضع السبعمائة جنيه التي ورثتها من والدي فى البنك مثل ماسمح لك بل أمرني أن أترك وظيفتي وأخسر مرتبها ثم

اتجر — كنت عرضة للفشل والخيبة لاني لا أعرف التجارة ولم أزاولها عمري .
واذا قال لي العلماء : لاتتجربها وانما دعها فى صندوقك كان قولهم أغرب وأبعد
عن المصلحة لاني محتاج الى فائدتها . ان لم يكن الآن فبعد الآن : ان الثمان
جنيهات التي أتناولها من وظيفتي قلما تكفيني أنا وحدي . لكن لا أبقى وحدي
ولا يرضى منى الشرع أن أبقى وحدي بل هو والعقل يحضاني على أن أحصن
نفسي وأتزوج وأؤسس لي عائلة وأخلف سلالة . توحد الله وتكثربها الامة التي
يباهي بها رسول الله . وهذا المستقبل العائلي لايكفيه ثمانية الجنيهات بل ولافائض
السبعمائة جنيه اذا أنا لم أقتصد وأوفر وأدخر .

اذا سمعت قول العلماء وخزنت السبعمائة جنيه في الصندوق وفعل غيري
مثل ما فعلت — ونحن قسم من الامة كبير — تجمع فى صناديقنا ألوف مؤلفة من
الجنيهات . وهي قوة كبرى ينبغي أن لانضيعها ، ونحن فى أشد الحاجة اليها من
حيث مجموع أمتنا وأفرادها . لو كانت أمتنا مقتطعة عن بقية الامم ومنزوية فى
بعض الاقطار — كانت إضاعتنا لتلك القوى غير مؤثرة فى مصالحنا . ولا مؤخرة
لنا عن غيرنا فى هذا الزحام المنكر . أما ونحن ممتزجون بغيرنا ومرتبطة مصالحنا
بمصالح ذلك الغير أعنى النزلاء . وهؤلاء النزلاء لا يضيعون جزءاً صغيراً
من قواتهم ، ولا يهملون وسيلة من الوسائل التي تعود بتوفير الثروة
عليهم مما يرجع الامر فيه الى إسعادهم وتحسين حالهم وترقية هيئة اجتماعهم —
اذا كان الامر كذلك فلا يحسن بنا تعطيل تلك القوى واضاعة هذه
الثمرات . يعمل غيري بذراعيه فى التغلب عليّ وأنا أعطلهما عن العمل
وأضعف بين يديه . يحرث غيري أرضه ويستنبتها وأنا أهملها وأتركها بوراً .
تمشي طائفة . وتقف أخرى . وكلا الطائفتين في بلدةٍ واحدة وتساسان بنظام
واحد . حقاً ان هذا مما يخل بالموازنة بين الطوائف بحيث يجعل احداها تابعة

للاخرى . متكلة عليها . منحطة في الحياة الاجتماعية عنها . قد يقولون لاتهمل مالك في خزينة بيتك . وضعه في البنك وترفع عن تناول فائدته تورعاً وتمسكا بآداب الدين . وهـذه لعمري أحدى الـكبر . أأعطي رجلي ويدي لغيري يمشي بهـا ويبطش . وأبقى أنا كسيحاً مجـذماً . لارجـل ولايد . ميازيب النعم تنهال من سماء الرحمة الالهية عليَّ فأحولها الى غيري يتمتع بها . ويستفيد منها . وأنا أنظر اليه . وأصلي وأسلم عليه ؟ أودع خمسا وثلاثين الف جنيه بنك (كريديليونه) فيستفيد منها هو وقومه وأحرم من فوائدها أنا وقومي .

(كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهمو من جميع الخلق انسانا)

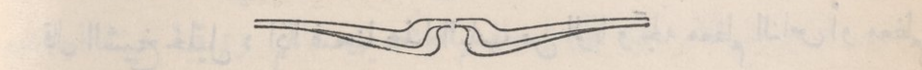
فقال الشيخ خليل وقد كاف نفسه الرفق والاناة جهد طاقته : وبعد ياأخي أريد أن تحلل ماحرمه الله وتتعرض لغضبه وسخطه ؟ ما أغناك عن كل هذا وفي الحل مندوحة عن الحرمة . اذا لم يمكنك أن تشتغل أنت بالتجارة فاقمد مع غيرك بمالك شركة مضاربة فيتاجر الشريك بالمال ويكون لك سهم من الربح . قال وهبي ولـكن الفقهاء الذين حللوا للارملة واليتيم وطالب العلم أن يقرضوا بالفائدة — فرضوا أن هؤلاء الاصناف الثلاثة لو أعطوا أموالهم لمن يتجر بها مضاربة خيف عليها الضياع . وهذا الفرض والضياع نفسه قد يتوقع لغيرهم من الموظفين والصناع الذين وفروا من كسبهم شيئاً من المال وهم في حاجة الى استثماره .

قال الشيخ خليل : اذا فتحنا هذا الباب من الربا وَلَجَه معظم الناس أو معظم الاغنياء ويقولون ان لديهم مالا لايمكنهم الاتجار به وهم في حاجة الى استثماره لانهم فقراء وحالتهم أو الوسط الذين يعيشون فيـه يستدعي تكاليف ونفقات باهظة . يكون لدى الواحد من هؤلاء مائة ألف جنيـه ثم يزعم انه فقير ويتألى على ذلك ناوياً أنه فقير بالنسبة الى البنك الذي يسلفه ماله والذي يملك ملايين من الجنيهات . اذا فتحنا هـذا الباب لايلجه الناس الى الربا وانما يلجون منه الى

الكسل والترف والتقاعد عن الاشتغال بالتجارة وغير ذلك من النتائج التي تشكو منها الامة الفرنسوية وقد أحست بتقدم غيرها عليها .

ثم أخذ الشيخ خليل يعظ أخاه بكلام رقيق أثر فيه وجعله يعتذر عما فرط منه من التهوّر في الآراء . ثم قال (وهبي) انه لايحب أولا يطمع أن يعمل هو أو غيره بآرائه هذه ولكنه يتمنى أن يكون للامة الاسلامية مؤتمر ديني كبير ينظر في هذه الشئون الاجتماعية التي حدثت بحدوث هذا العمران الغربي الجديد . وقد أصبحنا مضطرين الى اقتباسه والنزول في ميدانه . اضطراراً لانزاع فيه

ولو أحبّ (وهبي) وأخوه أن نسميهما ونعرف عنهما بأكثر مما عرفنا — لفعلنا . غير اننا اكتفينا بنشر حديثهما من حيث كان نموذجاً لموضوع كثر الخوض فيه والتساؤل عنه . وكانا هما ممثلين لفئتين : هذه تقول بتحريم الربا من دون نظر ولا مناقشة . وتلك تقول بلزوم التساهل في بعض صوره وأنواعه . لضرورة اختلاف الزمان . وماطرأ من الانقلاب على مجتمع نوع الانسان



المقامرة[1]

قال قائل : ما بال « المؤيد » في حملته الشديدة على المقامرة لم يبين شناعتها وحرمتها من الوجهة الدينية كما بينها من الوجهة الادبية والاجتماعية . فأجبته وماذا عسى الواعظ ينصح لاولئك المقامرين من أبناء ملتنا ويذكّرهم بأشدّ زجراً وأقوى دلالة على تحريم المقامرة وأنها من الكبائر في الدين — من آيات الكتاب المبين . وليس فيهم من يجهل تلك الآيات أو يماري في قطعيتها وصراحة التحريم فيها .

فشت المقامرة في الجاهلية فشواً ظهر أثره في سوء حالتهم . واختلال أمر معايشهم واستمر ذلك الداء يفتك بهم حتى جاء الاسلام . ففزع كبار الصحابة الى النبي صلى الله عليه وشكوا اليه ما حاق بهم من جرّاء انهماك القوم في المقامرة راجين أن ينزل فيه وحيٌ يدفع عنهم شرّه واذاه . ومما قالوه أن الخمر والميسر (المقامرة) مَذهبة للعقل . مَسلبة للمال . فنزلت آية البقرة « يسئلونك عن الخمر والميسر . قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس . واثمهما أكبر من نفعهما »

أما المنافع التي كانت للمقامرة في زمن الجاهلية فليس منها شيء في مقامرة زماننا بل هي اليوم شرّ محض وإثم لا هوادة فيه ولا رخصة معه .

وصفة المقامرة في الجاهليـة أنه كانت لهم عشرة اِقداح [2] وهي الازلام . لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزؤنها ثمانيـة وعشرين جزءاً . الا ثلاثة من الأزلام فانها لا نصيب لها . ثم يجعلون الأزلام العشرة في خريطة (شبه جراب من جلد) ويضعونها على يديْ عَدل . ثم يجلجلها ويُدخل يده فيخرج باسم رجلٍ رجلٍ قِدْحا منها ، فمن خرج له قدح من ذوات الانصباء

(١) كتبت سنة ١٩٠٧ م

(٢) جمع قدح بكسر فسكون خشبة السهم المنحوتة من دون نصل ولا ريش

أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح . ومن خرج له قدح لا وسم عليه لم يأخذ شيئاً وغُرِّم ثمن الجزور كله . هذه أشهر طرائقهم في المقامرة وكانوا يدفعون أنصباءهم الى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك .

فمن ثمَّ كان لاولئك الفقراء نفع من هذه المقامرة . لكن كثيرين من اللاعبين كانوا يغرمون ثمن الجزور وهم في حاجة الى ثمنه . ثم يقدّرون لأنفسهم الكسب من وراء تلك الخسارة فيعودون الى اللعب وتعود الخسارة اليهم وهكذا حتى ينكبوا ويرزأوا كلَّ أموالهم . فاذا كان للفقراء نفع بأكل اللحم كان ذلك النفع قليلا في جانب الضرر الذي لحق باولئك الذين يخسرون أموالهم . ويجيعون عيالهم . ويخربون بيوتهم بأيديهم

هذا هو نفع المقامرة الذي أشارت اليه الآية وقد وازنت بينه وبين الاثم الذي ينشأ عنها فحكمتْ بتحريمها لما أن إثمها أكبر من نفعها . فما هو النفع الذي في مقامرة هذه الأيام ؟

ثم نزلت آية المائدة نصاً في التحريم « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل فهل أنتم منتهون » والميسر هو القمار واشتقاقه من اليسر وهو السهولة سمي بذلك لان نهب المال فيه يجري بيسر وسهولة حتى في وسط البلدة فلا يحتاج الناهب أن يتدجج بالسلاح ويترصد السلب والنهب تحت جنح الليل في البراري والقفار . والرجس كل ما استقذر من عمل قبيح وكانت المقامرة من عمل الشيطان لانها مسبَّبة عن تزيينه وتسويله . وقد جمعت هذه الآية من فنون التوكيد وضروب التذكير والوعيد ما فيه مزدجر لقوم يعقلون ، ما بالك ان كانوا مع هذا ممن يؤمنون ويصدقون

فأداة « إنما » تفيد الحصر أي ليست المقامرة سوى رجس شيطاني. ثم قرن المقامرة بالانصاب وهي الاصنام فدل بذلك على مبلغ شناعتها فى الدين . وان لها من الاثر السيىء فى مجتمع الانسان ما لعبادة الاحجار والاوثان . وفى قوله رجس أي قذر تحريك للنفس وإثارة لعواطفها فتبتعد عن المقامرة ابتعادها عن القذر .

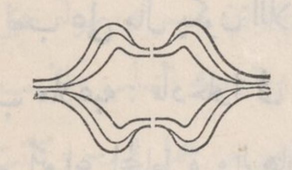
وقوله من عمل الشيطان غاية في الايقاظ والتحذير من فتنة الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم فيحسّن له القبيح ويزين اليه الباطل . فجدير بالعاقل اذن أن يتجنب المقامرة جهده لانها عمل قبيح باطل ولولا ذلك لم يزينها الشيطان . ويحببها اليه . وقوله تعالى « لعلكم تفلحون » إيماض الى أن في ترك المقامرة فلاحاً وفى ارتكابها خيبة وخذلانا .

ولم تكتف الآية بكل هذه المؤكدات والمحذرات بل رأتها غير مجزئة فى الاقناع لكثيرين ممن يحبون أن يروا الدليل بأبصارهم . ويلمسوه بأيديهم . فراعت الآية هؤلاء وقادتهم من أيديهم الى مجامع اللهو حيث يكثر المقامرون وعرضت على عينيهم الآثار السيئة التي تنشأ عن تلك الآفة ـ من العداوة والبغضاء بين المقامرين وهي قلما تطيب معها حياة وتحسن معيشة دنيوية ـ ومن ترك الصلاة والاعراض عن الواجبات الدينية وهذا قلما يكون معه فوز ونجاة وسعادة أخروية .

والمقامرة المحرَّمة كل لعب على مال يكون اللاعب على خطر من بقاء ذلك المال له أو انتقاله الى جيب ملاعبه : فأدخلوا فى المقامرة المحرمة اللعب بالنرد والشطرنج على مال وجميع أنواع المخاطرة والرهان حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب .

قالوا ومن مفاسد المقامرة أن فيها أكل الاموال بالباطل وتدعو كثيرين من المقامرين الى السرقة وذلك عند ما يفقد المال . وتدفعه أعصابه الى اللعب .

ويعده الشيطان بالكسب . فلا يجد وسيلة الا السرقة . وتارة ينشأ عن الولوع بالمقامرة والجنون فيها قتل نفس ، وإضاعة عيال . وارتكاب موبقات . وطيّ الكشح على أحقاد وعداوات . وقد يقامر الرجل فلا يعود يبقى لديه شيء فيؤول به الحال الى المتربة والفقر والتكفف وسؤال الناس . فلا جرم بعد هذا أن يصبح المقامر أعدى الاعداء لمن قهره وغلبه ونهب ماله . هذا نموذج من الضرر الدنيوي أما الضرر الاخروي فان المقامر يتلهى عن ذكر الله والصلاة والواجبات الدينية . وأنه إن كان غالباً انشرحت نفسه . ومنعه الفرح بالغلب والقهر والكسب عن أداء ما يلزمه اداؤه من الحقوق والواجبات . وان أصبح مغلوباً كان عجزه عن أداء ذلك بالاولى . بل ربما حصل له من الانقباض والكدر ما يحثه على الاحتيال لاجل أن يصير غالبا فلا يكاد يخطر فى قلبه غير هذا الامر . قال بعض الافاضل وقد شاهدت كثيراً ممن يلعب بالشطرنج يجرى بينهم من اللجاج والحلف الكاذب والغفلة عن الله ما ينفر منه « الفيل » وتكبو له « الفرس » ويصوّح من سمومه « الرخ » بل يتساقط ريشه ويحار لشناعته « بيذق » الفهم ويضطرب « فرزين » العقل ويموت « شاه » القلب وتسود « رقعة » الاعمال وتسوء معه الاحوال



الملابس والعمائم [1]

كان فيما اقتبسه الشرقيون من عادات الافرنج لهذه الازمنة المتأخرة — الثيابُ وضروب الملابس وأزياء الارتداء بها : فبعد أن كانوا يلبسون القفاطين الضافية والجبب السابغة والسراويل المخرفجة (الواسعة) أخذ الكثير منهم فى لبس الجاكيت والبنطلون والبردسي وما ماثلها من الاردية المحزقة والسراويلات الضيقة . ولم نكتف بذلك حتى غيرنا لبوس الرأس أيضاً فنزعنا العمائم واستبدلنا الطرابيش بل والبرانيط — بها .

واللباس عند العرب فى الاعم الاغلب ازار يعقدونه فى أوساطهم ورداء يلقونه على أكتافهم فيسترسل على ظهورهم الى مايلي أحقائهم . ويقال لمجموع الازار والرداء حلة . وكان العرب يلبسون المخيط كما كانوا يشتملون بالبرودن والمطارف مما لم يكن مخيطا . واذا أردنا أن نعرف أزياء العرب فى ملابسهم وهيئاتهم فى احتبائهم واشتمالهم (لبسهم الشملة) وأشكال أقبيتهم وعباآتهم — عسر علينا ذلك أو أشكل علينا فهمه . فلا كتب اللغة تصفه لنا وصفاً دقيقاً . ولا كتب التاريخ تشرحه شرحاً وافياً . ولا شيء يصف الالبسه وأزياءها وكيفية لبسها مثل التصوير والرسم والنحت . وهذه الفنون كانت مجهولة عند العرب . ثم جاء الاسلام فقضى عليها وزهد فيها فبعد أن كنا جاهلين كيف كان العرب قبل الاسلام يلبسون ثيابهم وما هي ضروبها وهيئاتها — أصبحنا جاهلين أيضاً ماكان من ذلك فى القرون الاسلامية . فكيف كان يلبس هرون الرشيد ووزيره الفضل وقاضيه أبو يوسف ونديمه أبو نواس ومغنيه اسحق و رؤساء اجناده وكتاب دواوينه والسوقة في زمانه ؟

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م

نعم قد يرد شيء من وصف اللبوس عرضاً في كتب الادب كالاغاني مثلا لكنه لا يشفي غلة . ولا يكفي في الافادة : مثل أن يقال ان أبا يوسف هو أول من استحدث هذا الزي الخاص بالفقهاء ليتميزوا به عن العامة . وان الوزير الفلاني كانت عنقه طويلة فاتخذوا له زيقا عريضاً (ياقة) يستر عنقه ويواري مااستقبحته العيون من طولها . وقد اشتهر هذا الزيق بنسبته الى ذلك الوزير

ويظهر من الرسوم والنقوش والصور المحفوظة في كتب تاريخ أهل الشرق لا سيما الكتب الدينية المتداولة عند أبناء ملله المختلفة — أن لباس الشرقيين في الاعصر القديمة كان يتألف غالبا من عمامة يلوثونها على رؤوسهم . وقفطان له ذيول سابغة . وجبة ضافية تلبس فوق القفطان ـ بحيث تنطبق عليه الى ماتحت الا كاحل ويشدون على أوساطهم فوق القفطان زناراً من قِدّ أو نسيج يلوونه أدواراً . وقد يكتفي أحدهم بلبس قميص أو جلابية طويلة الى انصاف ساقيه . ثم يشد وسطه بزنار ينوط به أحيانا ما استرسل من ذيول القميص .

وكان العرب يقتبسون من الامم التي تجاورهم ويخالطونها ـ كثيرا من الازياء وضروب الملابس . بدليل أن في أسماء تلك الملابس طائفة من الالفاظ الاعجمية وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم لبس الجبة الرومية وكانت أكمامها ضيقة فكان يضطر عند الوضوء الى نزع يده من الكم فيغسلها ثم يعيدها الى الكم . والزي الذي اقتبسه ابو يوسف واختاره للفقهاء كان من لبوس كهنة الروم في ذلك العصر وفي عصرنا هذا .

وضروب اللبوس عند العرب وأجناسه وأشكاله كادت تفوق حد الحصر : خذ مثلا الثوب المسمى باسم مافيه من النقوش : المسهم مافيه صورة سهم . المدنر مافيه صورة دنانير . المبرج مافيه أبراج . المصلب صلبان . المرحل رحال (اقتاب) المرجل مراجل (قدور)

وهناك المِرط . المِطرف . الحِبرة . الكرباس . الرَّيطة . الجلباب . الخميصة القطيفة . النمرة . البردة . البتّ . وربما كانت هذه الاثواب أو معظمها مما يلبس وهو غير مخيط .

وعندهم العباءة القباء السراويل الدُّرّاعة القميص الصدار الجبة وهي من المخيط .

نقل الينا كثير من هذا مما يدل على تفننهم وعدم وقوفهم فى ذلك عند حد محدود ـ كما نقل الينا أيضا أسماء كيفيات اللبس : مثل التلفع والاضطباع والاشتمال والاحتباء : فالاشتمال أن تدير الثوب على جسدك كله . والشملة الصماء هي أن تشتمل بالثوب ولا يكون تحته قميص ولا سراويل . والسند أن تلبس قميصا طويلا تحت قميص أقصر منه . ثم يصفون البرنس فيقولون هو ثوب رأسه منه ملتزق به . والسبيجة (كلمة فارسية) ثوب له جيب ولا يدان له ولا فرجان . والفرُّوج قباء فيه شقّ من خلفه . وفي الحديث « صلى بنا عليه الصلاة والسلام وعليه فرّوج من حرير »

ومجموع ما نقل الينا من شؤون ملابس العرب واكسيتهم في كتب اللغة والأدب قبل الاسلام وبعده ـ يراه قوم كافيا في الافادة . ويقول آخرون انه خِداج مشوه لا يعطينا الحقائق كاملة . ولا يصور لنا الهيئات والازياء كأنها ماثلة

أما العمامة فليست منزلتها في الحسن والنفع دون منزلة اللباس . ويكفي في شرفها أنها شعار الشرق منذ الازل . ولا يبعد أن تكون مما اتخذه أبونا (آدم) لاول هبوطه من الجنة وقاية لرأسه وجسمه من حرارة الهند والحميات التي تكثر في جنوبها ولم يعهده في الوطن المحبوب الذى فارقه . وليست هي من شعار العرب والاسلام خاصة لنحكّم في المسألة التحزبات الجنسية والعصبيات الدينية : فقد كان يلبسها العبرانيون وغيرهم من الطوائف الذين في صف العبرانيين أو

انشعبوا منهم . والعرب أنفسهم أن لم يكونوا اهتدوا اليها بالسائق الطبيعي من اقليم جزيرتهم لتكون لهم وقاية من شدة الحر - فانهم اقتبسوها من اخوانهم الاسرائيليين. وهؤلاء كهنة القبط يلبسونها الى اليوم

ولماذا نقول ان العمامة وقاية من الحر ؟ الاجدر أن نقول انها وقاية من الحرّ والبرد وماماثلهما من العوارض الجوية . والصدمات الفجائية . ولو كان على رأس المستر (بول) عمامة لما ضربته الشمس . ولما كانت حادثة دنشواى المشؤومة . وانك لترى قبعات بعض الفرق في الجيش الانجليزي محاطة بقماش أبيض يشبه في شكله والتفافه العمامة . وليس هذا سوى وقاية لهم واحتفاظ بصحة رءوسهم .

وقيل لاعرابي انك لتكثر من لبس العمامة قال « إن شيئا فيه السمع والبصر لجدير أن يؤتى من القرّ » يعني ان الرأس الذى حوى هذين الحاستين الكريمتين يخشى عليه من سطوة البرد .

وذكرت العمامة عند أبي الاسود الدئلي فقال « جُنة في الحرب . ومِكَنَّة في الحر . ومدفأة من القر . ووقار في النَّدِيّ (المجتمع) . وواقية من الاحداث (العوارض المفاجئة) . وزيادة في القامة »

(أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا　　متى أضع العمامة تعرفوني)

(فجاءت به سبط العظام كأنما　　عمامته بين الرجال لواء)

وقد سمعت فاضلا مسيحياً من شبان العصر يذكر العمامة ويصف من حسنها ونفعها وجمال هيئتها وانه لم ير عَمارة (بفتح العين كل لبوس للرأس) أحسن منها . وأنه يتمنى أن يعتمر بها لو خُلي ونفسه .

ولو بحثنا عن معظم انصراف القلوب عن العمائم لما عدونا في السبب - السيدات : فانهن يحسبنها شعاراً خاصاً برجال الدين . والدين صولة عليهن . وهيبة في نفوسهن فهن يحدن عن العمامة لذا كهو السبب . ولكنهن اذا تأملن وأنصفن

لما عدلان بها سواها . واذ ذاك تكثر العمائم . وينتعش الشرق بانتعاش عاداته الحسنة . وتقاليده الجميلة :

قال غيلان ابن خرشه للاحنف . يا أبا بحر مابقاء مافيه العرب ؟ قال « اذا تقلدوا السيوف وشدوا العمائم واستجادوا النعال ولم تأخذهم حمية الاوغاد » قال وما حمية الاوغاد ؟ قال « ان يعدوا التواهب ذلا »

يريد الاحنف أن بقاء الامة انما يكون ببقاء الاخلاق العالية التي تميزها : كالشجاعة في الذياد عن الحق . والسخاء في السبل المشروعة . والاحتفاظ بالعادات والمميزات القومية . لكنني أصدق القاريء أنني لم أفهم المغزى أو السر في قوله « واستجادوا النعال » أي اتخذوها من الجنس الجيد

وفي الحديث « العمائم تيجان العرب فاذا وضعوا العمائم وضعوا عزهم »

وليس هذا فقط بل ان العمامة نفسها كانت تسميها العرب « تاجا » . ومن أسمائها أيضا المقعطة والقعاطة والعميرة والسِبّ (بكسر السين) والمِشْوَذ والمكوّرة والعصابة . ومن أوصافها القفداء والعجراء والميلاء . وكل هذا مما يدل على شرفها ومنزلتها بل لوقلت ان العمامة شعار السيادة واداة الرئاسة عند العرب ـ كما أن التاج والصولجان شعار الملك عند غيرهم من الامم ـ لما كنت مغاليا . يرشدك الى هذا أن العرب كانوا يقولون « فلان معمم » يعنون مسود . فلولم تكن العمامة شعار السيادة . ومرقاة السعادة ـ لما قالوا ذلك



الصابئة والحنفاء [1]

بحث تاريخي ديني

المسلمون وغيرهم من أرباب الاديان السماوية على اعتقاد واحد فى ان آدم هو أبو البشر وانه أول نبي أوحى الله اليه بدين تؤدي ممارسته الى صلاح حاله وصلاح حال بنيه . ثم تشعَّب بنوه وتكاثروا وكانوا أحياناً كثيرة يضلون عن دين أبيهم السماوي فيرسل الله من إخوتهم وأولادهم رسلا مبشرين ومنذرين ويجتهدون فى ارجاعهم الى الدين الصحيح الذي هو أول ماخوطب به أبوهم آدم (عليه السلام) وكان هؤلاء الرسل كثيرين أشهرهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام . يكاد أبناء الاديان السماوية يتفقون على هذه المقالة تقريباً . أما الباحثون فى تاريخ الاديان فيخالفونهم قائلين : ان أول ما عرف من الاديان هو (دين الصابئة) وهذا الدين كان تقريباً هو الدين المنتشر فى اقطار الارض والمستولي على عقول سكانها . وما زال شأنه كذلك حتى زمن ابراهيم عليه السلام فظهر دين سمي (دين الحنفاء) كان ابراهيم صاحبه ومؤسسه أو يقال مبلغه الى بنيه وبواسطتهم انتشر بين البشر . أما (دين الصابئة) فمداره على التصديق بالله قديم خالق لهذا الكون ولما كان البشر غير قادرين على الاستمداد منه والتلقي عنه مباشرةً كان الواجب التوسل اليه بالروحانيات . والروحانيات عبارة عن الكواكب السبعة أو السيارات السبع المعروفة فى تلك الازمان القديمة . فكل كوكب له روح تدبره كما تدبر الروح الانسانية الجسد المستقرة فيه . فهذه الروحانيات السبع هي الواسطة بين البشر وبين خالقهم . ولها تأثير فى هذا العالم بواسطة « الاتصالات » و « القرانات » فهي تُسعد وتشقي وتفقر وتغني وتميت

---

(١) كتبت سنة ١٣٣٥ هـ

وتحيي فتكون اذن آلهة مدبرة لكنها مخلوقة للاله الاول إله الآلهة ورب الارباب وان تطهير نفوس البشر وحصول رضاء الله تعالى يكون بواسطة هذه الروحانيات والصلاة اليها وعرض أحوالهم وحاجاتهم عليها . فمن ثم كان الواجب أن يبنوا لها هيا كل يقيمون فيها تماثيل وأصناما تكون مذكرة بها . وقبلةً للاستمداد منها والتضرع اليها . فبنوا سبعة هيا كل متفرقة فى اقطار المعمور : فى بابل (العراق) واصفهان وبلخ (فارس) وفرغانة (الترك) ومولتان وسدوسان (الهند) وصنعاء (اليمن) وكل واحد من هذه الهيا كل وضع على اسم روحاني او جرم من الاجرام السماوية . فهيكل بلخ واسمه (البهوبار) على اسم القمر وهيكل صنعاء (واسمه بيت غمدان) على اسم الزهرة وهيكل فرغانة واسمه (كارشان شان) على اسم الشمس وهيكل الصين على اسم العلة الأولى وهكذا هيكل الهند المدعو (سندوساب) وهيكل ايران المدعو (مارس) الذي حوله (يستاسف) الى بيت نار بعد ان تمجس . وقال بعض المؤرخين ان (البيت الحرام) بمكة وضع أيضاً على اسم زحل حتى قام ابراهيم وقومه الحنفاء وحاربوا هم والمجوس عبادة الصابئة . فكانوا كلما تغلبوا على أمة منهم دمروا هيكل أصنامها . وبنوه بيتاً للنار أو مسجداً لعبادة الله الموصي بالدين الحنيف . والحقُّ « ان أول بيت وضع للناس لَلذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين » كما جاء فى القرآن الكريم . وقد انتشرت عبادة الصابئة وعمت تقريباً وجه الارض واقتبسها العرب والفينيقيون واليونان وغيرهم من الامم و بنوا لها الهيا كل وجعلوا يقدمون لهـا القرابين ويتوسلون اليها بالبخور والعزائم والصلوات . ثم حمل عليها دين الحنفاء حملةً منكرة فزعزع بناءها . وأتى عليها من القواعد الا قليلا . والمظهر الاكبر لدين الحنفاء هو (ابراهيم الخليل) ابتعثه الله لهداية البشر وانقاذهم من عبادة الكواكب والاصنام . ولم يكن ابراهيم ممن تأخذه فى دين الله لومة لائم . أو

يراعي فى تنفيذ أمر الله أحداً . فرد على أبيه آزر و بين له سوء عمله وجعل يجادل أرباب (الروحانيات) من الصابئة . ويسلك معهم من الحجة والاستدلال طرقاً منطقية عقلية غاية فى البساطة والاقناع والتقريب . من ذلك مسألة ظهور الاجرام (الكوكب ثم القمر ثم الشمس) فكان يقول لهم كلما بزغ واحد منها هذا ربي وانا أيها الصابئيون مؤمن به مثلكم (فرضاً لاحقيقة) حتى اذا نزل بها الخسف والأفول عاد عليهم بالنقض والتجهيل وتسفيه الرأي وأثبت لهم أنهم على ضلال وان الله الحق لا يمكن أن يمثّل أو يصوّر أو يتخذ جسما مادياً يحلّ فيه . وهذه الاصنام التى كسرها وحطمها ووضع في يد كبيرها الفأس وقال لعبدتها لما سألوه « من فعل هذا بآلهتهم ؟ » إن الذي فعله كبيرهم وهو اسلوب آخر في الحجاج والمناظرة ولم يزل هذا دأبه مع أولئك الصابئة حتى أظهر دين الله في أهله وبنيه ثم حمل الكافة عليه . ورفع القواعد من البيت الحرام فى بلاد العرب وبيوتاً أخرى من فلسطين ومصر بواسطة أولاده واحفاده وبقى البيت الحرام معبداً للحنفاء على دين ابراهيم حتى كان زمن عمْرو بن لحيّ الذي ساد العرب وغلب على مكة فجاء البلْقاء من أرض الشام فوجد قوماً من الصابئة يعبدون الأصنام . فحمل منها صنما كبيراً وهو (هُبَل) الى البيت الحرام وقد حوّل البيت بذلك عن دين الحنفاء الى (دين الصابئة) . وبقى البيت الحرام كذلك حتى جاء الاسلام فطهره منها للعابدين والعاكفين والركّع السجود . وعاد الى دين (الحنفاء) مؤسسيه من الاصل

قلنا ان ابراهيم هو أكبر نبيّ قام للحنفاء وهو الذي أظهر دين الحنيفية ونشرها هو وبنوه على رؤوس الامم . وذكرنا كيف ابطل عبادة الكواكب والروحانيات أو الآلهة السبعة وأمر الناس أن يعبدوا إلهاً واحداً يَرى ولا يُرى وان عليهم أن يصلوا اليه وحده . ويتقربوا اليه وحده . ويتلقوا أوامره

ونواهيـه بواسطة رسل وأنبياء من البشر . فهم واسطته اليهم . ومبلغوهم وحيه من دون أن يكون لهم تأثير . وأنما التأثير لله وحده .

(فالصابئة) كانوا يتوسّلون بآلهة سبعة صغار ذات تدبير وتأثير ـ الى إله الآلهة . أما (دين الحنفاء) فقد علَّم البشر بأن لا يتوسلوا اليه الا برسله : فهم الذين يجب أن يكونوا واسطتهم اليه من دون أن يكون لهم تأثير أو تصرف فى هذه الكائنات . ذكرنا آنفاً كيف كان (ابراهيم عليه السلام) يسلك مع أولئك الصابئة فى تقرير أمر الاآله الحق وكيف كان يُفرغ تلك المناظرة معهم فى أغرب القوالب .ويتوسل إلى الاقناع بأقرب الوسائل .

أما طريقته فى إبطال طقوسهم وعباداتهم الدينية فكانت باسلوب أقرب . وفى قالب أعجب : من ذلك أن الصابئة كانوا يقدّمون الى آلهتهم ذبائح وقرابين بشرية . وكانوا أحياناً يطرحون أولادهم الصغار الاحياء على ذراعي الصـنم الحاميتين بما يوقد تحته من النار . فلا يلبث الطفل أن يموت شيّاً . فأوحى الله سبحانه وتعـالي الى رسوله ابراهيم أن يذبح ابنه ويقربه اليه كما تفعل الصابئة بتقديم أطفالهم الى آلهتهم ذبحاً وحرقاً . فأطاع ابراهيم ربه وتهيأ لذبح ولده بل كاد يفعل . فأوحى الله اليه أنّ ذلك لا يكون في (دين الحنفاء) الحق وانما هو من (دين الصابئة) البـاطل وان اللائق بالحنيفية ورحمتها وسماحتها أن يتقرّب المقربون الى الله بتقديم الذبائح من بهيمة الانعام . فقام ابراهيم (صلوات الله عليه) وقدم الى ربه فداء عن ابنهمن ذبيحة الانعام كبشاً لم ير الراءون انفس ولا أحسن منه . وكان ذلك ولا ريب على مرأى ومسمع من أولئك الصابئة فكان لهذه الفدية المعقولة أحسن الاثر في نفوسهم . وعرفوا مقدار مابين شريعتهموشريعة الحنفاء من الفرق العظيم . واللطف الجسيم . وان دين الحنيفية دين سعادة ورفق وهناء . علي العكس من دينهم فهو دين قساوة وبربرية وشقاء . وهكذا أدال الله للحنفاء من الصابئين . وكان حقاً عليه نصرُ المؤمنين

المرأة (١)

علمها علماً صحيحاً أو دعها على سذاجتها

لأن تبقى المرأة جاهلة خير من ان تتعلم تعلماً ناقصاً : أو تتربى تربية فاسدة

المرأة التي تظل محافظة على سذاجتها الاولى : فلم تتلق شيئاً من مباديء العلوم والفنون . ولم تمارس القراءة والكتابة قد يتيسر لنا ان نقنعها بأنها جاهلة ثم نوصيها بلزوم الرجوع في تربية طفلها الى رأي من هو أعرف منها بشؤون التربية

ومثل تربية طفلها تدبير منزلها ورؤية مصالحها : نحسّن لها في جميع ذلك ان تعتمد على مشورة زوجها والخبيرين من ذوي قرابتها . أما تلك التي تعلمت تعلماً ناقصاً . ورأى أولياؤها ان لا يعطوها من مباديء العلم سوى قراءة القرآن وكتابة « ابجد هوز » و « جناب الاكرم » حاسبين ان ذلك القدر أليق بها وأحوط في سلامة دينها وآدابها ـ هذه المرأة تصبح بهذا التعلم الخداج . ذات عجب وعناد ولجاج . فلا تعود تصغي لمشورة من هو أعلم منها . ولا تقف في إفساد تربية ابنها وتدبير منزلها عند حد !

تسيء الظن بزوجها فتغل يده عن استثمار مالها والانفاق على أطيانها لتحسينها وتنميتها . تدير شؤون المنزل على غير ما تقتضيه قواعد الاقتصاد وأصول الصحة ووسائل التطهير والنظافة . تحاول تربية أولادها فتخل بقوانين التربية . وتفتئت على المربي الخبير اعتداداً بكفاءتها وأن معرفتها لقراءة القرآن جعلتها أهلاً لكل شيء ، وعالمة بكل شيء ، وخبيرة بكل شيء .

تريد أن تلقن ابنها المراهق شيئاً من مباديء الاخلاق والآداب فتحكي له قصص العفاريت والاساطير المكذوبة أو تملي عليه أبيات عشق وغرام كانت

(١) كتبت سنة ١٣٢٨ هـ و ١٩١٠

سمعتها عن بعض أترابها في كتاب سخيف ركيك . وضعه واضعه لتعليم الأحداث صناعة الانشاء .

ها هي واقفة في رأس السلم تقول لابنها وهو ذاهب الى المدرسة : حوطتك بكلمات الله التامة سلمتك الى واحد أحد . امسك يابنيّ بالدرابزين جيداً لئلا تزلق رجلك

خرج الولد من باب الدار فاذا امه تهتف به من الشباك وتوصيه بالابتعاد عن شاطيء البحر لئلا يغرق . وعن الكلاب لئلا تزعجه أو تعضه . وعن الحفر لئلا يقع فيها . ثم تلح عليه أن يشدّ المنديل على عنقه خوف لذع البرد وأن يُطبق المظلة على رأسه خشية أذى الحر .

رجعت الام بعد هذه الوصاية المتكررة الى غرفتها . أرادت الادلال على زوجها . والتباهي على جارتها . فرفعت صوتها بتلاوة القرآن تارة ودلائل الخيرات تارة أخرى .

أواني المطبخ لم تزل من دون تنظيف . أرض الدواليب لم تزل من دون مسح . طعام الغداء لم يزل الزوج يجهل أمره . ويتساءل ما ذا عساه يكون ؟ وضيوفه كرام يجب أن يتجمّل أمامهم ويكافئهم على ايادٍ لهم عليه . الطفل الصغير غلبه النوم في احدى زوايا تلك الدار والذباب يتطاير من فوقه . والروائح الخبيثة تنبعث من تحته .

رأى الرجل الحالة على ماوصفنا فنادى امرأته ورغب اليها أن تنهض لمراقبة أمور البيت وتهيئة الطعام

تغافلت المرأة عن زوجها . أو أن دويّ صوتها بقراءة دلائل الخيرات حال بينها وبين سماع النداء !

هتف بها ثانية فردت عليه بخشونة وجعلت تؤنّبه على اساءته الأدب مع مؤلف دلائل الخيرات وانها تخشى عليه أن يبطش به !!

ضاق صدر الرجل فكان يتفوّه بما لا يليق في حق أهل الله ثم سكت على مضض .

ولا نعلم ماذا جرى بين الرجل وامرأته ولا كيف كان أمر الغداء . ثم نذهب مع القاريء الى تلك المرأة التى عرف أولياؤها كيف يعلمونها و كيف يجعلونها تستفيد من الذي تلقته .

تزوجت فياهناء زوجها بها . رزقت أولاداً فياسعادة أولادها من أجلها تعلمت القراءة والكتابة ولكن لم تتعلمهما لذاتهما وانما تتعلمها لكي تتوصل بهما الى درس حقائق أعلى . وتحصيل فوائد أغلى .

قرأت القرآن بامعان وتفهم : فكانت تتناول بعض الآيات و تشرح معناها لاولادها شرحاً مفيداً غاية في السهولة والتقريب . غرست في نفوس أولادها عظمة الله تعالى ووجوب خشيته واستمداد المعونة والتوفيق منه .

وكثيراً ما أسمعتهم الآيات التى تحض على ممارسة الخير والفضيلة . وتطلب منهم أن يستظهروا ألفاظها ويتفطنوا لمعانيها

ولم تكتف من العلم بهذا القدر فقط بل رأت (من الواجبات) عليها باعتبارها ربة منزل أن يكون لها إلمام ومشاركة بفن الهيجين (حفظ الصحة) ثم لاحظت أنها لاتقدر على تربية أولادها تربية صحيحة مالم تدرس فن الأخلاق وعلم النفس ومعرفة أسرار قواها المختلفة .

قالت : انما أكون سعيدة اذا كان زوجي وأولادي أصحاء الأجسام . ولا تدوم الصحة لهم ما لم أكن عارفة بالاصول والقوانين التي قدرها العلماء في حفظ الصحة .

ثم ماذا تكون فائدة الصحة اذا لم يقترن بها أخلاق حسنة . وتربية فاضلة ؟ فمن ثمَّ كان الواجب علي ان أجمع بين درس الفنين : فن الصحة وفن التربية .

كانت تختلس فرصاً من وقتها ثم تقبل على مطالعة الكتب التى وضعت في هذين الفنين الجليلين . وكثيراً ما كان يستعصى عليها فهم بعض المسائل فتستأذن زوجها أن تكتب لبعض الاخصائيين في هذين الفنين . فكان يأذن لها منشرح الصدر هادىء البال

قالت اذا كان الحجاب يحول بينى وبين التردد على أفاضل العلماء في منازلهم فها أنذا بحمد الله أستطيع الكتابة اليهم بعبارة فصيحة فلا أدع الحجاب يحجبني عن القيام بالفريضة الدينية وهي (طلب العلم)

وقد كتبت مرة الى بعض نُطُس الاطبـاء تسأله رأيه في مهد طفلها : هل تتخذه مما يهزّ باليد هزاً أو يكون ثابتاً يتحرك ؟ فكتب اليها يقول : « الافضل أن يكون المهد ثابتاً : لان الولد اذا اعتاد الترجّح في الارجوحة اضطرب نومه وغلب عليه القلق والأرق . أو تبقى يد الام قابضة على دفة السرير طول الليل وهذا مما يذهب براحتها ويحرمها طيب المنام . واذا أرادت الأم أن تستزيد من الراحة لها ولطفلها فلا تستعمل عادة التقميط فتشد على أعضاء الطفل وتجعله كطرد « البوسطة » أو « كالمومياء المصرية » وشد الطفل على هذه الصورة يضايقه ويضطره الى البكاء ومتابعة الشكوى من هذا الظلم الفادح . ولكن الام الجاهلة لا تنتبه لسبب بكائه فتحسبه انما يبكي فجوراً منه أو نكاية بها فتأخذ في هز المهد والتسخط عليه وعلى القدر طول الليل » اه

ومما رأت هـذه الام الفاضلة أنها في حاجة الى تعلمه ــ مبادىء الكيمياء ودرس طباع المعادن وخواص الأجسام فتعرف الضار منها من غير الضار والسام

من غير السام

وبعد خمس عشرة سنة من زواجها صار لها بضعة أولاد ، فكانت بعد رجوعهم من المدرسة تكثر من مفاكهتهم ومداعبتهم . ثم في غضون ذلك تودع نفوسهم مسائل العلم واحدة فواحدة

ولا أنسى اذ كانوا مرة في صحن الدار وكانت الحاجّة (طباختهم) قد ذهبت الى بيت الجيران في بعض شأنها ، فنادت الام أولادها قائلة ذهبت « الحاجة » وسوف تمكث عند الجيران أكثر من ساعة ، اذ أننا نعرفها تكثر الحديث وتحسن الاقاصيص . فلنغتنم فرصة غيابها أيها الأولاد . ولننزل الى المطبخ ، ونشاهد ما فيه من الأواني والأدوات المختلفة . أظنكم أيها الصغار لا تعرفون أنواع المعادن . وان في المطبخ من المعادن مجموعة نفيسة : هلموا معي اليها

فترا كض الاولاد وراء امهم مسرعين. آه ما أحسن تصفيف هذه الأواني وما أشد ما اعتنت (الحاجّة) بتنظيفها . شكراً لك أيتها العجوز

انظروا هذه المقالي والقدور الصغيرة فهي من النحاس . والنحاس معدن نافع جداً يستخرج من جوف الأرض . والذي يَصنع منه الأواني يسمى نحّاساً . وهذا النحّاس يتوصل الى صنع القدور النحاسية بوضعها على السندان وضربها بالمطرقة الضخمة .

ثم التفتت الى ابنها الصغير (وهبي) وقالت : هل تعرف ياوهبي ما هو السندان وما هي المطرقة ؟ قال : نعم يا أماه كنتِ اريتنيهما فى حانوت الحداد القريب من دارنا .

انظروا هذه القدر التي وضعتها (الحاجّة) في ناحية بعيدة عن سائر القدور أتعرف السبب في ترك استعمالها ؟

كلا يا اماه !

السُم ترونها كامدة اللون ؟

بلى يا أماه

احترزوا أيها الأولاد من أن تضعوا شيئاً من هذه المادة الخضراء في أفواهكم . هذه البقع يسمونها (الزنجار) وهو أحد السموم القتّالة . لننظر الآن في القدور الاخرى النظيفة التي نطبخ فيها .

داخلها لامع نظيف . وهو مغطى بطبقة رقيقة من معدن أبيض . وهذا المعدن يسمى (قصديراً) وليس القصدير كالنحاس في تولّد سم الزنجار عليه ، ولذلك يطلون به النحاس .

اذا طلينا النحاس بطبقةٍ رقيقة من القصدير قيل انه (مبيّض) اما اذا مزجنا النحاس والقصدير معاً بعد صهرهما كان لنا منهما معدن يسمى (برنزا) .
والتفتت الى ابنها (حسني) وسألته هل تعرف معنى الصَّهر ؟ قال لا . قالت الصهر تذويب المعادن وجعلها بحالة السيلان . ثم قالت لهم : هو ذا شمعدان من معدن البرنز . والجرس الصغير المعلق على باب الدار يعلن مجيء القادمين من وقت الى آخر هو من البرنز واجراس الكنائس التى تسمعون أصواتها متخذة من البرنز أيضاً . وكانوا قديماً يصنعون المدافع من البرنز وبقوا على ذلك زمنا .

وكان البشر في أول أمرهم يستخدمون شظايا الاحجار (أي قطعها) في ضروب مرافقهم . فكانوا يتخذون منها سكاكين وفؤوساً . ويسمى ذلك العصر بالعصر الحجرى . ثم اهتدوا الى النحاس ومزجوه بالقصدير فحصلوا على معدن البرنز ومن هذا البرنز كانوا يصطنعون أسلحتهم وأدواتهم وما زالوا على استعماله حتى عرفوا الحديد في العصور الثالثة ويسمى هذا الطور الثالث للبشر (العصر الحديدي)

والحديد أنفع المعادن قال تعالى « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . فأعترض (حسني) والدته وكان أكبر اخوته قائلا : ياأماه وهل نزل الحديد من السماء ؟ قالت كلا وانما خرج من الارض قال : فكيف يقول الله تعالى « أنزلنا » ؟ قالت ان معنى « أنزلنا » هنا وهبنا ومنحنا

ثم قالت لهم ليس الحديد جميل المنظر ولا هو بذى لمعان وبريق كغيره من المعادن ولكن مع هذا لا ينبغي لكم أن تحكموا على الشيء بمجرد النظر الى هيئته الظاهرة . فان للحديد مزايا لا توجد في سواه . أعظم تلك المزايا صلابته ومقاومته للضغط الشديد الذي يقع عليه . وهذا الموقد من الحديد . ويستخرج الحديد من الارض ممزوجا بشوائب أُخر فيصهرونه بواسطة موقد كبير حتى يمحصوه من تلك الشوائب . ويسمى الحديد بعد هذا التمحيص (حديد الصلب) وهذه القدر الصغيرة من ذلك الحديد . واذا طلينا الحديد بالقصدير خرج لنا معدن هو (الصفيح) وهذه الآنية الصغيرة التي نسوى فيها القهوة من الصفيح واذا اضيف الى الحديد مقدار قليل من الكربون ازداد صلابة وسمي حينئذ (فولاذاً) وهذه السكين التى ترونها على (الترابيزة) متخذة من الفولاذ

لنفتح الآن درج (الترابيزة) : هذه ملاعق من القصدير الممزوج بمعدن آخر لين ثقيل هو « الرصاص »

ثم قالت لهم مشيرة الى الجدار : انظروا الى المرآة . المرآة نديم المرأة . ومن عجيب أخلاق النساء انهن يحرصن على اصطحاب هذه الأداة حتى في المطبخ !

هذه الطبقة اللامعة التي تغطي سطح زجاج المرآة من وراء والتي بسببها تنعكس صوركم الى عيونكم — هي مزيج من القصدير والزئبق

والزئبق معدن أبيض لونه كلون الفضة . واذا كانت حرارة الهواء اعتيادية

كان الزئبق فى حالة ميوعة . حتى اذا أردت القبض عليه بيديك فر وتفلت من بين أصابعك . ومن أجل ذلك كني عنه غواة الكيمياء القديمة بالعبد الفرار . وانشدوا في بعض منظوماتهم :

خذ الفرار والطلقا وشيئاً يشبه البرقا
فان أحكمته سحقاً ملكت الغرب والشرقا

ومعدن الزئبق يذكرنا بالفضة . انظروا أدوات الفضة . ها هي منضودة بعضها فوق بعض فى الخزانة . انظروا الى الملاعق والشوك ما أشد لمعانها وما أكثر بريقها . والفضة من المعادن الثمينة . وهو قلما يتغير لونه مهما تعرض للهواء وهناك معدن آخر أثبت منه . وأقل تغيراً . هو معدن الذهب . انظروا الى خاتمي هذا : فهو من الذهب . ولست في حاجة الى جلائه أو تنظيفه . فاذا أضفتم الى هذه المزية مزية لمعانه الجميل ومزية ندرة وجوده عرفتم اذ ذاك مبلغ نفاسته وفضله على سائر المعادن . والنقود ذات القيمة العالية تتخذ من الذهب لكنهم يضيفون اليها قليلا من معدن النحاس ليكسبها فضل صلابة . هاموا بنا أيها الاولاد نضع كل شيء فى محله ونرتب الادوات الفضية كما كانت أولاً . ولنعد النظام الى هذه المملكة الصغيرة ، فان المطبخ هو مملكة (الحاجة) التى لها فيها مطلق التصرف

كيف أيها الأولاد أما جعتم ؟ ان هذه الروائح الطيبة الفائحة من فوق القدور تبشرنا بغذاء شهي لذيذ . ها هو اللحم ينضج . واني أقول لو كانت طباختنا (الحاجة) هي وقدورها في بلاد (الاسكيمو) لكان لها شأن يذكر .

قالوا ولماذا ياأماه !

قالت الاسكيمو سكان الشمال حيث الجليد الدائم وليس لديهم معدن يتخذون منه قدوراً ولا تراب يصنعون منه اوانى خزفية . فان التراب اذا استحكم جفافه

أصبح صلداً صبوراً على احتمال النار . ومن لم يقدر على اقتناء قدر من نحاس اقتناها خزفا . واذا فقد النحاس والخزف فكيف يمكنه طبخ طعامه ! والاسكيمو كيف يصنعون ؟

يتخذ الاسكيمو مكان القدور جراباً من جلد وفى هذا الجراب يطبخون مايقتاتون به من اللحم . فصرخ أحد الأولاد : كيف ذلك ياأماه انهم اذا أدنوا الجراب من النار احترق واذا أبعدوه عنها لا يغلي الماء ولا ينضج اللحم .

قالت امهم : نعم . ولكن الاسكيمو اهتدوا الى طريقةوافية بالغرض . ذلك أنهم يبحثون في شواطيء البحار عن مقادير من الحصى الصغيرة ثم يطرحونها في النار فتحمى حتى تصل الى درجة الحمرة فيتناولونها اذ ذاك ويضعونها في جراب الجلد حيث يكون اللحم والماء . فلا تلبث الحصى أن تنطفيء وتحدث حرارة قليلة فى الماء ثم يكررون العمل ويزاولونه المرة بعد المرة وبهذه الصورة تشتد حرارة الماء ثم ينضج اللحم .

ولم تصل ام الأولاد في حديثها الى هذا المكان حتى سمعت صوت الجرس (البرنز) يرن على باب الدار يعلن رجوع (الحاجّة) فصرخت بأولادها هلموا بنا قبل أن ترانا فتزعم أننا أفسدنا مملكتها وشوشنا عليها نظامها . فترا كضوا جميعهم من باب المطبخ مسرورين ضاحكين . ولأبيهم المقبل مصافحين ومعانقين



مازح أو ناصح[1]

اليوم دجن والهواء بارد . والناس في الصباح منتشرون في جنبات الارض. يؤمون مواطن أشغالهم . ويجدّون في طلب معايشهم .

وكنت ترى في ذلك الوقت عصابة من العمال يسيرون في شارع الموسكي . ووجهتهم العتبة الخضراء . ومنها الى بولاق حيث يشتغلون في بعض معاملها . وقبل أن وصلوا الى تراموای الخليج عاجوا الى بين الصورين ووقفوا على حانة هناك . وكان الزحام حول منضدة الساقي كثيراً . فكانوا ينتظرون أن تجيء نوبتهم. ولما لم ينتبه اليهم الساقي ناداه بعضهم باسمه : « نيقولا كي » ، « نيقولا كي » ! واتبع ذلك بكلمات المزاح والدعابة. فرفع هـذا رأسه اليه . وابتسم في وجهه ابتسامة الصديق في وجه الصديق . وأخـذ يعاطيهم : الواحد اثر الاخر . وكان بينهم شـاب في الرابعة والعشرين من عمره . يحاكيهم في زيه ولبوسه . ولم يكن يشبههم في سـمته وسكوته وكانت هذه أول مرة رافقهم فيها الى المعمل سعياً وراء الرزق . وفراراً من البطالة . وكراهة أن يصبح كَلًّا على أهله

فالتفت اليه بعض الرفاق وقال له : ألا تريد ياشكري أن تشرب كأسـاً من العرقي . توقظ بها نفسك . وتُنعش قوتك ؟ فان البرد شديد في هـذا الصباح ولا يطرده سوى ارتشاف الاقداح

فأطرق الشاب خجلا . ووقف بين عاملين : عامل يجذبه نحو مسايرة القوم . وملابستهم على علاتهم . ليتسنى له الامتزاج بهم . وعامل يدفعه نحو الاباء احتفاظا بدينه وعادته وسمعته

فقال له صاحبه : مالك لاتجيب ؟ أتريد أن تعمل معادلة اقتصادية . فتنظر كم

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ و١٩٠٩ م

تكلفك هذه الكأس ؟ وتعمل حسابك . على طول السنة ؟

أنا أقول لك : كل ماتنفقه في اليوم قرش صاغ . واذا اقتصدت هذا القرش، فتح لك بيتك وتصبح بعد سنين قليلة صاحب ألوف من الجنيهات !!

فضحك سائر الرفاق مذ سمعوا هذا القول : ونظروا جميعهم الى شكري فلم يملك المسكين نفسه . وحمله الخجل الكاذب على مطاوعتهم والاستسلام الى ارادتهم . فوضع قدمه في باب الحانة ووقف أمام المنضدة الملعونة . وتناول أول كأس ذاقها في حياته فأفرغها في فيه . ودفع ماعليه من الثمن . وخرج في رفاقه وهم يهزجون ويتضاحكون ويتماغثون

(المماغثة أن يتضارب الاصحاب بالايدي تضارباً خفيفاً استزادةً للنشاط . وتوفيراً للانبساط)

أما شكري فقد وجد جيبه أخف مما كان قبلا . وبرد الصباح لم يزل على حاله شديداً .

ثم أخذوا طريقهم الى العمل . وتجاوزوا العتبة الخضراء . الى (الحصان[1]) وقبل أن يصلوا اليه مروا على مخزن سكاير . فوقفوا عليه جميعهم : هذا لأجل شراء كبريت . وذاك لأجل لفافة تبغ . وقد خاف صاحبنا شكري أن يجعله اخوانه موضع ضحكهم ومزاحهم للمرة الثانية . فوقف معهم وقال للدخاخني : هوذا قرش صاغ ناولني به سكاير

ولما استوفوا حاجتهم خرجوا متوجهين الى محل شغلهم . وفي فم كل واحد منهم سيكار يدخن به .

وكان شكري يشرب سيكاره . ويتلمظ بدخانه تلمظاً . وإذ كان لم يعتد التدخين بعد . وجد طعم التبغ حرّيفاً لذاعاً . فغثت نفسه . وسال لعابه . واضطربت

---

(١) ساحة الاوبرة حيث أقيم تمثال ابراهيم باشا راكبا على الحصان

أعصابه . وثقل رأسه وصارت معدته تفرز عصاراً غريبا . وتحرك فيه الميل للتيء والاستلقاء

دخل المعمل بالسلامة . وأكب كلّ من العمال علي شغله . وكان هو منهمكا في العمل مثلهم . ولـكن هـذا العمل لم يكن ليصرف عنه الفكر فيما جرى له في صبيحة يومه . فجعل يقول فى نفسه : وماذا يضرنى لو اقتصدت كل يوما قرشا ثمن كأس عرقي . وقرشا آخر ثمن سكاير . وأدع جميع الناس بعد ذلك يسخرون مني ويضحكون عليّ ؟

قرشان في كل يوم !!

وكم قرش يكون معي في آخر السنة ؟

سبعة جنيهات تقريبا .

نعم ليس هذا المبلغ ألوفا من الجنيهات كما قال ذلك المتهكم . ولـكنه بالنسبة اليّ يكون مبلغاً كبيراً . وثروة لا يستهان بها .

كم من الحاجات يمكنني أن أبتاعها بهذا المبلغ ؟

لا ! لا ! لا أشتري بالسبعة جنيهات شيئا . وانما أضعها في بنك التوفير . وأضيف اليها غيرها سنة بعد سنة .

حقا ان رفيقي الذي تهكم بي مذ أردت اقتصاد القرش أعطاني درسا نافعاً من دون أن يقصد ذلك . ويا ليت شعرى ! أهو « مازح أو ناصح » ؟

ومن غريب أمري وضعف نفسي اني استسلمت اليهم . وطاوعتهم فيما أرادوه مني .

وفعلي هذا ليس سوى حماقة محضة بل هو لعمري خسة ودناءة

لماذا كل هذا الاستسلام والانقياد ؟

أخاف أن يستهزئوا بي وينكتوا علي ؟

ماذا يضرني قولهم أو تنكيتهم اذا كنت قد قمت بما يجب علي فعله ؟

***

وفي صبيحة اليوم التالي مرّ العمال في الشارع المذكور وتساقطوا على الحانة تساقط الطير على غدير الماء

ولكن (شكري) بقي حافظاً موقفه خارج باب الحانة . وقد أخذ أهبته للدفاع عن نفسه عند اللزوم .

وحينما قالوا له : دونك هذه الكاس أيقظ بها رأسك . قال لهم : لست في حاجة لكأس توقظني : فاني صاح يقظان . ولم أك بالنائم ولا الوسنان .

فقال له آخر : ولكن البرد شديد ولا يطرد البرد عنك سوى جرعة من هذا الشراب الذي نشربه .

فقال له شكري : ان الشاب الذي يشتغل يجوع ولا يبرد . وبدل أن تناوله جرعة من الخمر ناوله كسرة من الخبز : فان الكسرة تغذيه وتقويه أكثر من الجرعة . وفيها من الغذاء أكثر مما في الكأس كلها

وكانت لهجة الفتى لهجة الكبير النفس . القوى الارادة . فلم يردّ رفاقه عليه . وخرجوا من الحانة فمروا على بائع السكاير . وجعلوا يشترون حاجاتهم وينظرون الى صاحبهم . أما هو فأجابهم بأنه يحب أن يرى القرش في جيبه أكثر مما يحب ان يرى السيكار في فمه .

فجعلوا يهزؤن ويضحكون ويصخبون أما هو فبقي ثابتاً ولم يُبل (بضم الياء وفتح الباء وأصله يبالي من المبالاة)

وبعد سنوات صار القرشان ببركة التوفير خمسين جنيهاً فتزوج فتاة فقيرة لكنها مثله مدبرة . فحسّنت له وحسن لها أن تشتري بضاعة صغيرة من (المانيفاتوره) تبيعها في بيتها للسيدات . وتعرضها عليهن أحياناً في بيوتهن اذا

اقتضى الحال .

ففعلت وقامت على تصريف البضاعة وضبط حسابها ومعاملة الزباين أحسن قيام

وبقي زوجها يلازم الشغل في المعمل طول يومه وقد ازداد حباً في الاقتصاد . وكان كلما جمع شيئاً من الدراهم أودعه بنك التوفير .

وبسبب الدأب والصبر توفر لدى الزوجين رأس مال يكفي لفتح محل (مانيفاتوره) كبير فترك الزوج معمله . واستأجر مخزناً في الموسكي . وبفضل الجد والاستقامة وحسن الذمة في المعاملة اتسعت أشغاله . وازدادت أرباحه . فاتخذ له كتبة ومساعدين وأصبح من أكبر تجار (المانيفاتوره) وأبعدهم صيتاً وأكرمهم سمعة

وكثيراً ما كان يرى رفاقه القدماء مارين في الشارع الى معملهم . حسب عادتهم . فكان يلحظهم من وراء زجاج مخزنه . وهو ممسك بيده فنجانة الشاي النفيسة . وفي إصبعه خاتم برلنتي يساوي مئات من الجنيهات

وعلى أية حال كان يراهم ؟

كان يراهم صناعا كما عاشرهم طويلا ، فقراء كما عرفهم قديماً .

لم تكن لهم نفوس تشعر فتحفزهم نحو التدبير والاقتصاد والخروج من حالة العسر والاملاق التي كانوا فيها

كان كل ما تطلبه نفوسهم الصغيرة كأس عرقي يكرعونها . ولفافة تبغ يدخنونها .

هذه هي تسليتهم الوحيدة في حياتهم .

كان يدخل بينهم رفيق جديد فلا يلبث حتى يؤثروا في نفسه ويغروه بشرب المسكر . فيصبح له عادة .

والعامل الفقير اذا تورط فى هذه الخصلة الذميمة لم يعد يملك من أمره شيئاً
فلا يمكنه أن يقتصد مالا . ولا يؤثل عقاراً . ولا يؤسس عائلة . ولا يربي أولاداً .
ولا يحسن عشرة زوجة ولا أصدقاء غير الذين يشاركونه فى خصلته . ويصبح كل
شأنه أن يكون آلة ميكانيكية فى النهار . وجثة مخبولة فى الليل .

ان الشقاء والتعاسة يحومان حول باب الرجل اذا كان معدما فقيراً . ولكنهما
لا يجسران على الدخول اليه اذا كان مشتغلا مدبراً

الامة والثروة (١)

الدار داران : دنيا وأخرى . ولكل منهما ميزة وطبيعة خاصة بها . ولا نعلم
من خواص الدار الآخرة سوى أنها مقر نعيم للمحسن وعذاب للمسيء .

أما دارنا هذه التي نشاهد بعضها بأبصارنا . ومجموعها بأسماعنا وعقولنا . فانا
نعلم من طبائعها وخصائصها مالا يدخل تحت حصر . لاسيما انا خلقنا من طينتها .
ومنها نحيا . واليها نعود . فلا عجب اذا كنا بها أعرف . ولها أوصف . هذه الدار
التي يقال لها « الدنيا » انما تحيا وتعمر بنوع الانسان . فالانسان حياة هذا العالم
وروحه التي تصرفه وتدفعه الى الحركة والنمو . ولولا الانسان لكانت الدنيا
صخرة جرداء . ملقاة فى فسيح هذا الفضاء .

اذا كان الانسان روح هذا العالم التي بها يحيا ويعيش كان جديراً بالعناية .
خليقا بتوفير الاسباب والوسائل التي تعود عليه بالنمو والتكاثر والقوة والبقاء لان
فى ذلك عمران العالم . واستمرار وجوده الى الاجل الذي ضربته له العناية الالهية .

كلما تكاثر نوع الانسان . وغزرت بين يديه مادة معيشته — كان ذلك آية

(١) كتبت سنة ١٩٠٧ م

على حياة العالم وقوتها وانتعاشها ، فما العمران اذن الا تكاثر نوع الانسان فى الاموال و الاولاد . ولا عمران مع النقص فى أحدهما .

وكل بلاد تقطنها أمة وكان لها نصيب وافر من هذين الامرين فبشرها بالسعادة والعزة والغلبة . وكل بلاد منيت بنقص الذرية والفقر فأنذرها بالخراب والاضمحلال .

اعتبر ذلك في الامة الفرنسوية فانها لما آنست في تناسلها ضعفا . وفي إحصاء نفوسها قلة — قلقت واضطربت وجعلت تتلمس الوسائل للنجاة من هذه الآفة أو الهوة التي تخشى أن تلتهمها .

وساسة الامم والشعوب لا يهمهم شيء مثل العناية بنشر فنون الثروة والاقتصاد والهيجين (حفظ الصحة) بين أفراد اممهم ليكون لهم من وراء ذلك أمة كبيرة غنية نشيطة تقوى على مناصاة [1] غيرها والتغلب عليه .

العز والعظمة حيث الكثرة والمال . والذل والخمول حيث القلة والفقر .

الدين الاسلامي ضمن لبنيه السعادتين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة. وتكفل لهم بالحسنيين : هدى الدنيا وهدى الآخرة . وليس معنى ذلك أنه يقود الامة أو كل فرد من أبنائها بيده الى بحابح العز وهناء العيش في الدنيا ـ والى الخيام المجوفة من لؤلؤ المضروبة على ضفاف الكوثر في الآخرة . ولو فعل ذلك لتضاءل معنى الانسانية واضمحل شخصها من لوح الوجود . أو استحال الانسان الى مخلوق آخر وفطرة أخرى . الدين الاسلامي كسائر الاديان السماوية بل الشرائع الوضعية: قواعد وأصول وتعاليم وأحكام . راعها حق رعايتها واعمل بها تنجح وترق . فرط بها وأعرض عنها تخسر وتشق .

لم نر ديناً من الاديان حافظ على الاصلين اللذين تتوقف عليهما عظمة الامم

---

(١) المناصاة المواثبة والمغالبة وأصله أن يأخذ كل منهما بناصية الآخر

والشعوب . وهما التكاثر في الاموال والتكاثر في الاولاد وأمر أتباعه بمراعاتهما. والعمل على احيائهما ـ مثل الدين الاسلامي : فهو قد حرم البطالة وحث على السعي والكسب . كما حرّم الرهبانية ورغب في الزواج . واخلاف النسل

لم يقل أبو ذرّ الصحابي (رضي الله عنه) باستحسان البطالة . ولم يرفع صوته بين الصحابة بلزوم الاتكال . والتقاعد عن الكسب وتقليب المال . وانما جل ماكان منه ذهابه الى أنه لايليق بالمسلم أن يدخر ويخزن المال ويمنعه عن اخوانه المحتاجين اليه . ولايحسن به أن يموت غنياً و يدع أخاه يعيش فقيراً . فان الذي يموت غنياً يموت في رأي (أبي ذر) محتقراً مرذولا كما هو رأي (ركفلر) الغني الامير كاني المشهور أيضاً ـ بل عليه أن يتعهد به ذوي الفاقة والفقر . وان لم يجد منهم أحداً ردّه الى بيت المال : فهو الكفيل بوضعه مواضعه . و (أبو ذر) لعمري أرفع مقاماً من أن يجوّز للمسلمين البطالة والكسل . والقعود عن الكسب والتعيش على حساب الآخرين . كيف وهو لم يرض المسلم أن يكون عبداً لماله الذي يكتسبه أفتراه يرضى له أن يكون عبداً لمال غيره !!

يريد (أبو ذر) أن زوائد الأموال اذا حُشرت الى بيت المال كان ذلك أعون للامة وأميرها على ما يريدونه من التغلب والفتح وإعداد القوة . على عكس ما اذا كانت موزعة بيد الأفراد و كيفما كان منزعه فان الصحابة عامة لم يروا رأيه بل خشوا أن يكون مثبطا لهمم قوم ومغرياً لهم بالتقاعد والطموح الى ما في أيدي الآخرين العاملين . فكان منهم (رضي الله عنهم) في حق أبي ذر ما كان . ونعم ما فعلوا . وحبذا قادة أمة هم . وان شعباً حديث النشأة مثل الشعب العربي النجيب تناطح نواصي خيله جدار الصين من الشرق . وتخوض أرجلها شاطيء الاطلانطيق من الغرب ـ جدير بتعويد أبنائه الكسب والسعي في توفير المادة .

وأن يعدوا لليالي الحبالى ما استطاعوا من ثروة . تولد قوة . ومن مال . يؤدي الى صلاح حال . وما فهمه الصحابة رضوان عليهم من هذا المعنى انما استمدوه من لباب الشريعة وروائع حكمها وأسرارها . لو فشا رأي (أبي ذر) في الامة . وغلب منزعه على طباع آحادها . كان من أثره فيهم التقاعد والتواكل وتضاؤل الثروة في مجموعهم . فلم يعودوا قادرين على إعداد القوة . وانجاز الوعود الآلهية من الفتح والتغلب وبث الدعوة . ونشر أحكام الدين في أنحاء المعمور . وقد قال صلى الله عليه وسلم « ذهب أهل الدثور بالاجور » (الدثور جمع دَثْر وهو المال الكثير) يعنى ان أرباب الاموال هم الذين يفوزون بالثواب والاجر . لانهم بالمال يتمكنون من ضروب الأعمال الصالحة . فتوفر تلك الاعمال . يكون على قدر توفر الاموال . وقد أحدث هذا القول منه (صلى الله عليه وسلم) تأثيراً في نفوس الصحابة لا سيما الفقراء منهم فانهم أسفوا أن لا يكون لهم نصيب وافر من الاجور والأعمال الصالحة مما استأثر به اخوانهم الأغنياء . ولا جرم أن يكون هذا درساً اقتصادياً . علمهم اياه الشارع . ودربهم به على توخي النجاح وتحرّي السعادة من طرقها الطبيعية . ووسائلها العادية . التي سنها تعالى . وفطر الكون عليها . وهذا الدرسُ الاقتصادي النبوي زاده العلماء ايضاحاً وشرحاً في بحث الغني الشاكر والفقير الصابر . وقرروا أن الأول أفضل . لماذكرنا آنفاً .

وليس معنى الشكر أن يقضم الغني شهي الطعام كما تقضم البهيمة علفها . ثم يرفع عقيرته بكلمتي الحمد والشكر . وتلاوة آيات من محكم الذكر .

شكرك للنعم ليس في تهليلك وتكبيرك للقم . وانما هو في بذلك المال في سبيل الخير ووجوه المصالح التي يتوقف عليها سعادة أمتك مما يكون في طيه سعادتك أنت أيضاً .

ولا نعطيك درساً على ذلك حالة أغنياء أوروبا وأميركا ولا حالة أغنياء اليونان الذين تعرف من أعمال بعضهم في القطر المصري ـ وانما نرجع بك الى درس هو بالنسبة لك أقدس وأنفس وأقيس : جهز عثمان (رضى الله عنه) جيشاً للمسلمين برمته . فانفق من ماله في سبيل تجهيزه عشرة آلاف دينار . وربما كانت بمنزلة مائة ألف جنيه في عصرنا هـذا . فدعا له (صلى الله عليه وسلم) وجعل يباهي بما فعل ومن فعله هذا عرف الصحابة (رضوان الله عليهم) مبلغ نفع المال . وما له من التأثير في جلب المصالح . وتوفير القوة .

وكما علمنا الدين وجوب انفاق المال في سبيل مصلحتنا — علمنا توفيره وحفظه والضن به دون انفاقه في سُبل الهوى والبذخ والشهوات الباطلة « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين »

وزاد الفقهاء هـذا الدرس إيضاحاً وتبيينا : فقالوا لو رأى في صلاته لصاً يسرق من ماله مايعادل قدر درهم ـ كان للمصلي أن يقطع صلاته ويجري وراءه وليس قولهم هذا درساً في الشح والحرص الشائن كما يظنه من يرى ماعليه بعض فقهاء زماننا من شـدة التكالب في جمع حطام الدنيا . والتحاسد بينهم لأجلها . والتزلف الى الرؤساء والحـكام طمعا في نيلها . بحيث أدى ذلك الى قلة احترامهم . وسقوط منزلتهم في نفوس الخاصة والعامة ـ كلا وانما يرون أن في الضن بالمال القليل استجماماً للمال الكثير . وتوفيراً له . من حيث يؤدي توفيره الى التمكن من اعداد القوة . وتهيئة وسائل العزة والغلبة . فالعلماء انما أمروا بترك عبادة الصلاة والجري وراء اللص لاجل التوفر على عبادة أخرى هي جمع ثروة يكون من وراء جمعها الخير والمنفعة للامة والذب عن مصالحها . كما فعل عثمان في تجهيز جيش العسرة . وربما مر على الامة زمن كانت فيه الثروة لها . والعمل على توفيرها . والاقتصاد في تبذيرها — خيراً من سائر العبادات . وأفضل من

جميع القربات [1]

اذا لم تنفق الامة أموالها في سبيل تعليم أبنائها . وما فيه رقيها . وعلو كلمتها . بل اعتادت الشح به أو قالت به هكذا وهكذا : في طرق الشهوات . ومراتع الملذات — يوشك أن لا تنفعها عبادة . أولا يتيسر لها إقامتها على وجهها . ولا نمثل للقاريء المتفقه الفطن بغير صلاة الجمعة فهو يعرف كيف يتخذها مثالا على صحة ما نقول ومن جملة الدروس المالية الاقتصادية التي علمنا اياها الشارع ـ تحريم الربا لان تحريمه يضطرنا الى تقليب الاموال في التجارة وسائر ضروب الاعمال المالية . والاشغال الاقتصادية . وان الامة التي يفشو فيها الربا . وتولع بمعاطاته . يصرفها ذلك عن التجارة فتخسر فوائدها . ويقل ريع أموالها . وتقف أرباحها عند حد لا تتجاوزه . على العكس من الامة التي تباشر بأموالها ضروب التجارة . وأنواع الكسب فان حظها من تكاثر الثروة ونموها وغزارة الارباح أكثر وسهمها أوفر .

هذا وجه الضرر بالنسبة الى الاموال أما وجهه بالنسبة الى أرباب الاموال أنفسهم فان تعاطي الربا يجعلهم يستنيمون الى الراحة والعيش في ظلال البطالة . وناهيك بها شراً ومزلقة الى ارتكاب الآثام

الباحثون من علماء فرانسا الذين ساءهم أن يكون الشعب الانكليزي أوفر منهم ثروة . وأكثر نشاطا — نسبوا معظم السبب في حصول هذا الفرق الى ولوع الشعب الفرنسوي بالربا . وتفضيل أبنائه تناول الارباح من ورائه . على تناولها من وراء الكد والعمل والضرب في البلاد . على العكس من الشعب

(١) وفي شرح المشكاة من رواية الامام احمد بن حنبل انه كانت لمقدام بن معدي كرب (الصحابي) جارية تبيع اللبن ويقبض هو ثمنه . فقيل له : سبحان الله ! أتبيع اللبن وتقبض الثمن ؟ فقال نعم وما باس بذلك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ليأتين على الناس زمان لا ينفع فيه الا الدينار والدرهم)

الانكليزي الذي قلما يستخدم رؤوس أمواله في غير المتاجر . والاعمال الكبرى التى لا تقف أرباحها عند غاية . والتى يعوزها فضل نشاط وكثرة اضطراب في الارض . ذات الطول والعرض

ومن أكبر الدروس الاقتصادية التى لقَّننا إياها الدين — تحريم الذهب والفضة والنهي عن استعمالهما فى اتخاذ غير النقدين منهما . وان الامة التى تراعي هذا الاصل وتتوخى السير عليه لاسيما في أول نشأتها . وعند محاولة نهوضها ـ تجنى من ورائه ثروة . تؤول بها الى عزة وغلبة وقوة . وأدوات الأكل والشرب والماعون وسائر ضروب الزينة ومواد الترف والبذخ ـ يمكن للامة أن تتخذها من غير الذهب والفضة . أما وسائل عظمتها وسيادتها فلا تتسنى لها بغير الثروة ومادتها من الذهب والفضة

ولما أراد بطرس الاكبر النهوض بالامة الروسية وسعى سعيه المشهور في في ترقية شؤونها . وجعلها فى مصاف الامم المتمدنة . والشعوب الحية . حظر على الروسيين استعمال الذهب والفضة في سائر الأدوات والأواني وقصرهما على ضرب النقود منهما . ليتوفر له من ذلك ثروة يستطيع بها أعداد القوات . وتأسيس المشروعات . وانشاء المعامل والمصانع التى تعود بالخير والنفع على أمته وشعبه . وكان له من ذلك ما أمله وابتغاه

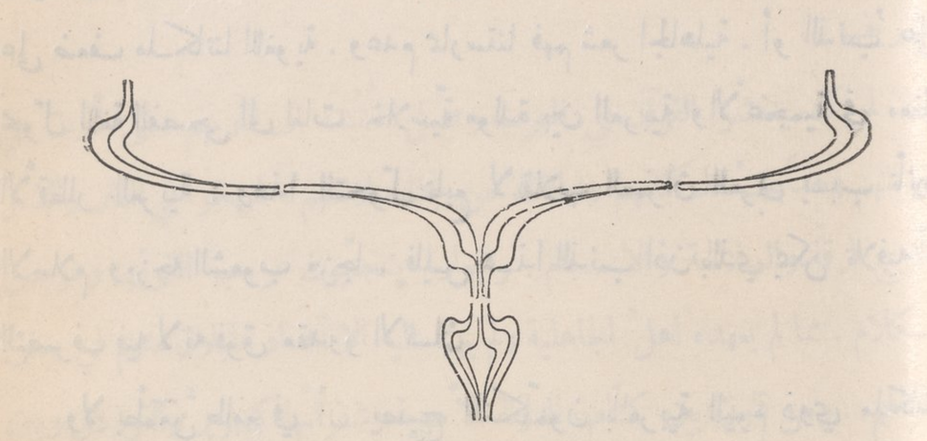
وقد يصل الحال بالامة الى تحريم ما هو أمس بالانسان من الذهب والفضة . وأبعد أن لا يجود به . ويزهد فيه

لما غلبت فرنسا في حرب السبعين . وحملت تلك الغرامة الباهظة . جعل النساء الفرنسويات ينزعن أقراطهن من آذانهن واسورتهن من معاصمهن ويلقينها فوق بدر الاموال التى كانت فرنسا تجمعها لاجل فك رقبتها من عبودية ألمانيا . وشراء حريتها

الحرية تشرى بحبات القلوب وأفلاذ الا كباد أحيانا أفلا تستحق أن يبذل في سبيلها حبات الجواهر وفلزّ المعادن

ويشبه فعل الفرنسويات مايفعله العقائل الايرانيات لهذا العهد فانهن لما رأين الحكومة الجديدة تحاول وفاء دين البلاد من مال أبنائها تفاديا من وفائه من عقد قرض خارجي - هزتهن الأريحة وحب الوطنية فجعلن ينزعن حليهن وزينتهن ويقدمنها الى الوطن يشرينه به من أسر الاجنبي عنه . المتربص به . فبورك فيهن . وفى بلاد أنبتت مثلهن

ومجمل القول : أن في تعاليم الدين الاسلامي من أصول الاقتصاد وفن الثروة ما يؤدي العمل فيه . الى إسعاد متبعيه . فهو قد حض على كسب المال وتوفيره ونهى عن اضاعته وتبذيره . وعلم بوجوب انفاقه فى المنافع والمصالح . هاتفاً بملء فيه : ذاك المال الرابح . ذاك المال الرابح



شعر الجاهلية[١]

قد تقرأ من شعر العرب قبل الاسلام فلا تفهمه . وان فهمته فلا ترى نفسك مرتاحة اليه . راغبةً في الازدياد منه . واذا سألك سائل عن السبب في ذلك ـ قلت ـ ان فيه ألفاظاً غريبة . وتراكيب غير مألوفة . يعسر استخراج المعنى منها . ثم تقارن بين أشعارهم وأشعار المولدين فتحكم بأن الأخيرين أصحُّ معنى . وأعذبُ لفظاً . وأرشق أسلوباً .

ثم تقول وهذه المعلقات التى كانوا (على ما يقال) يسجدون لفصاحتها لا أراها في المرتبة التي رفعوها اليها . فكم حاولتُ ان أترنم بها . أو أفكه نفسي بالنظر في معانيها . كما أصنع بشعر المولّدين فما كنت أقرأ البيت أو البيتين منها حتى ألقي الكتاب جانباً وأبغي لنفسي تسليةً أخرى .

ما تشعُرُ به صحيح . ومعك بعض الحقّ فيه ان لم يكن كلّه . ولكن الذنب ليس على الشعر نفسه . وليس التقصير من أولئك الشعراء أنفسهم . وانما الذنب على ضعف ملكاتنا اللغوية . وعدم ممارستنا فهم شعر الجاهلية . أو الذنبُ على تحوّل اللغة الفصحى الى لغات خلاسيّة مولدة بين العربية والأعجمية في معظم الأقطار العربية : وهذا التحوّل تابع لانقلاب العمران العربى بسبب تأثير الاسلام ومزجه الشعوب مزجا . فليس هذا الذنب اذن بالذي يمكن تلافيه أو التصرف فيه لانه فوق مقدور الانسان

ولا يطمَعَنَّ طامع في أن يصبح المتكلّمون بالعربية اليوم ذوي ملكات وسلائق تدنيهم من الشعر الجاهلي وتحبّبه الى أذواقهم . وتجعلهم يطربون لانشاده وحكمنا هذا إنما هو على المجموعين . مجموع الشعر الجاهلى القديم . ومجموع

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م

الشعر العربى الحديث . والافان في الشعر الجاهلي مثل قول المنخَّل اليشكري نديم النعمان :

(ولقد دخلتُ على الفتا ةَ الخِدر في اليوم المطير)

(الكاعبَ الحسناء تر فُل في الدمَقْس وفي الحرير)

(فدفعتُها فتدافعت مشيَ القطاةِ الى الغدير)

(ولثمتها فتنفسَّتْ كتنفُّس الظبي الغرير)

(وأُحبُّها وتحبني ويحبُّ ناقتها بعيري)

ــ وأن في الشعر العربي الحديث مثل شعر المرحوم الشيخ الشنقيطي الذي قويت فيه ملكة اللغة العربية الفصحى حتى عاد لا يطربه شيء مثلُ الترنم بشعر أهلها ولا يعجبه سوى طريقتهم وأسلوبهم .

ومما لا مرية فيه ان الشعر في الاسلام أرقُّ معنى وأرشق اسلوبا منه في الجاهلية . والنثر كذلك . والفضلُ في هذا عائد الى القرآن الكريم والحديث الشريف .

لم يكد ينتشر القرآن في العرب وتصل نُغْيتُه الى قلوبهم حتى أثرتْ في نفوسهم وهذَّبتْ ملكاتهم ولطفتْ من جفاء سلائقهم . فنهجوا في النثر والشعر مناهج الرقّة والسلاسة والانسجام . وجعلوا يتجنّبون غريب القول وعويص الكلام . مما لم يعهده اهلُ الجاهلية ولم يهتد اليه الا أفذاذ قليلون منهم في بعض أقوالهم . ومن قارن بين كتّاب الدولة الأموية وشعرائها كجرير والفرزدق وبين شعراء الجاهلية وكتابهم ــ ان كان فيهم كتاب ــ استبان له الأمر وأدرك الفرق واضحا جليا .

ومن غريب أمر القرآن وأدلة إعجازه أنه روعي فيه حالة المتكلمين بالعربية

في الأجيال المقبلة وما ينتاب ألسنتهم وملكاتهم من الضعف والفساد . فلم يكن أسلوب القرآن وكلماته وتراكيبه مثل تراكيب بلغاء الجاهلية وأساليبهم من حيثُ صعوبتها والتواء فهمها علينا وامتلاؤها بالكلمات الغريبة . والألفاظ الحوشيّة بالنسبة الينا . وما في القرآن من الغريب قليل جداً بالنسبة لكتابٍ مثله فى هذا الحجم . وقد تأخذ طائفة من كلام العرب أو أشعارهم فتكاد نجد فيه من الغريب أكثر مما فى القرآن جميعه

أليس هذا من بواعث الدهشة ومواقع العجب .

ومنشأ الصعوبة في فهم شعر العرب انما هو نوع أسلوبهم فيه وطريقتهم التي تعارفوا عليها . ولم نعتد نحن النظر فيها وممارستها وتحديها . وهناك أمران جديران بالاعتبار : اليهما يرجع معظم السبب في ذلك (١) استكثارهم فى أشعارهم من الالفاظ التي أمست غريبة بالنسبة الينا وبعيدة عن متناول عقولنا (٢) وصفهم فى تلك الأشعار كثيراً من أحوالهم وأطوار معيشتهم . وشؤون حياتهم . مما كان بعيداً عن مألوفنا . ولم يقع مثله تحت حواسنا .

هذا هو منشأ الصعوبة فى فهم معظم أقوال العرب أي في فهم مجموعه لا جميعه : اذ قد يوجد في أشعارهم ما يسيل رقةً وانسجاما حتى انك لتظنّه لأول وهلة من كلام شعراء المولدين الذين أحكموا الشعر وهَلْهَلوا نسجه

ولكن هذا الضرب النفيس من شعر الجاهلية ومن حذا حذوهم قليلٌ جداً . وأشهر من عُني بجمعه والتقاطه من معادنه أبو تمام حبيب بن أوس الطائى فتتبعه وأودعه كتابه الذي سماه « الحماسة » .

ثم لما أطبق سحابُ الجهل على الامم العربية في القرون الوسطى والمتأخرة وجعلوا يزدادون ضعفاً في ملكاتهم وعُجْمةً في ألسنتهم ــ أصبح ما اختاره

أبو تمام في حماسته بالنسبة اليهم مغلقاً مبهماً كعويص الشعر الجاهلي . وصارت الحالة ماسةً الى تأليف حماسة ثانية يتوخّى لنا فيها مؤلفها جمع مقاطيع من شعر العرب أقرب الى مشار بنا وأشدّ التحاماً بأذواقنا . وامتزاجا بنفوسنا وها أنا الآن أذكر نموذجين للشعر الجاهلي أحدهما للجافي البعيـد عن متناول أفهامنا والآخر للسهل المهلهل السريع الانحدار في أعماق قلوبنا .

قال تأبط شراً يُثني على ابن عم له ويصف من أطواره وأخلاقه :

إني لمُهْدٍ من ثنائي فقاصدٌ به لابن عم الصدق شمس بن مالك

أهزّ به في نَدْوَة الحيّ عطفه كما هزّ عطفي بالهجان الاوارك

قليلُ التشكّي للمُهمّ يُصيبه كثيرُ الهوى شتى النوّى والمسالك

يظلّ بمَوْماة ويمسي بغيرها جحيشاً ويعرَورى ظهور المهالك

ويسبقُ وفْدَ الريح من حيثُ ينتحي بمنخرقٍ من شدّه المتـدارك

اذا حاصَ عينيهِ كرى النوم لم يزل له كالئٌ من قلبِ شيحان فاتك

ويجعلُ عينيه ربيئةَ قلبـه الى سلةٍ من حدّ أخلقَ صائك

اذا هزّهُ في عظم قِرْنٍ تهللتْ نواجذُ أفواه المنـايا الضواحك

يرى الوحشةَ الانس الأنيس ويهتدي بحيثُ اهتدتْ أمُّ النجوم الشوابك

(شرح الغريب) : الهجان الأوارك الابلُ الكرام التى ترعى الأراك . شتى النوى مختلف الوجهات التي ينويها . الموماة المفازة . جحيشاً منفردا . يعرورى يركبها عريانة . ينتحي يعتمد ويقصد . بمنخرق من شده أي بعدو سريع من عدوه . حاص خاط . كالئ حافظ . شيحان حازم . ربيئة ديدبان وحارس . بالاخلق السيف الأملس . صائك اللازق . أم النجوم الشوابك : الشمس أو المجرة المشتبكة النجوم . وحاصل المعنى ان ابن عمه أهدى اليه إبلاً فهو يثني عليه لذلك ويصفه بالصبر والشجاعة وبعد الهمة وشدة العدو والتيقظ .

على ان هذا الشعر ليس من عويص شعر العرب ومغلقه فان في أقوالهم أجفى منه وأبعد عن متناول الذهن . لكننا اخترناه لـكي لانتعب القاريء في التأمل وإجهاد الفكر . وان حظ هذه القطعة من ارتياح النفس يظهر من مقارنتها بالقطعة الآتية التى نذكرها نموذجاً للقليل من شعر العرب الذي ائتلفت فيه السلاسة والانسجام في اللفظ — والسهولة والوضوح فى المعنى :

قتل آل غسان ملوكُ الشام أخاً للأسود المنذري ملك الحيرة فصمد اليهم الاسود وانتصر عليهم وأسر عدة من ملوكهم . ثم أراد أن يعفو عنهم . فقال أبو أذينة ابن عمه يغريه بهم ويحضه على قتلهم :

(ما كل يوم ينال المرء ما طلبا	ولا يسوّغه المقدار ما وهبا)
(وأحزم الناس من ان فرصة عرضت	لم يجعل السبب الموصول مقتضبا)
(وأنصف الناس فى كل المواطن من	سقى المعادين بالـكاس التى شربا)
(وليس يظلمهم من راح يضربهم	بحد سيف به من قبل قد ضُربا)
(والعفو الا عن الأكفاء مكرمة	من قال غير الذي قد قلته كذبا)
(قتلتَ عمراً وتستبقي يزيد لقد	رأيت رأيا يجر الويل والحربا)
(لا تقطعنْ ذنب الافعى وترسلها	ان كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا)
(هم جردوا السيف فاجعلهم له جزرا	وأوقدوا النار فأجعلهم لها حطبا)
(إن تعف عنهم يقول الناس كلهم	لم يعف حلماً ولـكن عفوه رهبا)
(همو أهـلة غسـان ومجـدهم	عال فان حاولوا ملـكا فلا عجبا)
(وعرّضوا بفداء واصفين لنا	خيلا وابلا تروق العجم والعربا)
(أيحلبون دماً منا ونحلبهم	رسلا لقد شرفونا في الورى حلبا)
(على م نقبل منهم فدية وهمو	لا فضة قبلوا منا ولا ذهبا)

هـذا الشعر في السمع كالماء الفرات في الحلق : لا يقف دون الانحدار الى أعماق القلب . فتهش اليه النفس ويطرب له الحس . و ليس فيه مما يمكن أن يعد غريباً سوى كلمة « رسل » على وزان حبر بمعنى اللبن . والبيت الذى فيه هذه الكلمة أبلغ أبيات القصيدة وأشدها تأثيراً فى نفس المخاطب من حيث أنها تغريه بالفتك والايقاع : يقول أيحلب الغسانيون دماء أبنائنا ونحلب نحن لبن النياق التي يعطونا اياها دية في مقابل تلك الدماء حقاً انهم أشرف منا حلبا . وأعز جانبا . وهذا الضرب في شعر الجاهلية قليل جداً ويمكنك أن تعد منه أيضاً قصيدة السموْأل [1] التى مطلعها :

(اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل)

وهي أربعة وعشرون بيتاً ليس فيها من الغريب سوى « طل »و « كهام » .
وقصيدة بعض بنى قيس بن ثعلبة التى مطلعها :

(إنا محيوك يا سلمى فحيينا وان سقيت كرام الناس فاسقينا)

وهي اثنا عشر بيتاً وليس فيها غريب سوي « افتلينا »

وقصيدة بشر بن عوانة الذي خرج في طلب مهر لابنة عمه فتعرض له الاسد فقتله وكتب على قميصه بدمه القصيدة التى مطلعها :

(أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا)

وهي طويلة تبلغ أربعة وعشرين بيتاً وغريبها قليل . أذكر منه « تبهنس » و « مشمخرّا » أوهما كل الغريب فيها . على أن بشراً هذا ليس من عرب الجاهلية في غالب الظن وانما هو اسلامى وكان فى زمن بني أمية . وربما كان بشر وقصته وقصيدته خيالا فى خيال . اخترع القصة ونظم القصيدة البديع الهمذانى

---

(١) هذا هو المشهور وقال بعضهم ليست هذه القصيدة للسموأل وانما هى لعبد الرحيم الحارثى كما في شرح المرزوقى على ديوان الحماسة وكتاب (اعراب ديوان الحماسة) للعكبري

نفسه فكانت ملحة من ملحه التى ختم بها مقاماته الشهيرة ، واستدل القائل على ذلك بانه لم يجر لهذه القصة ذكر في أمهات كتب الادب كالاغاني مثلا . ولم يذكرها أحد قبل البديع . وكل من ذكرها كان بعده . ولكن المعروف عند أهل الادب أن قصة بشر واقعة حقيقية . وحادثة تاريخية

ومعظم شعر عنترة بن شداد قليل الغريب خالٍ من التعقيد رشيق المعنى والاسلوب مثل قوله :

(لهوت بها والليل أرخى سدوله الي ان بدا ضوء الصباح المبلجُ)

(أراعي نجوم الليل وهي كأنها قوارير فيها زئبق يترجرج)

(وفوقيَ منها معصم فيه دملج مضيءٌ ونحو آخرَ فيه دملج)

وأرى أن تشبيه النجوم بقوارير الزئبق من التشابيه العقم كتشبيهه الذباب بالاجذم المكب على الزناد في بيتيه المشهورين

ومن الشعر المنسجم الرقيق معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي ومطلعها :

(ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينا)

وفيها يقول :

(ألا لايعلم الاقوام أنا تضعضعنا وأنا قد ونينا)

(ألا لايجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا)

(إذا بلغ الفطام لنا وليدٌ تخرُّ له الجبابر ساجدينا)

واذا أريد أن يكون لعرب الجاهلية نشيد وطني (مرسلييز) يتغنون به فى يوم فخارهم وموقف حماستهم فان هذه الابيات تصلح لذلك . على أن معظم شعر القوم يصح أن يتخذ نشيداً من هذا القبيل

ومعلقة ابن كلثوم هذه يحفظها بنو تغلب ويفاخرون بها ويروُّونها ولدانهم منذ حداثتهم . وقد أفحشوا فى ذلك حتى قال بعض الشعراء ينعي ذلك عليهم ،

وقد برم بهم :

(ألهى بني تغلب عن كل مكرمةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم)
(يروونها أبداً مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسؤوم)

الزكاة الشرعية

دواء الاشتراكية[1]

مهما ارتقى نوع الانسان وتوفرت لدى آحاده وسائل السعادة والهناء لا بد أن يبقى بعض أولئك الآحاد مقصرين عن بقية اخوانهم فى تحصيل أسباب الهناء ومقومات السعادة. ومهما اهتم العقلاء والمصلحون في التسوية بين أفراد النوع في ذلك - كان اهتمامهم عبثاً : لأن في هذه التسوية مقاومة لطبيعة الكائنات التي فطرها الخالق تعالى على التباين . ولكن اذا كان من سنن الله وحكمته أن يبقى أفراد من البشر غير مساوين للآخرين في الحظوظ ووسائل السعادة وفي الثروة والنشب - فليس معنى هذا أن ينبذ أولئك الافراد ويغضى عنهم ويترك السعي في تخفيف بؤسهم وجلب الخير اليهم والا كنا كذلك الذي كان يسرح سائمته السمينة في الارض الممرعة ذات الماء والكلأ ويطرد الاخرى العجفاء الى القفر حيث لا ماء ولا شجر . ويعتذر عن فعلته هذه بأنه لا يسعد ما أشقى الله ولا يشقى ما أسعد الله .

هذه الطبقة البائسة من بني البشر هي موضوع عناية الله . وان معظم اهتمام الوحي والانبياء وعقلاء البشر موجهة اليها . وربما كانت روح الدين أو الغرض الاصلي منه تعزية الفقير وتسليته عما فقده من حظوظ الدنيا بما سيكون له في

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ ﻫ ـ ١٩٠٨م

الآخرة . ولم تكتف الديانة الاسلامية بذلك وبأن تقول للغني تمتع بغناك . وللفقير اصبر على فقرك وبلواك . بل شرعت لهما من الاحكام . ما يأخذ بحجزهما عن النزاع والخصام . فهي قد أثبتت للأول حق الملكية وحق التصرف فيما يملك من دون مشارك أو منازع . ونهت الثاني ان يمد عينيه الى ما في يدي الغني وأن يتعرض له بالسؤال وعلمته أن يترفع عن هذه الخطة وأن يكرم نفسه ويستعمل ما آتاه الله من المواهب والقوى في تحصيل ما يتوق اليه . من مائدة النعم الالهية المبسوطة بين يديه . فاذا سعى أولئك البائسون وكدحوا ولم يوفقوا هل نبقى على كلمتنا الاولى من أن الاول سيد في غناه . والآخر عبد لفقره وبلواه ؟

هنا يتغير وجه المسئلة ولا يعود يكتفي الدين بذلك بل يلزم الاغنياء أن يشركوا الفقراء في أموالهم . وسمى تلك الشركة « زكاة » وحدد أصولها ورسم خطتها بما لم يدع مجالا لقائل . فجعل للفقير ـ بعد أن يتحقق أنه مصرف للزكاة ـ حقا في قدر معين من مال الغني . وهو ربع العشر أي جزء واحد من أربعين جزءاً . فمن كان لديه أربعون ألفا كان للفقراء منها في آخر السنة ألف واحدة . وجعل ذلك فرضاً عينيا على الغني لاهوادة فيه ، ولا تدنو حيلة منه

بهذه الالف يواسي الغني كلوم الفقير ويقدع طمعه وتطلعه الذي هو منبعث الشرور والعدوان . وهذا القدر ـ كما ترى ـ زهيد ومع هذا لم يدع الشرع حث الفقير على السعي والكسب وان لايكون عالة على الغني بل علمه أن اليد العليا خير من اليد السفلى . ونبهه الى أن الاخذ انما يجوز له اذا كان بحيث لا يتمكن معه من السعي وتحصيل تكاليف معيشته . وأداء هذه الالف يحمل الغني على الجد والعمل وترك البطالة والكسل خشية أن تذهب الزكاة بماله رويداً رويداً . فهو يسعى في تثميره حتى اذا أخرج منه ألفا في السنة أضاف اليه آلافا من باب

الاكتساب و تقليب المال في صنوف المتاجر

ففي اخراج هـذه الالاف دواء للحالة الاجتماعية ـ فى اخراجها تهدئة قلب الفقير فلا يعود يضطرب ويغلى فيه الحقدوحب الانتقام والعدوان . وتحريك ليد الغني فلا يميل الى البطالة فالترف فالفسوق

اذا قدرت الاموال التى يجب فيها الزكاة في مدينة من المدن الاسلامية — بمليون جنيه كانت زكاتها في السنة خمسا وعشرين ألف جنيه وهو جزء من أربعين جزءاً من رأس المال .

لاجرم أن انفاق هذا المبلغ في كل سنة على فقراء تلك المدينة ينفس كربهم ويرفه من حالهم .

وللفقهاء فى هذا المقام قولٌ أنا لم أفهم مغزاه الى الآن : قالوا انه لا ينبغي أن يعطي المزكي للفقير من زكاة أمواله مقدار النصاب : فلا يعطيه خمسة جنيهات مثلا دفعة واحدة بل أقل منها . وذلك لئلا يصبح الفقير غنيا بهذا النصاب ويصير ممن يجب عليهم اخراج الزكاة . فلا يكون المزكي جرّ الى الفقير مغنما وانما حمله مغرما وهو ايجاب الزكاة عليه !! ولقائل أن يقول ان في اعطاء الفقير نصاباً وافيا أو أنصباء ـ مساعدة له على توفير رأس مال في يده . فهو اذ ذاك يضن به دون بذله فى تافهات الامور ويحتفظ به ويأخذ فى تقليبه في الكسب والتجارة . وربما أصبح بسببه بعد حصة من الزمن ذا ثروة طائلة ينتفع الفقراء بزكاتها كما انتفع هو بثروة غيره .

فريضة الزكاة من أفضل الفرائض التي شرعها الاسلام لسلامة الاجتماع وحفظ الموازنة المادية والادبية بين الآحاد .

وقد أهمل المسلمون أو معظمهم القيام بهذه الفريضة فلم يعودوا يجنوا ثمراتها المقصودة للشارع في تشريعها .

نعم ان في المسلمين ـ والحمد لله ـ من يزكي ولـكن ليس لذلك من حسن الأثر في مجموع الامة مثل مايكون لو أخرج كل أهل مدينة زكاة أموالهم مسانهةً وتحت نظام يتكافلون على الجري عليه . والذود عنه . واذا بحثنا عن الاسباب التي ربما كانت هي الحائلة بين المسلمين وبين اطّراد إخراج الزكاة وجني ثمراتها الاجتماعية وجدناها لاتتعدى هذه الامور :

(١) ترك اخراجها الى تقوى المرء بحيث لايكون له محاسب سوى نفسه . ولما انحطت الامة فى علمها ومجموع أخلاقها وشؤونها الاجتماعية والسياسية ـ تبع ذلك اهمال للفريضة وتهاون في شـأنها ، فلم يعد يخرجها الا القليل ممن تشبع بروح الدين .

(٢) وهؤلاء القلائل الذين يخرجون الزكاة انما يوزعونها مبالغ طفيفة حسب رأي الفقهاء كما ذكرنا آنفا فلا يكون لها أثر في تحسين حالة الفقراء الذين أدّيت الزكاة اليهم .

(٣) ثم ان مصارف الزكاة أي مستحقيها اختلط حابلهم بنابلهم . فلم يعد يعرف المستحق من غيره . وربما كان فى هذا مايثبط عزائم المزكين عن اخراجها طيّبةً بها نفوسهم

ولو أُلّف فى كل بلدة اسلامية لجنة من أهل الدين والعفة والامانة بحيث تتوفر على الوساطة بين الاغنياء والفقراء . وتمد لذلك عدته من اتخاذ الاعوان والنقباء : للبحث عن المستحقين ، وما مبلغ حاجة الواحـد منهم ؟ وأيهـم الاكثر استحقاقا وأشد عوزاً ؟ ثم تتناول هذه اللجنة أموال الزكاة ـ التي قدرناها بخمس وعشرين ألف جنيه ـ من الاغنياء وتصرفها بالوكالة عنهم الى الفقراء ؛ لو ألفت تلك اللجنة لـكان خيراً للاغنياء والمعدمين معا . ولظهر أثره الحسن فى المسلمين ، بعد قليل من السنين . اللجنة أقدر على وضع الزكاة في

مواضعها من الغني وحده . واذا وثق الغني بتلك اللجنة ووكل اليها الامر في زكاة ماله كل سنة قلده غير من اخوانه وتسابقوا جميعا فى القيام بهذه الفريضة وتمتع مجموعهم بفوائدها . وتخلص ضميرهم من وخز إهمالها . والتفريط فيها . وتكون الفائدة أتم لو انبرى أفاضل علماء الدين وبحثوا عما اذا كان يجوز انفاق أموال الزكاة فى تعليم أولاد الفقراء العلوم والصنائع واعطائهم رؤوس أموال يشتغلون بها وبناء ملاجيء للزمني . ومستشفيات للمرضى الخ . واذا جاز صرف مال الزكاة فى تغذية أجسام أولئك البائسين أفلا يجوز لنا صرفه فى تغذية أرواحهم . وتهذيب نفوسهم ؟

ومجمل القول ان قليلا من مال الزكاة ينفقه غني على فقير — لاينفع الامة النفع الاجتماعي المقصود للشارع من ايجاب هذه الفريضة مثل ما ينفعها إذا كانت الاموال كثيرة تؤخذ بنظام وتصرف بنظام بواسطة لجنة اسلامية موثوق بها .

اذا اتسعت دائرة العمران فى أمة اسلامية . وانفسح فيها مجال الاعمال وقامت الحرب بين العمال وأرباب الاموال — علي نحو ماهو حاصل فى أوروبا وأميركا لهذه الازمنة المتأخرة — ثم جعل أغنياء المسلمين وأرباب رؤوس المال يخرجون زكاة أموالهم حسب الفريضة الشرعية وجعلوا يصرفونها على فقرائهم وعمالهم بواسطة جمعيات خيرية انشئت لهذا الغرض — هل تحسب أن تقوم فى مدينة هذا شأنها جمعيات اشتراكية أو أحزاب نهليستيه تعمل على العبث بالنظام والكيد لحكومة البلاد . واقلاق راحة العباد .

اذا كان الغرض من المباديء الاشتراكية ان نوفق بين الطبقة العالية والطبقات السفلى من الفقراء والعمال — وان يكون لهؤلاء نصيب فى الحظوظ التي ساقتها التقادير الى أولئك — فروح الاشتراكية تكون موائمة لروح الدين ويكون

للاشتراكية من « الزكاة الاسلامية » دواء ناجع لدائها . أما اذا كان الغرض من الاشتراكية معنى غير الذي قلناه فلتبحث لها عن دواء غير الذي ذكرناه ولا نظنها تجده بل لانظنه موجوداً

التربية

وهل لها تأثير في أخلاق الناشئين ؟

وحكاية العمدة والمزارع (١)

قال لي قائل مرة : ألست تقول بوجوب العناية بتربية الاحداث ولزوم تقويم طباعهم منذ الصغر . وان الطفل الذي يهمل والده القيام عليه ينشأ عارما سيء الاخلاق ؟ ؟

فأجبته : بلى .

قال : ولكننا نرى أولادا كثيرين يعتني آباؤهم بهم . ويهتمون بتربيتهم . ولا يحيدون في ذلك عما قرره علماء النفس والاخلاق ومع هذا يشب أولئك الاولاد على حالة من فساد الآداب والتواء التربية وسوء السيرة ما كانت لتنتظر منهم .

وهناك أولاد آخرون لم يكن آباؤهم بالاذكياء الفطناء . ولا بالذين يعرفون أصول التربية . ولا درسوا ما قرره علماء النفس . ثم ترى آثار النجابة تلوح عليهم . وروائع الآداب تسيل من أخلاقهم . فمن هذا نعلم ان محاولة التربية أمر مستحيل بل هو مقاومة لارادة الله تعالى الذي له وحده ان يركب الطفل في أية صورة شاء : من خير وسداد . أو شر وفساد . وعلى الاب ان يدع الامر لله . ويطلب منه وحده إسعاد بنيه . وصلاح حالهم . فقلت له : إن مرجع الامور الى الله . ولكنه تعالى ركب هذا العالم في سنن ونواميس مطردة . وقد اقتضت

(١) كتبت سنة ١٣٢٨ ﻫ و ١٩١٠ م

ارادته ان لا تتخلف هذه السنن والنواميس الا عند اظهار معجزة لنبي كريم .على ان في المعجزات ما يبتني حدوثه علي سبق أسباب ومقدمات . فالماء الذي نبع من بين أصابعه (صلى الله عليه وسلم) لم ينبع فجأة ومن دون توسط سبب . وانما نبع بعد ان أمرهم صلى الله عليه وسلم ان يحضروا له اناء فيه ماء . فوضع يده الشريفة فيه . واذ ذاك نبع الماء من بين أصابعه . مع ان الله قادر على ان يدع الماء ينبع من دون السبب المذكور . ولكن اقتضت ارادته ذلك لتعويدنا ممارسة الاسباب فلا نهملها . وتنبيهنا الى وجوب مراعاتها فى أعمالنا فلا نحتقرها .

وليست الاسباب في درجة واحدة من الظهور والخفاء . بل هي متفاوتة أشد تفاوت . فمنها ما كان محسوسا مثل ان يزلق رجل عن مرتفع شاهق فيقع على أم رأسه ويموت اساعته . ومنها ما كان خفياً . كأن يموت شاب صحيح الجسم عبطة . أي من دون سبق مرض . فنقول انه مات من غير سبب . مع ان علماء الطب يحكمون بأن لموته سببا خفيا يتوصل الى معرفة كنهه بواسطة تشريح جثة الشاب والبحث في علل مخه وقلبه وشرايينه . واذ ذاك يمكنهم أن يعينوا السبب المؤثر في موته . بارادة الله وتقديره ومشيئته .

وهكذا يقال فى التربية السيئة وتأثيرها في نفوس الاحداث : فقد يكون هذا التأثير ظاهراً جليا . وقد يكون غامضاً خفيا . مثال الاول أن يصطحب اللص ابنه الصغير معه في ليالي السطو والسرقة ليساعده في إمساك دابته . أو سوق الجاموسة المسروقة . وبديهي أن هذا الطفل ينشأ لصاً بارعا . والسبب في براعته ظاهر . ومثال الثاني ان يكون أبو الوليد ورعا تقيا لم يتدنس طول عمره بأخذ مال لايحل له شرعا . وقد أصابته ضائقة مالية في أخريات أيامه . فنشأ ابنه الصغير ذا طمع وشره وتطلع لما في أيدي النـاس . واتفق أن كان لجارة دارهم ولد سيء

التربية يسرق ما تطول اليه يده . وماكانت أمه تؤنبه أو تزجره . فكان الولد الاول يلاحظ ذلك من جارته وابنها فتدجنت نفسه على السرقة . ومالت اليها . لاسيما أنه في حاجة وضيق . ولم يكد يموت أبوه حتى انطلق يعدو وراء الحرام . وانغمس في الشرور والآثام .

فالسبب في فساد هذا الوليد ـ وقد نشأ في حجر التقى والصلاح ـ خفي قد لايدركه المرء مالم يسأل عن الاطوار والملابسات التى احتفت به منذ طفوليته .

ولو كان صاحبي الذي يذاكرني فى أنه : هل للتربية تأثير أولا ـ من أولي الافكار الحرة والعلم الاستقلالي لسلم معي فيما قلت تسليما . لكنه كان من أولئك الذين يتأثمون من اعمال الفكر . وإطلاق العقل . ويرون أن التسليم والتفويض ونفض الايدي أولى وأجدر . ولذلك لم يعجبه قولي . وعده من قبيل الافتئات على الله . ومعارضته فى حكمه . واحتج عليَّ بقولهم « ان أفعال الله لا تعلل » فاذا أراد ان يكون فلان ابن فلان سيء التربية فاسد الاخلاق حصل ذلك من دون ان يسبقه مقدمات ومؤثرات . كما احتج عليّ بآية « فى أي صورة ماشاء ركبك » على انه تعالى يركب الانسان فى أية صورة أرادها من الاخلاق والسجايا من غير تأثير شيء آخر . وانما بمجرد تعلق المشيئة به .

هكذا كان يحتج صاحبي لنفسه . واذ كان الخلاف بيني وبينه يتعلق باصلاح أخلاقنا الذي هو فى الواقع ونفس الامر أساس اصلاح مجتمعنا رأيت من المفيد ان أزيد البحث بيانا فقلت :

أما قولهم أفعال الله لا تعلل فليس معناه ان كل فعل لله حصل فى هذا الكون لاسبب له سابق وجوده على وجوده كلا . فان لكل فعل سبباً متقدما عليه اقتضته ارادة الله ومشيئته منذ الازل . ولكن توقف أفعاله تعالى على الاسباب

ليس بطريق القسر والاكراه. وانما هو بطريق الاطلاق والاختيار . وهناك قوم من الفلاسفة يقولون ان الافعال التي تحدث فى هـذا العالم تتوقف على أسباب سابقة تؤثر فيها بطبعها ومن دون أن يكون لارادة الله ومشيئته دخل فى ذلك . وهذه الاسباب المؤثرة بطبعها يسمونها (عللا) . وعلماء الدين الاسلامي يردون على هؤلاء الفلاسفة وينفون أن تكون أفعال الله متوقفة على « علل » ويقولون : ان أفعاله تعالى لا تعلل أي ليس لها علل مؤثرة بطبعها . لكنهم لا يقولون أبداً بأنه ليس لها أسباب متقدمة عليها غير مؤثرة فيها أو مؤثرة بمحض ارادة الله ومشيئته فالاسباب عندهم معتبرة . ويسميها القرآن « سُننا » جمع « سنة » وهي الطريقة الثابتة التى لا تتخلف : قال تعالى (فلن تجد لسنة الله تبديلا) (وان تجد لسنة الله تحويلا) (سنة الله التي قد خلت) . وأما استدلالك أيها الاخ بآية (في أي صورة ما شاء ركبك) فليس معناه ما ذكرت من ان الله يضع فى الانسان الاخلاق التى يريدها . بل معناه انه تعالى يعطيه ما شاء من صورة آبائه الاولين من حيث اللون والملامح والتقاطيع : فتارة يكون على هيئة أبيه . ومرة على هيئة جده الثالث والخامس الخ وهو ما يسمونه « ناموس الوراثة » . ولو فرضنا ان معنى الآية ما ذكرت من ايداع الاخلاق الانسان فليس ما يدل على انه تعالى يفعل ذلك من دون سبق أسباب ومقدمات . فهو تعالى ان شاء ركب فى طبع الانسان الكذب . وان شاء ركب فى طبعه الصدق . فاذا أراد الاول تيسرت للانسان الاسباب التى تنتج الكذب عادة فيصير كاذبا . وان أراد الثاني تيسرت له الاسباب التى تنتج الصدق عادة فيصبح صادقا وهكذا فهو تعالى فى الازل عالم بمصير الانسان وبملابساته وبجميع الاسباب التي تتمهد أمامه . فيكون إما سعيداً واما شقياً بواسطة تلك الاسباب . فالله تعالى يركب الانسان في أي صورة شاء

من الاخلاق بعد ان يكون الانسان تعرض لاسبابها والمؤثرات في حدوثها وقد أمرنا تعالى بالحذر وأخذ الحيطة لانفسنا : فلا نتعرض لهذه الاسباب والمؤثرات المؤدية حسب مشيئته تعالى الى مساويء الاخلاق . وذميم الطباع . بل نتجنبها جهدنا . ونبتعد عنها على قدر إمكاننا . وقد كان التابعون رضوان الله عليهم ينهون أولادهم عن الحلف . وكانوا يضربونهم أحيانا اذا حلفوا . فهم ما كانوا يتركون أولادهم هملاً اعتماداً على انه تعالى ان شاء جعلهم يحلفون أو شاء جعلهم لايحلفون . بل كانوا يتعاطون الاسباب المؤثرة في تعويدهم تجنب هذه الخصلة الذميمة . وهي الحلف . وكذلك الصحابة (رضي الله عنهم) كانوا يعوّدون أولادهم القتال وممارسة الطعن والنزال ويأخذونهم معهم الى المعارك ومشاهدة الحروب والترشح لها منذ الصغر .

ثم قلت لصاحبي وما الذي دعاك أيها الاخ الى ما ذكرته في فاتحة حديثك من ان التربية لاتفيد في أخلاق الاحداث وليس لها أثر في تقويم طباعهم ؟

قال ان فى بلدتنا وهي احدى بلاد الصعيد عمدة ذا ثروة واسعة . وعلم غزير . وعقل حصيف . وجاهٍ ومنزلة في قومه . فكان موضع اجلالهم واحترامهم . وقد رزق أولاداً اعتني بتربيتهم وملاحظة آدابهم . فكان لايدع طريقة من طرائق التربية التي ذكرها علماء الاخلاق والمشتغلون بعلم النفس (پسيكولوجيا) من دون ان يجري عليها فى تهذيب أولاده وتنشئتهم . وكان كل الناس يقدرون لهؤلاء الاولاد مستقبلا حسنا . وسعادة شاملة . وانه سيكون لهم منزلة عليا فى قومهم . وميزة ظاهرة علي اقرانهم .

ولكن الامر جاء علي العكس : فان الاولاد لما كبروا وعاشروا الناس ظهرلهم من سوء أخلاقهم . وبذاءة لسانهم . وخراب ذممهم . وميلهم للفسق والفجور مالم

ينتظروه منهم . ولم يعهدوه في المرحوم والدهم . ولم يكن مما يلائم الاصول والاساليب العلمية التي اتخذها فى تربيتهم . وفى البلدة نفسها مزارع بسيط القلب الى حد البلاهة . كثير الجهل الى درجة البلادة . نبت أولاده نباتاً حسناً . فكانوا على حصة موفورة من الادب وكرم الطباع واستقامة الاحوال تغلب عليهم العفة وتجنب الآثام والتحبب الى الناس . فلم نسمع قط ان أحداً شكا منهم أو نسب اليهم سفالة أو ارتكاب دنيئه . فما السر فى ان أولاد العمدة الذي رباهم تربية بسيكولوجية أصبحوا فجاراً أدنياء . وأولاد المزارع الذي تركهم للطبيعة كما يقولون أصبحوا أعفاء كرماء ؟ لولا ان الامر بيد الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد

فقلت له : ولكننا اذا دققنا النظر فى أمر الرجلين لابد ان نجد أسبابا انتجت هذا التخالف المحسوس بين أولاد هذا واولاد ذاك . قال مهما دققت نظرك لاتجد سوى أن الاول أحسن تربية أولاده فأساء اليه القدر فيهم . وأن الثاني أساءها فأحسن اليه القدر فيهم . ثم قال ان العمدة كان لايمكن أولاده منذ الصغر أن يقولوا كلمة سوء أو بذاء فى أحد . وقد سمع مرة من ابن له صغير فى السنة الثالثة من عمره كلمة (معرّص) يشتم بها أحد أقاربه وهو يلاعبه فقامت قيامته وضربه على فمه ضربة مؤلمة . فلاموه على ذلك . فقال : أريد ان أعوده من صغره احترام الناس وعدم التفوه بما يسوءهم . ولكن بشديد الاسف أقول لك ان الولد واخوته لايدعون أحداً من دون ان يسمعوه كلمة تهكم أو احتقار . حتى صار الناس يتحامون مجالسهم . ويودون ان لايكلموهم . لئلا تؤدي المكالمة . الى سماع كلمة شاتمة . فما هذا الخلف ؟ وكيف أن حرص الاب على تعويد ابنه أن لايسب أحداً ولو بضربه الضرب الشديد — كان له هذا الاثر المقلوب والنتيجة المعكوسة ؟

فقلت : أولا ان شدة الضرب والقسوة في التربية غير محمودة العاقبة . وكثيراً ما أدت الى عكس المطلوب . وقد شرح ذلك علماء التربية وعللوه أحسن تعليل . ولكن قل لي بحقك أما كان العمدة نفسه يذكر الناس بسوء . وينال من أعراضهم ؟ قال كلا بل كان نزيه اللسان . قلت واذا ذُكر الناس بسوء في مجلسه أما كان يصغي ويرتاح لسماع ذلك ؟ فأطرق قليلا كأنه يريد ان يتذكر شيئاً ثم قال : كان لا يسمح أن يُستغاب أحد فى مجلسه العام . ولكن تكون له أحيانا مجالس خاصة بأصحابه . وأمناء سره . فكان لا يأنف من سماع الغيبة . وكلمات الطعن فى الناس : لاسيما أعدائه ومنافسيه على الجاه والمنصب . قلت وهل تحسب أن أولاده لم يكونوا يسمعون ويلاحظون ما كان يجري فى مجالسه هذه ؟ قال انهم كانوا يسمعون ويلاحظون فى الاعم الاغلب . فقلت له : من هنا أُتوا وارتكست أخلاقهم وتدنست طباعهم . ولم ينفعهم ضرب . ولا شديد عتب . فسكت الرجل سكوت المتعجب من تدقيقي معه البحث الى هذا الحد . ثم قلت له : كنتَ ذكرت ان أولاد العمدة نشأوا يميلون الى الفاحشة . قال نعم قلت وهل كان والدهم يرتكب شيئاً من هذه القاذورات خفية ؟ قال كلا وحاشاه من ذلك . ولقد شدد فى مراقبة أولاده منذ صغرهم . ومنعهم من مخالطة أحد مامها اعتقد فيه التقوى والصلاح خشية ان تفسد آدابهم من كثرة المخالطة . فكان لا يسمح لهم الا بمعاشرة أشخاص معدودين من بطانته الأدنين .

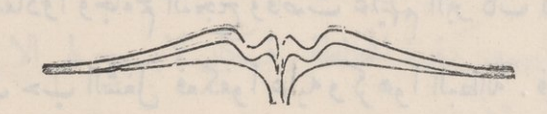
فقلت له : ولكن أما كان فى أصحابه وعشرائه من يميل للفاحشة أو يأتيها أو يتلذذ بذكرها على الاقل . فجعل يعبث بشاربيه ثم قال : إن بين أصحابه رجلا يحب أن يمزح كثيراً فى أمثال هذه الشؤون . فكانوا يقضون أوقات السمر فى مداعبة هذا الرجل والتعريض بهناته . وما كانَ منه فى ماضي حياته . قلت والاولاد

كانوا يحضرون هذه المجالس بالطبع . قال نعم لانهم ما كانوا يدعون مجلس أبيهم. فقلت من هنا أتوا . ووجد الفساد سبيلا الى أخلاقهم وطباعهم : كانوا يستحلون هذا الحديث ويتطلبو نه بسائق من سنهم وطبيعة حداثتهم وكانوا اذا خلوا بأنفسهم تفكهوا بذكرى الفاحشة وتمنوا لو يتاح لهم غشيانها حتى اذا استقلوا فى أمرهم . وبلغوا أشدهم . وتزحزحت عن عاتقهم مراقبة والدهم المرحوم . نمت الذكرى واعشوشبت الاميال الفاسدة والانفعالات الردية فأثمرت الفسق والفجور . فأطرق الرجل وقد بدت عليه ظواهر الاقتناع بكلامي . ثم قال ولكن ما تقول فى ذلك المزارع الساذج الذي لا يفرق بين البَهَم والبُهْم ولا يميز المأمون عن ابراهيم ابن أدهم .

فقلت له : ذكرت ان الرجل مزارع . قال نعم . قلت وهل هو ناجح في أمر زراعته ؟ قال نجاحاً كثيرا . وعال نجاحه بأنه ينام باكرا وينهض باكرا . ويقضي أوقاته في النظر في اشغاله وتسديد حساباته ومراجعة شركائه . فهو لايجد وقتاً للكلام في الناس . ونقد أحوالهم . ولا في مالا يعنيه من الامور . أو أن الرجل بطبيعته لايميل الى ذلك . قلت وهل كان أولاده يعاشرونه ويجالسونه ؟ قال نعم. قلت من هنا استفادوا وجاءهم النجح وفاضت عليهم البركات فانهم تطبعوا بطباع والدهم من حيث حب الشغل فعكفوا عليه وكرهوا البطالة . فلم يكن معهم وقت لغير إنجاز أشغالهم وتتميم واجباتهم فسلمت أخلاقهم . واستقامت طباعهم. فأبوهم لم يعلمهم الفضيلة بلسان المقال . وانما علمهم اياها بلسان الحال . وهو أفصح بيانا : وأقرب ايصالا .

ثم قلت لصاحبي : فهمتَ الآن من هذا الشرح أن للاسباب مهما كانت خفية تأثيراً في أخلاق الناشئين وأن على أوليائهم ان يتفطنوا للاسباب التي تضر

فيتقوا رمحاتها . وللاسباب التي تفيد فيتعرضوا لنفحاتها . ولكن بقي شيء واحد.
وهو انه قد يعترض في سبيل هذه الاسباب أحيانا قوة تكون مطوية في نفس
الناشيء . وتختلف أسماؤها باختلاف بعض الاعتبارات . فتسمى « الوراثة »
و « القابلية » و « الاستعداد » و « المزاج » و «الميل » : فقد يولد الطفل وفيه
ميل أو استعداد موروث أو مزاج خاص لان يكون فاسقا . فالاسباب التي من
شأنها ان تحدث فيه ملكة العفة تلاقي صعوبة شديدة في طريقها . ولكن على المربي
ان لا ينى ولا يفتر عزمه . فانه ان لم يتمكن من جعل الناشيء عفيفا كاملا فهو على
الاقل يمكنه ان يخفف فيه سورة الفسق ويضعف ميله اليه . وقد يولد الطفل على
العكس أي يكون فيه ميل واستعداد وراثي للعفة . فمهما تعرض لاسباب الفسق
واحتفت به دواعيه بقي محصناً عفيفاً . ولكن على مربيه ان لا يغفل أمره . ولا
يتكل على ما يعلمه من عفته الفطرية . اذ ربما تقوى الاسباب الداعية للفسق
ويشتد سلطانها . فتتقوض العفة وينهار بنيانها . واذ ذاك يمسي الولد فاسقاً فاجرا .
فعلى المربي أن يكون يقظاً ذا كرا



ماتم أو مأتم (١)

وفَدَتْ في الشتاء الماضي على القاهرة إحدى الفتَيات السوريات المتعلمات . ونزَلَتْ في ضيافة أقارب لها في الفجالة . ولها في بيروت صديقة من أترابها اللواتي درسن معها العلوم . وتلقّين الآداب في مدرسة البنات البروسيانيّة الشهيرة في تلك المدينة . فأحبت الفتاة أن تكتب الى صديقتها شيئاً مما وعته ذاكرتها فى سياحتها هـذه . لا سيا شؤون النساء المصريات وعاداتهن ومختلف أطوارهن . فكان مما كتبته اليها وصف مأتم شهدته فى دار بعض الاسر الاسلامية من معارف ذويها . ولم تكتف الكاتبة الفاضلة بذلك بل افتتحت كتابها بشيء من وصف (الزّار) وبشاعته . واختتمته بالافصاح عن رأيها في حالة المرأة المسلمة . وما هو مقدار الصعوبة في تربيتها وتعليمها .

قالت ــ بعد مقدمة تدور حول إظهار ما يكنّه فؤادها من عواطف الشوق لصديقتها والحنين الى وطنها ــ ان أشهر العادات الشائعة هنا بين المسلمات . والتى قد ضجّت من قبحها الارضون والسموات هي عادة الزار . تلك العادة التى لا تلائم الدين ولا الأدب ولا الذوق ولا اصول الاقتصاد . وقد حدّثني من شاهدها من النساء . وحقّق أمرها من الرجال أنها ضربة قاضية على الراحة المنزلية . وآفة مجتاحة للعواطف الشريفة العائلية . وهي فاشية في المسلمين أكثر من فشوّها فى القبط . وقد سمعت سيدة قبطية تقول : إن جدّها الاكبر الخواجه (شكر الله) كان عنده خادمة . فجاءته يوماً تشكو اليـه ما أصابها من الزار وان آية ذلك عدم شعورها بالالم . فلو غرز غارز فى جسمها بمسلة لما أحست فأخذت نساء البيت يخزْنها بها . ويبالغن فى الوخز . وهي لا تتأوّه ولا تتوجّع

(١) كتبت سنة ١٣٢٨ هـ و ١٩١٠ م

ولما رأى الخواجه (شكر الله) منها ذلك هاله أمرها . وخشي أن تتسرب عدوى الزار الى نسوة بيته . فتسوء حاله . وتتنغَّص معيشته . فرأى أن يستأصل العلة بالكرباج . فتناوله وأنحى على الخادمة به . فحزّ جلدها حزاً . ولم يزل بهـا حتى صرخت (شُفيت . شفيت) ثم لم تعـد تشكو من يومئذ

وبلغني أن واحداً من سادات المسلمين وأشراف المصريين طبّب إحدى زنجيات بيته وشفاها من علة الزار بهذا النوع من الطبّ النافع . والدواء الناجع .

وحلف آخر ادّعت امرأته انها مصابة بالزار ـ أن لا يجتمع هو وشيخ الزار تحت سقفٍ واحد . ولايرضى أن يكون ذلك المخلوق الغريب شريكا له في امرأته . فامّا أن يزايلها . أو تذهب طالقاً الى بيت أبيها . وبديهيّ أنّ المرأة تفضل زوجها علي شيخ الزار . مهما كان له في نفسها من الشأن والاعتبار .

وهكذا الشهم الحازم من الرجال يعرف كيف يسوس نسوته . ويداوي أوهامهن باللين تارة . وبالعنف تارة أخرى . وأما ذاك المأفون الضعيف الرأي والمُنّة فان امرأته تستعلي عليه . وتسخره لأمرها . كطفلها أو داجن بيتها .

ولم يتفق لى ان اشاهد حفلة زار فى القاهرة . وانما شاهـدت مأتماً لبعض العائلات الاسلامية لاتقلّ بشاعة عن تلك الحفلة فيما أظن من حيث القفز والرقص والضرب علي البنادير .

والمتوفَّاة فتاة فى غضاضة شبابها . قضت بعلة الصدر . وتركت طفلا لها فى الثالثة من عمره . فـكان مصاب أمها ـ ولا أقول بعلها ـ بها عظيما . وما سمعتُ نوح تلك الأم المسكينة وحنينها الى ابنتها حتى تذكرت صديقتنا ورفيقة صبانا فى المدرسة الآنسة (انجلينا) فان بين الفتاتين مشابهة فى السنّ والحسن والأدب على ما وصفن لي

.

ينعقد المأتم فى كل يوم خميس من بعـد يوم الوفاة الى الأربعين . فالمأتم

تكون خمسا أو ستا . وتتردد النسوة على المآتم من الصباح الى الساعة الرابعة بعد الظهر .

وقد جئنا نحن الى المـأتم فى الساعة العاشرة قبـل الظهر . فدخلنا بَهْواً واسعاً . ويظهر ممّا فيه من النقوش البديعة . والاثاث الفاخر أن أهل المأتم من ذوي النعمة والثراء . ولكن الاثاث والرياش وسائر أدوات الزينة لم تكن على وضعها العادي : فان البساط الثمين قد فُرِش مقلوباً . ونسوة المأتم يجلسن عليه كذلك . ولا يجلسن على كراسي أو مقاعد . بل ان هذه وأمثالها تُرْفع الى محل آخر . أما النَّجَفات (الثريات) والمرايا فـكانت مغطّاة بالاقمشة السوداء . وقد جملت النساء تفد أسرابا أسرابا . وهن بحليهن وزينتهن . ومنهن من خططت حاجبيها بالسواد . وصبغت خديها بالحمرة ولولا الثياب السود المتلفعة بها لحسبتها فى عُرس لا فى مأتم .

ولا يبين من المرأة سوى وجهها . وأما ما عداه فمكسوّ بالسواد . ويكون فى يدها منديل اسود . وعلى رأسها قناع اسود . طوله أربعة أمتار . بحيث تتلفع به على عدة أدوار . ويسمى شلحة . وكان يتراءى لى من خلال هذه الشلحات بصيص ما تحتها من عقود وأقراط وخواتم ودمالج . وتقعد النساء على البساط المقلوب صفوفا بعضهن أمام بعض . وأول ما تدخل الواحدة منهن تسرع اليها الفراشات فيقدمن اليها القهوة والسكاير . فتأخذ من ذلك حاجتها .

وكانت ام المتوفاة جالسة فى ناحيـة . وحواليها قريباتها . وهي أول من يشرع فى افتتاح حفلة المأتم . فقد رأيتها انتصبت على رجليها . وكانت متجلببة بثوب أزرق شديد الزرقة الى حد السواد . وقد ألْقتْ عليها من فوق الثوب دراعة ومشلحا رقيقا من صوف اسود . وهي متلفعة بالقِناع الذي مرّ وصفه آنفا ومشدودة الرأس بعصابة من ابريسم اسود . ثم وضعت فى عنقها منديلا اسود

ملون الاطراف بلون أحمر قاتم . وقد أمسكت طرفى المنديل بكلتا يديها . فكانت تقفز قفزاً منكراً . وهى فى أثناء القفز تشد المنديل تارةً الى اليمين وطوراً الى اليسار . ثم تتركه وتنزل على وجهها باللطم والصك الشديد حتى يمسها الاعياء واللغوب . فتقعد نحو خمس دقائق فتستجمع قوتها . ثم تعود الى شأنها الاول من القفز والندب واللطم . ويكون نساء من أقربائها وخدمها حواليها لابسات مثل لبسها . ويصنعن مثل صنعها . وقد أخبرت أن أهل البيت فى بعض المناحات يصبغن وجوههن بالنيلج (النيلة) ومن حسن الحظ أني لم أرَ هذا المنظر السمج في المأتم الذي شهدته ولم تفعل أم المتوفاة ما تفعله وهي ساكتة وانما هي تملأ الدنيا عويلا ونواحا وندبا . فتصف ابنتها وأخلاقها . وجمالها وآدابها . فكانت تقول : يالابسة الألماس البرلنتي . يا أم الاولاد الصغار يللي جرحت قلب أمك وأبيكِ . يللي تركت الطفل الصغير قبل أن يشبع من لبن ثدييك . ياعشوره . يللي ترْضي الناس . ما أحد يزعل منك أبداً . ياصاحبة الذوق واللطف والمعروف الخ الخ

ولما أكثرت من أمثال هذا القول ونهكتْ قواها بالقفز واللدم جذبتها احدى السيدات اللواتي كنَّ بجانبها وأقعدتها لتأخذ لنفسها راحة . فقعدت . وخلفتْها إحدى بناتها . فجعلت تندب ندبها . وتلدم خدها . وتشد المنديل شدها حتى كادت تحزّ عنقها . ويتفصد الدم من وجهها . ثم قعدت .

وبعد ذلك جاء دور جوق الندابات . وكن ثلاثا متسربلات بالسواد كسائر النسوة . ووظيفة هؤلاء التفنن في الندب وهَيْج النفس . واثارة كوامن لواعجها وتباريحها بالالحان المحزنة . فما كن يقلن كلمة حتى تسيل العبرات . وتتعالى من كل جانب الشهقات والزّفرات . وقد وقفت رئيسة جوق الندب فوضعت يدها على خدها . وأخذت تعدد صفات الفقيدة بصوت رخيم وتلحين جميل . وهي

فى اثناء الندب أوالغناء تتمعَّج وتتلوَّى كأنها ترقص رقصا . فمما سمعتها تقوله: ياشابة ياصغيرة . يالابسـة الالماس البرلنتي . ياأم الولد الصغير يافلانة بنت فلان الخ . وكانت أم المتوفاة تستعيد منها بعض الجمل فتعيدها على مسمعها

ثم وقفت النائحتان الأُخريان الى جانبى الرئيسة وجعلتا يُسعدانها بالندب والتحسر . والتثني والتكسر . وكانت تقول أحياناً جمـلة . فتعيدانها هما . وتعدد هي عليهما جملا أخرى كما يفعل رئيس الجوق ورجال جوقته في مختلف الاناشيد وفي حفلات الافراح

ثم قعدت النداابات وتناولن دفوفا(ويسمونها هنا بناديرو طارات) وجعلن يعزفن بها . وكان لبعض البنادير جلاجـل لها أصوات حادة . ولمـا سمعها أهل المتوفاة نهضن كلهن على أقدامهن وأخـذن يلطمن لطما عنيفاً . أما بقية النسوة فكانت تقوم منهن المصابة بعزيز لهـا وتشارك أهل المتوفاة في عملهن . وتصكّ خديها ولـكن صكا خفيفا . ثم تقفز ولـكن قفزاً شـديدا حتى تحسبها علت عن الارض بضعة أشبار . ومن العجيب أنهن مع هـذا القفز واللدم ما كن ليذرفن دمعة فاين ذهبت اللوعة ؟

وكانت النسوة الحاضرات . يحـذفن النادبات من وقت الى آخر بالدراهم حذفا منكراً . شأنهن في حفلات الولائم والافراح حينما يحذفن المغنيات بالجوائز والاعطيات

ثم انتقل جوق الندب الى مخدع آخر من مخادع المنزل وجعلن يندبن لمن فيه ويَهِجْنَ فى نفوسهن الحزن والاسف . ويحملنهن على النحيب والبكاء . وقد ملأ صوتهن وصوت بناديرهن فضاء المنزل . وفي آخر الامر ضاق صـدري من هـذا المشهد فأشرت الى أهلي بلزوم الانصراف ليحل غيرنا من النسوة القادمات محلنا .

ومما حدثني به بعض النســاء الريفيات أنه اذا مات الميت في بلاد الصعيد أو بعض مدنه تخرج فئةمن النساء قبل دفنه فيطفن في أنحاء البلدة نادبات معولات لاطمات . وتكون امامهن ندَّابة تضرب على طار في يدها . ويقلن كلهن بصوت مزعج (ياهبو ياهبو) والغرض من فعلتهن هذه الاعلان عن الميت و نعيه للاهالي ويزعم قوم ان كلمة (ياهبو) سريانية ومفادها عدم الرضا بقدر الله .

***

هذا أيتها الصديقة مجمل من عادات النساء المصريات فى اتراحهن ومن الغلو والاغراق فيها تعلمين مبلغ غلوهن في أفراحهن . وقد كنت وانا أنظر الى هؤلاء النسوة في مناحتهن . أفكر في أمر انتشالهن من جهلهن أ كثر من تفكري في قبيح عاداتهن وبشاعة أفعالهن . المرأة المسلمة يلزمها ان تتعلم . فاذا تعلمت أنقذت أسرتها بل أمتها من هذا التأخر والانحطاط .

فماهي الوسائل ياترى التي بها يكون تعليم المرأة المسلمة وانتشالها من حالتها هذه ؟ تعميم التعليم بينهن . واجبارهن عليه . هو أول مايخطر بالبال من الوسائل .

ولـكن هذه الوسيلة مما لاتطيقه الحـكومة ولا الامة . الحـكومة تزعم أنه ليس لديها من فضول الاموال مايساعدها على توفير هـذه الوسيلة . والامة أوأغنياؤها يضنون ببذل ماادّخروه لملذاتهم في سبيل نفع غيرهم على انهم لو سمحوا به لما وجدوا معلمات وطنيات

أول مايشـترط في المعلمات أن يكن مسلمات . اشـترطنا ذلك ليكون التعليم على مقتضى رغائب الامة ويلتحم مع تقاليدها . ومشارب ابنائها .

يصعب على المجموع أن يقـذفوا ببناتهم في أحضان معلّمات أوربيات أو مسيحيات مهما كان جنسهن

وسواء كانوا مصيبين أو مخطئين فان العقبة كؤود . والطريق مخوف .

وقد بحثت عن حالة تلميذات « المدرسة السنية » التى تخرج معلّمات وعما اذا كنّ يفين بالغرض المطلوب · فقيل لي أنهن قليـلات العدد . وان واحدة من كل عشر طالبات منهن تبقى لممارسة فنّ التعليم . أما التسـع الاخريات فانّهن بما أوتين من تعليم وتهذيب وجمال يتطالان الى الزواج والمعيشة العائلية كما أنّ الشبان يرغبون فيهن ويتخذون الوسائل لاصطيادهن . فالذي تستفيده الامة من المدرسة المذ كورة انما هو طالبة واحدة من كل عشر طالبات · وتكون في الاعم الاغلب شوهاء أو عجفاء أو ذات عاهة منفرّة : فالمدرسـة السنية اذاً فاوريقة لتخريج العرائس . لا لتخريج معلمات المدارس . مسكينة المرأة المسلمة لم تتوفر لها الوسائل فتتعلم التعلم المدرسي . فما بالها حرمت التعلّم العائلي ؟

العائلة هي المرأة . والمرأة هي العائلة . فالجهل مزدوج . ولا ينسخ الظلام ظلاما .

ولو فرضنا أنه كان في أفراد العائلة الذ كور من تربّى وتعلّم فقد يعسر عليه أن يجعل من وظيفته اعطاء درس لعائلته . ولو تيسر هـذا لبعض الافراد فلا أراه بالمتيسر للمجموع . مسكينة المرأة المسلمة . لا الحـكومة تعلّمها · ولا ذووها يعلّمونها . فلم يبق لديها الا الشيخ

ولـكنّ الشيخ أيضا لا يُسمح له ان يتردد على العائلات . ويلقي النصائح الدينية والفضائل الادبية على النساء والبنات · كما يسمح للـكاهن المسيحي ان يتردد على العائلات المسيحية للغرض المذ كور . ولا أعلم ياعزيزتى إن كان هذا مما لايجوز في الدين الاسلامي أو يجوز ولـكن القوم أغفلوه كما أغفلوا كثيراً من وصايا دينهم

هبْ أن الشيخ لايجوز له ان يتردد على الأسر الاسلامية للنصْح والوعظ أفلا يجوز ياترى ان ينتاب اولئك النسوة المساجدَ وحلَقات الدروس والوعظ

لاجل الانتفاع بما يُلقى فيها من النصائح والارشادات؟ أو يقال أليس لهنّ محالّ خاصة بهن لاجل أن يتلقّين فيها شيئاً من مبادىءالعلم الديني والاخلاق والآداب؟ أظن ان ذلك غير جائز أيضا . بدليل أنى كنت مارّةً أمام بعض الجوامع في ظهر يوم الجمعة . فرأيت النساء واقفات على باب المسجد ونوافذه . والخطيب يخطب فى الرجال يعظهم ويذكرهم وهن قصيّات مقليّات

وارحمتاه لأ لئك النساء أَلَسْنَ فى حاجة الى العلم والأدب وفضائل الدين مثل الرجال ، إن لم يكن أ كثر منهم ؟

إن كان يُباح المرأة المسلمة أن تشهد الجمعة فلتشهدها مع الرجال أو في مكان آخر في المسجد بعيداً عن مكانهم بحيث تسمع وتستفيد . وإن تكن ممن لايباح لها الشهود لئلا تخالط الرجال فها هي تخالطهم على أبواب الجوامع وفي الاسواق والمخازن والمتنزهات مخالطة من أبشع المخالطات . منعوهن عن شهود الجماعات لئلا يختلطن بالرجال وحرموهن فائدتها لئلا ينالهن ضرر المخالطة فهاهنّ لم يشهدنها وقد خالطن الرجال في معظم المواطن فأُبْنَ بخسار الصفقتين : ضرر المخالطة وضرر عدم الاستفادة من شهود الجمعة والجماعات

مسكينة المرأة المسلمة فلا الحكومة تعلمها ولا رجال الدين ولا أولياؤها ولا الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه . فان الوسط الاجتماعي يبخل أو لا يُطيق أن يعمّم التعليم المدرسي للموانع التي ذكرناها

كان في مكنة الوسط الاجتماعي الاسلامي أن يساعد على تعليم المرأة المسلمة من جهة أخرى . ولكن تلك المساعدة مما لايمكن ان يكون . ويحول دونها حوائل عاديّة أوتقاليد دينيّة كما يقولون فان قلتِ كيف ذلك ؟ أقول ان التقاليد الاسلامية تمنع حضور الرجال محافل النساء وشهود هؤلاء مجامع اولئك . لو أن الرجال يحضرون حفلات الزار والمآتم والافراح التي يقوم بها النساء و يشاهدون منهن

مالا ينطبق على دين ولا صحة ولا أدب ولا ذوق فانه يبعد ان لا ينكروا ذلك عليهن وألا ينبهوهن الى خطأهن . والشيخ يبيّن لهن حدود الدين ويشرح لهن آدابه وفضائله ويؤكد لهن أن فعلهن غير ملائم لتعاليمه . والطبيب ينصح لهن أن يدعْنَ العادة والعمل الذي يفسد صحتهن وصحة أطفالهن . والاديب ينفر من فعلهن . ويظهر الاشمزاز من سخافتهن . ويُرشدهن الى مايحسن في العرف والذوق و الادب

وتعلمين ياعزيزتي ان طبع المرأة مفطور على أن تظهر نفسها أمام الرجل في مظهر اللياقة والحشمة والادب ، وهي تكره ان ينتقدها منتقد أو تسمع الرجال يذمونها ويعيبونها خصالها ويفضلون صويحباتها عليها

هذه القوة الاجتماعية أعني قوة الانتقاد بين الجنسين ومراقبة أحدهما آداب الآخر من أقوى العوامل في ترقية الامة من الوجهة الاخلاقية والادبية

هذه القوة مفقودة في الوسط الاجتماعي الاسلامي . وضرر فقدها انما يقع معظمهُ على رأس المرأة المسكينة . فانظري ياعزيزتي كيف تقطعت الاسباب باختنا المسلمة وكيف سُدَّت في وجهها أبواب التعليم . وأصبحت من جهلها فى جحيم » اه



الاسلام والحكم النيابي (١)

كان للأثينيين والاسبرطيين والرومانيين حكومات نيابية اهتدوا اليها بطول تجاربهم . وارشاد فلاسفتهم . مثل صولون وشيشرون وغيرهما . وقد وضعوا لتلك الحكومات النيابية وانتخاب رجالها ترتيباً ونظاماً خاصاً أخذوا على أنفسهم حمايته . ومقاومة كل من يتعرض له : فكان الواحد منهم يفتك بأعز الناس عليه إذا رآه انتهك حرمة هذا النظام . كما فعل (بروتس) بصديقه الحميم (يوليوس قيصر)

وقد جنت تلك الامم القديمة ثمار الفتح والنصر وسعة السلطان من أغصان هذه القوانين التي وضعوها لتنظيم دولهم . والتزام العمل بها . ولم تسقط هذه الامم عن عرش عظمتها إلا حين استخفت بتلك القوانين وتنكبت سننها

وهؤلاء الرومانيون ما دالت دولتهم . وأفل نجمهم إلا بعد أن عدا (اغسطس قيصر) على قوانين المملكة . وعبث بحكومتها فحولها عن هيأتها الدستورية الى مطلقة استبدادية . ثم استأثر هو بالحكم والسلطة

ولا نبالغ اذا قلنا ان أمم الغرب لهذا العهد لم يبلغوا هذا المبلغ من العز والصولة الا بعد أن حذوا حذو تلك الامم في تأسيس أصول حكوماتهم . وطريقة انتخاب رؤسائهم

ومن بواعث العجب أن يقتبس رجال الكنيسة أيضا هذه الطريقة أو ما يقرب منها فى انتخاب (البابا) وأعضاء الفاتيكان . بل فى اعتبار القديس قديسا . ومنذ أشهر قرر المجمع البابوي وضع (جان دارك) في مصاف القديسين

(١) كتبت سنة ١٣٢٨ هـ و ١٩١٠ م

وهي التى حرمها أكليروس زمانها . وحكم عليها بالاحراق

كنت أقرأ هذا وأمثاله فى التاريخ فينتقل ذهنى بحكم الضرورة الى المقارنة بين نوع الحكومة فى الاسلام . ونوعها عند أولئك الأقوام . وأتصوّر ما حاق بالمسلمين بسبب الخلافة ونزاع المرشحين عليها من البلاء . وكيف كان شيطان العصبية يحتنكهم ويفرق بينهم من أجلها

لم يقرر الاسلام ترتيباً يتبعه المسلمون في انتخاب رئيس لهم . ولم يضع طريقة أو قاعدة يرجع اليها في اختياره . وانما كان الاخلاص في الدين وتوخى المصلحة العامة . والزهد فى زهرة الحياة الدنيا ـ هو قاعدتهم البسيطة المقدسة في انتخاب رؤسائهم الاولين . ورائدهم فى الظفر بالكفي" ذي القوة المتين . ثم استدار الفلك وتبرجت الدنيا . ومالت النفوس الى أخذ حظها من النعيم . وشابت القلوبَ شوائب من الانصراف عن فهم مقاصد الدين . فنسخت قاعدة الاخلاص . ومرعاة المصلحة العامة . التى كان العمل عليها فى الانتخاب والمبايعة . وقام مقامها قانون العصبية والقوة والمصلحة الخاصة . فكانت كلمته النافذة . وقوله الفصل فى الترجيح والاختيار

لكن لماذا لما نسخت (قاعدة الاخلاص) خلفها (قانون العصبية) ولم يخلفها (النظام الدستورى) أعني طريقة الانتخاب التى كانت تعرفها أمم اليونان وآسيا الصغرى وتحداها الرومانيون الذين استولوا على بلادهم ؟

لماذا غفل العرب عن اتباع تلك الاصول . وتناولوا قانون العصبية عن كثب ؟

إذا تعذر عليهم العمل بقاعدة الاخلاص فى انتخاب الرئيس أفما كان المنتظر منهم أن يقطعوا على شيطان العصبية خط الرجعة فلا يمكنوه من العودة

الى ربوعهم . وإفساد ذات بينهم . بعد أن أصلحها الاسلام . وامتنّ عليهم بها القرآن ؟ ؟

كانت هذه الفكرة تجول فى نفسي فاستعيذ بالله خشية أن تكون من الزيغ فى الدين أو من همزات الشياطين

ليس من السهل القول بأن حكومات العرب كانت ولا تزال مرتبكة مضطربة . وان حكومة الامم الوثنية كانت أشد إحكاما . وأوفى نظاما . وان أولئك لو اقتبسوا من هؤلاء طريقتهم فى تنظيم الحكومة وتأليف الدولة لكان خيراً لهم . وأضبط لأمرهم

ليس من السهل عليك أن تصرح بهذا ، ولست تعدم من يرد عليك أقبح رد

ومن جاملك من هؤلاء اللوام اعتذر عن العرب واضطراب أمر حكوماتهم بأنهم قوم حديثو عهد ببداوة ومعيشة الاستقلال الفردى . فيصعب عليهم تقليد الامم التى سبقتهم فى حلبة العمران . وانتحال قوانين الاجتماع . وأصول تأليف الحكومة . على أن تلك الامم الوثنية لم تهتد الى هذه الاصول الاجتماعية الا بعد طول تجارب . وكرور أجيال . ومكابدة أهوال . فكيف يتسني للعرب . وعمرانهم بعد في طور الطفولة أن يقلدوا مظاهر العمران الذى بلغ أشده واستكمل سنه . على أن العرب لم يمر عليهم زمن يتيسر لهم فيه أن يمتزجوا بتلك الامم . ويقتبسوا منها ترتيب حكوماتها وأساليبها فى نظاماتها . وبالجملة ان العرب في أول نشأتهم لم تتوفر لديهم وسائل الاقتباس . ولم تساعدهم عليه طبيعة عمرانهم . فكيف ننعى عليهم التفريط فيه ؟

هذا قول اللائم المجامل . أما ذاك المخاشن فينكر أن تكون الامم القديمة

ذات قوانين حسنة . وأصول مفيدة في تأسـيس الحكومة . وتنظيم الدولة . ويذهب الي أن ما كان عن العرب في أول أدوار حياتهم الاجتماعية من التعاليم ووسـائل السعادة خير مما عند تلك الحـكومات الوثنية . فلم يكن العرب في حاجة الى تقليد هـذه الامم . ولا الى اقتباس شيء من الترتيب الذى كانوا يتخذونه في إنشـاء حكوماتهم . ووضع قواعد دولهم . ولو فعل العرب ذلك لكانوا مارقين من الدين . ومستخفين بما انزل عليهم من هَدْي القرآن المبين .

ونقول في الجواب : ان تخطئتنا لبعض أسلافنا فى عدم ضبط أمر الرياسة العامة . واتخاذ وسـائل كافلة بانتخاب أهل الكفاية لها ـ ليس بدعاً فى الدين . ولا مساً بكرامة آبائنا الاولين . هذه أسـفار التـاريخ وكتب السنة تلومهم على انقسامهم . واحياء العصبية بينهم حتى كان ذلك داعياً الى انتـكاث فتلهم وذهاب ريحهم

على أننا لا نريد أن نقول إن الواجب على أسلافنا أن يقلدوا الامم السابقة فيما لا يجوّزه الدين : من طقوس كهنوتية . وشعائر دينية . بل كنا نتمني لهم اقتباس ترتيب الحـكومة . وتنظيم الدولة . وهو أمر دنيوي محض . على ما سيجيء بيانه بعد . فـكما كان سلفنـا ينسبون الى الدولة الكسروية العدل . وضربوا بعدل كسرى المثل حتى ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال « وُلدت في زمن الملك العادل » يعني كسرى ـ يجوز لنا نحن اليوم أن ننسب الى الامم الاخرى سـبقاً في وضع قواعد مفيدة في تنظيم الحكومات . ونقول ان هذه القواعد أساس العمران . قالوا هم (العدل أسـاس الملك) وإن علينا أن نُحكم الاساسين . وننتفع بكلا الأمرين

أما القول بأنه لم يكن عند الامم القديمة أوضاع محكمة في تنظيم الدولة . ولا روابط ملتزمة في تأسيس الحـكومة فمردود . والتاريخ ينكره اشدَّ إنـكار .

فقد ذكر المؤرخون أنه بعد تأسيس (روما) بمائتى سنة طغى ملوكها . وامعنوا في الظلم والاستبداد . فاتحدت كلمة الشعب الروماني على إسقاطهم : والادالة منهم بالحكومة الجمهورية . فانتخبوا لرياستها اثنين منهم . سموهما قنصلين وفوّضوا اليهما حق إدارة المملكة . وجعلوا انتخابهما لسنةٍ واحدة وبعد السنة يكون للأمة الخيار في إبقائهما إذا أحسنا . وعزلهما إذا أساآ . ثم تعاهدوا على حماية هذا القانون . وقهر كل من أراد التعرّض له بسوء . أليس هذا العمل من قبيل السنن الحسنة ؟ ألا يكون سداً منيعاً في وجه الظلم والعدوان . ويحول بين العَيْر والنزَوَان ؟ نعم قد يعرض لهذا السدّ أحياناً من الآفات مايزعزع أساسه . ويضعف الأذرع التي تدعمه . ويفتح فيه ثغرةً يثب الطامع منها الى الاستبداد كما فعل (اغسطس قيصر) . لكن ذلك لايشين الأصول الدستورية . ولا ينفي عنها صفة الحسن والصلاحية لاسعاد الأمة مادامت هذه الأمة في قوة من شأنها . واتحاد من كلمتها ولم يفسد الترَف أخلاق ابنائها . فتتخاذل عن حماية دستورها . وقهر العادي عليه .

هذا كتاب الله وهو القانون السماوي الذي انتهى اليه التأثير في إصلاح حال البشر واسعادهم : انحرف قومه عنه فانحرفت عنهم السعادة . وهجروا العمل به فَهجرتهم العزّة والسيادة .

ونحن لاندعى أنّ عقول الرومانيين الذين هُدُوا الى مبادىء الدستور قد بلغت من الحصافة والسّداد مبلغاً تسجد على أبوابه العقول . ولا أنّ هيأة اجتماعهم بلغت أقصى مايتمناه الفلاسفة الفحول . كيف لا وتلك العقول كانت ترتكب أحياناً حتى بعد وضع تلك المبادىء من الجرائم مايستعيذ من ذكره التاريخ [1]

---

(١) من ذلك أن فتياناً من الرومانيين نقموا من حكومتهم وتواطأوا على اسقاطها . واذ أرادوا أن يستوثقوا من انفسهم خشية ان يخون بعضهم بعضا ذبحوا رجلا وشربوا من دمه وأقسموا على الصبر والثبات

نحن لا ندَّعى ذلك وإنما نرى أن الشعب بحكومته وأن صلاحه بصلاحها . وان الحكومة لا تصلح مالم يتولَّها قومٌ صالحون . ولا يتولاها الصَّالحون مالم تكن ثمة طرائق ثابتة لانتخابهم . فإذا اهتدت أمة من الأمم الى هذه الطرائق المكفولة كانت مستوثقةً من متانة الأساس الذي ترفع عليه قواعد مملكتها . فتتفرغ بعد ذلك لتنظيم شؤون المملكة . وتدبير الوسائل في توفير سعادتها وترقية عمرانها

وما كانت الأمم القديمة لتهتدي الى تلك المبادىء الدستورية مرةً حتى تفقدها مراراً : فكانت مذبذبةً مقلقلة كقدح الراكب حتى تأذَّن الله باضمحلالها وانقراضها . أمَّا الأمم الغربية لهذا العهد فقد تناولوا هذه المبادىء عن كَثَب وجعلوها أساساً لعمرانهم الحديث . ثم أعدُّوا مااستطاعوا من الوسائل لصيانتها ودوام الانتفاع بها . ومن هذه الوسائل البخار والكهرباء وسائر الاختراعات التي تحفظ ذلك العمران من عين الزمان وتقلب الحدثان . ولا يعلم إلا الله متى يكون زوَاله . وبأيّ الادواء يكون موته وانحلاله . ولو أنَّ العرب فطنوا من أول أمرهم الى تلك الأصول المجرّبة في تنظيم الحكومة كما فطنوا لكثير غيرها من الشؤون الدنيوية ممّا نبههم الى إباحة اقتباسه دينهم الطاهر ثم أضافوا كل ذلك الى ما آتاهم الله من كتابٍ وحكمة وعدل — لو فَعلوا ذلك لَبلغوا من سموّ الشان ودوام العمران مابلغته أمم أوروبا في هذا الزمان . وتكهَّن به لمسلمي الأندلس الفيلسوف (رينان)

وإذا اعترضَ معترض بأن الدين الاسلامى قد انتهى اليه الكمال . وهو لم يدعْ مصلحةً من مصالح البشر ولا حاجةً من حاجاتهم الا هَدَى اليها . وحَثَّ عليها . وأن القول بأن المسلمين في عصورهم الأولى غفلوا عن اقتباس مافيه فائدة لهم من الأمم قبلهم مما لم ينصّ عليه دينهم — قول مردود . ورأي غير محمود . اذا اعترض علينا معترض بمثل هذا كان لنا أن نقول إن الدين الاسلامى

أرشدنا الى تعاليم تتعلّق بالآخرة . وتعاليم تتعلق بهذه الحياة الدنيا . أما التعاليم الاولى كالعقائد والعبادات وماحام حولها فهذه هي التي انتهى اليها الكمال بحيث لايتصور فيها تبديل أو تغيير . أو زيادة أونقصان . ولا تنسخ ولا يقاس عليها ولا يُستنبط منها . ولا يُجتهد فيها . ولا يجوز بحال العدول عنها . أو اختراع شيء ينوب منابها . وقد استوفى الدين الاسلامى الكلام عليها أصولاً وفروعاً وكليات وجزئيات . فالواجبُ علينا معشر المسلمين أن نقفَ عند هذه الحدود الدينية ولا نحيد عنها قِيد أصبع . وهذا الكمال الدينى هو ماعنَاه الله تعالى في قوله (اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) وقوله تعالى (مافرَّطنا في الكتاب من شيء) أى من أمور الدين : عقائد وعبادات وشعائر . وقوله صلى الله عليه وسلم (مَنْ أحْدَثَ في ديننا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ) أي هو مردودٌ عليه . ومراده بالدين العقائد والعبادات وما اتصلَّ بها .

أما شأن الدين الاسلامي بالنسبة الى التعاليم الاخرى المتعلقة بالدنيا فليس كذلك : فهو انما نص فيها على بعض أحكام جزئية . ثم استوفى ذكر القواعد الكلية . والاصول العامة . وأمرنا أن نرجع اليها في شؤوننا الدنيوية لاجل الاستنباط منها إذا لم نجد الحكم الذى نريده بين جزئيات الأحكام المنصوصة وبهذه الصورة فتح لنا باب الاجتهاد . وأحالنا على القياس حين اللزوم . وأشار الى أن لاختلاف الزمان والمكان والعرف والمصلحة ـ تأثيراً عظيما فى أمر التشريع وتقرير جزئيات الأحكام

فلا يكون من التطرف إذن أن نقول إن المسلمين فى الصدر الاول بلغوا الكمال من حيث العقائد والعبادات وأخواتها . أما فى سوى ذلك من أمور الدنيا فقد بلغوا الكمال فى قواعدها الكلية لا فى مسائلها الجزئية : فانهم في هذه

الجزئيات لم يبلغوا الكمال وإنما ينقصهم منها اشياء حضهم الشارع على تحصيلها والبحث عنها فى مظانها . واقتباسها من دون إثم ولا حرج .

حضهم الشارع على تطلب ذلك الكمال بسنته القولية والعملية : فقال لهم (الحكمة ضالة المؤمن التقطها أينما وجدها) وأشار عليه سلمان الفارسي أن يتخذ حول المدينة خندقا لصد الاعداء كما يفعل الفرس ففعل وباشر العمل بنفسه (صلى الله عليه وسلم) وأخبره تميم الداري أن نصارى بيت المقدس يتخذون لمعابدهم مصابيح تنيرها فى الظلمات . فأمره أن يتخذ للمسجد النبوي مصابيح مثلها فتنوير المساجد مما ينقصنا فى كمالنا الدنيوي وقد أرشدنا الشارع اليه بسنته العملية . ولم يمنعنا منه علاقته بالكنائس التي هي معابد دين نرفضه ونتعبد بضده . ومن الأعمال الدنيوية التي قلد بها النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أصحاب الملل الاخري مسألة صحية طبية . ذلك أنه قال (هممْتُ أن أنهى أمتى عن الغيلة حتى علمتُ أن فارس والروم تفعل ذلك بأولادها فلا تضير أولادها .) و (الغيلة) بالغين المعجمة أن ترضع الام طفلها وهي حامل . ومن أعجب العجب في تحرّي المصلحة والخير المطلق أن يبيح لنا الشارع تعدّد الزوجات ثم يستحسن لنا أن نفعل ما تفعله النصارى . فنقتصر منهن على واحدة . بل بلغ صلى الله عليه وسلم في التصريح الى أبعد من هذا فقال (أنتم أعلم بامور دنياكم) .

فالقول بانه كان ينقصنا أن نعمل كذا وقد قصّرنا في اقتباس كذا من أمور الدنيا لا يضير الدين فى شيء

أما عصر الخلفاء فقد ظهرت حاجة المسلمين فيه الى كثير من الكمالات الدنيوية بأشد مما ظهرت فى عصر النبوة . وذلك بالنظر لاختلاطهم بالامم غيرهم وتعدد حاجاتهم . وتحول هيأة اجتماعهم الى شكل جديد . فقد قلد عمر رضي الله

عنه الفرس والروم بوضع التاريخ وتدوين الدواوين . وحذا حذوه في ذلك الخلفاء بعده حتى كان زمن العباسيين فهناك توفرت وسائل الاقتباس في العلوم والفنون والصناعات وسائر مرافق الحياة وكان الصحابة والتابعون وكبار الأئمة يرون هـذا ولا ينكرونه ، لأنهم يعلمون أن الدنيا كل يوم في شان . ويسوغ للمسلمين أن يتناولوا مما يستجدّ فيها ما يفيدهم في دنياهم ولا يضرهم في اخراهم وعمل الخلفاء والسلف على هذا الوجه بمنزلة قولهم . إننا معشر المسلمين لم نبلغ الـكمال في أمور الدنيا بل تنقصنا أمورٌ كثيرة يحسن بنا أن نقتبسها من غيرنا وننتفع بها . أما ما كان من جوهر الدين : عقائد وعبادات فحاشاهم أن يقلدوا فيه سواهم أو يروا قرآنهم وسنةً نبيهم مقصرين عن هدايتهم في أمور الدين .

واذ قد وصلنا الى هنا فالقاريء لا بد أن ينصف ويقول : حقًا انه كان ينقص المسلمين في عصورهم الاولى أن يتخذوا لانتخاب ولاة أمورهم وتنظيم دولهم طريقةً ثابتة يؤيدونها بقوائم سيوفهم . ويكفلون دوامها ولو بمصافحة حتوفهم . وقد فعلَ عمر رضي الله عنه فعلاً أصبح به على قاب قوسين من هذه النظامات الدستورية . فهل تفطن لها بفطرته الذكية ياترى ؟ أم قد نبهه اليها منبه عارف بشؤون الامم القديمة كما نبهه الى تدوين الدواوين . ذلك أنه رضي الله عنه لم يعهد بولاية الامر بعده الى أحد من أهل بيته وانما تركها شورى لستة نفر من كبار صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأشار عليهم أن يقترعوا أو يأتمروا بينهم . وينتخبوا للخلافة من يكسب أكثرية الأصوات . وإن تساوى الفريقان فالرجحان يكون في الجانب الذي فيه الصحابي الجليـل عبد الرحمن ابن عوف .

فياليت هذه الطريقة التى أشار بها عمر في انتخاب الخليفة جُعلت تقليداً

أو سنة يدوم العمل بها ثم يتوسع فيها بانتخاب نفر من أهل الحل والعقد يساعدون الخليفة فى ادارة الرأي وسياسة أمر الامة . ولو فعل المسلمون هذا في عصورهم الاولى لمَا كانوا الا عاملين بما به يأمر دينهم . ومن مواضع العجب أن لا يحصل تفطن لهذه الطرائق الانتخابية في زمن بنى العباس مع أن هؤلاء الخلفاء وقفوا على كثير من أسرار المدنيات القديمة لا سيما مدنية اليونان . وترجموا طائفة كبيرة من كتب العلم والفلسفة والطب والصناعة . فلماذا لم يترجموا شيئاً من كتب الاداره والسياسة وفنون الاجتماع ويجروا عليه في تأسيس دولهم . ويتحدَّوْها في اصلاح ممالكهم . أو يقال لماذا أعرض العباسيون عن الديمقراطية اليونانية وغلوا غُلواً كبيراً في الاريستقراطية الفارسية

ولكن لو فعلوا واستفادوا من الديمقراطية اليونانية أترى هرون الرشيد كان يتمكن من قتل البرامكة على الصورة التى قتلهم بها من دون محاكمة ولا سؤال ولا استفهام ولا مشورة أهل رأى سوى أنه أراد ففعل . كما فعل قبله معاوية من قتل حُجر بن عدي وأصحابه في قرية (عذراء) من ضواحي دمشق

وقد كان جديراً بالتفطن لهذه الاصطلاحات الادارية المفيدة الخليفة المأمون . ذلك الخليفة الحكيم الذي نقل العلوم القديمة من كتب الاوائل والذي حمله حب الحق على التنازل عن الخلافة للعلويين وكاد ينتقل الامر اليهم لو لا اعتصاب العباسيين وخروجهم على المأمون.

ولعلّ اولئك الخلفاء وقفوا على تلك الاصطلاحات الانتخابية لكنهم كتموا أمرها . وهالوا التراب عليها وذلك احتفاظاً بالاستبداد الذي ذاقوا لذته . فخافوا أن ينتبه المسلمون اليهم فيقيدوا سلطتهم . ويخضدوا شوكتهم . ويكون شأنهم في ذلك شأن الدول المتغلبة لهذا العهد مع الشعوب المغلوبة لها . فان هذه الدول تحول بين تلك الشعوب وبين التربية الصحيحة التى تفتح القلوب . وتنصف

المغلوب . وتسترد الحق المسلوب .

والخلاصة أن الاصول الدستورية التى تؤسس عليها الحكومات النيابية مما غفل عنه المسلمون فى عصورهم الاولى بعد أن تنبه له عمر رضي الله عنه فيما أمر به من الشورى . وهذه الاصول ليست من عقائد الدين حتي يقال ان عدم تصريح الشارع بها نقص فى الدين وانما هي من الشؤون الدنيوية التى لم تجر عادة الأديان أن تستوفيها بيانًا وتفصيلا وانما هي تتركها لينتبه اليها البشر فى أدوار تاريخهم حالا فحالا . وليقتبسوا منها ما يحتاجون اليه جيلا فجيلا .

وها إن المسلمين اليوم قد انتبهوا بحمد الله اليها . وسعدوا بالحصول عليها .



طاهرة لا فاجرة [١]

قُضيت الصلاة في معبد (فتاح) في مدينـة منف القديمة . وأخذ الناس يخرجون منه زرافات ووحداناً . مهطعين الى أشغالهم ومحال تجارتهم . وبقي قوم منهم منتظرين في ساحة المعبد الخارجية : يستدفئون بحرارة الشمس ويتحدثون عما سمعوا ورأوا في داخل المعبد : هـذا كان يصف ملابس الكهنة . وذاك يعجب بألحانهم . وهناك فئة من غواة النساء لاهم لهم الا ذكر محاسن من رأوا منهن . وجمال لبوسهن وزينتهن

في تلك الساعة خرجت من المعبد فتاة حسناء في الثامنـة عشرة من عمرها وحولها موكب من وصائفها وخدمها وجعلت تتمشى في الاروقة حوالي الساحة الكبرى .

لا يقدر القلم أن يصف ما أوتيته تلك الفتاة من حسن وجمال . وجهـد ما يمكنه انمـا هو وصف هيئتها وزينتها : فهي قد سدلت شعرها الاثيث من دون عقص فـكان يبلغ بأطرافه رؤوس مناكبها . وأدارت عليـه عصابة من نسيج بعرض ثلاث أصابع . مصبّغة بألوان بديعة . وقد جُمع طرفاها بقطعة حلي ذهبية على هيئة نيشان مرصعة بالاحجار الكريمة . فـكانت تلك القطعة تومض في جبينها كما يومض النجم فى منبلج الصباح . أما طرفا العصابة الآخران فقـد انسدلا من الوراء على شعر الفتاة . فـكان يعبث بهما النسيم كما يعبثان بالالباب والعقول . وفي أذني الفتاة قرطان بهيئة حلقتين كبيرتين من الذهب الابريز . وحول عضديها ومعصميها دمالج وأساور من النضار المرصع بالزمرد والياقوت . وقد اتخذت في لبتها مكان العقد طرازاً من النسيج المخرم . فكان بياض ترائبها

(١) ترجمت سنة ١٣٢٧ هـ و ١٩٠٩ م

يتلألأ من خلال أهدابه القرمزية . وقد أفرغت على جثمانها حلة من الوشي مزركشة بخيوط الذهب ومشجّرة بالنقوش والتهاويل .

وقد اشتهرت هذه الفتاة في مدينة (منف) بالحسن والجمال . واتفق جميع من رآها على أنه لا توجد فتاة سواها تنازعها هـذه الهبة السماوية . وبينما كانت تتهادى في رواق المعبد على هذا الزيّ البديع . وتتجلي في ذلك الجمال الفتان . وهي تقصد الخروج الى منزلها ـ اذا البرنس (ساتنا) ووراءه خادمه الصغير يجتاز الساحة الى حيث كانت عربته تنتظره . ومذ بصر بتلك الفتاة بهت واصطكت رجلاه . وأفلت منه قلبه . فأرسل في الحال خادمه الى حاشية الفتاة يسألهم عنها وما هو اسمها ؟ . ثم عاد الخادم وأخبره بأنها السيدة (انشتا) بنت رئيس الكهنة (بوباست) فأعاد البرنس خادمه ثانية وأمره أن يبلغ تلك الفتاة هيام ابن فرعون بها . وانه يريدها مهما كلفه ذلك :حتى اذا رضيت وهبها عشر قطع ذهبية . والا فانه يختطفها الى حيث لا يعرف أحد مقرها . ولا يمكنه انقاذها .

كان الخادم الصغير يودع هذه الرسالة في اذن خادمة (انشتا) لتبلغها الى سيدتها واذا الاميرة تناديه « دع هذه البنت واقبل نحوي » . فاقبـل الخويدم نحوها . وهو مطرق حياء وخجلا . وبلغها أمر مولاه .

فتبسمت ابنة الكاهن لتهديدات البرنس (ساتنا) وقالت للفتى « قل لسيدك انني امرأة طاهرة لا فاجرة ، واذا أراد أن يقضي مني وطراً فليزر والدي (بوباست) في الهيكل . حيث أسكن أنا . وليدع التعرض لي في هذا المكان : لاني لست من أولئك اللواتي يقضين ساعات من الليل وهن متجولات في مفارق الطرق »

فرجع الفتى الى الامير وبلغه جواب الحسناء . ولم يكد يسمع ذلك من خادمه حتى أمر باعداد ذهبية فأعدوها له . وركب فيهـا ميمّماً منزل الكاهن (بوباست) حيث تقطن ذات الجمال النادر .

بلغ (ساتنا) الهيكل فرأى في الجانب الغربي منه داراً فخمة مشيدة في وسط حديقة غناء . ويحيط بالحديقة سور من حجر مبني على طريقة فنية .

ولما علم أن هـذه الدار هي دار الاميرة (انشتا) ابنة رئيس الكهنة أراد اجتياز باب الرواق الخارجي الموصل الى الحديقة فاعترضته الخادمة الموكلة بحراسة المكان وكانت من قبلُ قد أخبرت بقدم الامير . وقالت له انهـا لا تسمح له بالدخول ما لم يتعهد بانه يحافظ على كرامة المنزل وكرامة صاحبـه (بوباست) . فعاهدها (ساتنا) على ذلك . فاجتـازت به وصعدت معه على سلم الدار حتى أوصلته الى غرفة في الطبقة العليا وهناك استقبلته الفتاة ابنة رئيس الكهنة .

وكانت هذه الغرفة التي جلس فيها بالغة في الزخرف والنقش مبلغاً عظيما . فكنت ترى جدرانها مصبّغة باللازورد ومكتّبة بماء الذهب . وحواليها دوائر من أحجار الفيروز يتخللها أشكال كؤوس ذهبية منقوشة بغاية الدقة والحذاقة . وكانت تبدو للعين في أعلا الجدران رسوم موائد مستديرة أفرغ الصنّاع جهدهم في تمويهها بالذهب وتطعيمها بقطع العاج والآبنوس كما أجادوا الصنعة في تنسيق أوضاعها والتأليف بين أجزائها .

وكانت أسِرَّة النوم مغطاة بالشفوف ومُلاءٍ من نسيج الكتان الفاخر

وبعد هنيهة أقبل الخدم على الامير الزائر يحملون كؤوساً من النبيذ المتخذ من عصير جوز الهند . فتناول منها حاجته . ثم التفتت اليه ابنة الـكاهن وقالت له انها تود من كل قلبها أن يكون ضيفها مستريحاً هاديء البال في هذا المكان .

فاجابها البرنس بأنه لم يزر دارها لهذا وحده . وإنما زارها لامر آخر . فتظاهرت الفتاة بأنها لم تفهم ما عناه بقوله . ثم أمرت الخدم أن يعدّوا لهما الطعام فأعدوه في الحال . وكانت المائدة في تنسيقها ونوع طعامها على طراز الموائد الملوكية . وطاب للامير الجلوس عليها مع (انشتا) فجعل يأكل بشهية . ويغازل الفتاة ويداعبها وبعد أن فرغا اقترح عليها أن ينتقلا الى حجرة أخرى غير هذه الحجرة فاجابته الفتاة بهدو و كبرياء « انني امرأة طاهرة لا فاجرة . وان بيتي هذا سيكون بيتك وستنال فيه كل ما تريد . ولكن أشترط عليك قبل ذلك أن تكتب لي خطاً بالبراءة من جميع أقاربك . وخطاً آخر تهب لي فيه كل أملاكك » وماظنك بالامير وقد رأى من هذه اللبوة الغضوب وجاذبية جمالها قوة لا طاقة له بمقاومتها فاستسلم للعجز وأمر للحال باحضار المسجّل فحضر وأخذ في كتابة الصكين .

بينا كان المسجل مشغولا بالصكين وكان البرنس مشغولا بأمانيه وهواجسه ـ وهو من انتظار فراغ المسجل على جمر الغضا ـ اذا بقائل من خدم القصر يقول : ان أولاد الامير جاؤا اليه وهم يطلبون مواجهته . فلم يكد أبوهم يسمح لهم بالدخول عليه حتى اعترضته تلك « الجنّية » الغريبة وقد حسبت لاجتماعهم به ألف حساب فتعرّت من ثيابها . وأفرغت على بدنها ثوباً شفافاً لا يخفى شيئا مما تحته . وبرزت أمام عيني (ساتنا) بهيئة لم يرها فيها من قبل . فغاب المسكين عن نفسه وذهل عن عالمه وجعل يتضرع اليها بأن تشفق على آلامه فقالت له « انها امرأة طاهرة لا فاجرة واذا أراد فليأمر أولاده بوضع امضاآتهم على الصكين المذكورين خشية أن ينازعوها في الاملاك بعد موته » فأجابها البرنس الى سؤلها ووضع الاولاد تواقيعهم على الصكوك . فلم يشكّ (ساتنا) اذ ذاك في أن حاجته مقضيّة وان (انشتا) ستفي بوعدها لكن هذه بادرته بلازمتها المعهودة « اني طاهرة لا فاجرة ، واني أخشى أن ينازعني أولادك بأموالك بعد موتك فاذا

أدرت نيل بغيتك فمر بقتلهم» وكان الجنون قد بلغ بهذا البرنس مبلغه فأقدم على ارتكاب هـذه الجريمة البشعة. وقال «ليصنعوا بأولادي ما شئت ولكن أنجزي لي وعدك».

فأمرت ابنة الكاهن بالاولاد فقتلوا على مشهد من أبيهم وألقيت جثثهم ـ التي لا تزال الحياة تختلج فيها ـ الى الكلاب والقطط فقامت الضجة بينها على نهش تلك اللحوم التعسة. بينما كان الاب في ناحية يتعاطى كؤوس السرور. مع الطاهرة التى لا تعرف الفجور

المكتبة الاسلامية

واصلاح التأليف[1]

أحصى بعض الباحثين عـدد ماتضمنته المكاتب الاسلامية العمومية في بغـداد ومصر والاندلس لعهد استبحار العمران الاسلامي فبلغت زهاء خمسة ملايين كتاب وقد احصاها المستشرق غوستاف فلوغل قبل النهضة الاخيرة فبلغت ثلاثين الف كتاب. فاين بقية الخمسة ملايين ؟

ولما استولى صلاح الدين الايوبى على مصر كان في مكاتبها من تاريخ الطبرى وحده الف ومائتا نسخة. فكم يكون مقدار الكتب فى الفنون الاخرى ؟

وألف ابن سيد الاندلسى وهو من رجال القرن الرابع الهجرى كتابا سماه (العالم) فى مئة مجلد مرتب على الاجناس بدأ فيه بالفلك وختم بالذرة على نمط مايسمونه اليوم (انسكلوبيذيا) فأين هذا الكتاب ؟

(١) كتبت سنة ١٣٢٨ هـ و ١٩١٠ م

لم يبق الدهر ولا الجهل بين أيدينا من الكتاب الا ما كان تافها في فائدته ركيكا في عبارته . وقد اقتصرنا في كل فن وعلم على كُتُب خاصة . فلم تَسْمُ نفوسنا الى التنقيب عن غيرها من تآليف أسلافنا .. ولا الى وضع تآليف جديدة تسد الحاجة . وتفي بالغرض

والكتب في الامم بمثابة مقياس يعرف به مقدار رقيها . وحالة اجتماعها . كما أن الكتب من جهة ثانية من أشد العوامل في انهاض الامم وانتياشها من وهدة التأخر والانحطاط . وقد قال لي المرحوم جمال الدين « لابد في اصلاح شؤوننا معشر المسلمين من تهذيب علومنا . وتنقيح تآليفنا . ووضع كتب جديدة في الفنون المختلفة . تكون قريبة المأخذ سهلة الفهم . حسنة التبويب . وينبغي لنا أن ننزل العلوم منازلها فنستفيد من كل علم بالقدر الذي وضع لاجله ذلك العلم : فلا نقرأ علم النحو أو علم البلاغة كأنه مقصود لذاته ، فنقضي اعمارنا في قراءتهما من دون أن نتوصل بهما الى ما وضعا لاجله . من تقويم اللسان والمقدرة على البيان . ومثلهما سائر العلوم العقلية والنقلية . فاننا نشتغل بها من طريق لا يوصل الى الغاية منها . على العكس من أهل اوروبا فانهم اهتدوا بسائق من عقولهم وهممهم الى لباب تلك العلوم فاستعانوا بها على تقويم أودهم وترقية شؤون اجتماعهم . ففازوا ونجحوا . وبلغوا من العز وسعة السلطان ما اليه طمحوا»

وقد الف بعض المستشرقين كتابا في نحو اللغة الفارسية قال في مقدمته : « ان الافرنج توفرت لديهم كل الوسائل للاجادة في اللغات الشرقية من مثل خزائن الكتب ومدارس التعليم . وجهابذة المعلّمين . حتى أصبح علماء العرب والفرس في احتياج الى الافرنج . فيتلقّون عنهم لغاتهم وفلسفتهم وتاريخهم » .

وسمعت بعض الفضلاء المسيحيين يقول : انه يقرأ كتب التاريخ الاسلامي

فلا يفهم الحوادث ولا ماهي أسباب حدوثها والاحوال التي تحتف بها مما اعتاد ذكره مؤرخو الافرنج وأخيراً يرجع الى ما كتبه هؤلاء في الحادثة نفسها فيفهمها بجميع ملابساتها .

وسواء كان هذا الفاضل وذاك المستشرق مصيبين فيما قالا عن التآليف الاسلامية أو مبالغين في النقد ، فانه يجدر بنا اذا أردنا نجاح نهضتنا العلمية أن نجتهد فنحذف من بين أيدينا كل ماقلت فائدته . وسمجت عبارته من الكتب مهما كان مؤلفه قديماً أو مشهوراً . ثم نرجع الى الكتب المفيدة مما تركه أسلافنا أو نسعى في وضع كتب جديدة اذا أعوزتنا تلك .

وقد ابتلي التأليف الاسلامي من أول نشأته بالوضاعين . وهم الذين يضعون الاحاديث . ويلفقون الاخبار . ويدسونها في عقول الناس . حتى قال أحدهم وهو ابن أبي العوجاء حينما أرادوا قتله « والله لقد وضعت أربعة آلاف حديث حللت بها الحرام . وحرمت الحلال . والله لقد فطرتكم يوم صومكم . وصومتكم يوم فطركم »

فاذا كان هذا مبلغ سعي أولئك المنافقين المتجرئين على هتك حرمة العلم والدين . فكم ينبغي ان يكون مبلغ اجتهادنا في تهذيب كتبنا . وتنقيح علومنا ؟ على ان علماء الحديث رضي الله عنهم لم يألوا جهدا في تأثر أولئك الوضاعين ، والكشف عن مساويهم وذكر مالفقوه من الاخبار . ووضعوه من الاحاديث . جزاهم الله خيراً .

وقد أفسد التأليف الاسلامي أيضا أولئك القوم الذين ينتسبون الى الفرق الدينية المختلفة . فكانوا يختلقون من الآثار مايتخذونه حجة في صحة مذهبهم . وترويج نحلتهم . وآخرون من أبناء الملل الاخرى أسلموا ولما يدخل الايمان في قلوبهم أو لم يكونوا يفقهون أسراره فكانوا يحملون الى ديننا من عجائب

الخليقة ومدهشات الغيب مالا يعرفه ديننا ولا يريد ان يَشغلنا به . وقد أشار النسفي في تفسيره ـ ونقله عنه العلامة الالوسي ـ الى أن أكثر الاخبار في أمر السموات والارض والكواكب لا يعوّل عليه. وذكروا أيضا ان جميع الاحاديث الواردة في فضائل الطعام ومناقب الوانه لاصحة لها وانما هي من وضع الزنادقة من ذلك حديث « لو كان الرز رجلا لكان رجلا حليما »

ومن آفات التأليف في الاسلام صعوبة عبارة الكتاب . وتداخل مضامين جمله . وارتباط بعضها ببعض الى حدّ أن تصبح لغزا أو معمّى

وهذا الطريق في وضع التأليف لم يعرفه علماء الامة في قرونها الاولى . وانما هو مما تورّط فيه معظم علماء القرون الوسطى اما لغلبة العجمة عليهم أو لغلبة الجهل على الامة في زمنهم . أو لانهم كما يعتذر لهم تلامذتهم يريدون أن لا يطمح لمدارسة العلوم الا من كان أهلا لها . وهذا العذر هو الذنب بعينه . اذ الواجب على العلماء والمؤلفين ان يسعوا في بث العلم ونشره بين الناس . وتقريبه من افهامهم. بأية وسيلة كانت وهذا لايكون مالم يسهّلوا العبارة ويوضحوا الاشارة . ويبسطوا المقام بسطا يُدنيه من الفهم . ويفرغ مضمونه في القلب وقد أدرك ذلك علماء الغرب فأكثروا في تآليفهم من التمارين وبالغوا في الايضاح والتقريب . فكان بعضهم لاينشر كتابة له بين الناس مالم يعرضها على خادمة له شديدة الغباوة . حتى اذا فهمت قوله . وأدركت مراده منه . أذاعه وأمر بطبعه . وقد كانت طريقته هذه من أعظم الاسباب في نشر آرائه والاستفادة منها وعلو منزلته بين الكتاب .

وكنت أقرأ كتابا صعبا في الاصول على بعض الاساتذة . فكان اذا وصل الى عبارة غامضة لم يقدر على تفهيمها القى الكراسة من يده وجعل يلتهّى بالثناء على المؤلف . وطول باعه . ومقدرته في علم الاصول . وانه وأمثاله خدموا الاسلام

وعلومه أجل خدمة . وعندي ان المؤلف الذي يفعل في كتبه هكذا يكون موضعا للوم والعتاب . لا للثناء والاعجاب .

ومن آفات التأليف أن يدسّ المؤلفون في الكتب مسائل لامعنى لها . ولا طائل تحتها . وانما هي مضلة للافهام . عاملة على اثارة الاوهام .

هذه كلمة التوحيد ﴿ لااله الا الله ﴾ كان يأتي الاعرابيُّ النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) فيسأله عرض الاسلام عليه . فيلقّنه اياها . فيفهم معناها كما يفهمه كل من حَذِقَ اللغة العربية واعتاد فهم أساليبها . أعني نفي الآلهة المتعددة التي كان يزعم وجودها الوثنيّون واثبات وجود آله واحد .

ولكن من المؤلفين من تفنن في تحديد معنى كلمة التوحيد وأغرب في بيان مضمونها وادعى انها تشتمل على عجائب من المسائل والاشارات على نحو مايفعل الباطنية فقال : (لااله الا الله . نفي واثبات . والمنفي لاعين له . فعلى من وقع النفي . والمثبت موجود . فعلى من وقع الاثبات . والمنفي عين المثبت . وعين المثبت عين المنفي . والمثبت عين المنفي . وعين المنفي عين المنفي . فهو ست . فمن قالها ـ ومن قالها كقوله تعالى قل هو الله أحد ـ فهو المؤمن حقا)

أسمعت أيها القاريء الكريم كيف ان مؤلف هذه العبارة اشترط في الاسلام الحق ان يقول المسلم كلمة التوحيد . وهو يتصور هذه الاوجه الستّ التي عددها في عبارته . ولا وجود لها الا في مخيلته ؟

وأحسن الطرق في التأليف أن لانقرّر حكما . ولا نؤسس قاعدة مالم نسرد على الطالب أمثلة وواقعات وجزئيات مماثلة حتى اذا أشرب ذهنه بها . وحاول تطبيقها نقرّر له حكمها وقاعدتها . وهذه الطريقة مفيدة جداً في فنّ الفقه . وهي طريقة واضعي الشرائع المدنية في أوروبا . ومن راجع كتب أئمتنا أصحاب المذاهب الاسلامية وجدهم اتبعوا هذه الطريقة في التأليف وتقرير المسائل .

ومن المفيد لنا معشر المسلمين في التأليف أن نحذف من كتبنا كل ما كان بعيداً عن العقل ولا يدخل في تصوّر الأمكان . وكذا كل ما ينافي مصالح البشر ولا ينطبق على حاجاتهم . وطرق معايشهم . ومثله أن نوجز في تقرير المسائل التى لا يُعمل بها . أو أمست كالشريعة المعطّلة بحيث ما عادت تدخل تحت حكم ولا يفصل فيهـا الحكام ولا المحاكم : كابواب الرقيق والعتق والجهاد والغنائم . اللهم الا أفراداً من علمـائنا أرادوا التوسّع في الفقه . والاخصاء في مسائله . والوقوف على دقيقه وجليله .

ونعتنى جداً في أن لا نكرر المسائل . ونذكرها مرةً هنا . وطوراً هناك لئلا يرتبك الطالب بها . ويشتبه عليـه أمرها وان لا نخلط مسائل الابواب فنذكر مسائل البيع في النـكاح . والنـكاح في الاجارة . والاجارة في الصلاة . والصلاة في الحج وهكذا

واذا أردنا أن نكتب في فنّ الـكلام مثلا كان علينا أن نقدم له مقدمة نلم بها بمجمل من تاريخ هذا الفن . وكيف كان شأنه في عهد الصحابة ومن بعدهم ومن كان أول واضع له . وما هو الباعث الذي دعا لوضعه

ومثل أن أبا الحسن الأشعري كان في أول أمره معتزلياً ولكن كيف ترك الاعتزال وخالف شيخه ؟ وما الذي بعثه على هذه المخالفة . وهل تابعه غيره على رأيه أولا ؟

وفي أي عصر دخلت الفلسفة فى علم الـكلام . وما الذي حمل علماء هذا الفن على جعل الفلسفة تدخل على عقول الطلاب مع عقائد الاسلام في آن واحد

ومن الاسف أن الافرنج اذا كتبوا فى علومنا ـــ دع عنك علومهم ـ جرَوْا في التأليف والتقرير على هذا الاسلوب . وتحرّوا هذا النمط . وربمـا تكلموا فى نشأة الاسلام ونزول الوحي وبعثة محمد عليـه الصلاة والسلام كلاماً يلتحم مع

العقل . ويرسخ فى النفس . بأشد مما اذا حاول ذلك مؤلف من علماء الاسلام بهذه الطريقة السهلة المعقولة فى التأليف ارتقت العلوم والفنون فى أوربا . وانتشر نور العلم بين طبقات أهلها . فكانت عامتهم أقدر على فهم المسائل . وتعقل الحقائق من خاصتنا . حتى تقدموا وتأخرنا . وحسبنا سعادتنا أن نرجع الى الوراء ثمانمائة عام . وأن تكون مكتبتنا الاسلامية وطريقتنا التعليمية كحالتها منذ ثمانمائة عام .

هذا ابن عابدين يكون تأليفه المشهور أتم وأولى فى تقريب فن الفقه لو وضعه من أول الامر تأليفاً مستقلا بنفسه في مجلدين مثلا فيتضمن ما يفيد ويسكت عما لا يفيد . ولا يجعله حاشية فضفاض على شرحٍ غامض على متن أغمض.

واذا كتب الكاتب منا فى التفسير وجبَ أن يراعي فهم كل من يقرأ تفسيره : فلا يودعه من الأقوال ما ينبو عنه العقل الحصيف . ويروج لدى الذهن السخيف . ولا يجعل عباراته مثاراً للتأويلات والشكوك : فتضل فيها الأفهام . وتحوم حواليها الأوهام .

وكثيراً ما أوجز المفسر العبارة . وأبعد الاشارة . فنسب اليه القاريء ما لا يريده . واستخرج من منطوقه مفهوماً لا يفيده .

وعلينا أن نقرر العلوم العصرية قائمة بنفسها . ومستقلة في سرد مسائلها عن المسائل الدينية . ولا نخلطها بها . كما لا نخلط مسائل علم النحو بمسائل علم الفقه مثلا . وهذا الفصل بين علوم الدين وعلوم الدنيا لا يضر المسلم فى دينه ما دام قد تعلم فى عقائده أن العلم الثابت لا يخالف الدين أصلا . فمهما ثبت أن العلم قال كذا استناداً على برهان كذا وافقه الدين وعضده . لان العلم والدين فى اعتقاد الاسلام أخوان . وأمرهما واحد . والا فان القول بأن الدين ينكر المسألة العلمية

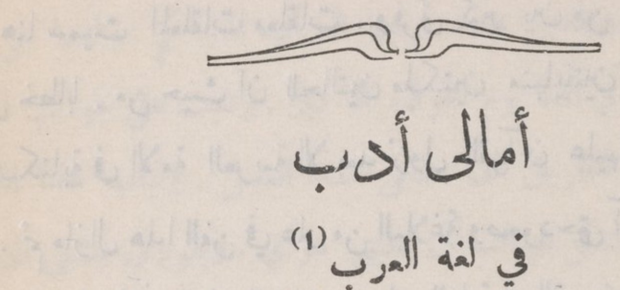
الفلانية بعد ثبوتها — ضار فى الدين . وأ كبر جناية عليه

أما الطريقة القديمة فى التأليف : متون فشروح فحواشي فتقريرات — فقد أخذ العقلاء يقاومونها . ويبينون فسادها . ويرجعون الى الطريقة الطبيعية :وهي أن يضع المؤلف كتابه في فن من الفنون باذلا جهده فى بسط عبارته . وتسهيل مسائله وتقريبها من عقول الطلاب . واذا اتفق وجود غموض أوخفاء فى بعض المسائل علق فى ذيل الصفحات من القول ما يوضحه . ويكشف معناه . وان لم يفعل المؤلف ذلك بنفسه فعله ناشر الكتاب أو مصححه . وبذلك يقرأ الطالب الكتاب وهو واثق بأنه سيتناول معنى ما يقرأ عن كثب ويفهم مقاصد المؤلف من دون أن ينتظر شرحاً أو حاشية . وهكذا كان شأن المؤلفين فى القرون الاولى الاسلامية كما هو شأن مؤلفي الأفرنج بعصرنا الحاضر .

خذ كتب الحديث والفقه والنحو التى ألفها علماؤنا الأولون . وقارن بينها وبين ما وضعه الخالفون تجد الفرق واضحا جلياً .

أدرك صعوبة كتبنا في العلوم اللسانية والتواء طريقة التعليم فيها معاصرونا من العرب المسيحيين . وهم فى حاجة الى تعلم تلك العلوم فأعرضوا عن كتبنا وألفوا لأنفسهم كتباً سهلة المأخذ . حسنة التبويب . وافية التقريب . فانتفع بها طلابهم بأحسن وجه . وأقرب مدة . وأظهر نتيجة مما نحن عليه . فيقضي الواحد منهم سنتين أو ثلاثاً فى دراسة علوم اللغة . ويصبح بعدها نحويا لغوياً أي محصلا ثمرة هذين الفنين فيما يمارسه من شعر أو نثر أو تأليف أو خطاب أو فهم في كلام العرب . أما الواحد منا فيقضي معظم عمره في حفظ المتون ودرس الحواشي ومراجعة التقريرات وغير ذلك من الوسائل لكنه يبقى مقتصرا عليها . ولا يتعداها الى المقاصد . فهو يتعب في غرس الشجرة . ولكنه لا يعرف كيف يجني الثمرة .

معاجم اللغة عندنا (القاموس) وحده اذ قلما تتداول الايدي غيره للمراجعة .
ومن المحقق الثابت انه مضطرب العبارة ، سيء الترتيب ، متداخل المواد ،
لايهتدي المراجع فيه بسهولة الى مايريده منه وكثيراً ماذهب بحثه وتقليبه فيه
سدى . أدرك هذا محبو اللغة من المسيحيين فوضعوا دائرة المعارف ومحيط المحيط
وأقرب الموارد والمنجد . أما نحن فالى اليوم لم نقتنع أو لم نر لزوماً لوضع معجم
آخر يغنينا عن القاموس بل ربما نظرنا اليه اليوم نظر تقديس واحترام . وتأثمنا
من إهماله بعد ان خدم أسلافنا منذ سنين وأعوام



أمالي أدب

في لغة العرب (1)

نستعرض فى أملية اليوم أمثلة من كلام كتاب العرب الذين عاشوا فى قرون
مختلفة ، حتى اذا انعم القارىء نظره فيها وقارن بين أساليبها وتراكيبها تبين
له كيف تدرّج فن الانشاء من طور قوة الى طور ضعف . ثم كيف استعاد في
عصرنا الحاضر شيئاً من سيرته ، وقارب ان يحل في سابق مكانته . ولا بد أولا
أن نقول ان فن الانشاء لم يكن له دولة أو دور فى عصر الجاهلية . وانما الدولة
فيه كانت للشعر والخطابة . وكانت كل قوة البلاغة والبلغاء موجهة اليهما

وكيف يمكننا ان نقول ان عرب الجاهلية كانوا يكتبون وينشئون . وهم
ماكانوا يخطّون ولا يسطرون . وقد يوجد في القبيلة الواحدة واحد يعرف الخط
وقد لايوجد . وفن الخط للانشاء كالارقام الحسابية بالنسبة للحساب : فلا فنّ

(1) كتبت سنة ١٣٢٧ هـ و ١٩٠٩ م

حساب حيث لاتكون ارقام . وليس معنى كلامنا هذا انه لم يكن في عصر الجاهلية من يجيد الكلام ويحكم رصف العبارات إن أراده وانما المراد ان وضع الكلام وافراغ القول المنثور في قالب مقالة أو رسالة أو تأليف لم تكن ملكته استحكمت فى عرب الجاهلية . فاذا أراد أحدهم ان يقول شيئا قاله ارتجالا أو فى موقف خطابة . فيُحفْظ عنه وتتداوله الرواة ويشيع فى الناس حتى يصل الى من يعرف الخط فيدونه في دفتره ويقيده بقلمه. وقد تنشد القصيدة في مجلس أحد ملوك العرب فيستجيدها ويقول علقوها لنا أى اكتبوها كى تحفظ فى خزانة الملك ، ومن هنا سميت المعلقات معلقات . وفرق كبير بين من ينشىء مقالا وبين من يرتجل خطابا . من حيث ان للحالتين ملكتين متباينتين . ولم تستحكم ملكة فن الكتابة فى الامة العربية الا بعد نزول القرآن عليها. واستبحار العمران فيها . ثم مازال هذا الفن في علو من البلاغة وصعود حتى آخر القرن الخامس فأخذ من يومئذ في الانحطاط والضعف وبلغ الغاية في القرون المتأخرة . ثم بدأ منذ ثلاثين أو أربعين سنة يحيي حياة طيبة . ويتكون خلقا جديداً .

ولنورد الشواهد على صحة ما أدمجناه فى هذه المقدمة : بلغ أميرَ المؤمنين على بن أبى طالب ان عامله على البصرة عثمان بن حنيف دعي الى مأدبة صنعها له قوم من أهلها ومضى اليها . فكتب اليه يقول :

« أما بعد يا ابن حنيف . فقد بلغنى أن رجلا من فتية أهل البصرة . دعاك الى مأدبة . فأسرعت اليها . تستطاب لك الالوان . وتنقل اليك الجفان . وما ظننت انك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفوّ [1] وغنيهم مدعو . فانظر الى ماتقضمه [2] من هذا المقضم . فما اشتبه عليك علمه فالفظه . وما أيقنت بطيب وجهه فنل منه . ألا وان لكل مأموم إماما يقتدى به ويستضىء بنور علمه . ألا

(١) فقيرهم مطرود (٢) تأكله من هذا المأكل

وان إمامكم (١) قد اكتفى من دنياه بطمريه (٢) ومن ُطعمه بقرصيه . الا وانكم لاتقدرون علي ذلك . ولـكن أعينونى بورع واجتهاد . وعفة وسداد . فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا ولا ادخرت من غنائمها وفرا . ولا أعددت (٣) لبالى ثوبى طمرا . بل كانت فى أيدينا فَدَك (٤) من كل ما أظلته السماء فشحت عليها نفوس قوم (٥) وسخت عنها نفوس قوم (٦) آخرين . ونعم الحـكم الله . وما أصنع بفدك وغير فدك . والنفس مظانها في غد جـدث تنقطع فى ظلمته آثارها . وتغيب أخبارها وحفرة لو زيد فى فسحتها وأوسعت يدا حافرها . لاضغطها (٧) الحجر والمدر . وسد فُرجها التراب المتراكم . وانمـا هى نفسى أروضها بالتقوى . لتأتي آمنة يوم الخوف الاكبر . وتثبت على جوانب المزالق . ولو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هـذا العسل . ولباب هذا القمح . ونسائج هذا القز . ولـكن هيهات أن يغلبني هواي . ويقودنى جشعى الى تخير الاطعمة . ولعل بالحجاز واليمامة من لاطمع له فى القرص . ولا عهد له بالشبع أو أبيت مبطاناً (٨) وحولى بطـون غرثى (٩) وأكباد حـرى (١٠) أو أكون كما قال القائل :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة (١١)

وحولك أكباد تحن الى القد (١٢)

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم فى مكاره الدهر . أو

---

(١) يعني نفسه (٢) ثوبيه الباليين (٣) أي ماعنده ثوب غيرالثوب البالي الذي عليه (٤) قرية تركها النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته وقد ارادت ابنته فاطمة أن ترثها عنه (٥) اراد به ابا بكر فانه ردها الى بيت المال (٦) يريد بني هاشم (٧) جعلها ضيقة تضغط على من حل فيها (٨) منتفخ البطن من كثرة الاكل (٩) جوعانة (١٠) عطشانة (١١) الامتلاء من الطعام (١٢) قطعة جلد غير مدبوغ

أكون أسوة لهم في جشوبة (١) العيش . فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة . همها علفها . أو المرسلة شغلها تقممها (٢) تكترش (٣) من أعلافها . وتلهو عما يراد بها . أو أترك سدى . وأهمل عابثا . أو أجر حبل الضلالة . أو أعتسف (٤) طريق المتاهة . وكأني بقائلكم يقول : اذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الاقران ومنازلة الشجعان . الا وان شجرة البرية أصلب عودا . والروائع (٥) الخضرة أرق جلوداً . والنباتات البدوية أقوى وقودا . وأبطأ خمودا . وانا من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد (٦) والله لو تظاهرت العرب على قتالى لما وليت عنها . ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت اليها . وسأجهد في أن أطهر الارض من هذا الشخص المعكوس (٧) . والجسم المركوس . حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد . اليك عني يادنيا . فحبلك على غاربك . قد انسلت من مخالبك . وأفلت من حبائلك . واجتنبت الذهاب في مداحضك (٨) . أين القوم الذين غررتهم بمداعبك . أين الامم الذين فتنتهم بزخارفك . هاهم رهائن القبور . ومضامين اللحود . والله لو كنتِ شخصاً مرئياً . وقالَبا حسيّا . لاقمتُ عليك حدود الله في عبادٍ غررتهم بالاماني . وألقيتهم في المهاوي . وملوك (٩) أسلمتهم الى التلف . وأوردتِهم موارد البلاء . اذ لا ورد ولا صَدر (١٠) هيهات من وطيء دحضك زَلِق . ومن ركب لججك غرق . ومن ازورعن حبالك (١١) وُفق . أغرُبي عني

---

(١) خشونته . ومحصل المبدأ الذى قرره الامام انه يجب على من تولى أمر المسلمين أن يكون في حالة من شظف العيش ورقة الحال يتأسى بها الفقراء والمعدمون (٢) تناولها القمامة وهى الكناسة بفمها (٣) تملأ كرشها (٤) أمشى على غير هدى (٥) الاعشاب الغضة (٦) كناية عن التشابه والتماثل (٧) يريد به معاوية (٨) مزالقك (٩) كانه يريد بهم أولئك الذين غرتهم دنياهم فجروا على غير رغبة شعوبهم فأسقطوهم عن عروشهم (١٠) أي ماعاد يمكنهم التحول عن البلاء بعد ما حاق بهم (١١) حاد عن الوقوع في حبائلك

فو الله لاأذل لك فتستذليني . ولا أسلس لك فتقوديني . وايمُ الله يمينا استثنى فيها بمشيئته . لاروضَنّ نفسي رياضةً تهش معها الى القرص اذا قدرت عليه مطعوما . وتقنع بالملح مأدوما . أتمتلىء السائمة من رعيها فتبرك وتشبع الربيضة(١) من عشبها فتربض . ويأكل علىٌّ من زاده فيهجع (٢) . قرت (٣) اذنْ عينه اذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية . طوبى لنفس أدت الى ربها فرضها . وعرَكت (٤) بجنبها بؤسها . وهجرت في الليل غمضها . حتى اذا غلب الكرى عليها . افترشت أرضها . وتوسدت كفها . فى معشر أسهر عيونهم خوف معادهم . وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم . وهمهمت بذكر ربهم شفاههم . وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم . أولئك حزب الله : ألا ان حزب الله هم المفلحون . فاتق الله ياابن حنيف . ولتكفك أقراصك . ليكون من النار خلاصك اه

هكذا كان البلغاء يكتبون في صدر الاسلام. ثم خَلَفَ من بعدهم قوم لزموا طريقتهم بل ربما أربوا عليهم فى بعض شعبها وأفانينها حتى انتهوا الى أواخر القرن الرابع فكان منهم ابن العميد والبديع والخوارزمي والصاحب بن عباد الوزير وعبد الله بن أحمد الخازن الاصبهانى

هذا الاخير كان من صنائع الصاحب المشار اليه . وقد لزم خدمته منذ حداثته ثم فرَط منه هفوة من هَفَوات الشباب فذهب مغاضباً أو هارباً. وبقى يجوب فسيح البلاد عشر سنين ثم آب الى بلده اصبهان وتوسط أحد أساتذته المسمى « أبا العباس » فى ملافاة ما كان منه من النزق والطيش فكتب هذا الى

---

(١) الغنم الرابضة (٢) أى يسكن مثلها ولا ينشط للعمل (٣) يدعو على عينه بالجمود وهو كناية عن الموت . فهو هنا من القرار وكثيرآما كنوا بها أيضا عن الفرح والسرور ويكون اذ ذاك من القر وهو البرد (٤) أي صبرت على البلاء صبر الكرام

الصاحب وكان بجرجان يتشفع لديه بعبد الله ، فقبل شفاعته وكتب اليه جوابا بذلك فما عتم (عبد الله) ان عاد الى جرجان ومنها كتب الى صديقه الخوارزمي المترسل المشهور يخبره بما كان منه وبتوسّط أبي العباس وجواب الصاحب فقال :

كتابي — أطال الله بقاء الاستاذ سيدي — من الحضرة [١] التي نرحل عنها اختياراً . ونرجع اليها اضطراراً . ونسير عن فنائها اذا أبطرتنا النعمة . ثم نعود الى رحابها اذ أدَّبتنا الغربة . ومن لم تهذبه الاقالة [٢] هذبه العثار . ومن لم يؤدّبه والده أدبه الليل والنهار . وما الشأنُ في هذا . ولكن الشأن في عشر سنين فاتت بين علم لاينسى . وغم لايحصى . وانفاق بلا ارتفاق . واسفار لم تسفر عن طائل . ولم تغن عنى بريش طائر . وبعد عن الوطن . بغير بلوغ الوطر . ورجعت يشهد الله صفر اليدين من البيض والصفر . أتلو والعصر ان الانسان لفي خسر . وأنا بين الرجاء في أن اقال [٣] العثار . والخوف من أن يقال زأر الليث فلا قرار لـكنني قد كنت قد قدمت تطهير [٤] نفسي . فلججت حتى حججت . وحين خيمت بأصبهان أنهى سيدنا الاستاذ الفاضل (أبو العباس) أدام الله تمكينه — خبري الى الحضرة حرس الله بهاءها وسناها . والناس ينظرون . هل أقبل فيتلقوني باكرم الرتب . أم أسخط فيتحاموني كالبعير الاجرب . وَوَرَدَ توقيع [٥] مولانا الصاحب كافي الـكفاة أطال الله مدته وكبت أعداءه وحسدته . بعالي خطه . وقد نسخته على لفظه [٦] . ليعلم مولانا الاستاذ أدام الله عزه ان الـكرم صاحبيّ [٧] لابرمكي . وعبادي لاحاتمي . وها هو التوقيع [٨]

---

(١) أي حضرة الوزير الصاحب (٢) أي من لم تؤدبه مسالمة الناس أو مواتاة الدهر له لابد أن يبطر فيقاومهم فيعثر فيتأدب (٣) أي يقيل عثرتي الوزير ويعفو عن زلتي (٤) كناية عن التوبة والندم (٥) أراد بالتوقيع الجواب الذى ورد من الوزير بقبول الشفاعة والعفو (٦) هو كما تقول اليوم نسخته بالحرف الواحد (٧) نسبة الى الصاحب بن عباد وهو اسم الوزير (٨) أى المرسل من الصاحب الي أبي العباس

« ذكر مولاي أدام الله عزه عود أبي محمد عبد الله الخازن أيده الله — للفناء الذي فيه دَرَج . والوكر الذى منه خَرَجَ . وقد علم الله ان اشفاقي عليه فى ايابه . لم يكن بأقل منه عند اغترابه . فان أحب أن يقيم مدة [١] يقضي فيها وطر الغائب ويضع معهـا أوزار الآيب [٢] . فليكن فى ظل من مولانا ظليل . ورأى منه جميل . وبر من ديواننا جزيل . وان حفزه الشوق فمرحبا بمن قربته التربية لدينا . فأفسدته العزة علينا . وردته التجربة الينا . وسبيله أن يرفد [٣] بما يزيل شغل قلبه بعياله ويعينه على كل قبل ارتحاله إن شاء الله تعالى» . لاجرم انى أخذت مالا . وأغنيت عيالا . وقلت ليس الا الجمّازة [٤] والمفازة . وصبحت جرجان أهـدى من القطا الـكدرى . كانى دعيميص [٥] الرمل اسـتاف [٦] أخلاف [٧] الطُرُق . وأنا مع ذلك أحسب العفو عني حُلما . ولا أقدر ماجنيت يعقب حلما . وكانى ماخطوت الا فى التماس قربة ولا أخطأت الا لتأثيل [٨] حرمة . وكانى لم أفارق الظل الظليل . وأُخِذَ فيَّ بقول الله تعالى فاصفح الصفح الجميل . وقد ورد فى التفسـير : انه عفو من غير عتب . وعدنا للقرب فى المجلس وكرم اللقاء والمشهد . وراجعت أيدينا نقـل الصرر . وجلودنا لين الحبر . وركبنا صهوات الخيل . وسَبَحنا فى دورنا بفضَلات الخبر . وأقبلنا على العلم . وصافحنا يد النثر والنظم . وراجع الطبع شيء كان يدعى الشعر . كذلك آدم عليـه

---

(١) أي حيث هو في اصبهان فليبق في ظل الاستاذ الذي توسط له بالشفاعة : ولـكن الصاحب يمده بالبر والعطاء من جرجان (٢) أثقاله (٣) أي أن يعطى من خزانة أصبهان مالا يستعين به في نفقة عياله وعلى السفر الى جرجان (٤) الناقة السريعة العـدو (٥) اسم لعبد اسود خرّيت حاذق فى سلوك مجاهل الرمل (٦) اشم (٧) جمع خلف وهو الثدى . جعل للطرق ثدياً تجوزا . وكانوا اذا ضل الدليل شم تراب الطرقات ليهتدي الى قصده وسميت المسافة مسافة لان المسافر يستاف ويشم التراب أثناء سيره فيها فلا يضل

(٨) تأصيل وتأسيس وتكوين

السلام أسكن الجنة بمنّ الله وفضله . ثم خرج منها بما كان من جرمه . وهو عائد اليها بعفو الله وطوله اه

أرأيت عمْرَك أيها القارىء مثل هذا الكلام الذى جمع بين السهولة والحلاوة وحسن التصرف في لطائف الصنعة . وعبر عما وراءه من أدب كثير وحفظ غزير . هكذا كان الكتاب يكتبون فى تلك القرون ثم جاءت القرون الوسطى وجاءت معها الركاكة والسخافة والتنطع والتقعر وتكلف التسجيع . وايداع الكلام أنواع البديع . ولم يزل يفسد الانشاء العربى قليلا قليلا حتى القرون الاخيرة . وهاك مثالا مما كتبه كاتب فى أواخر القرن الحادى عشر هجرى أى منذ مائتي سنة :

الشيخ محمد الشهير بابن الدكدكجي من علماء دمشق الشام أرسل كتابا وداديا الى شيخه العلامة الشهير الشيخ عبد الغني النابلسي وكان يومئذ في بعض ثغور الشام . وهذا هو « بسم الله الرحمن الرحيم . تيمناً بذكره القديم . يقبل الارض متمسكا من الولاء بوثيق العرى . متمسكا من عطر الثناء الذى لا يزال الكون منه معنبرا (متمسكا الثانية لها معنى غير معني الأول وهو نوع بديعى وسيليه أنواع اخرى) متشوقا للقاء الذى بالمهج يُستام . وبالنفوس يشترى . متشوقا الى ما يرد من الانباء التى تسر خبراً . وتحمد أثراً . ويلثم اليد التى وكفت بوابل جودها ، وكفت المهم بنتائج سعودها . مع اهداء أبهى سلام . زكت بطيب المسرات نفحاته . وزهت فى رياض البشر لمحاته . وأزهى تحيات يشرق على الاكوان سنا نورها . ويتعطر الملوان من شذا نورها . طيبها مكتسب من طيب المهدى اليه . ولطفها مستفاد من لطفه . كالبحر يمطره السحاب وماله منّ عليه . وأزكى أثنية تملى عنا رسائل الاشواق . وتنبئكم بما عندنا من ألم الفراق . وتظهر الوجد الكامن في الضمير . ولا ينبئك مثل خبير . تتشرف

بمجلس سيدى ومولاى . ومالك رقي وولائى . ولي نعمتى . وسبب رفعتى الخ »

كل هذا الكلام ولم نصل بعد الى اسم المرسل اليه الكتاب . فكيف يطيق القارىء سماع باقيه . والشهر شهر رمضان . وحوادث السياسة قد شغلت الاذهان . لذلك نوجز المقال فيه . ونقتصر فيما يليه على مثالين : أحدهما يمثل الانشاء العصرى فى أول أطوار انتقاله الى حالته الحاضرة ولم تزل فيه عبقة من التكلفات القديمة . ومسحة من القيود العقيمة . والآخر يمثله فى آخر أطواره العصرية . وقد تجرد من هذه القيود وتنزه عن تلك التكلفات

كتب المرحوم عبد الله باشا فكرى من سويسره كتابا الى علي باشا مبارك حينما كان رئيساً للوفد العلمي الذى استوفده ملك أسوج ــ جاء فيه قوله :

« خرجنا من مثوانا . بمحل مأوانا . فى موقع من أحسن المواقع . على بحيرة لوسرن من أشهر بحيرات هذه المواضع . وهى حرية بذلك فى الواقع . فخطونا خطوات من محلنا قلائل . الى الباخرة المتهيئة للمسير على الساحل . فأقلعت بنا :

(يشق عبابَ الماء حيزومُها بها كما قسم الترْب المفايلُ باليد)

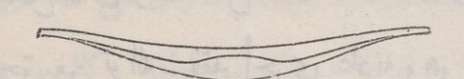
ونحن نرمي بالابصار . الى ما حولنا من الديار . المنتظمة بلبات ذلك الماء . انتظام فرائد القلائد على الغادة الجيداء . والمنتشرة فى البروج . كالكواكب فى البروج ــ قد عرف أهلها مقدار نعمة المنعم الكريم فأدوها حقها اعتناء واحتفاء . واعتنوا بمعرفة أسرار حكمة الصانع الحكيم فاهتدوا اليها بقدرته اهتداء ــ فالزارع اذا غرس شجرة أو القى فى الأرض الحرة بذرة . ثم تولاّها من السقي والخدمة . بكل ما فى وسعه من الهمة . قد سأل الله سبحانه بلسان حاله . فأعطاه ما استحق من نواله . فقد أجرى عادته وهو أكرم مسئول . أن لا يقابل سؤال لسان الحال الا بالقبول . بخلاف مالو زرع فى غير مزرع . أو أعرض عن واجب الخدمة وامتنع . وقعد يسأل بلسان المقال . آناء الليل واطراف

النهار . أن يرزقه منها اطايب الثمار . ويستزيده الا كثار . فقد أساء الأدب . ولم يحسن الطلب . الخ »

وكتب المرحوم الشيخ محمد عبده الى كاتب هذه السطور بتاريخ ١١ رمضان سنة ١٣١٧ :

« حضرة الاخ الفاضل . جاءنى كتابك . وسرني أن لي من قلبك منزلة من يفيد فكراً صحيحاً . أو يهدي الى عمل صالح . وبودى لو كنت مني بحيث اسمع قولك . وأرى شخصك . وأفهم عنك كما تفهم عنى . فيخف عليَّ ما ثقل حمله من فساد الكون . وقلة العون . ولكن يهوّن من ألم البعد . خلوص الود . والنفوس اذا صفَتْ تلاقت واذا أخلصت سرائرها تناجت . ويهمني ـ وأنت على ما أعلم ـ أن لا تقصر جهدك على نفسك . بل تجعل جانباً عظيما من رأيك وعملك لاهلك . ومن يمكنك إرشادهم من الآخذين بدينك . أُوصيك أن تنقب عن فص الدين وجوهره النقى . فى كتابه المنزل ، وسنة نبينا المرسل . وتميط عنه من البدع ما أخفاه عن أعين طالبيه . وقلَبَ أثره فى أنفس معتقديه . الخ »

الى هنا تمت المقارنة . ومنها ظهر كيف تنقل الانشاء العربى فى مختلف الادوار والاطوار : فكان أولا كالقمر فى حالة الابدار . ثم أُركس فى المحاق والسرار . حتى استعاد سيرته الاولى فى هذه الاعصار . ومن يدرى ما يكون له من عظيم الشأن ما دامت العناية الالهية آذنة بترقي العقول والافكار ؟



مقارنة بين فتاتين

متعلمة وجاهلة [1]

اذا طالبنا بوجوب تحرير المرأة فانما نطالب بتحريرها من رق الجهل وسلطان الغباوة . فلا تعود تستسلم للخرافات وتنقاد لسيء العادات . وليس المراد بتحريرها أن تنزع عنها برقع الحياء والحشمة . وتركب رأسها فتتصرف في شؤونها حسبما تشاء وتريد لم تخلق المرأة مستعدة لمثل تلك الحرية وهذا التصرف ولا يمكن أن تصادف وسطاً يلائم أن تعيش فيه هذه المعيشة المحفوفة بالاسواء والمخاطر .

اذا تعلمت المرأة وتهذبت عرفت كيف تعاشر زوجها . وتقتصد في ماله . وتربي أولاده . وتدبر أمر المنزل . بحيث يصبح فردوسا صغيراً لاهله . ولقد كان قوم يتحدثون عن أحسن منظر تتمتع به العين وترتاح اليه النفس . فكان كل منهم يذكر مايروق لديه من ذلك . حتى قال أحدهم : ان أحسن المناظر الام المتعلمة : على احدى يديها طفل . وبيدها الاخرى كتاب تنظر فيه بعين ، وتراقب المطبخ بالعين الاخرى . فاستحسن القوم منه هذا القول وعدوا ماذكره من أجمل المناظر ان لم يكن أجملها

وقد اراد بوصفه المذكور أن يبين مزية المرأة المتعلمة لاسيما بعد أن تصبح أماً . فلا يشغلها طفلها عن رياضة نفسها بالمطالعة ولا تلهيها المطالعة عن مراقبة الخدم وملاحظة شؤون المنزل مهما كانت تافهة .

لايظهر فضل المرأة المتعلمة مثل ظهوره عند ماتكون هي أو أحد أولادها مريضا .

عشرة الزوج وحسن مقابلة الزائرين وسياسة الخدم والاولاد وتدبير أمر

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م

المطعم والمشرب وترتيب المنزل - كل ذلك ليس له ارتباط بعالم الغيب فى زعم المرأة ولا يمكن ان تتصور أن للجنّ وعمّار البيوت دخلا فيه مهما كانت تلك المرأة ورهاء رعناء فلهذا كان كثير من النسوة الجاهلات يهتدين الى الاحسان فيما ذكرنا، واتقانه واقامته على وجهه بطبعهن أو بأقل ارشاد من بعولتهن والقوامين عليهن

أما المرض لاسيما العصبي أو الهستيري منه - فان المرأة الجاهلة اذا ابتليت هي أو أحد أولادها به - ملكتها الهواجس وأخذت الاوهام منها مأخذها . فتكبّد زوجها خسائر جمة . وتعرضه لاتعاب ومشقات كثيرة . وتراها تقضى معظم أوقاتها في التردد على أهل الدجل . والمشرفين على حظائر الغيب : فتتعرّف منهم سرّ دائها ومصير أمرها . أو انها تجعل بيتها مرسحا لتمثيل رواية الزار : تلك الرواية التي لا يعرف كيف يصفها الواصف أيجعلها فى عداد الروايات المحزنة (ترا جادي) . أو من قبيل الروايات المضحكة (كومودى)

« رمزى » و « طالب » اخوان ولهما ابنة عمّ تدعى (نبوية) مات أبوها وترك لها أطيانا تغل ايرداً كبيراً . فأراد أبوها أن يزوجها من أحدهما صيانة لها ورغبة في الاستئثار بمالها . وأحب لابنه الاكبر رمزي أن يتزوج هو بها . فأبى عليه ذلك لانها — على مالها وجمالها — جاهلة جهلا مطبقا : فهي لم تتلق من مبادىء العلوم مايساعدها على توفير سعادتها وسعادة زوجها وأولادها . فعلم (رمزى) أن ستكون حياته معها تعسة . وعيشه مراً . ففضل مخالفة أبيه وتحمل غضبه — على تحمل عبء الحياة مع ابنة عمه

أما (طالب) فقد كان الين عريكة . وأسهل قيادة من أخيه (رمزي) . فانصاع لامر أبيه . وآثر رضاه . فتزوج بنبوية . ووضع يده على أطيانها . وجعل

كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م

يتصرف في ايرادها وكان أبو هما يلحظ رمزى شزرا كلما رأى ابنه الآخر يتنعم بمال ابنة عمه . كأنه يلومه على مافرط منه من مخالفته حتى فاته من غضارة العيش ماكان الاجدر به . لانه أكبر من أخيه . وكانت (نبوية) قد سميت له منذ صغرهما .

وكان الاخوان دَرَسَا في بعض المدارس وتعلما حصة من العلوم والفنون عدّلت أخلاقهما وهذّبت شعورهما وعرفتهما كنه الحياة والتمييز بين سعادتها وشقائها .

ولم يكن طالب بأقل حظا من أخيه رمزي فى مجمل ماذكرنا ـ غير ان الاخلاق وملكاتها كانت أرقى وأشد استحكاما في (رمزي) منها في (طالب) ورمزي ان فاتته ابنة عمه فلم تكن لتفوته الزوجة التي يتطلبها في عاصمة كبيرة كالقاهرة . فاقترن بفتاة دون طبقته في الجاه والغنى . ولكنها فوق نسوة أسرته فى العلم والمعرفة والادب : فقد كانت تعلمت في بعض مدارس القاهرة القراءة والكتابة والحساب . ومجملا من علوم اللغة والدين . ومبادىء الفنون كالجغرافيا والتاريخ والكيميا والطب والرسم والموسيقى . ومارست أشغال اليد اللائقة بأمثالها .

تعلمُّ (فتحية) لمبادىء فى الكيمياء والطب ليس عقيما كما يظنه بعضهم : فان ربة البيت المتعلمة لاتستغني عن مطالعة الكتب والابحاث المتعلقة بأمر المنزل وادارة شؤون المطبخ الذي يمثل معملا كيماويا صغيرا : ـ وتربية الاطفال الذين تكون غرفتهم أحيانا نموذجا للاسبتاليات الكبرى . فاذا كان لها مشاركة والمام بهذين الفنين وكتب كاتب في تربية الاطفال وتمريضهم وتجهيز الطعام وتحضير مواده ، وتهيئة الادوات وتنظيفها . أو سنح في كلامه شيء من اصطلاحات الطب والكيميا ـ عقلته أول وهلةٍ ورسخ فى نفسها . وأذعنت له

بسهولة . وليس الحال كذلك اذا كانت جاهلة لهذين الفنين . فالقدر اللازم لها منهما هو مايساعدها على تمريض أولادها ومعالجتهم وادارة مطبخها وتجهيز مواده بصورة تتفق مع ماقرره علماء الطب والهيجين . ووصل اليه العلم الحديث .

وكان كل من (رمزى) وأخيه (طالب) يسكن في دار على حدة فى جانب دار أبيهما . وكان الاول مستخدما في بعض مصالح الحكومة ، وله مرتب يقصر عن نفقته أحيانا . فكان أبوه ينفحه بما يرفه عليه معيشته . أما أخوه طالب فانه لم يكن له من عمل سوى مشارفة أطيان زوجته واستغلالها وكان اتكاله على ايرادها يقعده عن تعاطي كسب أو معاناة استخدام . لكنه كان بالجملة والتفصيل أحسن معيشة . وأكثر سرفا من أخيه .

وقد اتفق أن حدث حريق هائل فى جوارهم أثناء الليل فهبت زوجتاهما من الرقاد مذعورتين . ومن أجل ذلك أصيبتا بأمراض عصبية ظهر أثرها على أشده فى (نبوية) زوجة طالب لانها كانت على استعداد فى مزاجها كما كانت كثيرة الهواجس والتفكر فى الاموات وسكان المقابر والجن والارواح السفلية فكان ينتابها المرض ويحرمها طيب الحياة وطعم الوسن . أما سلفتها (فتحية) فكانت معتدلة المزاج ولم تكن تضارعها فى هذه التخيلات فلم يكن للمرض سلطة عليها الا بالقدر الذى يحتمل . لكنها لما ولدت ظهر أثر المرض العصبى في طفلها الصغير فكانت تعتريه نوبات تشنج من وقت الى آخر . وكانت سلفتها نبوية ومعارفها من الجيران يزرنها ويشرن عليها أن تأخذ ابنها الى المشايخ الذين يطببون بالرقى والعزائم وعمل النشرات والطلاسم . فكانت تقول لهم فتحية ان الدكتور قد رأى ابني وفحصه وقال ان مرضه عصبي وأرشدني الى طرق معالجته وتمريضه أثناء النوبة . وقد راجعت أنا بعض الكتب المؤلفة في فن الصحة والتمريض فرأيتهم يصفون ذلك المرض وأسبابه وعلاجه بما لايختلف عن

قول الدكتور . فانا مقتنعة بما قرأت وسمعت ، ومرتاحة الى العمل بمشورة العارفين .

واتفق أن حصلت للطفل مرة نوبة عصبية بحضور نبوية وبعض العجائز فاكبرن الامر . وذهلن مما رأين في أمه (فتحية) من الرفق والتؤدة والصبر : انجذب رأس الطفل الى الوراء وتشنجت يداه ورجلاه وأخذه العرق البارد . وضعف نبضه . فأسرعت أمه فتحية الى تفكيك ازراره وثيابه عن عنقه وصدره . وفتحت اغلاق النوافذ ليتجدد الهواء في الغرفة . وأخذت مروحة وجعلت تروح بها على فمه وأنفه . ثم أحضرت قليلا من الماء البارد في اناء نظيف . وجعلت تنضح منه على وجه الطفل ومدارج انفاسه . ووضعت خردلية على معدته . هذا هو كل مافعلته منتظرة انكشاف النوبة عنه ومعتصمة بالله وبالصبر الجميل .

أما سلفتها نبوية وبقية العجائز فانهن أكثرن من الجزع واظهار الوله وجعلن يؤكدن لفتحية أنه ليس بابنها مرض وانما هي القرينة (الجنية) قد غشيته وان هذه الطريقة التي مشت عليها في تمريضه ومعالجته ليست ناجعة في تسكين سورة القرينة . وان عليها أن تأخذه الى أهل الرقى والعزائم أو تذهب به الى زيارة الاضرحة والمقامات الروحانية وتطلب من أصحابها أن يشفوا طفلها . وان لم تفعل كانت هي الجانية على الطفل . وربما أسلمته الى الهلكة . فلم تبال فتحية بتهويلاتهن . وتضرعت اليهن أن يدعن الجلبة واللغط فوق رأس ابنها . وحاولت اقناعهن بأن مرضه من الامراض السليمة العاقبة - اذا أحسن القيام عليه واتبع رأى الطبيب في معالجته . وان القرينة التى يزعمنها من نتائج الاوهام . وان جميع مايروى عنها كلام بكلام . لكن النسوة سفهن رأيها . واشتددن فى مجادلتها .

***

صممت « فتحية » على معالجة ابنها حسب رأى الطبيب . أما سـلفتها نبوية وزميلاتها فقدر عارضنها وفنّدن رأيهـا . قالت نبوية كيف تقواين أن مرض ابنك عصبى . وانه ممـا يشفيه فنّ الطب ؟ ألستِ ترين الزبدَ على أشداقه ؟ . وقالت الاخرى انظرى الى عينيه كيف همـا شاخصتان الى سقف البيت . والى رجليه ويديه كيف تتوتران وتتشنجان ؟ هذه هي القرينة بعينها

ثم قالت نبوية : أشير عليك يا أختى أن تأخذى ابنك الى جامع الشعرانى أو البيومى أو الخضيرى . ففى مصر والحمـد لله مراقد وأضرحة كثيرة . وما عليك الا ان تدفعى رسم الزيارة الى شيخ الضريح ثم نادى أهل الله واستغيثى بهم فهم يشفون ابنك . فقالت احدى الجيران اذا أردت أن يشفى ابنك فزورى به جامع أولاد عنان . فان مزارهم خير المزارات لشفاء الاطفال وكاد يكون هـذا المزار الشريف «اختصاصياً» فى فن أمراضهم . فاجابتها الاخرى ان « مركوب الـكلشانى » في جامعه ـ حيث الشيخة (خضرة) المشهورة ـ هو أرجى مزار للشفاء فيما أظن ، فانبرت لهما عجوز من احدى زوايا البيت . وقالت ان مرض الطفل القرينة . والقرينة وأشباهها مما كان منشأه الجن وعمار البيوت ـ لا يشفيه الا زيارة سيدي « أبو السعود الجارحي » أو سيدي « الشيخ المغربى » في بولاق لا سيما هذا الاخير فان له سلطة على اخراج الجن . ومطاردة التوابع . وقـلما تستعصى عليه قرينة مهما اشتدّ بأسها . وصعب مراسها . فوافقنها على رأيها . وقلن الصواب أن يؤخذ الطفل في عربة الى مقام (سيدي المغربى) في بولاق فيحصل الشفاء ببركته ان شاء الله تعالى

فلم تجبهن امه (فتحية) على قولهن وكانت مشغولة في تحضير العلاجات

حسبما أشار الطبيب وكانت أحياناً تظهر الاشمئزاز من أقوالهن وآرائهن . وتتمنى لو يخفضن من صوتهن ويخففن من لغطهن وجلبتهن . والفتاة اذا تعلمت وتهذبت عرفت قيمة المال فتصبح تقتصد في نفقاتها ولا تعود تنفق درهما ما لم يكن من وراء انفاقه نفع لها وفائدة لزوجها وأولادها . وكذلك كان شأن (فتحية) المتعلمة فحسب النسوة أن اشمئزازها وكراهتها لزيارة الاضرحة كان من باب الاقتصاد . فجعلن يذكرن لها أن النذر وأجرة الزيارة التي تؤدى الى شيخ الضريح ـ طفيفة جدا : من قرش فصاعدا. قالت احداهن وقد يقنع شيخ الضريح ببعض المليمات. فاجابتها التي بجانبها قد ذكرتني بجامع (الصوابى)وشيخ ضريحه : فان ثمة عمودا مستطيلا اذا مسه المريض باعضائه المؤوفة أو تمسح عليه شفي للحال . والنساء يقصدن هذاالضريح يوم الجمعة بعد الصلاة للاستشفاء .وقد رأيت سدنة الضريح يقنعون من الزائرات بمليمين أو ثلاث ولا يتسامح السادن معهن فلا يدع احدى الزائرات تفلت من دون أن تؤدى اليه رسم الزيارة . وقد رأيت بعض السدنة مرة يهدد زائرة بخيزرانة بيده حينما أحس أنها تريد أن تتفلت قبل اداء الرسم. فضاق صدر (فتحية) من هذا الحديث وأصابها شبه دُوار في رأسها . وكانت كاسفة البال من رؤية طفلها على تلك الحال . فقالت لهن أخيراً أنى لن أدع قول الطبيب واشارته لقولكن أو لزيارة الاضرحة وقد قرأت أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) كان يأمر المرضى بأن يذهبوا الى طبيب العرب الحارث بن كلدة ، ويستشيروه في معالجة أمراضهم . وأظنكن لاتعرفن ان الطبيب المذكور كان نصرانيا . ولم يبلغنا قط ان النبى صلى الله عليه وسلم أمر أحداً من الصحابة أو نسوتهم أو ابنته فاطمة أو زوجته عائشة ـ بأن يذهب الى قبر ميت للاستشفاء به مع أن القبور الشريفة كانت متوفرة في ذلك العصر مثل قبور شهداء بدر وشهداء احد وقبر سيد الشهداء سيدنا حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم . ولا ريب

ان اولئك الشهداء أفضل من هؤلاء الاولياء . على ما للاولياء من المقام والمنزلة التى لاتجحد . فصرخ النسوة كاهن في وجه فتحية صرخة واحدة دوى لها البيت وحلفنها أن لا تتعرض لرجال الله .وانهن يخشين عليها وعلى ابنها أن تتغير قلوب الاولياء عليها . فعجبت فتحية لجهلهن ، وبلادة عقولهن . وأرادت أن تحاورهن في الموضوع ، وتقنعهن بفساد معتقدهن . وخطر لها أن تقول لهن : لو فرضنا أن الاولياء رضى الله عنهم لم يفنوا ولم تبل أجسادهم ، أليسوا أمواتا لايستطيعون حركة ولا عملا . فكيف يستطيعون البطش والفتك بالناس ؟ لكنها عرفت ان قولها سيذهب سدى ولا يكون له فى نفوسهن التأثير المطلوب . كيف يفهمن حجتها هذه وهن لم يستطعن أن يفهمن مغزى حجتها الاولى التى تتلألأ كالشمس من أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يأمر المرضى بزيارة القبور وانما كان ينصح لهم أن يزوروا الطبيب النصراني والتوسل بتجاربه الى استرداد صحتهم . ذلك لانه حي وله علم الاحياء . أما الآخرون فأموات والميت فاقد الحياة فكيف يكون من مقدوره اعطاء الصحة التي هي كمال الحياة أو أثر من آثارها ! ؟

على ان الاولياء أنفسهم ماكانوا في حياتهم يتعاطون صناعة التطبيب بل كانوا يعالجون أنفسهم وأهليهم برأى الاطباء ومشورتهم . أو يقال ان وظيفة الاولياء كانت معالجة الحياة الروحية وتطهير النفس من أدران الرذائل . لامعالجة الحياة الحيوانية وتعديل مزاج الجسد الذي هو وظيفه الاطباء ، ولو كانوا فسقة . هذا الامام الشاذلى الولي الكبير رضي الله عنه دعا مرة طبيبا ذميا ليطبب ولداً له . فقال له الطبيب ان رئيس الطب فى القاهرة لم يعطني اذنا بمعالجة المرضى . فذهب الشيخ من فوره الى القاهرة وأحضر له منشورا من الرئيس يسمح له فيه بالتطبيب . فلماذا لم يرسل الشاذلى بابنه الى القبور ، وصناديق النذور ؟

أنحن نعرف من مزاياها وخصائصها الروحانية مالا يعـرفه هو (رضى الله عنه) أو اننا توسعنا في علم الاقتصاد وفن الـثروة فلم نشأ أن ندع أشـلاء أمواتنا وعرصات قبورهم — من دون أن نستغلها. وننتفع بريعها !؟

كل هذا كان يجول في نفس فتحية ولا تذكر منه لأولئك النسوة . لأن جهلهن قد أعمى بصـائرهن عن فهمه وتعقله . وقد بقين عاملات عن مجادلتهـا والالحاح عليها بأن تأخذ ابنها الى الاضرحة. وتغتنم الفرصة قبل فواتها. وبقيت هي مصممة على رأيها ثابتة على منهجها : ذلك لانها متعلمة مهذبة .والعلم يبث في نفس صاحبه شجاعة أدبية يقوى معها على مناهضة الباطل ومعـارضته مهما ظهر فى مظهر القوة والصولة

وهكذا لبثت فتحية مدة من الزمن تعـالج ابنها بالعلاجات والطرق التي أشار بهـا الطبيب . وقررها فن الطب حتى انتقل الى سن من عمره تغلب مزاجه فيـه على المرض العصبي الذى كان معه وشفى منه .

وكان (رمزي) زوج فتحية يسر بأقوال زوجته وأخلاقها ويباهي بها أمام أبيه وأخيه طالب . وكان هذا الاخير يظهر التجلد وعـدم الاكتراث . ويزعم ان جهل ابنة عمه نبوية ليس بالجهل الذى يضر أو ينغص عليه هناء عيشه .

لـكن الدهر لم يمدد له فى هذا الهناء فقد اشتد على زوجته المذكورة المرض العصبي الذى كان أصابها على أثر خوفها من الحريق كما قلنا . فـكانت تعروها من وقت الى آخر نوبات تشنج .وتشعر أحيانا بشيء يعترض فى حلقها ومدارج أنفاسها بحيث يكاد يخنقها ويمنعها الكلام والتنفس. وكانت أثناء النوبة تصحو وتعي لما كان يحدث حواليها . فلا يكاد يفوتها منه شيء . وهذا ماجعلها تعتقد بأن مايصيبها من قبيل القرينة . وهو الجنّي يتقمص جسم المرأة . والنسوة المبتليات بهذا الوهم ويسمين تلك الارواح شيوخهن أو أسيادهن .

والذى زاد نبوية تصديقاًبأن ماأصابها هو القرينة ـ انها كانت أثناء النوبة تبكي وتضحك لغير سبب وعلى غير المألوف في هيئة الضاحك والباكي . وهذا ان كان عند الاطباء من عوارض الامراض العصبية فهو عند أهل الغباوة من أقوى الادلة علي تأثيرا لجان . التي تتطاير في البيوت من حول السكان . ولها ولوع خاص بتقمص أجسام النسوان .

فأخذت العجـائز اللواتي يتعـاطين الزار والرقى والعزائم ينتبن منزل (طالب) لمعـالجة زوجته (نبوية) وشفائها من قرينتها . وعلى أثر انتيابهن المنزل جعل ينتابه الشقاء ويحل به البؤس ويزايله الهناء .

كان (طالب) يتبرّم من تردد العجائز على منزله وتداخلهن فى أمر مرض زوجته وانتدابهن لمعالجتها بالطرق السخيفة التى يعرفنها . ويضيق صـدره من اجتماعهن ولغطهن حول فراشها . وقد حاول مرة أن لا يجعل لهن رأيا فى الامر وأن يمنعهن عن انتياب منزله فغضبت زوجته (نبوية) واضطربت واشتد المرض عليها وتتابعت النوبات . فقالت النسوة ان شيخها (يعنين جنيّها) أخذ ينتقم لنفسه من زوجها . ولما رأى طالب ان الحاحه عليها يهيج من مرضها التزم الصمت واعتصم بالصبر وعرك الاذى بجنبه

وكانت (فتحية) تزور سلفتها (نبوية) من وقت الى آخر وتسليها وتطيب خاطرها وتشير اليها بلطف أن تطيع زوجها فيما يريده من عيادة الطبيب لها كي يعالجها المعـالجة القانونية : فان ذلك أنفع لها . وأرجى في شفائها ٠ وأبقى على حسن الوئام بينها وبين زوجها . فكانت نبوية تسخر من قول سلفتها . وتهزأ بمشورتها . وتزعم ان مرضها لا ينجح فيه الطبيب ولا علاجه .لان للطبيب منطقة من النفوذ لا يمكن أن يتعداها . ومرضها هذا ليس داخلا في منطقة نفوذه والجني الذي غشيها لا يعنو لسلطانه .وكانت تحتج علي قولها بما تقصه العجائز والدلالات ،

وما يروينه من الاوهام والترهات . فكانت فتحية ترثى لحالتها وتأسف من استحكام الجهل في نفسها . وأرادت مرارا ان تتولى أمر تمريضها بنفسها على نحو ما كانت تمرّض ابنها فلم تفلح . وكانت تقول لها ان مرضك هذا يكفي فيه الاستحمام والرياضة والنزهة وجودة الطعام وأن تفتح نوافذ الغرفة أثناء حدوث النوبة العصبية ليتبدل هواؤها . وان تفكك عن عنقك وصدرك الازرار والثياب الضيقة. وكل هـذا ليس بالامر الذى يشق عليك. ولا بالذى يضر اذا لم ينفع . ولا بالذى يغيظ شيخك أو يهيج من حقده وحنقه فيوصل الاذية اليك . ثم تبتسم وتقول : وانه ليخيل الى أن شيخك من ذوى المروآت. فلا أحسبه يرضى لمثلك من السيدات . ان تذهب فريسة لجهل العجائز الغبيات. وكان طالب يسمع ماتقوله (فتحية) لزوجته فيسر ويشكر لهـا ويتمنى لو تصغى (نبوية) الى نصـا ئحها . ولـكن من سوء حظه ان كان سعيها يذهب سدى . ونصائحها تمضى سبهللا . فأخذ من يومئذ يشعر بسوء حظه ونكد طالعه وبالشقاء الذى يهدده في مستقبله وأدرك مزية الزوجة المتعلمة . وكم يكون زوجها قرير العين بها . وغبط أخاه على نعمة الله عليه بهذه الزوجة الصالحة

لكن حظ طالب لم يقف عند هذا الحد : فان زوجته الح عليهـا المرض . وتوالت نوباته بفضل مشورات العجـائز وأدويتهن الغريبة . وأخيراً ارتأين أن تذهب نبوية الى المزارات . فحاول زوجها أن يصرفها عن ذلك فلم تطعه . وأخذت من يومئذ تتردد على الاضرحة التى يخيل اليها أنها الاعجل تأثيرا في مرضها لاسيما ضريح «أبي السعود الجارحي» و « الشيخ المغربى » فى بولاق. ثم أناخت بكلـكلها على هذا الاخير طالبة منه أن يغيثها ويرثى لحالها ويحول بينها وبين الجني الذى لبسها. وهكذا مر عليها أيام وشهور . ثم ظهر فيها الحمل . وبلغت شهرها الخامس . فاجتمعت العجائز اجتماعا فوق العادة وقررن متفقات لزوم اجراء

عملية الزار لنبوية حفظا لها ولجنينها من صولة القرينة . اذ تبين لهن أن جنيها ليس بالابن العريكة . ولا بالذى يمكن صرفه بمجرد الزيارات والرقى والعزائم . ولما بلغ طالب خبر العجائز وما أصدرنه من القرار القاضى باجراء عميلة الزار طار صوابه وتوسل بأنواع الوسائل لصرف زوجته عن العمل بمضمون هذا القرار . لما يعرف من عواقبه الوخيمة وجنايته الكبرى على الارواح والاموال . وبالامس هلكت امرأة في ناحية (صفط الابن جيزه) فادعى أهلوها أولا أنها ماتت غرقا ثم تبين أنها خنقت خنقا . وان هلاكها نشأ عن عملية الزار . وأقل نفقات هذه العملية عشرون جنيها وقد تبلغ أحيانا أكثر من مائتى جنيه . والاحتفال بالزار يلقي فى المنزل الذعر والوحشة . ويزعج النفوس الطيبة الزكية ويقلق راحتها . وقد لا يكفي المصابة أن تحتفل بالزار مرة فى عمرها أو كلما ثار مرضها — بل تزعم انها مضطرة الى الاحتفال به في كل سنة من سني حياتها . وكلما لمت الواحدة من هؤلاء ذوات الهوس بالزار أجابتك بمضمون قول أبى نواس :

دع عنك لومى فان اللوم اغراء وداونى بالتى كانت هي الداء

أما كون الزار داء فيظهر من هذه القصة وهي أن احدى سيدات العاصمة أصيبت منذ حين بمرض نغص عيشها وعيش زوجها . ثم تيسر للاطباء أن اهتدوا الى تشخيص المرض وتدبير علاج له فنجحوا و استراحت السيدة وأخذت فى دور النقه . ولكن العجائز والدلالات لم يسترحن مالم يخدعن تلك السيدة عن نفسها وعقلها فحسنّ اليها أن تتداوي بالزار . فأقامت له حفلة كلفتها مائة وخمسين جنيها . ويقال ان السيدة نكست بعد تلك الحفلة المشؤومة وعاودها المرض

وكلما كان طالب يحدث زوجته بهذا وأمثاله محاولا اقناعها بترك تلك العادة الضارة اتهمته بالبخل وانه انما يريد الهروب من النفقات التى تنفق عادة في سبيل

الزار ثم تقول له بتأثر وانفعال انها بحمد الله غنية . وهي مستعدة لان تنفق على نفسها من جيبها ولا تكلفه شيئاً لان حياتها وحياة أولادها عزيزة عليها ــ اذا كانت هينة عليه هو بحيث يبخل ببذل قليل من المال فى ذلك السبيل .

وليت شعرى بما ذا يفتى حضرات العلماء في أمر نفقات الزار ؟ هل يكلف بها الزوج كما يكلف بثمن الدواء لزوجته المريضة وأجرة الطبيب الذى يعودها أو لا يكلف ذلك وانما تكلف المرأة نفسها في مالها ؟

ثم ان طالبا لما لم يجد مناصاً من موافقة رغبة زوجته والسماح لها بتنفيذ قرار العجائز رغب الى زوجة أخيه فتحية بأن تحضر تلك الحفلة فلعل في حضورها مايكون وسيلة لتخفيف الشرور والاضرار التي يوشك أن تنشأ عن عملية الزار .

أما فتحية فانها لم تكن تحب أن تحضر الزار لاسيما انها لم تعتد رؤيته من قبل وتخشى أن تنزعج من فنونه أو جنونه الذى كان يصفه لها بعض جاراتها من النساء : لكنها اضطرت الى حضور الحفلة اطاعة لزوجها وأخيه طالب الذى كان يلح عليها بأن تحضرها الحاحا .

عينت شيخات الزار يوم الخميس بعد الظهر لاجل اقامة الحفلة فى منزل طالب . ولما أزف الوقت جعل المدعوات يفدن عليه تباعاً . و كانت فتحية تستقبلهن وترحب بهن . ثم شرعن باقامة الحفلة فرأت فتحية ما هالها . وهاج بلبالها . فهمت بالانصراف لولا ان سلفتها والشيخات والمدعوات كن ينهينها ويزعمن أن انصرافها قبل انقضاء الحفلة مضر بالمصابة وأهل بيتها . فصبرت مكرهة . لكنها أخيرا رأت اعمالا بشعة وفعلات منكرة لم تطق الصبر على مشاهدتها . فانقلبت مسرعة الى دارها على رغم النسوة اللواتي كن يعارضنها ويخوفنها .

وهناك وجدت زوجها وأخاه فقصت عليهما الخبر منذهلة مما رأت وسمعت قالت :

يتولى ادارة حفلة الزارفئة من النسوة قد يبلغن الخمسة عشر امرأة ويسمين شيخات الزار : منهن العجوز . ومنهن الفتية . ومنهن البيضاء . ومنهن الزنجية وتدعو المصابه أترابها وصويحباتها ليشهدن الحفله ويشاركنها فى التبرك بأعمالها قالت فتحيه : وأكثر مارأيت بينهن — اللواتي يزعمن ان لهن قرينه أو جنياً يخشين ان يلابسهن . فهن يغشين حفلات الزار كلما دعين اليها استرضاء لتوابعهن او شيوخهن وكفاً لعادية الاذى عنهن

وتتقدم الحفلة العامة التى يشهدها المدعوات حفلة أخرى خاصة تختلي فيها الشيخات بالمصابة صاحبة الدعوة منذ الليلة السابقة ويأخذن معها فى الرقص والقفز والعزف والترتيل على نحو مايصنعن في الحفلة العامة المشهودة

* * *

قالت فتحية : ثم افتتحت حفلة الزار العامة فكان أول ماشاهدته أن قدم الى نبوية خروف كبير فركبت عليه . وجعلت تطوف في نواحي البيت . والشيخات حولها يضربن على البنادير . وفيهن واحدة تضرب على طبل كبير . وهن يتلون كلاما غير مفهوم . ويُزَمْزِمْنَ زمزمة المجوس

وقد رأيت سلفتى الراكبة على الخروف صغيرة جدا . وقد انحطت قيمتها في عينى . فندمت على شهودى تلك الحفلة التى كان من أثرها في نفسى استصغار حبيبتى وصديقتى ورفيقة صباي : فاربدّ وجه زوجها طالب . وأحس كأن افعى تنهش فؤاده .

قالت : ثم نزلت عن الخروف فذبح وحمل فوق رأسها . فكان الدم يشخب من أوداجه . وينصبّ عليها . فكنت ترى شعرها و عينها ووجهها وكل

ملابسها تقطر دماً . وهي مستكينة خاشعة كأنها في موقف صلاة . تعبد ربها فيه . وتناجيه

وكما ذبح الخروف ولوثت بدمه ـ ذبح كثير من أنواع الطير والفراخ الرومية . وأهريقت دماؤها عليها . وقد رأيت اذ ذاك شيخة سوداء من شيخات الزار تحمل ملحاً كانت من قبل قد همهمت عليه بالرقى . ثم جعلت تنثره على رأس نبوية بيد ، وتلقي البخور في النار باليد الاخرى . فكان منظر نبوية بما عليها من الدماء من أبشع المناظر . وعمل أولئك الشيخات من أغرب الاعمال

والوليمة التي تعد للمدعوين انما تكون من لحم ذلك الخروف وهذه الطيور . ومما يهيؤنه من ألوان الطعام في تلك الوليمة ـ ضرب من الفطير خاص بالزار تكون الشيخات والزنجيات قد رقينه من قبل ونفثن عليه من بركات أنفاسهن ثم يوزعنه على المدعوات . فيتيمن بأكله . ويتنافسن بالتناول منه

وشرابهم المقدس في هذه الوليمة هو (البوزة) المتخذة من ماء الشعير المختمر . فيشربن منها . وتجعل الواحدة منهن تصب من ذلك الشراب على رفيقتها للتبرك . أو اتباعا لمشورة القرينة التي تحب ذلك منهن .

قالت فتحية : وبعد أن تلوثت نبوية بالدماء التي اريقت عليها ، أدخلوها الحمام فاغتسلت وأزالت ـ عن عقاص شعرها وغضون وجهها ومحاجر عينيها ـ ما كان تخللها من الدم المسفوح .

وتلبس بعد الاغتسال ثوبا اعتياديا (بسيطا). أما الحلي وأدوات الزينة فقد أفرغت على جسمها منها الشيء الكثير ! فكان في وسطها زنار ذهب ، وعلى سواعدها دمالج من ذهب أيضا . ويتدلى على صدرها تعاويذ من فضة مقوسة تحكي الاهلة ومنوط بها حلقات وهنات وزوائد تتدلى منه وتترجح كلما مشت أو تحركت .

وقد استقبلتها شيخات الزار من مستحمها بالشموع والطبول والبنادير ، وجعلن يزففنها كما تزف العروس .وينشدن أناشيد : ان كان أحد يعرف مغزاها فالشيطان الرجيم . الذى سول لهن هذا الاثم العظيم .

واستقبال نبوية من مستحمها علي هذا النحو أذكرني بجلوتها ليلة عرسها، وقد أذهب عني أنس تلك الجلوة ورونقها وحشة هذا المنظر المنكر الذى كانت نبوية فيه سابحة فى بحر من الدم العبيط .

وبعد خروجها من الحمام ابتدأت الحفلة وأخذت النسوة فى ممارسة العمل المقصود بالذات من اقامتها . فوقفت نبوية فى ساحة الدار وجعلت ترقص بشدة وتخفق برأسها الى وراء وامام خفقاً منكرا . وكان يشاركها فى الرقص على هذه الصورة معظم المدعوات اللواتي يزعمن أن لهن جنيا أو شيخا يهددهن أو يتحفز للاضرار بهن ، وقد أفرغن على جسومهن من لبوس الزينة مايلبس عادة في الاعراس والافراح

مسكينة أنت يانبوية ياسلفتي المحبوبة. انك فى الشهر الخامس من أشهر الحمل وتحتاجين فيه الى الراحة والعناية بصحتك وتوفير قوى جسمك . فكيف قوي قدك الأهيف اللطيف . على تحمل هذا الانتباط والرقص العنيف ؟

قالت فتحية وتنفست الصعداء وأغرورقت عيناها الدعجاوان بالدموع فتأثر زوجها وأخوه طالب من لهجتها ونغمة خطابها . وطلبا منها اتمام الحديث .

فقالت ياويح أولئك النسوة الغبيات : تخشى الحامل منهن أن تسطو عليها أو على جنينها القرينة فهي تسترضيها . أو تدفع شرها بهذا القفز والحركة الشديدة التي تنهك جسمها . وتوهي تماسكها . وما علمت أن هذ الصنيع هو أقرب الطرق الى اجهاضها . وسقوط ثمرة أحشائها .

ويزعم غواة الزار أن الجني يأمرهن بأن يلبسن في كل حالة لبوساً خاصا .

فقد لبست نبوية بأمر الجني في أول أدوار الرقص غلالة من الحرير تحاكي العباءة التي يلبسها البدو . ووضعت على رأسها كوفية حرير مسدولة الاطراف . ولبست فوق الكوفية طربوشاً أحمر له زر (١) مؤلف من خيوط قصب وحرير مختلفة الالوان . وأدارت على عنقها كوفية أخرى من حرير . وبعد أن استتمت قيافتها على هذا النمط الغريب — اشتدت في الرقص وغلت فيه . وجعلت الشيخات يسعدنها . ويضربن على الطبول حواليها ضربا منكراً . ويرفعن عقيرتهن بالأناشيد والتراتيل . وانهال نثار الملح على رأسها من كل جانب أيما انهيال . ولبثت كذلك نحو نصف ساعة

ثم خارت قواها واسترخت مفاصلها فسقطت لجنبها تطلب الراحة والجمام . وبعد ان أخذت حظها من ذلك زعمت ـ ووراحمتاه لها فيما زعمت ـ أن جنيها ألقى فى روعها أن تنزع لبوسها الاول وتلبس ثوبا آخر احمر قانئا ليكون ذلك مغريا للجن حمر الالوان ـ أو الذين شعارهم الحمرة ـ بالحضور وشهود الحفلة . وكانت نبوية قد أعدت لنفسها هـذه الملابس والادوات من قبل فلا يعجبن امرء من بلوغ نفقات الزار أكثر من مائتى جنيه احيانا لاسيما فى الطبقات العالية

فلبست نبوية ثوبا أحمر كالبرنس الذي يلبسه المغاربة . وله في أعلاه قلنسوة حمراء لبستها فى رأسها ووضعت فى عنقها كوفية حمراء مخططة بخطوط بيضاء . وأخذت فى الذكر والرقص الشديد . أما المدعوات ذوات التوابع اللواتى كن في الحفلة فقد كانت كل واحدة منهن احضرت معها لباسها الخاص بها . الذي يحبه لها جنّيها أو جهلها : فمن كان جنيها من عمّار مكة ـ لبست ملابس مكية وشهرت بيدها خنجراً مكياً . وما كان جنيها من بخارى أو سمرقند أو الافغان أو دارفور أومراكش كانت قيافتها وزى ملابسها على طرز تلك البلاد . وبعد ان تعبت نبوية

(١) هو الذي يسمي شرّابة أيضا .

فى رقصها ألقت بنفسها على المقعد فاستراحت . ثم نشطت للرقص . وزعمت أنه أشير عليها بان تنزع البرنس الاحمر وتلبس لبوسا أصفر فلبسته وسدلت على وجهها منديلا من البرنجك الحرير الاصفر . ولفت نفسها بملاءة حرير ذات الوان مختلفة ثم جعلت ترقص وتثب على هذا الشكل وبهذه التهاويل . وأخذت النسوة في الرقص معها حتى تعبت وتعبن وكن ساكتات لا يرتلن شيئاً وانما الشيخات هن اللواتى كن ينشدن ويرتّلن . ثم وسوس لنبوية جنيّها ان تغير اللباس الاصفر وتلبس لونا غيره . وهكذا الى سبع أدوار . وفي كل دور كانت تلبس لبوساً غير اللبوس الاول

وفي الدور الاخير امرتهن نبوية بأحضار اربع شموع فأحضرت وكانت احداهن ملفوفة بقطعة من قماش احمر وهي برسم القطب الجيلاني أو على اسمه وأخرى بقماش أخضر برسم البدوي . وثالثة بلون أنسيته وهو برسم الدسوقي ورابعة برسم ولى ـ قالت فتحية قد نسيت اسمه (أقول لعله الشيخ الرفاعي قدس سره)

وكان في وسط الغرفة مائدة وضعت عليها الشموع الاربعة وفى وسطها ابريق نحاس كبير وقد انبت فى فم ذلك الابريق شمعة كبيرة اكبر من الشموع الاخر وبعد اعداد الشموع على هذه الصورة أمرت نبوية الشيخات بان يضربن على البناديرر وينشدن نشيد الكيلاني . ففعلن وتناولت شمعة الكيلاني . فرقصت بها وتخبطت ماشاءت وشاء هوسها . فعلت ذلك وحدها من دون ان يشاركها أحد من النسوة . ثم ارجعت شمعة الكيلانى . وتناولت شمعة البدوى . فرتلن نشيد البدوي . ثم وثم حتى اتت على الشمعات الاربع

قالت فتحيـة : وقد تنسمت من حـديث النسوة ان أولئك الراقصات مأخوذات عن أنفسهن : لا صحو لهن ولا شعور بما يدور حولهن . وزعمهن هذا

باطل وزور كزعمهن ان الجنىّ يلبسهن ويستحوذ على ارادتهن فيصبحن مسخرات لامره فيما يأتين ويذرن .

واكبر حجة على فساد زعمهن هذا ماحدثتني به امرأة فاضلة من نساء الارياف قالت ان زوجة لاحد العمد ارباب الانفة والشهامة ـ زعمت ان جنيا لبسها . وانها فى حاجة الى اقامة حفلة زار . والحت على زوجها في ذلك . ولما رأى منها الجد والتصميم . حلف انه اذا لم يفارقها ذلك الجني ويدعها من شره ـ كان هو فى غنية عنها ويسرّحها الى اهلها سراحا غير جميل . فلم تلبث ان صحت للحال من غرورها أو جهلها . وزايلها الجنى الى حيث لم يعد اليها ابدا . وكان هذا الكلام من فتحية بمثابة تبكيت لطالب ـ وايماضاً بأنه لم يسلك فى معاملة زوجته مسلك الحزم ، ولم يكبح جماح جهلها بالعنف والشدة اللازمة فى بعض الاحيان مع النساء الجاهلات

قالت فتحية : ثم استطلت مدة الحفلة وضاق صدري من الخزعبلات التى جرت فيها ، مثل وضع الشيخات على كتفي نبوية طيور بط وأوز وأرانب بعد أن يكنّ قد وضأن تلك الدواجن الوضوء الشرعي . ويقال ان أرنبا مد ظفره مرة وهو على كتف المصابة فخمش عينها أو كاد يفقأها وقد حاولت مرارا أن اتملص من بينهن فكن يمنعنني واخيرا أخبرت بأنهن يهيئن طبقا كبيراً يملأ نه ماء ويضعن فيه سمكة . ثم تأتي نبوية فتغطس رأسها فى الطبق وتحرك ماءه برأسها وكأنهن يقصدن بهذا الصنيع الرمز الى البحر واسماكه مما له دخل فى شفاء نبوية وحفظها من سطوات الجن عمار البحار كما اتخذت لها الوسائل الاولى في حفظها من فتكات الجن عمار المدن والقفار

قالت فتحية : فلم ارد ان اشهد هذا العمل البارد . والمنظر السمج . فتسللت من بينهن وأسرعت الى منزلي مستعيذة بالله من موت العقول والافهام الذي

يعقبه حياة الخرافات والاوهام

وسكتت نبوية برهة من الزمن ثم استأنفت كلامها قائلة : حقا إن من شاهد هؤلاء النسوة الصارخات القافزات الملتبطات في حفلة يقمنها على ضفاف النيل الادنى ـ خيل اليه انه يشهد حفلة تقيمها نساء قبائل نيام نيام والشلك والدنكا التى تسرح في ضفاف النيل الاعلى

لم ننصفك ايها النيل السعيد ، ولم نقابل احسانك بمثله : أنت تفيض على الامم النازلة على ضفافك الخيرات والبركات وهم يمتهنونك ويلوثون اكنافك بالخرافات والخزعبلات

هالتك فظائع المتوحشين الذين يقطنون حول ينابيعك العليا فهربت منهم وأقبلت نحو هذا القطر تبغي ملجئا من تلك الفظائع ـ لدى أهله الذين تأدبوا بآداب الدين الاسلامي . واخذوا حظاً من التمدن العصرى . حتى اذا دلفت اليه رأيت فيه الكثير مما انت منكر له ٠ وهارب منه . فمن يلومك اذا القيت بنفسك في بحر الروم يائسا من أناسك . مفضلا سكنى مطمورة العدم . على مساكنة تلك الشعوب والامم . التى لا ترعى الذمم . ولا تشكر على النعم



شيء عن الخوارج (١)

الخوارج اسم لفرقة دينية سياسية شديدة التطرّف قوية الشكيمة . ظهرت في صدر الأسلام على أثر وقوع الخلاف بين علي ومعاوية وتطاحنهما في تلك الحرب المشؤومة

وكان أول مانقموا من عليّ كرم الله وجهه أنه رضى بالتحكيم فاعتزلوه كما اعتزلوا خصمه معاوية . ثم زاد بهم الحقد والغضب فكفّروا المسلمين كافة . واستحلوا دماءهم وأصلوهم من العدوان نار حامية .

وقد كان ظهور هذه الفرقة من بين الطائفتين المتصادمتين كظهور الشرارة الكهربائية انبعثت بقوة من خلال سحابتين متماستين ثم أخذت تدمر جميع ما تصادفه في طريقها

وقد غلب الجمود على رجال هذه الفرقة فكانت تعاليمهم ومبادئهم التى يدعون اليها متحجرة قاسية لاتلائم الوسط الذي كانوا عائشين فيه ولا الوسط الذي يخلفه ولذلك بادت تلك الفرقة واضمحلت كما تضمحل كل أمة أرادت أن تحول طبيعة الكون الى تعاليمها لا أن تحول تعاليمها الى ما تتطلبه طبيعة الكون وتستدعيه سنن الاجتماع

كانت هذه الفرقة تستمد مبادئها السياسية من مجرد الدين وتعتمد فى ذلك على فهمها من دون أن تجعل للمصالح الدنيوية والمرافق البشرية دخلا فى أمر التشريع وأوضاع السياسة .

وكل شيء يمكن أن يكون مصدره النصوص الدينية وحدها أما السياسة فلا يمكن قط أن تستغنى بالدين ونصوصه عن طبائع الأمم ومصالح البشر ومقتضيات

(١) كتبت سنة ١٣٢٨ ﻫ وسنة ١٩١٠ م

العصور وتقلبات الدهور

وقد شغلت هذه الفرقه الخلفاء من لدن على الى الدولة الأمويه الى صدر من خلافة بنى العباس . فكان من أبطالهم في زمن بنى أمية قطري بن الفجاءة الذى كان يخاطب نفسه ويحضها على القتال بمثل هذا البيت :

فصبرا فى مجال الموت صبرا　　فما نيل الخلود بمستطاع

ومن أبطالهم في زمن بنى العباس ابن طريف الذى قتله يزيد بن مزيد المعني . ورثته أخته فقالت :

أيا شجر الخابور مالك مورقا　　كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يُريد العزّ الا من التقى　　ولا المال الا من قنا وسيوف

وقد قيض الله للعباسيين بيتاً من أكبر بيوت العرب استعانوا به على مناجزة الخوارج وفل غربهم وكف عاديتهم وهو بيت (معن بن زائدة) الجواد المشهور كما استعان الأمويون على خوارج زمانهم ببيت مثله وهو بيت (المهلب بن أبى صفرة) الشهير فلم يزل أولئك الابطال في مراس وكفاح مع تلك الفئة الخارجة حتى أبادوها واستأصلوا شأفتها . اللهم الاّ بقية منها اليوم في مسقط وطائفة فى زنجبار وأخرى فى جزيرة جربة فى المغرب الأوسط

ومن أشهر أيام المهلب مع الخوارج « يوم سَلّى وسَلّيرَى » (بفتح السينين وتشديد اللامين . وقصر الألفين) . وقد قال المهلب في ذلك اليوم لأصحابه « أعدوا مخالي فيها حجارة وارموا بها وقت الغفلة . فانها تصد الفارس وتصرع الراجل » ففعلوا وقال رجل من جماعة المهلب لقد صرعت بحجر واحد في ذلك اليوم ثلاثة من الخوارج أصبت من الأول أصل أذنيه والثانى أصبته فى هامته ثم رميت فأصبت الثالث .

فقال بعض الشعراء يعير المهلب بذلك :

(أتانا بأحجار ليقتلنا بها وهل تقتل الابطال ويحك بالحجر)

ولما عظم الخطب فى ذلك اليوم على الخوارج واشتدت نكاية المهلب بهم لجأوا الى الحيلة . فنادى منادٍ من قبلهم : ألا إن المهلب قد قتل. ولما نمى الخبر الى المهلب خشي على أصحابه الهزيمة فركب برذونا قصيراً أشهب وأقبل يركض بين الصفين وان احدى يديه فى القباء وما يشعر بها (اى أنه حين بلغه أمر النداء كانت يده في جيب قبائه فأسرع على البغلة وقد حال الذهول بينه وبين سحب يده من جيب قبائه) وهو يصيح : أنا المهلب أنا المهلب ! فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا ! ومن ثم كان الخوارج يلقبون المهلب بالساحر . لانهم كانوا يدبرون الامر فيجدونه قد سبق الى نقض تدبيرهم

وله في مخادعتهم أخبار مستطرفة : من ذلك انه ألقى صرة دراهم فى جيشهم . وألصق عليها ورقة باسم الحداد الذى يصنع السلاح لهم . فما كان من أميرهم إلا أن قتل الحداد ظنا منه أن الدراهم انما أرسلت اليه ثمن أسلحة صنعها للمهلب فانكر قتله بعض زعمائهم ثم استشرت الفتنة بينهم بسبب ذلك . وتفرقوا أيدى سبا

وللمهلب أولاد بلغوا الغايه في النجدة والجود والنجابة أشهرهم يزيد والمغيرة وكان المغيرة مع أبيه في وقعة (سلى وسليرى) فكان اذا نظر الى رماح العدو قد تشاجرت في وجهه (اي اختلفت أعوادها وأصبحت كأغصان الاشجار متداخلة متشابكة لايمكنه المرور بينها) نكس رأسه على قربوس سرجه وحمل من تحتها فبراها بسيفه . وأثر في أصحابها حتى تخرمت ميمنتهم (أي تشتت) .

وكان المغيرة أشد ما تكون الحرب أشد مايكون تبسما . وكان أبوه يقول : ما شهد المغيرة معي حربا قط إلا رأيت البشرى في وجهه . ويذكر القراء مارواه الراوون عن كتشنر باشا ورباطة جأشه فى وقعة أم درمان وانه كان يدير رحى الحرب وطرف السيكار فى فمه .

ويكفي في مناقب المهلب أن الحجاج على خبثه وعنجهيته كان عارفاً فضله شاكراً له حسن بلائه في حرب الخوارج . ولما فرغ المهلب من أمر الخوارج وفض جموعهم أثنى عليه الحجاج ونوه بذكره وقال له : إنه لولاك لما تمت الغلبة ولما تحقق النصر . فما كان من المهلب الا أن أجابه بهذا الجواب الدال على شدة تعقله وكبر نفسه وسموّ أدبه : « إنا والله ما كنا اشدّ على عدونا ولا أحد - أى كان العدو أيضاً ذا شدة وحدة مثلنا - ولكن دفع الحقّ الباطل وقهرت الجماعة الفتنة والعاقبة للتقوى . وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحببناه من العجلة » يقول الرجل ان النصر لم يكن لشجاعة فيه أو لتدبير عول عليه وانما هو الحق من طبيعته أن يخذل الباطل ولا سيما اذا كان الحق في جانب الجماعة (وهو ما نسميه اليوم بالامة والرأي العام) فان الفتنة مقهورة البتة فالفضل اذن للامة وللحق الذى يؤيدها لا للمهلب . وهو درس أخلاقيّ جليل جاد به علينا المهلب فيجدر بنا أن نتدبره . وأن نحذو حذوه فيه وندع كثرة التبجح والافتخار .

وقد زحف الخوارج مرة على البصرة فاحدقوا بها من كل جانب وأخافوا أهلها حتى فر معظمهم منها . فهزمهم المهالبة عنها شر هزيمة . وفي ذلك يقول يزيد ابن المهلب من قصيدة :

(ومن يخش أطراف المنايا فاننا لبسنالهن السابغات من الصبر)

(فان كريه الموت عذب مذاقه اذا مامزجناه بطيب من الذكر)

(وما رزق الانسان مثل منية أراحت من الدنيا ولم تخز في القبر)

وهل سمعت أيها القارىء شعرا أدل من هذا الشعر على حب المجد والشغف بحسن الاحدوثة من وراء الصبر على المكاره والقيام بجلائل الاعمال ؟ !

يقول في البيت الاول : اذا كان غيرنا يهاب الموت فاننا قد وطنا نفسنا

على الصبر في سبيله

ويقول في البيت الثاني : مهما كان طعم الموت مرا فان توقع الذكر الجميل يجعله طيب الطعم حلوَ المذاق

أما البيت الثالث فغاية في الابداع والحسن : يقول فيه ان السعادة كلها في أن يجتاز الانسان هذا العالم ثم يصل الى قبره نقيا من خزاية تلحقه . أو عار يلتصق به .

أما بسط آراء الخوارج وذكر تعاليمهم الدينية فليس هذا محله وانما نقول ان جماعة من أئمة الاسلام اتُهموا بميلهم الى الخوارج مثل عِكرمة مولى ابن عباس ومالك بن أنس رضي الله عنهما حتى زعموا ان هذا الاخير كان يذكر عثمان وعليا وطلحة والزبير ويقول : « والله ما اقتتلوا الا على الثريد الاعفر » (الاعفر الذى لونه العفرة وهو لون ضارب الى الحمرة ولون الثريد كذلك) يقول ان القوم لم يريدوا في محاربة بعضهم بعضا الا الامارة وزبرج الدنيا !

وروي عن الحسن البصري مثل هذا القول لكن بلهجة أخف وتعبير الطف . فكان اذا جلس تمكن فى مجلسه وذكر عثمان فترحم عليه ثلاثا . ولعن قتلته ثلاثا . ويقول لولم نلعنهم للُعنا . ثم يذكر عليا فيقول لم يزل أمير المؤمنين علي رحمه الله يتعرّفه النصر (أي يواصله ويلازمه) ويساعده الظفر حتّى حكّم (بتشديد الكاف أى قبل حكومة الحكمين) ثم يستحضر الحسنُ فى ذهنه عليا . ويقبل عليه مسائلا معاتبا ويقول له : فلم تحكّم والحق معك ؟ ألا تمضى قُدُما لا أبالك وأنت على الحق ؟ (قدُما) بضم القاف والميم . أى أما كان الايق بك ان تبقى فى سيرك الى قدّام مادام الحقّ معك فلمَ وقفتَ وشغلْتَ نفسك بالتحكيم وهو علالة علّلك بها أولئك البغاة الدُهاة

ياسبحان الله كيف يقال هذا القول لامير المؤمنين والمؤرخون يقولون

إن التحكيم لم يكن من رأيه بل انه قاومه جهده حتى قسره عليه أنصاره قسرا . فهل التاريخ يكذب ؟ أو أن عند الحسن البصري من ذلك علما لم يصل الينا ؟ اللهم اكشف عنا حُجبُ الشبهات كي لا نضلّ ونشقى

طريقة جديدة

في التعليم الابتدائي [١]

كلّفني بعضهم مرة أن أكتب له قولاً ينشره في الجرائد : ما له أنه ألف جمعية أدبيـة وطنية الخ وان اعضاءها كل من فلان وفلان . وان قانونها كذا وميعاد الاجتماع يوم كذا في موضع كذا . وقد صدقته لانه لم يخطر ببالي أن يحتال قوم على طلب الشهرة بهذا الضرب من الاحتيال . ثم تبينت أن الخبر مختلق وأن الجمعية وهمية . وكل ما أراده ذلك الرجل أن يذكر اسمه على صفحات الجرائد فيكتسب شهرة باطلة . ويعد في زمرة خادمي الوطن بالكذب . وحبذا الوطن وخدمته . ولـكن لا حبذا الخداع ووصمته .

وبعد أيام زارني فاضل آخر أعرفه شديد الاهتمام بأمر التعليم وفحص أساليبه واختيار أقرب الطرق الموصلة اليه . وقد أدته الفكرة أخيراً الى طريقة جديدة فى تلقين الأحداث مبادىء العلوم لم يسبقه اليها في غالب الظن سابق . وقد أحب عرضها علي وأخذ رأيي فيها .

ولكن أول ما خطر في بالي أن الرجل يريدني على كتابة شيء يتعلق بطريقته الجديدة للاعلان عن نفسه . والتنويه بذكره . كما حاول صاحبنا الاول

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٧ ﻫ و ١٩٠٩ م

الذي ألف الجمعيات . وعقد الاحتفالات .

فسألته وهل أعلنت أمر طريقتك ؟ قال كلا . وانى لا اريد اعلانها ما لم أتحقق فائدتها . وأستوثق من نجاحها .

فاستغفرت في سري مما أسأت الظن بالرجل وأ كبرت همته . ثم سألته هل أن طريقته لم تزل نظرية يهيئها في أعماق النفس . أو هي عملية يمارسها في علم الحس ؟ قال ان له سنتين في تجريبها وتطبيق نظرياتها . وإنه قرأ لي مقالات فى بعض الجرائد دلّته على أن لى رأيا في التعليم . فاحبّ أن يكشف لى عن طريقته الجديدة لارى ما اذا كانت نافعة فيزداد نشاطاً وثقة بحسن المصير . أولا فأنبهه الى مواقع الخطأ والتقصير . ثم استزدته بياناً عن حقيقة خبره فقال :

نبهني الى هذه الطريقة في التعليم الابتدائي ماشاهدته فى الاطفال حين أول تعودهم ممارسة الاعمال . وتعلمهم أسماء الاشـياء : فان الطفل لا يلقن كلمة ولا يعلم شيئاً ما لم تعرض مناسبة لان يتكلم ويعلم . فاذا عرضت المناسبة : مثل أن يرى تفاحة ويشتهي أ كلها فتقول له امه : « أتريد تفاحا » ؟ ثم تناوله التفاحة . فتكون بذلك قد علمته أن هذا العمل يسمى أ كلا . وان هذه الثمرة تسمى تفاحة . واذا لم يبق اسم الا كل والتفاحة فى حافظته من أول مرة كانت المرة الثانية كفيلة بذلك .

يتعلم الاطفال أسماء الاشياء . ويدركون بعض المعلومات الاوليّة على هذه الصورة فتنتقش على أذهانهم . وتثبت فى نفوسهم . ولو لم يفعل أولياؤهم ذلك بل كلفوهم حفظ الاسماء وادراك معـانى الامور من دون مناسباتها لملّوا وما أطاقوا الحفظ .

فلو أريت الطفل سكيناً وقلت له : هذه الاداة اسمها «سكين» . وأ كلت أمامه برتقالة وقلت له : هذا الفعل اسمه « الا كل » لمـا حفظ ما أردته منه ولما

أدرك الفائدة التي تستعمل من أجلها السكين .

أما اذا كانت البرتقالة بيده وهو يتلمّظ لأكلها . ولا يدري كيف الوصول الى لبّها . وقلت له : أتريد سكيناً تقشرها بها ؟ وكان لا يدري ما هي السكين ثم أحضرتها له . فانه حينئذ يحفظ اسمها ويقف على سرّ الانتفاع بهـا . ويعلق ذلك في نفسه أفضل علوق .

والطفل لا يتعلم أسماء الأثمار وحدها ثم أسماء الاطيـار كذلك ثم أسماء الادوات والاعمال الخ وانمـا يتعلمها على غير ترتيب وتُعرض على ذهنه متداخلة وفي أوقات متخالفة . فبينما تراه يتعلم اسم ثمرة واذا به يضطر الى أن يتعلم اسم اداة أو متاع أو كيف يأكل أو يمشي أو يزاول عملا من الاعمال . فتبقى حافظته مستعدّة للفهم . وهو نشيط للسؤال والبحث .

لاحظت هـذا في الاطفال فقلت ما ضرّنا لو علّمناهم — متى وصلوا الى سنّ التعلم — مبادىء العلوم على هذه الصورة ؟ فنوجد للطفل مناسبات ونعرّضه لحالات تلجئه معها لان يسأل ويستفهم عن امور وجزئيات من علوم وفنون مختلفة . فيكون جوابنا له مرة من هذا الفن . وتارة فى ذاك العلم . من دون أن نخصص لـكلّ فنّ وقتاً بعينه نشغله كله بالقاء مسائله على الناشيء فتَملّ نفسه . ويكلّ ذهنه .

قلت له : فهمت أسلوب طريقتك بالجملة . ولكن اريد أن أعلم كيف جرّبتها ؟ وهل بدت لك بارقة نجاح فيها ؟

قال أجل . واني لما خطر لي هـذا الخاطر عرفت أنه عمل تحت التجربة . يحتمل النجح والخيبة . وان الاجدر بي أن أكتم أمره . الا على قدر الاحتياج فجعلت أطلب من أفراد اسرتي وأصدقائي أن يسمحوا لي بأولادهم اعلّمهم لهم . وأعتني بتربيتهم . فرَاعهم هـذا الطلب واستغربوه . وقالوا كيف تتنازل

لتعليم الاطفال . وأنت في الذروة العليا من الكمال ؟ قلت هكذا اريد وأتمنى كتم خبري الآن خشية القال والقيل . وسوء التعليل والتأويل . واذا اتفق أن درى دار فقولوا ان الاشياخ من أُسرته كلفوه أن يعلم أولادهم مبادىء العقائد تكليفاً .

ثم شرطت على أولياء الاطفال شروطاً . هذا فهرستها :

(١) أن يكون عدد التلامذة محدوداً لا يتجاوز العشرين .

(٢) أن يكون نصفهم ذكوراً . ونصفهم اناثاً

(٣) أن يكون سن التلميذ والتلميذة بين التاسعة والثانية عشرة من عمرهما

(٤) أن يكون الطفل معافى فى بدنه . مضموناً فى أدبه .

(٥) أن يكون مجيداً لمبادىء القراءة والكتابة والحساب .

وقد حفظت لنفسي الحق فى أن ارفض قبول أيّ ولد لم تتوفر فيه هذه الشروط . واذ كان هذا العمل وطنياً محضاً لم أكلف أولياء التلامذة بغير النفقات الضرورية . وما كنت أستوفيها الا فى آخر الشهر : فكنتُ أحسب ما أنفقه من أجرة محل وثمن فرش وأدوات وحبر وكتب ثم أقسم المجموع على عدد الولدان وأتقاضى من كل مايخصه

فقلت له : عقلت مغزى اشتراطك لكل هذه الامور . سوى الجمع بين الاناث والذكور . وقد أذكرتني بالمرحوم قاسم بك أمين

قال أما لاحظت اشتراطى ان تكون الوليدة حديثة السن وان يكون الوليد مضمون التربية وافر الادب . فلا اعتراض للفقهاء اذن

والغرض من الجمع بينهما اعداد كل جنس من الذكور والاناث لمستقبل يعرف فيه وظيفة الجنس الآخر . فلا يخطىء فى التقدير والفهم. وان الكلام فى هذه الواجبات الجنسية على مرأى ومسمع من أفراد الجنسين يكون له من التأثير

الحق ما ليس لغـيره . هكذا أشعر في نفسي . وليس الامر سوى تجربة . فلا تعترض ما لم تر النتيجة

قلت وهل من مانع لزيارة مدرستك ، وماذا سميتها ؟

قال انمـا أتيتك لأجل أن أدعوك الى زيارتها . وقد سميتها « الحسين » تفاؤلا باسم السبط الاصغر سيدنا الحسين واحياء الذكره وذكر ما كان عليه من الشهامة والشجاعة وكريم الخصال . فيكون من ذلك ان شاء الله نصيب وافر لتلامذة مدرستي الجديدة . واذا صحت التجربة ونجح المشروع . ننشيء قسما مدرسياً أعلى نسميه « الحسن » على اسم السبط الا كبر رضي الله عنهما وتعم هـذه الطريقة أو مدارس « الحسين » و « الحسن » في طول البلاد وعرضها . ورجائي أن يقبل الاهلون على هذه المدرسة لما يرون من نجاح تلامذتها في التربية وتحصيل العلوم

فقلت وما هي العلوم واللغات التي يتعلمونها في « الحسين » قال انه لا يوجد فيها لغات سوى لغتنا الوطنيـة . فاني أرى أن تعليم الناشيء وهو في سن الصغر لغة أجنبية يفسد ملكته وذوقه في لغته العربية ويضعف استعداده للتمكن منها . فاللازم أولا أن يتذوقَ الطفل من ملكة لغته ويُشربَ قلبـه أسلوبها وبلاغتها ثم له في مدرسة « الحسن » ـ ويكون سنه خمس عشرة سـنة ـ أن يتعلم ما شاء من اللغات الاجنبيـة . أما العلوم فهي النحو والصرف واللغة وآدابها والاملاء والفقه وتفسير القرآن والحديث والعقائد والاخلاق والجغرافيا والتاريخ الاسلامي والتـاريخ العام . ولا تعطى تلك العلوم في كتب خاصة ولا في وقت خاص وانما تلقى مسائل من كل فن لعروض كل مناسـبة وسنوح كل فرصة حتى إني أحيانا أقضي ساعات وأنا أفكر كيف أخترعُ مناسـبة أحمل التلامذة بسببها على فهم هذه المسـألة من ذلك العلم وأبعث في نفوسهم الشـوق لمعرفة ما قاله العلماء فيها .

والعمدة في تقرير هذه العلوم أن يُلقى على الناشئين قطع شعرية أو نثرية من كلام العلماء وفلاسفة الشعراء تتضمن مسـائل من العلوم المذكورة . وانقبّ أنا بنفسي عن قطع يكون فيها ما يحمل الطلاب على التسـاؤل عن مضامينها . وتفهم ما تشير اليه من مسائل العلوم ومختلف الفنون ·

ويكون بيد كل تلميذ عدة كراريس لـكل فن كراسة · واكلف التلميذ أن ينعم نظره في كل مسـألة ويميزها عن أختها . ثم يعرف إن كانت من هذا العلم . أو ذاك العلم . ويلحق كل مسـألة باخواتها ويقيدها في كراستها الخاصة بها فلا يمضي على التلميذ حين من الزمن حتى يرى الكراريس كبرت وتعددت صفحاتها وتكاثرت مسائلها. وقامت بنفسها. فتكون كراسة للفقة وأخرى للعقائد . وثالثة للنحو . ورابعة للجغرافيا . وخامسة للتاريخ . الخ

وليس الشـأن أن نحشر المسائل في الكراريس حشرا ونكثرها له اكثارا ونغرب فيها إغرابا . وانما الشأن أن ننتقي له من مباديء العلوم والفنون مايليق بسنه . ويمكن أن يثبت في نفسه . ويكون أساسا للعلوم العاليـة . ولا تتجاوز الدروس في اليوم أكثر من أربعة. ويتخلل أوقاتها ساعات كثيرة للعب والرياضة والخروج الى المروج والحقول ولفت أذهان التلامذة الى ما يحيط بهم من أحوال الكون وظواهر الجوّ وتعويدهم الملاحظة وشدة المراقبـة ، أقوم على ذلك كله بنفسي وارشادي فأكون بمثابة معلم لهم. وَحكم أقضي بينهم وأخ وصديق ومؤانس بحيث يتفقدونني اذا غبت ويتلقونني ببشاشة اذا حضرت ويضمرون لي في نفوسهم كل اخلاص وحب. وأتجنب في كل ما ألقيه عليهم كلام السوء . وما فيه خنونة ومجون . حتى اذا بَدَرتْ من أحدهم بادرة من هذا القبيل أنبته وزجرته وبينت له فحش قوله وبعده عن قوانين الادب واللياقة لا سيما وأنه صدر منه ذلك على مسمع من رفاقه الادباء الذين ينفرون من سماع مثل هذا الكلام .

فقلتُ له وهل أنت الآن سائر في هـذا الطريق التعليمي في مدرستك ؟ وهل آنست النجاح الذي تنتظره منها ؟ قال أنا لا أعلم بنفسي إن كان حصل النجاح المطلوب أو لم يحصل . لان المرء من طبعه أن ينخدع في تقدير عمله وكل ما هو منسوب اليه . فتراه يعظم من شأنه أكثر من اللازم . ويطرئه باعظم مما يستحق وعلى المرء اذ ذاك أن يرجع الى رأي الفضلاء ويعتمد شهادتهم . وهذا ماقصدتك من أجله وعوّلت علي حكمك فيه. اه

أقول فاذا كنتَ أيها القاريء تريد أن تعرف مبلغ نجاح هذا الفاضل فى طريقته التعليمية فانتظرني صباح الغد فى أي مكان شئت كيما نذهب معاً الى تلك المدرسة ونقف على حقيقة أمرها . وسر التعليم فيها

* * *

جاءنى القاريء في الصباح وطلب أن يرافقني الى مدرسة ذلك الفاضل والاطلاع على طريقته الجديدة في تربية تلامذته وتعليمهم مباديء العلوم ومبلغ تأثيرها في نفوسهم

وكانت المدرسة في ضواحي المدينة بعيدة عن مثارات اللغط والجلبة . وربما أراد صاحبها بهذا الاعتزال أن يستخفي عن الناس . ويكتم أمر مشروعه ريثما يستتب ويثبت . والا فكثيرا ماحالت مشوزات الاصـدقاء بين العامل وبين تنفيذ أو تجربة مانواه من الاعمال .

وليست المدرسة متسعة . ولـكنها ذات ساحة للعب الأولاد ونوافذ كبيرة يتخللها النور والهواء . ولا ستائر عليها ولا طنافس في أرضها . وانما هوخشبها يلمع من كثرة المسح والتنظيف .

وفي زاوية المـكان زير حسن الشكل نقي المـاء . يشرب التلامذة منه بواسطة كأس بلور يتناولون به الماء من صُنبور (حنفية) في أسفل الزير .

وجدران الغرفة مغشّاة بخرائط جغرافية وبرسوم ملونة تمثل حيوانات مختلفة وآثاراً قديمة ومناظر طبيعية ترتاح الاولاد الى رؤية مثلها . ويساعد الاستاذ في ادارة أعمال هذه المدرسة ضابط وخادم كلاهما معروفان بالامانة والصدق وحسن الاخلاق . وهذا كل مايطالبان به أما أمر التعليم فمنوط بالاستاذ نفسه

وفي المدرسة مقعدان أحدهما للذكور ووراءه آخر للاناث . وأمام كل تلميذ صندوق وفيه دواة وقلم وعـدة كراريس لطيفة الحجم . متقنة الصنع اصطنعها الاستاذ لتلامذته خاصة . وملصق على ظاهر كل كراسة ورقة مكتوب عليها اسم التلميذ . واسم العِلْم الذى تقيد فيه مسائله

وقد اتخذ الاستاذ لتلميذاته جلبابا أبيض ليس بالـكثيف ولا الشفاف يلبسنه لحين خروجهن من بيوتهن . فيدخلن فيه رؤسهن بحيث ينسـدل على شعورهن وأعناقهن . وينطبق على سائر جسومهن الي ماتحت ركبهن ماعدا فتحة من أعلاه تظهر منها وجوههن . وفتحتين أخريين تبرز منهما اليدان للـكتابة وتناول الكراريس ومزاولة مايلزمهن عمله

ومن زار هذه المدرسة ورأى ترتيبها وآداب تلامذتها ومعلميها خيل اليه انه في عالم خيالى طالمـا حنّ اليه الحكماء . وتغنى بوصفه الشعراء . وان سكانها ليسوا ممن نعرف من البشر . وانما هم ملائكة أطهار تقرأ الصدق والاخلاص والجد والعفاف في صفحات وجوههم ومطاوى أقوالهم وأعمالهم

ولم يكن صاحبنا في مدرسته فانتظرناه في غرفة خاصة حتى اذا جاء دخلنا معه الى حيث يوجد التلامذة . فنهضوا سراعا بخفة ولباقة ثم أشار اليهم الاستاذ فجلسوا .

وقد تفرّست فيهم فرأيت مخايل النجابة تماوج على جباههم . وتباشـير الرجولية تقطر من أعطافهم . وقد راقني حسن زيهم ونظافة ملابسهم ووفور أدبهم

وهدوءهم . ولـكن هـذا الأدب والهدوء ووجودنا نحن الزائرين لم يمنعهم عن الهشاشة لاستاذهم واظهار الشوق اليه · فكانوا يتلعون نحوه أعناقهم وينظرون اليه مبتسمين مستبطئين شروعه في الدرس . والقاء المسائل .

وحالتهم هذه أعظم دليل عندي على نجاح التـلامذة ومقدرة أستاذهم على إحكام فن التربية والتعليم

وما لبث الاسـتاذ أن نادى أحدهم . واسمه (رشدي) فقام الى لوحة في صدر المكان . وتناول الطبشورة . فأملى عليه الاستاذ :

(وما طلب المعيشة بالتمنى ولكن ألقِ دلوك في الدلاء)

(تجيء بملئها طوراً ، وطوراً تجيء بحمأة وقليـل ماء)

فكتب البيتين بخط واضح ومن دون خطأ في الاملاء سوى كلمة (ملئها) فانه كتبها هكذا (ملأها) ثم قال له اقرأ فقرأهما بصوت جهوري قراءة من يشعر في نفسـه بالمقدرة التامة . ولم يغلط بغير (المعيشة) فانه بدل أن يقرأها مجرورة قرأها منصوبة وكذا كلمة (دلو) فانه قرأها مرفوعة لا منصوبة .

فسألهم الاسـتاذ . هل أخطأ رشدى في كتابة البيتين وفي قراءتهما ؟ قالوا جميعا لم يخطيء في الاملاء لكنه أخطأ في كلمة (الدلو) فانه رفعها مع ان الواجب نصبها

الاستاذ — ولماذا ؟

فتحية — لان (الدلو) هنـا مفعول به لفعل (ألق) والمفعول به منصوب دائما

الاستاذ — وأين فاعل الفعل ؟

فتحية — ضمير مستتر وجوبا تقديره (أنت)

الاستاذ ـ وهذه المسألة من أى فن ؟

فتحية ـ من فن النحو ؟

الزائرون ـ ما شاء الله . ما شاء الله . فتح الله عليك ياشاطرة

أحد الزائرين ـ ولماذا كانت هذه المسألة من فن النحو ؟

فتحية ـ لان البحث فيها عما يعرض لـكلمة (الدلو) من حيث اعرابها وما هي العوامل الداخلة عليها ؟ هل توجب هذه العوامل رفعها أو نصبها أو جرها ؟ والعامل هنا فعل (ألق) وهو يقتضي نصبها لانها مفعولة

الاستاذ ـ وهل بحث المفعول مما قيدتموه في كراسة النحو ؟

فتحية ـ نعم قيدناه. ثم فتشت عن هذه الكراسة بين الكراريس وكشفت فيها عن المسائل التى علمهم اياها الاستاذ في أحكام المفعول به

الاستاذ ـ كيف وجدت يارشدي كلام فتحية ؟

رشدي ـ أصابت ياسيدى في كل ما قالت وأنا أعرف أن (الدلو) مفعول به لفعل (ألقِ) ولكن سهوت . فحسبت آخر الكلمة هو الكاف . وأن الفتحة التى عليه هي علامة المفعولية

الاستاذ ـ والآن ؟

رشدى ـ الآن تنبهت الى أن كلمة (دلوك) مركبة من كلمتين اسم وضمير . وان الاول هو المفعول به المنصوب . فأنا قد أخطأت في رفعى له

الاستاذ ـ للتلاميذ : ان رشدى قرأ كلمة (المعيشة) منصوبة فهل نصبها صواب أو خطأ ؟ وكيف يجب أن تقرأ مفتوحة أو منصوبة أو مجرورة ؟

راسم ـ يجب أن تقرأ مرفوعة لان (طلب) فعل . ولا بد للفعل من فاعل ويكون هذا الفاعل مرفوعا دائما

الاستاذ ـ وماذا تقولون أنتم أيها التلاميذ ؟

التلاميذ ـ لا نقول شيئاً . ولا نظن أن كلمة (طلب) هنـا فعل . كما قال راسم

الاستاذ ـ أصبتم . لو كانت فعلا لكانت مبنية على الفتح وهي هنا مرفوعة ولـكانت دالة على زمان وهي هنا انما تدل على مجرد الحدث . اكشفوا عن بحث الفعل في كراسة الصرف فكشف التلامذة عن هذه المسألة في الكراسة المذكورة. وقرأت التلميذة نازلى بصوت مرتفع

نازلى ــ ان الفعل مطلقا ــ ماضيا كان أو مضارعا أو أمرا ــ يدل على حدث مقترن بزمان . فاذا دل على الحدث من دون زمان لم يكن فعلا وانما يكون مصدرا فالمصدر اذن ما دل على مجرد الحدث . (ثم قرأت من فصـل آخر) وان الفعل الماضي تارة يبنى على السكون وطورا على الضم وحينا علي الفتح . ثم أتبعت نازلى ذلك بقراءة كثير من الشروح والامثلة التي توضح ما تقدم من القواعد

الاستاذ ـ كلمة (طلب) في البيتين على م تدل ؟

التلاميذ ـ على مجرد الحدث : فهي اذن مصـدر لا فعل كما قال راسم ثم استدعى الاستاذ انتباههم الى معرفة صيغة المصـدر وكيف يختلف وزنه وشرح لهم هذه المسألة بغاية الاسهاب والايضاح والتقريب . وقسم الفعل الى ثلاثي وغير ثلاثي وان مصدر الاول سماعي وأوزانه مختلفة اما مصدر غير الثلاثي فقياسي : فمصدر أفعل الافعال دائما . وانفعل الانفعال . وفعلل الفعللة وهكذا . وقد أكثر لهم الاستاذ من الامثلة وكان يكتبها على اللوح . وكلفهم أن يكتبوا جميع ذلك في كراسة الصرف ففعلوا .

الاستاذ ـ فهمتم الآن أن كلمة (طلب) مصـدر لا فعل . فكيف يكون اعراب كلمة (المعيشة) التى بعدها ؟

التلاميذ ـ لا نعلم

الاستاذ ـ ما هو المجرور ؟

التلاميذ ـ هو الذي دخل عليه أحد حروف الجر العشرين

الاستاذ ـ كأنكم لا تعلمون أنه يوجد مجرور بغير حرف الجر ؟

التلاميذ ـ لا نعلم .

الاستاذ ـ ان الاسم كما يكون مجرورا بحرف الجر يكون مجروراً أحيانا باسم قبله . ويسمى الجر بالاسم (اضافة). ثم شرح الاستاذ لهم بحث الاضافة . وأكثر من شواهدها وكلفهم تقييد ذلك في كراسة النحو .

وبعد ذلك التفت الاستاذ الينا وقال بصوت منخفض : انني توصلت بهذين البيتين الى تذكيرهم بعض المسائل النحوية والصرفية التى عرفوها من قبل لتزداد تمكنا من نفوسهم . وقد استخرجت لهم من البيتين مسألتين جديدتين في النحو والصرف . وكان في الامكان استخراج أكثر من ذلك . ولكني أخشى مللهم . فان مسائل العلم اذا أخذت مملولة لا تبقى في الذهن بل تزول حالا . ولنعطف الآن فنستخرج لهم مسائل في الفنون الاخرى بحيث تكون جديدة لم يتعلموها من قبل ثم يثبتونها في كراريسهم . وكان يستشكل عليهم ويبعث اهتمامهم للنظر في البيتين وتقليب الفهم في ألفاظهما ومعانيهما :

فلما أشكل عليهم أمره كتابة ملئها هل تكتب الهمزة على ياء أو ألف؟ فشرح لهم قاعدتها وأمرهم أن يثبتوا ما فهموه في كراسة فن الاملاء . وأشكل عليهم معنى (حمأة) فكلفهم أن يبحثوا عن معناها في معجم لغوي مختصر وهو (مختار الصحاح) فبحثوا ثم سألهم ماذا قال ؟ قالوا انه يقول انمعناها «الطين الاسود » فأمرهم أن يثبتوا ذلك في كراسة فن اللغة وأظهر عجبه منهم اذ لم يسألوا عن قائل هذين البيتين فسألوه فقال انه أبو الاسود الدئلي . وشرح لهم شيئا من خبره .

وكيف كان هو أول من وضع علم النحو. وأمرهم أن يقيدوا ذلك في فن التاريخ. ولما قال لهم ان أبا الاسود كان تابعيا اصطبر هنيهة وجعل ينظر في وجوههم كالمستفهم منهم المعنّف لهم فتنبهت فتحية للامر فقالت: وما معنى كون أبي الاسود تابعيا ؟ فبين لهم ذلك: وعرفهم الفرق بين التابعي والصحابي. وأمرهم أن يأخذوا هذه المسألة في فن الحديث: ثم قال لهم ان أبا الاسود يأمر كلا منكم أن يتخذ لنفسه دلواً ويذهب الى الآبار فيستقي منها الماء فهل أنتم فاعلون ؟ فقالوا كلا! ولكن لماذا قال ذلك أبو الاسود ؟ فقال ان هذا التعبير (ألق دلوك في الدلاء) وأمثاله يذكر ويراد به معنى آخر غير معناه الظاهر: أنتم عرفتم معنى الحقيقة والمجاز من قبل وقد بقي شيء يقال له (الكناية). وشرح لهم الكناية بعبارة غاية في التقريب والسهولة. وقال لهم ان الشاعر كنى - بالقاء الدلو في الدلاء - عن لزوم مشاركة الناس في سعيهم للكسب وضربهم فى الارض لطلب الربح. وبعد أن بيّن لهم ذلك أمرهم أن يثبتوه في علم البيان. ثم قال لهم بم اشتهر أبو الاسود ؟ قالوا انه اشتهر بوضعه (علم النحو) كما قلتَ لنا آنفا. قال نعم اشتهر بهذا في حياته العلمية. ولكن بماذا اشتهر في حياته الادبيـة ؟ قالوا لا نعلم. قال انه اشتهر بالبخل والتقتير فى الانفاق. أو يقال انه كان مغالياً فى الاقتصاد. وهو القائل « لو أطعنا الفقراء في أموالنا لصرنا أسوأ حالا منهم » ثم شرح لهم معنى البخل ومعنى الجود ومعنى الاقتصاد. وما هو المذموم وما هو المحمود من ذلك كله ؟ وأمرهم أن يضيفوا هذه المسألة الى مسائل فن الاخلاق.

كان الاستاذ يلقي هذه المسائل على تلامذته بحذق ومهارة فائقة. وكانوا هم يتلقّونها عنه بفرح وسرور ونشاط. وما أشبههم بفراخ طير يمدُّون أعناقهم الى أمهم ويتسابقون فى فتح أفواههم اليها كيما تزقهم وتغذيهم بما ينمّي قواهم

ثم ختم الاستاذ الدرس. وقمنا الى غرفة الاستراحة. فقال لنا الاستاذ انه

لا يروّي تلامذته من الشعر الا ما كان فصيحاً في لفظه . بليغاً في معناه . ولا يُلقي عليهم قولا غامضاً يتَعايَوْن في فهمه . ولاجل مساعدتهم على الفهم يكلّفهم أن يقرؤا الشعر قراءة تمثيلية . أى مقروناً بالاشارة واظهار العواطف والانفعالات : فهم بهذه الصورة يتهيأون لفنّ التمثيل والخطابة والميل اليهما . والاستفادة منهما . قال : وانى أبحث لهم في كتب الأدب عن أبيات تاريخية ذات قصةّ واقعية فأحفظهم اياها وأفهمهم قصتها وا كلف كلامنهم أن يمثل دور قائل هذه الأبيات أو تلك . ولو كان في الوقت فضلة لأمرتهم أن يمثلوا أمامكم قصة (طسم وجديس) القبيلتين العربيتين البائدتين . وكيف بغت الاولى على الثانية . والاشعار التي قالتها عفيرة الجديسية . وسيكون ذلك في الزيارة الاخرى . إذا أسعدتمونا بها .

***

ثم سألنى الاستاذ عن رأيي في مدرسته : وحكمي على طريقته . فقلت : أعجبني كل ما رأيت ، سوى مسألة اختلاط الاناث بالذكور . فانى بعدُ لم أفهم السرّ فيه ولم أره ضروريا في نجاح طريقتك . لا سيما أن أهل بلادنا على ما تعلم من سوء الظن . وربما كان الجمع بين الجنسين مما يحول دون رواج مدرسة « الحسين » . فضحك المقتنع بحسن طريقته الثابت على المضيّ في أمره . ثم ودعته وانصرفت بغيةَ العودة اليه مع من يرغب من القراء الكرام والسلام



لجاج وزواج [1]

(وديع بك) شاب نبيه . حسن الاخلاق وافر الأدب . لين العريكة . كثير الدرس والاجتهاد ، لكنه مع هذه الفضائل مفرط في الحياء . ضعيف الارادة . كثير التقلب . أمعة فهو يتابع كل انسان على رأيه ، وقد جنت عليه هذه الاخلاق من القلق واضطراب البال ما كاد يضعف جسمه . ويورده موارد البؤس والشقاء

وماذا تفيده دراسته وعلمه وأخذه الشهادت . اذا كان له مثل هذه الاخلاق والصفات ؟ وكان أهله وذووه من الجهل والعناد والاستبداد بحيث لا يراعون له عاطفة شريفة ولا يمكنونه من استعمال حريته حتى في مرجع سعادته ، وأخص شؤون حياته ـ وهو الزواج

العائلات التي لم تؤت نصيباً من الآداب الدينية. وليسوا على شيء من المعارف العصرية ـ تراهم يكرهون فتياتهم على الزواج بمن يريدونه هم وان لم يردنه هن . ويجهرن بكراهته بملء أفواههن

ولعمري ان نكاحا مثل هذا يكاد يكون سفاحا ، بل مهما كانت مضار السفاح ومعراته فلن تصل الى مضار نكاح أسس على الكراهة . ورفعت قواعده على الاكراه . قد يكره الاب ابنته على الاقتران بمن لا تريده بداعي أنه أعرف منها بمصلحة نفسها . وأشد حرصاً على توفير سعادتها ، فهي غرة ساذجة لم تخبر الناس . ولم تكتنه أسرارهم وأطوارهم . ولكن كيف يسوغ للاب أن يكره ابنه الشاب الذي درس العلوم . وتهذب بأنواع الفنون ـ على أن يتزوج بمن لا يميل اليها . ولم يكن على ثقة من أمر طباعها وأخلاقها ؟

---

(١) كتبت سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م

هذه هي المشكلة التي اعترضت (وديع بك) فتورط فيها . وقد كان أكبر العوامل فى هذا التورط ضعف ارادته ووهن عزيمته واستبداد أبيه وطمعه وتهاونه في الدين وعدم الوقوف عند حدوده

وكان أبوه من سروات العاصمة وأشرافها . ثم اشتد به العسر المالى فكان يتعاطى من أعمال الحكومة ما يلحق به وبأسرته غضاضة . ولكنها الحاجة تبلغ بالمرء أكثر من هذا

وقد تعرف ببعض الاغنياء الذين تأثلوا ثروتهم بالسعى والكدح والتقتير في الانفاق . وآل هذا التعرف الى استحكام عرى الصداقة والود بين الاثنين . ولما طلبت الحكومة من أبى وديع ضمانة من أجل الوظيفة التى تريد أن تعينه بها لم يجد من يضمنه سوى ذلك الصديق الغنى . ففعل وضمنه لدى الحكومة على بضعة آلاف جنيه . وبديهى أن أبا وديع أصبح من يومئذ محترماً لصديقه موقراً له . عارفا له يده ومعروفه . وهذا الاخير وان كان ساذجا مغفلا لم يجرب الامور ولم يخبر أطوار الناس لكن له زوجة أوتيت من كل شيء . وبعض ما أوتيته الدهاء واغتنام الفرص لأول سنوحها . فرأت أن تزوج ابنتها الوحيدة من (وديع بك) لما تعلم من شرف اسرته ووفور أدبه واجتهاده ـ مما يبعد أن لا يكون له مع هذه الخلال مستقبل باهر . وتقدم على غيره ظاهر . فاقترحت على زوجها أن يكلم أبا وديع فى الامر ويعرض عليه البنت

أما أبو وديع فلم يكد يذا كر صديقه في هذا الزواج حتى هش له وأقبل عليه بشراشره . وأجابه الى سؤاله شاكراً

أول ما خطر في بال أبى وديع الضمانة التى ضمن بها الرجل وهى مبلغ طائل من المال لا يخاطر به الا من كان بسيط القلب مثل أبى حلمية . وشديد الدهاء مثل زوجته التى قلما تجد مثل وديع زوجاً صالحا لابنتها . وما يدرينا أن رضا أبى

حليمة بالتزام الضمانة كان منشأه الفكر في هذه المصاهرة ؟

ولم يفكر (أبو وديع) وقت الخطبة في أمر الضمانة فقط بل جعل يفكر في ثروة صديقه الواسعة التى تصبح عما قريب نهباً له : يستلف منها ما يشاء . ويحكم فيها بما يريد

ستبلغ الثروة بعد سنين مائة الف جنيه . وأبو حلمية رجل طيب القلب سريع الانخداع فهو لايخيب لأبى وديع رجاء . ولا يردله طلبا. على أن أباحليمة مهما طال عليه الامد فلا بد أن تؤول ثروته يوما ما الى وديع الذي قد تربى تربية استسلام وانقياد ومتابعة . فطوبى لابى وديع اذ ذاك وليهنأ مذ اليوم بهذه الخطبة المباركة والزواج الميمون . كان يجول هذا الخاطر في نفس أبى وديع . ويردد هذه الامانى العذبة في باله . فكان يتلمحز [1] لها تارة . ويحتمله الفرح : فيشير بيديه . ويدور في الغرفة على رجليه تارة أخرى

كل هذا خطر له. أما استشارة ابنه وعرض المسئلة عليه فهذا مما لم يكن يخطر له ببال . وديع وديع كاسمه : فهو لا يجسر على مخالفة أبيه . وان خالفه الآن فهو لا يلبث أن يرجع الى موافقته لما علمنا من أخلاقه

مضى دور الخطبة بين الأبوين . وجاء دور وديع وأصحابه . ولما بلغه الخبر غاب عن صوابه . وكأنه كان يخشى سورة غضب أبيه . فكان لا يفاتحه في ذلك وانما كان يرجع في مشكلته هذه الى أصدقاء يعرفهم . وفضلاء يثق برأيهم

وقد رؤي مرةً في بعض البارات المنتشرة حوالي الاوبرة يشكو الى صديقه (حسنى) ما لقيه من العناء في سبيل هذه الخطبة . فقال له (حسنى) ولكن بلغنى أنك مغتبط بها وموافق عليها ، فأنت اذا اجتمعت بأصدقائك أظهرت الاشمئزاز والنفور واذا خلوت الى أوليائك قلت اني معكم . أفيصح هذا منك ؟

---

(١) التلمحز أن يتحلب الفم ويسيل لعابه اشتهاء لطعام لذيذ

فاحمرّ وجه وديع وجعل يعتذر عن نفسه ويؤكد لصديقه بأنه مازال مصراً علي رفض الخطبة . ولا يأذن باجراء العقد . وانه يحاول الفرار الى خارج القطر بينما تنقضى هـذه المشكلة بسلام . وكان صديقه (حسني) يعتقد صدق قوله كما يعتقد صدق الخبر الذى بلغه من أنه يوافق أهله اذا خلوا به وقد لاحظ أن منشأ هذا التناقض ما عهده من أخلاقه . ثم سأله ولماذا تنفر من تلك الفتاة وتأبى التزوج بها وهي غنية وأبوك يريد ؟ قال نعم ولكنها دَميمة وأنا لا اريد . فما فائدة المال مع فقد الجمال ؟ وما معنى ارادة أبى اذا لم تكن لي ارادة ؟ قال حسني لعل فى أدبها وحسن أخلاقها ما يشفع بقبحها ودمامتها . فقال وديع ومن البلاء أنى لم أعرف من أخلاق تلك الفتاة وطباعها وأطوارها شيئاً . وكل ما أعرفه أنها ليست علي شيء من الجمال فكيف مع كل هذا أقدم على الاقتران بها وأقضي حياتى بالقرب منها . قال حسنى وما أدراك أنها دميمة . فقال له أخبرنى بذلك العارف بها وأنا على ثقة من صحة قوله . فقال له أخشى أن يكون مخبرك يضمر ارادة التزوج بتلك الفتاة فهو يلفتك عنها لتتخلص له ويخلص اليها . وتكون قصته معك كقصة ذاك الذى استشار رجلا فى خطبة فتاة فقال له دعها . فانى رأيت رجلا يقبلها . فأنف منها وتركها . ثم بلغه أن الرجل نفسه تزوج الفتاة فقال له ألم تنهنى وقلت انك رأيت رجلا يقبلها قال بلى : ولكن الرجل كان أباها وهل فى تقبيل الاب ابنته سبة أو منقصة ؟

فقال وديع : ليست قصتنا من قبيل ماذكرت . وأنا مصمم على رفض الاقتران بها مهما أرادونى عليه . اجابه حسنى : لا أراك ممن يقوى على ذلك . وانى أحب لك أن تجيب اباك الى سؤله . وترضى بما يرضاه لك فانه أرفق بك وأعود بالخير عليك

***

مرّ على وديع أيام وشهور وهو يماطل أهله في اجراء العقد وتتميم الخطبة . وكان يزيد في نفوره ما يسمعه من رفاقه وخلطائه : فكان هذا يتأفف أمامه من عاداتنا القبيحة . وكيف أن الشاب يتزوج من لا يعرفها حتى يكون ذلك وسيلة الى الشقاق أو الفراق . ويقول الآخر : ومن العجيب أن معظم شؤون الزواج وأمر الخطبة يكون في يد النساء . فترى ام الشاب أو اخته تخطب له الفتاة لكونها صادفتها في بعض الأضرحة فحيتها الفتاة وآنستها ودعتها الى زيارتها . فتحسب أن هذه البشاشة منها كل أخلاقها وأطوارها فتحبّها وتحمل ابنها أو أخاها على الزواج بها . حتى اذا قضت من الشهور تِسعا . قلبت لأحمائها ظهرَ المجن وأصبحت حيةً تسعى .

ثم يقول قائل من جنبه : واعجبا لهؤلاء الناس ! يحسبون أن الزوجة أكلة يهضمها الزوج بعد ساعتين . أو حُلة يُبليها بعد سنتين . فهم يزوجون ابنهم كيفما اتفق ومن دون تدبر فى العواقب . ياليتهم يعلمون أن الزوجة كالقبر : اما روضة من رياض الجنة . أو حفرة من حفر النار .

ولما أكثروا على وديع بمثل هذا الكلام ضاق صدره . ولم يعد يطيق الصبر علي ما أراده والده عليه. وجعل يتلمَّس الوسائل للنجاة من هذا الزواج . فقيَّض الله له رجلاً داهية يكثر من معاشرة الفقهاء والمجاورين . ووقف من أجل ذلك على كثير من مسائل الفروع . وقد سمع منهم أنَّ مَن قال « كلما تزوجت فلانة فهي طالق » ــ تطلق كلما تزوجها . فأشار على وديع أن يطلق تلك التى يريدونه علي الزواج بها بهذه الطريقة فلا يعود يصح عقده عليها . بل كلما أبرموه انتقض من نفسه . واذا غضب والده عليه فلا يلبث أن يسكت عنه الغضب ويصبر . ثم يرضى ويصفح . فما كان من وديع الا أن قال تلك العبارة التي لقَّنه إياها المتفقه . وقد وضعها الفقهاء لاجل أن يطبّقوا القواعد عليها . ويمرّنوا

الطلاب على تعقل المسائل الفقهية . وتصوير الاحكام الشرعيـة ـ لا لأجل أن تكون صيغة من صيغ الطلاق . ومِعْوَلاً من معاول الفراق . التى طفحت بهـا الكتب وسالت الاوراق .

وديع يهيء فى نفسه المسائل الفقهية والمكايد الشيطانية . وأهلوه يهيئون أدوات الزينة ومظاهر الاحتفال . وما كانوا يبالون بابنهم لما يعلمون من سرعة انقياده وانخذال نفسه لادنى معارضة . وكان هو يعجب لهم ويحار من عدم مبالاتهم بيمينه . ولم يحسب انهم يستهينون به الى هذا الحد . بل غلب على ظنه ان لاهله مع هذا اليمين الذي حلفه شأناً من الشئون .

خفَّ الى بعض المتفقهة الذين يترددون على المحاكم الشرعية. ويتعيشون من وراء الخصوم المتقاضين اليها . وسأله عن قوله « كلما تزوجت فلانة فهي طالق » أما يكون عقده على فلانة باطلاً الى الابد ؟

فتبسم الفقيه وهزّ رأسه . ثم تشاغل عن الجواب . وأخرج من جيبه منديلا وجعل يمسح به ما كان تجمع في آماقه من الرمص . ولحظ في وديع الخمول وضعف النفس . فأطال سكوته . وتظاهر بالعظَمَةِ والكبرياء . ولحظ وديع فيه النزقَ وحدة المزاج . فتصاغر بين يديه وجعل قلبه يخفق وعَرَقه يتحدَّر على جبينه . وكان سمع من بعض رفاقه أن مثل هـذا الفقيه قلما يُفتي فتوى أو يعطي رأيا ما لم ينتفع بشي من المال . ولم يكن معه اذ ذاك شيء من النقود . وانمـا كان في اصبعه خاتم ذهب حسن الصياغة أهداه اليه والد « فلانة » التى تخطبه . وهو يضمر الخلاص منها .

هكذا وديع كان يقبل الهدايا التى كانت تنهال عليه من قِبل أهل (حلمية) ويستـحي أن يرفضها لئلا يجره الرفض الى مناقشات ومعاتبات لايقوى على الخروج من ميدانها فائزاً منصورا إذ كان الحياء يعقد لسانه ويخبل جنانه . وطالما

خذله هذا الخلق : وأفسد عليه عمله .

ولما تناول الفقيه الخاتم أبرقت أسرّته وجعل يديره في أصبعه . ثم التفت الى وديع فقال له : أتحسب يا ابني ان العلماء رضى الله عنهم الذين قضوا حياتهم بل وحياة الامة الاسلامية في خدمة الفقه وتحقيق مسائله وتقييد نوادره ـ يعجزون عن ايجاد حيلة للحالف بمثل هذا اليمين وتخليصه من هذا الفخ ؟ الذى صنع حنايا الفخ وأقواسه يعرف كيف يفتحها وينجى الواقع فيها منها

فساء قول الفقيه وديعا من حيث يحسب انه يسره ويقضى له حاجته . لان وديعا كان ينتظر أن يسمع منه أن لاطريقة للحل من هـذا اليمين ليحتج بذلك على أبيه ولـكن الفقيه التبس عليه الامر ولم يعد في إمكانه الرجوع عن قوله

فرفع وديع رأسه اليه واجماً كاسف البال وقال كيف ذلك يا استاذ ؟ أليس أن الطلاق يلحق عقد الزواج مهما تكرر ذلك العقد . لأنّ كلمة « كلما » كما ـ قال الاصوليون ـ تفيد ذلك . فضحك الفقيه من قوله « الاصوليون » . وعلم أن فقيها أو شيطانا آخر علمه هذا الطلاق . ولقنه حجته . وتساءل في نفسه عما عساها تكون الاجرة التى أخذها ذلك الفقيه من وديع تلقاء تعليمه كيفية ايقاع الطلاق الدورى . ولم يَرْثِ لحال ذلك الشاب الغر من أولئك الدهاة الذين اتخذوا حيل الفقه أحبولة لقنص الطَعام . وجمع الُحطام ـ وانما غلا الدم في جوفه خشية أن يكون حظ ذلك الفقيه من وديع أكثر من حظه منه . فبلع ريقه وكاد يغص به . ثم التفت الى وديع وأراد أن يتمم له الـكلام على المسئلة التى سأله عنها ليحل له الخاتم ويستحق الاجر كاملا وان لم ينفع ذلك وديعاً فقال : يوجد للخلاص من هـذا اليمين طريقتان . الاولى أن يقلد العاقدون مذهب الشافعى فيقع العقد صحيحا من دون أن يؤثر فيه الطلاق الذى حصل قبله قال وديع وكيف ذلك ؟ و« كلما » ماذا نصنع بها ؟ قال الفقيه أتريد أن تتعلم مني اصـو ل الفقه

وأدلته ومدارك الأئمة في المسائل التى اختلفوا فيها من أجل هذا الخاتم التافه الذى أعطيتنيه ـ قال الفقيه قولته هذه بلهجة عنيفة يعرفها مَنْ عاشر أمثال هذا الفقيه الفظ . فما وسع وديعاً الا السكوت والاطراق . وقد تبيغ الدم في وجهه . وكاد يتفصد من أخادعه .

ثم قال الفقيه متبسما متلطفا : والقدر الذى يمكنك أن تفهمه يابنى في الفرق بين قولي الشافعى والحنفي رضى الله عنهما ـ هو ان الاول لايجيز ايقاع الطلاق على امرأة لم تكن زوجة بالفعل وقت الحلف بالطلاق بخلاف الثانى فانه يجيزه في مثل هذه الصورة من صور التعليق ذاهباً الى أن الطلاق الذى علق إنما يصيب المرأة وهى زوجة ومحلٌ لايقاعه فيقع ويبطل الزواج . فضاق صدر وديع من هذه الدقائق الفقهية التى جره القدر اليها وكاد يترك الفقيه ويمضى لسبيله . لولا ان اجتذبه الفقيه من ذيله ومضى في حديثه قائلا : وأما الطريقة الثانية فهى أن يجرى العقد على مذهب الحنفي ويكون العاقد فيه فضـوليا أي لايكون الزوج ولا وكيله ثم ان الزوج يجيز عقد الفضولي بالدخول على المعقود عليها ولا يجيزه بالقول . وتعليل المسئلة أن الحالف انمـا قال « ان تزوجتُ » بصيغة المتكلم يعنى أنا أو وكيلى الذي يمثل شخصي ويكون حـكمه حكمى فاذا زوجه فضولي ودخل عليها الزوج كانت زوجـة له من دون أن يقع في الخارج مضمون قوله « تزوّجت » فاجازته القولية تزوج كعقده بنفسه وتوكيـله . أما اجازته الفعلية فليست تزوجا في اعتبارهم . ولم يكد الفقيه يتم حديثه حتى كان وديع في عتبة الباب يحتـذي نعليه . ويبحث عن عصاه . فتناولها وولى مسرعا الى بعض القهوات وأراد أن يستريح ثمه من تعب البال . وما خامره من الوجد والبلبال .

* * *

ثم مرت على وديع فترة من الزمن تسلط عليه ذووه فيها . ولعبوا بعواطفه

فكانوا يطمعونه بالمال تارة . ويرونه حلمية تارة اخرى . وقد وصفوا له من أدبها ولطفها ومهارتها فى الضرب على البيانو ـ مايكفي اليسير منه لانقياده وخضوعه. كيف وفنون التغرير والاستهواء كثيرة . والمستهوون من أدهى الناس وأمهرهم فى التغرير وفن التنويم . والمنوَّم سريع التأثر قوي الاستعداد

لم يرض وديع الا أن يكون هو العاقد على حلمية لنفسه بنفسه . وذهل عن اليمين الذي حلفه . أما أبوه وحموه وذو مال فانهم قط ما كانوا يفكرون بالفروع الفقهية ، ولا الاحكام الشرعية . وهكذا أصبحت حلمية زوجة لوديع ، وأخذ الجاهلون يهنئون ويباركون ، والعارفون يسبحلون ويحوقلون

يحسب القاريء أن قد انتهت الرواية . وأخذ وديع يستوفي حظه من الغبطة والهناء ، بعد ذلك التعب والعناء

ياويح وديع ! فقد ندم على عقد زواجه بحلمية فحلف أمام بعض أصدقائه قبل دخوله بها قائلا « فلانة طالقة مني بالثلاثة »

ثم ندم على تطليقها ! فاخذ يبحث عن عالم يفتيه بقول ابن تيمية

كان وديع يوم ٤ أغسطس سنة ١٩٠٢ الساعة الثانية بعد الظهر ـ تائها فى أزقة ضيقة كثيرة التعاريج ثائرة الغبار وقد ألجمه العرق وأخذ باكظامه الحر . فكان يتخلل الازقة حتى ينفذ الى شارع النحاسين ثم ينكص على عقبيه فيتيه فى تلك السكك والحارات حتى ينفذ الى شارع بين الصورين فيتأفف ويرجع الى حيث أتى . ويأخذ فى السؤال من المارين عن منزل شيخ كبير من شيوخ الازهر يريد أن يراجعه فى بعض الشؤون الشرعية

رحَّب الشيخ بوديع وآنسه وأذهب الوحشة عنه ببشاشته و نكته المعهودة حتى اذا طابت نفسه ، وتزحزحت هيبة الشيخ عن قلبه ـ سأله عن اليمين الذى حلفه ورجاه أن يفتيه بعدم وقوعه . وأمل وديع أن يستهوي الشيخ بشيء من

الحطام كما استهوى ذلك الفقيه بالخاتم . ولكن خاب ظنه ، وسقط في يده . مذ رأى الشيخ يقطب حاجبيه ، ويكلمه بوقار ، ويحذره عواقب الاستهتار فى الدين والاستهانة بأحكام الشرع الشريف

نعم ان الشيخ ككل الشيوخ يحبون المال . ويعظمون من يولم لهم ويميزهم بشىء من الهدايا . ولكنهم ليسوا كلهم سواء فى الطمع . وخراب الذمة

ان من كبار الشيوخ من أعطته شركة مالية أجنبية ثلاثين ألف جنيه لاجل أن يتوسلوا به لدى من بيده الحل والعقد في استبدال أرض وقف فاستعصم وأبى ومن سوء حظ وديع أن الشيخ الذي قصده كان من هذا الطراز من الذين يخشون الله ويخافون يوما تتقلب فيه الوجوه والابصار . جمع وديع كل قوى نفسه وقال للشيخ أليس الامام (ابن تيمية) هو الذي يقول بأن الطلاق الثلاث الذي أرسل دفعة واحدة لا يعتبر الا كطلقة واحدة ولا يكون ثلاثا مالم يوقعه المرء ثلاث مرات متتابعات أعنى الواحدة بعد الاخرى كما هو نص القرآن ؟ فاستوى الشيخ في مجلسه وانتفض انتفاضة العصفور بلله القطر وجعلت عيناه الصغيرتان تترجرجان في وجهه كنقطتى زئبق ثم صرخ في وجه بديع المسكين وقال له : ويحك أى شىء هذا ابن تيمية ؟ ومن أين وصل اليك قول ابن تيمية ؟ وجعل يحوقل ويبرأ الى الله من شر تلك الفئة التى أخذت في هذه الازمنة المتأخرة تبحث في الشريعة بعقولها وتعتمد على مثل ابن تيمية وتنفث سموم آرائه بين هؤلاء العامة البسطاء .

ثم التفت الى وديع الذي ذاب في غضب الشيخ كما تذوب الشمعة في لهيب النار . وقال : ان من الاحكام الشرعية ما سكت عنه القرآن وترك بيانه للسنة واجماع المسلمين : من ذلك وقوع الطلاق الثلاث اذا أرسلت دفعة واحدة . قال بذلك عمر بن الخطاب وأفتى بوقوعه وحسبك به حجة في الدين وقطبا من أقطابه . نعم

قد يخطىء عمر فى ذلك ولكن ما كانت الصحابة كلهم ليخطئوا وقد بلغهم حكمه. وشاع فيهم رأيه . عمر هو الذي يقول على منبره « من رأى منكم في أعوجاجا فليقومه » هو الذي يقول على منبره أيضاً « أصابت امرأة وأخطأ عمر » خليفة هذا شأنه أترى الصحابة رضوان الله عليهم يحجمون عن معارضته فيما ذهب اليه من مسئلة وقوع الطلاق الثلاث على الصورة المذكورة . كيف وحرية القول والفكر بلغت حدها في ذلك العصر المقدس ؟ كيف وقد ملكت الحرية الصحيحة نفوس أولئك الابرار بحيث ينهض من لا يؤبه له منهم ويهدد عمر وهو على منبره ويقول له « لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بسيوفنا » . أترى الصحابة رأوا هذا الاعوجاج من عمر في هذه المسئلة وهابوا أن يقوّموه ثم مضى على ذلك بضع قرون حتى قام ابن تيمية فقوّمه ؟ كان المسلمون قبل ابن تيمية ضالين حتى جاء جنابه فهداهم ؟ كانوا مقلدين حتى قام هو وأشرع لهم مناهج الاجتهاد والفهم في الدين ؟ وغلبت الحدة على الشيخ فتفوه في حق ابن تيمية بما لا يحسن ذكره مثل أنه ممخرق ومخرف وما أشبه ذلك . ثم أقبل على وديع فوعظه وحذره وخوفه عاقبة الخروج عن قول أهل السنة والجماعة . وأمره لتزام حدود الشريعة . لاسيما ما أجمعت عليه الامة والعض عليه بالنواجذ

كل ذلك ووديع مطرق خاشع وقد جمد فيه كل شيء الا قلبه فقد كان يقفز من صدره لكثرة اضطرابه وخفقانه . ثم تسلل من بين يدي الشيخ تسللا . وغاب عني خبره منذ ذلك الحين ، فلم أعلم ان كان عمل بنصيحة الشيخ ، أو بقى مصراً على العمل بقول ابن تيمية . أما أبوه فما كان يهمه قول عمر أو قول ابن تيمية . وما كان يفكر أن يعمل بأحد الرأيين أو يتقوى بأحد الحزبين وانما كان كل همه أن يأخذ ابنه الفتاة والحساب بعد ذلك على الله .

توزيع الثروة

والصنائع غير الحاجيّة (١)

توزيع الثروة بين الافراد وانتقالها من يد هـذا الى يد ذاك يجري بحسب نواميس اقتصادية : تشبه في اطّرادها ، ودقّة أُحكامهـا ، سائرَ النواميس الطبيعية الاخرى التي قام عليها كلٌّ من الكَوْن المادّي والاجتماع الانسانيّ

ونظام توزيع الثروة أكثر ما يشبه نظام توزيع بذور النبات . وتوزيع هذه البذور يقوم به الانسان نفسه : فيشتري الفلاح التقاوي لاطيانه وينقلها من بلد الى بلد فيكون من ذلك نموّ في الزرع وربح في الكسب .

وقبل أن يهتـدي الانسان الى فنّ الزراعة والحرث وينقل البذور بنفسه كانت هذه البذور تنتقل بوسائط طبيعية دبرتها العناية الآلهية لـكي تبقى أنواع النبات غير معرّضة للفناء والانقراض حتى اهتدى الانسان الى فنّ الزراعة وجعل يساعد الوسائط الطبيعية بنقل التقاوي وتوزيعها .

على أن هذه الوسائط الطبيعية نفسها لم تزل الى اليوم تعمل عملها في النباتات البرية التي لا ينتفع بثمرها الانسان . أو اهتدى الى أنواع أحسن منها فأهملها . وقد ذكر علماء الطبيعة من تلك الوسائط حواصل الطير وسوافي الرياح وغيرها : يأكل العصفور حبا في هذا البلد ثم يطير الى بلد آخر فينقضّ عليه نسر فيأكله ويمزّق حوصلته فيتناثر منها الحبّ في أرض البلد الثانى فيصادف تربة ندية فينمو ويزهر ويرمي بذوره .

تحمل الشجرة أزهاراً في هذه الارض ثم تجف أزهارها وتتناثر منها البذور وتبقى تحت الشجرة حتى تهبّ الرياح السوافي فتحملها وتطير بها الى هذه الفلاة

(١) كتبت سنة ١٩٠٩ م

أو تلك الجزيرة وليس فيهما من هذا النبات . فيعلق بالارض وينشب جذوره فيها . ثم ينمو ويعطى أكله .

فانتقال بذور النبات ـ على هذه الصورة ـ ناموس طبيعي اختاره باريء الكائنات لبقاء الأنواع النباتية فتعيش عليها الأنواع الحيوانية . لولا النبات لم يعش حيوان حتى ولا الوحوش آكلة اللحوم : فان هذه لا يتيسر لها الحياة لو لا فرائسها . ولولا النبات لم يكن لهذه الفرائس حياة ولا معيشة

حقّق الاقتصاديون أن لتوزيع الثروة نواميس طبيعية وطرقا مطّردة مثل تلك النواميس . وان عليها يتوقّف نمو العمران ونظام الاجتماع . كما يتوقف بقاء جنس الحيوان وحفظ أنواع النبات ـ على نواميس توزيع البذور .

وكما تناول علماء النبات نواميس توزيع البذور ودوّنوها علماً هو « علم النبات » كذلك المتأخرون من علماء الافرنج تناولوا نواميس توزيع الثروة وتنميتها ودوّنوها علماً وسموها « فنّ الاقتصاد »

بذور النبات تكون مصونةً في داخل الاثمار والازهار . حوالي البذور يلتف لبّ الثمر ، اللذيذ الطعم ، الطيّب النكهة . على ظاهر الازهار والأثمار لون أحمر قانيء أو أصفر فاقع . يفوح من تلك الازهار والاثمار روائح عطرة يحملها النسيم في طبقات الجو . وينقل شذاها الى كل مكان .

ما فائدة البذور من ذلك اللبّ وهذه الروائح والالوان . كل ما يلزم للبذور أن تنتثر وتنتقل من مكان الى آخر . نعم ولكن من يدلّ الطيور والحشرات والحيوانات على تلك البذور ؟ ومن يغريها بنثرها وبعثرتها من مكامنها ؟ طعمُ الثمار ولونها وريحها هو الذي يغري الطير والحيوان والانسان بالثمار والازهار . فتغتذي بها أو تنتفع باحدى طرائق الانتفاع . ثم تنثر بذورها وتفرّقها هنا وهناك .

تحسين الصناعة واستجادة المصنوعات والتفنن في أنواعها واستحداث ضروب جديدة منها يوماً بعد يوم - هو بمثابة الطعم واللون والرائحة في تفريق بذور النبات. هي نواميس تعمل على توزيع الثروة وانتقالها من الخزائن الى الباعة والصنّاع. كما أن تلك نواميس تساعد على توزيع البذور وتفريقها في الامكنة والبقاع.

ترى الامتعة والأواني والثياب والُحليّ معروضة على الناس من وراء زجاج الحوانيت على أحسن وضع. وأجمل تصنيف. ويلقون عليها أشعة الأنوار الكهربائية فتزداد رونقاً وجمالا. لماذا كل هذا؟ لاجل أن تنتقل الثروة من جيب الى جيب. لاجل أن تتوزّع فلا تبقى في خزانة من لا ينتفع بها. ويحرْمها من هو في حاجة اليها.

اذن يكون إنفاق الاغنياء أموالهم في شراء ما تهفو اليه نفوسهم من الأثاث والرياش والخُرْثىّ والماعون وأدوات المعيشة ومرافق الحياة مهما كانت غالية الثمن يكون انفاقها فى هذا السبيل عملاً طبيعياً وناموساً من النواميس التي يقوم عليها بناء الاجتماع الانساني.

ولكن فلاناً من الناس أنكر أن يكون بذل المال على هذه الصورة مما يمدح عليه صاحبه أو يرتضيه له الدين الاسلامي وأنكر أن تشيّد تلك القصور وتنفق دثور الاموال في حَجَرها وطينها. ونقشها وفرشها. وتهذيبها وتذهيبها. أنكر على أحد اولئك الأغنياء أن يبذل ثلاثين ألف ليرة في تأثيث غرفة واحدة من غرف داره. وعدّ ذلك إسرافاً وتبذيراً. بل فسقاً كبيراً.

أنكر أن ينفق آباء العروسين عشرات الالوف من الجنيهات في إعداد جهاز وعمل عرس وإقامة حفَلات وولائم

أنكر كل هذا واحتجّ لنفسه بما ورد من حرمة بذل المال في الماء والطين

أي في أن يشيد المرء لنفسه عمارة شامخة بأكثر من القدر اللازم لسكناه . والقدر اللازم انما هو دَوْر سفلي : فيه من الغُرَف ما يسعه ويسع عائلته . واحتج أيضاً بعموم الآيات الواردة في النهي عن تبذير المال والاسراف فيه . وان الثلاثين ألف ليرة التي انفقت في تأثيث الغرفة المذكورة كان يسدّ مسدها بضعة جنيهات تنفق في شراء مقاعد خشبية . عليها مراتب قطنية وأربع ستاير تيل (مدام) وبضعة كراسي قشّ والسلام

لكننا اذا قلنا ان النبي (صلى الله عليه وسلم) لبس مرةً حُلةً نفيسة يبلغ ثمنها ثلاثمائة دينار . وكان يكفيه أن يلبس ثوباً من كرابيس يساوي بضعة دراهم يقي جسمه الشريف من الحرّ والبرد . فلماذا لم يفعل ؟ ولماذا بنى أغنياء الصحابة الدور . وشيّدوا القصور . وجعلوا سقوفها من خشب الساج الثمين . وبذلوا في سبيل ذلك المال الكثير . وكان يجزئهم لسكناهم وسكنى أهليهم بيت واطيء . ذو فرش لاطيء . وكوز وحصير . ونقير وقطمير ؟ نقول له هذا ويبقى مصراً على رأيه ، ويذهب الى أن إنفاق الاموال انما يكون في الحاجيات ، وفي الكماليات التى قد تكون قريبة من الحاجيات . أمّا ما وراء ذلك من ضروب الزينة والاستكثار من أدوات الترف ووسائل الرفَه فلا مسوّغ له . بل هو مسئول عنه . واذا كان الماء البارد مما يحاسب عليه المرء يوم القيامة ويُسأل لماذا شربه فأحْرِ بأن يحاسب على شرائه الامتعة والادوات التى لا يستفيد منها صاحبها سوى التكاثر والتفاخر . أو التحاسد والتدابر .

واذا قلنا لهذا القائل إنك تريد بالعالم شراً ، وبالناس فقراً . تريد أن يتعطل الوف من الصناع عن العمل : اذ أن حاجيات الاغنياء وضرورات معيشتهم يكفي للقيام بتحضيرها الف من الصناع مثلا ، فماذا يكون شأن الالوف المؤلفة سوى العطلة ثم الفقر ثم السعي في الارض فساداً . وتريد أيضا أن يقف الاغنياء

من تحصيل الثروة على حد محـدود فلا يتجاوزوا القدر الذي يمكنهم من التمتع بالـكماليات . وهذا الرأي بمثابة تشريع فى الدين : لاننا نكون قد كلفنا الاغنياء أن لايسعوا فى توفـير ثروتهم وتنمية أموالهم ما داموا لاحاجة لهم بالزائد على تكاليف حياتهم

فيقول : انني لا اريد هذا لا اريد أن لايستزيد الاغنياء من المال، ولا أن يتعطل الصناع والعمال . على الاغنياء أن يسعوا في الـكسب والتوفير ما شاؤا حتى اذا جمعوا الأموال الـكثيرة أنفقوا منها فى حاجياتهم ثم أنفقوا جزءاً كبيراً فى زكاة الاموال وفى الصدقات وعمل المبرات وتشييد المساجد والتكايا بدل أن ينفقوها فى الزخارف الزائلة . والمصنوعات الباطلة . وان أموال الزكاة والصدقات تسع الفقراء وتسع أولئك العمال والصناع الذين يكونون تعطلوا بسبب اهمـال الصنائع الـكمالية

وهكذا حضرة (فلان) يقرر أحكامه وينشر آراءه التي يسوغ فيها أن يترك الصناع صنائعهم ويبقوا فقراء عالة على أموال الزكوات والصدقات

والقول الحق في ذلك أن انفاق الأغنياء أموالهم الـكثيرة فى شراء الـكماليات وزوائد المصنوعات ووجود عمال يعملون فى تحضير هذه المصنوعات كل ذلك طبيعي ومشروع فى علم الاجتماع ويصادق عليه الدين الاسلامى ويجيزه كما يجيز انفاق أموال الزكاة للفقراء والمعوزين

ايجاد صنائع كمالية يشتغل بها الالوف من العمال ويرتزقون منها ويلهون عن البطالة والاثم والفساد ويتخلصون من وصمة الفقر والشحاذة ، ذلك الموقف الذي يريد أن يحشرهم اليه حضرة (فلان) ـ كل ذلك من مقاصـد الدين الاسلامي وممـا تستدعيه أصوله السامية وقواعده الاجتماعية ، وقد ذكرنا ذلك بأكثر تبيان فى مقال سبق [1]

(١) راجع ص ٢٦٦ من الجزء الاول من (البينات)

الجواب الحاضر (١)

لاشيء يغيظُ الانسان مثل أن يغيب عنه الجواب في وقت لزومه ثم يهتدى اليه بعد انقضاء الوقت . أو يذكره بعد لاي وتقاعس . وآفةُ مَلَكَةِ استحضار الاجوبة – هو الحياء والجبن : فاذا كان المرء حيياً أو جبانا ووجه اليه سؤال أدركه الوجوم . وضعفت نفسه عن الجواب . فمن ثم كانت تربية الاطفال على الجرأة ، وطبع نفوسهم بطابع الاقدام ، من أفضل ما يساعدهم في مستقبل حياتهم . ويفتح في وجوههم أبواب العمل والنجاح . وقد يكون في الجواب الذي لم يهتد اليه المرء في وقته – ما ينجيه من مظلمة . أو يرد عليه حقا . وذهب بعضهم الى أن البلاغة هي سرعة الخاطر في الجواب : سأل معاوية صحاراً العبديّ عن البلاغة فقال « أن يصيب فلا يخطيء ويسرع فلا يبطيء » ثم اختصر ذلك فقال « لا يخطيء ولا يبطيء » على ان السرعة في الجواب اذا استحسنت فى مواضع فان طول الفكرة واعمال الروية لها مواضع يستحب للمرء مراعاتها . والوقوف عندها . ومما ذكروه من الاجوبة المسكتة قوله صلى الله عليه وسلم وقد سألته السيدة عائشة « متى يعرف الانسان ربه » قال « اذا عرف نفسه » يعني ومعرفة المرء نفسه محال فمعرفة الرب محال (أى معرفته بذاته وكنه ألوهية) . وقال له رجل يارسول الله « انى أكره الموت » فقال « ألك مال ؟ » قال نعم قال « قدم مالك فان قلب كل امرء عند ماله » وقوله قدم مالك يعنى به أنفقه فى سبيل الخير وعمل المبرات حتى اذا لم يبق منه الا القليل لم تحرص على الحياة بل ربما حننْت الى الآخرة حيث أرسلت زادك ومؤنتك من العمل الصالح . وقال بعض الامراء لنصيب الشاعر « هل لك فى الشراب ؟ » فقال له « الشعر مفلفل واللون مُرمَدّ . وانما قربنى اليك عقلي فهبه لي » وكان نصيب هذا أسود اللون

(١) كتبت سنة ١٣٢٦ ﻫ و ١٩٠٨ م

وكان شاعراً مجيداً مقدما في النسيب والمديح . ولم يكن له حظ في الهجاء وكان عفيفا حتى قالوا انه لم ينسب (أى يتغزل) قط الا بامرأته. ويكفي فى الدلالة على حصافة عقله وكبر نفسه جوابه السابق فهو يقول : انه توفرت فيه من صفات الجسم ما يستهجن مثل تفلفل الشعر وارمداد اللون (أى اسمراره كالرماد) فلا يريد أن يضيف الى ذلك الهجنة فى العقل . فهو يطلب من الامير ان يهبه عقله فلا يرزأه فيه . ولا ريب أن يكون لكلامه هذا تأثير فى نفس الامير فيدع شرب الخمر ويضن بعقله . ويحتفظ بكرامته . وقيل لنصيب مرة أنت لا تهجو لكونك لاتحسن الهجاء فقال : بلى والله أتُرانى لا أُحسن أن أجعل مكان عافاك الله أخزاك الله ؟ فقيل له فاهج اذن فلانا فانك مدحته فحرمك . قال « لا والله ما ينبغي أن أهجوه وانما ينبغي أن أهجو نفسى حين مدحته » فقالوا له هذا والله أشدُّ من الهجاء . وكان نصيب ممن وفد على مصر يمدح أميرها عبد العزيز ابن مروان فنال حظوة وقبولا لديه . وقد حدثوا ان عبد العزيز أركب نصيبا مرة على جمل وقد رحله بغبيط (أى شد على الجمل غبيطا وهو اكاف على هيئة خاصة) وألبس نصيبا ثياباً من مقطعات وشي وأخرجه الى مقطم مصر على هذه الحالة وأمره أن ينشد . فاجتمع حوله السودان وفرحوا به فقال لهم نصيب أسررتكم ؟ فقالوا أى والله قال : « والله لما يسوءكم من أهل جلدتكم أكثر » أى ان رأيتم في مايسر فان فى بنى جلدتنا معشر السودان مايسوء من جهل وغباوة . وقال يحيى بن خالد لشريك علمنا مما علمك الله يا أبا عبد الله فقال له شريك « اذا عملتم بما تعلمون علمنا كم ماتجهلون » أى انه لا فائدة للعلم بلا عمل . وأن العمل بالعلم القليل ينميه ويجعله كثيرا . فلا عبرة بكثرة العلم إذن وانما العبرة بان تعمل ويوشك أن يكون هذا هو معنى الحديث الشريف « مَن عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم » . ويقال ان خطيبا فى بعض المساجد لزم خطبة واحدة يعيدها

ويكررها من جمعة الى أخرى بمناسبة ومن غير مناسبة فقال له بعض أهل الحارة اننا سئمنا هذه الخطبة فنرجو منك أن تخطب لنا بأخرى سواها . فقال: تعلموها جيدا واعملوا بمضمونها حتى ألقي عليكم غيرها !

وعُيّرَ أعرابيٌّ لمَذَلةٍ لحقَتْه على باب السلطان فقال :

(أهين لهم نفسى لأكرمها بهم ولن تكرم النفس التى لا تهينها)

أى انه يتوصل الى أن تكرمه الملوك باهانة نفسه لهم ثم ضرب مثلا لذلك فقال اذا لم تهن نفسك لا تصل الى كرامتها وهل هذا صحيح ؟ أو هي السفسطة بعينها ؟

ووضع الجعد (وهو المشهور بالزندقة) ترابا وماء فى قارورة فاستحال دوداً وهوام وقال لاصحابه إنى خلقت ذلك لانى كنت سببا فى تكوينه . فبلغ ذلك بعض آل البيت فقال ليقل الجعد ـ إن كان خالق تلك الدودات ـ كم عددها وكم الذكران وكم الاناث وكم وزن كل واحدة منها ؟ وليأمر التى تسعى الى هذه الجهة أن ترجع الى غيرها . ولما بلغ الجعد هذا السؤال خسيء وخجل .

وقالت زوجة يحيى بن طلحة لزوجها « ما رأيت ألأم من أصحابك : اذا أيسرتَ (أى استغنيت) لزموك واذا أعسرت تركوك » فقال « هذا من كرم أخلاقهم يأتوننا فى حال القوة منا عليهم ويفارقوننا في حال الضعف منا عنهم » وقال زياد لابي الاسود الدؤلي : لولا أنك قد كبرت لوليناك بعض أعمالنا فقال « ان كنت تريدنى للصراع فليس عندي كفاية وان كنت تريد رأيي وعقلى فهما أوفر ما كانا » وقيل لابى الاسود أيضا « أنت والله ظرف لفظ . وظرف علم . وظرف حلم (أى وعاء لكل ذلك) غير انك بخيل » فقال وماخير ظرف لايمسك ما فيه » . وسأل المتوكل أبا العيناء عن دارٍ بناها فقال « رأيتُ الناس بنَوْا

وكان شاعراً مجيداً مقدما في النسيب والمديح . ولم يكن له حظ في الهجاء وكان عفيفا حتى قالوا انه لم ينسب (أى يتغزل) قط الا بامرأته. ويكفى فى الدلالة على حصافة عقله وكبر نفسه جوابه السابق فهو يقول : انه توفرت فيه من صفات الجسم ما يستهجن مثل تفلفل الشعر وارمداد اللون (أى اسمراره كالرماد) فلا يريد أن يضيف الى ذلك الهجنة فى العقل . فهو يطلب من الامير ان يهبه عقله فلا يرزأه فيه . ولا ريب أن يكون لكلامه هذا تأثير فى نفس الامير فيدع شرب الخمر ويضن بعقله . ويحتفظ بكرامته . وقيل لنصيب مرة أنت لا تهجو لكونك لاتحسن الهجاء فقال : بلى والله أتُرانى لا أُحسن أن أجعل مكان عافاك الله أخزاك الله ؟ فقيل له فاهج اذن فلانا فانك مدحته فحرمك . قال « لا والله ما ينبغي أن أهجوه وانما ينبغي أن أهجو نفسى حين مدحته » فقالوا له هذا والله أشدُّ من الهجاء . وكان نصيب ممن وفد على مصر يمدح أميرها عبد العزيز ابن مروان فنال حظوة وقبولا لديه . وقد حدثوا ان عبد العزيز أركب نصيبا مرة على جمل وقد رحله بغبيط (أى شد على الجمل غبيطا وهو اكاف على هيئة خاصة) وألبس نصيبا ثياباً من مقطعات وشي وأخرجه الى مقطم مصر على هذه الحالة وأمره أن ينشد . فاجتمع حوله السودان وفرحوا به فقال لهم نصيب أسرتكم ؟ فقالوا أى والله قال : « والله لما يسوءكم من أهل جلدتكم أكثر » أى ان رأيتم في مايسر فان فى بنى جلدتنا معشر السودان مايسوء من جهل وغباوة . وقال يحيى بن خالد لشريك علمنا مما علمك الله يا أبا عبد الله فقال له شريك « اذا عملتم بما تعلمون علمنا كم ماتجهلون » أى انه لا فائدة للعلم بلا عمل . وأن العمل بالعلم القليل ينميّه ويجعله كثيرا . فلا عبرة بكثرة العلم إذن وانما العبرة بان تعمل ويوشك أن يكون هذا هو معنى الحديث الشريف « مَن عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم » . ويقال ان خطيبا فى بعض المساجد لزم خطبة واحدة يعيدها

الرسالة (صلى الله عليه وسلم) . والتواتر يفيد الثبوت القطعي بطبيعته .

أما السُّنَّة الشريفة فالذي نقل الينا منها بطريق التواتر والثبوت القطعي أحاديثُ قليلة لا أذكر أن فيها حديثا قرر عقيدة من العقائد الاسلامية . وسائر الاحاديث ظنية الثبوت أي إنها نقلت الينا بطريق الظنّ ورواية الآحاد . فيَرْويها واحد عن واحد . ومرادنا بالواحد ماعدا الكثرة التى تفيد التواتر . والراوى الاول مهما استوثقنا منه . واعتقدنا الصدقَ فيه كان بيننا وبينه مجال للظن . واذا زعم زاعم أن فلانا من الرواة لا يمكن أن يكون في نقله ظنّ . ولا في صدقه شك . كان مثبتا له العصمة : إذ أيُّ فرق يكون اذ ذاك بينه وبين النبى المعصوم . نعم إن الرواة الثقات تكون لاحاديثهم صفة أومزية لاتكون للاحاديث الاخرى المروية عن غيرهم فتسمى حينئذ صحيحة ويكون الحكم الثابت بها آكد وأحق بالعمل من الحكم الثابت بغيرها . ولكنها مع هذا لاترتقى الى درجة اثبات العقائد بها بحيث اذا شكّ شاكّ في هذه العقائد حكمنا بكفره ومروقه كالشاكّ فى العقائد الثابتة بطريق التواتر .

فكما قالوا ان الاحاديث الموضوعة لايجوز العمل بها . وان الاحاديث الضعيفة يعمل بها فى فضائل الاعمال كالصلوات والصدقات ـ نقول ان الاحاديث الصحيحة تثبت بها أحكام العبادات والمعاملات والحدود والكفارات وسائر الشعائر الدينية . أما العقائد التى يكفّر منكرها فلا تثبت بهذه الاحاديث وانما تثبت « بالقرآن » وبشقيقه « العقل » فاذا نقل ناقل خبراً عن الالهيات أو النبوات أو عالم الغيب بطريق الآحاد الظنى ثم كلفنا اعتقاد مضمون ذلك الخبر وشد القلبِ عليه ، وهددنا بالكفر ان أنكرناه أو شككنا فيه — لايكون مصيبا فى هذا التكليف ، ولا نكون مكابرين أو متهورين اذا رددناه عليه ، وخوفناه عاقبة ترك الاحتياط فيه .

قد يقول قائل : إنّ كتب الكلام تتضمن كثيراً مما لا دليل عليه من القرآن ولا من العقل . وانما دليله السنة أي رواية الفرد . بل قد يكون دليله أحيانا النقل التاريخي المحض، مثل مسائل الخلاف بين الصحابة وبين معاوية وعلي . فهذه كلها يذكرونها في كتب الكلام على كونها عقائد . يجب التسليم بها والاذعان اليها . فكيف تقول أنت انه لا عقيدة الا ما كان دليله القرآن والعقل ؟

والجواب على ذلك أن ما يذكر في كتب الكلام عقائد في مجموعه لا في جميعه . وتسميتهم ما لا دليل عليه من القرآن والعقل عقيدة تسمية اصطلاحية أو تغليبية . أو أقول ولا أخشى لومة لائم فيما أقول انها تسمية تقليدية قلد بها المتأخرون من قبلهم من المؤلفين ومدوني الأخبار

يروى راوٍ خبراً عن عالم الغيب : الملائكة والجن والموت والقبر والبرزخ والعذاب والنشر والحشر والحساب والعقاب والصراط والجنة والنار . فينقل هذا الخبر راو آخر ثم يتداول ويشيع حتى يصل الى المؤلفين فيدونوه في كتبهم ويضيفوه الى نظائره من مسائل الحديث والكلام والتصوف والوعظ والرقائق

فهل مثل هذا الخبر عقيدة يكفر جاحدها ؟

اسئل من شئت من ذوي الفقه والفهم في الدين يقل لك انه لا يكفر منكره ما دام ظني الثبوت وما دام نقله آحاديا . اذن كيف يسمونه عقيدة . والعقيدة كما ذكرنا في صدر المقال ما تعتقده جزماً . وتشد عليه أعشار قلبك شداً ؟ كيف أشد هذا الشد والخبر خبر غيب . والرواية مظنة ريب ؟

فهمت اذا أيها القاريء اللبيب من هذا الشرح معنى كون بعض ما اشتملت عليه كتب الكلام تقليدا لا عقيدة . ولحظت أيضاً أنه يمكننا قسمة ما في هذه الكتب الى قسمين : (١) عقائد (٢) تقاليد

(القسم الاول.) دليله العقل السليم والقرآن الكريم ويكفر جاحده

و (القسم الثانى) مناطه أخبار الآحاد وشيوعه بين الناس ولا يكفر جاحده لكنه قد يكون مسيئاً

فمن لنا بمن يفرق بين هذه العقائد والتقاليد . ويميز المدرة من بين حب الحصيد .

وضع تآليف من هذا الطراز ضرورى واجب من أجل حفظ عقائدنا . وشد عرى جامعتنا . والا فان الريب اذا تطرق الى مسألة واحدة من مسائل الكلام تطرق الى جميعها رويدا رويدا . فتنحل العقائد . وتتقطع الوشائج . وتتناكر القلوب . وتتدابر الوجوه . وتصبح عاقبة أمرنا خسرا . ومصير نوابتنا الى ما لا يحمد فى الاولى والاخرى . ربما أغضب قولي الاشياخ من قومي. إذ كيف يرضيهم أن نسمى كثيرا من مسائل الكلام تقليداً يعذر الشاك فيه . ولا يعاقب يوم القيامة عليه ؟ مع ان هذه المسائل مما تلقاه المسلمون ورحبوا به منذ أجيال متطاولة ؟

أنا أرجع عن قولي أيها الاشياخ الكرام اذا كنتم ترجعون الزمن الى القرون الماضية . أيام لا علوم حديثة . ولا آراء جديدة . ولا فلسفة مادية . ولا حرية شخصية . ولا امتزاج بين الشعوب . ولا تأثير غالب على مغلوب . أما وقد حصل كل هذا . ولا يمكن التملص منه . ولا التقديم والتأخير فيه ـ فلا مندوحة لنا معشر المسلمين من تمحيص تعاليمنا . ونقد آرائنا وميز تقاليدنا . واصلاح مكتبتنا . وتقريب عقائدنا من أفهام نابتتنا

أين كنت بالامس أيها الاستاذ الغيور الذي قلما يراك الرائى الا في الازهر أو سيدنا الحسين ـ وقد اجتمعت عصابة من تلامذة المدارس العالية فى قهوة الاوبرا يتذاكرون في الشؤون الاسلامية . ويديرون الآراء في مستقبل أمرهم ومصير قومهم

لو كنت حاضر جمعهم أيها الاستاذ لما أغضبك قولي ، ولا هالك رأيي .

كنت أود لو تسمع خطيبهم يقول :

ان روح الدين الاسلامي هو القرآن والقرآن عربي بل هو في أعلى درجات العروبة . فمن لم تستحكم فيه ملكة اللغة العربية . ويستمسك من بلاغتها بالسبب الاقوى كان عاجزا عن فهم القرآن وأسراره العالية ومقاصده السامية ومن قصر في هذا الفهم كان دينه ناقصاً ، ويقينه خداجا

قال ومن دواعي الاسف أن يكون تعليم اللغة العربية على غير ما يرام سواء في ذلك المدارس الاميرية والازهر الشريف : اذ أن طريقة التعليم فيهما غير موصلة الى تحصيل ملكة اللغة والمقدرة على الكتابة والخطابة فيها

ثم قال : وعندي أننا اذا أتقنا اللغة العربية وصار لنا ذوق في فهم أساليبها وتمييز صحيح هذه الاساليب من فاسدها لم يعد يصعب علينا فهم شيء من معاني القرآن حتى الآيات المتشابهة نفسها . وصار في طاقتنا أن نفهم عقائدنا فهماً صحيحاً مستندين في هذا الفهم الى آيات القرآن وما تعطيه فى أسلوبها وبلاغتها

ليست البلاغة أن نحفظ قواعدها ونسردها عن ظهر قلب سردا . بلاغة الكلام أن يُصيب مواقعَ الوجدان من نفوس السامعين فيقودها صاغرةً الى ما يريد منها . فكيف ينتظر منا أن ننقاد الى عقائد القرآن و نقتنع بها اذا لم يكن لنا نصيب من ملكة اللغة العربية ، ولم نضرب بسهم في فهم بلاغتها ، ومختلف أساليبها ؟ لو كان لنا هذا النصيب لفهمنا كلمات القرآن وآياته حتى المتشابه منها كما كان يفهمها الصحابة رضوان الله عليهم . فقد كانوا يسمعونها من فمه (صلى الله عليه وسلم) فلا يشتبهون فيها ، ولا يسألون عنها : ذلك لأن تلك المتشابهات وردت فى أسلوب من البلاغة استعدت لفهمه نفوس السامعين فأثر فيها ، وأخذ الطريق على جماحها . فمتى تستعد نفوسنا نحن أيضا الى هذا الفهم في لغتنا ،

والتأثر بكهربائية بلاغتها ، فنصبح فاهمين عقائدنا واقفين على أسرار ديننا ؟ متى تسعى نظارة المعارف في انعاش اللغة العربية وانتشالها من هوة انحطاطها فيكون لديها من الاساتذة الا كفياء والتآليف المفيدة ما يعطي الطلاب ملكة اللغة ، ويساعدهم على فهم آي القرآن ، ويُذيق نفوسهم حلاوة الايمان ؟

هل ان الكتب المدرسية ، والاوقات المقررة ، وطرائق التعليم والاساتذة المجربين في نظير ذلك مما تستعين به نظارة المعارف في تعليم تلامذة مدارسها اللغة العربية وايداع ملكتها نفوسهم — هل كل هذا كان كافيا في الوصول الى الغرض المطلوب ؟ وهل ظهرت آثاره فى نفوس التلاميذ وخطبهم وكتاباتهم ؟

ألسنا معشر التلامذة مسلمين ، ويجب علينا أن نكون على بينة من فهم كتابنا وأمر عقائدنا ؟ اذا كانت نظارة المعارف مقصرة في تعليمنا لغتنا الى هذا الحد ، وعلماء الازهر وطلابه على ماتعلمون من العقم والتأخر فى تحصيل ملكة اللغة ، فكيف تنتظرون للامة الاسلامية صلاحا ، أو تتوقعون لها سبقا فى حلبة العمران ونجاحا ؟

ثم ان الخطيب احتمله الغضب فتكلم بكلام قبيح في أولئك الذين يقصرون في تأدية الواجب نحو أوطانهم وبني ملتهم ، ثم سكت

والاستاذ المتفقه الذي يسمع مثل هذا الكلام من طلاب العلوم العصرية يلاحظ من أول وهلة أن اللجاج فى الرد عليهم وتسفيه آرائهم يزيدهم وحشة ونُفرة . وربما أدى مع تمادى الايام الى جعلهم فرقة آبدة ، ذات صبغة فاردة . والفطن من الاشياخ يحكم بأنه يجب السعي فى تحرير العقائد ، وتمييز التقاليد ، وايداع ذلك كتباً خاصة قريبة التناول من أفهام الطلاب ونبهاء العامة كما يجب العناية ببث اللغة العربية ، وتسهيل طرائق تعليمها ، وتحصيل ملكتها فان ذلك خير معوان ، على فهم القرآن ، وشعور الكبد ببرد الايمان

فهرس

الجزء الثاني من البينات

صفحة

صفحة

فهرست الخطأ والصواب

في الجزء الثاني من البينات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	١٦	استجوبنا	استوجبنا
٨	٢١	لمجتهد	المجتهد
٨	٢٢	هليته	أهليته
٤١	١٢	بلادكم	بلادهم
٧٤	١٨	التريد	الترديد
٨٦	١٦	ميس	كيس
٩٠	١٦	وهل كان	وهل كان العرب
٩٦	١٣	تعزبها	تعزّيها
٩٩	١	لا يأني	لا يأني
٩٩	٥	الفصد	القصد
١٠٢	١٨	مولاي الحفيظ	مولاي عبد الحفيظ
١٠٤	٧	أو انغزل	أو انعزل
١٢٢	٧	سء	سيء
١٢٢	١٢	ويمازجونه	ويمازحونه
١٢٦	٢٢	ز	زيارة
١٣٦	٦	عليهما	عليها
١٤٦	٣	وإذ	وإذا
١٥١	١١	فاقعد	فاعقد
١٥٣	٦	وقطعيتّا	وقطعيّتها
١٥٧	١٠	بالبرودن	بالبرود
١٦٤	١٢	من فلسطين	في فلسطين
١٦٨	٣	فكان	فكاد
١٦٨	٢١	قدرها	قرّرها
١٦٩	١١	يتحرك	لا يتحرك
١٧١	٢١	الثالثة	التالية
١٧٣	١٨	بغذاء	بغداء
١٧٦	١٣	العمل	المعمل
١٩٥	١٤	سلمته	سآمته
١٩٩	٢	غير	غيره
٢٠٣	١٤	والخامس	أو الخامس
٢١٢	٧	بالنيلح	بالنيلج
٢١٧	٩	ويعيبونها	ويعيبون
٢٢١	٢	عن العرب	عند العرب
٢٢١	١٩	قالوا هم	كما قالوا هم
٢٤٦	١١	العثار	العثار

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٤٨	١٤	معنى الأول	معنى الأُولى
٢٤٩	١٥	المنتشرة في البروج	المنتشرة في المروج
٢٥٩	٥	عن مجادلتها	على مجادلتها
٢٥٩	٢٢	ويُسَمّين	يُسَمّين
٢٦٤	٣	الخمسة عشر	الخمس عشرة
٢٦٧	٢٠	وما كان	ومن كان
٢٧١	٧	نار	ناراً

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٨١	١٩	وانجنب	واجتنب
٢٩٠	١٨	وأطورهم	وأطوارهم
٢٩١	٢٠	ضمن	ضمنه
٢٩٦	١٦	افنص	لقنص
٣٠٠	١٤	لتزام	بالتزام
٣٠٠	١٦	كان	كاد
٣١١	١٣	والرفائق	والرقائق



كتاب
الاشتقاق والتعريب

لصاحب كتاب « البينات »

من رأي مؤلف كتاب « البينات » أن اللغات ليست بمادتها وكلماتها ، وإنما هي بأساليبها وتراكيبها . وبالمحافظة على أساليب اللغة وتراكيبها تحصل المحافظة على نفس اللغة ، أما الكلم والالفاظ فانها تتغير وتتبدل وتتجدد من عصر الى آخر . والاسلوب الخاص بلغة من اللغات هو الذي يطوّر الكلمات الدخيلة ويمثلها الى بنية لغته

وعلى هذه النظرية بنى كتابه « الاشتقاق والتعريب » الذي يبلغ نحو ١٥٠ صفحة من قطع الجاير ، ويطلب من (المكتبة السلفية) بالقاهرة وسائر المكاتب العربية وثمنه ٥ قروش

الأخلاق والواجبات

لصاحب كتاب « البينات »

هو كتاب مدرسى في « مكارم الاخلاق الاسلاميه » يستعين به الآباء والمعلمون وجميعُ المتصدّين للارشاد على تربية الطلاّب والناشئين وتكوين أخلاقهم وتقويم طباعهم . اقتصر فيه ـ من المنقول والمأثور ـ على اقتباس ماورد فى القرآن الحكيم والحديث النبوى وعلق عليهما من الشرح والتفسير ما تستدعيه الحاجة

وفي اول الكتاب مقدمة تضمنت ما يجب على الطالب معرفته من المباحث في القرآن والحديث والعلوم المتعلقة بهما

وهو تحت الطبع بالمطبعه السلفية بالقاهرة

